

آمال عظيمة

تشارلز ديكنز

- ♦ المؤلف: تشارلز ديكنز
- ♦ العنوان: آمال عظيمة
- ♦ ترجمة: نيفين بشير
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2025
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٤ / ٢٧٥٧٤

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 420 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq for Publishing & Distribution

17 Mahmoud Basiony St, 6th floor, from Tallat Harb Sq, Cairo – Egypt

Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com

١٧ شارع محمود بسيوني - الدور السادس - متفرع من ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

f afaqcairo @ afaqcairo ☒ afaqcairoblsh

تشارلز ديكنز
آمال عظيمة

ترجمة
نيفين بشير

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

The Novel Great Expectations.

by Charles Dickens

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2024

الفصل الأول

اسم عائلتي هو بيريب، واسمي بالمعمودية هو فيليب، ولم يكن لساني كطفلٍ يستطيع أن يجعل من كلا الاسمين شيئاً أطول أو أكثر وضوحاً من ييب؛ لذلك، أطلقتُ على نفسي اسم ييب، وأصبحتُ أدعى ييب.

أعلم أن بيريب هو اسم عائلة والدي، بناءً على شاهد قبره، وحسب أقوال أختي؛ السيدة جو جاريجري زوجة الحداد. نظرًا إلى أنني لم أرَ والدي أو والدتي مطلقاً، ولم أرَ أيَّ صورة لهما (لأن أيامهما كانت قبل أيام الصور الفوتوغرافية بوقتٍ طويلٍ)، فإن أولى تصوراتي عنهما كانت مستمدة بشكلٍ لا يُصدّق من شاهدي قبريهما. شكل الحروف الموجودة على شاهد والدي أعطاني فكرة غريبة أنه كان رجلاً أميناً، قوي البنية، داكن البشرة، ذا شعر أسود مجعد. من طابع النقش وشكله: «أيضاً جورجيانا زوجة المذكور أعلاه» استنتجتُ استنتاجاً طفولياً مفاده أن والدتي كانت منمشة وشاحبة. إلى جانبيهما خمسة شواهد حجرية صغيرة معينة الشكل، يبلغ طول كلّ منها نحو قدم ونصف، رُتبت في صفٍّ أنيق بجانب قبريهما، وكانت تقدس ذكرى خمسة إخوة صغار لي، الذين ماتوا، في سنٍّ صغيرة، أنا مدين للاعتقاد الذي كنت أو من به دينياً، وهو أنهم جميعاً وُلدوا وهم مستقلقون على ظهورهم وأيديهم في جيوب سراويلهم، ولم يخرجوها قطُّ في هذه الحياة.

كانت بلدتنا مليئة بالمستنقعات، تقع أسفل النهر، على مسافة عشرين ميلاً من البحر عند التفاف النهر. يبدو لي أن انطباعي الأول الأكثر وضوحاً وعمومية عن هوية الأشياء قد اكتسبته في فترة ما بعد الظهيرة الباردة التي لا تُنسى في ذلك اليوم. في مثل هذا الوقت، تأكدتُ يقيناً أن هذا المكان الموحش المليء بنبات القراص هو باحة الكنيسة؛ وأن فيليب يريب، الراحل من رعية الكنيسة، وكذلك زوجته جورجيانا، قد ماتا ودُفنا؛ وأن ألكسندر وبرثلميو وإبراهام وتوباياس وروجر، أطفالهما الرضع، ماتوا ودُفِنوا أيضاً؛ وأن تلك البرية المسطحة المظلمة خلف باحة الكنيسة، التي تتقاطع مع السدود والتلال والبوابات، حيث تتغذى الماشية المنتشرة في الأرجاء، كانت هي المستنقعات؛ وأن الخط الرصاصي المنخفض وراءه هو النهر؛ وأن المخبأ الوحشي البعيد الذي تهبُّ منه الريح هو البحر؛ وأن الطفل الصغير المرتعش الذي صار خائفاً من كل شيء وبدأ في البكاء، كان ييب.

«اصمت!» صرَّخ صوتٌ عنيفٌ، ونهض رجل من بين القبور بجانب رواق الكنيسة. «ابق ساكناً أيها الشيطان الصغير، وإلا سأقطعك إرباً!».

كان رجلاً مربعاً، يرتدي ملابس رمادية خشنة، وكتلة حديدية كبيرة على ساقه. رجلٌ بلا قبعة، وبحذاء متردٍ، وخرقة قديمة مربوطة حول رأسه. رجل مبتل تماماً، ومغمور في الوحل، وأعرجته الحجارة، وجرحه الصوان، ولسعه نبات القراص، ومزَّقه الشوك؛ كان يعرج ويرتجف، يحملق بغضبٍ ويزمجر، وقد اصطكت أسنانه وهو يمسك بذقني.

«أوه! لا تقتلني يا سيدي» توسَّلت في زعر، «أرجوك لا تفعل ذلك يا سيدي».

«أخبرني باسمك!» قال الرجل، «بسرعة!».

- بيب، يا سيدي.

«مرة أخرى،» قال الرجل وهو يحدق إلى وجهي، «ارفع صوتك!».

- بيب، بيب يا سيدي.

قال الرجل: أرني أين تسكن، أشر إلى المكان!

أشرت بإصبعي إلى المكان الذي تقع فيه قريتنا، على السهل الواقع بجوار الشاطئ بين أشجار جار الماء وأشجار مشدبة أخرى، على بُعد ميل أو أكثر من الكنيسة.

وبعد أن نظر إليَّ الرجل لحظة، قلبني رأسًا على عقب، وأفرغ جيوبي. ولم يكن فيها سوى كسرة خبز. عندما عادت الكنيسة إلى قواعدها، لأنه كان مبالغًا وقويًا جدًا إلى درجة أنه جعل الكنيسة تنقلب رأسًا على عقب أمامي، ورأيت برج الكنيسة تحت قدمي، وعندما عادت الكنيسة إلى قواعدها، أعتقد أنني كنت جالسًا على شاهد قبرٍ عالٍ، وكان الرجل يرتجف، وهو يلتهم الخبز بشراهة.

قال الرجل وهو يلحق شفثيه: أيها الكلب الصغير، لديك خدَّان سمينان. أعتقد أنهما كانا بدينين، على الرغم من أنني كنت في ذلك الوقت ضعيفًا وصغير الحجم بالنسبة إلى سني.

قال الرجل، وهو يهز رأسه تهديدًا: حذار مني أن ألتهم خديك، فأنا أستطيع ذلك إن أردت!

أعربت بجدية عن أمني في ألا يفعل ذلك، وتمسكت بقوة بشاهد القبر الذي وضعني عليه؛ جزء مني أراد منعي من الوقوع، والجزء الآخر من البكاء.

«الآن انظر إليَّ!» قال الرجل، «أين والدتك؟».

قلت: هناك يا سيدي!

خاف الرجل، وركض مسافة قصيرة، ثم توقف، ونظر من فوق كتفه.
«هناك يا سيدي!» أوضحت بخجل، «مكتوب هناك جورجانا أيضًا،
هذه والدتي».

«آه!» قال وهو عائد، «وهل هذا والدك إلى جانب والدتك؟».

قلت: نعم يا سيدي؛ هو أيضًا؛ راحل من رعية الكنيسة.
«ها!» تمتم بعد ذلك وهو يفكر، «مع مَنْ ستعيش، إذا افترضنا أنني
تكرّمت وسمحت لك بالعيش، وهو أمر لم أتخذ قرارًا بشأنه بعد؟».
- أختي، يا سيدي، السيدة جو جارجيري، زوجة جو جارجيري،
الحداد، يا سيدي.

«الحداد، فعلاً؟» قال ونظر إلى الأسفل على ساقه.

بعد أن نظر إليَّ وإلى ساقه نظرات عدة يملؤها الشر، اقترب من شاهد
القبر، وأخذني من ذراعي، وأمالني إلى الخلف بقدر استطاعته؛ حتى إن
عينيه كانتا تنظران بقوة إلى الأسفل في عيني، وعيناى تنظران إلى الأعلى
بعجزٍ شديدٍ في عينيه.

وقال: انظر إليَّ هنا، السؤال هو ما إذا كنت سأسمح لك بالعيش أم
لا، هل تعرف ما هو المبرد؟

- نعم سيدي.

- وهل تعرف ما هو الزاد؟

- نعم سيدي.

بعد كل سؤال، كان يميلني أكثر قليلاً ليعطيني إحساساً أكبر بالعجز والخطر.

«أحضر لي مبردًا» أمالني مجددًا، «وأحضر لي زادًا» أمالني مجددًا، «أحضرهما إليّ»، أمالني مجددًا، «وإلا سأنتزع قلبك وكبدك» أمالني مجددًا.

كنت خائفاً للغاية، وأصابني دوار شديد إلى درجة أنني تمسكت به بكلتا يدي، وقلت: إذا تفضّلت بالسماح لي بالاعتدال، يا سيدي، فربما لن أشعر بالدوار، وقد أتمكّن من الانتباه بقدرٍ أكبر.

قلبني رأساً على عقب، حتى صار سطح الكنيسة في أسفلها، وأمسكني من ذراعي، في وضعٍ معتدل على قمة شاهد القبر، وتابع حديثه بهذه العبارات المخيفة:

«أحضر لي، في صباح الغد الباكر، المبرد والزاد. أحضرهما إليّ، عند بطارية المدفعية القديمة هناك. افعل ذلك، ولا تجرؤ أبداً على قول كلمة واحدة أو القيام بإشارة تدل على رؤيتك لشخصٍ مثلي، أو أي شخص كان، وسأتركك تعيش. وإن فشلت، أو خالفت أوامري في أي تفصييلة مهما كانت صغيرة، سأمزق قلبك وكبدك وأشويهما وأكلهما. أنا لست وحدي، كما قد تعتقد. هناك شاب مختبئ معي، وأنا كالملاك مقارنة به. هذا الشاب يسمعنا الآن، هذا الشاب لديه طريقته الخاصة، للثأر من صبي مثلك، ومن قلبه، وكبده. من العبث أن يحاول صبي مثلك إخفاء نفسه عن ذلك الشاب. قد تغلق عليك بابك، وتدخل فراشك الدافئ، وتتدثر بالدثار، وتغطي رأسك، وتظن أنك مرتاح وآمن، ولكن هذا الشاب سوف يزحف إليك بهدوء، ويمزقك إرباً. أنا أمنع هذا الشاب من إيذائك حالياً بصعوبة بالغة. ما رأيك؟».

قلت إنني سأحضر له المبرد، وسأحضر كل ما أستطيع أن أضع يدي عليه من الطعام، وأذهب إليه عند بطارية المدفعية القديمة في الصباح الباكر.

«قل يا رب خذني إذا لم أفعل ذلك!» قال الرجل.
فقلت ذلك، وأنزلني.

تابع: الآن، تذكّر وعدك، وتذكّر ذلك الشاب، وعُد إلى المنزل!
تلعثمت قائلاً: ليلة... ليلة سعيدة يا سيدي.
«وأنت أيضًا!» قال وهو ينظر حوله فوق الأرض الباردة الرطبة.
«ليتني كنت ضفدعًا أو أنقليسًا!».

في غضون ذلك، لفَّ الرجل ذراعيه حول جسده المرتعش، وأمسك بنفسه، كأنه يحثُّ نفسه على الثبات، ثم مضى يعرج نحو جدار الكنيسة المنخفض. وبينما كنت أراه يمضي، وهو يشق طريقه بين نبات القراص، وبين العليق الذي يربط التلال الخضراء، نظر في عيني الصغيرتين كما لو كان يفلت من يدي الموتى، التي تمتد بتأنٍّ من قبورهم، لكي تلتف حول كاحله وتسحبه إليهم.

عندما وصل إلى جدار الكنيسة المنخفض، تجاوزته، كأن ساقيه مخدرتان ومتيستان، ثم استدار لبحث عني. عندما رأيته يستدير، التفتُّ نحو المنزل، وركضت بكل ما في وسعي. ولكن بعد قليل نظرت من فوق كتفي، ورأيته يتقدم مجددًا نحو النهر، ولا يزال يحتضن نفسه بكلتا ذراعيه، ويشق طريقه بقدميه المتألمتين بين الحجارة الكبيرة الملقاة في المستنقعات هنا وهناك، كمراتٍ للعبور عندما كانت الأمطار غزيرة، أو كان المد قادمًا.

عندما توقفت للنظر إلى الرجل، كانت المستنقعات قد أصبحت مجرد خط أفقي أسود طويل؛ وكان النهر مجرد خط أفقي آخر، ليس بهذا الاتساع تقريباً ولا حتى بالسواد؛ وكانت السماء مجرد صفٍّ من الخطوط الحمراء الطويلة الغاضبة والخطوط السوداء الكثيفة المتداخلة. على حافة النهر، كان في إمكاني أن أرى إلى حدٍّ ما الجسمين الأسودين الوحيدين المنتصبين في الأفق؛ كان أحدهما هو المنارة التي كان البحارة يسترشدون بها، تقف كبرميلٍ من دون طوق فوق عمود، تعطي منظرًا قبيحًا عندما تقترب منها. والآخر عبارة عن مشنقة تتدلَّى منها بعض السلاسل التي التفتت حول عنق قرصان ذات يوم. كان الرجل يعرج نحو هذا الأخير، كما لو كان القرصان يعود إلى الحياة، وينزل، ويعود ليربط نفسه من جديد. شعرت بخوفٍ شديدٍ بسبب هذه الفكرة؛ وعندما رأيت الماشية ترفع رؤوسها لتنظر إليه، تساءلت عما إذا كانت تفكر في الشيء نفسه. نظرت حولي بحثًا عن الشاب الرهيب، ولم أجد له أي أثر، لكنني شعرت بالخوف مرة أخرى، وأطلقت ساقِي للريح في اتجاه المنزل دون توقف.

الفصل الثاني

كانت أختي، السيدة جو جارجيرى، أكبر منى بأكثر من عشرين عامًا، وقد اكتسبت سمعة طيبة لنفسها وعند الجيران لأنها ربّنتني «باليد». في ذلك الوقت، كان عليّ أن أكتشف بنفسى ما يعنيه هذا التعبير، ومعرفة أن يدها قاسية وثقيلة، وأنها اعتادت ضرب زوجها وضربى أنا أيضًا، أفترض أنني أنا وجو جارجيرى قد ربّينا بيدها.

لم تكن أختى امرأة جميلة المظهر؛ وكان لديّ انطباع عام بأنها لا بد أنها جعلت جو جارجيرى يتزوجها قهراً. كان جو رجلاً وسيماً، لديه تجعيدات من الشعر الأشقر على جانبي وجهه الناعم، وعينان زرقاوان للغاية إلى درجة أنهما بدتا كأنهما اختلطتا بطريقة أو بأخرى مع بياضيهما. كان شخصاً لطيفاً، سهل المراس، حلو السمائل، متساهلاً، أحمق، ومحبوباً، وكان يشبه هرقل في القوة، وفي الضعف أيضًا.

كانت أختى، السيدة جو، ذات الشعر الأسود والعينين السوداوين، تعاني من احمرارٍ شديدٍ في الجلد إلى درجة أنني كنت أتساءل أحياناً عما إذا كانت تغسل نفسها بمبشرة جوزة الطيب بدلاً من الصابون. كانت طويلة ونحيفة، وكانت ترتدي دائماً مئزراً خشناً، ملفوفاً حول جسدها بعقدتين من الخلف، وله مريلة مربعة منيعة ملتصقة بها من الأمام، مليئة بالدبابيس والإبر. كان ارتداؤها للمئزر مصدرَ فخر لها ولومٍ قوي تجاه جو. على

الرغم من أنني لا أرى أيَّ سبب يدفعها إلى ارتدائه على الإطلاق؛ إلا أنها منذ ارتدته لم تخلعه قَطُّ طوال حياتها.

كان دكان الحدادة الخاص بجو ملاصقًا لمنزلنا، الذي كان منزلًا خشبيًا، مثل معظم المساكن في بلادنا، في ذلك الوقت. عندما عدت إلى المنزل من ساحة الكنيسة، كان دكان الحدادة مغلقًا، وكان جو جالسًا وحده في المطبخ. كوني أنا وجو زميلين في المعاناة، ونحن على عهدٍ بذلك، فقد منحني جو الثقة في اللحظة التي رفعت فيها المزلاج ونظرت إليه في الجهة المقابلة للباب، وهو جالس في الزاوية عند المدفأة.

- السيدة جو خرجت اثنتي عشرة مرة لكي تبحث عنك يا بيب. وهي بالخارج الآن، للمرة الثالثة عشرة.

- هل هي بالخارج؟

قال جو: نعم يا بيب؛ والأسوأ من ذلك أنها تحمل معها النغازة. مع هذه الأخبار الكئيبة، بتُّ ألفُ الزر الوحيد الموجود على صدرتي، ونظرت باكتئابٍ شديدٍ إلى النار. كانت النغازة عبارة عن عصا تشبه السوط طرفها مغطى بالشمع، وقد اهترأت وأصبحت ملساء بفعل اصطدامها بجسدي المدغدغ.

قال جو: لقد جلست، ثم نهضت وأمسكت بالنغازة، ثم اندفعت بقوة خارج الغرفة. قال جو وهو يُطفئ النار ببطء بين القضبان السفلية بالقضيب الحديدي، وينظر إليها: هذا ما فعلته، لقد خرجت في حالة من الهياج، يا بيب.

«هل غابت طويلًا يا جو؟» لقد عاملته دائمًا كطفلٍ كبيرٍ، كنظيرٍ لي وليس أكثر.

قال جو وهو ينظر إلى الساعة الخشبية: حسناً، آخر مرة خرجت فيها في هياج، بقيت لنحو خمس دقائق، يا بيب. إنها قادمة! اذهب خلف الباب يا عزيزي، واحتم بالمنشفة.

أخذت بنصيحته. فتحت أختي، السيدة جو، الباب على مصراعيه، ووجدت عائقاً خلفه، وتنبأت بالسبب على الفور، واستخدمت النغارة للتأكد. وانتهى بها الأمر بالقائي على جو - فكثيراً ما كانت تزج بي على جو مثل القذيفة - والذي كان سعيداً بالإمساك بي على كل حال، فمررتني تجاه المدفأة، وأحاطني هناك بساقه الهائلة في هدوء.

«أين كنت أيها القرد الصغير؟» قالت السيدة جو وهي تضرب بقدميها: «أخبرني فوراً عما كنت تفعله لترهقني بالغضب والخوف والقلق، وإلا سأخرجك من تلك الزاوية مهما بلغت قوتك أو قوة جار جيري». قلتُ من مقعدي وأنا أبكي وأفرك نفسي: لقد ذهبت إلى ساحة الكنيسة فقط.

«ساحة الكنيسة!» كررت أختي. «لولاى لكنت ذهبت إلى ساحة الكنيسة منذ فترة طويلة، وبقيت هناك، تُرى من رباك بيده؟» قلت: أنتِ فعلتِ.

«ولماذا فعلت ذلك، أود أن أعرف؟» صاحت أختي.

قلت بصوتٍ خافتٍ: لا أعرف.

«لا أعرف!» قالت أختي. «أنا لن أفعلها مرة أخرى، أنا أعرف ذلك! يمكنني أن أقول حقاً إنني لم أخلع مئزري هذا قط منذ ولادتك، لا يكفي أن أكون زوجة حداد (أي جار جيري) لكني أيضاً والدتك».

انحرفت أفكارى عن سؤالها وأنا أنظر بحزنٍ إلى النار. حيث إن الهارب الذي خرج إلى المستنقعات بساقه المثقلة بالحديد، والشاب الغامض، والمبرد، والطعام، والتعهد المروع الذي قمت به لارتكاب سرقة في هذا البيت، ظهروا جميعاً أمامي في الجمر المشتعل.

«هاه!» قالت السيدة جو وهي تعيد النغازة إلى مكانها. «ساحة الكنيسة حقاً! ربما تقولان ساحة الكنيسة، أنتما الاثنان». بالمناسبة، جو لم يقل شيئاً على الإطلاق. «سوف تقودانني إلى ساحة الكنيسة، يوماً ما، وستبقين من دوني يا عزيزي!».

وبينما كرّست نفسها لإعداد الشاي، نظر جو إليّ من فوق ساقه، كما لو كان يفكر فينا أنا وهو، وفيما قد يؤول إليه أمرنا، في ظل الظروف الأليمة التي ذُكرت. بعد ذلك، جلس يتحسّس شاربه وخصلات شعره الأشقر على الجانب الأيمن، ويتبع السيدة جو بعينه الزرقاوين، كما كان يتصرف دائماً في الأوقات العصيبة.

كان لدى أختي طريقة لاذعة في تقطيع الخبز والزبدة لنا، ولم تتغير قطُّ. أولاً، تقوم بيدها اليسرى بحشر الرغبة بقوة وبسرعة على صدريتها، حيث يدخل فيه دبوس أحياناً، وأحياناً إبرة، ندخلها بعد ذلك في أفواهنا. ثم تأخذ بعض الزبدة (ليس كثيراً) على سكين وتفرشها على الرغبة، بطريقة الصيدلي، كما لو كانت تصنع ضمادة، مستخدمة جانبي السكين بمهارة الضرب، وتشذب وتصب الزبدة حول القشرة. بعد ذلك، تمسح السكين بمسحة ذكية أخيرة على حافة الضمادة، ثم تشر قطعة مستديرة سمكة جداً من الرغبة، التي تقطعها أخيراً، قبل فصلها عن الرغبة، إلى نصفين. حصل جو على نصف منهما، وأنا على الآخر.

وفي تلك الليلة، على الرغم من أنني كنت جائعًا، فإنني لم أجرؤ على تناول شريحتي. شعرت أنه لا بد لي من الاحتفاظ بشيء ما للرجل المخيف، وحليفه الشاب الأكثر رعبًا. كنت أعرف أن إدارة السيدة جو للمنزل صارمة للغاية، وأني قد لا أجد شيئًا للسرقة في خزانة المؤن؛ لذلك قررت أن أضع قطعة الخبز والزبدة أسفل ساق بنطالي.

كان الجهد اللازم لتحقيق هذا الهدف هائلًا للغاية. كان الأمر كما لو كان عليّ أن أقرر القفز من أعلى منزل مرتفع، أو الغطس في عمق كبير من الماء. وأصبح الأمر أكثر صعوبة بسبب جو الغافل. خلال مشاركتنا الوجدانية المذكورة سلفًا كشريكين في المعاناة، وعشرته الطيبة معي، كانت عادة مسائية لنا أن نقارن طريقة تناولنا لشرائحنا، من خلال رفعهما بصمتٍ أمام أعيننا بين الحين والآخر، مما حفّزنا على الاستمرار في الأكل. هذه الليلة، دعاني جو عدة مرات، من خلال عرض شريحته المتضائلة بسرعة، للدخول في منافستنا الودية المعتادة؛ لكنه كان يجدني، في كل مرة، مع كوب الشاي الأصفر على إحدى ركبتي، والخبز والزبدة التي لم أمسهما على الركبة الأخرى. أخيرًا، فكرت بيأسٍ في أن الشيء الذي قدّرتّه يجب أن يتم، وأنه من الأفضل القيام به بأقل طريقة محتملة وفقًا للظروف. استفدت من اللحظة التي كان فيها جو قد نظر إليّ للتو، ووضعت الخبز والزبدة أسفل ساقِي.

من الواضح أن جو كان يشعر بعدم الارتياح بسبب ما افترض أنه فقدان شهيتي، وأخذ قضمة متمهلة من شريحته، التي يبدو أنه لم يستمتع بها. كان يقلبها في فمه فترة أطول بكثير من المعتاد، ويفكر فيها كثيرًا، وفي نهاية المطاف يتلعها مثل حبة الدواء. كان على وشك تناول قضمة

أخرى، وكان قد مال برأسه للتوّ ليقطعها جيداً، عندما وقعت عينه عليّ، ورأى أن الخبز والزبدة قد اختفيا.

حينها توقف جو عند مستهل قضمته وحقق إليّ، كانت دهشته وذعره واضحين جدّاً إلى درجة أنه لم يفلت من ملاحظة أختي.

«ما الأمر الآن؟» قالت بدهاءٍ وهي تضع كوبها جانباً.

«أقول، كما تعلم!» تتمم جو، وهو يهز رأسه في وجهي في احتجاج جدي للغاية. «عزيزي بيب! ستسبّب لنفسك الأذى، سوف تلتصق في مكان ما، لا يمكنك مضغها يا بيب».

«ما الأمر الآن؟» كررت أختي، بحدة أكبر من ذي قبل.

قال جو مذعوراً: إذا كنت تستطيع أن تبصق أيّاً منها يا بيب، فأنا أنصحك بذلك. الأخلاق الحميدة شيء والصحة شيء آخر.

بحلول هذا الوقت، كانت أختي في حالة استماتة، فانقضّت على جو، وأمسكت به من شاربِيه، وضربت رأسه لبعض الوقت بالحائط خلفه، بينما كنت جالساً في الزاوية، أنظر إليه وأنا أشعر بالذنب.

قالت أختي وهي لاهثة: الآن، ربما ستذكر ما الأمر، أيها الخنزير العالق المحقق الكبير.

نظر جو إليها بطريقة عاجزة، ثم أخذ قضمة عاجزة، ونظر إليّ مرة أخرى.

«كما تعلم يا بيب» قال جو بجدية، وقضمته الأخيرة في خده، وتحدث بصوتٍ حميمي، كما لو كنا وحدنا تماماً، «طالما كنا أنا وأنت صديقين، وسأظل آخر شخص يشي بك، ولكن هذا...» حرك كرسيه،

ونظر حول الأرض بيننا، ثم في وجهي مرة أخرى: «إن التهام طعامك هكذا غير عادي بالمرّة!».

«لقد التهم طعامه، أليس كذلك؟» صرخت أختي.

قال جو، وهو ينظر إليّ، وليس إلى السيدة جو، وقضمته لا تزال في خده: تعرف يا صديقي، لقد التهمت طعامي عندما كنت في مثل سنك - بشكل متكرر - وكصبي كنت من بين العديد من ملتهمي الطعام؛ ولكني لم أرك تلتهم طعامك هكذا من قبل يا بيب، من الرأفة أنه لم يقتلك.

هاجمتني أختي، وجذبتني من شعري، ولم تقل شيئاً أكثر من الكلمات الفظيعة: تعال معي لتتناول جرعتك.

أحد الأطباء عديمي الرحمة كان قد أعاد إحياء ماء القطران في تلك الأيام كدواءٍ فعال، واحتفظت السيدة جو دائماً بكمية منه في الخزانة؛ وتعتقد بفوائده التي تتوافق مع قذارته. في أفضل أوقاتي، كنت أُعطى الكثير من هذا الأكسير كمنشط، إلى درجة أنني كنت أشعر بتجولي ورائحتي مثل السياج الجديد. في هذا المساء بالذات، تطلبت حالتني المُلححة نصف لتر من هذا الخليط، الذي سُكب في حلقي، من أجل راحتي، بينما كانت السيدة جو تضع رأسي تحت ذراعها، كحذاءٍ مثبت في مخلعته. تناول جو كوباً واحداً، ولكنه أجبر على ابتلاعه (مما أزعجه كثيراً، حيث جلس ببطء يعضغ ويتأمل أمام النار)، «لأنه كان يشعر بالخوف» في رأيي، يمكنني القول إنه بالتأكيد شعر بالخوف في ذلك الوقت، إن لم يكن من قبل.

إن الضمير شيء فظيع عندما يؤرق شخصاً ما، رجلاً كان أو صبيّاً؛ ولكن في حالة الصبي، عندما يتآزر حمله السري مع حمل سري آخر

أسفل ساق بنطاله، فإن ذلك (حسب خبرتي) يكون عقاباً عظيماً. شعوري بالذنب لسرقة السيدة جو - لم أفكر قط أنني كنت كذلك سأسرق جو، لأنني لم أر أن أيًا من ممتلكات التدبير المنزلي ملك له - إلى جانب ضرورة إبقاء يد واحدة دائماً على الخبز والزبدة في أثناء جلوسي، أو عندما يطلب مني الذهاب إلى المطبخ في أي مهمة صغيرة، معاً دفعاني إلى حافة الجنون. بعد ذلك، بينما ازدادت رياح المستنقعات وجعلت النار تتوهج وتشتعل، ظننت أنني سمعت صوتاً في الخارج، للرجل ذي الحديد على ساقه، الذي أقسمت له بالسرية، معلناً أنه لن يموت جوعاً حتى الغد، لكن يجب إطعامه الآن. ثم فكرت، ماذا لو أن الشاب، الذي منعه من غرس يديه في داخلي بصعوبة شديدة، استسلم لنفاد الصبر الغريزي، أو أخطأ في الوقت، واعتقد أنه مرخص له الحصول على قلبي وكبدي الليلة بدلاً من الغد! إذا وقف شعر أي شخصٍ منتصباً من الرعب، فلا بد أن هذا ما حدث لي في تلك اللحظة، ولكن ربما لم يختبر أحد ذلك من قبل؟

كانت عشية عيد الميلاد، وكان عليّ أن أحرك البودنج^(١) لليوم التالي، بعضاً نحاسية، من السابعة إلى الثامنة مساءً حسب الساعة الخشبية. جرّبه مع الحمل الموجود على ساقي (وهذا جعلني أفكر من جديد في الرجل ذي الحمل على ساقه)، ووجدت أن محاولتي للقيام ببعض التمارين لإخراج الخبز والزبدة من كاحلي كانت هوجاء، ومن حسن الحظ تمكّنت من التسلل بعيداً، لأودع حملي السري في غرفة نومي.

(١) بودنج عيد الميلاد في ذلك الوقت كان قد تحوّل من كونه يحتوي على اللحم أو الخضراوات إلى الفواكه المجففة، وكان يُغلى في قماش مخصوص ويُخلط مع الكحول، ويُقلّب على النار لعدة أيام قبل عيد الميلاد. المترجم.

«أصغ!» قلت، عندما انتهيت من التحريك، وأخذت أشعر بالدفء أخيرًا في الزاوية بجوار المدفأة قبل إرسالتي إلى الفراش؛ «هل كان ذلك صوت إطلاق نار يا جو؟».

«آه!» قال جو. «لقد فرَّ مُدان آخر».

سألت: ماذا يعني ذلك يا جو؟

السيدة جو، التي كانت دائمًا تأخذ تفسير الأمور على عاتقها، قالت بغضبٍ: «لقد هرب، هرب.» وكان توضيحها به حدة مثل إعطائها ماء القطران لي.

بينما كانت السيدة جو تجلس ورأسها منحني فوق تطريزها، تمكّنت من تكوين الكلمات في هيئة سؤال لجو: «ما المُدان؟» أجاب جو إجابة معقدة للغاية، إلى درجة أنني لم أستطع أن أفهم منها سوى كلمة واحدة «بيب».

قال جو بصوت عالٍ: كان هناك هروب في الليلة الماضية بعد غروب الشمس، وأطلقوا تحذيرًا، والآن يبدو أنهم يطلقون تحذيرًا آخر.

سألت: من يطلق المدافع؟

تدخلت أختي وهي عابسة في وجهي من فوق عملها: هذا الصبي، ياله من سائل، لا تطرح الأسئلة، كي لا تُتلى عليك الأكاذيب.

اعتقدت أنه ليس من التهذيب منها أن تلمّح إلى أنها يجب أن تكذب عليّ لو طرحت أسئلة، لكنها لم تكن مهذبة قط ما لم تكن معنا صعبة.

عند هذه النقطة، زاد جو من فضولي كثيرًا عندما جاهد لفتح فمه على نطاقٍ واسع، وأومأ من دون صوت بكلماتٍ بدت لي مثل «مدن الجن» لذلك، أشرت بشكلٍ طبيعي إلى السيدة جو، وسألت: «هي؟» لكن جو

بدا كأنه لم يسمعي على الإطلاق، ومرة أخرى فتح فمه على نطاقٍ واسعٍ للغاية، وأوماً من دون صوتٍ بكلماتٍ ما في تعاطفٍ شديد؛ لكنني لم أستطع أن أفهم شيئاً منها.

«السيدة جو» قلتُ، كحلٍّ أخير، «أود أن أعرف -إذا لم يكن لديك مانع- من أين يأتي صوت المدافع؟».

«يا رب بارك هذا الصبي!» هتفت أختي، كما لو أنها تعني عكس كلامها في الحقيقة: من سفن السجن!

«آه!» قلت وأنا أنظر إلى جو: «سفن السجن!».

أطلق جو سعالاً توبيخياً، كأنه يقول: حسناً، لقد أخبرتك بذلك.

سألت: ما هي سفن السجن، من فضلك؟

«هذه هي الطريقة مع هذا الصبي!» صرخت أختي، وهي تشير إليّ بإبرتها وخيطها، وتهز رأسها في وجهي. «أجب عن سؤالٍ واحدٍ، وسيطرح عليك عشرات الأسئلة على الفور. إن سفن السجن عبارة عن سفن مليئة بالمساجين، موجودة على الجانب الآخر من التقاطعات». هذا ما كنا نطلقه على المستنقعات في قريتنا.

قلتُ بشكلٍ عام واستسلام: أتساءل من الذين وُضِعوا في سفن السجن، ولماذا وُضِعوا هناك؟

لقد كان الأمر كثيراً بالنسبة إلى السيدة جو، التي نهضت على الفور. قالت: أقول لك شيئاً أيها الشاب، لم أقم بتربيتك باليد لتزعج الناس، سيكون ذلك لوماً لي وليس مدحاً لو فعلت ذلك. يُوضَع الناس في سفن السجن لأنهم يقتلون، ويسرقون، ويزوِّرون، ويفعلون كل أنواع الأشياء السيئة؛ ودائماً ما يبدوون بطرح الأسئلة. الآن، اذهب إلى الفراش!

لم يُسمح لي مطلقاً بإضاءة شمعة في طريقي إلى فراشي، وبينما كنت أصعد إلى الطابق العلوي في الظلام، وكان رأسي متوخز من كشتبان السيدة جو حيث كانت تنقر به كأنها تضرب الدف وهي تقول كلماتها الأخيرة. كان لديّ إدراك مخيف أن سفن السجن ستكون ملائمة لي قريباً؛ من الواضح أنني كنت في طريقي إلى هناك؛ لقد بدأت بطرح الأسئلة، وكنت سأسرق السيدة جو.

منذ ذلك الوقت، وهو بعيد بما فيه الكفاية الآن، اعتقدت في كثير من الأحيان أن قلة من الناس يعرفون مدى كتمان الشباب تحت الترويع. مهما كان الترويع غير معقول، فهو ما زال ترويعاً. كنت في حالة ذعر مميت من الشاب الذي أراد قلبي وكبدي، ومن مُحدثي ذي الساق الحديدية، ومن نفسي التي انتزع وعد فظيع منها. لم يكن ليأتينني الخلاص على يد أختي الجبارة، التي كانت تصدّني عند كل منعطف؛ أخشى أن أفكر فيما كان من الممكن أن أفعله مدفوعاً بالحاجة، وذعري طي الكتمان هكذا.

إذا كنت قد نمت ولو لحظة تلك الليلة، كان ذلك فقط لأتخيل نفسي منجرّفاً إلى أسفل النهر وسط مدّ قوي، إلى سفن السجن حيث يناديني شبح قرصان عبر بوق ناطق، في أثناء مروري بالمشنقة، قائلاً إنه من الأفضل أن آتي إلى الشاطئ، وأن أُشنق هناك على الفور، وألا أؤجل الأمر. كنت أخشى النوم، حتى لو كنت ميّالاً إليه، لأنني كنت أعرف أنه مع أول بزوغ لضوء الصباح الخافت يجب أن أسرق مخزن المؤن. لم أكن لأقوم بذلك ليلاً، لأن أعواد الكبريت لم تكن متاحة في ذلك الوقت؛ ولكي أحصل على ضوء، كان لا بد أن أضرب على الصلب والصوان، وأُحدث ضجيجاً مثل صليل سلاسل القرصان نفسه.

بمجرد أن تحوّل البساط المخملي الأسود الكبير الموجود خارج نافذتي الصغيرة إلى اللون الرمادي، نهضت ونزلت إلى الطابق السفلي؛ كل لوح خشبي في الطريق، وكل طقطقة تناديني: «قف أيُّها اللص!» و«استيقظي يا سيدة جو!». في المخزن، الذي كان مزودًا بوفرة أكبر بكثير من المعتاد، بسبب موسم عيد الميلاد، أفزعني أرنبٌ معلقٌ من كعبيه، اعتقدت أنه يغمز لي، عندما كنتُ شبه ملتفتًا إليه. لم يكن لديّ وقت للتحقق، ولا الاختيار، ولا أي شيء، لأنه لم يكن لديّ وقت لأُضيعه. سرقت بعض الخبز، وطبقة من الجبن، ونحو نصف وعاء من اللحم المفروم (ربطتهم في منديل الجيب الخاص بي مع شريحة الليلة الماضية)، وبعض البراندي من قنينة حجرية (التي سكبتها في زجاجة كنت استخدمها سرًّا في صنع شراب عرق السوس المُسكر في غرفتي: مخفّفًا القنينة الحجرية بوعاء من الماء من خزانة المطبخ)، وعظمة لحم مع القليل جدًّا من اللحم فوقها، وفطيرة جميلة مستديرة ومضغوطة من لحم الخنزير. كنت على وشك الرحيل دون الفطيرة، لكنني شعرت بالرغبة في تسلُّق أحد الرفوف لأرى ما الذي وُضع بعناية شديدة في طبق خزفي مغطى في الزاوية، ووجدتها.. الفطيرة؛ أخذتها على أمل ألا تكون مخصصة للاستخدام المبكر، فلا يلاحظوا أنها مفقودة لبعض الوقت.

كان هناك باب في المطبخ متصل بدكان الحدادة. حررت القفل وفتحت الباب، وأخذت مبردًا من بين أدوات جو. ثم وضعت المزليج مثلما وجدتها، وفتحت الباب الذي دخلت منه عندما عدت إلى المنزل الليلة الماضية، وأغلقتة، وركضت نحو المستنقعات الضبابية.

الفصل الثالث

كان صباحًا رطبًا للغاية ومغطى بالصقيع. رأيت الرطوبة منتشرة على الجزء الخارجي من نافذتي الصغيرة، كما لو أن عفريتًا كان يبكي هناك طوال الليل، ويستخدم النافذة كمحرمة. الآن، رأيت الرطوبة تغطي الأسيجة العارية والعشب الهزيل، كأنها شبكة أكثر غلاظة من شباك العناكب؛ تتدلى من غصن إلى غصن، ومن سياج إلى سياج. على كل حاجز وبوابة، كانت الرطوبة دبقة، وكان ضباب المستنقعات كثيفًا جدًا، إلى درجة أن اللافتة الخشبية الموجودة على العمود الذي يوجه الناس إلى قريتنا - وهو الاتجاه الذي لم يأخذه بما أنهم لم يأتوا إلى هنا قط - كانت غير مرئية بالنسبة إليّ حتى وصلت تحتها تقريبًا. ثم، عندما نظرت إليها، بينما كانت قطرات الماء تتساقط منها، بدا لضميري المعذب كأنها شبح يحكم عليّ بالذهاب إلى سفن السجن.

كان الضباب أثقل عندما خرجت إلى المستنقعات، لذا بدلًا من أن أركض في الأرجاء، بدا كل شيء كأنه يركض نحوي؛ كان هذا مزعجًا للغاية بالنسبة إلى العقل المذنب. انفجرت البوابات والسدود والصفاف في وجهي عبر الضباب، كما لو كانوا يصرخون بمنتهى الوضوح: «الصبي سارق فطيرة لحم الخنزير! أوقفوه!» فجأة، لحقت بي الماشية، وهي غاضبة وتحرق إليّ بشدة كأنها تقول «أهلاً باللص الشاب!» كان

هناك ثور أسود، بدا كأنه يرتدي ربطة عنق بيضاء، مما أعطى ضميري
الناثر الإيحاء بأنه كاتب عدل، حيث ثبتني بعنادٍ بعينه، وحرك رأسه الحاد
بطريقة اتهامية في أثناء تجولي، إلى درجة أنني صرخت في وجهه: «لم
أستطع أن أمنع نفسي يا سيدي! ما أخذته لم يكن من أجلي!» عندها أنزل
رأسه، ونفث سحابة من الدخان من أنفه، واختفى مع ركلة من قائمته
الخلفيتين وهز ذيله.

طوال هذا الوقت، كنت أتجه نحو النهر؛ ولكن مهما كانت سرعتي،
لم أستطع تدفئة قدمي، حيث بدا البرد الرطب كأنه عالق بهما، كما الحديد
على ساق الرجل الذي كنت أركض لمقابلته. كنت أعرف طريقي إلى
بطارية المدفعية بوضوح، لأنني ذهبت مع جو إلى هناك في يوم من أيام
الآحاد، وأخبرني، وهو يجلس على مدفع قديم، أنه عندما أصبح تلميذه
في الحداثة، بشكل رسمي، سنقضي أسعد الأوقات هناك! ومع ذلك،
وسط تشويش الضباب، وجدت نفسي بعيدًا جدًا تجاه اليمين، وبالتالي
كان عليّ أن أحاول العودة إلى جانب النهر، على ضفة الحجارة المتشرة
فوق الطين والأعمدة التي أبقت المد بعيدًا. في طريقي لإنجاز مهمتي هنا،
كنت قد عبرت للتوّ خندقًا كنت أعلم أنه قريب جدًا من بطارية المدفعية،
وكنت قد تسلقت للتو التل خلف الخندق، عندما رأيت الرجل يجلس
أمامي. كان ظهره نحوي، وذراعه مطويتان، ويومئ برأسه إلى الأمام،
مثقلًا بالنوم.

اعتقدت أنه سيكون أكثر سعادة إذا نزلت عليه بإفطاره بغتة، لذلك
تقدمت بهدوء ولمست كتفه. قفز على الفور، ولم يكن هو نفس الرجل،
بل رجلٌ آخر!

ومع ذلك، كان هذا الرجل يرتدي ملابس رمادية خشنة أيضًا، وكان يحمل حديدًا كبيرًا على ساقه، وكان أعرج، وأجش، وباردًا، مثله مثل الرجل الآخر تمامًا؛ باستثناء وجهه، وكان يرتدي قبعة عريضة الحواف ذات قمة منخفضة. كل هذا رأيته في لحظة، لأنه لم يكن لديّ سوى لحظة لرؤيته: لقد سبّني، ووجّه إليّ لكمة دائرية ضعيفة أخطأتني لكنها جعلته يتعثر وكادت تُسقطه أرضًا، عندئذٍ اتجه نحو الضباب، وتعثر مرتين في أثناء سيره، ثم فقدته بعدها.

«إنه الشاب!» فكرت، وشعرت بقلبي يتسارع عندما تعرّفت عليه. أعتقد إنني كنت سأشعر بالمل في كبدي أيضًا، لو كنت أعرف مكانه.

سرعان ما وصلت عند بطارية المدفعية، ووجدت الرجل المناسب -يعانق نفسه ويعرج ذهابًا وإيابًا، كما لو أنه لم يتوقف طوال الليل عن العناق والعرج- ينتظرني. كان يشعر بالبرد الشديد بالتأكيد. كنت أتوقع إلى حدٍّ ما أن أراه يسقط أمامي ويموت من البرد القاتل. بدت عيناه جائعتين للغاية أيضًا، إلى درجة أنه عندما سلّمته المبرد ووضعه على العشب، خطر لي أنه كان سيحاول أن يأكله، لو لم يرَ حزمتي. لم يقلبني رأسًا على عقب هذه المرة للحصول على ما أملك، بل تركني معتدلًا بينما كنت أفتح الصرة وأفرغ جيوبي.

قال: ماذا يوجد في الزجاجاة يا فتى؟ قلت: براندي.

كان قد بدأ بالفعل بحشر اللحم المفروم في حلقة بطريقة مشيرة غريبة، أشبه برجلٍ كان يحفظه بعيدًا في مكان ما في عجلة من أمره، بدلًا من أكله، لكنه توقف ليأخذ بعضًا من الخمر. كان يرتجف طوال الوقت

بعنفٍ شديدٍ، إلى درجة أنه كان يبذل قصارى جهده للحفاظ على عنق الزجاجة بين أسنانه، دون أن يعرضها.

قلت: أعتقد أنك مصاب بالحمى.

قال: أنا أؤيد رأيك بشدة يا فتى.

قلت له: الوضع سيئ هنا، لقد كنت مستلقيًا على الصخور في المستنقعات، وهو لعذاب شديد، وقد يجلب لك الروماتيزم أيضًا.

قال: سأتناول فطوري قبل أن تتسبب المستنقعات في قتلي. سأفعل ذلك، ولو كنت سأعلق على تلك المشنقة هناك، بعد ذلك مباشرة، أراهنك أنني سأغلب على رعشاتي الآن.

كان يلتهم اللحم المفروم، وعظم اللحم، والخبز، والجبن، وفطيرة لحم الخنزير، كلها مرة واحدة: يحدق بارتياحٍ بينما يفعل ذلك في الضباب المحيط بنا، وكثيرًا ما يتوقف -بل ويتوقف عن المضغ- لينصت. صوت حقيقي أو خيالي، صوت خشخشة على النهر أو أنفاس وحش على المستنقع، جعله يقفز، ويقول فجأة:

- أنت لست عفريتًا مخادعًا؟ ألم تحضر معك أحدًا؟

- لا يا سيدي! لا!

- ولم تعطِ أحدًا الإشارة ليتبعك؟

- لا!

قال: حسنًا، أنا أصدقك. لن تكون سوى كلب صيد قاسٍ حقًا، إذا كان في إمكانك في حياتك أن تساعد على اصطياد حيوان ضالٍ بأشئ على وشك الموت والوقوع في كومة من الروث مثلي!

نقر شيء ما في حلقه كما لو كان يعمل داخله مثل ساعة على وشك أن تدق. ومسح عينيه بكمه المتهرئ الخشن.

أشفقت على يأسه، وراقبته وهو يستقر تدريجياً على الفطيرة، تجرأت على القول: أنا سعيد لأنك تستمتع بها.

- هل تحدثت؟

- قلت إنني سعيد لأنك استمتعت به.

- شكرًا يا ولدي، أنا أفعل.

كنت أشاهد في كثير من الأحيان كلبنا الكبير وهو يأكل طعامه؛ وقد لاحظت الآن تشابهاً واضحاً بين طريقة أكل الكلب وطريقة أكل الرجل. أخذ الرجل قضمات مفاجئة قوية وحادة، تمامًا مثل الكلب. كان يتلع، أو بالأحرى، يتهاف على كل لقمة، بسرعة شديدة وقبل الأوان؛ وينظر شزراً هنا وهناك بينما كان يأكل، كأنه يخاف أن يأتي شخص من أي اتجاه ليأخذ الفطيرة بعيداً. لقد كان ذهنه مضطرباً للغاية بشأن هذا الأمر، إلى درجة أنه لم يهنأ بالفطيرة على ما اعتقد، لأنه إذا جاء أي شخص لتناول الغداء معه، كان سيقطع فكيه على الأغلب، وفي كل هذه التفاصيل كان يشبه الكلب إلى حد كبير.

قلت بخوفٍ: «أخشى أنك لن تترك له أيّاً منها» بعد صمتٍ ترددت خلاله فيما يتعلق بأدب إبداء هذه الملاحظة. «لم يعد هناك المزيد من حيث جاء ذلك الطعام.» وكان يقيني بهذه الحقيقة هو الذي دفعني إلى التلميح.

«أترك له أي شيء؟ من هو؟» قال صديقي وهو يتوقف عن طحن عجينة الفطيرة.

- الشاب. الذي تحدثت عنه، والذي كان مختبئاً معك.

«آه آه!» أجاب بما يشبه الضحكة الخشنة: «له؟ نعم نعم! إنه لا يريد
أيّاً من هذا الطعام البسيط».

قلت: لم يبدو عليه ذلك.

توقف الرجل عن الأكل، ونظر إليّ نظرة ثاقبة ودهشة كبرى.

- يبدو؟ متى؟

- الآن.

- أين؟

قلت وأنا أشير: هناك، هناك، حيث وجدته يومئ برأسه نائماً،
واعتقدت أنه أنت.

أمسك بي من يافتي، وحدّق إلى وجهي إلى درجة أنني بدأت أعتقد
أن فكرة ذبحي قد تراءت له مرة أخرى.

شرحت له وأنا أرتجف: «كان يرتدي مثلك، لكنه بقبعة و... و»
- كنت حريضاً جداً على صياغة هذا بدقة - «ولديه نفس السبب لاستعارة
مبرد، ألم تسمع صوت إطلاق النار الليلة الماضية؟»
«إذن فقد كان هناك إطلاق نار!» قال لنفسه.

قلت: أتعجب لأنك لست متأكداً من ذلك، فقد سمعناه في المنزل،
وهو مكان أبعد، وكنا معتكفين في الداخل.

قال: «عليك أن تفهم! عندما يكون رجل مثلي وحده في هذه
المسطحات، مشوش الذهن ومعدته فارغة، ويموت من البرد والحرمان،
فإنه لا يسمع شيئاً طوال الليل، سوى إطلاق النار من البنادق، والأصوات

التي تناديه. أسمع؟ يرى الجنود يقتربون منه، بمعاطفهم الحمراء المضاءة بالمصابيح التي يحملونها. يسمع نداء رقمه، ويسمع المطالبة به، ويسمع صلصلة البنادق، ويسمع الأوامر «استعد! تقدّم! حاصروه بثباتٍ أيها الرجال! لقد أمسكناه»، ولا يوجد شيء! لم أرَ مجموعة واحدة تطاردني الليلة الماضية بل رأيت مائة؛ يتقدمون بنظام، اللعنة عليهم، بصوت أقدامهم المتكررة. وأما إطلاق النار! فأنا أرى الضباب يهتز من المدفع، في وضوح النهار، ولكن هذا الرجل...؛ تكلم كأنه نسي وجودي؛ «هل لاحظت أي شيء فيه؟».

قلت: «كان وجهه مصابًا بكدمات شديدة»، متذكرًا ما لم أكن أعلم أنني أعرفه.

«هنا؟» صاح الرجل وهو يلطم بكفه على خده الأيسر بعنف.

- نعم هناك!

«أين هو؟» حشر ما بقي من طعام في صدر سترته الرمادية. «أرني الطريق الذي ذهب إليه. سوف أفتك به، مثل كلب الصيد. اللعنة على هذا الحديد الذي على ساقي المتألّمة! أعطني المبرد يا فتى».

أشرت إلى الاتجاه الذي غطّى فيه الضباب الرجل الآخر، ونظر إليه لحظة. لكنه كان جالسًا على العشب المبلل، وهو يبرد الحديد كالمجنون، دون أن يبالي بي أو بساقه المتهيجّة، التي كانت تنزف دمًا، لكنه كان يتعامل معها بخشونة كأنها، مثلها مثل المبرد، لم يكن بها أي إحساس. كنت خائفًا جدًّا منه مرة أخرى، بعد أن أجهد نفسه في هذه العجلة المفرطة، وكنت أيضًا خائفًا جدًّا من الابتعاد عن المنزل لفترة أطول. أخبرته أنني يجب أن أذهب، لكنه لم يتبّه، لذلك اعتقدت أن أفضل شيء يمكنني فعله

هو الذهاب خلصة. آخر ما رأيته منه، كان رأسه منحنيًا فوق ركبته، وكان يعمل بجهدٍ على فك قيده، ويتمتم بنفاد صبرٍ بثتائم عليه وعلى ساقه. آخر ما سمعت منه، توقفت في الضباب لأنصت، وكان المبرد لا يزال مستمرًا.

الفصل الرابع

توقعت تمامًا أن أجد شرطياً في المطبخ، ينتظر كي يأخذني بعيداً، لكن الأمر لم يقتصر على عدم وجود شرطي هناك فحسب، بل إن عملية السرقة لم تكن قد اكتُشفت بعد. كانت السيدة جو مشغولة بشكلٍ استثنائي بتجهيز المنزل لاحتفالات ذلك اليوم، وأُجبر جو على الجلوس عند عتبة المطبخ لإبعاده عن الجاروف، الذي كان مصيره سيقوده إليه عاجلاً أم آجلاً، عندما تقوم أختي لاحقاً بتنظيف أراضيها مطبخها بنشاط.

«وأيّن كنتَ بحق الشيطان؟» كانت هذه تحية السيدة جو في عيد الميلاد، عندما ظهرتُ أمامها أنا وضميري.

قلت إنني نزلت لسماع تراتيل عيد الميلاد. «آه! حسناً!» تابعت السيدة جو «ربما فعلت ما هو أسوأ»، وقد فعلت بالتأكيد.

قالت السيدة جو: ربما لو لم أكن زوجة الحداد، و(على غرار ذلك) العبد الذي لا يخلع مئزره أبداً، كنت ذهبت لسماع تراتيل عيد الميلاد؛ أنا مولعة بها، فمن الأفضل عدم سماعي لها على الإطلاق.

جو، الذي غامر بالدخول إلى المطبخ من بعدي بعد أن انزاح الجاروف من أمامنا، وضع الجزء الخلفي من يده على أنفه كحركة اعتذار، عندما ألقت السيدة جو نظرة عليه، وعندما حوّلت نظرها، شبَّك إصبعيه سرّاً على شكل صليب، وأظهرهما لي، كدليلٍ على أن السيدة

جو كانت في مزاجٍ متقلب. كانت هذه هي حالتها الطبيعية إلى حدٍّ كبير، إلى درجة أنني وجو ظللنا نشبك أصابعنا طيلة أسابيع، وصرنا نبدو مثل فرسان الحملات الصليبية الذين ماتوا مشبكين أرجلهم^(١).

كان من المنتظر أن نتناول غداءً فخماً، يتكوّن من ساق لحم الخنزير المخلل والخضراوات، وزوج من الدجاج المشوي والمحشي. أُعدَّت فطيرة اللحم المفروم الرائعة صباح أمس (وبالتالي لن يتساءل أحد عن اللحم المفروم المفقود)، وكان البودنج قد بدأ في الغليان بالفعل. تسببت هذه الترتيبات المكثفة في انقطاعنا عن الإفطار بشكلٍ غير معلن؛ حيث قالت السيدة جو: أنا لن أسمح، أكرر، لن أسمح بإفطار تقليدي مليء بالحشو والنزاع والاعتسال الآن، مع كل ما لديّ من مهام، أؤكد لكم ذلك! لذا، فقد قُدمت لنا شرائحنا، كما لو كنّا ألفي جندي في مسيرة إجبارية بدلاً من رجلٍ وصبي في المنزل؛ وتناولنا جرعاتٍ من الحليب والماء، بملامح اعتذار، من إبريق على الخزانة. في هذه الأثناء، قامت السيدة جو بتركيب ستائر بيضاء نظيفة، ووضعت كشكشات مزهرة جديدة عبر المدفأة الواسعة لتحل محل القديمة، وكشفت عن حجرة الجلوس الصغيرة عبر الممر، التي لم يُكشَف عنها مطلقاً في أي وقت آخر، حيث يمر عليها بقية العام وهي في غيمة باردة من الورق المفضض، الذي امتد حتى إلى الأربعة كلاب البودل البيضاء الخزفية الصغيرة الموضوعة على رف المدفأة، ولكل منها خطم أسود وسلّة من الزهور في فمها، وتشبه بعضها تمامًا. كانت السيدة جو مدبرة منزل نظيفة جداً، لكنها كانت تتمتع بحرفية رائعة في جعل نظافتها غير مريحة وغير مقبولة أكثر من الأوساخ

(١) كناية عن ثباتهم على دينهم. المترجم.

نفسها. إن النظافة من الإيمان، وبعض الناس يتبعون في حياتهم نفس النهج الذي يتبعونه في إيمانهم.

كان لدى أختي الكثير لتفعله، وكانت تذهب إلى الكنيسة بالإنازة، أي إنني وجو كنا نذهب عنها. في ملابس العمل، كان جو حدادًا قوي البنية وذا مظهر مميز؛ في ملابس العطلة، كان في أحسن الظروف أشبه بالفزاعة أكثر من أي شيء آخر. لم يناسبه أي شيء يرتديه أو يبدو أنه يخصه؛ وكل ما كان يرتديه كان يسبب له الحكة. بمناسبة هذا الاحتفال، خرج من غرفته، عندما كانت أجراس الفرح تدق، في بؤس تام، مرتديًا حلة كاملة بدت كأنها تكفير لذنوبه في يوم من أيام الأحاد. بالنسبة إليّ، أعتقد أن أختي كانت لديها فكرة عامة بأنني كنت مجرمًا شابًا سلّمني لها ممرض التوليد التابع للشرطة (في يوم ميلادي)، كي تتعامل معي وفقًا لجلالة القانون الغاضب. عاملتني دومًا كأنني أصررت على أن أُولد ضد قواعد العقل والدين والأخلاق، وضد أقوى الحجج من أصدقائي المقربين. حتى عندما اصطُحِب للحصول على حلة جديدة، كان الخياط يأمر بجعلها أشبه بملابس الإصلاحية الضيقة، دون السماح لي باستخدام أطرافي بحرية على الإطلاق.

لذا فإن ذهابنا أنا وجو إلى الكنيسة كان بمنزلة مشهد مؤثر لذوي القلوب الرحيمة. ومع ذلك، فإن ما عانيته في الخارج لم يكن شيئًا مقارنة بما عانيته في الداخل. إن الرعب الذي كان يتتابني كلما اقتربت السيدة جو من مخزن المؤن، أو حتى خرجت من الغرفة، لم يكن يعادله سوى الندم الذي أغرق ذهني على ما فعلته يداي. تحت وطأة سري الشرير، فكرت فيما إذا كانت الكنيسة بالقوة الكافية كي تقيني من قصاص الشاب

الرهيب، إذا أفشيت سري إليها. لقد تصورت أن رجل الدين سيقوم بإعلان عن اعتراض الزواج، وأنه حين يقول: «عليكم الآن أن تجهروا بالأمر!» سيكون هذا هو الوقت المناسب لي لأقوم وأقترح عقد اجتماع خاص في غرفة الاجتماعات. أعتقد أن رعايا الكنيسة كانوا سيفاجأوا بهذا الإجراء ليس لأنه مبالغ فيه، ولكن لأنه حدث يوم عيد الميلاد، وليس يوم الأحد كما هي العادة.

كان من المقرر أن يتناول السيد ووبسل، كاتب الكنيسة، الغداء معنا؛ والسيد هابل صانع العجلات والسيدة هابل؛ والعم بامبلتشوك (عم جو، لكن السيدة جو استأثرت به)، تاجر الغلال ميسور الحال من القرية المجاورة، الذي كان يقود عربة الخيل الخاصة به. كانت ساعة الغداء الواحدة والنصف. عندما وصلنا أنا وجو إلى المنزل، وجدنا الطاولة مجهزة، والسيدة جو مرتدية ملابس الغداء الرسمية، وترك الباب الأمامي مفتوحًا لدخول الضيوف (وهو شيء لا يحدث في الأوقات العادية)، وكل شيء كان في غاية الروعة، وحتى الآن، لم تُكتشف السرقة بعد.

وجاء وقت الغداء وحضر الضيوف ولا عزاء لمشاعري. السيد ووبسل، ذو الأنف الروماني والجبين الأصلع اللامع الكبير، كان له صوت عميقٌ فخورٌ به على نحوٍ غير عادي؛ في الواقع كان من المتعارف عليه بين معارفه أنه إذا تُرك كي يفعل ما يحلو له، فسوف يضحك الجميع حتى القس؛ وهو نفسه اعترف بأنه إذا كانت الكنيسة «مفتوحة للعامة»، أي مفتوحة للمنافسة^(١)، فسوف يحقق شهرة واسعة. وبما أن الكنيسة لم تكن «مفتوحة للعامة»، فقد أصبح، كما أسلفت، كاتبها. لكن عندما كان يقول

(١) كي يصير قسيسًا ويلقي العظة. المترجم.

أمين كان يسترسل فيها لأبعد حدّ، وعندما كان يلقي التراتيل، وكان دائماً يلقيها بأكملها، كان يتطلع إلى الحشد أولاً، كأنه يقول: لقد سمعتم القس من على المنبر؛ ترى ما رأيكم في أسلوبى أنا!

فتحت الباب للضيوف، جاعلاً إياهم يعتقدون أننا عادة ما نفتح ذلك الباب، وفتحته أولاً للسيد ووبسل، ثم للسيد والسيدة هابل، وأخيراً للعم بامبلتشوك، علماً بأنني لم يسمح لي أن أدعوه بعمي، تحت أشد العقوبات. «السيدة جو»، قال العم بامبلتشوك، وهو رجل في منتصف العمر بطيء الحركة ضخمة الجثة، يتنفس بصعوبة، وله فم يشبه السمكة، وعينان زائغتان، وشعر أشقر يقف منتصباً على رأسه، بحيث بدا كما لو كان مختنقاً، وأردف قائلاً: أحلى الأمنيات لعيد الميلاد، أحضرت لك أيتها الأم زجاجة من نبيذ الشيري وزجاجة من نبيذ بورت.

كل عيد من أعياد الميلاد كان يحضر إلى المنزل كأنها أول مرة له على الإطلاق، يقول نفس الشيء تماًماً، ويحمل الزجاجة كزوج من الأثقال. وفي كل مرة، كانت السيدة جو تجيب، كما كانت تجيب الآن: «يا عمي بامبل-تشوك! هذا لطف منك!» وكان يرد في كل مرة، كما يرد الآن: «إنها لا توفيك حقك. والآن هل أنتم جميعاً في أحسن حال، وكيف حال النصف شلن الصغير؟» كان يعنيني أنا.

تناولنا الغداء في هذه المناسبات في المطبخ، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى حجرة الجلوس لتناول المكسرات والبرتقال والتفاح؛ الذي كان تغييراً يشبه تماًماً تغيير جو من ملابس العمل إلى حلة يوم الأحد. كانت أختي مفعمة بالحيوية على نحوٍ غير معتاد في هذه المناسبة، وكانت بالفعل أكثر كرمًا بشكلٍ عام في صحبة السيدة هابل مقارنة بأي صحبة أخرى.

أتذكر السيدة هابل كسيدة صغيرة الحجم متقدة الذهن ذات شعر مجعد ترتدي اللون الأزرق السماوي، وكانت يافعة إلى حد كبير، لأنها تزوجت من السيد هابل - لا أعرف في أي فترة زمنية بعيدة - عندما كانت أصغر سنًا منه بكثير. أتذكر السيد هابل باعتباره رجلًا عجوزًا قويًا، طويلًا، ذا ظهر محني، وتفوح منه رائحة نشارة الخشب، وساقاه متباعدتان بطريقة عجيبة: لذا عندما كنت صغيرًا، كنت أراه قادمًا من أول الطريق، وأرى أميالًا من أراضي الريف تمتد من بين ساقيه.

وسط هذه الصحبة الطيبة، كان يجب أن أشعر بنفسي، حتى لو لم أسرق مخزن المؤن، في وضع خاطئ. ليس لأنني كنت منحصرًا في زاوية حادة من مفرش المائدة، والطاولة في صدري، ومرفق بامبلتشوك في عيني، ولا لأنه لم يكن مسموحًا لي بالكلام (فأنا لم أرغب في التحدث)، ولا لأن وليمتي كانت عبارة عن جلد فخدة الدجاج، وتلك الجوانب المغمورة من لحم الخنزير التي لم يكن لدى الخنزير أدنى سبب للاعتداد بها عندما كان على قيد الحياة. لا؛ لم أكن أمانع أيًا من ذلك، لو أنهم تركوني وحدي، لكنهم لم يتركوني وحدي، لم يفوتوا فرصة إدارة دفعة الحديث نحوي، بين الفينة والأخرى، وغرس سهامهم داخلي. لقد آلمني بشدة هذا النخس الأخلاقي، كأني ثورٌ صغيرٌ بائسٌ داخل حلبة مصارعة إسبانية.

لقد بدأ الأمر منذ اللحظة التي جلسنا فيها لتناول الغداء. قام السيد ووبسل بتلاوة الصلاة بخطاب مسرحي - وهو كما يترأى لي الآن، مزيج متقن من شبح هاملت وريتشارد الثالث - وأنهى خطابه بحثًا على أن نكون شاكرين للغاية. وعليه ثبتتني أختي بعينيها، وقالت موبخة بصوتٍ

خفيض: هل تسمع ذلك؟ كن ممتنًا، كن شاكراً، كن مقدراً للفضل، كن ممتنًا للجميل.

قال السيد بامبلتشوك: على وجه الخصوص، كن ممتنًا، أيها الصبي، لأولئك الذين قاموا بتربيتك باليد.

هزّت السيدة هابل رأسها، مستشعرة بحزن، وهي تتأملني، أنني سأصبح مصدرًا للمتاعب، وتساءلت: «لماذا لا يشعر الأطفال بالامتنان أبدًا؟» بدت هذه المعضلة الأخلاقية أكبر من أن تتحملة الصلبة إلى أن حلها السيد هابل بإيجازٍ قائلاً: «الأطفال فاسدون بطبعهم.» ثم تمتم الجميع «صحيح!» ونظروا إليّ بكرهٍ على نحو شخصي.

كانت مكانة جو وتأثيره عندما يكون هناك صلبة أضعف (إن كان في الإمكان) مما كانت عليه عندما لم يكن هناك أحد. لكنه كان دائماً يساعدني ويواسيني قدر المستطاع، وبطريقته الخاصة، وكان يفعل ذلك دائماً في وقت الغداء بإعطائي المرق، إن وُجد. ونظرًا إلى وجود الكثير من المرق هذا اليوم، فقد سكب جو في طبقي نحو نصف لتر منه على الفور.

بعد فترة قصيرة من بدء الغداء، عقب السيد ووبسل على العظة في الكنيسة بشيء من الحدة، وأشار إلى نوع الخطاب التي كان سيلقيه، إن افترضنا أن الكنيسة كانت «مفتوحة للعامة». وبعد أن تكرم على الصلبة ببعض عناوين هذا الخطاب، أشار إلى أنه اعتبر موضوع عظة اليوم رديئًا؛ وأضاف أنه اختيار غير مبرر في حين أن هناك الكثير من الموضوعات التي «تشغلنا».

قال العم بامبلتشوك: «هذا صحيح مرة أخرى. لقد أصبت يا سيدي! هناك الكثير من الموضوعات التي تشغلنا، ومن يبحث جيدًا سيجدها،

وهذا هو المطلوب، لا يحتاج الشخص إلى الذهاب بعيداً للعثور على موضوع جيد، إذا كان لديه الهمة المطلوبة». وأضاف السيد بامبلتشوك، بعد فترة قصيرة من التفكير: «انظر إلى لحم الخنزير، هو في حد ذاته موضوعٌ للحديث! إذا أردت موضوعاً جيداً، انظر إلى لحم الخنزير!».

«صحيح يا سيدي» أجاب السيد ووبسل: «لحم الخنزير يحمل داخله دروساً كثيرة في الأخلاق للأطفال»، وكنت أعلم أنه سيجذبني قبل أن يقول ذلك؛ «الكثير يمكن استخلاصه من الحديث عن لحم الخنزير». (قالت لي أختي بلهجة حادة: «استمع إلى هذا»).

في حين أعطاني جو المزيد من المرق.

تابع السيد ووبسل بصوته العميق وهو يشير بشوخته نحو احمرار خديّ، كما لو كان يحدثني باسمي، «إن الخنزير كان رفيق السفهاء. شراهة الخنزير معروضة أمامنا، مثل القدوة للأطفال». (لقد اعتقدت هذا أيضاً في العم بامبلتشوك الذي كان يمتدح لحم الخنزير لكونه ممتلئاً ومليئاً بالعصارة.) «ما هو مكروه في الخنزير مكروه بدرجة أكبر في الصبي».

«أو الفتاة»، اقترح السيد هابل.

«بالطبع، أو الفتاة، يا سيد هابل» أكد السيد ووبسل بانزعاج واضح، «ولكن لا توجد فتاة هنا».

قال السيد بامبلتشوك وهو يلتفت نحوي بحدة: علاوة على ذلك، فكر فيما يجب أن تكون ممتناً له. فإذا كنت قد ولدت مليئاً بالنخير...

قالت أختي بتعاطفٍ شديدٍ: قد كان شديد الصراخ، أكثر الأطفال صراخاً على الإطلاق.

أعطاني جو المزيد من المرق.

قال السيد بامبلتشوك: حسنًا، لكنني أقصد نخير الخنزير ذي الأربع أقدام. لو كنت قد ولدت خنزيرًا، هل كنت ستكون هنا الآن؟ ليس هكذا. قال السيد ووبسل وهو يومئ برأسه نحو الطبق: إلا إذا كان في هيئة مطبوخة.

رد السيد بامبلتشوك، معارضًا لمقاطعته: «لكنني لا أقصد بهذه الطريقة يا سيدي. أعني أنه يستمتع بوقته مع الكبار والأفاضل، ويحسن نفسه بحديثهم، ويتمرغ في النعيم. هل كان سيفعل ذلك؟ لا، لن يفعل ذلك. وماذا ستكون وجهتك؟» يلتفت إليّ مرة أخرى. «كان من الممكن أن يتم التخلص منك مقابل عدة شلنات وفقًا لسعر السوق، وكان دانستابل الجزار سيأتي إليك وأنت مستلقٍ على التبن، ويلفك تحت ذراعه اليسرى، وباليمنى كان سيثني رداءه ليخرج سكينًا من جيب صدريته، ويسفك دمك وينهي حياتك. لن يكون هناك داعي للتربية باليد إذن. لا داعي على الإطلاق!»

عرض عليّ جو المزيد من المرق، الذي كنت أخشى أن أتناوله. قالت السيدة هابل وهي تُواسي أختي: لقد سبّب لك الكثير من المشكلات يا سيدتي.

«مشكلات؟» ردّدت أختي؛ «مشكلات؟» ثم شرعت في سرد قائمة مخيفة لكل الأمراض التي كنت ملامًا عليها، وكل الأرق الذي سببته، وكل الأماكن المرتفعة التي سقطت منها، وكل الأماكن المنخفضة التي سقطت فيها، وكل الإصابات التي سببتها لنفسها، وكل الأوقات التي تمنّت فيها أن أدفن في قبري وأنا أعلن عصياني.

أعتقد أن الرومان لا بد أنه أغضب بعضهم بعضًا كثيرًا بأنوفهم. ربما كان هياجهم المعروف نتيجة لذلك. على أي حال، كان أنف السيد ووبسل الروماني يضايقني للغاية في أثناء سرد الجرح التي ارتكبتها إلى درجة أنني كنت أرغب في جذبه بشدة حتى يعوي. لكن كل ما تحمّله حتى ذلك الوقت لم يكن شيئًا مقارنة بالمشاعر الفظيعة التي استحوذت عليّ في الوقفة التي أعقبت شهادة أختي؛ في تلك الوقفة نظر إليّ الجميع (وأنا مدرك بشكل مؤلم) بسخطٍ واشمئزاز.

قال السيد بامبلتشوك، وهو يقود الصحبة بلطفٍ إلى الموضوع الذي انصرفوا عنه: ومع ذلك، فإن لحم الخنزير -وهو مليء بالعصارة هكذا- لذيذ أيضًا؛ أليس كذلك؟

قالت أختي: تناول القليل من البراندي يا عمي.

يا إلهي، لقد جاء دور البراندي أخيرًا! سيجده خفيًا، ويكشف الأمر للجميع، وصرت يائسًا! تمسكت بساق الطاولة تحت القماش بكلتا يدي وانتظرت مصيري.

ذهبت أختي لتجلب الزجاجة الحجرية، وعادت بها، وصبت البراندي للسيد بامبلتشوك وحده. لعب الرجل البائس بكأسه، فتناولها، ونظر إليها من خلال الضوء، ثم وضعها جانبًا، وازداد شقائي أنا. طوال هذا الوقت، كانت السيدة جو وجو ينظفان الطاولة بسرعة من أجل الفطيرة والبودنج. لم أستطع أن أبعد نظري عنه. وأنا أتمسك بساق الطاولة بيديّ وقدمني، ورأيت ذلك المخلوق البائس يداعب كأسه بمرح، ويرفعها، وبيتسم، ويلقي برأسه إلى الخلف، ويتجرع البراندي. وفورًا، استولى على الحضور ذعر لا يوصف، حيث وثب السيد بامبلتشوك على قدميه،

واستدار عدة مرات في رقصة سعال ديكى متقطعة ومروعة، ثم خرج من الباب مسرعاً؛ وعندما لمحناه من النافذة، كان يندفع بعنف ويصق، ويصنع وجوهاً من أبشع الوجوه، كأنه فقد عقله.

تحكمت في نفسي بشدة، بينما ركضت السيدة جو وجو نحو السيد بامبلتشوك. لم يكن لديّ أدنى شك في أنني تسببت في قتله بطريقة ما، لكنني لم أعرف كيف. في ظل وضعي المروع، شعرت بالارتياح عندما أُعيد، وقام بالنظر إلى الصحبة من حوله كما لو أنه لا يستسيغها، ثم جلس على كرسيه وأطلق شهقة عالية قائلاً «قطران!».

كنت قد ملأت الزجاجاة من إبريق ماء القطران. علمت أن السيد بامبلتشوك سيكون أسوأ مع الوقت. قمت بتحريك الطاولة، مثلما يفعل الوسيط الروحاني في يومنا هذا، بقوة قبضتي غير المرئية عليها.

«قطران!» صرخت أختي في حيرة. «لماذا، وكيف يمكن أن يأتي القطران إلى هناك؟».

لكن العم بامبلتشوك، الذي كان يهيمن على المطبخ، لم يكن لسمع أيّاً من كلماتها، أو عن الموضوع ككل، لَوَحَ بيده كأنه يقصي كل شيء جانباً، وطلب الجين الساخن والماء. أختي، التي بدأت في التفكير بشكل مثير للقلق، كان عليها أن تبذل جهدها وبسرعة للحصول على الجين، والماء الساخن، والسكر، وقشر الليمون، وخلطهم جميعاً. أُنقذت في الوقت الراهن على الأقل. كنت لا أزال متمسكاً بساق الطاولة، ولكنني أمسكتها الآن بامتنان شديد للغاية.

تدريجياً، أصبحتُ هادئاً بدرجة كافية لإطلاق سراح قبضتي وتناول البودنج. تناول السيد بامبلتشوك البودنج؛ تناول الجميع البودنج. انتهى

الشوط، وبدأ السيد بامبلتشوك يتألق تحت التأثير اللطيف للجين والماء. بدأت أفكر في أنني يجب أن أنهى يومي، عندما قالت أختي لجو: نظّف الأطباق، بهدوء.

تمسّكت بساق الطاولة مرة أخرى على الفور، وضممتها إلى صدري كما لو كانت رفيقة شبابي وصديقة روجي. لقد توقعت ما سيأتي، وشعرت أنني هالك هذه المرة لا محالة.

«يجب أن تتذوقوا»، قالت أختي وهي تخاطب الضيوف بلطفٍ شديدٍ «يجب أن تتذوقوا، في الختام، مع هذه الهدية المبهجة واللذيذة التي قدّمها العم بامبلتشوك!».

يجب عليهم! دعهم لا يأملون في تذوّقها!

قالت أختي وهي تنهض: لا بد أنكم تعلمون أنها فطيرة؛ فطيرة لحم الخنزير اللذيذة.

تمتت الصحبة بالشاء. العم بامبلتشوك قال -بحيوية شديدة، إلى حدٍّ كبير- «حسنًا يا سيدة جو، سنبدل قصارى جهدنا؛ دعونا نحظى بنصيبٍ من هذه الفطيرة» حيث كان يشعر بأنه يستحقها بسبب النيذ الذي جلبه.

خرجت أختي لجلب الفطيرة، سمعت خطواتها تتجه نحو مخزن المؤن. رأيت السيد بامبلتشوك يوازن سكينه، رأيت شهية متجددة في فتحتي الأنف الروماني للسيد ووبسل. سمعت السيد هابل يقول: «قليلاً من فطيرة لحم الخنزير اللذيذة هي إضافة جيدة لأي شيء، ولن تسبّب أي ضرر.» وسمعت جو يقول: «يجب أن تتناول بعضًا منها يا بيب.» لم أتيقن مطلقاً مما إذا كانت صرخة الرعب العالية التي أطلققتها كانت داخلي فقط،

أم أنها كانت مسموعة للجميع. شعرت أنني لم أعد أحتمل أكثر من ذلك،
وأنني يجب أن أهرب. حررت ساق الطاولة، وركضت للنجاة بحياتي.
لكنني لم أركض أبعد من باب المنزل، حيث ركضت بتهور نحو
مجموعة من الجنود ببنادقهم، وقد مدَّ أحدهم إليَّ زوجًا من الأصفاد
قائلًا: ها أنت ذا، بسرعة، هيا!

الفصل الخامس

أدى ظهور مجموعة من الجنود وهم يقرعون أطراف بنادقهم المحشوة على عتبة بابنا إلى قيام صحبة الغداء من على الطاولة في حالة من الارتباك، وجعل السيدة جو، وهي عائدة إلى المطبخ خالية الوفاض، تتوقف وتحقق في ظل نواحها المتعجب: يا إلهي، يا إلهي، ما الذي حدث للفقيرة!

كنت أنا والرقيب في المطبخ عندما وقفت السيدة جو تحقق؛ وفي ظل هذه الأزمة، استعدت إدراكي جزئياً. لقد كان الرقيب هو الذي تحدث معي، وكان الآن ينظر حوله إلى المجموعة، والأصفاد ممدودة نحوهم بمناشدة في يده اليمنى، ويده اليسرى على كتفي.

قال الرقيب: عذراً، سيداتي وسادتي، ولكن كما ذكرت عند الباب لهذا الشاب (وهو لم يفعل)، أنا في مطاردة باسم الملك، وأنا أريد الحداد. «وماذا تريد منه؟» ردّت أختي، سريعاً مظهرة استياءها من كونه مطلوباً على الإطلاق.

رد الرقيب النبيل: سيدتي، بالنيابة عن نفسي، يجب أن أجيب أنني أريد شرف وسرور التعرف على زوجته الجميلة؛ أما بالنيابة عن الملك، فهو مطلوب لإنجاز بعض الأعمال.

استقبل الجميع كلام الرقيب على أنه منمق بعض الشيء؛ إلى درجة أن السيد بامبلتشوك صاح بصوتٍ مسموع: كلام مقبول مجدداً!

قال الرقيب الذي كان قد انتقى جو بعينه في هذا الوقت: كما ترى أيها الحداد، لقد تعرضنا لحادث مع هذه الأصفاد، ووجدت أن قفل أحدها معطل، والوصلة لا تعمل جيداً. وبما أنها مطلوبة للخدمة فوراً، هلا تلقي نظرة عليها؟

ألقى جو عينه على الأصفاد، وأعلن أن المهمة ستتطلب إشعال نار الحدادة، وسوف تستغرق ما يقرب من الساعتين. «هل هذا صحيح؟ إذن هل ستبداً في ذلك على الفور أيها الحداد؟» قال الرقيب من دون تفكير، «لأنها خدمة لجلالته، وإذا كان في إمكان رجالي المساعدة فسوف يقدمون يد العون في أي شيء.» وبهذا نادى رجاله الذين جاؤوا إلى المطبخ واحداً تلو الآخر، وجمعوا أسلحتهم في الزاوية. ثم وقفوا كما يفعل الجنود وأيديهم مشبوكة أمامهم بشكل غير محكم؛ بعضهم أراح ركبته أو كتفه وقام بعضهم الآخر بتخفيف الحزام أو الحقيبة، أو فتح الباب والبصق بقوة من فوق ياقاتهم العالية في فناء المنزل.

رأيت كل تلك الأشياء دون أن أعلم أنني رأيتها، لأنني كنت أعاني من عذاب الخوف من الحبس. لكنني هدأت من روعي بعد أن بدأت أدرك أن الأصفاد لم تكن لي، وأن الجيش حتى الآن أنسى الجميع أمر الفطيرة. «ما الوقت الآن؟» قال الرقيب مخاطباً السيد بامبلتشوك بقوة مقامه التي أباح له أن يسأله مثل هذا السؤال البسيط^(١).

– الساعة الآن الثانية والنصف تماماً.

(١) الإشارة إلى بساطة السؤال هنا كناية عن التدرج الاجتماعي، حيث يظن الرقيب أنه أفضل من الجمع من حوله، على الرغم من أن الحداد في ذلك الوقت كان أفضل حالاً من المزارع أو عامل المصنع. المترجم.

قال الرقيب وهو يفكر: هذا ليس سيئاً للغاية؛ حتى لو اضطررت إلى التوقف هنا لمدة ساعتين تقريباً، فهذا سيفني بالغرض. إلى أي مدى تبعد المستنقعات، في هذا الجوار؟ ليس أكثر من ميل، على ما أعتقد؟

قالت السيدة جو: ميل واحد فقط.

- هذا سيفني بالغرض. نبدأ في الاقتراب منهم عند الغسق. الأوامر هي الاقتراب منهم قبيل الغسق بقليل. هذا سيفني بالغرض.

«المدانون أيها الرقيب؟» سأل السيد ووبسل بطريقة طبيعية.

«نعم!» أجاب الرقيب، «اثنان. من المعروف أنهما ما زالا في المستنقعات، ولن يحاولا الخروج منها قبل الغسق. هل رأى أحد هنا أيًا من المطاردين؟».

الجميع قالوا لا وبكل ثقة، باستثنائي أنا؛ لم يفكر أحد بي.

«حسنًا!» قال الرقيب: سيجدان أنفسهما محاصرين في دائرة، كما أتوقع، في وقتٍ أقرب مما يتوقعانه. والآن أيها الحداد! إذا كنت مستعدًا، فجلالة الملك جاهز.

خلع جو معطفه وصدريته وربطة عنقه، وارتندي مئزره الجلدي، ودخل إلى دكان الحدادة. فتح أحد الجنود النوافذ الخشبية، وأشعل جندي آخر النار، واتجه آخر نحو المنفاخ، ووقف الباقون حول اللهب الذي سرعان ما اندلع. ثم بدأ جو يطرق ويقرع، ويترك ويقرع، وكنا جميعًا نتابع الأمر.

إن التشويق الناتج عن المطاردة الوشيكة لم يستحوذ على اهتمام الجميع فحسب، بل جعل أختي كريمة. أخرجت إبريقًا من الجعة من البرميل الخشبي للجنود، ودعت الرقيب إلى تناول كأس من البراندي.

لكن السيد بامبلتشوك قال بحدة: «أعطيه النبيذ أيتها الأم. أتعهد بأنه لا يوجد به قطران» لذا، شكره الرقيب وقال إنه يفضل شرابه من دون قطران، وأنه سيتناول النبيذ، إذا كان هذا مناسبًا. عندما أعطي له، شرب في صحة جلالته وتهاني عيد الميلاد، تجرع الشراب جرعة واحدة ولعق شفثيه.

«شراب جيد، أليس كذلك أيها الرقيب؟» قال السيد بامبلتشوك.

رد الرقيب: سأقول لك شيئًا، أظن أن هذا الشراب من تقديمك.

قال السيد بامبلتشوك وهو يضحك ضحكة بلهاء: نعم، نعم؟ لماذا؟

أجاب الرقيب وهو يربت على كتفه: لأنك رجل يمكنه التعرف على الشراب الجيد.

«هل تعتقد ذلك؟» قال السيد بامبلتشوك بضحكته السابقة. «تناول

كوبًا آخر!»

«لنحتسِ الشراب معًا» قال الرقيب. «من قمة كأسِي إلى أسفل كأسك، ومن أسفل كأسك إلى قمة كأسِي، اقرع الكؤوس مرة، اقرعها مرتين، تصنع الكؤوس أفضل النغمات! في صحتك. أتمنى لك أن تعيش ألف عام، وأن تظل صاحب أفضل ذوق كما أنت الآن في هذه اللحظة من حياتك!».

ألقى الرقيب بكأسه مرة أخرى، وبدا مستعدًا تمامًا لتناول كأس أخرى. لاحظت أن السيد بامبلتشوك بدا كأنه نسي في أثناء ضيافته أنه قدّم النبيذ هدية، أخذ الزجاجة من السيدة جو ونسب إلى نفسه الفضل في تقديم الشراب في جوٍّ من المرح. حتى إنني حصلت على بعض منه. ولم يشعر بالذنب قط لإهدار النبيذ إلى درجة أنه عندما نفدت الزجاجة الأولى طلب الزجاجة الثانية، وقدم الشراب بنفس السخاء.

وبينما كنت أراقبهم وهم جميعاً مجتمعون عند دكان الحدادة، ومستمتعون للغاية، فكرت كم كانت تستهويهم على الغداء فكرة القبض على صديقي الهارب في المستنقعات. لم يستمتعوا بهذا القدر من قبل، وهذا بفضل الإثارة التي جلبتها المطاردة. والآن، عندما كانوا جميعاً في ترقُّب شديد لاعتقال «الأشرار»، وعندما بدأ صخب المنفاخ يعلو، والنار تشتعل من أجل الهاربين، ويسرع الدخان بعيداً لملاحقتهم، ويطرق جو ويقرع من أجلمهم، وكل الظلال القائمة على الحائط تهتز متوعة حيث كان اللهب يعلو وينخفض، وسقطت الشرارات الساخنة وخمدت، وبدا النهار بالخارج في خيالي الشاب المليء بالشفقة كأنه شاحِبٌ بسبب هؤلاء البائسين المساكين.

أخيراً، انتهت مهمة جو، وتوقف الطُّرق والصخب. عندما ارتدى جو معطفه، استجمع شجاعته واقترح أن ينزل البعض منا مع الجنود ليرَوا ما سيُنتج عن المطاردة. رفض السيد بامبلتشوك والسيد هابل المشاركة بحجة تدخين الغليون ومرافقة السيدات؛ لكن السيد ووبسل قال إنه سيذهب، إذا فعل جو ذلك. قال جو إنه موافق وسيصحبني معه إذا وافقت السيدة جو. أنا متأكد من أننا لم نكن لنحصل على إذن بالرحيل، لولا فضول السيدة جو لمعرفة كل شيء عن الأمر وكيف انتهى؛ وبذلك فقد اشترطت فقط: «إذا عدت بالصبي ورأسه ممزق إلى أشلاء بفعل بندقية ما، فلا تتطلع إليَّ لإعادة تجميعه مرة أخرى».

استأذن الرقيب بتهذيبٍ من السيدات، وفارق السيد بامبلتشوك كما لو كان يفارق صديقاً له؛ على الرغم من أنني أشك في أنه سيقدرّ مزايا ذلك الرجل من دون الشراب، بنفس تلك الدرجة في وجود الشراب.

استعاد رجاله بنادقهم واصطفوا في طابور. تلقينا أنا والسيد ووبسل وجو تعليمات صارمة بالبقاء في المؤخرة، وعدم التحدث بأي كلمة بعد وصولنا إلى المستنقعات. عندما كنا جميعاً في الهواء الطلق ونتحرك بثبات لتأدية مهمتنا، همستُ لجو بخيانة: «آمل ألا نعرث عليهم يا جو» وهمس لي جو قائلاً: «سأدفع شلناً لو قطعوا الطريق وهربوا يا بيب».

لم يتبعنا أحدٌ من أهل القرية، لأن الطقس كان بارداً ومثيراً للقلق، والطريق كئيباً، والوضع سيئاً، والظلام قادمًا، وكان الناس يشعلون النيران في الداخل ويحتفلون بعيد الميلاد. سارعت بعض الوجوه إلى النوافذ المتوهجة ونظروا إلينا ونحن نبتعد، لكن لم يخرج أحد. تجاوزنا اللافتة الخشبية، واتجهنا إلى الأمام مباشرة إلى باحة الكنيسة. هناك وفقنا بضع دقائق بإشارة من يد الرقيب، بينما تفرق اثنان أو ثلاثة من رجاله بين القبور، وتفحصوا رواق الكنيسة أيضًا. عادوا مرة أخرى دون العثور على أي شيء، ثم انطلقنا نحو المستنقعات المفتوحة عبر البوابة الموجودة بجانب باحة الكنيسة. نزل علينا البرد مطلقًا مع الريح الشرقية، فحملني جو على ظهره.

الآن بعد أن صرنا في البرية الموحشة حيث كنت أنا منذ ثماني أو تسع ساعات مضت من دون دراية من أحدٍ، ورأيت كلا الرجلين مختبئين، فكرت لأول مرة، بخوفٍ شديدٍ، إذا وصلنا إليهما، هل سيفترض المجرم الذي ساعدته أنني أنا من أحضر الجنود إلى هناك؟ لقد سألني إذا كنت عفريتًا مخادعًا، وقال إنني يجب أن أكون كلب صيد قاسيًا إذا انضمت إلى المطاردة ضده. هل سيعتقد أنني كنت عفريتًا وكلبًا خائنًا عن حقٍّ، وأنني قد وشيت به؟

لم تكن هناك فائدة أن أسأل نفسي هذا السؤال الآن. كنت هناك، على ظهر جو، وكان جو أسفل مني، يندفع نحو الخنادق مثل الصياد، ويحث السيد ووبسل على عدم التعثر على أنفه الروماني، وعلى مواكبتنا. كان الجنود أمامنا، يمتدون إلى خط عريض جدًا تاركين مسافة بين كل رجل والآخر. كنا نتبع المسار الذي بدأت به، والذي انحرفت عنه في الضباب. إما أن الضباب لم ينتشر مرة أخرى بعد، وإما أن الريح قد بدّته. تحت وهج غروب الشمس الأحمر المنخفض، كانت المنارة، والمشنقة، وتل بطارية المدفعية، والشاطئ المقابل للنهر، واضحة، على الرغم من أنها كانت كلها ذات لون رصاصي مائي.

مع دقائق قلبي مثل الحداد على كتف جو العريضة، بحثت في كل مكان عن أي علامة على وجود المدانين. لم أتمكن من رؤية أي شيء، ولم أتمكن من سماع أي شيء. لقد أزعجني السيد ووبسل أكثر من مرة بسبب نفخه وصعوبة تنفّسه؛ لكنني في غضون ذلك صرت أميز الأصوات، وكان في إمكاني فصلها عن الهدف الذي أتعبه. كانت البداية مروعة، حين ظننت أنني سمعت المبرد لا يزال مستمرًا؛ لكنه لم يكن سوى جرس خروف. توقفت الخراف عن أكلها ونظرت إلينا بخوف؛ وكانت الماشية، وقد التوت رؤوسها بفعل الريح والبرد، تحدّق بغضب كما لو أنها تحمّلنا المسؤولية عن تلك المضايقات؛ ولكن، فيما عدا هذا، ورعشة اليوم المنقضي في كل ورقة من العشب، لم يكن هناك أي انقطاع في السكون الموحش الذي كان يسود المستنقعات.

تقدم الجنود في اتجاه بطارية المدفعية القديمة، وكنا نسير خلفهم بمسافة قصيرة، عندما توقفتنا جميعًا فجأة، لأنه قد وصل إلينا على أجنحة

الريح والمطر صرخة طويلة متكررة. كانت على مسافة تجاه الشرق، لكنها كانت طويلة وصاخبة. كلا، بدا كأن هناك صيحتين أو أكثر معًا، إذا كان من الممكن الحكم على ذلك من خلال تشوش الأصوات.

و من ثم، كان الرقيب وأقرب الرجال يتحدثون بصوتٍ منخفضٍ، عندما اقتربنا أنا وجو. بعد لحظة أخرى من الاستماع، وافقهم جو (الذي كان حكمًا جيدًا)، ووافقهم السيد ووبسل (الذي كان حكمًا سيئًا). أمر الرقيب، وهو رجل حازم، بعدم الرد على الصوت، بل بتغيير المسار، وأن يتوجه رجاله نحوه «بسرعة». لذا انحرفنا إلى اليمين (نحو الشرق)، واندفع جو بعيدًا بشكلٍ رائع، إلى درجة أنني اضطررت إلى التمسك به جيدًا.

لقد كان سباقًا بالفعل الآن، أو ما أسماه جو، في الكلمات الوحيدة التي كان ينطق بها طوال الوقت، «سباقًا مع الريح». أسفل الضفاف وأعلى الضفاف، وفوق البوابات، مجتازًا الخنادق، ومخترقًا النباتات الجافة؛ لم يهتم أحد بالمكان الذي تطؤه قدمه. ومع اقترابنا من الصراخ، أصبح من الواضح أكثر فأكثر أنه صادر عن أكثر من شخص. وفي بعض الأحيان، بدا كأن الأمر قد توقف تمامًا، ومن ثم توقف الجنود. وعندما اندلعت الأصوات مرة أخرى، هرع الجنود إليها بسرعة أكبر من أي وقتٍ مضى، ونحن نسعى وراءهم. وبعد فترة من الوقت، وصلنا إلى المكان المنشود، حتى إننا سمعنا صوتًا ينادي «جريمة قتل!» وصوت آخر ينادي: «من هنا للمدانيين! الهاربين! يا حراس! ها هو الطريق للمدانيين الهاربين!» ثم بدا أن كلا الصوتين قد اختنقا في صراع، ثم انفجرا مرة أخرى. حينها ركض الجنود مثل الغزلان، وكذلك جو.

ركض الرقيب أولاً بعد أن خفضنا الضجيج تمامًا، واقترب منه اثنان من رجاله. وجدنا بنادقهم على أهبة الاستعداد عندما ركضنا جميعاً إليهم. «ها هما كلا الرجلين!» صرخ الرقيب وهو يكافح في قاع الخندق. «استسلما، أنتما الاثنان! اللعنة عليكم أيها الشاردان! تعالافترقا!».

كانت المياه تتناثر، والطين يتطاير، والشتائم تُلقى، والضربات تُدفع، عندما نزل بعض الرجال الآخرين إلى الخندق لمساعدة الرقيب، وسحبوا المُدان الخاص بي والمدان الآخر، كلٌّ على حدة. كلاهما كانا ينزفان ويلهثان ويلعنان ويقاومان؛ ولكن بالطبع تعرّفت عليهما فوراً.

«انتبهوا!» قال المُدان الخاص بي وهو يمسح الدم عن وجهه بأكمامه الممزقة، وينفض الشعر الممزق من بين أصابعه: «أنا أمسكته! أنا سلّمته إليكم! خذوا هذا في الحسبان!».

قال الرقيب: ليس هناك الكثير مما يستحق الأخذ في الحسبان، لن يفيدك ذلك كثيرًا، يا رجل، كونك في نفس المحنة. آتوني بالأصفاد هنا! «لا أتوقع أن يفيدني ذلك» قال المدان الخاص بي بضحكة جشعة: لا أنتظر أن يفيدني الأمر أكثر مما هو عليه الآن. فأنا أمسكته، وهو يعرف ذلك؛ هذا كافٍ بالنسبة إليّ.

كان غضب المُدان الآخر ظاهرًا للعيان، وبالإضافة إلى الجانب الأيسر من وجهه المليء بالكدمات، بدا أن جسمه بالكامل كان ممزقًا ومليئًا بالكدمات. لم يكن قادرًا على أن يحمل نفسه على الكلام، حتى قُيّدت أيديهما بشكل منفصل، واتكأ على أحد الجنود لتفادي السقوط. كانت كلماته الأولى: اسمعني أيها الحارس، لقد حاول قتلي.

«حاولت قتله؟» قال المجرم الخاص بي بازدراء: حاولت ولم أنجح؟

أنا أمسكته وسلمته إليكم، هذا ما فعلته. لم أمنعه من مغادرة المستنقعات فحسب، بل قمت بجره إلى هنا، جررته كل هذه المسافة لإعادته. هذا الوغد من النبلاء، يا سادة. الآن، سفن السجن استعادت رجلها النبيل، بسببي أنا، أقتله؟ يسعدني أن أقتله أيضًا، لكن لم أفعل ذلك بينما أستطيع أن أفعل ما هو أسوأ بإعادته مرة أخرى؟

قال المجرم الآخر وهو ما زال يلهث: لقد حاول... لقد حاول... قتلي، اشهدوا... اشهدوا على ذلك.

«انظر هنا!» قال المحكوم عليه للرقيب. «لقد تمكنت من الهروب من سفينة السجن وحدي؛ ركضت بسرعة وهربت. وكان في إمكاني أيضًا الخروج من هذه الأراضي بيرودها القارسة... انظر إلى ساقبي: لن تجد الكثير من الحديد عليها، لو لم أكتشف وجوده هنا. هل كان يجب أن أتركه يذهب حرًا؟ أو أدعه يغتنم الفرصة؟ أو أتركه يستغلني مرة أخرى؟ مرة أخرى؟ لا لا لا. حتى لو كان فيه هلاكي»، وأشار بقبضة حازمة إلى الخندق بيديه المكبلتين، «كنت سأظل ممسكًا به بتلك القبضة، حتى تجدوه بأمان في حوزتي».

وكرر الهارب الآخر، الذي كان من الواضح أنه كان في حالة رعب شديد من رفيقه: لقد حاول قتلي، كنت سأموت لو لم تجدوني.

«كاذب!» قال المجرم الخاص بي بشراسة، «لقد وُلد كاذبًا، وسوف يموت كاذبًا. انظر إلى وجهه؛ أليس بادئًا عليه؟ دعه ينظر إليّ، أنا أتحداه».

أما المُدان الآخر، أراد أن يبتسم ابتسامة ساخرة، وحاول بالفعل إظهار أي تعبير على وجهه لكنه لم يقوَ على ذلك؛ نظر إلى الجنود، وإلى المستنقعات من حوله وإلى السماء، لكنه -قطعًا- لم ينظر إلى المتحدث.

«هل ترى هذا؟» أضاف المجرم الخاص بي «هل ترى كم هو وضعي؟ هل ترى تلك الأعين الزائغة المتدللة؟ هكذا بدا عندما تمت محاكمتنا معاً. لم ينظر إليَّ قطُّ».

أما الآخر، الذي ظل يحرك شفّتيه الجافّتين، ويدير عينيه بقلقٍ حوله هنا وهناك، فقد أدارهما أخيراً لحظة نحو المتحدث قائلاً: «ليس هناك الكثير مما يستحق النظر إليه»، ثم ألقى بنظرة شبه ساخرة على الأيدي المقيّدة. في تلك اللحظة، ثار المدان الخاص بي بجنون، إلى درجة أنه كان سيهجم على المدان الآخر لولا تدخّل الجنود. قال المدان الآخر: «ألم أقل لك إنه سيقتلني لو استطاع؟» ويمكن لأي شخص أن يرى أنه كان يرتجف من الخوف، وقد ظهرت على شفّتيه رقائط بيضاء غريبة، مثل الثلج الرقيق.

قال الرقيب: كُفّوا عن الجدل. أشعلوا تلك المشاعل.

أحد الجنود، الذي كان يحمل سلة بدلاً من البندقية، جثا على ركبتيه ليشعلها، حينها نظر المدان الخاص بي حوله للمرة الأولى ورآني. كنت قد نزلت من على ظهر جو عند حافة الخندق عندما وصلنا، ولم أتحرك منذ ذلك الحين. نظرت إليه بلهفة عندما نظر إليَّ، وحركت يدي قليلاً وهزّزت رأسي. كنت أنتظر أن يراني حتى أحاول أن أوكد له براءتي. ولم يعرب لي على الإطلاق عن أنه فهم قصدي، فقط نظر إليَّ نظرة لم أفهمها. كل ذلك حدث في لحظة واحدة؛ لحظة كافية كي أتذكر قدر الاهتمام الذي ظهر على وجهه، ولو كان قد نظر إليَّ لمدة ساعة أو ليوم كامل في أي وقت آخر، فلن يكون بمثل هذا الاهتمام الذي أبداه حينها.

وسرعان ما أضاء الجندي ذو السلة ثلاثة أو أربعة مشاعل؛ أخذ هو

واحدًا وقام بتوزيع البقية. كان الظلام قد بدأ يشتد من قبل، لكنه الآن بدا معتمًا إلى حدٍّ كبير، وسرعان ما أصبح حالكًا تمامًا بعد ذلك. وقبل مغادرتنا ذلك المكان، وقف أربعة جنود في حلقة، وأطلقوا النار مرتين في الهواء. وفي الحال رأينا مشاعل أخرى مشتعلة على مسافة ما خلفنا، وأخرى في المستنقعات على الضفة المقابلة للنهر. قال الرقيب: حسنًا، إلى الأمام.

لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا عندما أُطلقت ثلاثة مدافع أمامنا محدثة صوتًا بدا كأن شيئًا ما داخل أذني ينفجر. قال الرقيب للمجرم الخاص بي عليه: إنهم ينتظرونك على متن السفينة. إنهم يعلمون أنك قادم، لا تقاوم يا رجل، اقترب هنا.

فُصل المدانان أحدهما عن الآخر، وسار كلُّ منهما محاطًا بحارسٍ مختلف. أمسكت بيد جو الآن، وكان يحمل أحد المشاعل. وكان السيد ووبسل يؤيد العودة، لكن جو كان مصممًا على الاستمرار للنهاية، لذا فقد أكملنا المسيرة. لقد كان الطريق جيدًا إلى حدٍّ ما الآن، أغلبه يطل على ضفة النهر، منحرفًا كل حين وآخر عند وجود خندق عليه طاحونة هوائية صغيرة وبوابة موحلة لتصريف المياه. عندما نظرت حولي، تمكنت من رؤية الأضواء الأخرى قادمة خلفنا. أُلقت المشاعل التي حملناها بقعًا كبيرة من النار على المسار، رأيتها كذلك وهي تدخن وتشتعل. لم أستطع رؤية أي شيء آخر سوى الظلام الحالك. أدفأت مشاعلنا الهواء من حولنا بنارها المتوهجة، وبدا أن السجينين أعجبهما ذلك إلى حدٍّ ما، وهما يعرجان وسط البنادق. لم نستطع السير بسرعة بسبب عرجهما، وكانا منهكين للغاية، إلى درجة أننا اضطررنا إلى التوقف مرتين أو ثلاثة كي يستريحنا.

وبعد ما يقرب من ساعة من سيرنا، وصلنا إلى كوخ خشبي عند المرسى، كان هناك حراس في الكوخ، أجاب الرقيب نداءهم. وفي الكوخ، كانت رائحة التبغ والطلاء تملآن المكان، وكانت هناك نار متوهجة، ومصباح، وحامل بنادق، وطبول، وسرير خشبي منخفض، يبدو كمغسلة ثياب ضخمة من دون آلاتها قادرة على استيعاب نحو اثني عشر جندياً في وقتٍ واحد. ثلاثة أو أربعة جنود ممن كانوا يستلقون عليها بمعاطفهم الكبيرة لم يُبدوا الكثير من الاهتمام بنا، لكنهم رفعوا رؤوسهم ونظروا إليها بنعاس، ثم استلقوا مرة أخرى. كتب الرقيب تقريراً ما، وقام ببعض الإدخالات في كتاب، ثم قام حارس المدان الآخر بسحبه، ليصعد إلى القارب أولاً.

لم ينظر إليّ المدان الخاص بي قط، إلا هذه المرة. وبينما كنا واقفين في الكوخ، وقف أمام النار وهو ينظر إليها متأملاً، أو يضع قدميه بالتناوب على رف المدفأة، وينظر إليهما متأملاً كما لو كان يشفق عليهما من مغامراتهما الأخيرة، وفجأة التفت إلى الرقيب، وقال:

أود أن أقول شيئاً فيما يتعلق بهذا الهروب، وقد يمنع بعض الأشخاص من وضعهم تحت الشبهات معي.

أجاب الرقيب وهو يقف بهدوءٍ وينظر إليه وهو يطوي ذراعيه: يمكنك أن تقول ما تريد، لكن ليس لديك الحق في قوله هنا. سيكون لديك فرصة كافية لتقوله، ونسمعه، قبل أن ننتهي منك، أنت تعلم هذا.

- أعلم، ولكن هذا شيء آخر، موضوع مختلف. لا يمكن للإنسان أن يتصور جوعاً؛ على الأقل أنا لا أستطيع؛ لذا فقد أخذت القليل من الطعام، في القرية هناك، حيث تقف الكنيسة في أقصى مكان عند المستنقعات.

قال الرقيب: تقصد أنك سرقت.

- وسأخبرك من أين. من عند الحداد.

«حقاً!» قال الرقيب وهو يحدق إلى جو.

«أسمع يا بيب؟» قال جو وهو يحدق إلى وجهي.

- القليل من بواقي الطعام - هذا كل ما في الأمر - والقليل من

المشروبات الكحولية، وفطيرة.

«هل حدث أن افتقدت هذه الفطيرة أيها الحداد؟» سأله الرقيب على

انفراد.

- زوجتي فعلت ذلك، في نفس اللحظة التي دخلت فيها، أليس

كذلك يا بيب؟

قال المدان الخاص بي وهو ينظر إلى جو بطريقة حزينة ودون أدنى

نظرة إليّ: أنت إذن الحداد، أليس كذلك؟ يؤسفني أن أقول إنني أكلت

فطيرتك.

أجاب جو مقصياً السيدة جو من ذاكرته: يعلم الله أنك مرحب بك،

ما دامت أنها ملكاً لي. نحن لا نعرف ما الذي فعلته، لكننا لم نكن لنسمح

لك أن تموت جوعاً بسبب ذلك، أيها الرفيق البائس المسكين، أليس

كذلك يا بيب؟

لاحظت طقطقة في حلق الرجل مثلما حدث من قبل، فأدار ظهره.

عاد القارب، وكان حارسه جاهزاً، فتبعناه إلى المرسى المصنوع من

الأوتاد الخشنة والحجارة، ورأيناه يُوضَع في القارب، الذي كان يجدف

فيه طاقم من المجرمين مثله. لم يبدُ أحد مندهشاً، أو مهتماً، أو سعيداً، أو

آسفًا لرؤيته، أو حتى نطق بينت شفة، باستثناء أن شخصًا ما في القارب
زمجر قائلاً: «أفسح الطريق!» كأنه يأمر الكلاب، التي كانت بمنزلة إشارة
لإنزال المجاديف. وعلى ضوء المشاعل، رأينا سفينة السجن السوداء
ترقد على مسافة قصيرة من طين الشاطئ، كأنها النسخة الشريرة من
سفينة نوح. كانت سفينة السجن، مشدودة ومقيدة ومثبتة بسلاسل ضخمة
صدئة، تبدو في عيني الصغيرة مكبله مثل السجناء. رأينا القارب يسير
بجانبيها، ورأينا المدان الخاص بي يصعد على جانبيها ويختفي. وسمعنا
أزيز المشاعل حيث أُلقيت أطرافها في الماء، وانطفأت، كما لو أن كل
شيء قد انتهى معه.

الفصل السادس

حالي الذهنية فيما يتعلق بالسرقة التي بُرئت منها بشكلٍ غير متوقع لم تدفعني إلى الإفصاح عما فعلته؛ ولكنني آمل أن يكون هناك ذرة من الطيبة وراء عدم إفصاحي هذا.

عندما زال عني الخوف من اكتشاف أمري، لا أذكر أنني شعرت بأي عذاب ضمير تجاه السيدة جو. لكنني أحببت جو، ربما في ذلك الوقت ليس هناك سبب أفضل لحبي له من أن هذا الرجل العزيز سمح لي أن أحبه؛ لذا، لم يكن من السهل على نفسي أن تهبط. كان هذا الأمر يثقل كاهلي (خصوصًا عندما رأيته أول مرة وهو يبحث عن مبرده) وفكرت أنه يجب عليّ أن أخبر جو بالحقيقة كاملة. ومع ذلك، لم أخبره، وهذا بسبب ريبتي أنه إذا فعلت، سيسيء الظن بي. منذ ذلك الحين، خوفي من فقدان ثقة جو، وجلوسي في زاوية المدفأة ليلاً، والتحديث بكآبة إلى رفيقي وصديقي الذي قد أفقده للأبد، قيّد ذلك لساني. فكرت بأن ألم أنه إذا علم جو ما حدث، فلن أتمكن أبدًا من رؤيته بعد ذلك بجانب المدفأة وهو يتحسس شاربته الأشقر، دون أن أفكر في أنه يتأمل في الأمر. وأنه لو علم جو، فلن أتمكن بعد ذلك من رؤيته وهو ينظر، ولو بالصدفة، إلى اللحم أو البودنج اللذين قُدّما بالأمس ووضعا على الطاولة اليوم، دون أن أفكر في أنه كان ينازع فكرة ما إذا كنت قد ذهبت إلى مخزن المؤن

أم لا. إذا علم جو، ولاحظ في أي فترة لاحقة من حياتنا معاً أن رغبة الجعة التي يشربها كانت قليلة أو كثيرة، فإن يقيني من أنه يشبهه في وجود قطران فيها سيصيني بالخزي. باختصارٍ، كنت جباناً جداً إلى درجة أنني لم أستطع الاعتراف بالأمر، كما كنت جباناً جداً بحيث لم أتنصّل من مساعدة المجرم. لم يكن لديّ أي تواصل مع أحد في ذلك الوقت، ورغم وجود كثير من الجبناء حولنا في هذا العالم، فأنا لم يكن لديّ مثلٌ أحتذي به. كان جنبي نابعاً من داخلي، كشفت عنه الستار بنفسي.

وبينما كنت أشعر بالنعاس قبل أن نبتعد عن سفينة السجن، أخذني جو على ظهره مرة أخرى وحملني إلى المنزل. لا بد أنه مرّ برحلة شاقة، لأن السيد ووبسل، الذي كان يشعر بإعياء شديد، كان مزاجه سيئاً للغاية إلى درجة أنه لو فُتحت الكنيسة للعامة، لكان من المحتمل أن يُصدر قراراً بوقف الحملة بأكملها، بدءاً مني أنا وجو. وكشخصٍ من العامة، أصّر السيد ووبسل على الجلوس مبلاً وهو أمر جنوني، إلى درجة أنه عندما خلع معطفه لتجفيفه على مدفأة المطبخ، كانت آثار البلل والانساخ على بنطاله ستسبّب شنقه، لو كانت القذارة جريمة عقوبتها الإعدام.

بحلول ذلك الوقت، كنت أترنّح فوق أرضية المطبخ مثل سكير صغير، حيث غلبني النعاس بسرعة وقد أنزلت حديثاً على قدمي، واستيقظت على الحرارة والأضواء وأصوات الناس من حولي. عندما أفقت (على يد ضربة قوية بين الكتفين، وتعجّب أختي الذي بعث فيّ النشاط مرة أخرى «ياه! هل يوجد مثل هذا الصبي على الإطلاق!») وجدت جو يخبرهم عن اعتراف المدان، وبدأ جميع الزوار في اقتراح طرقٍ مختلفة للوصول إلى مخزن المؤن. أوضح السيد بامبلتشوك، بعد فحص المبنى بعناية، أن

المدان صعد أولاً إلى سطح دكان الحدادة، ومنه إلى سطح المنزل، ثم نزل من مدخنة المطبخ بحبلٍ من كسوة فراشه المقصوفة على هيئة أشرطة. بما أن السيد بامبلتشوك كان متيقناً للغاية، وبما له من سيادة فوق الجميع حيث يقود عربة الخيل الخاصة به، فقد آيد الجميع رأيه فيما حدث. إلا السيد ووبسل في حقيقة الأمر حيث صاح بشكلٍ جامح وبمكرٍ واهن لرجلٍ منهك: «لا!»، ولكن نظراً إلى أنه لم يكن لديه أي نظرية أخرى، ولم يكن يرتدي معطفاً، فقد أهمل بالإجماع، ناهيك بالبخار المتصاعد بقوة خلفه، بينما كان يقف وظهره إلى نار المدفأة لتجفيف ملابسه: وهو الأمر الذي لم يكن من شأنه أن يعطيه مصداقية كافية.

كان هذا آخر ما سمعته في تلك الليلة قبل أن تمسك بي أختي، كأن نومي إهانة للناظرين، وتساعدني على الصعود لفراشي بيدٍ قوية إلى درجة أنني بدوت كأني أنتعل خمسين حذاءً، وأتدلى بها جميعاً نحو حافة الدرج. بدأت حالتي الذهنية، كما وصفتها، قبل أن أستيقظ في الصباح، واستمرت فترة طويلة بعد أن انتهى الموضوع ولم يعد يُذكر إلا في مناسبات استثنائية.

الفصل السابع

في الوقت الذي كنت أقف فيه في باحة الكنيسة أقرأ شواهد قبور العائلة، كان تعليمي يكفي تهجتها فقط. إن فهمي حتى لمعناها البسيط لم يكن صحيحًا تمامًا، لأنني قرأت «زوجة المذكور أعلاه» كإشارة مجاملة إلى تمجيد والدي في عالم أفضل؛ وإذا أُشير إلى أي من أقاربي المتوفين بكلمة «أذناه»، كان يجب عليّ الافتراض، ومن دون شك، أنه قد ذهب إلى العالم السفلي. ولم تكن مفاهيمي عن المواقف اللاهوتية التي ألزمني بها تعليمي المسيحي دقيقة على الإطلاق؛ لأن لديّ ذكرى حية بأنني افترضت أن تعهدي بأن «أسير في نفس النهج كل أيام حياتي» جعلني ملزمًا بالمرور دائمًا عبر القرية من منزلنا في اتجاه واحد معين، وألا أغيره أبدًا بالانعطاف نزولًا عند دكان صانع العجلات، أو صعودًا عند الطاحونة.

عندما بلغت من العمر ما يكفي، كان من المقرر أن أتدرّب على يد جو، وإلى أن أستطيع أن أنال هذا الشرف، لم يكن من المفترض أن أكون كقول السيدة جو مثل المغنّج، أو المدلّل (كما تصورت أنا). لذلك، لم أكن مجرد صبي الحداد فحسب، بل إذا صادف أن أي جار أراد صبيًا إضافيًا لإخافة الطيور، أو التقاط الحجارة، أو أي عملٍ من هذا القبيل، كان يتم تفضيلي للقيام بتلك الأشغال. ومع ذلك، حتى لا يتم المساس

بمستوانا الرفيع نتيجة لذلك، احتُفِظَ بصندوقٍ للنقود على رف المدفأة بالمطبخ، حيث عرف الجميع أن جميع أرباحي كانت تُوضَع فيه. لديّ انطباع بأن تلك الأرباح ستساهم في نهاية المطاف في سداد الدين الوطني، لكنني علمت أنه ليس لديّ أي أمل في أن أنال جزءاً من هذا الكنز.

كانت العمة الكبرى للسيد ووبسل تدير مدرسة مسائية في القرية؛ ومجاز القول إنها كانت امرأة عجوزاً سخيفة ذات موارد محدودة ومرض غير محدود، وقد اعتادت الذهاب إلى النوم من السادسة إلى السابعة كل مساء، وسط مجموعة من الشباب، دفع كل فرد منهم بنسّين في الأسبوع لتحسين فرصهم ورؤيتها تغط في النوم. كانت قد استأجرت كوْخاً صغيراً، وكان للسيد ووبسل الغرفة العلوية، حيث كنا نحن الطلاب نسمعه وهو يقرأ بصوتٍ عالٍ بأسلوبٍ رائع ومهيب، مصطدماً أحياناً بالسقف. كانت هناك رواية مفادها أن السيد ووبسل «يختبر» الطلاب مرة كل ثلاثة أشهر. ما فعله في تلك المناسبات هو أن شمّر عن ذراعيه، ورفع شعره، وألقى الخطبة التي ألقاها مارك أنطونيو عند موت يوليوس قيصر. كان هذا يتبعه دائماً قصيدة العواطف الغنائية لكولينز^(١)، حيث كنت أعتبر السيد ووبسل على الأخص ممثلاً للانتقام، وهو يلقي سيفه المملّط بالدماء في الرعد، ويأخذ البوق المندد بالحرب بنظرة ذابلة. لم أختبر العواطف في ذلك الوقت، كما اختبرتها في حياتي لاحقاً، وقارنتهم بكولينز ووبسل، وهو أمر لم يكن في صالح أي منهما.

(١) قصيدة العواطف هو كتاب شعر كتبه ويليام كولينز ونشر عام ١٨٩٨. الكتاب عبارة عن مجموعة من القصائد الغنائية التي تستكشف المشاعر والعواطف المختلفة التي يختبرها البشر، مثل الحب والخوف والفرح والانتقام - المترجم.

عمة السيد ووبسل، إلى جانب إدارتها لهذه المنشأة التعليمية، كانت تقيم في نفس الغرفة، متجراً عاماً صغيراً. لم تكن لديها أي فكرة عن المخزون الذي تملكه، أو سعر أي شيء فيه؛ ولكن كان هناك دفتر صغير مليء بالشحم، محفوظ في أحد الأدراج، كان بمنزلة بيان بالأسعار، حيث قامت بيدي الحكيمة بتنظيم جميع معاملات المتجر. كانت بيدي حفيدة العمة الكبرى للسيد ووبسل؛ أعترف بأنني لم أتمكن تماماً من فهم علاقتها بالسيد ووبسل. كانت بيدي يتيمة مثلي، وقد رُبّت باليد، مثلي أيضاً. كنت أرى أن أطرافها كانت أكثر شيء يلاحظ فيها؛ لأن شعرها كان دائماً يحتاج إلى تمشيطة، ويديها دائماً ينقصهما الغسل، وحذاءها دائماً يحتاج إلى إصلاحه ورفعها من عند الكعب. هذا الوصف ينطبق على أيام الأسبوع فقط، أما أيام الأحاد، فكانت تذهب إلى الكنيسة في أبهى حلّتها.

في جزء كبير من تعليمي الحر، وبمساعدة بيدي أكثر من العمة الكبرى للسيد ووبسل، صمدت أمام الأبجدية كأنها شجيرات العليق المشوكة؛ وشعرت بالقلق الشديد والخدش من كل حرف. بعد ذلك وقعت بين اللصوص، الأرقام التسعة، الذين بدوا كل مساء كأنهم يجدون حيلة جديدة للتكرار كي يتعذر التعرف عليهم. ولكن، أخيراً، بدأت أتحمس طريقي نحو القراءة والكتابة والتعامل مع الأرقام، في أضيق الحدود.

في إحدى الليالي كنتُ جالساً في زاوية المدفأة ومعني لوح الكتابة الخاص بي، وأبذل جهداً كبيراً في كتابة رسالة إلى جو. أعتقد أنه لا بد أنه قد مرّ عام كامل منذ قيامنا بالمطاردة في المستنقعات، لأنه مرّ وقت طويل بعد ذلك، وحل صقيع الشتاء القاسي. وضعت اللوح المكتوب

عليه الأبجدية على أرضية المدفأة عند قدمي ليكون مرجعاً لي، وتمكنت خلال ساعة أو ساعتين من كتابة هذه الرسالة الملطخة:

«عذيدي جو، أتمنا أن تقون بخير. أتمنا قريبين ان اسبح قادرن على تاعليموك، يا جو، وبذلك يوصبح كيلانا سعيدن. وعندما اتادرب على يادك، سانمراح كثيرن، صدقيني يا جو. مع ماحباتي، بيب».

لم تكن هناك ضرورة ملحة لتواصلي مع جو عبر الرسائل، حيث كان يجلس بجانبني، وكنا وحدنا. لكنني قمت بتسليم هذه الرسالة المكتوبة (على اللوح الخشبي) بيدي، واستقبلها جو كأنها دليل خارق على سعة اطلاعي.

«يا عزيزي بيب!» صرخ جو وهو يفتح عينيه الزرقاوين على اتساعهما: يا لك من علامة! أليس كذلك؟

قلت، وأنا ألقي نظرة على اللوح وهو يمسك به: «أود أن أصبح كذلك»؛ مع تخوفي من أن الكتابة لم تكن متناسقة إلى حدٍّ ما.

قال جو: انظر، هناك حرف الجيم، وحرف الواو يمكن أن يعني أي شيء! هنا حرف الجيم والواو، إنها جـ - و، إنها جو يا بيب.

لم يسبق لي أن سمعت جو يقرأ بصوت عالٍ إلى أبعد من هذا المقطع الأحادي، وكنت قد لاحظت في الكنيسة يوم الأحد الماضي، عندما حملت بالصدفة كتاب الصلاة الخاص بنا بالمقلوب، أن جو لم يبدُ كأنه قد لاحظ هذا. قلت، راجباً في اغتنام الفرصة الحالية لمعرفة ما إذا كان ينبغي لي أن أبدأ من البداية في تعليم جو: آه! لكن اقرأ الباقي يا جو.

«الباقي يا بيب؟» قال جو وهو ينظر إلى اللوح بنظراتٍ بطيئة متفحصّة: واحد، اثنان، ثلاثة. هناك ثلاثة حروف جيم، وثلاثة حروف واو، وثلاثة جـ - و، أي ثلاثة كلمات جو، يا بيب!

انحنيت فوق جو، ومشيت بسبابتي على الكلمات وأنا أقرأ له الرسالة
بأكملها.

«مذهل!» قال جو عندما انتهيت، «أنت علامة».

«كيف تتهجي جار جيري، يا جو؟» سألته بإشراف متواضع.

قال جو: أنا لا اتهجأها على الإطلاق.

- ولكن لنفترض أنك فعلت؟

قال جو: لا يمكن افتراض ذلك. على الرغم من أنني مغرم جدًا

بالقراءة أيضًا.

- حقًا يا جو؟

«بالتأكيد». قال جو: «أعطني كتابًا جيدًا، أو صحيفة جيدة، وأجلسني

أمام نار جيدة، ولن أطلب أفضل من ذلك، يا ربي!»، وتابع بعد أن فرك

ركبتيه قليلًا، «عندما أجد حرفي الجيم والواو، وأقرأ اسمي أخيرًا،

ج-و، جو، يا لها من متعة!».

استنتجت من هذا أن تعليم جو، مثل المحرك البخاري، كان لا يزال

في مهده. تساءلت وأنا أواصل النقاش:

- ألم تذهب إلى المدرسة قطُّ يا جو عندما كنت صغيرًا مثلي؟

- لا يا ييب.

- لماذا لم تذهب إلى المدرسة يا جو عندما كنت صغيرًا مثلي؟

«حسنًا يا ييب»، قال جو وهو يتناول مسعر النار، ويفعل ما يفعله دائمًا

عندما كان يفكر، وهو تحريك النار ببطء بين القضبان السفلية للمدفأة؛

«سوف أخبرك. لقد كان والدي سكيرًا يا ييب، وعندما كان يغلبه الشرب،

كان يضرب والدتي بشدة، وبلا رحمة. لقد كان هذا هو الضرب الوحيد الذي قام به في الواقع، باستثناء ضربي أنا أيضًا. وكان في ضربي أشد من ضربه على الحديد. أنت تسمعي وتفهمني يا بيب؟».

- نعم يا جو.

- ونتيجة ذلك، هربنا أنا وأمي من والدي عدة مرات؛ ثم كانت والدتي تخرج للعمل، وكانت تقول، «يا الله! الآن، يا جو سوف تحصل على بعض التعليم، يا طفلي» وكانت ترسلني إلى المدرسة. لكن والدي كان طيب القلب إلى درجة أنه لم يستطع أن يتحمل العيش من دوننا؛ لذلك، كان يأتي مع حشد هائل، ويشير ضجة على أبواب المنازل التي كنا فيها، إلى درجة أنهم كانوا مجبرين على عدم التعامل معنا وتسليمنا له، ثم يأخذنا إلى المنزل ويضربنا. قال جو وهو يتوقف في تحريكه التأملّي للنار، وينظر إليّ: وهذا كما ترى يا بيب كان بمنزلة عائق في طريق تعليمي.

- بالتأكيد يا جو المسكين!

قال جو وهو يربت على القضيبي الأعلى للمدفأة بمسعر النار: لكن انظر يا بيب، لكي نعطي كلاً من ذي حقّ حقه ونكون عادلين، فقد كان أبي طيب القلب. أتعلم هذا يا بيب؟

لم أتفق معه؛ ولكنني لم أقل ذلك.

«حسنًا!» تابع جو قائلاً: كان على شخص ما أن يحافظ على مجريات

الأمر، أتعلم هذا يا بيب؟

اتفقت معه في هذا الرأي.

- ونتيجة ذلك، لم يعترض والدي على ذهابي إلى العمل؛ لذلك

ذهبت للعمل في وظيفتي الحالية، التي كان سيحظى بها، لو كان قد اتّبعها، وعملت بجدّ، أوكد لك، ييب. بمرور الوقت، استطعت أن أوّمن له معاشه، واستمررت في تأمين معاشه حتى أصيب بسكتة دماغية. وكانت نيتي أن أضع على شاهد قبره، أنه مهما كانت إخفاقاته، تذكر أيها القارئ أنه كان طيب القلب.

تلا جو هذا المقطع بفخرٍ واضح ودقة بيان، إلى درجة أنني سألته عما إذا كان قد صنع شاهد القبر بنفسه.

قال جو: لقد صبغته بنفسي. صبغته في لحظة واحدة. كان الأمر أشبه بضرب حدوة حصان كاملة بضربة واحدة. لم أنفاجأ كثيرًا طوال حياتي - لم أستطع أن أصدّق الأمر - سأقول لك الحقيقة، لم أصدق أنه من صياغتي أنا. كما كنت أقول يا ييب، كانت تلك نيتي؛ لكنه يكلف مالا كثيرًا، صغيرًا كان أم كبيرًا، فلم أستطع تحمّله. ناهيك بالدائنين، فكل الأموال التي يمكن توفيرها كانت والدتي أولى بها. لقد كانت في حالة سيئة، ومفلسة تمامًا. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على هذه الروح المسكينة حتى لحقت بأبي وحصلت أخيرًا على نصيبها من السلام.

أدمنت عينا جو الزرقاوان قليلًا؛ فرك إحداها أولاً، ثم الأخرى، بطريقة غير ملائمة وغير مريحة إطلاقًا، بالمقبض الدائري الموجود أعلى مسعر النار.

قال جو: «لقد كنت وحيدًا في ذلك الوقت، أعيش هنا وحدي، ثم تعرفت على أختك. اسمع يا ييب...» -نظر جو إليّ بحزمٍ كما لو كان يعلم أنني لن أتفق معه- «إن أختك لامرأة جميلة».

لم أستطع منع نفسي من النظر إلى النار، في حالة شك واضحة.

«مهما كانت آراء العائلة، أو أيًا كانت آراء العالم، حول هذا الموضوع، يا بيب، أختك ...» نقر جو على القضيب العلوي للمدفأة بمسعر النار بعد كل كلمة قالها، «امرأة ... جميلة!».

لم أستطع أن أفكر في شيء أفضل لأقوله من «أنا سعيد لأنك تعتقد ذلك، يا جو».

«وأنا كذلك» عاد جو، ممسكًا بي. «أنا سعيد لأنني أعتقد ذلك يا بيب. القليل من الاحمرار أو النحافة، هنا وهناك، لا تعني لي شيئًا». وعلقت بحكمة أنه إذا لم تعنِ له هذه الأمور شيئًا، فلا يهم على الإطلاق.

«بالتأكيد!» وافق جو. «هذا كل شيء. أنت على حق يا عزيزي! عندما تعرفت على أختك، كان الحديث يدور عن كيفية تربيتك باليد. إنه كرم كبير منها، هذا ما قاله الجميع، وما قلته أنا أيضًا. أما بالنسبة إليك ...» تابع جو بملامح معبرة عن رؤية شيء سيئ للغاية، «لو كنت على دراية بمدى صغرك وضعفك وعجزك، يا عزيزي، لكنت احتقرت نفسك للغاية!».

لم أكن أستمتع بهذا تمامًا، فقلت: لا تهتم بي يا جو.

«لكنني كنت أهتم بك يا بيب» أجاب ببساطة رقيقة. «عندما عرضتُ على أختك الزواج قلت لها إذا قبلت أن تعيشي معي في دكان الحدادة، أحضري معك الطفل الصغير المسكين. بارك الله في هذا الطفل الصغير المسكين، هناك مكان له في الدكان أيضًا!».

انفجرت بالبكاء والاعتذار، وعانقت جو من رقبتة: الذي أسقط مسعر النار وعانقني وقال: نحن أفضل الأصدقاء على الإطلاق؛ أليس كذلك يا بيب؟ لا تبكِ يا عزيزي!

عندما انتهت هذه المقاطعة البسيطة، استأنف جو:

- حسنًا، كما ترى يا بيب، وها نحن أولاء! هذا ما آل إليه الأمر؛ نحن هنا! الآن، عندما تأخذ بيدي وتعلمني، يا بيب (وأنا أقول لك مسبقًا إنني ثقيل الفهم للغاية، ثقيل الفهم إلى أبعد مدى)، يجب ألا تدري بنا السيدة جو وبما نفعله. يجب أن يتم ذلك، كما يمكنني القول، في الخفاء. ولماذا في الخفاء؟ سأخبرك بالسبب يا بيب.

تناول مسعر النار مرة أخرى؛ الذي أشك أنه من دونه كان في إمكانه إكمال شرحه.

- أختك سُلِّمَت للسلطة.

«للسلطة يا جو؟» لقد أذهلتني الكلمة، لأنه كانت لدي فكرة مبهمة عما يعنيه هذا، وأخشى أن أضيف أنني قد تمنيت أن جو قد سلمها للوردات البحرية، أو خزانة الدولة.

قال جو: لقد سُلِّمَت للسلطة. وما أعنيه هو سلطتك وسلطتي.

- آه!

تابع جو: وهي ليست مولعة للغاية بفكرة وجود طلاب في المنزل، كما أنها لن تكون مولعة للغاية بكوني متعلمًا، خوفًا من أن أثور. كنوعٍ من التمرد، ألا ترى؟

كنت سأرد باستفسار، وبدأت بسؤالي «لماذا...» عندما أوقفني جو.

«انتظر قليلًا. أعرف ما ستقوله يا بيب؛ انتظر قليلًا! أنا لا أنكر أن أختك تقهرنا بين الحين والآخر. لا أنكر أنها تنكب علينا، وتنهال علينا بالأثقال. في تلك الأوقات التي تكون أختك فيها نائرة للغاية يا بيب،»

خفض جو صوته إلى همسٍ، ونظر إلى الباب، «الحق يقال إنها تكون قوية مثل الرجال».

نطق جو هذه الجملة، وشدّد عليها تشديدًا كبيرًا. «لماذا لا أثور؟ ذلك كان سؤالك عندما قاطعتك يا بيب؟».

- نعم يا جو.

«حسنًا» مرّر جو مسعر النار إلى يده اليسرى كي يتمكن من تحسّس شاربته، وهو الفعل الذي طالما جعلني أفقد كلّ أمل فيه كلما لجأ إليه، مردفًا: «أختك هي العقل المدبّر، العقل المدبّر».

«ما هو العقل المدبّر؟» سألته، على أمل أن أتمكّن من حثّه على أخذ موقف. لكن جو كان جاهزًا بالإجابة أسرع مما كنت أتوقع، وأوقفني تمامًا بطريقة الاستدلال الدائري، وأجاب بنظرة ثابتة: «هي العقل المدبر».

«وأنا لست عقلاً مدبراً» استأنف جو كلامه بعد أن أشاح بنظره وعاد ليتحسّس شاربته. «وأخيرًا يا بيب، وهذا ما أريد أن أقوله لك بكل جدية يا عزيزي، أرى في أختك الكثير من والدتي المسكينة، امرأة تكدح وتُسْتَعْبَد، وينكسر قلبها الصادق، ولا تحصل أبدًا على السلام في حياتها. أخاف دومًا من الوقوع في خطأ عدم احترام المرأة، وأفضّل أن تخطئ هاتان المرأتان، على أن أكون أنا المخطئ في حقّهما. أتمنى أن أكون أنا فقط من يتم صده يا بيب؛ أتمنى لو لم تطالك النغازة قَطُّ يا عزيزي، وأن أتحمّل أنا كل ذلك على عاتقي؛ ولكن هكذا هي الحياة يا بيب، وآمل أن تقبلها بحلوها ومُرّها».

رغم صغر سني، شعرت أن إعجابي بجو ازداد منذ تلك الليلة. كنا متساوين منذ ذلك اليوم، كما كنا قبله؛ ولكن، في بعض الأحيان عندما

كنت أجلس وأنظر إلى جو وأفكر فيه، كان لديّ إحساس جديد باحترامي له من كل قلبي.

«ومع ذلك» قال جو وهو ينهض ليغذي نار المدفأة؛ «ها هي الساعة الخشبية تعلن قرب الساعة الثامنة، وهي لم تعد إلى المنزل بعد! أتمنى ألا تكون فرس العم بامبلتشوك قد انزلت على قطعة من الجليد».

من حين إلى آخر كانت السيدة جو تقوم برحلات مع العم بامبلتشوك في أيام السوق لمساعدته في شراء الأدوات المنزلية والسلع التي تستدعي لمسة أنثوية، كون العم بامبلتشوك عازبًا ولا يثق في خادم منزله. كان هذا يوم السوق، وكانت السيدة جو في الخارج في إحدى تلك الرحلات.

أشعل جو النار وكنس الموقد، ثم ذهبنا إلى الباب لانتظار العربة. كانت ليلة باردة جافة، والرياح تهب بشدة، وكان الصقيع أبيض وقاسيًا. فكرت أنه إذا بقي شخص ما في المستنقعات هذه الليلة سيكون مصيره الموت، ثم نظرت إلى النجوم، وفكرت في مدى فظاعة أن ينظر إليها رجل وهو يتجمّد حتى الموت، ولا يجد أي مساعدة أو شفقة تهبط إليه من تلك السماء المتلاثلة.

قال جو: ها هي الفرس تأتي، تجلجل مثل الأجراس!

كان صوت الحذاء الحديدي للفرس على الطريق الصعب موسيقيًا للغاية، حيث جاءت مهرولة بنشاطٍ أكثر من المعتاد. أخرجنا كرسيًا، لمساعدة السيدة جو في النزول من العربة، وأججنا النار حتى يتمكننا من رؤية النافذة متوهجة، وقمنا بفحصٍ نهائي للمطبخ للتأكد من وجود كل شيء في مكانه. عندما انتهينا من هذه الاستعدادات، وصلا بالعربة، منهمكين للغاية. نزلت السيدة جو سريعًا، وسرعان ما لحقها العم

بامبلتشوك، وقام بتغطية الفرس بقطعة قماش، وسرعان ما أصبحنا جميعاً في المطبخ، محمّلين بالكثير من الهواء البارد إلى درجة أنه بدا كأنه يطرد كل الحرارة من مدفأة المطبخ.

قالت السيدة جو، وهي تخلع ملابسها على عجلٍ وإثارة، وترمي قبعتها على كتفها لتبقى متدلية بالحبال: - الآن، إذا لم يكن هذا الصبي ممتناً هذه الليلة، فلن يشعر بالامتنان أبداً!

بدوت ممتناً مثل أي صبي في مكاني، من دون علمٍ على الإطلاق بالسبب الذي يدفعه إلى أن يكون ممتناً.

قالت أختي: نأمل فقط ألا يصير شديد الدلال، لكن لديّ مخاوفي. قال السيد بامبلتشوك: إنها ليست من النوع الذي يدلل أيتها الأم، إنها تعرف أفضل.

«هي؟» نظرت إلى جو، وحركت شفتي وحاجبي، «هي؟» نظر جو إليّ وهو يشير بشفتيه وحاجبيه هو الآخر: «هي؟» عندما أمسكت به أختي متلبساً، وضع ظهر يده على أنفه بنظرة الاعتذار المعتادة منه في مثل هذه المواقف، ونظر إليها.

«حسناً؟» قالت أختي بطريقتها اللاذعة، «ما الذي تنظر إليه؟ هل يشتعل المنزل؟».

«إلى من تلمّحون» أشار جو بأدبٍ، «بقول هي».

«إنها سيدة، على ما أعتقد؟» قالت أختي. «ما لم تنادِ الآنسة هافيشام بـ «هو» وأشك في أنك ستذهب إلى هذا الحد».

«الآنسة هافيشام، من الحي الراقي؟» قال جو.

«هل توجد آنسة هافيشام أخرى في وسط المدينة؟» ردت أختي.
«إنها تريد أن يذهب هذا الصبي ويلعب هناك. وبالطبع سيذهب»
قالت أختي وهي تهز رأسها في وجهي كتشجيع لي كي أكون لطيفاً
ومرحاً: «من الأفضل له أن يلعب هناك، وإلا سأذيقه المر».

لقد سمعت عن الآنسة هافيشام من الحي الراقي، وكان الجميع على
بُعد أميال قد سمعوا عن الآنسة هافيشام من الحي الراقي، كسيدة فاحشة
الثراء متجهمّة تعيش في منزل كبير وكثير محصن ضد اللصوص،
وكانت تقود حياة من العزلة.

«حسنًا دعوني أتأكد!» قال جو مذهولاً. «أتساءل كيف عرفت بيب!».

«يا لك من ساذج!» صاحت أختي، «ومن قال إنها تعرفه؟».

ألمح جو مرة أخرى بأدبٍ: ألم يذكر أحدكما أنها تريده أن يذهب
ويلعب هناك.

«ألم يكن في وسعها أن تسأل العم بامبلتشوك إذا كان يعرف صبيًا
يذهب ويلعب هناك؟ أليس من الممكن بالكاد أن يكون العم بامبلتشوك
مستأجرًا لديها، وأنه يذهب إلى هناك - لن نقول كل ثلاثة أو ستة أشهر،
لأن ذلك سيكون كثيرًا على فهمك - ولكن في بعض الأحيان، لدفع
إيجاره؟ ثم ألا يمكنها أن تسأل العم بامبلتشوك إذا كان يعرف صبيًا
يذهب ويلعب هناك؟ وألا يستطيع العم بامبلتشوك، الذي كان دائمًا مقدراً
ومراعياً لأمرنا، على الرغم من أنك قد لا تعتقد ذلك يا جوزيف» قالت
ذلك بنبرة تنطوي على أعماق اللوم، كما لو كان أكثر أبناء الأخ قسوة، ثم
أردفت: «يستطيع أن يذكر هذا الصبي الذي كنت عبدة له طوال حياته
والذي يقف متبخرًا هنا؟»، وهو شيء لم أكن أفعله بالتأكيد.

«حسنًا!» صاح العم بامبلتشوك. «نقطة جيدة! شرح وافٍ! جيد حقًا! الآن يا جوزيف، أنت تعلم بالأمر».

«لا يا جوزيف»، قالت أختي، مؤنبه مرة أخرى، بينما كان جو يضع ظهر يده على أنفه مرارًا وتكرارًا بطريقة اعتذارية: «أنت لا تعلم الأمر برمته بعد، على الرغم من أنك قد لا تعتقد ذلك. قد تعتقد أنك تعلم، لكنك لا تعلم يا جوزيف، لأنك لا تعلم أن العم بامبلتشوك، وهو مدرك لأي شيء يمكن أن نقوله، قد يجعل هذا الصبي يجني ثروة من خلال ذهابه إلى منزل الأنسة هافيشام، وقد عرض أن يأخذه إلى المدينة الليلة في عربته الخاصة، وأن يصطحبه معه إلى المدينة ويحتفظ به الليلة، ليأخذه بيديه إلى منزل الأنسة هافيشام صباح الغد. رحمتك يا ربي!» صرخت أختي، وهي تخلع قلنسوتها في يأسٍ مفاجئ: ها أنا أقف أتحدث إلى حمقى مثلكم، والعم بامبلتشوك ينتظر، والفرس تصاب بالبرد عند الباب، والصبي مليء بالقذارة والأوساخ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه!

وبذلك انقضت عليَّ انقضاضة نسر على حمل، وضُغِط وجهي في أوعية خشبية في المغاسل، ووُضِع رأسي تحت صنادير البراميل، وغُسل بالصابون، وعُجِنت، ونُشِّفت، ودُقِّقت، وكُشِطت، وعُذِّبت، حتى فقدت شعوري بكل ما حولي. (قد أشير هنا إلى أنني على علم أكثر من أي شخص آخر، بتأثير نتوءات خاتم الزواج، الذي يمر دون تعاطف على الوجه البشري).

عندما تطهرت بالكامل، وُضِعَت في ملابس نظيفة من أقمشة الأقمشة، مثل شاب تائب يلبس الخيش، وشُدَّت وثاقي في أضيق حلاتي وأكثرها رعبًا. وسُلِّمَت بعد ذلك إلى السيد بامبلتشوك، الذي استقبلني رسميًا كما

لو كان عمدة القرية، وألقى عليّ الخطاب الذي كنت أعرف أنه كان يريد إلقاءه طوال الوقت: يا فتى، كُن ممتنّاً إلى الأبد لجميع الأصدقاء ولا سيما الذين ربوك باليد.

- وداعاً يا جو!

- بارك الله فيك، يا عزيزي بيب!

لم يسبق لي أن انفصلت عن جو من قبل، ومن كثرة مشاعري، وأيضاً رغبة الصابون، لم أتمكن في البداية من رؤية أي نجوم حين نظرت إلى السماء، لكنها بدأت تتلألأ واحدة تلو الأخرى، دون أن تجيب عن أسئلتى: ترى لماذا أذهب للعب في منزل الآنسة هافيشام؟ وأي ألعاب كان من المتوقع أن أعبها بحق السماء؟

الفصل الثامن

كان مقر السيد بامبلتشوك يقع في الشارع الرئيسي لسوق المدينة، وكان مغبرًا بالطحين والبهارات، كما ينبغي أن تكون مباني بائعي الحبوب والبذور. بدا لي أنه لا بد أن يكون رجلًا سعيدًا للغاية حقًا، لأن لديه الكثير من الأدراج الصغيرة في متجره؛ وتساءلت عندما ألقيت نظرة خاطفة على واحد أو اثنين من تلك الأدراج في الطابق السفلي، ورأيت حزم الورق البني المربوطة بالداخل، ما إذا كانت بذور الزهور والبصيلات تود في يوم جميلٍ ما الهروب من تلك السجون والازدهار.

في الصباح الباكر بعد وصولي خطرت ببالي هذه التأملات. ففي الليلة السابقة، أرسلت مباشرة إلى الفراش في العلية ذات السقف المائل، وكان السقف منخفضًا جدًا في الزاوية حيث كان الفراش، إلى درجة أنني حسبت أن القرميد يقع على بُعد قدم من حاجبي. في نفس الصباح الباكر، اكتشفت تقاربًا فريدًا بين البذور والقطيفة المضلعة. كان السيد بامبلتشوك يرتدي القطيفة المضلعة، وكذلك بائع متجره؛ وبطريقة أو بأخرى، كان هناك طابع خاص للقطيفة المضلعة، يشبه طابع البذور؛ وطابع خاص بالبذور، يشبه طابع القطيفة المضلعة، إلى درجة أنني بالكاد استطعت التفريق بينهما. سنحت لي الفرصة أيضًا أن ألاحظ أن السيد بامبلتشوك بدا كأنه يدير عمله من خلال النظر عبر الشارع إلى صانع السروج، الذي

بدا كأنه يمارس عمله من خلال إبقاء عينه على صانع العربات، الذي بدا كأنه يمضي يومه في وضع يديه في جيبه وتأمل الخباز الذي بدوره طوى ذراعيه وحملق إلى البقال الذي وقف عند بابه وتثأب تجاه الصيدلي. كان صانع الساعات، الذي كان منكبًا دائمًا على مكتب صغير مع عدسة مكبرة في عينيه، ويتفحصه دائمًا مجموعة من العمال المنكبون على زجاج نافذة متجره، يبدو كأنه الشخص الوحيد في الشارع الرئيسي الذي انتبه لتجارته.

تناولنا أنا والسيد بامبلتشوك الإفطار في الساعة الثامنة صباحًا في غرفة الاستقبال الواقعة خلف المتجر، بينما أخذ البائع قديمًا من الشاي وقطعة خبز بالزبدة ليتناولهما على جوال من البازلاء في الجزء الأمامي من المتجر. تأملت صحبة السيد بامبلتشوك البائسة. كان قد استحوذ عليّ التفكير في أختي ووجوب إضفاء طابع الذل والتوبة إلى إفطاري، بالإضافة إلى إعطائي أكبر قدر ممكن من فئات الخبز مع أقل قدر ممكن من الزبدة، كانت أختي تضع كمية كبيرة من الماء الدافئ في الحليب بحيث يصير من الأفضل لو أنها لم تضع الحليب على الإطلاق؛ إلى جانب هذا، لم تكن محادثة السيد بامبلتشوك تتألف من أي شيء سوى العمليات الحسابية. عندما قلت له بأدب صباح الخير، قال بتفاخر: «ما حصيلة سبعة مضروبة في تسعة يا فتى؟» وكيف أستطيع أن أجيب، وأنا أتهرب هكذا، في مكان غريب، على معدة فارغة! كنت جائعًا، لكن قبل أن أبتلع لقمة واحدة، بدأ في تناول كمية متواصلة من الطعام استمرت طوال فترة الإفطار. «سبعة؟» «وأربعة؟» «وثمانية؟» «وستة؟» «واثنان؟» «وعشرة؟» وهلمَّ جرًّا. وبعد كل مسألة، كان أقصى ما أستطيع فعله هو الحصول على لقمة أو رشفة

قبل السؤال التالي؛ بينما كان السيد بامبلتشوك يجلس مرتاحًا ولا يخمن أي شيء، ويأكل لحم الخنزير المقدد واللفائف الساخنة (إذا جاز لي التعبير) بالتهام ونهم.

لهذه الأسباب، كنت سعيدًا للغاية عندما حلت الساعة العاشرة، وانطلقنا نحو منزل الأنسة هافيشام؛ على الرغم من أنني لم أكن مرتاحًا على الإطلاق فيما يتعلق بالطريقة التي يجب أن أتصرف بها تحت سقف تلك السيدة. وفي غضون ربع ساعة وصلنا إلى منزل الأنسة هافيشام الموحش والمبني من الطوب القديم، وبه عدد كبير جدًا من القضبان الحديدية. وكانت بعض النوافذ مغطاة بالجدران، أما بقية النوافذ، كانت السفلية منها ذات قضبان صدئة. كان هناك فناء في الأمام، وكان محاطًا بالقضبان الحديدية؛ لذلك كان علينا أن ننتظر، بعد قرع الجرس، حتى يأتي شخص ما ليفتحه. وبينما كنا ننتظر عند البوابة، اختلست النظر (حتى في ذلك الوقت قال السيد بامبلتشوك: «وأربعة عشر؟») لكنني تظاهرت بعدم سماعه)، ورأيت أنه كان يوجد بجانب المنزل مصنع جعة كبير، لم يكن يعمل، وبدا مهجورًا منذ فترة طويلة.

رُفعت النافذة، وصدر صوت واضح متسائل «ما الاسم؟» فأجابه مرشدي: «بامبلتشوك». عاد الصوت، «مضبوط»، وأُغلقت النافذة مرة أخرى، وجاءت فتاة شابة عبر الفناء وبيدها مفاتيح.

قال السيد بامبلتشوك: هذا هو يبب.

«هذا هو يبب، إذن؟» ردَّت الشابة وكانت جميلة للغاية، وبدت معتدة بنفسها إلى حدٍّ كبير؛ «ادخل يا يبب».

وكان السيد بامبلتشوك قادمًا أيضًا عندما استوقفته بالبوابة.

قالت: أوه! هل ترغب في رؤية الأنسة هافيشام؟
أجاب السيد بامبلتشوك منزعجًا: إذا كانت الأنسة هافيشام ترغب
في رؤيتي.

«آه!» قالت الفتاة: لكنها لا تريد ذلك.

قالتها بصورة نهائية، وغير قابلة للنقاش، إلى درجة أن السيد
بامبلتشوك، على الرغم من أنه حُطَّ من منزلته، لم يتمكن من الاحتجاج،
لكنه نظر إليَّ بشدة، كما لو كنت قد فعلت له شيئًا! وغادر وهو يوبّخني
قائلًا: «يا فتى! ليكن سلوكك هنا فخرًا للذين ربُّوك باليد!» كنت أخشى
أن يعود ليسأل عبر البوابة: «وستة عشر؟» لكنه لم يفعل.

أغلقت مرشدتي الشابة البوابة، وعبرنا الفناء النظيف المرصوف،
رغم العشب الذي نما في كل شقٍّ. كان لمباني مصنع الجعة ممرٌ صغير
متصل بالفناء، وكانت البوابات الخشبية لذلك الممر مفتوحة، ومصنع
الجعة خلفه مفتوحًا طوال الطريق إلى الجدار العالي المحيط به؛ وكان
كل شيء فارغًا ومهجورًا. بدا أن الريح الباردة تهب هناك أكثر برودة منها
خارج البوابة؛ وقد أحدثت عواءً صاخبًا حادًا وهي تدخل وتخرج من
الجوانب المفتوحة لمصنع الجعة، مثل ضجيج الرياح التي تضرب بجبال
السفينة في البحر.

رأنتني أنظر إلى المصنع، وقالت: يمكنك أن تشرب كل أنواع الجعة
القوية التي تُخمَّر هناك الآن دون أن تتأذى، يا فتى.

قلت بطريقة خجولة: أعتقد أنني أستطيع ذلك يا آنسة.

- من الأفضل ألا تحاول تجهيز الجعة هناك الآن، وإلا ستصبح
لاذعة يا فتى؛ ألا تعتقد ذلك؟

- يبدو الأمر كذلك يا آنسة.

وأضافت: لا يعني ذلك أن أحدًا ينوي المحاولة، فقد انتهى كل شيء، وسيظل المكان معطلًا كما هو حتى يسقط. أما بالنسبة إلى الجعة القوية، فهناك مخزون منها بالفعل يكفي لإغراق العزبة بأكملها.

- هل هذا اسم هذا المنزل يا آنسة؟

- أحد أسمائه يا فتى.

- لديه أكثر من اسم، إذن يا آنسة؟

- اسم آخر، ساتيس، وهي من اليونانية، أو اللاتينية، أو العبرية، أو الثلاثة جميعًا، كله شيء واحد بالنسبة إليّ، وتعني كافيًا. قلت: منزل كافٍ؛ هذا اسم غريب يا آنسة.

فأجابت: نعم. لكن معناه كان أكبر من هذا. كان يعني، عندما سُمّي بهذا الاسم، أن من يملك هذا المنزل لن يريد أي شيء آخر. أعتقد أنهم كانوا يشعرون بالرضا بسهولة في تلك الأيام. هيا، لا تتسكع يا فتى.

على الرغم من أنها كانت تناديني بـ «الفتى» في كثير من الأحيان، وبإهمال بعيد كل البعد عن كونه مجاملة، إلا أنها كانت في نفس عمري تقريبًا. بدت أكبر مني بكثير، بالطبع، لكونها فتاة، فتاة جميلة ورزينة؛ وكانت تحتقرني كما لو كانت في الحادية والعشرين من عمرها، وملكة متوجة.

ذهبنا إلى المنزل من باب جانبي، وكان المدخل الأمامي الكبير به سلسلتان في الخارج، وأول شيء لاحظته هو أن الممرات كانت كلها مظلمة، وأنها تركت شمعة مشتعلة هناك. أخذت الشمعة، ومررنا بمزيد من الممرات وصعدنا الدرج، وما زال الظلام دامسًا، ولم تضيء لنا الطريق سوى الشمعة.

وأخيرًا وصلنا إلى باب إحدى الغرف، فقالت: ادخل.

أجبتها بخجلٍ أكثر منه أدب: بعدك يا آنسة.

ردت قائلة: «لا تكن سخيًّا أيها الفتى؛ أنا لن أدخل» وابتعدت بازدراء، والأسوأ من ذلك أنها أخذت الشمعة معها.

كان الموقف مربكًا للغاية، وكنت شبه خائف، ومع ذلك، الشيء الوحيد الذي كان عليّ فعله هو أن أطرق الباب، طرقت، وقيل لي من الداخل أن أدخل. لذلك دخلت، ووجدت نفسي في غرفة كبيرة جدًّا، مضاءة جيدًا بالشموع. ولم يكن من الممكن رؤية أي لمحة من ضوء النهار فيها. كانت غرفة تبديل الملابس، كما افترضت من الأثاث، على الرغم من أن معظمه كان له شكل واستخدامات لم أكن أعرفها تمامًا في ذلك الوقت. ولكن كان من أبرزها طاولة مكسوة بمرآة مذهّبة، وقد فهمت من النظرة الأولى أنها طاولة زينة لسيدة راقية.

لست أدري إن كنت سأتعرف على طاولة الزينة بهذه السرعة لو لم تكن هناك سيدة راقية تجلس بجوارها. على كرسي بذراعين، مع مرفقها على الطاولة ورأسها مستند إلى يدها، جلست أغرب سيدة رأيتهَا أو سأراها في حياتي.

كانت ترتدي ثيابًا فخمة - من الساتان والدانتيل والحرير - كلها بيضاء، وكان حذاؤها أبيض، وفي شعرها زهور الزفاف، ويتدلى منه طرحة بيضاء طويلة، لكن شعرها كان أبيض. كانت بعض الجواهر اللامعة تتلألأ على رقبتها وعلى يديها، وكانت بعض الجواهر الأخرى تتلألأ على الطاولة. كانت هناك فساتين أقل فخامة من الفستان الذي ارتدته، وصناديق نصف معبأة، متناثرة في كل مكان. لم تكن انتهت تمامًا

من ارتداء ملابسها؛ إذ لم يكن لديها سوى حذاء واحد، والآخر كان على الطاولة بالقرب من يدها، وكانت طرحة الزفاف نصف مرتبة، ولم تكن ترتدي ساعتها وسلسلتها، وكان هناك بعض من دانتيل الصدر مع تلك الحلي، ومع منديلها، وقفازيها، وبعض الزهور، وكتاب أدعية، كلها مكدسة بشكل فوضوي حول المرأة.

لم أر كل هذه الأشياء في اللحظات القليلة الأولى، على الرغم من أنني رأيت منها أكثر مما يُفترض في تلك اللحظات الأولى. لكنني رأيت أن كل شيء أمامي، والذي كان ينبغي أن يكون أبيض، كان بالفعل أبيض منذ زمن طويل، وقد فقد بريقه، وأصبح باهتًا وأصفر. ورأيت العروس في ثوب العرس قد ذبلت مثل الثوب، ومثل الزهور، ولم يتبقَّ فيها أي لمعان سوى لمعان عينيها الغائرتين. أدركت أن الفستان كان قد وُضع على جسم ممتلئ لامرأة شابة، وأن الجسم الذي كان يتدلى عليه الفستان الآن قد تقلص حتى أصبح جلدًا على عظمًا. ذات مرة، اصطُحبت لرؤية بعض التماثيل الشمعية المخيفة في الكرنفال، لا أدري أي الشخصيات تمثّلها، ومرة أخرى، اصطُحبت إلى إحدى كنائسنا القديمة في المستنقعات لرؤية هيكل عظمي وسط رماد ثوب فاخر استُخرج من قبو تحت بلاط الكنيسة. الآن، بدا كأن تماثيل الشمع والهيكل العظمي لهما أعين داكنة تتحرك وتنظر إليّ، كنت سأصرخ، لو استطعت.

«من؟» قالت السيدة على الطاولة.

- بيب، يا سيدتي.

- بيب؟

- فتى السيد بامبلتشوك يا سيدتي، أتيت للعب هنا.

- اقترب؛ دعني أنظر إليك. اقترب هنا.

وعندما وقفت أمامها متحاشياً النظر إلى عينيها، لاحظت الأشياء المحيطة بها بالتفصيل، ورأيت أن ساعتها توقفت عند التاسعة إلا عشرين دقيقة، وأن الساعة في الغرفة أيضاً توقفت عند التاسعة إلا عشرين دقيقة. قالت الآنسة هافيشام: انظر إليّ. ألا تخاف من امرأة لم ترَ الشمس منذ ولادتك؟

ويؤسفني أن أقول إنني لم أكن خائفاً من إلقاء الكذب الفادح في قولي «لا».

«هل تعرف ما الذي يوجد تحت يدي هنا؟» قالت وهي تضع يديها إحداهما على الأخرى على الجانب الأيسر من الصدر.
«نعم، سيدتي». (جعلني ذلك أفكر في المجرم الشاب).

- ما هو؟

- قلبك.

- مكسور!

نطقت الكلمة بنظرة متلهفة، وبتأكيد قوي، وبابتسامة غريبة فيها نوع من التباهي. بعد ذلك أبقت يديها هناك بعض الوقت، ثم أبعدتهما ببطء كما لو كانتا ثقليْن.

قالت الآنسة هافيشام: أنا متعبة، أريد الترويح عن نفسي، وقد فرغت من الرجال والنساء. هيا لعب.

أعتقد أن القارئ الأكثر مشاكسة سيعترف بأن الآنسة هافيشام لم يكن في إمكانها أن توجه صبيّاً سيئ الحظ مثلي للقيام بأي شيء في العالم

بأسره أصعب من اللعب في ظل هذه الظروف.

وتابعت قائلة: «في بعض الأحيان، تراودني خيالات مريضة، وخيالي المريض يجعلني أريد أن أرى بعض اللعب.. هيا هيا!» حركت أصابع يدها اليمنى بنفاد صبر قائلة: اللعب، اللعب، اللعب!

للحظة، تكشف الخوف من أن تضربني أختي أمام عيني، راودتني فكرة يائسة بأن أتجول في أنحاء الغرفة مقلداً عربة السيد بامبلتشوك، لكنني شعرت بأن أدائي سيكون غير متقن فتخلّيت عن الفكرة، ووقفت أنظر إلى الأنسة هافيشام فيما أعتقد أنها اعتبرته نوعاً من العند، حيث قالت، بعدما تبادلنا نظرات طويلة:

- هل أنت مكابر وعنيد؟

«لا يا سيدتي، أنا أعتذر منك جداً، وآسف جداً لأنني لا أستطيع اللعب الآن. إذا اشتكيت مني فسوف أقع في مشكلة مع أختي، سألعب إذا استطعت؛ ولكن المكان جديد جداً هنا، وغريب جداً، وراقٍ جداً... وكثير». توقفت خوفاً من أن أقول الكثير، أو أنني قد قلت بالفعل، وألقينا نظرة أخرى بعضنا على بعض.

قبل أن تتحدث مرة أخرى، أبعدت عينيها، ونظرت إلى الفستان الذي كانت ترتديه، وإلى طاولة الزينة، وأخيراً إلى نفسها في المرأة.

تمتت قائلة: جديد جداً بالنسبة إليه، وقديم جداً بالنسبة إليّ؛ غريب جداً بالنسبة إليه، ومألوف جداً بالنسبة إليّ؛ وكثير جداً لكلينا! نادٍ إستيلا.

ولأنها كانت لا تزال تنظر إلى انعكاس صورتها في المرأة، اعتقدت أنها لا تزال تتحدث إلى نفسها، والتزمت الصمت.

«نادِ إستيلا،» كررت وهي تنظر إليّ، «تستطيع فعل ذلك، نادِ إستيلا،
عند الباب».

إن الوقوف في الظلام في ممرٍّ غامضٍ بمنزلٍ مجهول، والصراخ على
إستيلا السيدة الصغيرة الساخرة دون رؤيتها أو سماعها، والشعور برفع
الكلفة المروع عند الصباح باسمها، كان أمرًا سيئًا تقريبًا بنفس درجة
اللعب عند الطلب، لكنها أجابت أخيرًا، وظهر نورها كالنجم عبر الممر
المظلم.

أشارت إليها الأنسة هافيشام لتقترب، وتناولت قطعة من الجواهر
من على الطاولة، وجربت انعكاسها على صدرها الصغير البهي، وعلى
شعرها البني الجميل. «ستكون ملكك، يومًا ما يا عزيزتي، وسوف
تستخدمينها جيدًا.. دعيني أراكِ تلعبين الورق مع هذا الصبي».

- مع هذا الصبي؟ لماذا؟ إنه صبي عامل من العامة!

اعتقدت أنني سمعت الأنسة هافيشام تجيب، لكن الأمر بدا مستبعدًا
لللغاية: حسنًا؟ يمكنك أن تكسري قلبه.

«ماذا تلعب يا فتى؟» سألت إستيلا بازدراءٍ شديدٍ.

«لعبة اغلب جارك فقط، يا آنسة».

قالت الأنسة هافيشام لإستيلا: «اغلبيه». لذلك جلسنا للعب الورق.
عندها بدأت أفهم أن كل شيء في الغرفة قد توقف منذ زمن طويل،
مثل المنبه والساعة. لاحظت أن الأنسة هافيشام وضعت قطعة الجواهر
في المكان الذي التقطتها منه بالضبط، بينما كانت إستيلا توزّع الورق،
ألقيت نظرة سريعة على طاولة الزينة مرة أخرى، فرأيت أن الحذاء الذي
عليها، الذي كان أبيض في السابق، والآن أصبح أصفر، لم يُلبَس قطُّ.

أَلْقَيْتُ نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى الْقَدَمِ الَّتِي فَقَدَ مِنْهَا الْحِذَاءَ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجُورِبَ الْحَرِيرِي الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، الَّذِي كَانَ أَبْيَضَ فِي السَّابِقِ وَصَارَ الْآنَ أَصْفَرَ، قَدْ أَصْبَحَ بَالِيًّا، لَكِنْ لَوْ لَا هَذَا الْجُمُودُ الَّذِي أَصَابَ كُلَّ شَيْءٍ، هَذَا الثَّبَاتُ الَّذِي طَالَ الْأَشْيَاءَ الشَّاحِبَةُ الْمُتَحَلِّلَةُ، لَمَا كَانَ فَسْتَانُ الزَّفَافِ الذَّابِلِ عَلَى هَذَا الْجَسَدِ الْمُتَهَالِكِ لِيَبْدُو مِثْلَ الْكَفَنِ، أَوْ الطَّرْحَةِ الطَّوِيلَةِ مِثْلَ السَّتَارِ.

جَلَسْتُ الْآنَسَةَ هَافِيشَامَ كَالْجَنَّةِ بَيْنَمَا كُنَّا نَلْعَبُ الْوَرَقَ؛ تَبَدُّو الْكَشْكَشَةَ وَالزَّرْكَشَةَ عَلَى فَسْتَانِ زَفَافِهَا مِثْلَ الْوَرَقِ التَّرَاجِي. لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَنِ الْبَحْثِ الْمَدْفُونَةِ مِنَ الْعَصُورِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي تُسْتَكْشَفُ أحيانًا، وَالَّتِي تَتَحَوَّلُ إِلَى مَسْحُوقٍ فِي لَحْظَةٍ رَوِّيتِهَا بِوُضُوحٍ؛ لَكِنِّي اعْتَقَدْتُ كَثِيرًا مِنْذُ ذَلِكَ الْحَيْنِ أَنَّهَا لَا بَدَّ أَنَّهَا بَدَتْ كَمَا لَوْ أَنَّ دُخُولَ ضَوْءِ النَّهَارِ كَانَ سَيَحْوِلُهَا إِلَى رَمَادٍ.

«هَذَا الْفَتَى يُسَمِّي شَابَ الْأَوْرَاقِ جَاك!» قَالَتْ إِسْتِيلَا بَازْدِرَاءٍ قَبْلَ انْتِهَاءِ مَبَارَاتِنَا الْأُولَى، «وَيَا لَهَا مِنْ يَدٍ خَشَنَةٍ! وَيَا لَهُ مِنْ حِذَاءٍ غَلِيظٍ!».

لَمْ أَخْجَلْ مِنْ يَدِي مِنْ قَبْلِ؛ لَكِنِّي بَدَأْتُ أَعْتَبِرُهُمَا مُهْمَلَتَيْنِ لِلْغَايَةِ. كَانَ احْتِقَارُهَا لِي قُوًى لِلْغَايَةِ، إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ أَصْبَحَ مَعْدِيًّا، فَأَصَبْتُ بِهِ.

فَازْتُ بِاللَّعْبَةِ، وَوَزَعْتُ أَنَا الْأَوْرَاقَ. أَخْطَأْتُ فِي التَّوْزِيعِ، وَهُوَ شَيْءٌ طَبِيعِي، فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ تَتَرَبَّصُ بِي لِأَرْتَكِبَ خَطَأً؛ وَقَدْ أَتَّهَمْتَنِي بِوَصْفِي صَبِيًّا عَامِلًا غَبِيًّا وَأَخْرَقَ.

قَالَتْ لِي الْآنَسَةُ هَافِيشَامُ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيَّ: أَنْتَ لَا تَقُولُ لَهَا شَيْئًا. إِنَّهَا تَقُولُ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْقَاسِيَةِ عَنكَ، لَكِنَّا لَا تَقُولُ عَنْهَا شَيْئًا. مَا رَأَيْكَ فِيهَا؟

تلعثمت وأنا أقول: لا أحب أن أقول.

قالت الأنسة هافيشام وهي تنحني إلى الأسفل: أخبرني في أذني.

أجبت بصوت هامس: أعتقد أنها متعجرفة للغاية.

- أي شيء آخر؟

- أعتقد أنها جميلة جدًا.

- أي شيء آخر؟

«أعتقد أن سلوكها مهين للغاية.» (كانت الأنسة هافيشام تنظر إليّ

حينها بنفورٍ شديدٍ.)

- أي شيء آخر؟

- أعتقد أنني أود العودة إلى المنزل.

- وألا تراها مرة أخرى أبدًا، رغم أنها جميلة جدًا؟

- لست متأكدًا من أنني لا أريد رؤيتها مرة أخرى، لكنني أود العودة

إلى المنزل الآن.

قالت الأنسة هافيشام بصوتٍ عالٍ: سوف تذهب قريبًا. أنه اللعبة.

باستثناء تلك الابتسامة الغريبة التي أبدتها الأنسة هافيشام في البداية،

كنت سأصبح شبه متأكد أن وجهها لا يقوى على الابتسام. كان قد ارتسم

على وجهها تعبيرٌ متحفظ ومتجهم، على الأرجح عندما أصبحت كل

الأشياء المتعلقة بها ساكنة، وبدا كما لو أنه لا يوجد شيء يمكن أن يرسم

البهجة على محياها مرة أخرى. انخفض صدرها فانحنت. وانخفض

صوتها فتكلمت بصوتٍ خافتٍ وبهدوءٍ تام؛ في المجمل، بدا كأن جسدها

وروحها قد ارتخيا، من الداخل والخارج، تحت وطأة ضربة ساحقة.

لعبت الورق مع إستيلا حتى النهاية، وقد نالت مني. أُلقت الأوراق على الطاولة بعد أن فازت بها جميعاً، كما لو كانت تحترقها لأنها كسبتها مني.

«متى سأستقبلك هنا مرة أخرى؟» قالت الأنسة هافيشام، «دعني أفكر».

كنت قد بدأت أذكّرُها أن اليوم هو الأربعاء، عندما أسكتتني بحركة من أصابع يدها اليمنى بفارغ الصبر كما حدث سابقاً.

- اهدأ اهدأ! أنا لا أهتم بأيام الأسبوع؛ لا أهتم بأسابيع السنة. تعال مرة أخرى بعد ستة أيام.. هل تسمع؟

- نعم، سيدتي.

- إستيلا، خذيه إلى الأسفل. ودعيه يأكل، ودعيه يتجوّل وينظر حوله وهو يأكل.. اذهب يا بيب.

تبعث الشمعة في نزولي، كما تبعثها في صعودي، ووضعتها إستيلا في المكان الذي وجدناها فيه. حتى فتحت المدخل الجانبي، تصورت، دون أن أفكر في الأمر، أن الوقت لا بد أن يكون ليلاً. لقد أربكني اندفاع ضوء النهار تماماً، وجعلني أشعر كأنني كنت في ضوء الشموع في الغرفة العجيبة لساعات طويلة.

قالت إستيلا: «عليك أن تنتظر هنا أيها الفتى». واختفت وأغلقت الباب.

انتهزت فرصة البقاء وحدي في الفناء لأنظر إلى يدي الخشنة وحذائي السوقي. رأيي في تلك الأشياء الثانوية لم يكن إيجابياً. لم يسبق لها أن أزعجتني من قبل، لكنها تزعجني الآن، كملحقاتٍ سوقية. قررت

أن أسأل جو لماذا علّمني أن أطلق على بطاقات الورق هذه اسم «جاك»،
والتي ينبغي أن يطلق عليها اسم «الولد»، تمنيت لو أن جو قد نشأ بطريقة
أكثر تهاديًا، وأنا أيضًا.

عادت ومعها بعض الخبز واللحم وكوب صغير من الجعة. وضعت
الكوب على حجارة الفناء، وأعطتني الخبز واللحم دون أن تنظر إليّ،
بكل وقاحة كما لو كنت كلبًا دنسًا. لقد شعرت بالإهانة، والأذى،
والرفض، والانزعاج، والغضب، والأسف، لم أتمكن من العثور على
الاسم الصحيح للألم الشديد - الله أعلم ما هو اسمه - إلى درجة أن عينيّ
اغروقتا بالدموع. وفي اللحظة التي انبثقت فيها دموعي، نظرت إليّ الفتاة
بسعادة خاطفة لكونها السبب وراءها. لقد منحني هذا القدرة على كبت
دموعي والنظر إليها؛ لذا، رشقتني بنظرة ازدراء، ولكن أعتقد أنها ممزوجة
بتأكدها من أنني كنت مجروحًا للغاية، وتركتني.

لكن عندما ذهبَت، بحثتُ حولي عن مكان أخفي فيه وجهي،
وتوجّهت إلى إحدى بوابات ممر مصنع الجعة، ووضعت كمي على
الحائط هناك، وأسندت جبهتي إليه وبكيت. وبينما كنت أبكي، ركلت
الحائط، ولويت خصلات شعري بقوة؛ كانت مشاعري مريرة جدًا، وكان
الألم الذي لم أستطع تسميته حادًا للغاية، إلى درجة أنه كان يتحتم عليّ
إبطال مفعوله.

لقد جعلتني تربية أختي سريع التأثر. في عالم الأطفال الصغير، أيّا
كان من يربّهم، الإحساس بالظلم هو أكثر شعور يشعرون به ويدركونه
بدقة. وقد لا يكون سوى ظلم بسيطٍ يمكن أن يتعرض له الطفل؛ لكن
الطفل صغير، وعالمه صغير، وحصانه الخشبي الهزاز مُنِيف، كأنه حصان

أيرلندي هائل. لقد عشتُ منذ طفولتي، وفي داخلي، صراعًا دائمًا مع الظلم. كنت أعرف، منذ نعومة أظفاري، أن أختي، بإكراهها غير المُبرَّر والعنيف، كانت ظالمة معي. لقد كان لديَّ قناعة راسخة بأن تربيته لي باليد لم تمنحها الحق في إساءة معاملتي. كنت قد حملت هذا الاقتناع خلال كل العقوبات والإهانات والامتناع عن الأكل والنوم وغيرها من ممارسات الإعراب عن الندم. وبتألمي في الأمر كثيرًا، وحدي وغير مكفول من أحد، أشير وبحسن نية إلى حقيقة أنني صرت جبانًا وسريع التأثر للغاية.

تخلَّصت من مشاعري المجروحة في ذلك الوقت عن طريق ركلها في جدار مصنع الجعة، ولوبها من خصلات شعري، ثم نشفت وجهي بكمِّي، وخرجت من خلف البوابة. كان الخبز واللحم مستساغين، وكانت الجعة دافئة ولاذعة، وسرعان ما أصبحت معنوياتي مرتفعة بالقدر الكافي للنظر حولي.

من المؤكد أنه كان مكانًا مهجورًا، وصولًا إلى برج الحمام في ساحة مصنع الجعة، الذي هبَّت عليه الرياح العاتية، وأصبح مائلًا فوق عموده، وكان من الممكن أن يظن الحمام نفسه في البحر، لو كان هناك أي حمام هناك يهتز داخله. ولكن لم يكن هناك حمام في برج الحمام، ولا خيول في الإسطبل، ولا خنازير في الحظيرة، ولا شعير في المخزن، ولا رائحة حبوب وجعة في الأواني النحاسية أو المعصرة. ربما تكون جميع أغراض وروائح مصنع الجعة قد تبخرت مع آخر رائحة دخان للمصنع. في ساحة جانبية، كانت هناك أرض جرداء مليئة بالبراميل الفارغة، بها ذكريات لاذعة لأيامٍ أفضل تتردد حولها؛ ولكنها كانت لاذعة جدًا إلى درجة أنها

لا يمكنها الترويح عن النفس، ويحضرني في هذا الشأن أن تلك البراميل المنعزلة كانت مثلها مثل كل من انعزل عن هذا العالم.

خلف الجانب الأبعد لمصنع الجعة، كانت توجد حديقة مليئة بالحشائش بجدارٍ قديمٍ؛ لم يكن الجدار مرتفعاً جداً بحيث قمت جاهدًا بتسلقه والصمود فترة كافية لأنفحصها، ورأيت أن الحديقة المليئة بالحشائش هي حديقة المنزل، وأنها كانت مليئة بالأعشاب المتشابكة، ولكن كان هناك مسار على العشب الأخضر المائل إلى الاصفرار، كما لو أن شخصًا ما كان يسير هناك أحيانًا، وأن إستيلا على الرغم من أنها كانت تباعد عني في ذلك الوقت، فقد بدت كأنها في كل مكان. لأنني عندما استسلمت لإغراء البراميل، وبدأت سيرتي عليها، رأيتها تمشي عليها في نهاية ساحة البراميل. أدارت ظهرها نحوي، وأمسكت شعرها البني الجميل وفردته بين يديها، ولم تنظر حولها قط، واختفت عن نظري. لذا، في مصنع الجعة نفسه، وأعني بذلك المكان الكبير والمرتفع المرصوف الذي كانوا يصنعون فيه الجعة، وحيث لا تزال أدوات التخدير موجودة. ألقى مصنع الجعة داخلي جواً من الحزن عندما دخلته أول مرة، وقفت بالقرب من الباب أنظر حولي، رأيت إستيلا تمر بين النيران المطفأة، وتصعد بعض السلالم الحديدية الخفيفة، وتخرج من رواق مرتفع فوق رأسي، كما لو كانت تخرج إلى السماء.

في هذا المكان، وفي هذه اللحظة، حدث شيء غريب لمخيّلتني، اعتقدت أنه شيء غريب حينها، واعتقدت أنه كذلك أيضًا بعد ذلك بوقتٍ طويلٍ. وجّهت عيني -اللتين أضعفهما قليلًا نظر إلى الضوء البارد- نحو عارضة خشبية كبيرة في زاوية منخفضة من المبنى القريب على يميني،

ورأيت شخصًا معلقًا هناك من رقبتة. شخص ملابسه كلها باللون الأبيض المائل إلى الاصفرار، وحذاء واحد فقط؛ وكان معلقًا بحيث أمكنني أن أرى أن زركشة الفستان الباهتة كانت مثل ورق ترابي، وأن الوجه كان وجه الأنسة هافيشام، وظهر على محياها كما لو كانت تحاول مناداتي. في رعب من رؤية ذلك الشكل، وفي رعب من التأكد من أنه لم يكن هناك قبل لحظة، ركضت منه في البداية، ثم ركضت نحوه. وكان الرعب الأعظم عندما لم أجد أي شيء هناك.

قد يكون الضوء البارد للسماء المبهجة، ومنظر الناس وهم يمرون خلف قضبان بوابة الفناء، والتأثير المنعش لبقية الخبز واللحوم والجمعة، قد أعادوا إليّ الحياة قليلًا. لكن حتى مع تلك المساعدات، ربما لم أكن لأستعيد عافيتي بمثل السرعة، لولا رؤيتي لإستيلا تقترب ومعها المفاتيح لتسمح لي بالخروج. اعتقدت أنها ستجد سببًا وجيهًا لازدرائي، إذ رأته خائفًا؛ لذا لن أعطيها مثل هذه الفرصة.

نظرت إليّ بنظرة انتصار عندما مرّت بي، كأنها فرحت لأن يدي كانتا خشتين للغاية، وأن حذائي كان غليظًا للغاية، وفتحت البوابة، ووقفت ممسكة بها. كنت في طريقي للخروج دون النظر إليها، عندما لمستني بيدها مستهزئة.

- لماذا لا تبكي؟

- لأنني لا أريد البكاء.

قالت: أنت تريد البكاء. لقد كنت تبكي حتى أصبحت شبه أعمى، وأنت على وشك البكاء مرة أخرى الآن.

ضحكت بازدراء، ودفعني إلى الخارج، وأغلقت البوابة في وجهي.

ذهبت مباشرة إلى منزل السيد بامبلتشوك، وشعرت بارتياحٍ شديدٍ عندما وجدته خارج المنزل؛ لذا، بعد أن تركت رسالة مع بائع المتجر عن اليوم الذي كنت فيه مطلوباً عند الأنسة هافيشام مرة أخرى، انطلقت في مسيرة أربعة أميال للوصول إلى دكان الحدادة؛ بينما كنت أمضي قُدُماً، كنت أفكر في كل ما رأيته، وأركز بشدة حول كوني صبيّاً عاملاً من العامة، ويداي خشنّة، وحذائي غليظاً، ولديّ عادة بغیضة تتمثّل في تسمية ولد الأوراق بالجاك، وأنني كنت جاهلاً أكثر بكثيرٍ مما كنت أعتبر نفسي الليلة الماضية، وبشكلٍ عام كنت أعيش حياةً وضيعةً متدنيةً.

الفصل التاسع

عندما وصلت إلى المنزل، كانت أختي متلهفة على معرفة كل شيء عن الأنسة هافيشام، وطرحت عددًا من الأسئلة. ولأنني لم أُجب عن هذه الأسئلة بالإسهاب الكافي، سرعان ما وجدت نفسي أتعرض لصدماتٍ شديدة من الخلف في مؤخرة العنق وأسفل الظهر، ويُدفع بوجهي بإذلالٍ على جدار المطبخ.

كان سبب تحفظي هو الخوف من عدم الفهم الذي كان معتمراً في صدري، وكما أتصور أنه نفس الخوف الذي يعتمر في صدور أطفال آخرين، لأنه ليس لديّ أي سبب محدد للشك في أنني كنت حالة شاذة. كنت مقتنعةً بأنني إذا وصفت الأنسة هافيشام كما رأتها عينايا فلن أفهم. ليس هذا فحسب، بل كنت مقتنعةً بأن الأنسة هافيشام أيضاً لن تفهم؛ وعلى الرغم من أنها كانت غير مفهومة تماماً بالنسبة إليّ، فقد كان لديّ انطباع بأنه سيكون هناك شيء قاسٍ وغادر في وصفها كما كانت في الواقع (ناهيك بالأنسة إستيلا) أمام ناظري السيدة جو. ونتيجة لذلك، قلت أقل ما استطعت، ودُفع بوجهي إلى جدار المطبخ.

أسوأ ما في الأمر هو أن ذلك العجوز المتمتر بامبلتشوك، الذي غلبه فضول عارم ليطلع على كل ما رأيته وسمعته هناك، جاء فاعراً فمه في عربته في وقت تناول الشاي، كي أبوح له بالتفاصيل. ومجرد رؤية عذابه،

وعينيه المحدثتين وفمه المفتوح، وشعره الأشقر منتصبًا من الفضول،
وصدريته تعلو وتهبط بمسائل حسابية عاصفة، جعلني لثيمًا في كتمانتي.

«حسنًا يا فتى» بدأ العم بامبلتشوك كلامه حالما جلس على الكرسي
الشرفي بجوار النار. «كيف سارت الأمور في المدينة؟».

أجبت: «جيد جدًا يا سيدي»، وهزّت أختي قبضتها في وجهي.
«جيد جدًا؟» كرر السيد بامبلتشوك، «جيد جدًا ليست بإجابة، أخبرنا
ماذا تقصد بقولك جيدًا جدًا يا فتى؟».

ربما يؤدي دفع الجبهة إلى الجدار إلى العناد، على أي حال، مع
بياض الجدار على جهتي، كان عنادي شديدًا. فكرت لبعض الوقت، ثم
أجبت كأني اكتشفت فكرة جديدة: أعني جيدًا جدًا.

كانت أختي ستهاجمني مع صيحة بنفاد صبرها - لم يكن لديّ أي
جبهة دفاعية، لأن جو كان مشغولاً في دكان الحدادة - عندما تدخل السيد
بامبلتشوك قائلاً: «لا! لا تفقدي أعصابك، اتركي هذا الفتى لي يا سيدتي؛
اتركي هذا الفتى لي» ثم أدارني السيد بامبلتشوك نحوه، كما لو كان
سيقص شعري، وقال:

- أولاً (لنرتب أفكارنا): ما هو نتاج ثلاثة وأربعين بنسًا؟

حسبت العواقب المترتبة على الرد بـ «أربعمائة جنيه»، ووجدتها
ضدي، فاقتربت من الإجابة قدر استطاعتي، والتي كانت تفصلني عن
الإجابة بنحو ثمانية بنسات. بعد ذلك، أخذ السيد بامبلتشوك يختبر
قدرتي الحسابية بدءًا من «اثنا عشر بنسًا يساوي شلنًا واحدًا» إلى «أربعون
بنسًا يساوي ثلاثة شلنات وأربعة بنسات»، ثم سألني منتصرًا، كما لو كان
قد فعل ذلك من أجلي، «الآن! كم ثمن ثلاثة وأربعين بنسًا؟» فأجبت بعد

فترة طويلة من التفكير: «لا أعرف». وقد شعرت بالغضب الشديد إلى درجة أنني كنت أشك في معرفتي للإجابة.

حرك السيد بامبلتشوك رأسه مثل المسمار لانتزاع الإجابة مني، وقال: «هل ثلاثة وأربعون بنسًا تساوي سبعة شلنات وستة بنسات وثلاثة أرباع بنسٍ، على سبيل المثال؟»

قلت: «نعم!» وعلى الرغم من أن أختي لطمت أذني على الفور، فإنه كان من دواعي سروري أن أرى أن الإجابة أفسدت مزحته، وأوصلته إلى طريق مسدود.

«أيها الفتى! ما هو شكل الأنسة هافيشام؟» بدأ السيد بامبلتشوك في الحديث من جديد عندما عاد إلى قواعده، مع طي ذراعيه بقوة على صدره والقيام بحركة المسمار.

قلت له: طويلة جدًا وداكنة.

«هل هي كذلك يا عمي؟» سألت أختي.

غمز السيد بامبلتشوك بالموافقة؛ ومنه استنتجت على الفور أنه لم يرَ الأنسة هافيشام من قبل، لأنها لم تكن كذلك قط.

«جيد!» قال السيد بامبلتشوك بعجرفة. («هذه أنسب طريقة للتعامل!

لقد بدأنا نتدبر أمره، على ما أعتقد، أليس كذلك أيتها الأم؟»

ردت السيدة جو: أنا متأكدة يا عمي، أتمنى أن تتعامل معه دائمًا؛ أنت تعرف جيدًا كيفية التصرف معه.

«الآن يا فتى! ماذا كانت الأنسة هافيشام تفعل عندما دخلت اليوم؟» سأل السيد بامبلتشوك.

أجبت: كانت تجلس في عربة مخملية سوداء.

كان السيد بامبلتشوك والسيدة جو يحرق بعضهما إلى بعض بشدة،
وكرر كلاهما: في عربة مخملية سوداء؟

قلت: نعم. وقد سلمتها الآنسة إستيلا — ابنة أختها على ما أعتقد —
كعكة ونبذاً من نافذة العربة، على طبق ذهبي. وجميعنا تناولنا الكعك
والنبذ على أطباق ذهبية. ونهضت خلف العربة لأكل طعامي، لأنها
طلبت مني ذلك.

«هل كان هناك أي شخص آخر؟» سأل السيد بامبلتشوك.

قلت: أربعة كلاب.

— كبيرة أم صغيرة؟

قلت: عملاقة، وتقاتلوا من أجل الحصول على أضلاع لحم العجل
من سلة فضية.

حرق السيد بامبلتشوك والسيدة جو بعضهما إلى بعض مرة أخرى
في ذهول تام. كنت مضطرباً تماماً، شاهداً أهوج تحت التعذيب، وكنت
سأخبرهما أي شيء.

«يا إلهي أين كانت هذه العربة؟» سألت أختي.

«في غرفة الآنسة هافيشام» حدّقوا مرة أخرى. «ولكن لم يكن هناك أي
خيول» أضفت هذه العبارة المخلّصة، وفي نفس اللحظة طردت من خيالي
صورة أربعة جياد باللسة مزركشة كانت لديّ أفكار جامحة لتلجيمها.

سألت السيدة جو: هل هذا ممكن يا عمي؟ ماذا يمكن أن يعني

الصبي؟

قال السيد بامبلتشوك: سأخبرك أيتها الأم. رأيي هو أنها كرسي مثل الهودج. إنها غريبة الأطوار، كما تعلمين، -غريبة الأطوار جدًا- غريبة الأطوار تمامًا بما يكفي لتمضية أيامها على كرسي مثل الهودج.

«هل رأيته في هذا الكرسي يا عمي؟» سألت السيدة جو.

أجاب مجبرًا على الاعتراف: كيف وأنا لم أرها في حياتي؟ لم تقع عيناها عليها قط!

- يا إلهي يا عمي! ومع ذلك تحدثت معها؟

قال السيد بامبلتشوك بنبرة حادة: ألا تعلمين أنه عندما كنت هناك، أخذتُ إلى خارج بابها، وكان الباب مفتوحًا جزئيًا، وتحدثت معي هكذا. لا تقولي إنك لا تعرفين ذلك أيتها الأم. على أي حال، لقد ذهب الصبي إلى هناك للعب. ماذا كنت تلعب يا فتى؟

قلت: «لقد لعبنا بالأعلام.» (يجب التنويه أنني أفكر في نفسي بذهول عندما أتذكر الأكاذيب التي قلتها في هذه المناسبة).

«الأعلام!» رددت أختي.

أجبت: نعم. لوّحت إستيلا بعلم أزرق، وأنا بعلم أحمر، ولوّحت الآنسة هافيشام بعلم تناثرت عليه نجوم ذهبية صغيرة، عند نافذة العربة. وبعد ذلك لوحنا جميعًا بسيوفنا وهللنا.

كررت أختي: سيوف! من أين حصلتم على السيوف؟

قلت: من الخزانة. ورأيت فيها مسدسات، ومربى، وحبوبًا. ولم يدخل الغرفة ضوء النهار، بل كانت مضاءة بالكامل بالشموع.

قال السيد بامبلتشوك بإيماءة حادة: «هذا صحيح أيتها الأم. هذا هو

واقع الأمر، لقد رأيته بنفسى». وبعد ذلك حدقا إليّ، وحدقت إليهما، طابعاً السذاجة على وجهى، وأمسكت بثنايا بنطالى بيدي اليمنى.

لو أنهم سألوني أي أسئلة أخرى، كنت سأخدع نفسى بلا شك، لأننى كنت، وعلى الرغم من كل شيء، على وشك أن أذكر أنه كان هناك منطاد فى الفناء، وكنت سأغامر بهذا التصريح لولا أن اختلاقي للأحداث كان مقسوماً بين تلك الظاهرة ودب فى مصنع الجعة. ومع ذلك، فقد كانوا منشغلين جداً بمناقشة الأعاجيب التى قدمتها لهم بالفعل، مما دفعنى إلى الهرب. ظل الموضوع يشغلهم حتى عاد جو من عمله لتناول كوب من الشاي، وروت له أختى تجاربى المزعومة، فى محاولة للتخفيف عن نفسها أكثر منها إشباع فضول جو.

عندما رأيت جو يفتح عينيه الزرقاوين ويدور بهما فى جميع أنحاء المطبخ فى دهشة عاجزة، اجتاحنى الندم؛ ولكن فقط فيما يتعلق به، وليس أبداً فيما يتعلق بالاثنتين الآخرين. بسبب جو، وجو فقط، رأيت أننى كنت وحشاً صغيراً، بينما جلسوا يتناقشون حول النتائج التى ستأتينى من معرفة الأنسة هافيشام وإحسانها. لم يكن لديهم أدنى شك فى أن الأنسة هافيشام «ستفعل شيئاً» من أجلى؛ وكانت شكوكهم تتعلق بالشكل الذى سيتخذه هذا الشيء. أيدت أختى «الممتلكات». أما السيد بامبلتشوك فكان يؤيد الحصول على مكافأة كبيرة بموجبها أصبح متدرّباً فى التجارة الخاصة بالنبلاء، مثل تجارة الذرة والبذور الخاصة به، على سبيل المثال. أهان جو نفسه إهانة بالغة أمامهما، لأنه عرض اقتراحاً لامعاً بأننى قد أحظى فقط بأحد الكلاب التى قاتلت من أجل ضلوع لحم العجل. قالت أختى: «إذا كان رأسك الأحمق لا يستطيع التعبير بشكل أفضل من ذلك. وإذا كان

لديك أي عمل للقيام به، فمن الأفضل أن تذهب وتفعله» فذهب.
بعد أن غادر السيد بامبلتشوك بعربته، وعندما كانت أختي تغتسل،
تسللت إلى جو في دكان الحدادة، وبقيت بجواره حتى انتهى في المساء.
ثم قلت: «قبل أن تنطفئ النار يا جو، أود أن أقول لك شيئاً».

«صحيح يا بيب؟» قال جو وهو يسحب مقعد تركيب الحدوات
الخاص به بالقرب من المصهر. «حسناً أخبرني. ما الأمر يا بيب؟»
قلت، ممسكاً بكم قميصه المطوي، ولففته بين إصبعي وإبهامي:
«جو، هل تتذكر كل الأمور عن الأنسة هافيشام؟».

قال جو: أتذكر؟ أنا أصدقك! شيء مثير للعجب!

- إنه أمر فظيع يا جو؛ هذا ليس صحيحاً.

«عم تتحدث يا بيب؟» صاح جو وهو يتراجع في دهشة كبيرة. «أنت
لا تقصد أن تقول إنه...».

- نعم؛ كلها أكاذيب يا جو.

«ولكن كلها؟ أنا متأكد أنك لا تقصد أن تقول، يا بيب، إنه لم يكن
هناك عربة مخملية سوداء، أليس كذلك؟» وقفت أهز رأسي. ولكن على
الأقل كان هناك كلاب يا بيب؟ قال جو بطريقة بإقناع: هيا يا بيب، إذا
لم تكن هناك ضلوع لحم العجل، فعلى الأقل كانت هناك كلاب، أليس
كذلك؟

- لا يا جو.

قال جو: كلب واحد؟ جرو؟ أي شيء؟

- لا يا جو، لم يكن هناك شيء من هذا القبيل على الإطلاق.

بينما كنت أركز عيني بئسٍ على جو، كان جو يتأملني بحيرة.
قال جو: بيب، أيها الصديق القديم! هذا لن يجديك نفعًا، أيها الصديق
القديم! أنا أقول لك! ماذا تتوقع أن تجلب لنفسك من كل هذا؟».

- إنه أمر فظيع يا جو؛ أليس كذلك؟

صاح جو: «فظيع؟ شنيع! ما الذي أصابك؟».

«لا أعرف ما الذي استحوذ عليَّ يا جو»، أجبته، وتركت كم قميصه،
وجلست بين الرماد عند قدميه، مدليًا برأسي؛ «لكنني أتمنى لو أنك لم
تعلمني أن أدعو ولد الأوراق بالجاك؛ وأتمنى لو لم يكن حذائي غليظًا
جدًا ولا يدي خشنة للغاية».

وبعد ذلك أخبرت جو أنني شعرت بالتعاسة الشديدة، وأنني لم
أتمكن من شرح موقعي للسيدة جو والسيد بامبلتشوك، اللذين كانا فظين
جدًا معي. وأنه كانت هناك سيدة شابة جميلة في منزل الأنسة هافيشام
وكانت متغطرة بطريقة بغیضة، وأنها قالت إنني من العامة، وأنا أعرف
أنني من العامة، وقد تمنيت ألا أكون من العامة، وأن الأكاذيب صدرت
مني بطريقة أو بأخرى، رغم أنني لا أعرف كيف.

كانت هذه حالة من الحالات الخارجة عن المألوف، كان من الصعب
على جو التعامل معها كما كانت الحال بالنسبة إليّ، لكن جو أبعد القضية
برمتها عن نطاق ما هو خارج عن المألوف، وبهذه الطريقة كبح جماحها.
قال جو بعد بعض التأمل: هناك شيء واحد يجب أن تكون متأكدًا
منه يا بيب؛ الكذب هو الكذب. مهما كان السبب، لم يكن ينبغي لك
الكذب، والكذب من عمل الشيطان، فهو أصل الكذب. لا تقل المزيد
من الأكاذيب يا بيب. هذه ليست الطريقة للتنبُّل من كونك من العامة

أيها الصديق القديم. وفيما يتعلق بكونك من العامة، فأنا لا أتبين الأمر على الإطلاق. أنت غير عادي في بعض الأشياء أنت صغير بطريقة غير عادية. وبالمثل أنت علامة غير عادي.

- لا، أنا جاهل ومتخلف يا جو.

قال جو: حسنًا، انظر إلى الرسالة التي كتبتها الليلة الماضية! كتبها بحروف واضحة أيضًا! لقد رأيت رسائل -هاه! رسائل من النبلاء!- وأقسم إنها لم تكن مكتوبة بحروف واضحة.

- أنا لم أتعلم شيئًا تقريبًا يا جو. أنت تُكبر بي كثيرًا، هذا هو كل ما في الأمر.

قال جو: «حسنًا يا بيب، سواء كان الأمر كذلك أم لا، يجب أن تكون عالمًا عاديًا قبل أن تصبح عالمًا غير عادي، كما آمل! إن الملك الجالس على عرشه، وتواجه على رأسه، لا يمكنه الجلوس وكتابة قراراته البرلمانية بحروف واضحة، دون أن يبدأ بالأبجدية وهو ما زال أميرًا. آه!» أضاف جو بهزة من رأسه مليئة بالمعنى، «وبدأ من حرف الألف أيضًا، وشق طريقه إلى الياء. وأنا أعرف ما يجب فعله، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول إنني فعلته بالضبط».

كان هناك بعض الأمل في هذه الحكمة، بل وشجعتني أيضًا.

تابع جو متفكرًا: أما بالنسبة إلى الأشياء العامة فيما يتعلق بالحرفة وأكل العيش، فقد يكون من الأفضل الاستمرار في صحبة أشخاص من العامة، بدلًا من الخروج للعب مع أشخاص ليسوا من العامة، مما يذكرني، ترى هل كان هناك أعلام؟

- لا يا جو.

- (يؤسفني عدم وجود أعلام، يا بيب). سواء كان كل ما قلته قد حدث بالفعل أم لا، فهو أمر لا يمكن النظر فيه الآن، دون أن يحزن جنون أختك؛ وهو شيء لا يمكن اعتباره متعمداً. انظر هنا يا بيب إلى ما يقال لك من قبل صديق حقيقي، وهذا هو قولي لك. إذا لم تتمكن من النجاح من خلال السير في طرق مستقيمة، فلن تتمكن أبداً من النجاح من خلال السير في طرق ملتوية؛ لذا، لا تقل المزيد من الأكاذيب يا بيب، وعش بصدق ومت سعيداً.

- أنت لست غاضباً مني، جو؟

- لا، أيها الصديق القديم. ولكن مع الأخذ في الاعتبار أن تلك الأكاذيب كانت من النوع المذهل والجريء، في إشارة إلى تلك التي ضمت حكايات عن ضلوع لحم العجل وقاتل الكلاب، فمن يمتنى لك الخير بإخلاص، يا بيب، ينصحك بأن تطلب المغفرة بسبب تلك الأكاذيب في صلاتك، عندما تذهب إلى الطابق العلوي للنوم. هذا كل شيء أيها الصديق القديم، ولا تفعل ذلك أبداً مرة أخرى.

عندما صعدت إلى غرفتي الصغيرة وتلوت صلواتي، لم أنس نصيحة جو، ومع ذلك بسبب عقلي الصغير المضطرب وناكر الجميل، فكرت بعد فترة طويلة من استلقائي، إلى أي مدى ستعتبر إستيلا جو من العامة، وهو مجرد حداد، ومدى غلاظة حذائه ومدى خشونة يده. فكرت كيف كان جو وشقيقتي يجلسان في المطبخ، وكيف ذهبت من المطبخ إلى الفراش، وكيف أن الآنسة هافيشام وإستيلا لم تجلسا في المطبخ قط، لكنهما كانتا أعلى بكثير من مستوى مثل هذه الأفعال الخاصة بالعامة.

غفوت وأنا أتذكر ما «اعتدت فعله» عندما كنت في منزل الآنسة هافيشام؛
كما لو كنت هناك لأسابيع أو أشهر، بدلاً من ساعات؛ وكما لو كانت
ذكرى مألوفة لديّ، وليس حدثاً وارد اليوم فقط.

كان ذلك يوماً لا يُنسى بالنسبة إليّ، لأنه أحدث تغييرات كبيرة في
نفسي. ولكن هذه هي الحال في حياة أي شخص. تخيل أن يوماً محدداً
قد شُطب من تاريخك، وفكر في مدى اختلاف مساره. توقف يا من تقرأ
هذا، وفكر لحظة في السلسلة الطويلة من الحديد أو الذهب، من الأشواك
أو الزهور، التي لم تكن لتقيدك أبداً، لولا تشكيل حلقتها الأولى في يوم
واحد لا يُنسى.

الفصل العاشر

راودتني فكرة موفقة بعد يوم أو يومين عندما استيقظت، وهي أن أفضل خطوة يمكنني اتخاذها كي لا أكون من العامة هي أن أستخلص من بيدي كل ما تعرفه. تنفيذًا لهذه الفكرة النيرة، ذكرت لبيدي عندما ذهبت إلى مدرسة عمّة السيد ووبسل ليلاً، أن لديّ سبباً خاصاً لرغبتني في الارتقاء في الحياة، وأني سأشعر بالامتنان الشديد تجاهها إذا نقلت إليّ كل ما تعلمته. قالت بيدي، التي كانت أكثر الفتيات لطفاً، أنها ستفعل ذلك على الفور، وبدأت بالفعل في تنفيذ وعدها في غضون خمس دقائق.

يمكن استنباط معالم الصف أو البرنامج التعليمي الذي وضعته عمّة السيد ووبسل في الملخص التالي: يأكل التلاميذ التفاح، ويضعون القش على ظهور بعضهم البعض، حتى تستجمع عمّة السيد ووبسل طاقاتها، وتلوّح بعصاها هنا وهناك. وبعد تحمّلهم الهجوم بكل سخريّة، يصطف التلاميذ في صف ويقومون بتمرير كتاب مهترئ من يدٍ إلى يدٍ وسط الغمغمات. كان الكتاب يحتوي على الأبجدية، وبعض الأرقام والجداول، والقليل من التهجئة، أي أنه كان يحتوي عليها في يوم ما. بمجرد أن يبدأ تداول هذا المجلد، تدخل عمّة السيد ووبسل في حالة غيبوبة، ناجمة إما عن النوم وإما نوبة روماتيزمية. ثم يدخل التلاميذ فيما

بينهم في مسابقة الأحذية، بهدف تحديد من يستطيع أن يدوس بقوة أكبر على أصابع الآخر. تستمر هذه الرياضة حتى تندفع بيدي نحوهم وتقوم بتوزيع ثلاثة كتب مقدسة مطموسة (كما لو كانت قطعاً سميكة من اللحم)، أفضل ما يقال عنها إنها مطبوعة بطريقة غير مقروءة أكثر من أي تحفة أدبية صادفتني منذ ذلك الحين، ملطخة بالكامل بالحبر، وسُحق بين أوراقها أنواع مختلفة من الحشرات. عادةً ما يتم تلطيف هذا الجزء من الصف من خلال عدة معارك فردية بين بيدي والطلاب المتمردين. عندما تنتهي المعارك، تعطينا بيدي رقم الصفحة، ثم نقرأ جميعاً بصوتٍ عالٍ ما نستطيعه، أو ما لا نستطيعه، في جوقة مخيفة؛ بيدي تقود بصوتٍ عالٍ، حاد ورتيب، ولا أحد منا لديه أدنى فكرة أو تبجيل لما نقرأه. حين يستمر هذا الضجيج الرهيب لوهلة، يُوقظ تلقائياً عمه السيد ووبسل، التي تميل في وجه صبي أياً كان، وتشدُّ أذنيه. تلك كانت علامة إنهاء الصف في المساء، وخروجنا في الهواء الطلق بصيحات النصر الثقافي. ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن هناك حظر على ترويح أي تلميذ عن نفسه باللوح الكتابي أو حتى بالحبر (في حالة وجوده)، ولكن لم يكن من السهل متابعة مجال الدراسة هذا في فصل الشتاء، لأن المتجر العام الصغير الذي يُعقد فيه الفصول الدراسية -الذي كان أيضاً غرفة جلوس وغرفة نوم عمه السيد ووبسل الكبرى- كان مضاءً بشكلٍ خافتٍ بشمعة وحيدة كثيفة ينبعث منها الدخان.

بدا لي أن الأمر سيستغرق بعض الوقت حتى أتخلص من تصنيفي كواحدٍ من العامة، في ظل هذه الظروف: ومع ذلك، قررت أن أجرب الأمر، وفي ذلك المساء بالذات، بدأت بيدي في تنفيذ اتفاقتنا الخاصة،

من خلال الكشف عن بعض المعلومات من كتالوج الأسعار الصغير الخاص بها، تحت عنوان السكر غير المكرر، أقرضتني حرف دال كبيراً مكتوباً بالطريقة الإنجليزية القديمة لنسخه في المنزل، كانت قد قلّدتَه من عنوان إحدى الصحف، والذي افترضت، حتى أخبرتني ما هو، أنه تصميم لحلية معدنية.

بالطبع كان هناك حانة في القرية، وبالطبع كان جويحب أحياناً تدخين غليونه هناك. تلقيت أوامر صارمة من أختي باستدعائه ذلك المساء في طريقي من المدرسة من الحانة التي تُدعى ثري جولي بارجمن، وإعادته إلى المنزل على مسؤوليتي؛ لذلك توجّهت إلى هناك.

كان هناك مشرب في الحانة، وفواتير طويلة بشكلٍ مقلقٍ مكتوبة بالطباشير على الحائط بجانب الباب، بدت لي أنها لم تُسدّد قطّ. كانت الفواتير هناك على الدوام، وقد صارت أطول مني. لكن كان هناك كمية كبيرة من الطباشير في قريتنا، وربما لم يتهاون الناس عن استخدامها في أي فرصة سانحة.

كانت ليلة يوم السبت، وجدتُ المالك ينظر بتجهمٍ إلى حدٍّ ما إلى هذه الحسابات؛ ولكن بما أن شأني كان مع جو وليس معه، فقد تمنيت له أمسية طيبة فقط، ودخلت غرفة الاستراحة في نهاية الممر، حيث كانت هناك مدفأة كبيرة متوهجة، وحيث كان جو يدخن غليونه بصحبة السيد ووبسل وشخص غريب. استقبلني جو كالعادة قائلاً: «أهلاً بك يا بيب، أيها الصديق القديم!» وفي اللحظة التي قال فيها ذلك، أدار الغريب رأسه ونظر إليّ.

كان رجلاً ذا مظهر غامض لم أره من قبل. كان رأسه يميل كله إلى

جانب واحد، وكانت إحدى عينيه نصف مغلقة، كما لو كان يصوب مسدسًا خفيًا نحو شيء ما. كان لديه غليون في فمه، فأخرجته، وبعد أن نفث دخانه ببطء بعيدًا وهو ينظر إليّ بشدة طوال الوقت، أوماً برأسه. لذلك أومأت برأسي، ثم أوماً برأسه مرة أخرى، وأفسح المجال على المقعد بجانبه حتى أجلس هناك.

لكن بما أنني اعتدت الجلوس بجانب جو كلما دخلت ذلك الملاذ، قلت: «لا، شكرًا لك يا سيدي»، وجلست في المساحة التي خصصها لي جو على المقعد المقابل. بعد أن نظر الرجل الغريب إلى جو، ورأى أن انتباهه كان مشغولًا بطريقة أخرى، أوماً إليّ مرة أخرى عندما جلست في مقعدي، ثم فرك ساقه بطريقة بدت لي غريبة للغاية.

قال الرجل الغريب وهو يستدير نحو جو: كنت تقول إنك حداد.

قال جو: نعم. لقد قلت ذلك، كما تعلم.

– ماذا ستشرب يا سيد...؟ أنت لم تذكر اسمك بالمناسبة.

ذكر جو اسمه، وناداه به الرجل الغريب قائلاً: ماذا ستشرب يا سيد

جارجيرى؟ على حسابي؟ شرابًا آخر؟

قال جو: حسنًا، سأقول لك الحقيقة، أنا لست معتادًا الشرب إلا على

نفقتي الخاصة.

«معتادًا؟ لا» أجاب الغريب، «ولكن من وقت لآخر، وفي ليلة السبت

أيضًا. هيا! ما مشروبك يا سيد جارجيرى».

قال جو: لا أرغب في أن أكون رقيقًا عنيديًا. إنه الروم.

«الروم»، كرر الغريب. «وماذا عن السيد الآخر؟».

«الروم»، قال السيد ووبسل.

«ثلاثة كؤوس من الروم!» صاح الغريب، منادياً مالك الحانة، «على حسابي!».

«هذا السيد الآخر» قال جو موجهًا بصره تجاه السيد ووبسل مقدماً إياه «هو رجل نبيل تود أن تسمعه وهو يلقي التراتيل، فهو كاتبنا في الكنيسة».

«آها!» قال الغريب بسرعة وهو ينظر إليّ، «الكنيسة المنعزلة، التي تقع على المستنقعات مباشرةً، وتحيط بها القبور!».

قال جو: هي بعينها.

وضع الغريب ساقيه على المقعد الذي يشغله وحده، وهو يصدر نحيباً ناعماً عبر غليونه. كان يرتدي قبعة مسافر عريضة الحواف، وتحتها منديل مربوط فوق رأسه على شكل قبعة: حتى لا يظهر أي شعر. عندما نظر إلى النار، اعتقدت أنني رأيت على وجهه تعبيراً ماكرًا، أعقبه شبه ضحكة. «أنا لا أعرف هذه البلدة أيها السادة، لكن المناطق في اتجاه النهر تبدو منعزلة».

قال جو: معظم المستنقعات منعزلة.

- لا شك، لا شك. هل تصادفون في المستنقعات أي عجر، أو صعاليك، أو متشردين من أي نوع؟

قال جو: لا. لا أحد سوى مدان هارب بين الحين والآخر. ولا نعثر عليهم بسهولة. أليس كذلك يا سيد ووبسل؟

وافق السيد ووبسل بفتورٍ، مع ذكرى مهيبة لخيبته القديمة.

«تبدو كأنك خرجت في البحث عنهم من قبل، أليس كذلك؟» سأل الغريب.

«مرة واحدة» أجاب جو، «ليس لأننا أردنا القبض عليهم، كما تعلم؛ خرجنا كمتفريجين؛ أنا والسيد ووبسل وبيب. أليس كذلك يا بيب؟»
- نعم يا جو.

نظر إليّ الغريب مجددًا، وهو لا يزال يصوّب بعينه، كما لو كان يستهدفني صراحةً بمسدسه الخفي، وقال: يبدو كأنه حزمة صغيرة من العظام. ما اسمه؟
«بيب» قال جو.

- اسمه بالمعمودية بيب؟

- لا، ليس اسمه بالمعمودية.

- اللقب بيب؟

قال جو: لا، إنه مثل اسم عائلي أطلقه على نفسه وهو طفل صغير، وصار يُنادى به.
- ولذلك؟

«حسنًا» قال جو متأملًا، ليس بالطبع لأنه من الضروري التفكير في هذا الأمر بأي حال من الأحوال، ولكن لأنها كانت طريقة الحديث في الجولي بارجن، حيث يبدو أن كل شخص يفكر بعمق في كل ما يُناقش عبر دخان الغليون، «حسنًا، لا، لا، ليس ولدي».

«ابن أخيك؟» قال الرجل الغريب.

قال جو بنفس التفكير العميق: حسنًا، إنه ليس... لا، لا تجعل

المظاهر تخذعك، إنه ليس ابن أخي.

«من هو بحق السماء؟» سأل الغريب. بدالي الاستفسار حادًا بلا داع. حينها أخذ السيد ووبسل الأمر على عاتقه؛ كشخصٍ يعرف كل شيء عن العلاقات، وبحكم مهنته ككاتب في الكنيسة فهو يأخذ في الحسبان الصلات العائلية التي قد تحول بين زواج المرأة والرجل؛ وشرح العلاقة بيني وبين جو. بعد تدخله، أنهى السيد ووبسل مقطعًا مدويًا بشكلٍ مرعب من مسرحية ريتشارد الثالث، وبدأ أنه يعتقد أنه فعل ما يكفي لتفسير ذلك عندما أضاف، «... كما يقول الشاعر».

وهنا يمكنني أن أبدي ملحوظة أنه عندما أشار السيد ووبسل إليّ، اعتبر أنه جزء ضروري من هذه الإشارة أن يشعث شعري ويدخله في عيني. لا أفهم لم كان كل من يزور منزلنا من الكبار كان يعاملني دائمًا بنفس المعاملة الاستفزازية في مواقف شبيهة. ومع ذلك، لا أتذكر أنني كنت في طفولتي السابقة موضوعًا للتعليق في دائرة عائلتنا الاجتماعية، إلا وكان هناك دومًا شخصٌ ذو يدٍ غليظة يعاملني بتعالٍ ويؤذي عيني.

طوال هذا الوقت، لم يكن الرجل الغريب ينظر إلى أحد سواي، ونظر إليّ كما لو كان مصممًا على إطلاق النار عليّ أخيرًا وإسقاطي، لكنه لم يقل شيئًا بعد سؤاله الأخير، حتى أحضرت كؤوس الروم والماء؛ قام بتسديده، وكانت تسديدة غير عادية بالمرة.

لم تكن ملاحظة لفظية، بل كان عرضًا صامتًا، وكان موجهاً إليّ بوضوح. مزج مشروب الروم والماء في وجهي بشدة، ثم تذوقه في وجهي بشكلٍ واضح، وحرّكه وتذوقه، ليس بالملقعة التي أتت مع الشراب، بل بالمبرد.

فعل الغريب هذا بحيث لا يرى المبرد أحدٌ غيري؛ ثم مسح المبرد ووضعه في جيب الصدر. في اللحظة التي رأيت فيها المبرد، عرفت أنه يخص جو، وعرفت أن الغريب يعرف المدان الخاص بي. جلست أنظر إليه، مذهولاً، لكنه الآن اتكأ على أريكته، ولم ينتبه إليّ كثيراً، وتحدث بشكل أساسي عن اللفت.

في ليالي السبت في قريتنا، كان هناك إحساس لذيذ بالتطهر والتأني قبل مواصلة الحياة من جديد، مما كان يحفز جو على أن يتجرأ ويبقى خارج المنزل نصف ساعة أطول من الأيام الأخرى. وبعد مرور نصف الساعة ومع نفاد مشروب الروم والماء، نهض جو ليذهب إلى المنزل، وأمسك بيدي.

قال الرجل الغريب: لحظة يا سيد جاريجري، أعتقد أن لديّ شلناً جديداً لامعاً في مكان ما في جيبِي، وإذا كان لديّ، فسيحصل عليه الصبي. بحث عنه وسط حفنة من العملات المعدنية الصغيرة، ولقَّه في ورق مجعد، وأعطاني إياه.

قال الغريب: هذا لك! تذكر! إنه لك.

شكرته، وحملت إليه بعيداً عن حدود الأخلاق الحميدة، وتمسكت بجو. تمنى الغريب لجو ليلة سعيدة، وللسيد ووبسل (الذي خرج معنا)، ورمقني فقط بنظرة بعينه المصوبة؛ لا، ليست نظرة، لأنه غمز بها، ويا لها من غمزة.

في طريق عودتي إلى المنزل، إذا كنت في مزاج للتحدث، فكان يجب عليّ أن أتولى دفعة الحديث وحدي، لأن السيد ووبسل انفصل عنا عند باب الجولي بارجمن، وأبقى جو فمه مفتوحاً على مصراعيه طوال الطريق إلى

المنزل، ليخفف من رائحة الروم بأكبر قدرٍ ممكن من الهواء. لكنني كنت بطريقتي ما مشدوهاً بسبب الكشف عن خطيئتي القديمة ومعارفي القدامى، ولم أستطع التفكير في أي شيء آخر.

لم تكن أختي في حالة مزاجية سيئة للغاية عندما دخلنا إلى المطبخ، وقد تشجع جو بسبب هذه الحالة الاستثنائية ليخبرها عن الشلن اللامع، قالت السيدة جو بانتصار: عملة تالفة، أنا متأكدة وإلا لما أعطائها للصبي! لنلقِ نظرة.

أخرجتُ الشلن من ورقته، وأثبتُّ أنه عملة جيدة. «ولكن ما هذا؟» قالت السيدة جو وهي ترمي الشلن وتلتقط الورقة، «ورقتان بقيمة جنيهين؟».

ورقتان نقديتان رطبتان قيمة كل منهما جنيه واحد، ويبدو من حالهما أنهما مرّا على جميع أسواق الماشية في المقاطعة وبحميمية مطلقة. التقط جو قبعته مرة أخرى، وركض بهما إلى الجولي بارجمن لإعادتهما إلى مالكهما. في أثناء رحيله، جلست على مقعدي المعتاد، ونظرت إلى أختي نظرة خاوية، وكنت على يقين من أن الرجل لن يكون هناك.

عاد جو سريعاً، قائلاً إن الرجل رحل، لكنه، جو، ترك كلمة لدى الثري جولي بارجمن بخصوص الأوراق النقدية، ثم وضعتهما أختي بإحكام داخل قطعة من الورق، ووضعتها تحت بعض أوراق الورد المجففة داخل إبريق شاي مزخرف أعلى خزانة في حجرة الجلوس. بقيت الورقتان النقديتان هناك، مشكّلتين كابوساً لي، لأيام وأيام على التوالي.

لسوء الحظ، تقطّع نومي عندما ذهبت إلى الفراش، بسبب التفكير

في الرجل الغريب الذي كان يستهدفني بمسدسه الخفي، وبسبب الفعل
السوقي الصادر من شخص من العامة مثلي، وهو التآمر مع المدانين،
وهي سمة من سمات مسيرتي المتدنية التي كنت قد نسيتها آنفًا. طاردني
المبرد أيضًا. كنت أوجس خيفة من أنه سيظهر مرة أخرى في وقتٍ لم
أتوقعه على الإطلاق. خلدت للنوم بعد خداع نفسي بالتفكير في زيارتي
لمنزل الأنسة هافيشام يوم الأربعاء المقبل؛ وفي نومي رأيت المبرد ينقض
عليّ من ناحية الباب دون أن أرى من يحمله، فصرخت مستيقظًا.

الفصل (الحادي عشر

في اليوم الموعود عدتُ إلى منزل الأنسة هافيشام، وأدّى رنيني المتذبذب على البوابة إلى خروج إستيلا. أغلقت إستيلا البوابة بإحكامٍ بعد أن سمحت لي بالدخول، كما فعلت من قبل، وسبقني مرة أخرى إلى الممر المظلم حيث وقفت شمعتها. لم تنتبه إليّ حتى أمسكت بالشمعة في يدها، عندما نظرت من فوق كتفها، وقالت بغطرسة: «سوف تأتي من هذا الطريق اليوم»، وأخذتني إلى جزءٍ مختلف تمامًا من المنزل.

كان الممر طويلاً، وبدا أنه يمتد بطول قبو العزبة المربع. لكننا اجتزنا جانباً واحداً فقط من المربع، وفي نهايته توقفت، وأنزلت شمعتها وفتحت الباب. هنا، ظهر ضوء النهار من جديد، ووجدت نفسي في فناء صغيرٍ مرصوف، شُيّد على الجانب الآخر منه مسكن مستقل، بدا كما لو أنه كان في السابق ملكاً لمدير أو رئيس موظفي مصنع الجعة المهجور. كانت هناك ساعة على الجدار الخارجي للمسكن، توقفت عند الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة، مثل ساعة الأنسة هافيشام وساعة الجدار في غرفتها.

دخلنا من الباب الذي بقي مفتوحاً، ودخلنا إلى غرفة معتمة ذات سقفٍ منخفضٍ، في الطابق الأرضي في الخلف. كان هناك بعض الأشخاص في الغرفة، وقالت لي إستيلا وهي تنضم إليهم: «عليك أن تذهب وتقف هناك يا فتى، حتى تُطلب». قالت: «هناك» وأشارت إلى النافذة، فاجتزت الغرفة إليها، ووقفت «هناك» أنظر إلى الخارج، وأنا في منتهى الحرج.

كانت النافذة تكشف الأرض بالخارج، وتطل على الزاوية الأكثر
بؤسًا في الحديقة المهجورة، بها بقايا سيقان الكرنب، وشجرة بقس
واحدة شُدَّت على شكلٍ مستديرٍ منذ فترة طويلة، تشبه حلوى البودنج،
ونبت لها جزء جديد في الجزء العلوي منها، بشكلٍ ولونٍ مختلفين،
كما لو أن هذا الجزء من البودنج قد التصق بالقدر واحترق. كان هذا هو
تفكيرى المبسَّط، وأنا أتأمل شجرة البقس. كان هناك بعض الثلج الخفيف
خلال الليل، ولم يكن موجودًا في أي مكان آخر على حد علمي؛ لكنه لم
يُذَب تمامًا من الظل البارد لهذا الجزء من الحديقة، وقد التقطته الريح في
دواماتٍ صغيرة وألقته على النافذة، كما لو كان يرجمني بسبب ذهابي إلى
هناك.

استشعرتُ أن مجيئي أوقف الحديث في الغرفة، وأن بقية الحضور
كانوا ينظرون إليَّ. لم أتمكن من رؤية أي شيء في الغرفة سوى لمعان
النار في زجاج النافذة، لكن كل مفاصلي تصلَّبت مع إدراكي أنني كنت
مُراقبًا.

كان هناك ثلاث سيدات ورجل نبيل في الغرفة. قبل مرور خمس
دقائق لي عند النافذة، أوحوا إليَّ بطريقة أو بأخرى أنهم جميعًا متملقون
ومحتالون، لكن كل واحد منهم تظاهر بأنه لا يعلم أن الآخرين كانوا
كذلك؛ لأن الاعتراف بأنه كان يعلم ذلك من شأنه أن يجعله هو نفسه
متملقًا ومحتالًا.

كان يغمرهم جميعًا جوٌّ باردٌ وموحشٌ من انتظار لقاء شخص ما،
وكان على السيدة الأكثر ثرثرة بينهم أن تتحدث بحزم شديد لكي تحبس
تثاؤبها. هذه السيدة، واسمها كاميللا، ذكَّرتني كثيرًا بأختي، مع فارق أنها

أكبر سنًا، و(كما وجدت عندما رأيتها) أن ملامحها أكثر استدارة. في الحقيقة، عندما عرفتها بشكلٍ أفضل بدأت أعتقد أنه من حسن الحظ أن لديها أي ملامح على الإطلاق، حيث يقف وجهها خاويًا وعاليًا كالحائط السد.

«يا له من مسكين!» قالت هذه السيدة بطريقة مفاجئة تمامًا مثل أختي، «فهو عدو نفسه!».

قال السيد: كان من الأجدي به أن يكون عدوًا لشخصٍ آخر؛ لصار الأمر طبيعيًا إلى حدٍّ بعيدٍ.

وعلقت سيدة أخرى: يا ابن العم ريموند، علينا أن نحب جارنا. أجب ابن العم ريموند: سارة بوكيت، إذا لم يكن الرجل جار نفسه، فمن هو جاره؟

ضحكت الأنسة بوكيت، وضحكت كاميلا وقالت (وهي تحبس ثأؤبها): «يا لها من فكرة!» لكنني اعتقدت أنهم يعتقدون أنها فكرة جيدة أيضًا. قالت السيدة الأخرى، التي لم تتكلم بعد، بوقارٍ وتقدير: صحيح جدًا!

«يا له من مسكين!» تابعت كاميلا على الفور (كنت أعلم أنهم كانوا جميعًا ينظرون إليّ في ظل هذه الأثناء)، «إنه غريب جدًا جدًا! هل يصدّق أحد أنه عندما ماتت زوجة توم، لم يتمكّن أحد من إقناعه بأهمية حصول الأطفال على أفضل الثياب للحداد؟» قال الرجل: يا إلهي! كاميلا، هذا لا يهم ما دام هؤلاء الأطفال الثكلى المساكين يلبسون الأسود! إنه طبع ماثيو! يا لها من فكرة!

قال ابن العم ريموند: لنذكر صفاته الحسنة، لنذكر صفاته الحسنة.

معاذ الله أن أنكر صفاته الحسنة؛ لكنه لم يكن لديه أي صفات حسنة قط، ولن يكون لديه أبداً أي لياقة.

قالت كاميليا: «أنت تعلم أنني كنت مضطرة، لقد اضطررت إلى أن أكون حازمة». فقلت: «لن يحدث ذلك، من أجل مصلحة الأسرة». أخبرته أنه من دون أفضل الثياب، سيلحق العار بالأسرة. بكيت من الإفطار حتى العشاء، وأضر هذا بهضمي. وأخيراً اندفع قائلاً باهتياج: «حسنًا، افعلي ما شئت». الحمد لله، سيكون عزائي دائماً أن أعرف أنني خرجت على الفور تحت المطر الغزير واشترت الثياب.

«وقد دفع ثمنها، أليس كذلك؟» سألت إستيلا.

ردّت كاميليا: ليس من المهم يا طفلي العزيزة، من دفع ثمنها، أنا اشتريتها، وكثيراً ما سأفكر في ذلك بسلام، عندما أستيقظ من نومي ليلاً. رنين الجرس البعيد، المصحوب بصدى صياح أو نداء على طول الممر الذي أتيت منه، اعترض المحادثة، وجعل إستيلا تقول لي: «هيا يا فتى!» عند استدارتي، نظروا إليّ جميعاً بأقصى قدرٍ من الازدراء، وعندما خرجت، سمعت سارة بوكيت تقول: «حسنًا، كنت متأكدة! ماذا سيحدث لنا أكثر من هذا!» وتضيف كاميليا بسخطٍ: «هذا ما لم يكن قط في الحسابان! يا لها من فكرة!».

بينما كنّا نسير بالشمعة على طول الممر المظلم، توقفت إستيلا فجأة، وقالت بأسلوبها الساخر، ووجهها قريب جداً من وجهي:

– حسنًا؟

«حسنًا يا آنسة؟» أجبتُ، وكدت أسقط عليها لكني منعت نفسي. وقفتُ تنظر إليّ، وبالطبع وقفتُ أنظر إليها.

- هل أنا جميلة؟

- نعم؛ أعتقد أنكِ جميلة جدًا.

- هل أنا مهينة؟

قلت: ليس كثيرًا كما كنت في المرة الماضية.

- ليس كثيرًا؟

- بلى.

احمرّ وجهها غضبًا عندما سألت السؤال الأخير، وصفعتني على وجهي بقوة عندما أجبت عنه.

«الآن؟» قالت، «أيها المسخ الصغير الغليظ، ما رأيك بي الآن؟».

- لن أخبرك.

- لأنك ستخبر الأنسة هافيشام في الطابق العلوي، هل هذا ما في الأمر؟

قلت: لا، ليس هذا ما في الأمر.

- لماذا لا تبكي مرة أخرى أيها الصعلوك الصغير؟

قلت: «لأنني لن أبكي عليك مرة أخرى أبدًا». أعتقد أن هذه كانت أكبر كذبة على الإطلاق؛ لأنني كنت أبكي عليها داخليًا آنذاك، وأعلم الآن كم الألم الذي سببته لي لاحقًا.

ذهبنا في طريقنا إلى الطابق العلوي بعد هذه الواقعة؛ وبينما كنا نصعد، التقينا برجلٍ نبيلٍ يتلمس طريقه إلى الأسفل.

«من يوجد هنا؟» سأل الرجل وهو يتوقف وينظر إليّ.

قالت إستيلا: إنه صبي.

لقد كان رجلاً ضخماً الجثة ذا بشرة داكنة للغاية، ورأس كبير للغاية، ويد كبيرة تضاهي رأسه. أمسك ذقني بيده الكبيرة، ورفع وجهي لينظر إليّ على ضوء الشمعة. كان لديه صلحٌ مبكرٌ في أعلى رأسه، وحواجب سوداء كثيفة وقفت منتفشة ورفضت الاستلقاء. كانت عيناه غائرتين جداً، وكانتا حادّتين ومرتابتين بشكلٍ مزعج. كان لديه سلسلة ساعة كبيرة، ونقاط سوداء واضحة محل ما كان ليصبح لحيته وشواربه لو أطلقهما. لم يكن يمثل لي شيئاً، ولم يكن من الممكن أن يكون لديّ الفطنة في ذلك الوقت، لأعرف أنه سيمثل لي شيئاً فيما بعد، ولكن حدث أن أتيحت لي هذه الفرصة لرصده عن قرب.

«الفتى من الجوار؟ أليس كذلك؟» قال الرجل. قلت: نعم يا سيدي.

- لماذا أتيت إلى هنا؟

شرحت له: لقد أرسلت الآنسة هافيشام في طلبي يا سيدي.

«حسناً! تصرف بأدب. لديّ خبرة كبيرة في التعامل مع الأولاد، وأنتم صعبة سيئة. انتبه!» قال هذا وهو يعض على جانب سبّابته الضخمة، ويعبس في وجهي، ثم أردف قائلاً: تهذب!

بهذه الكلمات أطلق سراحي - وهو ما كنت سعيداً به، لأن يده تفوح منها رائحة الصابون المعطر - ونزل إلى الطابق السفلي. تساءلت إن كان طبيباً؛ ولكنني فكرت أنه لا يمكن أن يكون طبيباً، وإلا سيكون لديه أسلوب أكثر هدوءاً وإقناعاً. لم يكن هناك الكثير من الوقت للنظر في الموضوع، لأننا سرعان ما وصلنا إلى غرفة الآنسة هافيشام، حيث كانت هي وكل شيء آخر كما تركتهم تماماً. تركتني إستيلا واقفاً بالقرب من الباب، ووقفت هناك حتى نظرت إليّ الآنسة هافيشام من عند منضدة الزينة.

«إذن!» قالت دون إجحاف أو دهشة، «لقد مرّت الأيام، أليس كذلك؟»

- نعم، سيدتي. اليوم هو...

«اهدأ، اهدأ، اهدأ!» قالت ذلك وهي تحرك أصابعها بفارغ الصبر،
«لا أريد أن أعرف. هل أنت مستعد للعب؟».

اضطرت إلى الإجابة بشيء من الارتباك: لا أعتقد أنني مستعد
يا سيدتي.

«ألا تريد اللعب بالورق مرة أخرى؟» طالبت بالإجابة بنظرة ثابتة.

- نعم، سيدتي؛ يمكنني أن أفعل ذلك، إن أردت.

قالت الأنسة هافيشام بنفاد صبر: بما أنك ترى هذا المنزل قديمًا
وقائمًا أيها الصبي، وأنت غير راغب في اللعب، فهل أنت على استعداد
للعمل؟

تمكنت من الإجابة عن هذا الاستفسار بقدر أكبر من الكياسة مقارنة
بالسؤال الآخر، وقلت إنني على استعداد تام للعمل.

قالت وهي تشير إلى الباب من خلفي بيدها الذابلة: اذهب إذن إلى
تلك الغرفة المقابلة، وانتظر هناك حتى آتي.

عبرت منزل الدرج، ودخلت الغرفة التي أشارت إليها. وفي تلك الغرفة
أيضًا، كان ضوء النهار محبوبًا تمامًا، وكانت لها رائحة مكتومة وكرهية.
لقد اشتعلت نارًا مؤخرًا في الموقد الرطب ذي الطراز القديم، وكانت كأنها
أكثر ميلًا إلى الخروج من المنزل أكثر من الاشتعال داخله، وبدا الدخان
النافر منها والعالق في الغرفة أبرد من الهواء النقي، مثل ضباب المستنقعات
خاصتنا. أضاءت الغرفة بشكلٍ باهتٍ مجموعة صغيرة من أصابع الشموع

الموحشة من فوق المدفأة العالية؛ وإن صح التعبير، لقد أزعجت الشموع ظلام الغرفة إلى حدٍّ ما. كانت الغرفة فسيحة، وأفترض أنها كانت جميلة يومًا ما، لكن كل شيء يمكن تمييزه فيها كان متداعيًا ومغطىً بالغبار والعفن. وكان أبرز شيء فيها هو طاولة طويلة عليها مفرش مائدة، كما لو أن وليمة كانت قيد الإعداد عندما توقف المنزل والساعات معًا. في منتصف المفروش وقف إناء مركب أو واسطة من نوع ما؛ كانت مثقلةً بأنسجة العنكبوت مما جعل شكلها لا يمكن تمييزه تمامًا؛ وبينما كنت أنظر على طول المساحة الصفراء التي أتذكر أنها كانت تنمو منها، مثل فطر أسود، رأيت عناكب ذات أرجل وأجسام مرقطة تركض نحوها، وتخرج منها، كما لو كان هناك حدث خاص ذو أهمية عظمى يجري في مجتمع العناكب هذا.

وسمعت صرير الفران أيضًا، من خلف الألواح، كما لو كان نفس الحدث ذا أهمية كبيرة لها. لكن الخنافس السوداء لم تنتبه للبلبل، وتلمّست طريقها حول الموقد بطريقة ثقيلة ومسنة، كما لو كانت قصيرة النظر وضعيفة السمع، وليست متناغمة بعضها مع بعض.

جذبت هذه الكائنات الزاحفة انتباهي، وكنت أراقبها من مسافة بعيدة، عندما وضعت الأنسة هافيشام يدها على كتفي. وكانت في يدها الأخرى عصا ذات رأس عكاز تتكئ عليها، وبدت مثل ساحرة المكان.

قالت وهي تشير إلى الطاولة الطويلة بعصاها: هذا هو المكان الذي سأستلقي فيه عندما أموت، سوف يأتون وينظرون إليّ هنا.

مع بعض الريبة من أنها قد تجلس على الطاولة في تلك اللحظة وتموت في الحال، مطابقةً تمامًا لعرض الشمع المخيف الذي رأيته في الكرنفال ذات مرة، انكمشت تحت لمستها.

«ما هذا في رأيك؟» سألتني وهي تشير مرة أخرى بعصاها؛ «حيث توجد خيوط العنكبوت؟».

- لا أستطيع أن أخمن ما هو يا سيدتي.

- إنها كعكة رائعة. كعكة العروس. إنها ملكي!

أَلَقْتُ نظرة لأمعة على جميع أنحاء الغرفة، ثم قالت وهي تتكئ عليّ بينما كانت يدها ترتعش على كتفي: تعال، تعال، تعال! امشِ بي، امشِ بي!

فهمت من هذا أن العمل الذي كان عليّ القيام به هو أن أتجول بالآنسة هافيشام في أنحاء الغرفة. وبناءً على ذلك، بدأت على الفور، فاستندت هي إلى كتفي، وانطلقنا بسرعة ربما كانت تقليدًا لعربة السيد بامبلتشوك (أول خاطر لي تحت سقف هذا المنزل).

لم تكن قوية جسديًا، وبعد قليلٍ قالت: «أبطأ!» ومع ذلك، أكملنا سيرنا بلا تمهل لكن بسرعة متقطعة، وبينما كنا نسير، وضعت يدها على كتفي، وحركت فمها، وجعلتني أعتقد أننا نسير بسرعة بسبب أفكارها السريعة. وبعد فترة قالت: «نادِ إستيلا!» لذلك خرجت إلى الطابق السفلي وصحّتُ بالاسم كما فعلت في المرة الماضية. عندما ظهر ضوء شمعتها، عدت إلى الآنسة هافيشام، وأكملنا تجولنا في أرجاء الغرفة مرة أخرى.

لو كانت إستيلا وحدها شهدت ما كنا نفعله، لكنت شعرت ببعض الاستياء؛ ولكن عندما أحضرت معها السيدات الثلاث والسيد النبيل الذي رأيتهم بالأسفل، لم أكن أعرف ماذا أفعل. من أدبي كنت سأتوقف؛ لكن الآنسة هافيشام هزّت كتفي، وتابعنا، مع شعور بالخجل من جهتي لأنهم سيعتقدون أن هذا كان من فعلي أنا.

قالت الآنسة سارة بوكيت: عزيزتي الآنسة هافيشام، كم تبدين بأحسن حال!

«لا،» ردّت الآنسة هافيشام، «أنا شاحبة الجلد والعظم».

أشرقت كاميلا إبان الصد الذي تعرضت له الآنسة بوكيت؛ وتمتعت وهي تتأمل الآنسة هافيشام بحزن: أيتها العزيزة المسكينة! بالتأكيد ليس من المتوقع أن تبدين في أحسن حال، أيتها المسكينة. يا لها من فكرة! «وكيف حالك؟» قالت الآنسة هافيشام لكاميلا. وبما أننا كنا قريبين من كاميلا في ذلك الوقت، كنت سأتوقف بطبيعة الحال، لكن الآنسة هافيشام لم تتوقف. واصلنا سيرنا، وشعرت أنني كنت مزعجًا جدًا لكاميلا.

ردّت قائلة: شكرًا لك يا آنسة هافيشام، أنا في أفضل حال يمكن توقعها.

«لماذا، ماذا بك؟» سألت الآنسة هافيشام بحدة مفرطة.

أجابت كاميلا: لا شيء يستحق الذكر. لا أرغب في إظهار مشاعري، لكنني صرت أمضي أمسياتي وأنا أفكر فيك أكثر من العادة. ردّت الآنسة هافيشام: إذن، لا تفكري فيّ.

قالت كاميلا، وهي تكبت نحيبها بلطفٍ: «القول أسهل من الفعل!» بينما ظهرت ارتجافة على شفرتها العليا، وفاضت دموعها، «إن ريموند شاهد على ما أنا مضطرة إلى تناوله من زنجبيل ونشوق في الليل. ريموند شاهد على الهزات العصبية التي تصيب ساقي. ومع ذلك، فإن الاختناقات والهزات العصبية ليست شيئًا جديدًا بالنسبة إليّ عندما أفكر بقلقي في الأشخاص الذين أحبهم. لو أمكنني أن أكون أقل شفقة وحساسية، لكان

من الممكن أن أتمتع بهضم أفضل وأعصاب حديدية؛ كم أتمنى هذا من كل قلبي. ولكن عدم التفكير فيكِ في المساء، يا لها من فكرة!« وهنا انفجرت في البكاء.

فهمت أن المشار إليه بريموند هو السيد الحاضر، وهو زوج السيدة كاميلا. هب لإنقاذها في تلك اللحظة، وقال بصوت مليء بالإطراء والمواساة: عزيزتي كاميلا، الكل يعلم أن مشاعرك تجاه أفراد العائلة بدأت تضنيكِ رويدًا رويدًا حتى صارت إحدى ساقيك أقصر من الأخرى. أعقبت السيدة الوقورة التي لم أسمع صوتها إلا مرة واحدة: لم أكن أعلم بأن التفكير في شخص ما يجعله مدينًا لك، يا عزيزتي.

الآنسة سارة بوكيت، التي رأيتها الآن امرأة عجوزًا سمراء منكمشة ومتيبسة بعض الشيء، بوجه يحاكي في صغره قشرة حبة الجوز، وفم كبير مثل فم قطة من دون شوارب، أيدت هذا الموقف بقولها: بالطبع لا، يا عزيزتي. إحم!

قالت السيدة الوقورة: التفكير شيء سهل للغاية.

«لا يوجد شيء أسهل منه، أتعلمون؟» وافقت الآنسة سارة بوكيت.

«أوه ... حسنًا حسنًا!» صاحت كاميلا، التي بدا كأن مشاعرها المحتدمة تتصاعد من ساقها لتتأجج في صدرها، «كل هذا صحيح جدًا! من الضعف أن تكون عطوفًا جدًا، لكني لا أستطيع تمالك نفسي. لا شك أن صحتي ستكون أفضل بكثير لو كان الأمر خلاف ذلك، ومع ذلك لن أغير طبعي وإن استطعت. إنه سبب للكثير من المعاناة، ولكنه مصدر سلوان لي أن أعرف أنني عطوفة عندما أستيقظ في الليل». وعادت للبكاء مرة أخرى.

لم نتوقف أنا والآنسة هافيشام طوال هذا الوقت، بل واصلنا التجول في الغرفة؛ كنا نحتك بأطراف فساتين الزائرين في حين، ونبعد عنهم بطول الغرفة الكثيبة في حين آخر.

«هناك ماثيو على سبيل المثال!» قالت كاميلا، «لا يختلط أبداً بأي فرد من العائلة، ولا يأتي إلى هنا أبداً ليرى كيف حال الآنسة هافيشام! لقد استلقيت على الأريكة بالمشد على وسطي، واستلقيت هناك ساعات لا أعني شيئاً مما حولي، ورأسي على الجانب، وشعري كله منسدل، وقدماي لا أعرف أين...».

(قال زوج السيدة كاميلا: «أعلى بكثير من رأسك يا حبيبتي».)
«بقيت في هذه الحالة ساعات وساعات بسبب سلوك ماثيو الغريب وغير المبرر، ولم يشكرني أحد».

تدخلت السيدة الوقورة قائلة: لا أعتقد هذا بالفعل!
أضافت الآنسة سارة بوكيت (وهي شخص ماهر إلى حد ما): كما ترين يا عزيزتي، السؤال الذي يجب أن تطرحيه على نفسك هو: ممن تتوقعين الشكر يا حبيبتي؟

استأنفت كاميلا كلامها قائلة: لم أتوقع أي شكر أو أي شيء من هذا القبيل، لقد بقيت على هذه الحالة ساعات وساعات، وريموند شاهد على مدى اختناقتي، وكيف أصبح الزنجبيل بلا تأثير على الإطلاق. لقد وصل صوتي إلى مدوزن البيانوهات في الجانب المقابل من الشارع، حيث ظن الأطفال المساكين بالخطأ أنه هديل حمام يأتي من بعيد -والآن يجب القول- «وهنا وضعت كاميلا يدها على حلقها وبدأت في وصلة من الأصوات الغريبة الصادرة من حنجرتها وبأشكال عديدة».

عندما ذُكر اسم ماثيو، استوقفتني الأنسة هافيشام، ووقفت تنظر إلى المتحدث. كان لهذا التغيير تأثير كبير في إنهاء وصلة كاميليا بشكل مفاجئ.

قالت الأنسة هافيشام بصرامة: سوف يأتي ماثيو لرؤيتي في النهاية، عندما أكون مستلقية على تلك الطاولة. سيكون هذا مكانه، هناك، وهي تضرب الطاولة بعصاها، عند رأسي! وسيكون مكانك هناك! وزوجك هناك! وسارة بوكيت هناك! وجورجيانا هناك! الآن تعلمون جميعاً أين ستقفون عندما تأتون كي تنهشوا لحمي. والآن اذهبوا!

عند ذكر كل اسم، كانت الأنسة هافيشام تضرب الطاولة بعصاها في مكان مختلف. قالت الآن: «امش بي، امش بي!» ومشينا مرة أخرى.

صاحت كاميليا: أعتقد أنه لا يوجد شيء يجب القيام به، سوى الطاعة والمغادرة. من الجيد أن يرى المرء من يحبه ويحترمه حتى ولو فترة قصيرة هكذا. سأفكر في الأمر بارتياح حزين عندما أستيظ في الليل. أتمنى أن يحصل ماثيو على هذه الراحة، لكنه يفضل التحدي. أنا مصممة على عدم إظهار مشاعري، ولكن من الصعب جداً أن يقال لأحدهم إنه ينتظر نهش لحم أقاربه، كما لو كان مارداً جباراً، وأن يُطلب منه الرحيل. مجرد الفكرة!

حال زوج السيدة كاميليا بينهما، عندما وضعت السيدة كاميليا يدها على صدرها الهائج، وظهرت معاناة شديدة على وجهها ظننت بسببها أنها ستسقط وتختنق عندما تتوارى عن الأنظار، ثم قبّلت يد الأنسة هافيشام واصطُحبت إلى الخارج. تنافست سارة بوكيت وجورجيانا على من يجب أن يبقى أخيراً! لكن سارة كانت تعرف جيداً أنه لا يمكن التغلب

عليها، وكانت تتجول حول جورجيانا بمراوغة مأكرة مما اضطر الأخيرة إلى الخروج أولاً. ثم قامت سارة بوكيت بإصدار تأثير منفصل للمغادرة قائلة: «بارك الله فيك يا عزيزتي الآنسة هافيشام!» ورسمت على وجهها الذي يشبه قشرة الجوز ابتسامة شفقة وتسامح تجاه ضعف الآخرين.

وبينما كانت إستيلا تضيء لهم الطريق للأسفل، كانت الآنسة هافيشام لا تزال تمشي ويدها على كتفي، ولكن ببطء أكثر فأكثر، وأخيراً توقفت أمام النار، وقالت بعد أن تمتمت، ونظرت إليها لبضع ثوانٍ: هذا هو عيد ميلادي، يا بيب.

كنت سأتمنى لها عيد سعيدة عندما رفعت عصاها.
- لا أحتمل الحديث عنه. لا أحتمل أن يتحدث عنه أولئك الذين كانوا هنا الآن، أو أي شخص آخر، إنهم يأتون إلى هنا في هذا اليوم، لكنهم لا يجروؤن للإشارة إليه.
بالطبع لم أبذل أي جهد للإشارة إليه أنا أيضاً.

«في مثل هذا اليوم، قبل وقت طويل من ولادتك، أحضرت هذه الكومة من العفن إلى هنا» ووخزت بعصاها، تجاه كومة خيوط العنكبوت على الطاولة، ولكن دون أن تلمسها، «لقد تأكلنا معاً؛ نخرت بها الفئران، ونخرت بي أسنان أكثر حدة من الفئران».

وضعت رأس عصاها على قلبها وهي واقفة تنظر إلى الطاولة؛ هي في ثوبها الذي كان أبيض ذات يوم وصار أصفر وذابلاً؛ وقطعة القماش التي كانت بيضاء ذات يوم وصارت صفراء وذابلة؛ وكل شيء في الأنحاء آيل للسقوط بلمسة واحدة.

قالت بنظرة مخيفة: عندما يكتمل الخراب، ويضعون جثمانني في

فستان عرسي وعلى مائدة العرس، حينها تكتمل اللعنة؛ ليته يحدث يوم ميلادي!

وقفت تنظر إلى الطاولة كما لو كانت تنظر إلى جسدها المستلقي هناك. بقيت هادئًا. عادت إستيلا، وبقيت هادئة هي الأخرى. وبدأ لي أننا واصلنا صمتنا فترة طويلة. وفي هواء الغرفة المتناقل، والظلام الكثيف الذي خيم على أركانها البعيدة، راودتني فكرة مخيفة أنني وإستيلا قد نبدأ في التعفن في التو واللحظة.

بعد فترة طويلة، خرجت الأنسة هافيشام من حالة الذهول، ليس تدريجيًا، إنما في غمضة عين وقالت: «دعوني أراكما تلعبان الورق؛ لماذا لم تبدأ؟» وبهذا عُدنا إلى غرفتها، وجلسنا ولعبنا كما فعلنا من قبل؛ ومرة أخرى، كما حدث من قبل، ظلت الأنسة هافيشام تراقبنا طوال الوقت، ووجهت انتباهي إلى جمال إستيلا، وجعلتني ألاحظه أكثر من خلال تجربة جواهرها على صدر إستيلا وشعرها.

من جانبها، عاملتني إستيلا مثل المرة الماضية، إلا أنها لم تتعال في كلامها. عندما فرغنا من لعب ما يقرب من ست مباريات حُدد يوم عودتي هناك، وأُنزلتُ إلى الفناء لإطعامي مثل الكلاب كما حدث في السابق، وهناك أيضًا تُركت مرة أخرى أتجول كما يحلو لي.

ليس من المهم جدًا معرفة ما إذا كانت البوابة الموجودة في جدار الحديقة الذي سارعت لاختلاس النظر إليها في المرة الأخيرة، مفتوحة أم مغلقة. يكفي القول إنني لم أرَ بوابة حينها، وإنني رأيت واحدة الآن. وبينما كانت مفتوحة أمامي، وبما أنني علمت أن إستيلا قادت الزوار إلى الخارج، لأنها عادت ويدها المفاتيح، دُكِّت إلى الحديقة، وتحوّلت فيها.

كانت مقفرة للغاية، وكانت بها هياكل قديمة لزراعة الشمام والخيار، بدا أنها خلال ذبولها ظهر بها ازدهار عفوي كمحاولة عقيمة لاختراق بعض القبعات والأحذية القديمة، مع ظهور فرع عشبي هنا وهناك حول ما بدا كأنه قدر مهشمة.

بعدما طفئ في أرجاء الحديقة والبيت الزجاجي الذي لم يكن داخله سوى كرمة عنب متساقطة وبعض الزجاجات، وجدت نفسي في الزاوية الموحشة التي شاهدتها من النافذة. لم أشك لحظة أن المنزل خاٍ الآن، نظرت إلى نافذة أخرى، ووجدت نفسي، لدهشتي الكبرى، أبادل النظرات المجدقة الطويلة مع سيد شاب شاحب له جفون وردية وشعر فاتح.

اختفى السيد الشاب الشاحب بسرعة، ثم ظهر بجانبني. كان يكتب شيئاً عندما وجدتني أحرق إليه، ورأيت الآن أنه كان ملطخاً بالحبر.

«مرحباً!» قال، «أيها الشاب!».

مرحباً هي عبارة عامة كنت ألاحظ عادة أنها من الأفضل أن تُرد كما هي، فقلت: «مرحباً!» وحذفت بأدب كلمة شاب. سألني: من سمح لك بالدخول؟

- الآنسة إستيلا.

- من أعطاك الإذن بالتجول في الأنحاء؟

- الآنسة إستيلا.

قال السيد الشاب الشاحب: تعال نتقاتل.

ماذا كان يمكنني فعله سوى أن أتبعه؟ لقد طرحت هذا السؤال كثيراً على نفسي منذ ذلك الحين؛ ماذا كان يمكنني فعله سوى هذا؟ كان

أسلوبه حاسماً للغاية، ومن شدة دهشتي تبعته حيث يقودني، كما لو كنت مسحوراً.

قال بالتفافة قبل أن نقطع خطوات كثيرة: «قِف دقيقة، يجب أن أعطيك سبباً للقتال أيضاً. ها هو ذا!» وبطريقة مزعجة للغاية، ضرب بكفّيه على الفور، ورفع إحدى ساقيه خلفه برشاقة، وشد شعري، وضرب بكفّيه مجدداً، وخفض رأسه، وغاص به في معدتي.

الحركة الأخيرة الشبيهة بحركة الثور، كانت بغیضة بشكل خاص بعد وجبة الخبز واللحم، بالطبع إلى جانب اعتبارها وقاحة. لذلك هاجمته بعنفٍ، وكنت سأهاجمه مرة أخرى عندما قال: «آه! انتظر» وبدأ بالتراقص إلى الأمام وإلى الخلف بطريقة لم أرَ مثلها في خبرتي المحدودة.

«قواعد اللعبة!» قال. هنا قفز من رجله اليسرى إلى اليمنى. «القواعد العادية!» وهنا قفز من رجله اليمنى إلى اليسرى. «انزل إلى أرض المعركة، واستعد للقتال!» هنا، بدأ يراوغ ذهاباً وإياباً، ويقوم بكل أنواع الحركات بينما كنت أنظر إليه بلا حولٍ ولا قوة.

كنت خائفاً منه في داخلي عندما رأيته بارعاً للغاية؛ لكنني كنت متأكداً جسدياً ومعنوياً بأن رأسه ذا الشعر الخفيف لا يمكن أن يكون سبب شعوري بالغثيان، وأنه من المبرر اعتباره شيئاً عرضياً عندما استرعى انتباهي. لذلك، تبعته دون أن أنبس ببنت شفة، إلى زاوية منعزلة في الحديقة، مكوّنة من التحام جدارين ومحجوبة ببعض القمامة. وحين سألتني إذا كنت راضياً عن مكان المعركة، وأجبت بنعم، استأذني في التغيب لحظة، وعاد سريعاً ومعه زجاجة ماء وإسفنجة مبلّلة بالخل. قال وهو يضعهما على الحائط: «متاحة لكلينا» وبعد ذلك، بدأ في خلع سترته

وصدريته، بل وقميصه أيضًا، بغبطة، واهتمام، وتعطش إلى الدماء، كلُّ
في الوقت نفسه.

على الرغم من أنه لم يكن يبدو بصحة جيدة، حيث كان لديه بثور
على وجهه، وطفحٌ جلدي عند فمه، فإن هذه الاستعدادات المهيبة
صدمتني للغاية. لقد حكمت عليه بأنه في نفس عمري تقريبًا، لكنه كان
أطول بكثير، وكانت لديه طريقة جذابة في الدوران. علاوة على ذلك، كان
سيدًا شابًا يرتدي بذلة رمادية (عندما لا يتجرد من ملابسه للقتال)، وكان
مرفقاه وركبته ومعصماه وكعباه يبدوون أكبر من سنه.

تبددت شجاعتي عندما رأيته يهاجمني بتلقائية وبكل دقة، وينظر إلى
تكويني كما لو كان يختار بين عظامي بعناية. لم يسبق لي أن فوجئت في
حياتي بنفس القدر عندما سدّت ضربتي الأولى، ورأيتة مستلقيًا على
ظهره، وينظر إليَّ بأنفه الدامي ووجهه المتضائل إلى حدٍّ بعيد.

لكنه هبَّ واقفًا على قدميه في الحال، وبعد أن نظّف نفسه بالإسفنجة،
عاد ليسدّ الضربات مرة أخرى باستعراضٍ رائعٍ للبراعة. ثاني أكبر مفاجأة
حصلت عليها في حياتي هي رؤيته مستلقيًا على ظهره مجددًا، متطلعًا إليَّ
بكدمة حول عينه.

احترمت شجاعته كثيرًا. بدا أنه لا يملك القوة، ولم يضربني بقوة
قَطُّ، وكان دائمًا يُطرح أرضًا؛ لكنه كان يقف مجددًا في لحظة، وينظف
نفسه بالإسفنجة، أو يشرب من زجاجة الماء، وحين يملؤه الرضا التام
بأن مظهره عاد إلى سابق عهده به، يأتي نحوي بهيئته واستعراضه فيجعلني
أصدق أنه أخيرًا سيطر حني أرضًا. كان قد أصيب بكدمات شديدة،
ويؤسفني أن أقر أنه كلما ضربته أكثر، اشتدت قبضتي؛ لكنه استمر في

الوقوف مرارًا وتكرارًا، حتى سقط في النهاية، وصدم رأسه في الحائط. وحتى بعد تلك الأزمة التي حلّت علينا، نهض وظل يدور ويدور في حيرة عدة مرات، دون أن يعرف أين كنت؛ ولكنه أخيرًا جثا على ركبتيه، وأمسك بإسفنجته وقذفها إلى أعلى قائلاً في الوقت نفسه وهو يلهث: هذا يعني أنك فزت.

لقد بدا شجاعًا وبريئًا جدًّا، إلى درجة أنني على الرغم من أنني لم أقترح المنافسة، فإن شعوري بالرضا لانتصاري غمره بعض الحزن. في الواقع، بينما أرتدي ملابسني شعرت كأنني ذئب من الذئاب الصغيرة المتوحشة، أو مثلها من الحيوانات الضارية. لكنني ارتديت ملابسني، ومسحت وجهي الدامي على فتراتٍ دون أن أجعله يراني، وقلت: «هل يمكنني مساعدتك؟» فقال: «لا، شكرًا»، فقلت: «عمت مساء»، فقال: «وأنت كذلك».

عندما وصلت إلى الفناء، وجدت إستيلا تنتظر ومعها المفاتيح. لكنها لم تسألني أين كنت، ولا لماذا جعلتها تنتظر؛ كان خدّها قد احمرًا بلمعان، كما لو أن شيئًا ما قد أسعدها. وبدلًا من التوجه مباشرةً إلى البوابة، عادت إلى الممر وأشارت إليّ.

– تعالِ إلى هنا! يمكنك تقبيلي إذا أردت.

قبَلْتُ خدّها عندما أدارته لي. أعتقد أنه كان من الممكن أن أواجه الصعاب من أجل تقبيل خدّها، لكن القبلّة كانت كأنها قطعة من المال عطفت بها على الصبي الخشن من العامة، لم تعنِ شيئًا.

مع كل أحداث اليوم من زوار عيد الميلاد، ولعب الورق، والقتال، استمر مكوثي في منزل الآنسة هافيشام فترة طويلة، إلى درجة أنه عندما

اقتربت من المنزل كان ضوء الفئار على اللسان الرملي على حافة
المستنقعات يلمع في ليل السماء الأسود، وكان فرن الحدادة الخاص
بجو تتدفق منه النيران على طول الطريق.

الفصل الثاني عشر

أصبح ذهني مضطرباً جداً بشأن موضوع السيد الشاب الشاحب. كلما فكرت في القتال أكثر، وتذكرت الشاب الشاحب مستلقياً على ظهره بمراحل شتى من الوجه المنتفخ والملطخ بالدماء، بدا لي من المحقق أن شيئاً ما سيحل بي. شعرت أن دماء الشاب الشاحب كانت إثماً عليّ، وأن القانون سوف يثأر له. ومن دون أن يكون لديّ أي فكرة محددة عن العقوبات التي سأتحملها، كان من الواضح بالنسبة إليّ أن فتى قروياً مثلي لا يمكنه أن يعيث فساداً في الأرجاء، ويبطش بمنازل السادة، ويهاجم شباب إنجلترا المجتهدين، دون عواقب وخيمة. إلى درجة أنني بقيت في المنزل عدة أيام، ونظرت من باب المطبخ بأقصى قدرٍ من الحذر والتخوف قبل أن أخرج لقضاء حاجة ما، خشية أن ينقض عليّ ضباط سجن المقاطعة. لقد لطخ أنف السيد الشاب الشاحب سروالي، وحاولت أن أغسل دليل إدانتي في جوف الليل. جرحتُ أسنان السيد الشاب الشاحب مفاصل أصابعي، وصعدت إلى مخيلتي آلاف الحبكات، في أثناء ابتكاري مبررات مذهشة لتفسير تلك الواقعة اللعينة عندما أمثل أمام القضاة.

وعندما أتى يوم عودتي إلى مسرح أعمال العنف، وصل فزعي إلى ذروته. فكرت ما إذا كان زبانية العدالة، المبعوثون بشكلٍ خاص من

لندن، سينصبون لي كميناً خلف البوابة؛ وما إذا كانت الأنسة هافيشام، ستفضّل الانتقام بنفسها بسبب الاعتداء الذي تعرّض له منزلها، فتنهض بملابس الكفن هذه، وتسحب المسدس، وتطلق النار فتردني صريعاً، أو أن مجموعة كبيرة من صبية المرتزقة سيقومون بالهجوم عليّ في مصنع الجعة، ويضربونني حتى الممات. كل تلك الأفكار كانت دليلاً على ثقتي في شخصية الشاب الشاحب الذي لم أتخيله قطّ مشاركاً في هذه الأعمال الانتقامية؛ لقد كانت تتبادر إلى ذهني دائماً على شكل ممارسات من قبل أقاربه الطائشين، المدفوعين بحالة وجهه وتعاطفهم معه وسخطهم على ما حدث لملامحه التي ورثها عن أسرته.

ومع ذلك، كان عليّ الذهاب إلى منزل الأنسة هافيشام، وقد فعلت. ويا لها من مفاجأة! لم يسفر القتال عن أي شيء مما جال بخاطري. لم يُلمَح إلى الأمر بأي شكل من الأشكال، ولم أجد أي شاب شاحب في المنزل. وجدت نفس البوابة مفتوحة، واستكشفت الحديقة، ونظرت أيضاً إلى نوافذ المنزل المنفصل؛ لكن النوافذ المغلقة من الداخل أعاقَت رؤيتي فجأة، وكان كل شيء خاوياً من الحياة. كان الدليل الوحيد على الوجود السابق للسيد الشاب موجوداً في الزاوية التي وقع فيها القتال. آثار دمائه كانت في تلك البقعة، وقد أخفيتُها عن الأعين بقالبٍ من قوالب الحديقة.

في البهو الواسع بين غرفة الأنسة هافيشام وتلك الغرفة الأخرى التي تموضعت فيها الطاولة الطويلة، رأيت كرسيّ حديقة، كرسيّاً خفيفاً على عجلات، يُدفع من الخلف. لقد وُضع هناك منذ زيارتي الأخيرة، ودخلت، في ذاك اليوم، في المهمة التي ستصبح منتظمة، والمتمثلة في دفع الأنسة

هافيشام على هذا الكرسي (عندما كانت تتعب من المشي ويدها على كتفي) داخل غرفتها الخاصة، وعبر البهو، وداخل الغرفة الأخرى. كنا نقوم بهذه الجولات مرارًا وتكرارًا، وفي بعض الأحيان كانت تستغرق ما يصل إلى ثلاث ساعات متواصلة. جلّ ما يمكنني قوله عن تلك الجولات هو أنها كانت لا تحصى، حيث اتَّفَق على الفور على أن أعود يومًا بعد يوم عند الظهيرة لهذا الغرض، وحيث إنني سأوجز القول عن فترة لا تقل عن ثمانية أو عشرة أشهر.

عندما بدأ بعضنا يعتاد بعضًا، تحدثت الآنسة هافيشام معي أكثر، وسألني أسئلة مثل: ماذا تعلمت، وماذا سأكون؟ أخبرتها أنني سأتدرَّب على يد جو، على ما أعتقد؛ وقد توسَّعت في حديثي عن عدم معرفتي بأي شيء، ورغبتني في معرفة كل شيء، على أمل أن تقدِّم لي بعض المساعدة لتحقيق هذه الغاية المرغوبة. لكنها لم تفعل؛ على العكس من ذلك، بدت كأنها تفضِّل كوني جاهلاً. ولم تعطني أي أموال على الإطلاق، أو أي شيء سوى عشائي اليومي، ولم تتعهد مطلقًا بأن تقاضيني أجرًا مقابل خدماتي.

كانت إستيلا حولنا دائمًا، وكانت هي دائمًا من تدعوني أدخل وأخرج، لكنها لم تخبرني قطُّ أنني قد أُقْبِلها مرة أخرى. في بعض الأحيان، كانت تتسامح معي ببرود؛ في أحيان أخرى كانت تتعالى عليّ. في بعض الأحيان، كانت تستأنس بي؛ في أحيان أخرى كانت تخبرني بحدة أنها تكرهني. كثيرًا ما كانت الآنسة هافيشام تسألني بهمسٍ، أو عندما نكون وحدنا: «هل إستيلا تزاد جمالًا يومًا بعد يوم يا بيب؟» وعندما كنت أقول: نعم (لأنها كانت تزاد جمالًا حقًا)، كانت تبدو كأنها تستمتع

بالأمر بجشعٍ. أيضًا، عندما كنا نلعب لعبة الأوراق، كانت الآنسة هافيشام تنظر بعين الرضا وتبذلذٍ بئسٍ إلى أمزجة إستيلا، مهما كانت. وفي بعض الأحيان، عندما تكون تقلباتها المزاجية كثيرة ومتناقضة إلى درجة أنني أصير في حيرة بشأن ما سأقوله أو أفعله، كانت الآنسة هافيشام تعانقها بعاطفة مغدقة، وتتمتم شيئًا في أذنها يبدو مثل: حطمي قلوبهم يا أُملي وكبريائي؛ اكسري قلوبهم ولا ترحمي!

كانت هناك أغنية يدندن جو بأجزاء منها في أثناء العمل في الدكان، وكانت تحتفي بكليم العجوز. لم تكن هذه طريقة احتفالية للغاية لتكريم قديسٍ شفيح، لكنني أعتقد أن كليم العجوز كان شفيحًا للحدّادين. لقد كانت أغنية تحاكي وزن الطّرق على الحديد، وكانت مجرد عذرٍ غنائي للتغني باسم كليم العجوز المبحل. كانت الأغنية تقول:

اطرقوا يا صبيان ... كليم العجوز!

بدوي يصم الأذان ... كليم العجوز!

اعزف الألحان، اعزف الألحان ... كليم العجوز!

مع قرعة للشجعان ... كليم العجوز!

أوقد النيران، أوقد النيران ... كليم العجوز!

لتشتد بصخبٍ، وتحلق للعيان ... كليم العجوز!

وفي أحد الأيام، بعد وقتٍ قصيرٍ من ظهور الكرسي، فجأة قالت لي الآنسة هافيشام، بحركة أصابعها بفارغ الصبر: «تمهّل، تمهّل، تمهّل! غنّ لي!» فوجئت بغنائي لهذه الأنشودة عندما دفعتها حول الطابق. وحدث أن لفتت الأغنية انتباهها إلى درجة أنها بدأت تدندن بصوتٍ خفيضٍ وكئيبٍ كما لو كانت تغني في أثناء نومها. بعد ذلك، أصبح من المعتاد أن نغنيها

في أثناء تنقُّلنا، وكثيراً ما كانت إستيلا تنضم إلينا؛ على الرغم من أن غناءنا كان منخفضاً للغاية، حتى عندما نغني ثلاثتنا، إلى درجة أن أخف ريح في هذا المنزل القديم الكئيب كانت تحدِّث ضجيجاً أكثر مما كنا نفعله.

ما الذي يمكن أن أصبح عليه مع هذه البيئة المحيطة؟ وكيف لا تتأثر شخصيتي بها؟ هل من العجيب أن أفكاري كانت في حالة ذهولٍ مثل عيني عندما كانت تخرج إلى الضوء الطبيعي من الغرف الصفراء الضبابية؟

ربما كان من الممكن أن أخبر جو عن السيد الشاب الشاحب، لو لم أكن كذبت من قبل من خلال التلفيقات الهائلة التي اعترفت بها. في ظل هذه الظروف، شعرت أن جو لا يمكن أن يصدق وجود السيد الشاب الشاحب، وهو راكب مناسب للعربة المخملية السوداء التي كذبت بشأنها سابقاً؛ لذلك لم أذكر أمره. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التهرب من مناقشة الأنسة هافيشام وإستيلا، والذي خطر ببالي في البداية، أصبح أكثر قوة مع مرور الوقت. لم أضع ثقتي الكاملة في أحد سوى بيدي؛ لقد أخبرت بيدي المسكينة بكل شيء. لماذا كان من الطبيعي بالنسبة إليَّ أن أفعل ذلك؟ ولماذا كان لدى بيدي قلقٌ عميقٌ بسبب كل ما قلته لها؟ لم أكن أعرف السبب حينها، رغم أنني أعتقد أنني أعرفه الآن.

في هذه الأثناء، تواصلت المجالس في مطبخ المنزل، محفوفة بإزعاج يكاد لا يحتمل لروحي الحانقة. اعتاد بامبلتشوك، الأحمق، أن يأتي غالباً في المساء بغرض مناقشة مستقبلي مع أختي؛ وأنا أعتقد حقاً (حتى هذه الساعة وبندمٍ أقل مما ينبغي أن أشعر به)، أنه لو كان بإمكان يديَّ إخراج مسمار العجلة من عربته، لفعلنا ذلك. كان الرجل البائس يتمتع ببلادة وتفكيرٍ محدود، إلى درجة أنه لم يستطع مناقشة فرصتي المستقبلية دون أن

يضعني أمامه، كما لو كان بصدد إجراء عملية جراحية لي، وكان يسحبني من كرسيي (عادةً من الياقة) حيث أبقى هادئًا في الزاوية، ويضعني أمام النار كما لو كان بصدد طبخي، ويبدأ بالقول: «الآن أيتها الأم، هذا الصبي! هذا هو الولد الذي ربّيته بيدك. ارفع رأسك أيها الصبي، وكن ممتنًا إلى الأبد لأولئك الذين ربوك. والآن يا أيتها الأم، بشأن هذا الصبي!» وبعد ذلك يشعث شعري، وهو منذ أول ذكرى لي، كما أشرت سابقًا، ما أنكرت حق أي مخلوق في القيام به، وكان يمسكني أمامه من كُمّي، في مشهدٍ من البلاء لا يضاهيه إلا نفسه.

بعد ذلك، كان هو وأختي ينخرطان في قدرٍ من التكهّنات غير المنطقية حول الأنسة هافيشام، وحول ما ستفعله معي، ومن أجلي، كنت خلالها أرغب -بشكلٍ مؤلم للغاية- في الاندفاع في البكاء المغتاض، والانقباض على بامبلتشوك، ولكمه في كل مكان. في هذه النقاشات، تحدثت أختي معي كأنها تخلع إحدى أسناني عند كل إشارة إلى الموضوع؛ بينما كان بامبلتشوك نفسه، الذي نصّب نفسه وليًا لنعمتي، يجلس يراقبني بعينٍ محتقرة، كأنه مهندس ثروتي الذي ارتأى أن يعمل في مهمة بلا أجر على الإطلاق.

في هذه المناقشات، لم يكن لجو أي دور، ولكن كثيرًا ما يُوجّه إليه الحديث من دون انتظار رده، نظرًا إلى أن استشعار السيدة جو كانت أنه كان لا يجذب أن أؤخذ من دكان الحدادة. لقد بلغت من العمر ما يكفي الآن لأتدرّب على يد جو^(١)؛ وعندما جلس جو مع مسعر النار على ركبتيه وهو ينفّض الرماد بين القضبان السفلية، كانت أختي تفسّر بوضوح هذا

(١) التدريب المهني في ذلك الوقت كان يبدأ من سن ١٤-٢١ عامًا - المترجم.

الفعل البريء على أنه معارضة من جانبه، إلى درجة أنها كانت تنقض عليه، وتأخذ مسعر النار من يديه، وتهزه، ثم تضع مسعر النار بعيداً. كانت النهاية مزعجة للغاية لكل هذه المناقشات. فجأة، ومن دون مقدمات، كانت أختي تتوقف لحظة لتتأهب، وتلمحني كما لو أنه بالصدفة، ثم تنقض عليّ، وتقول: «تعال! لقد اكتفينا منك! لتذهب إلى الفراش. لقد سببت لنا ما يكفي من المتاعب الليلة واحدة، كما آمل!» كما لو أنني توسلت لكي يسببوا لي الإزعاج في حياتي.

استمر الحال على هذا النحو فترة طويلة، وبدا من المرجح أنه سوف يستمر فترة أطول، عندما أوقفتنا الآنسة هافيشام ذات يومٍ بينما كنا نسير، وكانت متكئة على كتفي؛ وقالت بشيء من الاستياء:

- لقد كبرت، يا بيب!

اعتقدت أنه من الأفضل التلميح، من خلال نظرة تأملية، إلى أنه ليس بيدي حيلة في هذا الشأن.

لم تقل المزيد في ذلك الوقت، لكنها ما لبثت أن توقفت ونظرت إليّ مرة أخرى؛ ثم تكرر الأمر؛ وبعد ذلك، بدت عابسة ومتقلبة المزاج. في يوم حضوري التالي، عندما انتهينا من نشاطنا المعتاد، وأوقفت الآنسة هافيشام عند منضدة الزينة الخاصة بها، أوقفتني بحركة من أصابعها بنفاد صبر:

- أخبرني مرة أخرى باسم حدادك هذا.

- جو جارجير، سيدتي.

- تعني المعلم الذي كنت ستدرب على يده؟

- نعم يا آنسة هافيشام.

- من الأفضل أن تتدرَّب في الحال. هل تعتقد أن جاريجري يمكنه أن يأتي معك إلى هنا، ويحضر معه عقد تدريب العمل الخاصة بك؟

أشرت إلى أنه ليس لديَّ أدنى شك في أنه سيعتبر الأمر شرفاً له أن يُطلَب منه ذلك.

- إذن دعه يأتي.

- في وقت محدد يا آنسة هافيشام؟

- اهدأ، اهدأ! لا أعرف شيئاً عن الأوقات. دعه يأتي عاجلاً، ويأتي وحده معك.

عندما عدت إلى المنزل ليلاً، وسلمت هذه الرسالة لجو، دخلت أختي في «حالة هياج» بدرجة أكثر إثارة للقلق من أي فترة سابقة. سألتني وجو عما إذا كنا نفترض أنها ممسحة تحت أقدامنا، وعن جرأتنا في استغلالها بهذه الطريقة، وعن نوع الصحبة التي تكرّمنا ورأيانها مناسبة لها؟ وعندما استنفدت سيلاً من هذه الاستفسارات، ألقت شمعداناً على جو، وانفجرت في بكاءٍ عالٍ، وأخرجت الجاروف، وهو ما كان دائماً علامة سيئة للغاية، ولبست مريبتها الخشنة، وبدأت في التنظيف إلى حدٍّ رهيب. لم تكن راضية عن التنظيف الجاف، فلجأت إلى دلوٍ وفرشاة فرك، وصارت تفرك أرضية المنزل حتى تقهقرنا إلى الخارج، ووقفنا نرتعش في الفناء الخلفي. لم نجروُ على التسلل للمنزل مرة أخرى حتى حلت الساعة العاشرة مساءً، ثم سألت السيدة جو زوجها لم يتزوج من عبدة سوداء بدلاً منها؟ لم يقدّم جو أي إجابة، هذا المسكين، لكنه وقف يتحسّس شاربته، وينظر إليّ باكتئاب، كما لو كان يعتقد أن هذا ربما كان تفكيراً أفضل حقاً.

الفصل الثالث عشر

كان يوم حضوري التالي بمنزلة اختبارٍ لمشاعري، عندما رأيت جو يرتدي ملابس الأحد ليرافقني إلى منزل الأنسة هافيشام. ومع ذلك، نظرًا إلى أنه كان يعتقد أن الملابس الرسمية ضرورية لهذه المناسبة، لم يكن من حقي أن أخبره أنه يبدو أفضل بكثير في ملابس العمل الخاصة به؛ بالأحرى، لأنني كنت أعرف أنه بسببي جعل نفسه غير مرتاحٍ بشكلٍ لا يُطاق، وأنه بسببي رفع ياقة قميصه عاليًا جدًا من الخلف، مما جعل الشعر على تاج رأسه يقف مثل حزمة من الريش.

في وقت الإفطار، أعلنت أختي عن نيتها الذهاب إلى المدينة معنا، والبقاء عند العم بامبلتشوك قائلة: «حتى ننتهي من سيداتنا الفاتنات»، وهي طريقة للمجادلة، والتي بدا أن جو يميل إلى التنبؤ بالأسوأ من خلالها. أُغلق دكان الحدادة في هذا اليوم، وكتب جو بالطباشير على الباب (كما جرت العادة أن يُفعل في المناسبات النادرة جدًا عندما لا يكون في الدكان) عبارة واحدة لا تخلو من الأخطاء الإملائية تقول «في الخارج»، مصحوبة برسمة سهمٍ من المفترض أن يشير إلى الاتجاه الذي سلكه.

سرنا إلى المدينة، وقادت أختي الطريق مرتدية قلنسوة كبيرة جدًا من فرو السمور، وحملت سلة من القش المضفر كأنها تحمل الختم العظيم

لإنجلترا، وزوجًا من الأحذية الخشبية، وشالًا احتياطيًا، ومظلة، على الرغم من أنه كان يومًا صحوًا ومشمسًا. لم أتبيّن تمامًا ما إذا كانت تحمل هذه الأشياء على سبيل التوبة أم التباهي؛ لكنني أعتقد بالأحرى أنها كانت تستعرض ممتلكاتها، مثل كليوباترا أو أي سيدة أخرى ذات سيادة في ذروة هياجها قد تستعرض ثروتها في موكبٍ أو مسيرة.

عندما وصلنا إلى متجر بامبلتشوك، قفزت أختي إلى الداخل وتركتنا. كان وقت الظهيرة تقريبًا، توجهنّا أنا وجو مباشرة إلى منزل الأنسة هافيشام. فتحت إستيلا البوابة كعادتها، وفي اللحظة التي ظهرت فيها، خلع جو قبعته ووقف يزنّها من حوافها بكلتا يديه؛ كما لو كان لديه سبب ملحّ في ذهنه لكونها لا تزيد على ثلاثة جرامات ونصف.

لم تنتبه إستيلا لأي منا، لكنها قادتنا إلى الطريق الذي أعرفه جيدًا. تبعناها وأنا أسير بجوارها، وجاء جو خلفنا. عندما نظرت مرة أخرى إلى جو في الممر الطويل، كان لا يزال يزن قبعته بعناية فائقة، وكان يتبعنا بخطواتٍ واسعة على أطراف أصابعه.

أخبرتني إستيلا أن علينا أن ندخل معًا، لذا أمسكت جو من تلايبيه وقدمته إلى حضرة الأنسة هافيشام. كانت تجلس عند منضدة الزينة الخاصة بها، ونظرت تجاهنا على الفور.

«أوه!» قالت لجو، «أنت زوج أخت هذا الصبي؟».

لم أكن أتخيل عزيزي جو العجوز وهو يبدو مخالفًا تمامًا لنفسه أو يشبه طائرًا خارقًا؛ كان واقفًا عاجزًا عن الكلام، وخصلة شعره الشبيهة بالريش منفوشة، وفمه مفتوح كما لو كان يريد أكل دودة.

كررت الأنسة هافيشام: أنت زوج أخت هذا الصبي؟

كان الأمر مزيجًا للغاية. ولكن، طوال المقابلة، أصر جو على مخاطبتي أنا بدلًا من الأنسة هافيشام.

«ما قصدته يا بيب،» علّق جو الآن بطريقة تعبر عن الجدل القوي، والثقة التامة، والأدب الشديد، كلّ في نفس الوقت، «عندما تزوجت أختك، كنت في ذلك الوقت ما يمكن أن تسميه (إن شئت) رجلًا أعزب». «حسنًا!» قالت الأنسة هافيشام، «وقمت بتربية الصبي بنية أن تتخذه تلميذًا لك؛ هل هذا صحيح يا سيد جارجيرى؟».

أجاب جو: كما تعلم يا بيب، طالما كنا أنا وأنت أصدقاء، وكان من المتوقع أن تكون العلاقة بيننا هكذا، لأنه من المقدّر أن نقضي أسعد الأوقات معًا. لكن، يا بيب، إذا كنت قد اعترضت على العمل في أي وقت مضى، بسبب تعرضك للسواد، أو ما شابه، فهذه الأشياء يمكن تولي أمرها، ألا ترى ذلك؟

قالت الأنسة هافيشام: هل أبدى الصبي أي اعتراض من قبل؟ هل يحب الحرفة؟

ردّ جو معززًا مزيجه السابق من الجدل والثقة والأدب: «يجب أن تعرف جيدًا يا بيب، أنها كانت رغبة قلبك.» (رأيت فجأة فكرة تخطر على باله أنه قد يجعل النقش على ضريحه متوافقًا مع هذه المناسبة، قبل أن يستمر في القول) «ولم يكن هناك أي اعتراض من جانبك، وكانت هذه هي الرغبة العظيمة لقلبك!».

لقد كان عبثًا بالنسبة إليّ أن أحاول أن أجعله يدرك أنه يجب عليه التحدث إلى الأنسة هافيشام. كلما وجهت إليه إشارات وإيماءات ليفعل ذلك، أصبح أكثر سرية وجدالًا وأدبًا، في إصراره على توجيه حديثه إليّ.

«هل أحضرت عقد التدريب معك؟» سألت الآنسة هافيشام.

أجاب جو، كما لو كان ذلك غير معقول بعض الشيء: «حسنًا يا بيب، كما تعلم، أنت بنفسك رأيتني أجلبه معي، وبالتالي فأنت تعرف أنه موجود هنا»، وأخرجه، وأعطاه لي، وليس للآنسة هافيشام. أخشى أنني شعرت بالخجل من هذا الرفيق العزيز الطيب - أعلم أنني كنت أخجل منه - عندما رأيت إستيلا تقف خلف كرسي الآنسة هافيشام، وعيناها تضحكان بخبثٍ. أخذت العقد من يده، وأعطيته للآنسة هافيشام. قالت الآنسة هافيشام وهي تنظر إلى العقد: أنت لا تتوقع أن يكون هناك أي مقابل لتدريبك للصبي؟

«جوا!» قلتُ باعتراضٍ لأنه لم يرد على الإطلاق، «لماذا لا تجيب...». ردَّ جو، وهو يقاطعني كما لو كان متأذيًا: يا بيب، ما أقصد قوله هو أنه ليس سؤالًا يتطلب إجابة بيني وبينك، وأنت تعرف أن إجابته بالقطع لا. أنت تعلم ذلك يا بيب، فلماذا يجب أن أقولها؟ أومأت إليه الآنسة هافيشام كما لو أنها فهمت حقيقته أفضل مما كنت أتصور، وعرفت ما داخله؛ ثم أخذت حقيبة صغيرة من فوق الطاولة بجانبها.

قالت: لقد حصل بيب على مكافأة هنا، وها هي ذي. هناك خمسة وعشرون جنيهًا ذهبيًا في هذه الحقيبة، أعطها لسيدك يا بيب. كما لو أنه فقد عقله تمامًا بسبب الدهشة التي أثارها فيه شكلها الغريب والغرفة العجيبة، استمر جو، حتى في هذه اللحظة، في مخاطبتي. قال جو: هذا تصرف سخّي جدًّا من جانبك يا بيب، وعلى هذا النحو هو موضع ترحاب وامتنان، على الرغم من أنه لم يكن في الحساب، لا من

بعيد أو قريب، أو أي مكان كان، والآن أيها الصديق القديم.

قال جو، وهو ينقل لي إحساسًا بالحرقان في البداية ثم بالتجمد، لأنني شعرت كما لو أن هذا التعبير المؤلف ينطبق على الأنسة هافيشام: «والآن أيها الصديق القديم، دعنا نقوم بواجبنا! دعنا نقوم بواجبنا، تجاهنا، تجاه أحدنا للآخر، وتجاه أولئك الذين حملت إليهم مكافأتك السخية راحة البال، وأولئك الذين لم...» هنا أظهر جو أنه شعر أنه وقع في مصاعب شاقة، حتى أنقذ نفسه منتصرًا بهذه الكلمات: «وهذا ما ليس أنا عليه!» كان لهذه الكلمات صدى قوي ومقنع بالنسبة إليه إلى درجة أنه قالها مرتين.

«وداعًا يا بيب!» قالت الأنسة هافيشام، «دعهم يخرجون، إستيلا».

سألت: هل سأعود مرة أخرى يا أنسة هافيشام؟

- لا. جارجيرى هو سيدك الآن. جارجيرى! أريد منك كلمة.

ومن ثم، ناديت على جو مرة أخرى، وعندما خرجت من الباب، سمعتها تقول له بصوتٍ حازم لا جدال فيه: لقد كان الصبي فتىً جيدًا هنا، وهذه هي مكافأته. وبطبيعة الحال، كرجلٍ أمينٍ، لن تتوقع أكثر من هذا أو أي شيء آخر.

لم أتمكن قطُّ من تحديد كيفية خروج جو من الغرفة؛ لكنني أعلم أنه عندما خرج كان يصعد بثباتٍ إلى الطابق العلوي بدلًا من النزول، وكان أصمَّ لكل احتجاجاتي حتى طاردته وأمسكت به. وبعد دقيقة أخرى كنا خارج البوابة، وكانت قد أُغلقت، واختفت إستيلا. وعندما وقفنا وحدنا في وضوح النهار مرة أخرى، استند جو إلى الحائط، وقال لي: «مذهل!» وبقي هناك فترة طويلة وهو يقول: «مذهل» من فترة لأخرى، إلى درجة

أنني بدأت أعتقد أنه لن يعود لوعيه أبداً. في آخر المطاف أطل ملاحظته قائلاً «يب، أنا أؤكد لك أن هذا مذهب!» وهكذا، بالتدريج، أصبح قادراً على التحدث، وقادراً على الابتعاد.

لديَّ سبب للاعتقاد بأن ذهن جو اتقد بسبب اللقاء، وأنه في طريقنا إلى بامبلتشوك كان قد اختلق مخططاً بارعاً وعميقاً. السبب الذي أقصده هو ما حدث في غرفة استقبال السيد بامبلتشوك: حيث كانت أختي تجلس، عند مجيئنا، في مباحثات مع بائع البذور البغيض هذا.

«حسناً؟» صاحت أختي، مخاطبة كلينا في وقت واحد. «ماذا حدث لكما؟ أتساءل لم تنازلتما وعدتما إلى صحبة فقيرة مثل هذه، أنا أتساءل بالتأكيد!».

«إن الأنسة هافيشام،» قال جو، وهو ينظر إليَّ بنظرة ثابتة، كأنها محاولة للتذكر، «قد أكدت على أن نوصل ... هل كانت تحياتها أم احترامها يا بيب؟».

قلت: تحياتها.

أجاب جو: هذا هو ما اعتقدته؛ تحياتها للسيدة ج. جار جيري ... «كم ستفنعني هذه التحيات!» علقت أختي لكن بشيء من الرضا في الواقع.

تابع جو بنظرة ثابتة أخرى إليَّ، كأنها محاولة أخرى للتذكر: وتتمنى لو أن حالة الأنسة هافيشام كانت في أفضل حالاتها، أليس كذلك يا بيب؟ أضفت أنا: لكي تسعد.

قال جو: «بصحبة السيدات.» وأخذ نفساً طويلاً.

«حسنًا!» صاحت أختي وهي تنظر بنظرة ملطّفة إلى السيد بامبلتشوك: لو كان لديها الكياسة لإرسال تلك الرسالة في البداية! ولكن أن تأتي متأخرًا أفضل من ألا تأتي أبدًا. وماذا أعطت الشاب المشاكس هنا؟ قال جو: لم تعطه شيئًا.

كانت السيدة جو على وشك الانفجار، لكن جو استمر. قال جو: «ما تعطيه، تعطيه لأصدقائه. «وبأصدقائه» كما فسرت، تعني في يد أخته السيدة جيه جارجير. كانت هذه كلماتها. السيدة. جيه جارجير.» أضاف جو وهو يتصنع التفكير: «ربما لم تكن تعرف ما إذا كان جو أم جورج».

نظرت أختي إلى بامبلتشوك، الذي كان يفرك مرفقي كرسيه الخشبي، وأومأ برأسه إليها وإلى النار، كما لو كان يعرف كل شيء سابقًا. «وكم لديك؟» سألت أختي وهي تضحك. تضحك بالفعل! «ماذا ستقول هذه الصحبة مقابل عشرة جنيهات ذهب؟» سأل جو. ردّت أختي باقتضاب: ستقول جيدة. ليست بالكثير، ولكنها جيدة. قال جو: هو أكثر من ذلك، إذن.

أومأ ذلك المحتال الجبان، بامبلتشوك، برأسه على الفور، وقال وهو يفرك ذراعي كرسيه: الأمر أكثر من ذلك أيتها الأم. «أنت لا تقصد أن تقول...» شرعت أختي في القول.

قال بامبلتشوك: نعم، أيتها الأم. لكن انتظري قليلًا. استمر يا جوزيف. عظيم جدًّا! أكمل!

تابع جو: «ماذا ستقول هذه الصحبة مقابل عشرين جنيهًا ذهبيًا؟» ردّت أختي: «سنقول إنه مبلغ سخّي».

قال جو: حسنًا، إذن، فهو أكثر من عشرين جنيهاً.
أوماً ذلك المنافق الدنيء، بامبلتشوك، برأسه مجدداً، وقال بضحكة
متعالية: الأمر أكثر من ذلك أيتها الأم. عظيم مرة أخرى! استمر يا جوزيف!
قال جو وهو يسلم الحقيبة لأختي بكل سرور: إذن، لننه الأمر. إنها
خمس وعشرون جنيهاً ذهبياً.

«إنها خمسة وعشرين جنيهاً ذهبياً أيتها الأم» ردّد أحقر المحتالين
هذا، بامبلتشوك، وهو ينهض لمصافحتها؛ «هذا المبلغ لا يوفيك حقك
(كما قلت عندما سئل عن رأيي)، وأتمنى أن يجلب لك السعادة!».
لو كان هذا الخسيس توقف هنا، لكانت حاله مروعة بما فيه الكفاية،
لكن ذنبه صار أعظم بالمضي قُدماً في التحفظ عليّ، بحق رعايته لي الذي
فاق كل إجرامه السابق.

قال بامبلتشوك وهو يمسك بذراعي فوق المرفق: الآن، كما ترى يا
جوزيف ويا زوجته، أنا واحد من هؤلاء الذين يكملون دائماً ما بدؤوه.
هذا الصبي يجب أن يُلزم، بالطريقة الصحيحة. هذه هي طريقتي. يصير
ملزماً بالطريقة الصحيحة.

قالت أختي (وهي تتمسك بالمال): يعلم الله يا عم بامبلتشوك، إننا
مدينون لك بالفضل بشدة.

«لا تهتمي بي أيتها الأم» أجاب بائع الغلة الماكر «السرور هو السرور
في كل أنحاء العالم. لكن هذا الصبي، كما تعلمون؛ يجب أن نجعله
ملزماً. لأكون صادقاً، لقد تعهدت بأنني سأحرص على ذلك.»

كان القضاة جالسين في قاعة البلدية القريبة، وذهبنا على الفور لجعلي
متدرباً لجو أمام القضاة. أقول إننا ذهبنا، لكن بامبلتشوك دفعني، تماماً

كما لو أنني في تلك اللحظة سرقت أحدًا أو أحرقت قشًا؛ في الواقع، كان الانطباع العام في المحكمة أنني قد قُبض عليّ متلبسًا؛ لأنه بينما كان بامبلتشوك يدفعني أمامه وسط الحشد، سمعت بعض الناس يقولون: «ماذا فعل؟» وآخرون، «إنه مجرد فتى، لكنه يبدو سيئًا، أليس كذلك؟» حتى إن أحد الأشخاص بهيئة وديعة ومتصدقة أعطاني منشورًا مزخرفًا بنقشٍ لشاب شرير مكبل بأغلال على شكل نقانق، بعنوان «ليقرأ في زنزانتني».

كانت القاعة مكانًا غريبًا، كما تراءى لي، حيث توجد بها مقاعد أعلى من الكنيسة، وكان الناس يتدلون فوق المقاعد وينظرون أمامهم؛ وكان القضاة ذوي بأس شديد (أحدهم بشعرٍ أبيض مستعار) يتكئون على الكراسي، مع طي الذراعين، أو تناول النشوق، أو النوم، أو الكتابة، أو قراءة الصحف، ومع بعض اللوحات السوداء اللامعة على الجدران، التي اعتبرتها عيني الخالية من الحس الجمالي عبارة عن تركيبة من الحلوى الجافة والبلاستر اللاصق. هنا، في أحد الأركان، وُقع العقد ووُثق رسميًا، وصرت «ملزمًا»؛ أمسك بي السيد بامبلتشوك طوال الوقت، كما لو كنا مررنا هنا في طريقنا للمشقة للانتهاء من تلك التحضيرات الصغيرة.

عندما خرجنا مرة أخرى، وتخلصنا من الصبية الذين ابتهجوا بسبب توقع رؤيتي أعذب علنًا، والذين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة عندما اكتشفوا أن أصدقائي كانوا يلتفون حولي فحسب، عدنا إلى متجر بامبلتشوك. وهناك أصبحت أختي متحمسة جدًّا للخمسة والعشرين جنيهًا ذهبيًا، إلى درجة أنه لن يلائمها سوى أننا يجب أن نتناول العشاء من تلك المكاسب المفاجئة في مطعم بلو بور، ويجب على بامبلتشوك أن يذهب في عربته، ويحضر السيد والسيدة هابلز والسيد ووبسل.

تم أُنْفِقَ على ذلك؛ ومررت أنا بيوم حزين جدًّا. لأنه ولأسباب مبهمّة بدا من المنطقي، في أذهان المجموعة بأكملها، أنني كنت دخيلاً على الاحتفال. ومما زاد الأمر سوءاً أنهم جميعاً كانوا يسألونني من وقت لآخر -بوجيز العبارة، عندما لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه- لماذا لم أستمع بوقتي؟ وماذا كان في وسعي أن أفعل حينها، سوى أن أقول إنني كنت أستمع بوقتي، بينما لم أكن كذلك!

ومع ذلك، فقد كانوا كباراً، وكانوا يفعلون ما يحلو لهم، واستمتعوا بذلك إلى أقصى حدّ. ذلك البامبلتشوك المحتال، الذي عَظُمَ ليصبح صانع الخير للمناسبة بأكملها، شغل في الواقع رأس المائدة؛ وعندما خاطبهم بشأن موضوع إلزامي، أوقفني على كرسي بجانبه لتوضيح ملاحظاته، وهنّأهم بشدة على كوني عرضة للسجن إذا لعبت الورق، أو شربت الكحوليات القوية، أو بقيت في الخارج لساعات متأخرة أو صاحبت أصدقاء السوء، أو انغمست في أهواء أخرى يَبْنِها العقد على أنها قهريّة.

ذكرياتي الوحيدة الأخرى عن الاحتفال الكبير هي أنهم لم يسمحوا لي بالنوم، ولكن كلما رأوني أستغرق في النوم، أيقظوني وطلبوا مني أن أستمع بوقتي. في وقتٍ متأخّرٍ من المساء، قدم لنا السيد ووبسل قصيدة كولينز، وألقى سيفه المملّخ بالدماء في الرعد، بتأثيرٍ شديدٍ، إلى درجة أن النادل جاء وقال إن السادة بالأسفل يرسلون تحياتهم، لكن المكان ليس بالمرسح. لقد كانوا جميعاً في حالة معنوية ممتازة في طريق العودة إلى المنزل، وغنوا أغنية «سيدتي الجميلة»^(١)! أخذ السيد ووبسل الصوت

(١) أغنية شاعرية لتوماس مور (١٧٧٩-١٨٥٢). المترجم.

الجهير، وأكد بصوتٍ قوي للغاية (ردًا على الأبله الذي يقود تلك الأغنية بطريقة وقحة للغاية، من خلال رغبته في معرفة كل شيء عن الشؤون الخاصة للجميع) أنه كان الرجل الذي لديه خصلات بيضاء مسترسلة، وأنه كان في نهاية المطاف أضعف رحال.

أخيرًا، أتذكر أنني عندما دخلت غرفة نومي الصغيرة، كنت في متهى البؤس، وكان لديّ قناعة شديدة بأنني لن أحب حرفة جو أبدًا. لقد أحببتها في الماضي، لكن الماضي قد ولى.

الفصل الرابع عشر

إنه أمر بائس للغاية أن تشعر بالخزي من منشك. وقد يشير هذا إلى نكران غاشم، وقد تكون العواقب وخيمة ومستحقة؛ ولكنه أمر بائس، أقرُّ بهذا.

لم يكن المنزل قَطُّ مكانًا ممتعًا بالنسبة إليّ، بسبب طبع أختي. لكن جو قَدَس المنزل، وأنا آمنت بكل شيء فيه. كنت أومن بأن غرفة استقبالنا كانت الأكثر أناقة على الإطلاق؛ كنت أومن أن باب المنزل الأمامي هو بوابة غامضة لمعبد الدولة الذي يتم افتتاحه المهيّب بذبيحة من الطيور المشوية؛ كنت أومن بأن المطبخ غرفة طاهرة، وإن لم تكن فخمة؛ كنت أومن بأن دكان الحدادة هي الطريق المشرق نحو الرجولة والاستقلال. وفي غضون عام واحد تغير كل هذا، الآن أصبح كل شيء خشنًا وسوقيًا، ولم أكن لأسمح للآنسة هافيشام وإستيلا برؤيته بأي حال من الأحوال.

لا يجدي نفعًا السؤال أي جزء من حالتي الذهنية الكريهة كان خطئي أنا، وأي جزء كان خطأ الآنسة هافيشام، وأي جزء كان خطأ أختي. لقد حدث التغير داخلي، وانتهى الأمر، سواء كان بشكلٍ جيدٍ أو سيئٍ، بعذرٍ أو بغير عذر، فقد انتهى الأمر.

بدا لي في الماضي أنه عندما يتعيّن عليّ أخيرًا أن أشمر عن أكمام قميصي، وأذهب إلى دكان الحدادة كتلميذ جو، فسوف أكون مميزًا

وقرير العين. الآن وقد أصبح أمرًا واقعًا، فلم أشعر إلا أنني مغبرٌ بغبار الفحم الصغير، وأن من ثقل ذكرياتي اليومية كان السندان ريشة بالنسبة إليه. كانت هناك مناسبات في حياتي اللاحقة (كما هي الحال عند معظم الناس على ما أعتقد) شعرت فيها بعض الوقت كما لو أن ستارة سميكة قد أسدلت على كل الاهتمامات والمغامرات، لتمنعني من أي شيء باستثناء الصمود الضجر على الدوام. لم يسبق أن أسدلت تلك الستارة بمثل هذا الثقل والخواء، كما حدث عندما كان طريقي في الحياة ممتدًا أمامي مباشرة عبر درب التدريب المهني الذي دخلته حديثًا كتلميذٍ لجو. أتذكر أنه في فترة لاحقة من «زمني»، كنت أقف في باحة الكنيسة في أمسيات الآحاد عندما كان الليل يهبط، وأقارن بين نظرتي إلى حياتي ومنظر المستنقع العاصف، وأجد بعض التشابه بينهما من خلال التفكير في مدى ركوديهما وانخفازيهما، وكيف احتوى كلاهما على طريقٍ مجهولٍ، وضباب داكن ووراءهما البحر. لقد كنت مغمومًا تمامًا في أول يوم تدريب لي كما هي الحال في الأيام اللاحقة؛ لكنني سعيد لأنني لم أتدمر لجو قَطُّ طوال مدة عقدي، إنه الشيء الوحيد الذي يُشعِرني بالرضا عن نفسي في هذا الصدد.

فبالرغم من أن هذا يشمل ما سأضيفه الآن، فإن كل الفضل فيما حدث يعود إلى جو. فأننا لم نهرب من المنزل قَطُّ كي أصبح جنديًا أو بحارًا، ليس لأنني كنت مخلصًا، ولكن لأن جو كان مخلصًا. وعملت بحماسة مقبولة رغمًا عني، ليس بسبب شعوري القوي بالنزاهة المهنية، ولكن لأن جو كان لديه إحساس قوي بالنزاهة المهنية. ليس من الممكن معرفة إلى أي مدى قد يؤثر وجود رجل، ودود وصادق القلب يقوم بواجبه، في العالم؛

ولكن من الممكن جدًا معرفة مدى تأثير ذلك في نفسي وقدرتي على الاستمرار، وأنا أعلم جيدًا أن أي خير امتزج بتدريبي المهني جاء من قناعة جو التامة، وليس من سخطي وطموحي المبلبل.

من يستطيع أن يقول ما أردته؟ كيف يمكنني أن أقول، وأنا لم أعرف قط؟ ما كنت أخشاه هو أنه في لحظة ما من لحظات سوء الحظ، عندما أكون في أكثر حالاتي إثارة للاشمئزاز كشخصٍ من العامة، أن أرفع عيني وأرى إستيلا تنظر إليّ من إحدى النوافذ الخشبية في دكان الحدادة. كان يطاردني الخوف من أنها ستكتشف ما أنا عليه، عاجلاً أو آجلاً، بوجه أسود ويدين سوداوين، وأنا أؤدي الجزء الأكثر خشونة من عملي، وستشعر بالانتصار وتحتقرني. في كثير من الأحيان بعد حلول الظلام، عندما كنت أرفع المنفاخ لجو، ونغني «كليم العجوز»، وأتذكر كيف اعتدنا أن نغنيها في منزل الأنسة هافيشام، يظهر لي وجه إستيلا في النار، بشعرها الجميل مرفرفاً وعيناها تحتقراني، غالباً في مثل هذا الوقت كنت أنظر نحو الليل الأسود متجلياً خلف النوافذ الخشبية في الجدار، وأنخيل أنني رأيته وهي تسحب وجهها بعيداً، وأصدق أنها جاءت أخيراً.

بعد ذلك، عندما نعود للمنزل لتناول العشاء، يبدو كأن المكان والوجبة يحملان طابع البساطة أكثر من أي وقت مضى، وأشعر داخل صدري الفظ بالخزي من المنزل أكثر من أي وقت مضى.

الفصل الخامس عشر

بما أنني كبرت للغاية على غرفة عمّة السيد ووبسل، فقد بلغ تعليمي في كنف هذه السيدة العيشية نهايته، ومع ذلك، لم يحدث ذلك إلا بعد أن نقلت لي بيدي كل ما تعرفه من علم، بدءًا من قائمة الأسعار الصغيرة، وحتى أغنية كوميدية كانت قد اشترتها ذات مرة مقابل نصف بنس. على الرغم من أن الجزء المتماسك الوحيد من القطعة الأدبية الأخيرة كان السطور الافتتاحية:

عندما ذهبت إلى مدينة لندن أيها السادة،

تورول لورول

رول لورول

ألم يحتالوا عليّ أيها السادة؟

تورول لورول

تورول لورول

ومع ذلك، في إطار رغبتني في أن أكون أكثر حكمة، حفظت هذه القطعة عن ظهر قلب وبمنتهى الدقة؛ ولا أذكر أنني شككت في أهليتها، إلا أنني اعتقدت (وما زلت أعتقد) أن عدد دندنات التورول لورول يتجاوز إلى حدٍّ ما الشعر نفسه. في ظلّ تعطشي إلى العلم، قدمت مقترحًا إلى السيد ووبسل ليمنحني بعضًا من معلوماته البسيطة، وقد امتثل له

بلطفٍ. ومع ذلك، فقد اتضح أنه كان يريدني فقط أن أقف أمامه كالتمثال بينما أتعرض للمعارضة والمعانقة والندب والتنمر والإمساك بي والوخز والركل بشتى الطرق. سرعان ما رفضت مسار الإرشاد هذا عندما ضربني السيد ووبسل بشدة وسط ثورته الشريرة.

«كل ما تحصّلت عليه من علم، حاولت أن أنقله إلى جو» تبدو هذه العبارة جيدة جدًا، إلى درجة أن ضميري يرفض تركها تمر دون تفسير. أردت أن أجعل جو أقل جهلاً وسوقية، حتى يكون أكثر جدارة بصحبتني وأقل عرضة لانتقاد إستيلا.

كانت بطارية المدفعية القديمة الموجودة في المستنقعات هي مكان دراستنا، وكان لوح مكسور وقطعة قصيرة من قلم الرصاص هي أدواتنا التعليمية: وكان جو يضيف دائماً غليوناً من التبغ. كنت أعرف أن جو لم يتذكر أي شيء من يوم أحد إلى الآخر، أو يتحصّل، تحت إشرافي على أي معلومات أيّاً كانت. ومع ذلك، كان يدخن غليونه عند بطارية المدفعية بمظهر أكثر حكمة بكثيرٍ من أي مكان آخر، بمظهر الخبير، كما لو كان يعتبر نفسه يرتقي بشكلٍ هائل. أتمنى أن يكون قد ارتقى هذا الرفيق العزيز.

كان الجو ممتعاً وهادئاً، هناك، حيث كانت القلوع على النهر تمر خلف الساتر الترابي، وفي بعض الأحيان، عندما كان المد منخفضاً، كانت تبدو كأنها لسفنٍ غارقة لا تزال تبخر في قاع المياه. كلما شاهدت المراكب وهي تقف في البحر باسطة أشرعتها البيضاء، وكلما اخترق الضوء بميلٍ، من بعيدٍ، سحابة أو شراع أو سفح تل أخضر أو خط مائي، كنت أفكر بطريقة ما في الآنسة هافيشام وإستيلا. يبدو أن الآنسة هافيشام

وإستيلا والمنزل الغريب والحياة الغريبة ارتبطوا جميعاً بكل ما هو بديع.
في أحد أيام الأحاد، عندما كان جو في قمة استمتاعه بجليونه، كان
ينفث الدخان وهو يشعر أنه «ثقل الفهم للغاية»، إلى درجة أنني فقدت
الأمل فيه طوال اليوم، استلقت على الأرض بعض الوقت وذقني على
يدي، لامحاً آثار الأنسة هافيشام وإستيلا في جميع أنحاء المشهد أمامي،
وفي السماء والماء، حتى قررت أخيراً أن أذكر فكرة تتعلق بهما كانت
تدور في ذهني كثيراً.

سألت: جو، ألا تعتقد أنني يجب أن أقوم بزيارة الأنسة هافيشام؟

«حسناً، بيب» أجاب جو وهو يفكر ببطء: لأي غرض؟

- لأي غرض يا جو؟ ما الغرض من أي زيارة؟

قال جو: بعض الزيارات لا تستدعي السؤال أبداً يا بيب، ولكن فيما
يتعلق بالسيدة هافيشام، ربما تعتقد أنك تريد شيئاً، أو تتوقع شيئاً منها.

- ألا تعتقد أنه يمكنني القول إنني لا أريد شيئاً يا جو؟

قال جو: ربما تفعل ذلك أيها الصديق القديم، وقد تصدقك أو
لا.

شعر جو، كما شعرت أنا، أن لديه وجهة نظر، فسحب غليونه بقوة
ليمنع نفسه من إضعافها بالتكرار.

«كما ترى يا بيب» تابع جو، بمجرد أن تخطى خطر إضعاف وجهة
نظره: «الآنسة هافيشام كانت كريمة معك، وفي اليوم الذي أعدت عليك
بكرمها، نادتنني مرة أخرى لتُخبرني أن هذا هو كل ما ستحصل عليه».
- نعم يا جو، لقد سمعت.

«سمعت كل شيء؟» كرر جو بتشديد.

- نعم يا جو. كما أقول لك، لقد سمعت.

- ما قصده يا بيب، ربما كان قصدها هو: ضع حدًا للأمر! -عد لمكانك!- أنا في الشمال، وأنت في الجنوب!؛ اقطع كل الصلات! لقد فكرت في ذلك أيضًا، ولم يكن من المريح جدًا بالنسبة إليّ أن جو قد فكر في ذلك؛ لأنه يبدو أنه يجعل الأمر أكثر احتمالًا.

- لكن يا جو.

- نعم أيها الصديق القديم.

- ها أنا ذا، أتقدم في السنة الأولى من تدريبي، ومنذ يوم إلزامي، لم أشكر الأنسة هافيشام قط، أو أسأل عنها، أو أظهر أنني أتذكرها.

- هذا صحيح يا بيب؛ وما لم تنو أن تقدم لها حدوة حصان، وهو ما أقصد أنه حتى حدوة الحصان قد لا تكون هدية مناسبة، بما أن ليس لديها أحصنة...

- لا أقصد هذا النوع من الذكرى يا جو؛ لا أقصد هدية.

لكن فكرة الهدية قد خطرت في ذهن جو، وكان يجب أن يعزف على وترها. قال: أو حتى، إذا ساعدتُك في قرع سلسلة جديدة للباب الأمامي، أو مثلاً مجموعة أو اثنتين من البراغي برأس كبيرة للاستخدام العام، أو حتى غرضًا فاخرًا، مثل شوكة تحميم الخبز لتستخدمها مع فطائرنا، أو شواية لسمك الإسبرط الذي تصطاده أو ما شابه...

قاطعته قائلاً: لا أقصد أي هدية على الإطلاق يا جو.

«حسنًا»، قال جو، وهو لا يزال يعزف على نفس الوتر كأنني شددت

عليه بشكلٍ خاصٍّ: «لو كنت مكانك يا بيب، ما كنت لأفعل ذلك، كلا لم أكن لأفعل. ما فائدة سلسلة الباب عندما يكون لديها مثلها ومستخدمه طوال الوقت؟ والبراغي ذات الرؤوس الكبيرة قد يُساء فهمها. وإذا فكرت في شوكة تحميص خبز، فالأفضل أن تكون من النحاس، لكنك بذلك لن تأخذ أي فضل لنفسك». قال جو وهو يغرس الفكرة في ذهني بثباتٍ، كما لو كان يحاول إيقاظي من وهمٍ راسخٍ: «والحرفي البارع لا يمكنه أن يُظهر براعته بتقديمه شواية، لأنها مجرد شواية. اطرق كما شئت، ولكنها ستصير شواية في النهاية، سواء أردت ذلك أم لا، ولا يمكنك تغيير ذلك...».

صرختُ في يأسٍ، ممسكًا معطفه: عزيزي جو، أنفض عنك هذه الأفكار. لم أنتوِ قطُّ صنع هدية للآنسة هافيشام.

«لا يا بيب» وافق جو، كما لو كان يناضل من أجل ذلك طوال الوقت؛ «وما أقوله لك هو إنك على حقٍّ يا بيب».

- نعم يا جو؛ لكن ما أردت قوله هو أنه بما أن العمل في ركودٍ بعض الشيء الآن، إذا أعطيتني نصف يوم إجازة غدًا، أعتقد أنني سأذهب إلى الحي الراقي في زيارة للآنسة إست ... هافيشام.

قال جو بجدية: اسمها ليس إستافيشام يا بيب، إلا إذا أُعيد تسميتها.

- أعلم يا جو، أعلم. لقد كانت زلة مني. ما رأيك في ذلك يا جو؟ باختصارٍ، أعتقد جو أنه إذا فكرت أنا في الأمر جيدًا، فقد فكر هو فيه جيدًا، لكنه كان محددًا في اشتراط أنه إذا لم أُستقبل بمودة، أو إذا لم أُشجّع على تكرار زيارتي كواحدة ليس لها غرض خفي، ولكنها مجرد شكر لنعمة تلقيتها، فهذه الرحلة التجريبية لن تتكرر. ووعده أنا بالالتزام بهذه الشروط.

الآن، كان لدى جو عاملٌ أجيرٌ بأجرٍ أسبوعي يُدعى أورليك، لقد ادّعى أن اسمه بالمعمودية هو دولج، وهو أمر مستحيل تمامًا^(١)، لكنه كان شخصًا عنيدًا إلى درجة أنني أعتقد أنه لم يكن فريسة لأي وهم في هذا الشأن، ولكنه فرض هذا الاسم عمدًا على أهل القرية كإهانة لتفكيرهم. كان رجلًا عريض المنكبين، متهدل الأطراف، أسمر اللون، وقويًا جدًا، ولم يكن في عجلة من أمره أبدًا، ودائمًا يمشي بتراخ. لم يبدُ أنه يأتي إلى عمله قطُّ عن قصدٍ، بل كان يصل إليه بتراخٍ كما لو كان ذلك بمحض الصدفة؛ وعندما يذهب إلى حانة الجولي بارجمن لتناول عشاءه، أو يرحل في المساء، كان يذهب بتراخٍ، مثل قابيل أو اليهودي الناثه، كما لو أنه ليس لديه أي فكرة عن المكان الذي يذهب إليه، ولا نية في العودة أبدًا. كان يقيم عند أحد حراس بوابات السد في المستنقعات، وفي أيام العمل كان يأتي من خلوته متراخيًا، ويداه في جيبه، وعشاؤه مربوط بتراخٍ في حزمة حول رقبته ويتدلى على ظهره. وفي أيام الأحاد كان يستلقي طوال اليوم على بوابات السد، أو يقف أمام أكوام القش والحظائر، كان دائمًا يتراخي، ويتحرك، وعيناه على الأرض؛ وعندما بادره أحدهم بالكلام أو طلب منه أن يرفع عينيه، كان ينظر إلى أعلى بطريقة نصف مستاءة ونصف حائرة، كما لو أن الفكرة الوحيدة التي كانت تراوده على الإطلاق هي أن هذا فعلٌ غريبٌ وضار لا ينبغي له القيام به أبدًا.

هذا الأجير عابس الوجه لم يكن يحبني. عندما كنت صغيرًا وخائفًا جدًا، أقنعني بأن الشيطان كان يعيش في زاوية مظلمة من دكان الحدادة، وأنه يعرف الشيطان جيدًا، وأنه من الضروري أن يغذي النار مرة كل سبع

(١) أمر مستحيل تمامًا لأنه لا يوجد قديس يُسمَّى دولج كي يُعمد باسمه. المترجم.

سنوات بصبي حي، وأن أعتبر نفسي وقادًا. عندما أصبحت تلميذًا لجو، ربما تأكدت بعض الشكوك لدى أورليك أنني سوف أزيحه من مكانه؛ على أي حال، لقد قلّ إعجابه بي. لا يعني ذلك أنه قال أي شيء أو فعل أي شيء يشير إليّ العداء علنًا؛ كل ما لاحظته هو أنه كان يوجه الشرار المتطاير نحوي، وأنه كلما غنيت «كليم العجوز» كان يقاطع بغنائه في غير حينه.

كان دولج أورليك في العمل وحاضرًا في اليوم التالي عندما ذكرت جو بإجازة نصف اليوم الخاصة بي. لم يقل شيئًا في تلك اللحظة، لأنه كان هو وجو قد وضعاً للتوّ قطعة من الحديد الساخن بينهما، وكنت أنا عند المنفاخ؛ لكنه قال مع الوقت وهو متكئًا على مطرقته: «الآن يا سيدي! من المؤكد أنك لن تفضّل واحدًا منا على الآخر. إذا كان لدى بيب الصغير نصف يوم إجازة، فافعل نفس الشيء من أجل العجوز أورليك». أفترض أنه كان في الخامسة والعشرين من عمره تقريبًا، لكنه عادة ما تحدث عن نفسه كشخص عجوز.

«لماذا، ماذا ستفعل بالعطلة، إذا حصلتَ عليها؟» قال جو.

«ماذا سأفعل بها! ماذا سيفعل هو بها؟ سأفعل بها ما سيفعله هو بها» قال أورليك.

قال جو: بالنسبة إلى بيب، فهو ذاهب إلى الحي الراقي.

رد بسرعة واستحقاق: حسنًا، بالنسبة إلى العجوز أورليك، فهو ذاهب إلى الحي الراقي. يمكن لشخصين الذهاب إلى الحي الراقي، لا شخص واحد فقط.

قال جو: لا تحق.

زمجر أورليك قائلاً: سأفعل إن أردت. ما بال البعض بالذهاب إلى

الحي الراقي! الآن يا سيدي! بربك، لا يوجد تفضيل في هذا الدكان..
تصرّف كالرجال!

رفض السيد التحدث في الأمر حتى يصبح مزاج العامل الأجير أفضل، واندفع أورليك نحو الفرن، وأخرج قضيباً ملتهباً، ووجهه إليّ به كما لو كان سيمرّره عبر جسدي، وحرّكه تجاه رأسي، ثم وضعه على السندان، وطرقه، كما لو كنت أنا، كما أعتقد، وكان الشرر هو دمي المتدفق، وقال أخيراً، عندما أخرج ما داخله وصار الحديد بارداً، واتكأ مرة أخرى على مطرقته، قائلاً: الآن يا سيدي!

«هل أنت بخير الآن؟» تساءل جو.

«نعم!» قال أورليك العجوز بصوت أجش: «أنا بخير».

قال جو: إذن، بما أنك ملتزم بعملك بشكل عام مثل معظم الرجال، فليكن نصف يوم عطلة للجميع. كانت أختي وافقة صامتة في الفناء، في نطاق السمع -لقد كانت جاسوسة مسترقة السمع عديمة الضمير- ونظرت على الفور خلال إحدى النوافذ.

«يا لك من أحمق!» قالت لجو: تمنح الإجازات للعمال المتثاقلين الكسالي، احلف أنك ترى نفسك واسع النعم لتضيق الأجر هكذا، كم أتمنى أن أكون مكانك!

ردّ أورليك بابتسامة مثيرة للاشمئزاز: ستكونين سيدة الجميع، إن جرؤت.

(قال جو: «دعها وشأنها»).

ردّت أختي، وقد بدأت تمهّد لغضبها الشديد قائلة: سأكون ندّاً لجميع الأغبياء والأنذال، وأنا لا أستطيع أن أكون ندّاً للأغبياء، دون أن

أكون نذًا لسيدك، وهو ملك الأغبياء. وأنا لا أستطيع أن أكون نذًا للأندال، دون أن أكون نذًا لك، أنت الأكثر سوادًا، وأسوأ مارقين من هنا وحتى فرنسا. ما رأيك بهذا؟

«أنت امرأة كريهة سيئة الطبع، أيتها الأم جارجيري» زمجر العامل الأجير، «إن حكمت على الأندال، فلا بد أنك أفضل حكم».

(قال جو: «ألم أقل لك اتركها وشأنها؟»).

«ماذا قلت؟» صاحت أختي، وبدأت بالصراخ، «ماذا قلت؟ ماذا قال لي أورليك هذا يا بيب؟ ماذا وصفني وزوجي واقف بجانبه؟ أوه! أوه! أوه!» كانت كل واحدة من هذه الصيحات عبارة عن صرخة؛ ويجب أن أعقب بخصوص أختي، مثلها مثل كل النساء العنيفات اللاتي رأيتهن في حياتي، أن الانفعال لم يكن عذرًا لها، لأنه لا يمكن إنكار أنها بدلًا من أن تغرق في انفعالها، بذلت عن وعي وتعمد جهودًا غير عادية لإجبار نفسها على الانفعال، وأصبحت غاضبة بشكلٍ أعمى على مراحل منتظمة؛ «ماذا وصفني أمام الرجل الدنيء الذي أقسم على الدفاع عني؟ أوه! أوه! أوه! أوه!».

«آاه!» زمجر العامل الأجير بين أسنانه: لو كنت زوجتي لأمسكتك ووضعتك تحت المضخة وخنقتك.

(قال جو: «أقول لك، دعها وشأنها»).

«أوه! لسماعه!» صاحت أختي بصرخة وتصفيق يديها معًا، وكانت تلك هي مرحلتها التالية. «لسماع الوصف الذي وصفني به! أورليك هذا! في منزلي! أنا امرأة متزوجة! وزوجي يقف هنا! أوه! أوه! هنا أختي، بعد نوبة من التصفيق والصراخ، ضربت بيديها على صدرها وعلى ركبتيها، وخلعت

قبعتها، وشدَّت شعرها إلى أسفل، وكانت هذه هي المراحل الأخيرة في طريقها إلى الجنون. نظرًا إلى كونها في هذا الوقت في شدة الهياج وبنجاح تام، فقد اندفعت نحو الباب الذي كنت قد أحكمت إغلاقه لحسن الحظ. ماذا يمكن أن يفعل جو البائس الآن، بعد مقاطعاته اللفظية التي تم تجاهلها، سوى الوقوف في وجه عامله الأجير، وسؤاله عما يقصده بالتدخل بينه وبين السيدة جو؛ وعلاوة على ذلك ما إذا كان رجلًا بما فيه الكفاية للقتال معه؟ شعر العجوز أورليك أن الموقف لا يقبل بأقل من القتال، وأخذ موقف الدفاع على الفور؛ لذلك، دون أن يخلعا مئزريهما المحترقين، انقضَّ أحدهما على الآخر، مثل العمالقة. ولكن، إذا كان أي رجل في هذا الحي يستطيع أن يقف ضد جو، فأنا لم أرَ هذا الرجل قطُّ. كان مصير أورليك، مثل مصير السيد الشاب الشاحب، سرعان ما طُرِح أرضًا وسط غبار الفحم، ولم يكن في عجلة من أمره للقيام منه. ثم فتح جو الباب وأخذ أختي، التي سقطت فاقدة الوعي عند النافذة (بعد أن شاهدت القتال على ما أعتقد)، وحملت إلى المنزل حيث استلقت، وعندما أُنعِشت، لم تفعل شيئًا سوى الصراع والقبض على شعر جو بيديها. ثم جاء الهدوء والصمت الفريدان اللذان خلَّفَا كل الضجيج؛ وبعد ذلك، مع الإحساس الغامض الذي كنت أربطه دائمًا بمثل هذا الهدوء، وهو أنه كان يومًا من أيام الأحاد، وأن شخصًا ما قد مات، صعدت إلى الطابق العلوي لأرتدي ملابسني.

عندما نزلت مرة أخرى، وجدت جو وأورليك يكنسان المكان، دون أي آثار أخرى للقلق سوى شق في إحدى فتحتي أنف أورليك، والذي لم يكن له أي دلالة ولا زينة. ظهر وعاء من الجعة من حانة الجولي بارجمن، وكانا يتقاسمانه بالتناوب بطريقة سلمية. كان للسكون تأثير

مهدئ وفلسفي على جو الذي تبعني إلى الطريق ليقول، كملاحظة فراقية
قد تفيدني: في حالة هيجان، وفي حالة هدوء، يا بيب؛ هذه هي الحياة!
أما عن نوعية المشاعر العبثية (لأننا نعتقد أن المشاعر الجادة جدًّا لدى
الرجل، مضحكة جدًّا لدى الصبي) التي وجدتها داخلي حين ذهبت مرة
أخرى إلى منزل الأنسة هافيشام، هو أمر لا يهم كثيرًا هنا. ولا كيف مررت
عبر البوابة عدة مرات قبل أن أتمكن من اتخاذ قرار بشأن قرع الجرس. ولا
كيف فكرت مليًّا ما إذا كان يجب أن أذهب بعيدًا دون أن أقرعه؛ ولا كيف
كنت سأذهب بلا شك، لو كان وقتي بيدي لأعود في وقتٍ لاحق.

جاءت الأنسة سارة بوكيت إلى البوابة، لا إستيلا.

«لماذا إذن؟ هذا أنت مرة أخرى؟» قالت الأنسة بوكيت، «ماذا تريد؟»
عندما قلت إنني أتيت فقط كي أطمئن على الأنسة هافيشام، من
الواضح أن سارة فكرت مليًّا فيما إذا كان ينبغي لها أن ترسلني بعيدًا أم لا.
لكنها، نظرًا إلى عدم رغبتها في المخاطرة بتحمُّل المسؤولية، سمحت لي
بالدخول، وجلبت لي رسالة حادة مفادها أنني سوف «أصعد إلى الأعلى».
لم يتغير أي شيء، وكانت الأنسة هافيشام وحدها.
«حسنًا؟» قالت وهي تثبت عينيها عليّ، «أمل أنك لا تريد شيئًا؟»
فأنت لن تحصل على شيء.

- لا في الواقع، يا آنسة هافيشام. أردتك فقط أن تعرفني أنني أقوم
بعملٍ جيدٍ للغاية في تدريبي، وأنني سأظل ممتنًّا لك دائمًا.
قالت: «اهدأ، اهدأ!» بنفس الأصابع الضخمة، «تعال بين الحين
والآخر؛ تعال في عيد ميلادك ... نعم!» صاحت فجأة وهي تدير نفسها
وكرسيها نحوي: أنت تبحث عن إستيلا! أليس كذلك؟

كنت أبحث حولي بالفعل، عن إستيلا، وتمتعت بتمنياتي أن تكون بخير.

قالت الآنسة هافيشام: لقد سافرت للخارج لتلقي تعليم يليق بسيدة شابة؛ صارت بعيدة المنال؛ وأجمل من أي وقت مضى؛ يعجب بها كل من يراها، هل تشعر أنك فقدتها؟

لقد كانت هناك متعة خبيثة في نطقها للكلمات الأخيرة، وانفجرت في ضحكة كريهة، إلى درجة أنني كنت في حيرة مما سأقوله. لكنها أنقذتني من عناء التفكير بطردي إلى الخارج. عندما أغلقت سارة ذات الوجه الذي يشبه قشرة الجوز البوابة في وجهي، شعرت بعدم الرضا أكثر من أي وقت مضى عن بيتي وعن حرفتي وعن كل شيء؛ وكان هذا كل ما أخذته من هذه الزيارة .

بينما كنت أتسكع في شارع هاي ستريت، أنظر في كآبة إلى واجهات المتاجر، وأفكر فيما كنت سأشتريه لو كنت رجلاً نبيلًا، خرج السيد ووبسل من المكتبة. كان السيد ووبسل يحمل في يده مأساة جورج بارنويل^(١) المؤثرة، التي اشتراها آنذاك بستة بنسات، بهدف إثقال رأس بامبلتشوك بكل كلمة منها، الذي كان سيشرب الشاي معه. بمجرد أن رأيته، بدا كأنه يظن أن العناية الإلهية قد وضعت «متدربًا في طريقه ليقرأ عليه الكتاب» وأمسك بي، وأصر على مرافقتي له إلى غرفة الاستقبال الخاصة ببامبلتشوك. ولأنني كنت أعرف أن الأمر سيكون بائسًا في المنزل، وبما أن الليالي مظلمة والطريق موحش، وتقريبًا أي رفقة على الطريق أفضل من لا شيء. لم أقاوم كثيرًا؛ وبالتالي تحوّلنا إلى متجر

(١) مسرحية «تاجر لندن» أو «تاريخ جورج بارنويل» من تأليف جورج لبللو. المترجم.

بامبلتشوك بينما كان الشارع والمحلات التجارية تضاء.

نظرًا إلى أنني لم أساعد في تمثيل مسرحية جورج بارنويل من قبل، فلا أعرف كم يستغرق ذلك من الوقت؛ لكنني أعلم جيدًا أن الأمر استغرق حتى الساعة التاسعة والنصف تلك الليلة، وأنه عندما وصل السيد ووبسل إلى ذكر سجن نيوجيت، اعتقدت أنه لن يذكر أبدًا المشنقة، فقد أصبح أبطأ بكثير من أي فترة سابقة في مسيرته المهنية الشائنة. اعتقدت أنه من المبالغة بعض الشيء أن يشكو من تقليص دوره بعد كل هذا، كما لو أنه لم يسحقه سحقًا، ورقة تلو الأخرى، منذ أن بدأ في المسرحية. ومع ذلك، كانت هذه مجرد مسألة طول وإرهاق. ما أزعجني هو أن الأمر برمته كان مشابهًا لما حدث مع ذاتي البريئة. عندما بدأ بارنويل يخطئ، أعربت عن شعوري بالأسف الشديد، وقد أثقلتني نظرة بامبلتشوك الممتعة. بذل ووبسل أيضًا قصارى جهده لتقديمي في أسوأ صورة. صرت في الحال، شرسًا وفظًا، وحملت على قتل عمي دون أي ظروف مخففة للجريمة على الإطلاق؛ أداني ميلوود طوال الوقت؛ لقد أصبح هاجسًا محضًا لدى ابنة سيدي أن تعني بي بأي طريقة ممكنة؛ وكل ما يمكنني قوله عن سلوكي المتلهف والمماطل في هذا الصباح المشؤوم هو أنه كان يليق بضعف شخصيتي في العموم. حتى بعد أن سُنقت بنجاح، وبعد أن أغلق ووبسل الكتاب، جلس بامبلتشوك يحدق إلى وجهي، وهز رأسه، وقال: «خذ حذرك أيها الصبي، خذ حذرك!» كما لو كانت حقيقة معروفة أنني فكرت في قتل أحد أقربائي، في حال تمكنت فقط من حث أحدهم على الحط من قدره كي يصبح ولي نعمتي.

لقد كانت ليلة مظلمة للغاية عندما انتهى كل شيء، وانطلقت أنا

والسيد ووبسل في طريق العودة إلى المنزل. خارج المدينة، وجدنا ضباباً كثيفاً، نزل علينا مبللاً وسميگًا. كان مصباح البوابة الرئيسية غائماً، وبدا كأنه في غير محله تماماً، وكانت أشعته تبدو كأنها مادة صلبة على الضباب. كنا نلاحظ ذلك، ونقول كيف أن الضباب ارتفع مع تغير الرياح من منطقة معينة من المستنقعات، عندما صادفنا رجلاً كان يقف متراخياً متحامياً بالبوابة الرئيسية.

«مرحباً!» قلنا، وقف هو. «هل هذا أورليك؟».

«نعم!» أجاب وهو يتراخى، «لقد كنت واقفاً للحظة، على أمل أن أجد أي صحبة».

قلت: لقد تأخرت.

أجاب أورليك بطريقة ليست بجديدة عليه: حسناً؟ وأنت أيضاً.

قال السيد ووبسل وهو منتشٍ بأدائه السابق: لقد انغمسنا، يا سيد أورليك، في أمسية فكرية.

زمجر أورليك العجوز، كما لو أنه ليس لديه ما يقوله عن ذلك، وتابعنا جميعاً طريقنا معاً. سألته سريعاً عما إذا كان قضى نصف يوم الإجازة في المدينة.

قال: نعم، كل أنحاء المدينة. لقد جئت من بعدك. لم أرك، ولكن لا بد أنني كنت قريباً جداً خلفك. بالمناسبة، أطلقت النيران مرة أخرى.

سألت: في سفن السجن؟

- نعم! هناك بعض الطيور تطير من أعشاشها. البنادق مستمرة منذ حلول الظلام. سوف تسمع واحدة حالاً.

في الواقع، لم نكن قد مشينا عدة ياردات أخرى، عندما اقترب منا دويًّا نتذكره جيدًا، وقد خَفَّفَه الضباب، وتدحرج بثقلٍ على طول الأراضي المنخفضة بجوار النهر، كما لو كان يلاحق الهاربين ويهددهم.

قال أورليك: ليلة جيدة للهروب، سوف نختار في كيفية إسقاط طائر السجن المحلَّق بعيدًا هذه الليلة.

كان الموضوع له دلالة خاصة بالنسبة إليّ، وفكرت فيها بصمتٍ. السيد ووبسل، متقمصًا دور العم من مسرحية السهرة بلا أجرٍ، لجأ إلى التفكير بصوتٍ عالٍ في حديقته في كامبرويل. وضع أورليك يديه في جيبه وتراخى بشدة بجانبه. كان الجو مظلمًا جدًا، ورطبًا جدًا، وموحلًا جدًا، فسرنا محدثين ضجة على الطريق. بين الحين والآخر، كان صوت مدفع الإشارة ينطلق مرة أخرى، ويتدحرج مرة أخرى عابسًا على طول مجرى النهر. احتفظت بصمتي وبأفكاري لنفسي. ألقى علينا السيد ووبسل مشهد الموت الهادئ في كامبرويل^(١)، ومشهد الموت في معركة بوسورث فيلد^(٢)، ومشهد الموت مع آلام المبرحة في جلاستونبري^(٣). كان أورليك يهمهم أحيانًا قائلًا: «اطرقوا يا صبيان ... كليم العجوز!

بدويّ يصم الآذان ... كليم العجوز!» توقعت أنه كان يشرب، لكنه لم يكن ثملًا.

(١) إشارة بارنويل من مسرحية «تاجر لندن» أو «تاريخ جورج بارنويل» من تأليف جورج ليللو. المترجم.

(٢) إشارة إلى ريتشارد الثالث من «ريتشارد الثالث»، مسرحية تاريخية من تأليف ويليام شكسبير. المترجم.

(٣) أجمع النقاد أن المقصود بجلاستونبري هو إدmondسبري في إشارة إلى الملك جون من «حياة وممات الملك جون»، مسرحية تاريخية من تأليف وليام شكسبير. المترجم.

وهكذا وصلنا إلى القرية. الطريق التي أوصلتنا لها مرّت بنا عبر حانة ثري جولي بارجمن، التي فوجئنا بالعثور عليها - الساعة الحادية عشرة مساءً- في حالة من الفوضى، والباب مفتوح على مصراعيه، والأضواء القليلة الموجودة أشعلت على عجل، وتُركت متناثرة في الأرجاء. جاء السيد ووبسل ليسأل عن الأمر (معتقداً أنه قد قُبِض على أحد المدانين)، لكنه خرج راکضاً، وبسرعة شديدة.

قال دون أن يتوقف: لقد حدث شيء سيء، في منزلك يا بيب، اركضوا جميعاً!

«ماذا حدث؟» سألت، مواكباً له، وكذلك فعل أورليك بجانبي.

- لم أفهم تمامًا، يبدو أن المنزل قد اقتحم بعنفٍ عندما كان جو جارجيري بالخارج، من قِبَل المدانين، على ما يبدو؛ تعرض شخص ما للهجوم والأذى.

كنا نركض بسرعة كبيرة إلى درجة أننا لم نترك مجالاً للمزيد من الكلام، ولم نتوقف حتى وصلنا إلى مطبخنا، كان مليئاً بالناس، كانت القرية بأكملها هناك، أو في الفناء؛ وكان هناك جراح^(١)، وكان جو هناك، وكان هناك حشد من النساء، جميعهن على الأرض في وسط المطبخ. تراجع المتفرجون الساكنون عندما رأوني، وهنا أدركت أن أختي كانت ترقد بلا إحساسٍ أو حركة على الألواح الخشبية العارية حيث سقطت أرضاً بضربة قوية على مؤخرة رأسها، من قِبَل شخص مجهول عندما كان وجهها موجهًا نحو النار، وكان مقدراً لها ألا تكون في نوبة هياج أخرى أبداً، بينما هي زوجة جو.

(١) في ذلك الوقت لم يرق الجراح بعد إلى مرتبة طبيب. المترجم.

الفصل السادس عشر

وبينما جورج بارنويل ما زال حاضراً في ذهني، كنت في البداية أميل إلى الاعتقاد بأنني كان لي يدٌ ما في الهجوم على أختي، أو بأي حالٍ من الأحوال، باعتباري أقرب أقربائها، والمعروف عني أنني مدين لها، كنتُ وبطريقة مشروعة موضع شك أكثر من أي شخص آخر، ولكن في ضوء أوضح في صباح اليوم التالي، عندما بدأت أعيد النظر في الأمر، وأسمعه يُناقش حولي من جميع الجوانب، نظرت إلى الأمر نظرة مختلفة، نظرة أكثر منطقية.

كان جو في حانة تري جولي بارجمن، يدخل غليونه، من الساعة الثامنة والرابع حتى العاشرة إلا ربع. وفي أثناء وجوده هناك، شُهِدَت أختي تقف عند باب المطبخ، وقد تبادلت الأمنيات بليلة سعيدة مع عامل مزرعة عائدٍ إلى منزله. لم يستطع الرجل أن يكون أكثر تحديداً فيما يتعلق بالوقت الذي رآها فيه عدا أنه كان بالتأكيد قبل الساعة التاسعة (لقد أصابه ارتباكٌ شديداً عندما حاول ذلك). عندما عاد جو إلى المنزل خمس دقائق دون العاشرة، وجدها مُلقاة على الأرض، فاستدعى المساعدة على الفور. لم تكن النار قد اشتعلت على نحوٍ منخفضٍ على غير المعتاد، ولم يكن احتراق الشمعة طويلاً جداً؛ لكن الشمعة كانت مطفأة تماماً.

ولم يُسَرَق أي شيء من المنزل كله. وباستثناء انطفاء الشمعة، التي وقفت على طاولة بين الباب وأختي، وكانت خلفها عندما وقفت أختي

في مواجهة النار، لم يكن هناك أي فوضى في المطبخ سوى فوضى سقوطها ونزيفها على الأرض. ولكن، كان هناك دليل واحد ملحوظ على الفور؛ لقد ضُربت بأداة كليلة وثقيلة على رأسها وظهرها؛ وبعد تعرضها للضربات، أُلقي شيء ثقيل عليها بعنفٍ شديدٍ، وهي مستلقية على وجهها. وعلى الأرض بجانبها، عندما حملها جو، كان هناك كتلة أغلال حديدية لساق أحد المدانين تم بردها إلى أجزاء.

الآن، أعلن جو، وهو يفحص الأغلال بعين الحداد الخبيرة، أنها قُطعت منذ بعض الوقت. وصل صخب الأمر إلى سفن السجن، وأتى أشخاص من هناك لفحص الأغلال، وتم تأكيد رأي جو. لم يتعهدوا بالقول متى غادرت سفن السجن التي كانت تنتمي إليها بلا شك سابقًا؛ لكنهم زعموا أنهم يعرفون على وجه اليقين أن تلك الأغلال بالتحديد لم يردّها أيٌّ من المدانين اللذين هربا الليلة الماضية. علاوة على ذلك، استُعيد أحدهما بالفعل، ولم يكن قد حرر نفسه من أغلاله.

بكل ما أعرفه، قمت بإعداد استنتاج خاص بي هنا. اعتقدت أن الأغلال هي أغلال المُدان الخاص بي، الأغلال التي رأيته وسمعته وهو يبردها في المستنقعات، لكنني في عقلي لم أتهمه بأنه استخدمها هنا؛ لأنني اعتقدت أن واحدًا من شخصين قد استحوذ عليها، واستخدمها هذا الاستخدام الوحشي؛ إما أورليك، وإما الرجل الغريب الذي أراني المبرد. بالنسبة إلى أورليك؛ لقد ذهب إلى المدينة تمامًا كما أخبرنا عندما اصطحبناه من الطريق الرئيسي، ورؤي في المدينة طوال المساء، وكان في صحبة مختلف الناس في العديد من الحانات، وقد عاد معي ومع السيد ووبسل. ولم يكن يدينه شيء سوى العراك، وقد تعاركت أختي معه ومع

كل من حولها عشرة آلاف مرة. وأما الرجل الغريب؛ ولو أنه عاد ليأخذ ورقتيه النقديتين، لما كان هناك أي نزاع بشأنهما، لأن أختي كانت على استعداد تام لإعادتهما. علاوة على ذلك، لم تكن هناك مشاجرة؛ لقد دخل المعتدي بصمتٍ وفجأة، حيث أُسقطت قبل أن تتمكن من النظر حولها.

لقد كان من المروع الاعتقاد بأنني قدمت السلاح، ولو بشكلٍ غير متعمد، لكنني بالكاد أستطيع أن أفكر بخلاف ذلك. لقد عانيت من مشكلة لا توصف بينما كنت أفكر وأعيد النظر فيما إذا كان ينبغي لي أخيراً أن أتخلص من لعنة طفولتي تلك، وأخبر جو بالقصة بأكملها. لعدة أشهر بعد ذلك، كنت أحسم السؤال نهائياً بالنفي كل يوم، وأعيد فتحه وطرحه في صباح اليوم التالي. وصل النزاع في النهاية إلى اقتناعي بأن السربات قديماً جداً الآن، وقد نما داخلي وأصبح جزءاً من نفسي، إلى درجة أنني لم أكن لأقدر على اختلاعه مني. بالإضافة إلى الخوف من أنه، بعد أن أدى إلى الكثير من الأذى، سيكون من المرجح الآن، أكثر من أي وقتٍ مضى، أن ينفر جو مني إذا صدق ذلك، كان لديّ خوف آخر من أنه لن يصدق الأمر، لكنه سوف يضعه مع مرتبة الكلاب الخرافية وضلوع لحم العجل باعتباره تلفيقاً بشعاً. ومع ذلك، أنا كنت أأمل نفسي بالطبع، ألم أكن أذبذب بين الصواب والخطأ حين ينتهي الأمر دوماً؟ وعقدت العزم على الإفصاح الكامل إذا رأيت أي مناسبة جديدة كفرصة جديدة للمساعدة في اكتشاف المعتدي.

تواجد رجال الأمن و«بو ستريت رانرز»^(١) من لندن حول المنزل

(١) أول قوة شرطة منظمة في لندن، دُمجوا في ١٨٢٩ مع «متروبوليتان بوليس سيرفيس» المعروفة حتى اليوم بشرطة لندن. المترجم.

لمدة أسبوع أو أسبوعين، لأن هذا الحدث وقع أيام الشرطة ذات المعاطف الحمراء البائدة، وفعلوا تقريباً كل ما سمعت وقرأت أن السلطات تفعله في الحالات الأخرى المماثلة. اعتقلوا العديد من الأشخاص الخاطئين على نحو بَيِّن، وأضاعوا وقتهم في الأفكار الخاطئة، واستمروا في محاولة ملاءمة الظروف للأفكار، بدلاً من محاولة استخلاص الأفكار من الظروف. كما وقفوا عند باب حانة الجولي بارجمن بنظراتٍ مطلّعة ومتحفظة ملأت الحي كله بالإعجاب؛ وكان لديهم طريقة غامضة في تناول مشروبهم، لا تختلف عن طريقتهم في الإمساك بالجاني، بيد أنهم لم يمسكوا بالجاني قطُّ.

وبعد أن تفرقت هذه السلطات الدستورية بفترة طويلة، ظلَّت أختي طريحة الفراش في شدة السقم. اضطرب بصرها، حتى إنها رأت الأشياء مزدوجة، وحاولت الإمساك بأكواب الشاي وكؤوس النبيذ الوهمية بدلاً من الحقيقية؛ وضعف سمعها جدًّا؛ وذاكرتها أيضًا؛ وأصبح كلامها غير مفهوم. وعندما تحسَّنت أخيرًا إلى حد مساعدتها في النزول إلى الطابق السفلي، كان لا يزال من الضروري أن أحتفظ بلوحي الخشبي بجوارها دائمًا، حتى تتمكن من كتابة ما لا تستطيع قوله. نظرًا إلى أنها كانت (بغض النظر عن خطِّها السيئ جدًّا) غير مبالية بتهجئتها، وبما أن جو كان قارئًا سيئًا، فقد نشأت تعقيدات هائلة بينهما، كنت أُستدعى دائمًا لحلها؛ كان «استبدال الدواء بلحم الضأن، واستبدال جو بالشاي، والخباز بلحم الخنزير المقدد» من بين أبسط أخطائي في الفهم.

ومع ذلك، لانت عريكتها بشكلٍ كبيرٍ، وكانت صبورة. وسرعان ما أصبح ارتعاش أطرافها المحير جزءًا من حالتها الطبيعية، وبعد ذلك، على

فترات من شهرين أو ثلاثة، غالبًا ما كانت تضع يديها على رأسها، ثم تبقى لمدة أسبوع تقريبًا في اضطراب ذهني موحش. لم نتمكن من العثور على مرافقٍ مناسب لها، حتى طرأ أمر ما أسعفنا على نحوٍ ملائم. عمة السيد ووبسل تركت عالمنا، وأصبحت بيدي جزءًا من منزلنا.

ربما كان قد مرَّ شهرٌ تقريبًا بعد ظهور أختي مرة أخرى في المطبخ، عندما أتت بيدي إلينا بصندوقٍ صغيرٍ مبقعٍ يحتوي على جميع ممتلكاتها الدنيوية، وأصبحت نعمة للأسرة. قبل كل شيء، كانت نعمة لجو، لأن الرجل العجوز العزيز كان حزينًا بسبب التأمل المستمر في حطام زوجته، واعتاد في أثناء رعايتها في المساء، التوجُّه إلَيَّ بين الحين والآخر، ثم يقول بعينه الزرقاوين المبللتين: «كانت امرأة جميلة في يوم من الأيام يا بيب!» تولَّت بيدي على الفور مسؤولية أختي بذكاء شديد كما لو كانت قد درستها منذ الطفولة؛ أصبح جو قادرًا إلى حدٍّ ما على تقدير الهدوء البالغ في حياته، واللجوء إلى حانة الجولي بارجمن بين الحين والآخر من أجل التغيير الذي كان له تأثيرٌ ملطَّف. كان من سمات رجال الشرطة أن اشتبهوا جميعًا في جو المسكين (على الرغم من أنه لم يعرف ذلك قطُّ)، واتفقوا في اعتباره واحدًا من أكثر الأشخاص الذين واجهوهم مكرًا على الإطلاق.

كان أول انتصار لبيدي في مركزها الجديد هو حل معضلة لم أقوَّ عليها قطُّ، لقد حاولت جاهدًا، لكنني لم أتوصل إلى شيء. كانت كالآتي:

مرارًا وتكرارًا، كانت أختي ترسم على اللوح الخشبي، ما بدا كأنه حرف هجاء عجيب، ثم كانت تلفت انتباهنا إليه بحماسٍ شديدٍ على أنه شيء تريده على نحوٍ خاصٍّ. لقد حاولتُ عبثًا مع كل شيء قد يبدأ بهذا

الحرف، من القطران إلى الخبز المحمص وحوض الغسيل. مع الوقت خطر في ذهني أن الحرف يبدو كمطرقة، وعندما صحت بهذه الكلمة بلهفة في أذن أختي، بدأت بالطرق على الطاولة، وأعربت عن موافقة شديدة. وبعد ذلك، أحضرتُ كل مطارقنا، الواحدة تلو الأخرى، ولكن دون جدوى. ثم فكرت في عكاز، وكان شكله متماثلاً تقريباً، واستعرت عكازاً من القرية، وعرضته على أختي بثقة كبيرة. لكنها هزّت رأسها بشدة عندما عُرض عليها، إلى درجة أننا كنا خائفين من أن تكسر رقبتها في حالتها الضعيفة والمحطمة هذه.

عندما وجدت أختي أن بيدي كانت سريعة جداً في فهمها، ظهرت العلامة الغامضة مرة أخرى على اللوح الخشبي. نظرت بيدي إليها بتمعنٍ، واستمعت إلى شرحي، ونظرت بتمعنٍ إلى أختي، ونظرت بتمعنٍ إلى جو (الذي كان يمثله دائماً في اللوح الخشبي الحرف الأول من اسمه)، وركضت إلى دكان الحدادة، وتبعناها أنا وجو.

«نعم بالطبع!» صاحت بيدي بوجه مبتهج، «ألا ترون؟ إنه هو!».

أورليك بلا أدنى شك! لقد نسيّت اسمه، ولم يكن في وسعها أن تشير إليه إلا بمطرقتة. أخبرناه أننا أردنا منه أن يدخل المطبخ، فوضع مطرقتة ببطء، ومسح جبينه بذراعه، ثم مسحه مرة أخرى بمئزره، وخرج مترهلاً، مع انحناء غريب في الركبتين كأنه متشرد، وهو الشيء الذي ميّزه بشدة.

أعترف أنني توقعت أن أرى أختي تدينه، لكنني شعرت بخيبة أمل من النتيجة المختلفة. لقد أظهرت بلهفة شديدة رغبتها في أن تكون على وفاقٍ معه، ومن الواضح أنها كانت سعيدة جداً أنه أحضر في نهاية المطاف، وأشارت إلى رغبتها في أن يُجلب مشروب له. راقبت وجهه كما لو كانت

ترغب بشكلٍ خاص في التأكد من أن استقبالها كان على هواه، وأظهرت كل رغبة ممكنة في استعطافه، وكان هناك جوٌّ من الاسترضاء المتواضع في كل ما فعلته، مثلما رأيته يخيم على تصرف طفل تجاه رب عمل صارم. بعد ذلك اليوم، نادرًا ما يمر يوم دون أن ترسم المطرقة على لوحها الخشبي، ودون أن يأتي أورليك بتراخٍ ويقف بتصلبٍ أمامها، كما لو أنه لا يعرف مثلي ما يمكن استنتاجه من هذا.

الفصل السابع عشر

أصبحت الآن أسيرًا للروتين المنتظم الخاص بحياة التدريب المهني، التي لم تختلف كثيرًا عن حياة القرية والمستنقعات، باستثناء حلول عيد ميلادي وقيامي بزيارة أخرى للآنسة هافيشام. وجدت الآنسة سارة بوكيت لا تزال في الخدمة عند البوابة؛ ووجدت الآنسة هافيشام كما تركتها، وتحدثت عن إستيلا بنفس الطريقة، إن لم يكن بنفس الكلمات. لم تستغرق المقابلة سوى بضع دقائق، وأعطتني جنيهاً ذهبياً عند مغادرتي، وطلبت مني أن آتي مرة أخرى في عيد ميلادي القادم. يمكنني أن أذكر على الفور أن هذه الزيارة أصبحت عادة سنوية. لقد حاولت ألا أخذ الجنيه الذهبي في أول مرة، مما جعل الآنسة هافيشام تسألني بغضبٍ شديدٍ، إذا كنت أتوقع المزيد؟ وبالتالي أخذته حينها وصرت أخذه بعدها. كان المنزل القديم الباهت كما هو، والضوء الأصفر في الغرفة المظلمة، والشبح الباهت على الكرسي بجوار مرآة طاولة الزينة، إلى درجة أنني شعرت كما لو أن توقف الساعات قد أوقف الوقت في ذلك المكان الغامض، وبينما كبرت أنا وكل شيء آخر خارجه، ظل المكان كما هو. أتذكر أن ضوء النهار لم يتغلغل في المنزل قط، كما هي الحال الآن. طالما أربكني هذا المنزل، وتحت تأثيره ظللت أكره حرفتي، وأشعر بالخجل من منزلي.

تدريجياً، تبينت حدوث تغيير في يدي. كان حذاؤها يصل إلى الكعب، وأصبح شعرها لامعاً وأنيقاً، وأصبحت يداها نظيفتين دائماً. لم تكن جميلة، فهي من العامة، ولا يمكن مقارنتها بإستيلا، لكنها كانت جذابة ورزينة وحلوة الشمائل. لم يمضِ على وجودها معنا أكثر من عام (أتذكر أنها كانت قد خلعت حديثاً زي الحداد في الوقت الذي لاحظت عليها التغيير)، عندما لاحظت ذات مساء أنها كانت تتمتع بعينين مراعيتين ولطيفتين بشكلٍ مثير للاهتمام؛ عينا جميلتان جداً وجذابتان جداً.

لقد حدث ذلك عندما رفعت عيني من مهمة كنت أنشغل بها - كتابة بعض المقاطع من كتاب، لتحسين نفسي بطريقتين في وقتٍ واحدٍ كنوعٍ من الحيلة - ورؤية يدي متببهة لما كنت أفعله. وضعت قلمي جانباً، أوقفت يدي تطريزها دون أن تضعه جانباً.

سألت: بيدي، كيف يمكنك تدبر الأمر؟ إما إنني غبي جداً، وإما إنك ذكية جداً.

«ما الذي أتدبره؟ لا أعرف قصدك» أجابت بيدي مبتسمة.

لقد أدارت حياتنا المنزلية بأكملها، وبشكلٍ رائعٍ أيضاً؛ لكنني لم أقصد ذلك، على الرغم من أن ذلك جعل ما قصده أكثر إثارة للدهشة.

سألت: «كيف يمكنك يا بيدي أن تتعلمي كل ما أتعلمه، وأن تسايريني دائماً؟» لقد بدأت أكون مغروراً إلى حدٍّ ما بمعرفتي، لأنني أنفقت جنيهاً عيد ميلادي الذهبية عليها، وخصصت الجزء الأكبر من مصروف جيبى لاستثمارٍ مماثل؛ على الرغم من أنه ليس لديَّ شك الآن في أن تلك المعرفة الضئيلة كانت باهظة الثمن للغاية.

قالت بيدي: من الأفضل أن أسألك، كيف تتدبر أنت الأمر؟

- لا؛ لأنه عندما آتي من دكان الحدادة مساءً، يرى الجميع أنني ألتفت إلى تعليمي. لكنك لا تقومين بذلك أبدًا يا بيدي.

قالت بيدي بهدوء: «أعتقد أنني أصاب به مثل السعال»، واستمرت في الخياطة.

في أثناء متابعة فكرتي وأنا أتكئ على كرسيي الخشبي، ونظرت إلى بيدي وهي تخطط ورأسها على أحد الجانبين، بدأت أعتقد أنها فتاة غير عادية. لأنني تذكرت الآن أنها كانت بارعة بنفس القدر فيما يخص حرفتنا، وأسماء أنواع عملنا المختلفة، وأدواتنا المتنوعة. باختصار، كل ما أعرفه، كانت بيدي تعرفه. من الناحية النظرية، كانت بالفعل حدادة جيدة مثلي، أو أفضل.

قلت: أنت واحدة من هؤلاء يا بيدي، الذين يستغلون كل فرصة إلى أقصى حد. لم تُتَح لك الفرصة قط قبل مجيئك إلى هنا، وانظري إلى مدى تحسنتك!

نظرت بيدي إليّ لحظة، واستمرت في الخياطة، «لقد كنت معلمتك الأولى رغم ذلك؛ أليس كذلك؟» قالت وهي تخطط. «بيدي!» هتفت في دهشة، «لماذا تبكين!».

قالت بيدي وهي تنظر إلى الأعلى وتضحك: لا أبكي، ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟

ما الذي كان يمكن أن يضع الفكرة في رأسي سوى بريق الدمعة عندما سقطت على عملها؟ جلستُ صامتًا، وأتذكر كم كانت كادحة حتى تخلصت عمة السيد ووبسل من عاداتها السيئة، ألا وهي الوجود في عالمنا هذا، مما كان له صدّي جيّد لدى بعض الأشخاص. تذكرت الظروف

اليائسة التي أحاطت بها في المتجر الصغير البائس والمدرسة المسائية الصغيرة البائسة الصاخبة، مع تلك المجموعة القديمة البائسة من التلاميذ التي كانت تُجر وتُلكز دائماً. فكرت أنه حتى في تلك الأوقات العصيبة لا بد أنه كان هناك شيء ما كامناً في بيدي وبدأ في النمو الآن، لأنني في أول شعوري بالتشويش والاستياء لجأت إليها طلباً للمساعدة، كأمرٍ مُسلم به. جلست بيدي تخطيط بهدوء، دون أن تذرف دموعاً أخرى، وبينما كنت أنظر إليها وأفكر في كل تلك الأشياء، خطر لي أنني ربما لم أكن ممتناً لها بما فيه الكفاية. ربما كنت متحفظاً للغاية، وكان ينبغي لي أن أعني بها (على الرغم من أنني لم أستخدم هذه الكلمة تحديداً في تأملاتي) من خلال الثقة التي صرت أتحدى بها.

قلت عندما انتهيت من تأمل الأمر: نعم يا بيدي، لقد كنت معلمتي الأولى، وذلك في الوقت الذي لم نفكر فيه قط أننا سنجلس معاً هكذا في هذا المطبخ.

«آه، هذه المسكينة!» أجابت بيدي. وفي سهوٍ منها انتقلت بالكلام إلى أختي، ونهضت وانشغلت بها، لجعلها أكثر راحة؛ «هذا صحيح للأسف!».

«حسناً!» فقلت: يجب أن نتحدث معاً أكثر قليلاً، كما اعتدنا أن نفعل. ويجب أن أشتريك أكثر قليلاً، كما اعتدت أن أفعل. دعينا نتمشى بهدوء في المستنقعات يوم الأحد المقبل يا بيدي، ونتحدث فترة طويلة. لم نكن لتترك أختي وحدها؛ لكن جو كان على أتم الاستعداد لتولي رعايتها بعد ظهر ذلك الأحد، وخرجنا أنا وبيدي معاً. كنا في الصيف، والطقس جميل. عندما مررنا بالقرية والكنيسة وباحة الكنيسة، وخرجنا

إلى المستنقعات، وبدأنا نرى أشرعة السفن وهي تبهر، بدأت أتخيل
الآنسة هافيشام وإستيلا مع المنظر الرابض أمامي، بطريقتي المعتادة.
عندما وصلنا إلى شاطئ النهر وجلسنا على الضفة، كانت المياه تتموج
عند أقدامنا، مما أضفى جواً من الهدوء أكثر مما ليكن عليه من دون هذا
الصوت، قررت أن هذا هو الوقت والمكان المناسبان كي أفضي ليدي
بمكنون صدري.

قلت لها بعد أن ألزمتها بالسرية: بيدي، أريد أن أكون رجلاً نبيلًا.
«أوه، لن أفعل ذلك، لو كنت مكانك!» أجابت، «لا أعتقد أي خير
سيأتي من وراء ذلك».

قلت بشيء من الصرامة: بيدي، لديّ أسبابي الخاصة لرغبتي في أن
أكون رجلاً نبيلًا.

- أنت أدري يا ييب؛ ولكن ألا تعتقد أنك أكثر سعادة كما أنت؟
صرخت بنفاد صبر: بيدي، أنا لست سعيدًا على الإطلاق كما أنا.
أشعر بالاشمئزاز من حرفتي وحياتي، لم يستهوني أي منهما، منذ أن
أصبحت ملزمًا بهما. لا تكوني سخيفة.
«هل كنت سخيفة؟» قالت بيدي وهي ترفع حاجبها بهدوء؛ «أنا
أسفة؛ لم أقصد أن أكون كذلك. أريدك فقط أن تكون مرتاحًا وفي أفضل
حال».

- حسنًا، إذن، يجب أن تفهمي أنني لن أشعر بالراحة نهائيًا - ولن
أشعر إلا بالتعاسة - كما أقول لك يا بيدي! إلا إذا تمكنت من أن
أعيش نوعًا من الحياة مختلفًا تمامًا عن الحياة التي أعيشها الآن.
«هذا مؤسف!» قالت بيدي وهي تهز رأسها في جو من الحزن.

أنا أيضًا كنت أشفق على نفسي في كثير من الأحيان، إلى درجة أنني وفي خضم صراعي الفريد مع نفسي والذي كنت أحمله دائمًا على كاهلي، كدت أذرف دموع الحرقه والأسف عندما عبرت بيدي عن مشاعرها ومشاعري. أخبرتها أنها على حق، وكنت أعلم أن الأمر يستحق الأسف كثيرًا، لكن ما بيدي حيلة.

«لو كان في إمكاني أن أشعر بالرضا» قلت لبيدي، وأنا أقتلع العشب القصير الذي في متناول يدي، مثلما تخلصت مرة من مشاعري المجروحة عن طريق ركلها في جدار مصنع الجعة ولويها من خصلات شعري، «لو كان في إمكاني أن أشعر بالرضا وأن يكون لدي نصف مقدار ولعي بالحدادة عندما كنت صغيرًا، أعلم أن الأمر كان سيكون أفضل بكثير بالنسبة إليّ. لم نكن أنا وأنت وجو لنريد شيئًا حينها، وربما كنا أنا وجو سنصبح شركاء عندما ينتهي تدريبي، وربما كنت قد كبرت لأرافقك، وربما كنا سنجلس على هذه الضفة بالذات في يوم أحد جميل، كأشخاص مختلفين تمامًا. كنت سأصير مناسبًا لك؛ أليس كذلك يا بيدي؟».

تنهدت بيدي وهي تنظر إلى السفن المبحرة، ثم عادت لتجيب: «نعم؛ أنا من السهل إرضائي» بالكاد بدا الأمر كثناء، لكنني كنت أعلم أن نيتها حسنة.

قلت، وأنا ألتقط المزيد من العشب وأمضغ ورقة أو اثنتين: بدلًا من ذلك، انظري كيف هي حالي. غير راضٍ، وغير مرتاح، و... ماذا كان سيعنيني إن كنت فظًا من العامة، إذا لم يخبرني أحد بذلك!

أدارت بيدي وجهها نحو وجهي فجأة، ونظرت إليّ باهتمام أكبر بكثير مما كانت تنظر إليه من السفن الشراعية.

قالت وهي توجه عينيها إلى السفن مرة أخرى: لم يكن هذا حقيقياً أو مهذباً قط. من قال لك هذا الكلام؟

شعرتُ بالارتباك، لأنني استغرقت في الحديث دون أن أرى تماماً إلى أين سيأخذني كلامي. ومع ذلك، لم يكن في الإمكان تغيير الوضع الآن، فأجبت: «السيدة الشابة الجميلة في منزل الآنسة هافيشام، وهي أجمل من أي شخص آخر، وأنا معجب بها بشدة، وأريد أن أكون رجلاً نبيلًا بسببها.» بعد أن أدليت بهذا الاعتراف المجنون، بدأت في رمي عشبي الممزق في النهر، كما لو كنت أفكر في اتباعه.

بعد توقف، سألتني بيدي بهدوء: أتريد أن تكون رجلاً نبيلًا لتغيظها أم لتكسب ودها؟

أجبت بكآبة: لا أعرف.

تابعت بيدي قائلة: لأنه إذا كان الأمر لإغاظتها، فأنا أعتقد -ولكنك تعلم أفضل- أن ذلك قد يكون أفضل وأكثر فاعلية من خلال عدم الاهتمام بكلماتها. وإذا كان الهدف هو كسب ودها، فأنا أعتقد -ولكنك تعلم أفضل- أنها لا تستحق.

كان هذا بالضبط ما فكرت به بنفسي عدة مرات. وهو ما كان واضحاً تماماً بالنسبة إليّ في تلك اللحظة. ولكن كيف يمكنني، وأنا فتى قروي في حالة من الانبهار، أن أتجنّب ذلك التناقض العجيب الذي يقع فيه أفضل الرجال وأكثرهم حكمة كل يوم؟

قلت ليدي: قد يكون كل هذا صحيحاً تماماً، لكنني معجب بها بشدة.

سرعان ما انقلبت على وجهي عند قولتي هذا، ولويت شعري على

جانبي رأسي بشدة. طوال الوقت وأنا أعلم أن جنون قلبي شديد جدًا، وفي غير محله، وكنت مدركًا تمامًا أنني إن شددت رأسي من شعري، وضربت وجهي بالحصى كعقابٍ على انتمائه إلى أحرق مثلي، فأنا أستحق ذلك. كانت بيدي أكثر الفتيات حكمة، ولم تحاول أن تقنعني أكثر من ذلك. وضعت يدها، التي كانت يدًا مريحة على الرغم من خشونتها بسبب العمل، على يدي، واحدة تلو الأخرى، وأخرجتهما بلطفٍ من شعري. ثم ربت على كتفي بهدوء، بينما كنت أبكي قليلًا وأنا أضع وجهي على كمي، تمامًا كما فعلت في ساحة مصنع الجعة، وتكوّن لديّ اقتناع مبهم بأن شخص ما استغلني أو الجميع؛ لا أستطيع تحديد أيهما.

قالت بيدي: «أنا سعيدة لشيء واحد، وهو أنك شعرت أنه في إمكانك أن تمنحني ثقتك يا بيب. وأنا سعيدة بشيء آخر، وهو أنك تعلم بالطبع أنك قد تعتمد على أنني سوف أصونها وأستحقها دائمًا. إذا كانت معلمتك الأولى (يا إلهي! يا لها من مسكينة، وتحتاج إلى الكثير لتتعلمه نفسها!) هي معلمتك الآن، فإنها تعتقد أنها تعرف الدرس الذي تستخلصه من كل هذا. ولكن الدرس سيكون صعب التعلم، كما أنك قد تخطيت معلمتك، ولا فائدة من ذلك الآن.» لذا، ومع تنهيدة هادئة، نهضت بيدي من على الضفة، وقالت بصوتٍ منعش وجذاب: هل نسير مسافة أبعد قليلًا، أم نعود إلى المنزل؟

«بيدي،» صرخت، ونهضت، ووضعت ذراعي حول رقبتها، وقبّلتها، «سأخبرك بكل شيء دائمًا.»

قالت بيدي: حتى تصير رجلًا نبيلًا.

- أنت تعلمين أنني لن أكون كذلك أبدًا، لذا سأظل أخبرك بكل

شيء دائماً. لا يعني ذلك أن لديّ أي فرصة كي أخبرك بشيء جديد، لأنك تعرفين كل ما أعرفه، كما أخبرتك في المنزل تلك الليلة.

«آه!» قالت بيدي بصوتٍ هامسٍ وهي تنظر بعيداً إلى السفن. ثم كررت بصوتها اللطيف السابق: هل نسير أبعد قليلاً أم نعود إلى المنزل؟ قلت لبيدي هيا نسير مسافة أبعد قليلاً، وقد فعلنا، وتحولت فترة ما بعد الظهر إلى أمسية صيفية، كان الجو فيها جميلاً للغاية. بدأت أفكر فيما إذا كانت هذه الظروف أكثر طبيعية وملائمة لي أكثر من لعب الورق على ضوء الشموع في الغرفة ذات الساعات المتوقفة، في ظل احتقار إستيلا لي. فكرت أنه سيكون من المفيد جداً لي أن أكف عن التفكير في إستيلا، وفي كل تلك الذكريات والتخيلات، وأن أتمكن من الذهاب إلى العمل مصمماً على الاستمتاع بما كان عليّ فعله، والالتزام به، والقيام به على أكمل وجه. سألت نفسي ألم أكن أعلم علم اليقين أنه لو كانت إستيلا بجانبني في تلك اللحظة بدلاً من بيدي، فإنها ستجعلني بائساً؟ لقد اضطررت إلى الاعتراف بأنني أعلم ذلك علم اليقين، وقلت لنفسي: ييب، يا لك من أحمق!

تحدثنا كثيراً في أثناء سيرنا، وبدا كل ما قالته بيدي صحيحاً. لم تكن بيدي مسيئة أو متقلبة قط، أو أنها اليوم شخص وفي الغد شخص آخر؛ كانت ستستمد الألم فقط، وليس المتعة، من إعطائي الألم؛ كانت تفضّل أن تجرح قلبها هي بدلاً من قلبي أنا. كيف يمكن إذن ألا أحبها هي بدلاً من إستيلا؟

قلت عندما كنا عائدتين إلى المنزل: بيدي، أتمنى لو تضعينني على طريق الصواب.

«أتمنى لو أستطيع!» قالت بيدي.

- إذا كان في إمكاني فقط أن أجعل نفسي أقع في حبك، أنتِ لا

تمانعين أن أتحدث بهذه الصراحة مع صديقة قديمة مثلك؟

قالت بيدي: لا يا عزيزي، على الإطلاق! أكمل.

- إذا كان في إمكاني فقط أن أجعل نفسي أقع في حبك، فسيكون هذا

هو الشيء المناسب لي.

قالت بيدي: لكنك لن تفعل ذلك أبدًا، كما ترى.

لم يبدُ الأمر مستبعدًا تمامًا بالنسبة إليَّ في ذلك المساء، كما كان

سيصير لو ناقشناه قبل ساعات قليلة. لذلك فكرت أنني لست متأكدًا

تمامًا من ذلك. لكن بيدي قالت إنها متأكدة من ذلك، وقالته بشكلٍ

حاسم. علمت بداخلي أنها على حقٍّ؛ ومع ذلك، لم أستسغ الأمر كونها

واثقة للغاية بشأن هذا الأمر.

عندما اقتربنا من باحة الكنيسة، كان علينا أن نعبر أحد السدود،

ونتجاوز حاجزًا بالقرب من بوابة السد. هناك انطلق، من البوابة، أو من

وسط العشب، أو الوحل (الذي كان في طريقه الراكد تمامًا)، أورليك

العجوز.

«مرحبًا!» صرخ قائلاً: إلى أين تذهبان؟

- أين يجب أن نذهب، سوى المنزل؟

قال: حسنًا، إذن، ستصيني الغربة إن لم أرافقكم!

كانت عقوبة الغربة هذه كلمة من كلماته الخرافية. لم يكن لها أي

معنى محدد على حد علمي، لكنه استخدمها، مثل اسمه الأول المزعوم،

لكي يتحدى البشرية، وينقل فكرة عن شيء وحشي ومؤذٍ. عندما كنت أصغر سنًا، كان لديّ اعتقاد عام بأنه لو حاول أن يغربلني، لكان قد فعل ذلك بخطّافٍ حادٍ وملتوٍ.

كانت بيدي معارضة بشدة لذهابه معنا، وقالت لي هامسة: «لا تدعه يأتي؛ أنا لا أحبه» وبما أنني لم أحبه أيضًا، فقد توليت مسؤولية إخباره أننا نشكره، لكننا لم نرغب في أن يصطحبنا إلى المنزل. لقد تلقى تلك المعلومة بصياح ضاحك، ثم تراجع إلى الخلف، لكنه جاء مترخيًا خلفنا على مسافة قصيرة.

سألت بيدي عن سبب كرهها لأورليك العجوز. كان لديّ فضول لمعرفة ما إذا كانت بيدي تشتبه في أنه كان له يد في الهجوم القاتل الذي لم تتمكن أختي من تقديم أي تفسير له.

«حسنًا!» أجابت، وهي تنظر من فوق كتفها وهو يتكاسل وراءنا: لأنني - أخشى أنه معجب بي.

«هل أخبرك بذلك من قبل؟» سألت بسخطة.

قالت بيدي وهي تنظر من فوق كتفها مرة أخرى: لا، لم يخبرني بذلك قط؛ لكنه يرقص في وجهي، كلما نظرت إليه.

وعلى الرغم من أن دليل الإعجاب هذا كان جديدًا وغريبًا، فإنني لم أشك في دقة التفسير. لقد شعرت بالانفعال الشديد بسبب جرأة العجوز أورليك في الإعجاب بها؛ انفعال كما لو كان تعدّى عليّ شخصيًا.

قالت بيدي بهدوء: لكن هذا لا يشكل فرقًا بالنسبة إليك، كما تعلم. - لا يا بيدي، لا يشكل فرقًا بالنسبة إليّ؛ لكن هذا الشيء لا يعجبني؛ أنا لا أوافق عليه.

قالت بيدي: ولا أنا أيضًا. على الرغم من أن هذا لا يشكّل أي فرق بالنسبة إليك.

قلت: «بالضبط». «ولكن يجب أن أخبرك أنه لا ينبغي أن يكون لي رأي في شؤونك الخاصة يا بيدي، إذا رقص في وجهك بموافقتك».

لقد راقبت أورليك بعد تلك الليلة، وكلما كانت الظروف مواتية كي يرقص في وجه بيدي، كنت أقف أمامه لإخفاء هذا العرض. لقد أثبت وجوده في مؤسسة جو، بسبب إعجاب أختي المفاجئ به، وإلا كنت حاولت طرده. لقد فهم تمامًا نواياي وردّ بالمثل، كما أدركت فيما بعد.

كأن ذهني لم يكن مشوشًا بدرجة كافية من قبل، فقد زودت الآن من ارتبাকে خمسين ألف ضعف، من خلال مروري بحالاتٍ ومواسم أدرك فيها أن بيدي أفضل بمراحل من إستيلا، وأن الحياة العملية الصادقة البسيطة التي ولدت فيها لم يكن بها ما أخجل منه، بل قدمت لي سبلاً كافية لاحترام الذات والسعادة. في تلك الأوقات، كنت أقرر بشكلٍ قاطع أن سخطي تجاه جو العزيز ودكان الحدادة قد وُلّي، وأنني كنت أكبر بطريقة مناسبة لأكون شريكًا لجو، ولكي أبقى برفقة بيدي، ثم في لحظة واحدة تأتي الذكرى المربكة لأيام الأنسة هافيشام وتسقط عليّ مثل صاروخ مدمر، وتلقيني من حافة الهاوية مرة أخرى. يستغرق عدم الانزان وقتًا طويلًا؛ وفي كثير من الأحيان قبل أن ألملم شتات نفسي جيدًا، تأتي فكرة طائشة وتبعثرني مرة أخرى في جميع الاتجاهات، وهي أن الأنسة هافيشام ستأتي بعد كل هذا وتغنيني عن كل شيء عندما ينتهي تدريبي.

الجدير بالقول إنه لو لم ينتهِ تدريبي قطُّ، لظللت في ذروة حيرتي. ومع ذلك، لم ينتهِ تدريبي، بل وصل إلى نهاية مبكرة، كما سأقص في بقية حكايتي.

الفصل الثامن عشر

كنت في السنة الرابعة^(١) من تدريبي لدى جو، وكانت تلك ليلة سبت. كانت هناك مجموعة متجمعة حول النار في حانة ثري جولي بارجمن، منتبهة للسيد ووبسل وهو يقرأ الصحيفة بصوت عالٍ. وكنت أنا من ضمن المجموعة.

لقد ارتكبت جريمة قتل حظيت بشعبية كبيرة، وكان السيد ووبسل ملطخًا بالدماء حتى حاجبيه. كان يقرأ الوصف المقيت بإعجاب شديد، ويتعاطف مع كل شاهد في التحقيق. كان يتأوه بصوت خافت قائلاً: «لقد انتهى أمري» كأنه الضحية، ويصرخ بوحشية: «سوف أقتلك» كأنه الجاني. لقد أدلى بشهادته الطبية، في تقليد صارخ لطبيبنا المحلي؛ ومثل حارس البوابات المسن الذي سمع الضربات، كان ينفخ وينتفض إلى حد الشلل مما يوحي بالشك فيما يتعلق بالكفاءة العقلية لذلك الشاهد. أصبح الطبيب الشرعي، بين يدي السيد ووبسل، مثل تيمون الأثيني^(٢)؛ وخادم الكنيسة أصبح كوريولانوس^(٣). لقد استمتع السيد ووبسل بوقته تمامًا،

(١) كان التدريب المهني في ذلك الوقت يبدأ في سن الرابعة عشرة، وبالتالي يمكن القول إن بيب الآن في نحو الثامنة عشرة من عمره. المترجم.

(٢) تيمون الأثيني هي مسرحية من تأليف ويليام شكسبير. المترجم.

(٣) كريولانس هي مأساة من تأليف ويليام شكسبير، بُنيت على قصة حياة القائد الأسطوري الروماني غايوس كوريولانوس. المترجم.

واستمتعنا جميعاً بوقتنا، وكنا هائنين ومبتهجين. وفي ظل حالتنا هذه توصلنا إلى حكمنا بالقتل العمد.

حينئذٍ فقط، أدركت وجود رجل غريب ينحني على ظهر المقعد المقابل لي وينظر حوله، كان الازدراء ظاهراً على وجهه، وكان يعرض على سبابته وهو ينظر إلى مجموعة الوجوه.

«حسناً!» قال الغريب للسيد ووبسل، عندما انتهى من القراءة: «لقد قمت بتسوية كل شيء بما يرضيك بلا شك، أليس كذلك؟».

تحرك الجميع وحدقوا إلى الأعلى، كأنهم ينظرون إلى القاتل. نظر الرجل إلى الجمع ببرودٍ وسخرية.

«مذنب بالطبع، أليس كذلك؟» قال الرجل. «تكلّموا. هيا!».

«سيدي،» ردّ السيد ووبسل، «دون أن أحصل على شرف معرفتك، فإنني أقول إنه مذنب». وعلى هذا تحليلنا جميعاً بالشجاعة للتضامن بغمغة تأكيدية.

قال الغريب: أنا أعلم أنك تفعل ذلك؛ كنت أعلم أنك سوف تفعل. قلت لك ذلك. لكن الآن سأطرح عليك سؤالاً، هل تعلم، أو لا تعلم، أن قانون إنجلترا يفترض أن كل إنسان بريء، حتى تثبت... تثبت... إدانته؟ بدأ السيد ووبسل يجيب: سيدي، باعتباري رجلاً إنجليزياً، فأنا...

«هيا!»، قال الغريب وهو يعرض على سبابته في وجه السيد ووبسل، «لا تهرب من السؤال، إما إنك تعرف هذا، وإما لا، أيهما أنت؟».

وقف الرجل وهو يميل برأسه، بطريقة استجوابية تنمّرية، وأشار بإصبعه تجاه السيد ووبسل، كما لو كان يحدّد شكله، قبل أن يعرض على سبابته مرة أخرى.

«الآن!» قال الرجل، «هل تعرف ذلك أم لا؟».

أجاب السيد ووبسل: بالتأكيد أعرف ذلك.

«بالتأكيد أنت تعرف ذلك، إذن لماذا لم تقل ذلك في البداية؟ الآن، سأطرح عليك سؤالاً آخر» - وهو يستحوذ على السيد ووبسل، كما لو كان يمتلكه - «هل تعلم أنه لم يُستجوب أيُّ من هؤلاء الشهود بعد؟».

بدأ السيد ووبسل في قوله: «لا أستطيع إلا أن أقول...» عندما أوقفه الغريب.

«ماذا؟ لن تجيب عن السؤال، نعم أم لا؟ سأسألك مرة أخرى». أشار بإصبعه تجاهه مرة أخرى، «انتبه إليَّ. هل تعلم أنه لم يُستجوب أيُّ من هؤلاء الشهود بعد، أم لا؟ هيا، أريد منك كلمة واحدة فقط، نعم أم لا؟».

تردّد السيد ووبسل، وبدأنا جميعاً في تكوين رأيٍ سيئ عنه.

«هيا!» قال الغريب: «سأساعدك. أنت لا تستحق المساعدة، ولكنني سأساعدك. انظر إلى تلك الورقة التي تحملها في يدك. ما هذه؟».

«ما هذه؟» كرر السيد ووبسل، ناظرًا إليه، وهو في حيرة كبيرة.

تابع الغريب بأسلوبه الأكثر سخريّة وريبة: هل هي الصحيفة التي كنت تقرأ منها للتوّ؟

- بلا شك.

- بلا شك. والآن، انتقل إلى تلك الصحيفة، وأخبرني ما إذا كانت تنص بوضوح على أن السجين أفاد صراحة بأن مستشاريه القانونيين أمرّوه بالتأجيل الكامل لدفاعه عن نفسه؟

«لقد قرأت ذلك للتوّ» توسّل السيد ووبسل.

- لا عليك بما قرأته الآن يا سيدي؛ أنا لا أسألك عما قرأته الآن.
يمكنك قراءة الصلوات بشكلٍ عكسي، إذا أردت، وربما تكون قد
فعلت ذلك من قبل. انتقل إلى الصحيفة. لا لا لا يا صديقي؛ ليس
أعلى العمود؛ أنت تعرف أفضل من ذلك؛ إلى الأسفل، إلى الأسفل.
(بدأنا جميعًا نعتقد أن السيد ووبسل مليء بالخداع).

- حسنًا؟ هل وجدتها؟

قال السيد ووبسل: ها هو هنا.

- والآن، تابع هذا المقطع بعينك، وأخبرني هل ينص بوضوح على
أن السجين قال صراحة إنه تلقى تعليمات من مستشاريه القانونيين
بالتأجيل الكامل لدفاعه عن نفسه؟ هيا! هل ينص على ذلك؟
أجاب السيد ووبسل: ليس بالكلمات نفسها.

«ليس بالكلمات نفسها!» كرر الرجل بمرارة، «هل هذا هو المعنى
بالضبط؟».

قال السيد ووبسل: نعم.

«نعم» كرر الغريب وهو ينظر حوله إلى بقية المجموعة، ويده اليمنى
ممدودة نحو الشاهد ووبسل.

- والآن أسألكم ماذا تقولون عن ضمير ذلك الرجل، الذي يستطيع،
مع تلك العبارة أمام عينيه، أن يضع رأسه على وسادته بعد أن حكم
على شخصٍ آخر بأنه مذنب، دون أن يسمع دفاعه أحد؟
بدأنا جميعًا نشك في أن السيد ووبسل لم يكن الرجل الذي كنا نظنه،
وأنه كُشف.

«وتذكروا أن هذا الرجل نفسه» تابع السيد وهو يرمي بإصبعه تجاه السيد ووبسل بقوة، «إذا استدعي هذا الرجل كعضو في هيئة المحلفين في هذه المحاكمة بالذات، وبعد أن يقترب جرمه بدهاء، قد يعود إلى حضن عائلته ويضع رأسه على وسادته، بعد أن أقسم عمدًا إنه سيحاول بحق وبصدق النظر في القضية المقدمة بين جلالة الملك والسجين في المحكمة، وسيصدر حكمًا صادقًا وفقًا للأدلة، وهو تحت القسم!».

لقد كنا جميعًا مقتنعين تمامًا بأن ووبسل البائس قد تمادى للغاية، ومن الأفضل أن يتوقف عن مسيرته الطائشة قبل فوات الأوان.

قام الرجل الغريب، الذي يتمتع بجوٍّ من السلطة التي لا جدال فيها، وبأسلوبٍ يبدو من خلاله كأنه على معرفة بسرٍّ ما عن كل واحدٍ منا من شأنه أن يؤثر في كل فرد إذا اختار الكشف عنه، بترك مسند مقعده، وتحرك في المساحة ما بين المقعدين أمام المدفأة حيث بقي واقفًا، ويده اليسرى في جيبه، وهو يعض على سبائته اليمنى.

قال وهو ينظر حولنا ونحن ننحني أمامه: تلقيت معلومات تفيد بوجود حدّاد بينكم، اسمه جوزيف -أو جو- جارجيري، من هو هذا الرجل؟

قال جو: أنا هو هذا الرجل.

أشار إليه الرجل الغريب من مكانه، فذهب جو.

«هل لديك تلميذ» تابع الغريب، «معروف باسم بيب؟ هل هو هنا؟».

صحت: أنا هنا!

لم يتعرف عليّ الغريب، لكنني تعرّفت عليه، كان السيد الذي التقيتُ به على الدرج، خلال زيارتي الثانية للآنسة هافيشام. لقد عرفته في اللحظة

التي رأيته فيها وهو ينظر عبر مقعده، والآن بعد أن وقفت في مواجهته ويده على كتفي، دققت مرة أخرى بالتفصيل في رأسه الكبير، وبشرته الداكنة، وعينه الغائرتين، وحاجبيه الأسودين الكثيفين، وسلسلة ساعته الكبيرة، والنقاط شديدة السواد التي تكون لحيته وشاربه، وحتى رائحة الصابون المعطر على يده الضخمة.

قال عندما انتهى من تفحصي بدقة: أرجو أن أتناقش معكما بشكل خاص. سوف يستغرق الأمر بعض الوقت، ربما من الأفضل أن نذهب إلى منزلكما. أفضل أن أتحدث معكما بدلاً من أخبار هنا؛ يمكننا بعد ذلك نقل ما تشاؤون منها إلى أصدقائكم؛ ليس هذا من شأني.

وسط صمتٍ متعجب، خرج ثلاثتنا من حانة الجولي بارجمن، وفي صمتٍ متعجب عدنا إلى المنزل. في أثناء سيري، كان الرجل الغريب ينظر إليّ من حين إلى آخر، وأحياناً يعرض جانباً من إصبعه. عندما اقتربنا من المنزل، أقرّ جو بشكلٍ مبهم أن الموقف رسمياً ومهيئاً، ومضى قُدماً ليفتح الباب الأمامي. عُقد اجتماعنا في حجرة الجلوس، التي كانت مضأة بشكلٍ خافتٍ بشمعة واحدة.

بدأ الأمر بجلوس الرجل الغريب حول الطاولة، وسحب الشمعة إليه، ونظر في بعض الإدخالات في دفتر الجيب الخاص به. ثم أدخل الدفتر في جيبه وأزاح الشمعة جانباً قليلاً، بعد أن نظر عبرها في الظلام نحوي أنا وجو، ليفرق أحدهما من الآخر.

قال: اسمي جاغرز، وأنا محام في لندن. أنا ذائع الصيت. لديّ عمل استثنائي أتممه معكما، وبإحدى يدي بدء، هو ليس من طرفي. لو طُلب مني النصيحة في هذا الأمر، لما كنت هنا. لكن نصيحتي لم تُطلب، وبالتالي

تروني هنا. أنا مجرد وكيل مؤتمن لشخص آخر، ليس أكثر ولا أقل.
عندما اكتشف أنه لا يستطيع رؤيتنا جيدًا حيث كان يجلس، نهض
ووضع إحدى ساقيه على ظهر الكرسي واستند إليه؛ وبذلك صارت قدم
واحدة على مقعد الكرسي وقدم أخرى على الأرض.

- الآن يا جوزيف جارجيري، أنا حامل عرض لإعفائك من هذا
الشاب الذي يتدرب لديك. هل تعترض على إلغاء عقد تدريبه بناء
على طلبه ومن أجل مصلحته؟ لن ترغب في شيء مقابل القيام
بذلك، أليس كذلك؟

قال جو وهو يحدق: معاذ الله أن أرغب في أي شيء مقابل عدم
وقوفي في طريق ييب.

ردّ السيد جاغرز قائلاً: إن الاستعانة بالله أمر تقي، ولكنها ليست في
محلها. السؤال هو: هل كنت ستريد أي شيء؟ بالأحرى هل تريد شيئاً
مقابل ذلك؟

أجاب جو بصرامة: الجواب هو لا.

اعتقدت أن السيد جاغرز ألقى نظرة سريعة على جو، كما لو كان
يعتبره أحمرّ بسبب نزاهته. لكنني لم أكن متأكدًا حيث كنت في حيرة من
أمري بين المفاجأة والفضول الذي يقطع الأنفاس.

قال السيد جاغرز: جيد جدًا. تذكر الإقرار الذي قدمته، ولا تحاول
التراجع عنه الآن.

رد جو: لن أحاول التراجع عنه في المقام الأول.

- أنا لا أقول أنك ستحاول. هل تحتفظ بكلب؟

- نعم، لديّ كلب.

«ضع في اعتبارك إذن أن التباهي اسم جيد للكلب، ولكن الوفاء بالعهد في صمت هو الاسم الأفضل^(١). ضع ذلك في الاعتبار، هل ستفعل؟» كرر السيد جاغرز وهو يغمض عينيه ويومئ برأسه إلى جو، كما لو كان يسامحه على شيء ما. «الآن، أعود إلى هذا الشاب. والإعلان الذي يجب أن أقوم به هو أن لديه آمالاً عظيمة».

شهقت أنا وجو ونظر بعضنا إلى بعض.

قال السيد جاغرز وهو يشير بإصبعه نحوي شزراً: لقد طُلب مني أن أبلغه بأنه سيحصل على أموال طائلة. علاوة على ذلك، فإن رغبة المالك الحالي لهذه الأموال هي أن يُبعد على الفور من حياته الحالية، ومن هذا المكان، وأن ينشأ كرجل نبيل، باختصارٍ، كشاب ذي آمال عظيمة.

خرج حلمي للنور؛ تجاوز الواقع اليقظ خيالي الجامح. كانت الأنسة هافيشام ستقوم بتخصيص ثروة لي على نطاقٍ واسعٍ.

تابع المحامي قائلاً: الآن يا سيد بيب، الكلام التالي موجّهًا إليك. عليك أن تفهم، أولاً، أن طلب الشخص الذي أخذ منه تعليماتي هو أن تحمل دائماً اسم بيب. أعتقد أنه لن يكون لديك أي اعتراض على أن تكون آمالك العظيمة مثقلة بهذا الشرط البسيط، ولكن إذا كان لديك أي اعتراض، فهذا هو الوقت المناسب لذكره.

كان قلبي ينبض بسرعة كبيرة، وكان هناك غناء في أذني إلى درجة أنني بالكاد استطعت التمتمة بأنه لم يكن لديّ أي اعتراض.

(١) مأخوذة من مقولة سابقة في مسرحية هنري الخامس لشكسبير (١٩٥٥) وتعني أن الوفاء بالعهد في صمت أفضل من التباهي. المترجم.

- توقعت ذلك! الآن عليك أن تفهم، ثانيًا، يا سيد بيب، أن اسم ولي نعمتك سوف يظل طي الكتمان، حتى يختار هذا الشخص الكشف عنه. يسعدني أن أذكر أن نية هذا الشخص هي الكشف عن هويته أمامك مباشرة. لا أستطيع أن أقول أين أو متى يمكن الوفاء بهذه النية؛ لا أحد يستطيع القول. قد تمر سنوات من الآن. الآن، عليك أن تفهم بوضوح أنه يُحظر عليك تمامًا إجراء أي استفسار حول هذا الموضوع، أو أي تنويه أو إشارة، من قريب أو من بعيد، إلى فردٍ ما على أنه ولي نعمتك، في جميع اتصالاتك معي. إذا كان هناك شكٌ في قلبك، احتفظ به في قلبك. ولا تهم أسباب هذا المنع؛ فقد تكون أقوى وأخطر الأسباب، أو قد تكون أسبابًا واهية، هذا ليس من شأنك. وُضع الشرط. إن قبولك له، والالتزام به، هو الشرط الوحيد المتبقي الذي أتحمّل مسؤوليته، من قبل الشخص الذي أُنقِلَ تعليماتي منه، والذي لست مسؤولاً عنه بخلاف ذلك. هذا الشخص هو الشخص الذي تستمد منه آمالك العظيمة، وأنا فقط إلى جانب هذا الشخص من يعرف سره. مرة أخرى، ليس هذا شرطًا صعبًا جدًا كي يعيق مثل هذا الازدهار في الثروة؛ ولكن إذا كان لديك أي اعتراض عليه، فهذا هو الوقت المناسب لذكره. أفصح.

ومرة أخرى، تمتت بصعوبة بأنه لم يكن لديّ أي اعتراض.

«توقعت ذلك! الآن يا سيد بيب، لقد انتهيت من الشروط.» على الرغم من أنه ناداني بالسيد بيب، وبدأ يستميلني بالأخرى، إلا أنه ما زال غير قادرٍ على التخلص من جوٍّ معين من الشك المتنمر؛ وحتى الآن كان يغمض عينيه أحيانًا، ويلقي بإصبعه تجاهي في أثناء حديثه، بقدر ما يعبر عن أنه يعرف كل أنواع الأشياء التي سوف تحط من قدري إذا اختار فقط أن يذكرها.

«نأتي بعد ذلك إلى التفاصيل المجردة للترتيب. ويجب أن تعلم أنه على الرغم من أنني استخدمت مصطلح «آمال» أكثر من مرة، فإنك لا تتمتع بالآمال فقط. لقد وضع بين يدي بالفعل مبلغًا من المال يكفي تعليمك وإعالتك بشكلٍ مناسب. من فضلك سوف تعتبرني الوصي عليك».

«أوه!» كنت سأشكره. «أقول لك في الحال: إنني أتقاضى أجرًا مقابل خدماتي، وإلا فلا ينبغي لي أن أقدمها. من المعتقد أنه يجب أن تحصل على تعليم أفضل، بما يتوافق مع وضعك الجديد، وسوف تحصل على هذه الميزة في الحال».

قلت إنني كنت أتوق إلى ذلك دائمًا.

فردَّ قائلاً: لا يهم ما كنت تتوق إليه دائمًا يا سيد بيب، لا تحيد عن الموضوع. إذا كنت تتوق إليه الآن، فهذا يكفي. هل هذا يعني أنك على استعدادٍ لوضعك على الفور تحت إشراف معلم مناسب؟ هل هذا هو؟

تمتعت بنعم، كان هذا كل شيء.

- جيد. الآن، يجب أن تراجع ميولك. لا أعتقد أنه من الحكمة بمكان، لكنه ائتمني. هل سمعت يوماً عن أي مدرس تفضّله على غيره؟

لم أسمع قطُّ عن أي مدرس سوى عمة بيدي والسيد ووبسل؛ لذلك أجبته بالنفي.

قال السيد جاغرز: هناك معلم معين، لديَّ بعض المعرفة عنه، وأعتقد أنه قد يناسب هذا الغرض. أنا لا أوصي به، لاحظ؛ لأنني لا أوصي بأحدٍ أبداً، الرجل الذي أتحدث عنه هو السيد ماثيو بوكيت.

«آه!» تعرّفت على الاسم في الحال. قريب الآنسة هافيشام. ماثيو

الذي تحدث عنه السيد والسيدة كاميلا. ماثيو الذي كان من المقرر أن يكون مكانه عند رأس الأنسة هافيشام، يوم وفاتها، وهي مستلقية على مائدة العرس في فستان عرسها.

«هل تعرف الاسم؟» قال السيد جاغرز وهو ينظر إليَّ بمكرٍ، ثم أغمض عينيهِ بينما كان ينتظر إجابتي.

وكان جوابي أنني سمعت بهذا الاسم.

قال: أوه! لقد سمعت عن الاسم. ولكن السؤال هو: ماذا رأيك في ذلك؟

قلت، أو حاولت أن أقول، إنني ممتن جدًا له لتوصيته...

«لا يا صديقي الشاب!» قاطعني وهو يهز رأسه الكبير ببطء شديد، «استجمع رباطة جأشك!».

دون أن أستجمع رباطة جأشي، قلت مرة أخرى بأنني مدين له كثيرًا بتوصيته...

فقاطعني وهو يهز رأسه ويتجههم ويتسم في الوقت نفسه: لا يا صديقي الشاب، لا، لا، لا؛ كان هذا جيدًا، لكنه لن ينجح؛ أنت أصغر من أن تتمكن من إلزامي به. التوصية ليست هي الكلمة يا سيد ييب. جرّب مصطلحًا آخر.

صحّحت نفسي، وقلت إنني ممتن له كثيرًا لأنه ذكر السيد ماثيو بوكيت...

«هذا أفضل!» صاح السيد جاغرز. و(أضفت) أنني سأحاول بكل سرور تجربة هذا الرجل.

- جيد. من الأفضل أن تجربّه في منزله. سيُرتّب كل شيء لك،
ويمكنك رؤية ابنه أولاً الموجود في لندن. متى ستأتي إلى لندن؟
قلت (ناظرًا إلى جو، الذي كان يقف مترقبًا بلا حراك)، إنني من
المفترض أن أتمكن من الحضور مباشرة.

قال السيد جاغرز: أولاً، ينبغي أن يكون لديك بعض الملابس
الجديدة تأتي بها إلى لندن، ولا ينبغي أن تكون ملابس عمل. لنقل مثل
هذا اليوم من الأسبوع القادم. سوف تحتاج إلى بعض المال. هل أترك لك
عشرين جنيهًا؟

أخرج محفظة طويلة ببرودٍ شديدٍ، وأحصى عشرين جنيهًا على
الطاولة ودفعها نحوي. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرفع فيها
ساقه عن الكرسي. جلس على الكرسي منفرجًا عندما دفع النقود نحوي،
وجلس يلوّح بمحفظته، وينظر إلى جو.

- حسنًا، جوزيف جارجيرى؟ تبدو مذهولًا؟

«أنا كذلك بالفعل!» قال جو بطريقة حازمة للغاية.

- لقد كان مفهومًا أنك لا تريد شيئًا لنفسك، هل تتذكر؟

قال جو: إنه كذلك بالفعل، وسيظل الأمر كذلك.

قال السيد جاغرز وهو يلوّح بمحفظته: ولكن ماذا لو كانت تعليماتي
تنص على أن أقدم لك هدية كتعويض؟

«كتعويض عن ماذا؟» طالب جو.

- عن خسارة خدماته.

وضع جو يده على كتفي بلمسة أنثوية. طالما فكرت فيه منذ ذلك
الحين بهذا المزيج من القوة والرفقة، على أنه كمطرقة البخار التي يمكنها

إما أن تسحق رجلاً وإما أن تربت برفقٍ على قشرة بيضة. قال جو: لدى بيب كامل الحرية في أن يعفي نفسه من خدماته، ليحظى بالشرف والثروة، بشكل لا يوصف. ولكن إذا كنت تعتقد أن المال يمكن أن يعوضني عن فقدان الطفل الصغير -الذي جاء إلى دكان الحدادة- وصار لي أفضل الأصدقاء على الإطلاق!

آه يا عزيزي جو الطيب، الذي كنت على أتم الاستعداد لهجره وأنا غير ممتن له، أراه مرة أخرى، وذراعه المفتولة أمام عينيه، وصدره العريض يمتلئ بالمشاعر الجياشة، وصوته يتلاشى. آه يا عزيزي جو الحنون والمخلص، أشعر باختلاج يدك المحبّة على ذراعي في هذا اليوم كما لو كان حفيف جناح ملاك!

لكنني شددت من أزر جو في ذلك الوقت. لقد كنت ضائعاً في متاهات ثروتي المستقبلية، ولم أتمكن من استرجاع كل ما مررنا به معاً. توسّلت إلى جو كي يطمئن، لأننا (كما قال) كنا أفضل الأصدقاء على الإطلاق، و(كما قلت) سنكون كذلك على الدوام. مسح جو عينيه بالمعصم الآخر بقوة كادت أن تفقأهما، لكنه لم يقل كلمة أخرى.

نظر السيد جاغرز إلينا باعتبار أن جو هو أحق القرية، وأنا راعيه. وعندما انتهى قال وهو يزن في يده المحفظة التي توقف عن تحريكها:

«الآن، جوزيف جارجير، أحذرك أن هذه هي فرصتك الأخيرة. أنا أفضل دائماً أن تكون المسائل محسومة. إذا كنت تريد أن تأخذ هدية من جهتي، فتحدث علناً، وسوف تحصل عليها. أما إذا كنت تقصد أن تقول...» هنا، ولد هشته الكبيرة، أوقفه جو فجأة وهو يلتف حوله كي يلكمه لكمة تطرحه أرضاً.

صاح جو: ما قصدته هو أنك إذا أتيت إلى منزلي لتضايقني وتعاركني،
فهاث ما عندك! أعني أنك إذا كنت رجلاً، فهيا! أنا أعني ما أقوله وأتحمل
عواقبه!

أبعدت جو جانباً، وأصبح هادئاً على الفور؛ أخبرني فقط، بكياسة
واعتراض مهذب لأي شخص قد يهمه الأمر، أنه لن يتعرض للاستفزاز
والإهانة في منزله. كان السيد جاغرز قد نهض عندما ثار جو، وتراجع
بالقرب من الباب. دون الكشف عن أي رغبة في العودة مرة أخرى، ألقى
بكلماته الوداعية هناك كالآتي:

- حسناً يا سيد بيب، طالما أنك ستغادر هذا المكان - حيث يجب
أن تصبح رجلاً نبيلًا - فخير البر عاجله. لنقل أسبوعاً من الآن،
وسوف تتلقى عنواني المطبوع في تلك الأثناء. يمكنك أن تستأجر
عربة أجرة من مكتب المركبات في لندن، وتأتي إليّ مباشرة. عليك
أن تفهم أنني لا أبدي أي رأي، بطريقة أو بأخرى، بشأن العهدة التي
أخذتها على عاتقي. وأنا أتقاضى أجرًا مقابل الالتزام بها. والآن،
افهم ذلك بصفة نهائية. افهمه جيداً!

كان يوجّه إصبعه نحو كل منا، وأعتقد أنه كان سيستمر في كلامه،
لولا أنه اعتقد أن جو كان خطيراً، فذهب مغادراً.

طراً في ذهني شيء ما دفعني إلى الركض خلفه بينما كان متجهاً إلى
الجولي بارجمن، حيث ترك عربتة المستأجرة.

- أرجو المعذرة يا سيد جاغرز.

«نعم!» قال مستديراً: «ما الأمر؟».

- أتمنى أن أكون على حقّ تماماً يا سيد جاغرز، وأن ألتزم بتوجيهاتك؛

لذلك اعتقدت أنه من الأفضل أن أسأل. هل سيمانع أي شخص
أعرفه هنا زيارتي له قبل رحيلي؟
«لا» قال، ويبدو كما لو أنه بالكاد يفهمني. «لا أقصد في القرية فقط،
بل في الحي الراقي؟» قال: «لا». «لا اعتراض».

شكرته وركضت إلى المنزل مرة أخرى، وهناك وجدت أن جو
قد أغلق الباب الأمامي بالفعل وأخلى حجرة الجلوس، وجلس بجوار
مدفأة المطبخ واضعاً يديه على ركبتيه، وهو يحدق في اهتمام إلى الجمر
المحترق. جلست أنا أيضاً أمام النار وحدثت إلى الجمر، ولم نقل أي
شيء فترة طويلة.

كانت أختي تجلس على كرسيها الوثير في زاويتها، وجلست بيدي
تقوم بعمل الإبرة أمام النار، وجلس جو بجوار بيدي، وجلست أنا بجوار
جو في الزاوية المقابلة لأختي. كلما نظرت إلى الجمر المتوهج، أصبحت
أكثر عجزاً عن النظر إلى جو؛ وكلما طال الصمت، شعرت بعدم القدرة
على الكلام.

أخيراً قلت: جو، هل أخبرت بيدي؟
«لا يا بيب» رد جو، وهو لا يزال ينظر إلى النار، ويشد على ركبتيه،
كما لو كان لديه معلومات خاصة توشك على الهروب إلى مكان ما، «لقد
تركت الأمر لك يا بيب».

- أفضل أن تخبرها أنت يا جو.

قال جو: حسناً، إن بيب سيصبح رجلاً نبيلًا، له ثروة، وبارك الله له
في ذلك!

أسقطت بيدي عملها، ونظرت إليّ، وأمسك جو بركبتيه ونظر إليّ.

فنظرت أنا إليهما. وبعد فترة من الصمت، هتّاني كلاهما بحرارة؛ ولكن كان هناك طابعٌ معينٌ من الحزن في تهنّتهما ضايقني إلى حدٍّ ما.

أخذت على عاتقي إقناع بيدي (ومن خلال بيدي، جو) بالالتزام الشديد الذي كنت أنتظره منهما كأصدقائي، بعدم قول أي شيء وعدم البحث عن أي شيء بخصوص ولي نعمتي. فكرت أن الحقيقة ستظهر في الوقت المناسب، وفي هذه الأثناء لم يكن هناك ما يقال، باستثناء أنه صارت لديّ آمال عظيمة من راعٍ غامض. أو مأت بيدي برأسها متأملة نحو النار وهي تستأنف عملها مرة أخرى، وقالت إنها ستكون شديدة الحرص؛ وقال جو، وهو لا يزال ممسكًا بركبتيه: «نعم، نعم، سأكون حريصًا للغاية يا بيب.» ثم هتّاني مرة أخرى، وواصل التعبير عن تعجبهما الشديد من فكرة أنني سأصير رجلًا نبيلًا، ولم يعجبني ذلك بالمرة.

ثم بذلت بيدي جهدًا لا حصر له لتنتقل إلى أختي نبذة عما حدث. وفي حدود اعتقادي، باءت هذه الجهود بالفشل التام. ضحكت وأومأت برأسها عدة مرات، بل وكررت بعد بيدي كلمتي «بيب» و«أموال» لكنني أشك في أن هذه الكلمات تحمل معنى أكبر من مجرد صيحات انتقائية، ولا أستطيع أن أقترح صورة أكثر قتامة لحالتها العقلية.

لم أكن لأصدق ذلك من دون تجربته، لكن عندما أصبح جو وبيدي مبتهجين مرة أخرى، أصبحت كثيرًا تمامًا. بالطبع، لا أستطيع أن أكون غير راضٍ عن حظي؛ لكن من الممكن أنني كنت غير راضٍ عن نفسي، دون أن أعلم ذلك تمامًا.

على أي حال، جلست واضعًا مرفقي على ركبتي ووجهي على يدي، أنظر إلى النار، بينما كان هذان الاثنان يتحدثان عن رحيلي، وعمّا يجب

عليهما فعله من دوني، وكل ذلك. وكلما رأيت أحدهما ينظر إليّ، نظرة غير سارة (وكانا ينظران إليّ كثيرًا، وخاصة بيدي)، شعرت بالإهانة: كما لو كانا يعبران عن عدم الثقة بي، على الرغم من أن الله يعلم أنهما لم يفعلا ذلك قط بكلمة أو إشارة.

في تلك الأوقات كنت أستيظ وأنظر إلى الباب. لأن باب مطبخنا كان يُفَتَح في أمسيات الصيف عند حلول الليل، ويظل مفتوحًا لتهوية الغرفة. النجوم نفسها التي رفعت عيني إليها بعد ذلك، أخشى أنها لم تكن سوى نجوم بائسة ومسكينة لتألّقها على الأغراض البسيطة التي قضيت حياتي بينها.

قلت: «ليلة السبت»، عندما جلسنا لتناول العشاء المكوّن من الخبز والجبن والبيرة. «خمسة أيام أخرى، ثم اليوم السابق ليوم ذهابي! سوف تمر سريعًا».

«نعم يا بيب» فكر جو، الذي بدا صوته عميقًا من داخل كوب الجعة الخاص به. «سوف تمر سريعًا».

قالت بيدي: سريعًا، سوف تمر سريعًا.

- لقد كنت أفكر يا جو، أنني عندما أذهب إلى المدينة يوم الاثنين لتولي أمر ملابسني الجديدة، سأخبر الخياط بأنني سأذهب وأرتديها هناك، أو سأرسلها إلى محل السيد بامبلتشوك. سيكون من غير المقبول للغاية أن يحرق إليّ جميع الناس هنا.

قال جو وهو يقطع الخبز بالجبن في راحة يده اليسرى، ويلقي نظرة خاطفة على عشائي الذي لم أتذوقه بعدُ كأنه يفكر في الوقت الذي كنا نقارن فيه شرائحنا: قد يرغب السيد والسيدة هابل في رؤيتك في حلتك

الجديدة أيضًا يا ييب، وكذلك ووبسل، وقد يعتبرها من في الحانة بمنزلة مجاملة.

- هذا ما لا أريده يا جو. سيجعلون الأمر فظًا ومبتدلاً، لن أستطيع تحمّله.

(«آه، بالفعل، يا ييب!» قال جو. «إذا لم تستطع التحمّل ...»).

سألني بيدي هنا، وهي تجلس ممسكة بطبق أختي: هل فكرت متى ستظهر نفسك للسيد جارجير، ولأختك ولي؟ سوف تظهر لنا نفسك؟ أليس كذلك؟

(«بيدي» أجبتُ ببعض الاستياء، «أنت سريعة جدًا إلى درجة أنه من الصعب مواكبتك»).

(«لقد كانت سريعة دائمًا» قال جو).

- لو انتظرت لحظة أخرى يا بيدي، لكنت سمعني أقول إنني سأحضر ملابس الجديدة إلى هنا إحدى الأمسيات، على الأرجح قبل رحيلي اليوم.

لم تقل بيدي أكثر من ذلك. صفحت عنها بسخاء، وسرعان ما تبادلت معها ومع جو الأمنيات بليلة سعيدة، وذهبت إلى الفراش. عندما دخلت غرفتي الصغيرة، جلست وألقيت نظرة مطولة عليها، باعتبارها غرفة صغيرة وضيعة يجب أن أفترق عنها قريبًا وأرتقي عنها للأبد. لقد كانت مفروشة بذكريات شابة غضة، لكن في نفس اللحظة وقعت في نفس الصراع الذهني المرتبك بينها وبين الغرف الأفضل حالًا التي كنت سأذهب إليها، كما كنت في كثير من الأحيان بين دكان الحدادة وغرفة الآنسة هافيشام، وييدي وإستيلا.

كانت الشمس مشرقة طوال اليوم على سطح عليّتي، وكانت الغرفة دافئة. عندما فتحت النافذة ووقفت أنظر إلى الخارج، رأيت جو يأتي ببطء إلى الباب المظلم، بالأسفل، ويأخذ دورة أو دورتين في الأرجاء؛ ثم رأيت بيدي تأتي وتُحضّر له غليوناً وتُشعله له. لم يدخل قط في وقت متأخر جدًّا، وبدت لي إشارة أنه يريد السلوان، لسبب أو لآخر.

وقف على الفور عند الباب الموجود أسفل مني مباشرة، وهو يدخل غليونه، ووقفت بيدي هناك أيضًا، وتحدثت معه بهدوء، وكنت أعلم أنهما يتحدثان عني، لأنني سمعت اسمي يُذكر من قبل كل منهما بنبرة محبة أكثر من مرة. لم أكن لأستمع أكثر من ذلك، لو كان في إمكاني سماع المزيد؛ لذلك ابتعدت عن النافذة، وجلست على كرسيي الوحيد بجانب الفراش، وأنا أشعر بحزنٍ شديدٍ وغرابة لأن الليلة الأولى من مستقبلي المشرق ستكون هي الأكثر وحدة على الإطلاق.

عندما نظرت نحو النافذة المفتوحة، رأيت أكاليل خفيفة من غليون جو تطفو هناك، وتخيلت أنها كانت بمنزلة مباركة من جو، لم تكن تتطفل عليّ أو تُستعرض أمامي، ولكنها تتخلل الهواء الذي نتقاسمه معًا. أطفأت نوري، وتسليت إلى الفراش؛ وأصبح الفراش غير مريح الآن، ولم أحظَ فيه بالنوم الهادئ القديم مرة أخرى.

الفصل التاسع عشر

صنع وقت الصباح فرقًا كبيرًا في نظرتي العامة إلى الحياة، وجعلها مشرقة للغاية إلى درجة أنها بدت كأنها تغيّرت تمامًا. وأكثر ما كان يثقل ذهني هو فكرة أن بيني وبين يوم الرحيل ستة أيام؛ لأنني لم أستطع أن أجرد نفسي من الشك في أن شيئًا ما قد يحدث في لندن في هذه الأثناء، وأنها عندما أصل إلى هناك، إما أن تكون قد ساء حالها تمامًا وإما اختفت من الأساس.

كان جو وييدي متفهمين وسلسين للغاية عندما كنت أتحدث عن اقتراب فراقنا؛ لكنهما ألححا إليه فقط عندما كنت أفعل أنا ذلك. بعد الإفطار، أخرج جو عقد تدريبي معه من الخزانة في غرفة الاستقبال، وأحرقناه في النار، وشعرت أنني حر. وفي ظل تحرري المستجد، ذهبت إلى الكنيسة مع جو، واعتقدت أن رجل الدين ربما لم يكن ليقرأ عن الرجل الغني والملكوت^(١)، لو لم يعرف بأمرى.

بعد غدائنا المبكر، خرجت وحدي، عازمًا على المرور بالمستنقعات في الحال، والانتهاء من هذا الأمر. عندما مررت بالكنيسة، شعرت (كما شعرت في أثناء القداس في الصباح) بشفقة مهيبة تجاه المخلوقات المسكينة التي كان من المقرر أن تذهب إلى هناك، الأحد وراء الأحد،

(١) إنجيل متى ١٩: ١٧-٢١.

طوال حياتهم، وأن ترقد أخيرًا منزوية في مكان ما بين التلال خضراء المنخفضة. لقد وعدت نفسي بأنني سأفعل شيئاً لهم في أحد تلك الأيام، ووضعت خطة لمنح عشاء من اللحم البقري المشوي وبودنج البرقوق، ونصف لتر من الجعة، وجالون من التسامح لكل فرد في القرية.

إن كنت قد فكرت من قبل، بشيء من الخزي، في صحبتي مع المُدان الذي رأيته ذات مرة وهو يعرج بين تلك القبور، فما الذي كان يدور في ذهني في هذا الأحد، حيث ذكّرني المكان بذلك التعس، المرتعش، الممزقة ملابسه بعلامة السجن والحديد بين قدميه! كان عزائي هو أن هذا حدث منذ وقت طويل، وأنه حدث مما لا شك فيه أنه رُحِّل إلى مكان بعيد^(١)، وأنه كان ميتاً بالنسبة إليّ، وربما يكون ميتاً بالفعل على أي حال.

لن أمر بعد الآن بتلك الأراضي المنخفضة والرطبة، المليئة بالسدود والحواجز، ولن أرى بعد الآن هذه الماشية التي ترعى، على الرغم من أنها بدت الآن، بأسلوبها المتثاقل، كأنها أكثر احتراماً لي، تلتف حولها، حتى يتسنى لها التحديق أطول فترة ممكنة في صاحب مثل هذه الآمال العظيمة، وداعاً، رفاق طفولتي الرتيبة، من الآن فصاعداً قدرتي هو لندن وفخامتها؛ وليس أنتم والحدادة بشكل عام! شققت طريقي مبهجاً إلى بطارية المدفعية القديمة، واستلقيت هناك لأفكر في السؤال عما إذا كانت الأنسة هافيشام تريدني أن أكون مع إستيلا، ثم غفوت.

عندما استيقظت، فوجئت كثيراً برؤية جو جالساً بجانبني، يدخل

(١) كانت بريطانيا في العهد الإمبريالي تقوم بترحيل المساجين إلى مستعمراتها بالخارج حتى عام ١٧٧٦ عندما أُعلن الاستقلال الأمريكي فلم تعد بريطانيا ترسل مسجونين هناك، ومنذ عام ١٧٨٧، بدأ إرسال المساجين إلى مستعمراتها في أستراليا حتى عام ١٨٦٨.

غليونه . استقبلني بابتسامة مرحة عندما فتحت عياني، وقال:

- بما أنها المرة الأخيرة يا بيب، فكرت أن أتبعك.

- جو، أنا سعيد جدًا لأنك فعلت ذلك.

- شكرًا لك، يا بيب.

واصلت كلامي بعد أن تصافحنا: كن متأكدًا يا عزيزي جو، أنني لن أنساك أبدًا.

«لا، لا، يا بيب!» قال جو بنبرة ناعمة: أنا متأكد من ذلك. نعم، نعم، أيها الصديق القديم! بارك الله فيك، كان من الضروري فقط أن تأخذ الفكرة وقتها جيدًا في عقلي، لكي أكون متأكدًا منها. لكن الأمر استغرق بعض الوقت حتى اقتنعت به بشكل جيد، فالتغيير يأتي فجأة بشكل عام؛ أليس كذلك؟

بطريقة ما، لم أكن سعيدًا جدًا بشعور جو بالأمان الشديد تجاهي. كنت أود لو شعر بالغدر، أو أن يقول: «أنت تستحقها يا بيب» أو شيئًا من هذا القبيل. لذلك، لم أبد أي ملاحظة بشأن مقولة جو الأولى؛ قلت فقط فيما يتعلق بالثانية، إن الأخبار جاءت فجأة بالفعل، لكنني كنت أرغب دائمًا في أن أكون رجلًا نبيلًا، وكثيرًا ما كنت أتكهن بما سأفعله، لو كنت كذلك.

«هل فعلت ذلك؟» قال جو، «مذهل!».

قلت: من المؤسف الآن يا جو أنك لم تتقدم كثيرًا عندما كنا نتلقى دروسنا هنا؛ أليس كذلك؟

أجاب جو: حسنًا، لا أعرف. أنا ثقيل الفهم جدًا. أنا فقط أتعن

حرفتي. لقد كان الأمر مؤسفًا دائمًا لأنني كنت ثقيل الفهم للغاية؛ ولكن الأمر لم يعد مؤسفًا الآن، كما كان -منذ عام- ألا ترى ذلك؟

ما قصده هو أنه عندما أوتيت بالثروة وحين أتمكن من القيام بشيء ما من أجل جو، كان من الممكن أن يكون الأمر أكثر قبولًا لو كان مؤهلاً بشكل أفضل للارتقاء في المستوى. ومع ذلك، فهو لم يدرك مقصدي تمامًا، إلى درجة أنني اعتقدت أنني من الأفضل أن أذكر الأمر ليدي بدلاً منه.

لذلك، عندما عدنا إلى المنزل وتناولنا الشاي، أخذت بيدي إلى حديقتنا الصغيرة بجانب الزقاق، وبعد أن قلت لها بشكل عام لرفع معنوياتها إنني لن أنساها أبدًا، كان لديّ معروف لأطلبه منها.

قلت: والأمر يا بيدي، أنك لا تفوتي أي فرصة لمساعدة جو قليلًا.
«كيف أساعده؟» سألت بيدي بنظرة ثابتة.

- حسنًا! جو هو شخص عزيز وصالح، في الواقع، أعتقد أنه أفضل شخص في هذا العالم على الإطلاق، لكنه متأخر إلى حدٍّ ما في بعض الأشياء. على سبيل المثال، يا بيدي، في تعلمه وسلوكياته. على الرغم من أنني كنت أنظر إلى بيدي بينما كنت أتحدث، وعلى الرغم من أنها فتحت عينيها على نطاق واسع عندما تحدثت، إلا أنها لم تنظر إليّ.

«سلوكياته! إذن سلوكياته ليست جيدة؟» سألت بيدي وهي تقطف ورقة كشمس أسود.

- عزيزتي بيدي، إن سلوكياته جيدة جدًا هنا...

«ياه! إنها جيدة جدًا هنا؟» قاطعتني بيدي وهي تنظر من كذب إلى الورقة التي في يدها.

- اسمعيني، ولكنني إذا كنت سأنقل جو إلى مستوى أعلى، كما أمل عندما أتحصل على ثروتي بالكامل، فلن تسعفه سلوكياته.

«وَألا تعتقد أنه يعرف ذلك؟» سألت بيدي.

لقد كان سؤالاً مثيراً للغاية (لأنه لم يخطر على بالي مطلقاً)، فقلت، بشكل لاذع:

- بيدي، ماذا تقصدين؟

قالت بيدي، بعد أن فركت الورقة بين يديها، ورائحة شجيرة الكشمش الأسود ستذكركني دومًا بذلك المساء في الحديقة الصغيرة بجانب الزقاق: ألم تفكر قط في ذلك؟ أنه ربما يكون معتدًا بنفسه؟ «معتدًا بنفسه؟» كررت ذلك بتركيز مزدوج.

«أوه!» قالت بيدي وهي تنظر إليّ بالكامل وتهز رأسها، «هناك أنواع كثيرة من الاعتداد بالنفس؛ وليس نوعًا واحدًا».

سألت: حسنًا؟ لماذا توقفتِ؟

استأنفت بيدي كلامها قائلة: الاعتداد بالنفس ليس كله من نوع واحد. قد يكون معتدًا جدًا بنفسه بحيث لا يسمح لأي شخص بإخراجه من مكانة هو مؤهل لشغلها، ويملوها جيدًا وباحترام. لأقول لك الحقيقة، أعتقد أنه كذلك؛ على الرغم من أنها جراءة مني أن أقول ذلك، لأنك لا بد أن تعرفه أفضل مني بكثير.

قلت: الآن يا بيدي، أنا آسف جدًا لرؤية هذا فيك. لم أتوقع أن أرى هذا فيك. أنت حقودة، يا بيدي، وتملوك الضغينة. أنت غير راضية عن ثروتي، ولا يمكنك منع نفسك من إظهار ذلك.

أجابت بيدي: إذا طاوَعك قلبك على الاعتقاد بذلك، فقله، قلّه مرارًا وتكرارًا، إذا طاوَعك قلبك للاعتقاد بذلك.

قلت بنبرة قوية ومتعالية: «أتقصدين إذا طاوَعك قلبك أن تكوني كذلك يا بيدي؛ لا تلقي باللوم عليّ. أنا آسف جدًا لرؤيته، وهو جانب سيء من الطبيعة البشرية. كنت أنوي أن أطلب منك استغلال أي فرصة صغيرة قد تتاح لك بعد رحيلي، للارتقاء بجو العزير. ولكن بعد هذا لن أطلب منك شيئًا. أنا آسف للغاية لرؤيتك هكذا، يا بيدي» وكررت: «إنه، إنه جانب سيء من الطبيعة البشرية».

أجابت بيدي المسكينة: «سواء وبّختني أو قبلت بي، فيمكنك أيضًا الاعتماد على محاولتي القيام بكل ما في وسعي، هنا، في جميع الأوقات. وأي رأي تكوّنه عني لن يؤثر في ذكراك». قالت بيدي وهي تدير رأسها بعيدًا: «ومع ذلك، لا ينبغي للرجل النبيل أن يكون ظالمًا أيضًا».

كررت مرة أخرى بحرارة أن ذلك كان جانبًا سيئًا من الطبيعة البشرية (وهو رأي وجدت منذ ذلك الحين سببًا للاعتقاد بأنه صحيح، على الرغم من خطأ تطبيقه على بيدي)، وسرت في الطريق الصغير بعيدًا عن بيدي، وذهبت بيدي إلى المنزل، وخرجت عند بوابة الحديقة وقمت بنزهة مغمّمة حتى وقت العشاء؛ وشعرت مرة أخرى بحزن شديد وغرابة أن تكون هذه الليلة الثانية من حظي المشرق، وحيدة وغير مُرضية مثل الأولى.

لكن الصباح أضاء رؤيتي مرة أخرى، ورأفت بيدي، ونسينا الأمر. ارتدّيت أفضل الملابس التي أملكها، وذهبت إلى المدينة في أبكر وقت تمنيت أن أجد فيه المتاجر مفتوحة، وقدمت نفسي إلى السيد تراب، الخياط، الذي كان يتناول إفطاره في صالة الاستقبال خلف متجره، والذي

لم يكن يعتقد أن الأمر يستحق أن يأتي إليّ، فدعاني إليه.
«حسنًا!» قال السيد تراب بطريقة حميمية مبالغية. «كيف حالك؟
وماذا يمكنني أن أفعل لك؟».

قام السيد تراب بتقطيع بسكويته الساخن إلى ثلاث طبقات كأنها
طبقات من الريش، والزبدة تنساب من بين طياتها وتغطيها. كان السيد تراب
عازبًا عجوزًا ثريًا، وكانت نافذته المفتوحة تطل على حديقة صغيرة وبستان
مزهرين، وكانت هناك خزانة حديدية عامرة مثبتة في الجدار بجانب
المدفأة، ولم أشك في أنه وُضعت أكوام من الصرر الممتلئة داخلها.
فقلت: يا سيد تراب، من المزعج ذكر الأمر، لأنه يبدو مثل التفاخر؛
لكنني تحصّلت على مبلغ سخّي من المال.

مرّ تغيير على السيد تراب. نسي الزبدة في الفراش، وقام من فراشه،
ومسح أصابعه على مفرش المائدة، صارخًا: يا إلهي بارك لي!
قلت: «سأذهب إلى وصيي في لندن»، وأخرجت بعض الجنيهاات
من جيبي بعدم اهتمام وأنا أنظر إليها؛ وأضفت: «أريد أن أذهب إلى هناك
مرتديًا بذلة عصرية، أود أن أدفع ثمنها»، ثم اعتقدت أنه قد يتظاهر فقط
بصنعها فقلت: نقدًا.

قال السيد تراب وهو يثني جسده باحترام، ويفتح ذراعيه، ويسمح
لنفسه بلمس مرفقيّ من الخارج: سيدي العزيز، لا تؤذني بذكر ذلك. هل
لي أن أقدم على تهنتك؟ هل يمكنك أن تسدي لي معروفًا بالدخول إلى
المتجر؟

كان مساعد السيد تراب هو الفتى الأكثر وقاحة في الريف كله. عندما
دخلت كان يكنس المتجر، وقد تلذذ برمي كنسه فوقي. كان لا يزال يكنس

عندما دلفت إلى المتجر مع السيد تراب، وقام بضرب المكنسة على كل الزوايا والعقبات الممكنة، للتعبير (كما فهمت) عن المساواة بينه وبين أي حداد، حيًّا كان أو ميتًا.

قال السيد تراب بأقصى قدرٍ من الصرامة: «توقف عن هذا الضجيج، وإلا سأضربك ضربًا مبرحًا! أسد لي معروفًا بالجلوس يا سيدي». قال السيد تراب وهو ينزل لفافة من القماش ويرتبتها بطريقة انسيابية على المنضدة استعدادًا لوضع يده تحتها لإظهار اللمعان: «الآن، هذا قماش رائع جدًّا. يمكنني أن أوصي به لغرضك يا سيدي، لأنه رائع حقًّا. ولكن دعني أريك قماشًا آخر. أنت! أعطني رقم أربعة» (إلى الصبي، وب نظرة شديدة إلى حدٍّ مخيف؛ في حال فكر هذا اللثيم في أن يهاجمني به، أو يقوم بحركة أخرى مشابهة).

لم يرفع السيد تراب عينه الصارمة عن الصبي قطُّ حتى وضع الرقم أربعة على المنضدة، وأصبح على مسافة آمنة مرة أخرى. ثم أمره أن يأتي بالرقم خمسة، والرقم ثمانية. قال السيد تراب: «لا تحاول أن تمارس أيًّا من حيلك هنا، وإلا فسوف تندم على ذلك أيها الوغد الشاب، سيكون أطول يوم في حياتك».

ثم انحنى السيد تراب فوق الرقم أربعة، وبنوعٍ من الثقة المبهجة أوصاني به باعتباره قماشًا خفيفًا للملابس الصيفية، وهو قماش رائع كثيرًا بين النبلاء والأعيان، وهو قماش سيكون أكبر شرف له على الإطلاق أن يرتديه أحد أبناء مدينته المتميزين (إذا كان يمكنه أن يدعوني أحد أبناء مدينته). قال السيد تراب للصبي بعد ذلك: «هل ستحضر رقمي خمسة وثمانية أيها المتشرد، أم أطرذك من المتجر وأحضرهما بنفسِي؟».

قمتُ باختيار المواد اللازمة للبذلة، بمساعدة حُسن تقدير السيد تراب، ودخلت مرة أخرى إلى صالة الاستقبال لإجراء القياسات. لأنه على الرغم من أن السيد تراب كان لديه القياسات الخاصة بي بالفعل، وكان راضيًا عنها تمامًا في السابق، فإنه قال معذرًا إنها «لن تكون مناسبة في ظل الظروف الحالية يا سيدي، لن تكون مناسبة على الإطلاق»، لذا، قام السيد تراب بقياسي وحسابي في الردهة، كما لو كنت عزبة وهو أفضل المعايين، وتسبب في كمٍّ من المتاعب إلى درجة أنني شعرت أنه لا يمكن لأي بذلة أن تعوضه عن آلامه. وعندما انتهى أخيرًا، وقرر إرسال البذلة إلى السيد بامبلتشوك مساء الخميس، قال وهو يضع يده على قفل الردهة: أعلم يا سيدي أنه لا يمكن أن يُتوقع من السادة اللندنيين أن يناصروا العمل المحلي، كقاعدة؛ ولكن إذا أعطيت اسمي بين الحين والآخر إلى أحد سكان المدينة، فسوف أقدّر ذلك كثيرًا. صباحك سعيد يا سيدي، ممتن جدًا. الباب!

الكلمة الأخيرة أُلقيت على الصبي، الذي لم يكن لديه أدنى فكرة عما تعنيه. لكنني رأيته ينهار بينما كان سيده يربت عليّ بيديه، وصارت هذه أول تجربة حازمة لي مع القوة الهائلة للمال حيث طرحت بصبي تراب أرضًا فعليًا.

بعد هذا الحدث الذي لا يُنسى، ذهبت إلى صانع القبعات، وصانع الأحذية، وبائع الجوارب، وشعرت كأني كلب الأم هوبارد^(١) الذي كانت ملابسه تتطلب خدمات العديد من الحرف. ذهبت أيضًا إلى مكتب المركبات، وحجزت مكاني في الساعة السابعة صباح يوم السبت. لم يكن

(١) أغنية للأطفال. المترجم.

من الضروري أن أشرح في كل مكان أنني تحصّلت على مبلغٍ سخّي من المال؛ ولكن كلما قلت أي شيء بهذا المعنى، كان ذلك يتبعه أن التاجر المفوض لم يعد يُصرف انتباهه عبر النافذة إلى شارع هاي ستريت، ويركز ذهنه عليّ. عندما طلبت كل ما أردت، وجّهت خطواتي نحو متجر بامبلتشوك، وعندما اقتربت من متجر السيد، رأيته واقفاً عند الباب.

كان ينتظرنني بنفاد صبر. لقد خرج مبكراً بعربته، وقد زار دكان الحدادة وسمع الأخبار. لقد أعد لي وجبة خفيفة في صالة الاستقبال التي مثلّ لنا فيها السيد ووبسل مأساة جورج بارنويل من قبل، وأمر أيضاً عامل المتجر بأن «يفسح مجاًلاً في الممر» عندما أمرُ بشخصي المعظم.

قال السيد بامبلتشوك وهو يمسك بكلتا يديّ عندما صرنا أنا وهو والوجبة الخفيفة وحدنا: صديقي العزيز، أهنتك بحسن حظك، إنك تستحقه، عن جدارة!

كان هذا في صلب الموضوع، واعتقدت أنها طريقة معقولة للتعبير عن نفسه.

قال السيد بامبلتشوك، بعد أن أبدى إعجابه بي لبعض الوقت: مجرد التفكير في أنني كنت الوسيلة المتواضعة التي أدت إلى هذا الأمر، هو مكافأة تبعث على الفخر.

توسلت إلى السيد بامبلتشوك أن يتذكر أنه لم يكن هناك ما يمكن قوله أو التلميح إليه بشأن هذه النقطة.

قال السيد بامبلتشوك: صديقي الشاب العزيز؛ إذا سمحت لي أن أدعوك بذلك...

تمت «بالتأكيد»، وأمسكني السيد بامبلتشوك بكلتا يدي مرة أخرى،

وقربهما من معطفه، وهي حركة ذات مظهر عاطفي، على الرغم من أنها كانت متدنية بعض الشيء، «يا صديقي الشاب العزيز، اعتمد على قيامي بكل ما في مقدرتي في غيابك، وذلك بإظهار الحقيقة أمام جوزيف... جوزيف!» قال السيد بامبلتشوك بطريقة مناشدة عاطفية. «جوزيف!! جوزيف!!!» هز رأسه، ونقر عليه معبراً عن إحساسه بتقصير جوزيف.

قال السيد بامبلتشوك: «ولكن يا صديقي الشاب العزيز، لا بد أنك جائع، ولا بد أنك منهك. اجلس. ها هي دجاجة مستديرة من مطعم بلو بور، وهذا لسان مستدير من مطعم بلو بور، وهنا طبق أو اثنان من مطعم بلو بور، أتمنى أن ينالوا إعجابك». لكن السيد بامبلتشوك قال وهو ينهض مجدداً في اللحظة التي جلس فيها: «هل أرى أمامي مَنْ كنتُ ألعب معه في أيام طفولته السعيدة؟ هل لي... هل لي...؟».

كان يقصد إن كان يمكنه مصافحتي، وافقت، وكانت مصافحة حارة، ثم جلس مرة أخرى.

قال السيد بامبلتشوك: «هذا هو النبيذ. دعنا نشرب، شكراً للحظ، لعله دوماً يختار المفضلين لديه بتقديرٍ مماثل!» قال السيد بامبلتشوك وهو ينهض مجدداً: «ومع ذلك لا أستطيع أن أرى واحداً منهم أمامي... وأشرب أيضاً في صحته... دون أن أقول مرة أخرى... هل لي... هل لي...؟»

قلت إنه يمكنه مصافحتي، فصافحتي مرة أخرى، وأفرغ كأسه وقلبها رأساً على عقب. فعلت الشيء نفسه؛ ولو كنت قد قلبت نفسي رأساً على عقب قبل أن أشرب، لما وصل النبيذ إلى رأسي بشكلٍ أسرع من ذلك. ساعدني السيد بامبلتشوك في الوصول إلى جناح الدجاجة الأيمن

الذي يحتضن الكبد، وإلى أفضل شريحة من اللسان (لم يكن هناك أي من تلك الجوانب المغمورة من لحم الخنزير الآن^(١))، ولم يهتم بنفسه على الإطلاق، بالمقارنة باهتمامه بي. «آه! أيتها الدجاجة، أيتها الدجاجة!» قال السيد بامبلتشوك، مناجيًا الطائر الموجود في الطبق: «لم تفكري كثيرًا، عندما كنتِ فرخًا صغيرًا، ماذا يخبئ لك القدر. لم تظني أنك ستصيرين وجبة منعشة تحت سقفي المتواضع... سمّه سوء حظ، إن شئت». قال السيد بامبلتشوك وهو ينهض مجددًا: لكن هل لي... هل لي...؟

ولم يعد ردي ضروريًا، فقام بمصافحتي على الفور. لا أعرف كيف فعل ذلك كثيرًا دون أن يجرح نفسه بسكيني.

واصل كلامه بعد أن وازب قليلًا على تناول الطعام: وأختك، التي كان لها شرف تربيتك باليد! إنه لتصور حزين، إنها لم تعد قادرة على استيعاب هذا الشرف بشكل كامل. هل لي...

رأيت أنه كان على وشك مصافحتي مرة أخرى، فأوقفته.

قلت: سوف نشرب في صحتها.

«آه!» صاح السيد بامبلتشوك وهو متكئًا إلى الخلف في كرسيه، وقد ارتخى تمامًا من الإعجاب: «هذه هي الطريقة التي تعرفهم بها يا سيدي!» (لا أعرف من هو السيد، لكنه بالتأكيد لم يكن أنا، ولم يكن هناك شخص ثالث)؛ «هذه هي الطريقة التي تعرف بها أصحاب العقول النبيلة يا سيدي! متسامحون دائمًا وطيبو الخلق دائمًا». قال بامبلتشوك المتملق وهو يضع كأسه التي لم يتذوقها جانبًا في عجلة من أمره، وينهض مرة أخرى: «ربما

(١) إشارة إلى نصيب ييب من عشاء عيد الميلاد في الفصل الرابع، الذي كان عبارة عن جلد فحدة الدجاج وبعض الجوانب المغمورة من لحم الخنزير. المترجم.

بالنسبة إلى الشخص العادي، يبدو كأنه تكرر، ولكن هل لي...؟».

وبعد مصافحتي مرة أخرى، جلس في مقعده، وشرب في صحة أختي. قال السيد بامبلتشوك: دعونا لا نغفل أبداً عن عيوبها المزاجية، ولكننا نأمل أن تكون نيتها حسنة.

في هذا الوقت تقريباً، بدأت ألاحظ احمرار وجهه؛ أما بالنسبة إليّ، فقد شعرت بأن وجهي كله غارق في النيبذ والألم.

ذكرت للسيد بامبلتشوك أنني أرغب في إرسال ملابسني الجديدة إلى منزله، وكان سعيداً جداً لمنحه هذا الشرف. وذكرت سبب رغبتني في تجنب المراقبة في القرية، فأشاد بها إلى عنان السماء. وأشار إلى أنه لا يوجد أحد غيره يستحق ثقتي، وبوجيز العبارة وإن صح له القول. ثم سألني برقة إذا كنت أتذكر ألعابنا الصبانية بجمع الأرقام، وكيف ذهبنا معاً للإلزامي وجعلني متدرباً لجو، وكيف كان في الواقع الشخص المفضل لي وصديقي المختار؟ لو أنني تناولت عشرة أضعاف كؤوس النيبذ التي تناولتها، لكنت عرفت أنه لم يكن لي هكذا قط، وأنني يجب أن أرفض الفكرة بكل جوارحي. ومع ذلك، أتذكر أنني كنت على يقين من أنني كنت مخطئاً فيه كثيراً، وأنه كان من الصفوة شخصاً عقلاً وعملياً وطيب القلب.

بدأ تدريجياً في وضع ثقة كبيرة بي إلى درجة أنه طلب نصيحتي فيما يتعلق بشؤونه الخاصة. وذكر أن هناك فرصة لدمج واحتكار كبير لتجارة الذرة والبذور في الأنحاء، إذا تم توسيعها، وهو أمر لم يحدث من قبل في ذلك الحي أو في أي حي آخر. ما كان يقف بينه وبين تحقيق هذه الثروة الهائلة، كان المزيد من رأس المال. كانت هذه كلماته البسيطة، المزيد

من رأس المال. الآن بدا له (بامبلتشوك) أنه إذا أُدخِل رأس المال هذا إلى العمل، من خلال شريك صامت، يا سيدي، فلن يكون لدى الشريك الصامت ما يفعله سوى الدخول بنفسه أو نائبه، وقتما يشاء، وفحص السجلات، -ويدخل مرتين في السنة، ويأخذ أرباحه في جيبه بما يصل إلى خمسين في المائة- بدا له أن ذلك قد يكون بمنزلة فرصة لشابٍ نبيل يجمع بين الشجاعة والمال، تسترعي اهتمامه. ولكن ماذا أعتقد؟ كان لديه ثقة كبيرة برأيي، وما رأيي؟ أعطيته رأيي كالآتي: «تمهّل قليلاً!» أذهله وضوح الرأي ورحابة الصدر إلى درجة أنه لم يعد يسألني عما إذا كان يمكنه مصافحتي، بل قال إنه يجب عليه فعل ذلك، وقد فعل ذلك.

شربنا كل النبيذ، وتعهّد السيد بامبلتشوك مرارًا وتكرارًا بإبقاء جوزيف على مستوى الحدث (لا أعرف ما يعنيه هذا)، وأن يقدم لي خدمة فعالة ومستمرة (لا أعرف ما هي الخدمة). لقد أخبرني أيضًا لأول مرة في حياتي، وبالتأكيد بعد أن احتفظ بسرّه جيدًا بشكل رائع، أنه كان دائمًا يقول عني: «هذا الفتى ليس فتىً عاديًا، وتذكروا ما أقوله، فإن ثروته لن تكون عادية» قال بابتسامة دامعة إنه لشيء استثنائي التفكير في هذا الآن، وقد قلت ذلك أيضًا. أخيرًا، خرجت في الهواء الطلق، مع قوة إبصار ضبابية كأن هناك شيئًا غير مألوف في سطوع الشمس، ووجدت أنني وصلت إلى الطريق الرئيسي دون أن أنتبه لخطأي.

هنا، أيقظني السيد بامبلتشوك وهو يناديني. كان يقطع طريقًا طويلًا في الشارع المشمس، وكان يشير إليّ بإيماءاتٍ معبرة لكي أتوقف. توقفت، وجاء وهو منقطع الأنفاس.

قال بعد أن استعاد قدرته على الكلام: لا يا صديقي العزيز. لا يمكنني

منع نفسي . لن تمر هذه المناسبة تمامًا من دون الحصول على مودتك . هل تسمح لي كصديقٍ قديمٍ يتمنى لك الخير؟ هل لي؟

تصافحنا للمرة المائة على الأقل ، وأمر سائق عربة شابًا بالابتعاد عن طريقي بسخطٍ شديدٍ، ثم باركني، ووقف يلوح لي بيده حتى تجاوزت منعطف الطريق، ثم دلفت إلى حقل ونمت قيلولة طويلة تحت سياج ما قبل أن أواصل طريقي إلى المنزل.

لم يكن لديّ سوى القليل من الأمتعة أحملها معي إلى لندن، فما أملكه كان قليلًا بالفعل، ولم يكن يتضمن سوى أشياء محدودة تلائم محطتي القادمة. لكنني بدأت بحزم أمتعتي بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، وحزمت بشكلٍ جامح الأشياء التي كنت أعرف أنني أحتاج إليها في صباح اليوم التالي، متخيلاً أنه ليس هناك لحظة لأضيعها.

هكذا، مضى الثلاثاء والأربعاء والخميس، وفي صباح يوم الجمعة ذهبت إلى منزل السيد بامبلتشوك لأرتدي ملابسني الجديدة، وأقوم بزيارة الآنسة هافيشام. خُصِّصَت غرفة السيد بامبلتشوك لي لأرتدي ملابسني، وجُهِزَت بمناشف نظيفة خصيصاً لهذا الحدث. لكن ملابسني كانت مخيبة للآمال بالطبع. من المحتمل أن كل قطعة ملابس جديدة ومنتظرة بفارغ الصبر ارتُديت منذ ظهور الملابس، كانت أقل قليلاً من توقعات مرتديها. ولكن بعد أن ارتديت بذلتي الجديدة لمدة نصف ساعة تقريباً، وتعرضت لمواقف كثيرة مع مرآة الزينة الصغيرة للغاية الخاصة بالسيد بامبلتشوك، في محاولتي العقيمة لرؤية ساقي، بدا أنها تناسبني بشكلٍ أفضل. كان هناك سوق محلي في بلدة مجاورة على بُعد نحو عشرة أميال، ولم يكن السيد بامبلتشوك في المنزل هذا الصباح. لم أخبره بالضبط متى

أنوي المغادرة، ولم يكن من المرجح أن أصادفه مرة أخرى قبل المغادرة. كان كل هذا كما ينبغي أن يكون، وخرجت بملابسي الجديدة، وأنا أشعر بالخجل الشديد لأنني اضطررت إلى المرور بجوار البائع، وكنت أشعر بالريبة بعد كل شيء في أن البذلة لا تناسبني، مثل بذلة جو في أيام الأحاد. ذهبت إلى منزل الأنسة هافيشام بطريق غير مباشر، مارًا بجميع الطرق الخلفية، وقرعت الجرس مقيّدًا، بسبب الأصابع الطويلة المتصلبة لقفازي. وصلت سارة بوكيت إلى البوابة، ومالت إلى الوراء بإيجابية عندما رأني قد تغيرت تمامًا؛ كما تحوّل وجه قشرة الجوز من اللون البني إلى الأخضر والأصفر.

قالت: أنت؟ أنت؟ رحمتك يا إلهي! ماذا تريد؟

قلت: أنا ذاهب إلى لندن يا آنسة بوكيت، وأريد أن أودع الأنسة هافيشام.

لم يكن من المتوقع وجودي، لأنها تركتني محبوسًا في الفناء، بينما ذهبت لتسأل عما إذا كان سيتم السماح لي بالدخول. وبعد مهلة قصيرة جدًّا، عادت واصطحبتني وحدقت إليّ طوال الطريق إلى أعلى.

كانت الأنسة هافيشام تمارس مشيها في أرجاء الغرفة حيث الطاولة الطويلة الممتدة، متكئة على عصا عكازها. كانت الغرفة مضاءة كما في الأيام الخوالي، وعند صوت دخولنا، توقفت واستدارت. وكانت بجانب كعكة العروس العفنة.

قالت: لا تذهبي يا سارة. حسنًا، يا بيب؟

كنت شديد الحذر فيما قلته: سأتوجه إلى لندن غدًا يا آنسة هافيشام، واعتقدت أنك لن تمانعي وداعي لك.

قالت: «يا له من مظهر مشرق يا بيب»، وهي ترسم دائرة حولي بعضا، كما لو كانت، الجنية العرابية التي حوّلتنِي، تمنحني اللمسة النهائية. تمتمت: لقد حالفني الحظ السعيد منذ رأيّتك آخر مرة، يا آنسة هافيشام. وأنا ممتن لذلك يا آنسة هافيشام! «نعم، نعم!» قالت وهي تنظر بسرور إلى سارة المحترارة والحسودة. «لقد رأيّت السيد جاغرز. لقد سمعت عن ذلك، يا بيب. إذن، هل ستذهب غدًا؟».

- نعم يا آنسة هافيشام.
 - وأنتِ تبنّاك رجل غني؟
 - نعم يا آنسة هافيشام.
 - لم يذكر اسمه؟
 - لا يا آنسة هافيشام.
 - وهل أصبح السيد جاغرز وصيًا عليك؟
 - نعم يا آنسة هافيشام.
- كانت تتفاخر بهذه الأسئلة والأجوبة، وكانت شديدة الاستمتاع بغيره سارة بوكيت وارتباكها. وتابعت: حسنًا! أمامك مستقبلٌ واعدٌ. كن جديرًا به -استحقّه- والتزم بتعليمات السيد جاغرز. نظرت إليّ، ونظرت إلى سارة، التي اعتصرت وجهها، وظهر على محياها ابتسامة قاسية. «وداعًا يا بيب! - ستحتفظ دائمًا باسم بيب، كما تعلم».
- نعم يا آنسة هافيشام.
 - وداعًا، يا بيب!

ومدّت يدها، فنزلت على ركبتي، ووضعتها على شفتي. لم أكن فكرت في الطريقة التي يجب أن أودعها بها، وقد خطر لي تلقائياً في تلك اللحظة أن أفعل ذلك. نظرت إلى سارة بوكيت والانتصار في عينيها الغريبتين، وهكذا تركت عرابتي الجنية، وكلتا يديها على عصاها، واقفة في وسط الغرفة ذات الإضاءة الخافتة بجانب كعكة العروس العفنة والمخبأة وسط خيوط العنكبوت.

قادتني سارة بوكيت إلى الأسفل، كما لو كنت شبّحاً يجب اصطحابه للخارج. لم تستطع استيعاب مظهري، وكانت مذهولة لأبعد حدّ. قلت: «وداعاً يا آنسة بوكيت». لكنها كانت تحديق فقط، ولم تبد متماسكة بما يكفي لتعرف أنني تحدثت. بعد خروجي من المنزل، انطلقت بأقصى سرعة إلى منزل بامبلتشوك، وخلعت ملابسني الجديدة، وجمعتها في حزمة، وعدت إلى المنزل بملابسي القديمة، حاملاً إياها - لأقول الحقيقة - مراتح البال كثيراً أيضاً، على الرغم من أنه كان لديّ حزمة يجب عليّ حملها.

والآن، تلك الأيام الستة التي كان من المفترض أن تنتهي ببطء شديد، قد انتهت بسرعة وولت، وجاءني الغد ناظراً إلى وجهي بإمعان أكبر مما استطعت في نظرتي إليه. ومع تضاؤل الأمسيات الستة، إلى خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنين، أصبحت أقدر صحبة جو ويدي أكثر فأكثر. في هذا المساء الأخير، ارتديت ملابسني الجديدة لإساعدهما، وجلسنا في كامل بهائي حتى وقت النوم. تناولنا عشاءً ساخناً بهذه المناسبة، مزيناً بالدجاج المشوي الذي لا غنى عنه، وكان لدينا بعض الخمر المحلي لنختتم به. كانت معنوياتنا جميعاً منخفضة للغاية، ولم يقو أيّ منا على التظاهر بأنه في مزاج جيد.

كان عليّ أن أغادر قريتنا في الخامسة صباحًا، حاملًا حقييتي الصغيرة، وكنت قد أخبرت جو أنني أرغب في الرحيل وحدي. كنت خائفًا - جدًا - أن يكون إصراري على هذا قد نشأ من إحساسي بالتناقض بيني وبين جو، إذا ذهبنا إلى العربة معًا. لقد تظاهرت مع نفسي بأنه لا يوجد أي عيب في هذا؛ ولكن عندما صعدت إلى غرفتي الصغيرة في ليلتي الأخيرة هذه، شعرت بأنني مضطر إلى الاعتراف بأن الأمر قد يكون كذلك، وكان لديّ نازع قوي للنزول مرة أخرى كي أطلب من جو أن يذهب معي في الصباح، لكنني لم أفعل.

طوال الليل كان هناك عربات في نومي المتقطع، ذاهبة إلى شتّى الأماكن الخاطئة بدلًا من لندن، وكان يجرّها تارة الكلاب، تارة القطط، تارة الخنازير، وتارة الرجال، لكن ليس الخيول أبدًا. شغلتنني تلك الرحلات الفاشلة حتى بزغ الفجر وزقزقت العصافير. بعد ذلك، نهضت وارتديت بعضًا من ملابسني، وجلست عند النافذة لألقي نظرة أخيرة، وفي أثناء ذلك غلبني النعاس.

استيقظت بيدي مبكرة جدًا لتحضر فطوري، إلى درجة أنني، على الرغم من أنني لم أُنم عند النافذة لساعة كاملة، إلا أنني اشتممت دخان نار المطبخ عندما صحوت مرة أخرى، وبدأت تراودني فكرة فظيعة مفادها أن الوقت تأخر وجاءت فترة ما بعد الظهر. لكن بعد فترة، وبعد سماعي لقطقة فناجين الشاي وأنا مستعدًا تمامًا، أردت أن أعتمز النزول إلى الطابق السفلي. في النهاية، بقيت هناك، أفتح وأفك حقييتي الصغيرة مرارًا وتكرارًا وأغلقها وأربطها مرة أخرى، حتى نادتنني بيدي وأخبرتني أنني تأخرت.

كان إفطاراً سريعاً بلا أي نكهة. نهضت من الوجبة وأنا أقول بنوع من الحيوية، كما لو أن الأمر أثنائي للتو: «حسنًا! أعتقد أنني يجب أن أذهب في طريقي!» ثم قبّلت أختي التي كانت تضحك وتهز رأسها وتهتز في كرسيها المعتاد، وقبّلت يدي، ووضعت ذراعي حول رقبة جو. ثم أخذت حقيبتَي الصغيرة وخرجت. آخر ما رأيته منهم كان عندما سمعت شجاراً خلفي، وعندما نظرت إلى الوراء رأيت جو يرمي حذاءً قديماً ورائي وبيدي ترمي حذاءً قديماً آخر^(١). توقفت بعد ذلك لألوح بقبعتي، فلوح جو العزيز بذراعه اليمنى القوية فوق رأسه، وصاح بصوتٍ مبحوح: «هوورور»، ووضعت يدي مئزرها على وجهها.

مشيت بعيداً وبسرعة، معتقداً أن الذهاب أسهل مما كنت أعتقد، وفكرت في أنه لم يكن من الملائم قطُ إلقاء حذاء قديم خلف العربة، على مرأى من شارع هاي ستريت بأكمله. كنت أصفر، ولم أبدِ اهتماماً بفكرة مغادرتي. لكن القرية كانت مسالمة وهادئة للغاية، وكان الضباب الخفيف ينتشع بشكلٍ مهيب، كما لو كان يريني العالم، وقد كنت بريئاً وصغيراً جداً هناك، وكان كل ما وراء ذلك مجهولاً وعظيماً، إلى درجة أنه في لحظة مع تنهد قوي ونشيج، أجهشت بالبكاء. كان ذلك عند عمود اللافتة الخشبية في نهاية القرية، ووضعت يدي عليه، وقلت: «وداعاً يا صديقي العزيز!».

تعلم السماء أننا لا يجب أن نخجل أبداً من دموعنا، لأنها كالمطر على غبار الأرض الذي يعمينا، ويغطي قلوبنا القاسية. لقد أصبحت أفضل بعد البكاء من ذي قبل، وأكثر أسفاً، وأكثر وعياً بجحودي، وأكثر

(١) تقليد قديم لجلب الحظ. المترجم.

لطفًا. لو كنت قد بكيت سابقًا، لكان جو معي حينها.

لقد تأثرت كثيرًا بتلك الدموع، وبانفجارها مرة أخرى في أثناء سيري الهادئ، إلى درجة أنني عندما كنت في العربة، بعيدًا عن المدينة، فكرت بقلبٍ موجه فيما إذا كنت سأنزل عندما نبذل الخيول وأعود أدراجي، وأقضي أمسيةً أخرى في المنزل، وأفترق عنه فراقًا أفضل. بدلًا من الخيول، ولم أكن قد اتخذت قرارٍ، وما زلت أفكر من أجل سكينتي أنه سيكون من الصالح أن أنزل وأعود أدراجي، عندما نبذل الخيول مرة أخرى. وبينما كنت منشغلًا بهذه المداولات، كنت أتخيل أن هناك رجلًا يشبه جو تمامًا آتيًا على الطريق نحونا، وكان قلبي ينبض عاليًا، كما لو كان من الممكن أن يكون هناك!

بدلًا من الخيول مجددًا، ومجددًا، وقد فات الأوان الآن، وصرت بعيدًا جدًا كي أعود، واستمررت في طريقي. وقد انقشع الضباب بشكل مهيب الآن، وانكشف العالم كله أمام ناظري.

هذه هي نهاية المرحلة الأولى من آمال بيپ.

الفصل العشرون

تستغرق الرحلة من مدينتنا إلى العاصمة نحو خمس ساعات. كان الوقت بعد منتصف النهار بقليلٍ عندما دخلت عربة الخيول، التي كنت راكبًا فيها، في زحمة المرور أمام نزل كروس كيز عند تقاطع شارعي وود ستريت وتشيسايد في لندن.

لقد توصلنا نحن البريطانيين في ذلك الوقت بشكلٍ خاص إلى أنه من الخيانة أن نشك في امتلاكنا أفضل الأشياء، وفي كوننا الأفضل في كل شيء: من ناحية أخرى، فبينما كنت خائفًا من ضخامة لندن، أعتقد أنه ربما كانت لديّ بعض الشكوك البسيطة حول ما إذا كانت قبيحة، ملتوية، ضيقة، وقذرة.

لقد أرسل إليّ السيد جاغرز عنوانه كما كان متوقعًا؛ كان مكتبه في شارع ليتل بريتن، وقد كتب بعدها على بطاقته: «خارج منطقة سميثفيلد مباشرة، وبالقرب من مكتب المركبات» ومع ذلك، فإن سائق العربة، الذي بدا أن معطفه الأملس الكبير كان به الكثير من أغطية الكتفين بعدد سنين عمره، وضعني في عربته، وقيدني بحاجز من الدرجات المجلجلة القابلة للطّي، كما لو كان سيقودني خمسين ميلًا أخرى. كان صعوده إلى مقعده يستغرق وقتًا طويلًا، هذا المقعد الذي أتذكر أنه كان مزينًا بقماش المطرقة القديم المهترئ ذي اللون الأخضر الفاتح، الذي أكلته العثة. لقد

كانت عربية مذهلة، بها ستة تيجان كبيرة في الخارج، وأشياء ممزقة في الخلف لكثرة عدد الخدم الذين تمسَّكوا بهم، وقضيب حديدي به مسامير أسفلهم، لمنع الخدم الراغبين في التنقل من الركوب متطفلين.

لم يكن لديَّ الوقت الكافي للاستمتاع بالمركبة والتفكير في مدى شبهها بحظيرة القش، أو كم كانت أشبه بمتجرٍ لبيع الخرق، والتساؤل عن سبب الاحتفاظ بمخلاة الخيول في الداخل، عندما لاحظت أن سائق العربة يبدأ في الترجل، كما لو كنا ستوقف فورًا. وتوقفنا بالفعل، في شارعٍ كئيب، عند مكاتب ذات باب مفتوح، كتب عليها السيد جاغرز.

«كم تريد؟» سألت السائق.

أجاب السائق: شلنًا، إلا إذا كنت ترغب في زيادة المبلغ.

قلت بطبيعة الحال أنني لا أرغب في دفع أكثر من ذلك.

قال السائق: «إذن فهو شلن واحد. لا أريد أن أقع في المشكلات، أنا

أعرفه!» غمز بعينه بتشاؤم تجاه اسم السيد جاغرز ثم هز رأسه.

عندما حصل على الشلن الخاص به، وأخذ وقته في الصعود إلى مقعده،

وانطلق بعربته (وهو ما بدا أنه مصدر راحة له)، ذهبت إلى المكتب الأمامي

وحقيبة سفري الصغيرة في يدي، وسألت: هل السيد جاغرز موجود؟

«إنه ليس هنا»، أجاب الموظف، «إنه في المحكمة في الوقت

الحاضر. هل أخاطب السيد ييب؟»

أشرت إلى أنه كان بالفعل يخاطب السيد ييب.

«السيد جاغرز ترك تعليمات بشأنك، هلا تنتظر في غرفته؟» لم

يستطع أن يقول كم من الوقت سيبقى في المحكمة. لكن من المنطقي،

نظرًا إلى أن وقته ثمين، أنه لن يبقى فترة أطول من الممكن.

بهذه الكلمات، فتح الموظف الباب، وأدخلني إلى غرفة داخلية في الخلف. وهنا وجدنا رجلًا بعين واحدة، يرتدي بذلة مخملية وسروالًا يصل إلى الركبة، يمسح أنفه بكمّهُ عند مقاطعته وهو يتصفح الجريدة.

قال الموظف: اذهب وانتظر في الخارج يا مايك.

شرعت في القول إنني كنت أتمنى ألا أعوق عملهم، عندما دفع الموظف هذا الرجل إلى الخارج بأقل قدرٍ من التكليف الذي رأيته في حياتي، وألقى بقبعته المصنوعة من الفرو خلفه، وتركني وشأنِي.

كانت غرفة السيد جاغرز مضاعة من خلال كوة سقف فقط، وكانت مكانًا كئيبيًا للغاية؛ الكوة منحدرّة بشكلٍ غريبٍ مثل رأس مكسور، والمنازل المجاورة المائلة تبدو كما لو أنها لَوَتْ نفسها كي تنظر إليّ من خلالها. لم يكن هناك الكثير من الأوراق في أنحاء الغرفة كما تصورت؛ وكانت هناك بعض الأشياء الغريبة، التي لم أتوقع رؤيتها، مثل مسدس قديم صدئ، وسيف في غمده، والعديد من الصناديق والطرود ذات المظهر الغريب، وقالبين مخيفين على الرف، لوجوه غريبة متفتحة، ومتشنجة حول الأنف. كان كرسي السيد جاغرز ذو الظهر المرتفع مصنوعًا من شعر الخيل الأسود القاتم، وتحيط به صفوف من المسامير النحاسية، مثل التابوت؛ وتخيلت أنني أستطيع أن أراه ينحني إلى الخلف، ويعض على سبابته أمام العملاء. كانت الغرفة صغيرة الحجم، ويبدو أن العملاء اعتادوا الوقوف مستندين إلى الجدار؛ حيث كان الجدار، وخاصة المقابل لكرسي السيد جاغرز، ملطخًا مكان أكتافهم. وتذكرت أيضًا أن الرجل الأعور جُرَّ خارج الغرفة قبالة الحائط عندما كنت أنا السبب البريء في طرده.

جلست على كرسي العملاء الموضوع مقابل كرسي السيد جاغرز، مفتونًا بالجو الكئيب للمكان. تذكرت أن الموظف كان لديه مظهر من يحمل شيئًا ما ضد أي شخص آخر، كما كانت الحال مع سيده. تساءلت عن عدد الموظفين الآخرين الموجودين في الطابق العلوي، وما إذا كانوا جميعًا يمتلكون نفس التحكم الضار في بقية الخلق. تساءلت عن تاريخ كل الأشياء الغريبة المبعثرة في الغرفة، وكيف وصلت إلى هناك. تساءلت عما إذا كان الوجهان المتورمان من عائلة السيد جاغرز، وإذا كان سيء الحظ للغاية لأنه كان لديه زوج من الأقارب بهذا القبح، فلماذا وضعهما على ذلك المكان المعبّر حتى يستقر السواد والذباب عليهما بدلًا من منحهما مكانًا في المنزل. بالطبع لم تكن لدي أي معرفة سابقة بأيام لندن الصيفية، وربما كنت محبطًا بسبب الجو الحار المنهك، والغبار والرمل اللذين يترامان على كل شيء. لكنني جلست متسائلًا ومنتظرًا في غرفة السيد جاغرز الخائفة، حتى لم أستطع حقًا تحمل القالبين على الرف فوق كرسي السيد جاغرز، فنهضت وخرجت.

عندما أخبرت الموظف أنني سأتجول في الأرجاء في أثناء انتظارني، نصحني بالالتفاف حول الزاوية حتى أصل إلى سميثفيلد. لذا ذهبت إلى سميثفيلد؛ وبدا أن المكان المخزي، الذي كان ملطخًا بالقذارة والدهون والدم والرغوة، يلتصق بي. لذلك، نزعتني بكل سرعة ممكنة بالانتقال إلى الشارع حيث رأيت القبة السوداء العظيمة لكاتدرائية سان بول تبرز في وجهي من خلف مبنى حجري قائم قال عنه أحد المارة إنه سجن نيوجيت. بعد سور السجن، وجدت الطريق مغطىً بالقش لتخفيف ضجيج المركبات المارة؛ ومن هذا، ومن عدد المارة الذين تفوح منهم

رائحة الخمر والجمعة بقوة، استنتجت أن المحاكمات مستمرة.

بينما كنت أنظر حولي هنا، سألني مأمور العدل القذر للغاية والمخمور إلى حدٍّ ما إذا كنت أرغب في الدخول والاستماع إلى محاكمة أو نحو ذلك: أخبرني أنه يمكن أن يمنحني مكانًا أماميًا مقابل نصف كرون^(١)، يؤمّن لي رؤية كاملة للورد رئيس القضاة بردائه وشعره المستعار، مشيرًا إلى تمثال قبيح من الشمع، عرضه عليّ بسعرٍ مخفضٍ قدره ثمانية عشر بنسًا. عندما رفضت اقتراحه بحجة موعد لديّ، كان كريمًا إلى درجة أنه أخذني إلى الفناء وأراني مكان المشنقة، وكذلك مكان جلد الناس علنًا، ثم أراني باب الإعدام، الذي يخرج منه الجناة ليُسْنَقُوا؛ وزاد من تشويق تلك البوابة المروعة من خلال قوله إن «أربعة سجناء» سيخرجون من ذلك الباب بعد غدٍ في الساعة الثامنة صباحًا، ليُعدّموا على التوالي. كان هذا فظيعةً، وأعطاني فكرة مقرزة عن لندن؛ والأكثر من ذلك أن هذا الرجل صاحب تمثال اللورد رئيس القضاة كان يرتدي (من قبعته إلى حذائه ثم إلى منديل جيبه) ملابس عفنة من الواضح أنها لم تكن ملكًا له في الأصل، حيث جاء في ذهني أنه اشتراها بسعرٍ زهيدٍ من الجلاد. وفي ظل هذه الظروف، اعتقدت أنه من الجيد أن أتخلص منه مقابل شلن.

دخلت إلى المكتب لأسأل ما إذا كان السيد جاغرز قد أتى بعد، فوجدته لم يحضر، فخرجت مجددًا. هذه المرة، قمتُ بجولة في شارع ليتل برتين، ومنه إلى شارع برثولماوس كلوز؛ والآن أدركت أن هناك أشخاصًا آخرين ينتظرون السيد جاغرز مثلي. كان هناك رجلان بمظهرٍ

(١) الكرون: فئة من العملات المعدنية بقيمة ربع جنيه إسترليني، أو ٥ شلنات، أو ٦٠ بنسًا (قديمًا).

المترجم.

غامضٍ يستريحان في بارثولماوس كلوز، ويضعان قدميهما في شقوق الرصيف بينما كانا يتحدثان معاً، قال أحدهما للآخر عندما مرَّا بي لأول مرة، «سيتم جاغرز الأمر إذا كان ممكناً». كانت هناك زمرة من ثلاثة رجال وامرأتين يقفون عند الزاوية، وكانت إحدى النساء تبكي من فوق شالها القذر، والأخرى تواسيها، وهي تسحب شالها الخاص على كتفيها وتقول: «جاغرز هو الرجل المناسب له يا ميليا، ماذا تريدان أكثر من ذلك؟» كان هناك يهودي صغير بعينين محمرتين جاء إلى الشارع بينما كنت ألتصق هناك، بصحبة يهودي صغير آخر أرسله في مهمة؛ وبينما رحل المرسال، انتبهت إلى هذا اليهودي، وهو مهتاج، يهتز من الفزع تحت عمود إنارة، ويقول لنفسه في هياج: «جاغرث، جاغرث، جاغرث! كل ما عداه دون المستوى، أعطوني جاغرث!» لقد تركت هذه الشهادات عن شعبية وصبيّ انطباعاً عميقاً لديّ، وكانت مصدر إعجابي ودهشتي الشديدين.

أخيراً، بينما كنت أنظر إلى البوابة الحديدية عند مدخل بارثولماوس كلوز وتقاطع ليتل برستن، رأيت السيد جاغرز يعبر الطريق نحوي. رآه كل من كان ينتظره في نفس الوقت، وكان هناك اندفاعٌ كبير نحوه. وضع السيد جاغرز يده على كتفي ومشى بجانبني دون أن يقول لي أي شيء، وخاطب متابعيه.

أولاً، تحدث إلى الرجلين الغامضين.

قال السيد جاغرز وهو يشير بإصبعه إليهم: الآن، ليس لديّ ما أقوله لكم. لا أريد أن أعرف أكثر مما أعرفه. أما بالنسبة إلى النتيجة، فلا يمكن الجزم بها. لقد أخبرتكم ذلك منذ البداية. هل دفعتم المال لويملك؟

قال أحد الرجلين بخنوع، بينما كان الآخر يتطلع إلى وجه السيد جاغرز: لقد جمعنا المال هذا الصباح يا سيدي.

- أنا لا أسألك متى جمعته، أو أين، أو ما إذا كنت قد جمعته على الإطلاق. هل حصل عليه ويميك؟

«نعم يا سيدي» قال الرجلان معاً.

«جيد جداً؛ إذن يمكنكما الذهاب الآن، لن أحتمل أكثر من هذا!» قال السيد جاغرز وهو يلوّح بيده لهما ليتركهما وراءه. «إذا قلتما كلمة واحدة أخرى، فسوف أترك القضية».

«كنا نفكر يا سيد جاغرز...» قال أحد الرجلين وهو يخلع قبعته.

قال السيد جاغرز: «هذا ما طلبت منكما عدم فعله. كنتما تفكران! أنا أفكر من أجلكما؛ وهذا كافٍ بالنسبة إليكما. إذا أردتكما، سأعرف أين أجدكما؛ لا أريدكما أن تبحثا عني. الآن لن أحتمل أكثر من هذا. لن أسمع كلمة أخرى.»

نظر الرجلان بعضهما إلى بعض بينما لوّح السيد جاغرز لهما مرة أخرى، وتخلفا عنا بخضوع، ولم يعد يسمعهما أحد.

«والآن أنتما!» قال السيد جاغرز، وهو يتوقف فجأة، ويلتفت نحو المرأتين صاحبتيّ الشالات، اللتين انفصل عنهما الرجال الثلاثة بخنوع: «أوه! أميليا، أليس كذلك؟».

- نعم يا سيد جاغرز.

أجاب السيد جاغرز: وهل تذكرين أنه لولاي لما كنت هنا، ولما استطعت أن تكوني هنا؟

«أوه نعم يا سيدي!» صاحت كلتا المرأتين معاً. «باركك الرب يا سيدي، نحن نعلم ذلك!».

قال السيد جاغرز: إذن، لماذا أتيتِ إلى هنا؟
«ولدي بيل يا سيدي!» توسلت المرأة الباكية.

«الآن، أقول لك ماذا!» قال السيد جاغرز: مرة واحدة وإلى الأبد. إذا كنت لا تعلمين أن بيل ولدك في أيدي أمينة، فأنا أعلم ذلك. وإذا أتيتِ إلى هنا لتزعجيني بشأن بيل ولدك، فسوف أجعل منك ومن بيل ولدك مثلاً، وأدعه يفلت من بين أصابعي. هل دفعت لوييميك؟

- أوه نعم يا سيدي! دفعت بالكامل.

- جيد جداً. إذا فقد فعلت كل ما عليك القيام به. إذا قلت كلمة أخرى - كلمة واحدة - سوف يعيد لك ويميك أموالك.

تسبب هذا التهديد الرهيب في تخلف المرأتين عنا على الفور. لم يبق الآن سوى اليهودي المهتاج، الذي كان قد رفع بالفعل كتفي معطف السيد جاغرز إلى شفتيه عدة مرات.

«أنا لا أعرف هذا الرجل!» قال السيد جاغرز بنفس اللهجة المدمرة:
ماذا يريد هذا الرجل؟

- عثيثي الثيد جاغرث. أنا أخيه لهابراهام لاثروث.

«من هو؟» قال السيد جاغرز. «اترك معطفي».

وأجاب الرجل، وهو يقبّل طرف الثوب مرة أخرى قبل أن يتخلى عنه: هابراهام لاثروث، في قضية الطبق الفضي.

قال السيد جاغرز: لقد فات الأوان. أنا لست مؤيداً له بعد الآن.

«يل إله السماوات، الثيد جاغرث!» صاح الرجل المهتاج، وقد شحب وجهه: لا تقل إنك ضد هابراهام لاثروث!

قال السيد جاغرث: أنا كذلك، وهذه نهاية الأمر. ابتعد عن الطريق.

- الثيد جاغرث! نصف دقيقة من فضلك! إن ابن عمي الآن موجود لدى الثيد ويميك للموافقة على أي شروط. الثيد جاغرث! ربع دقيقة من فضلك! إذا كان من الممكن أن تترك الجانب الآخر... بسعر سخي جدًّا!... المال ليس مشكلة!... الثيد جاغرث... الثيد...!«.

طرح وصي متوسله جانبًا ببرودة مطلقة، وتركه يتقافز على الرصيف كما لو كان ساخنًا للغاية. ومن دون مزيد من المقاطعة، وصلنا إلى المكتب الأمامي، حيث وجدنا الموظف والرجل الذي يرتدي ملابس مخملية وقبعة من الفرو.

«ها هو مايك»، قال الموظف وهو ينزل عن كرسيه ويقترب من السيد جاغرث بحذر.

«أوه!» قال السيد جاغرث وهو يستدير نحو الرجل الذي كان يشد خصلة من الشعر من منتصف جبهته، مثل الثور الذي يشد حبل الجرس في أغنية كوك روبين^(١)؛ «هل سيأتي رجلك بعد ظهر اليوم؟».

«حسنًا يا سيد جاغرث»، ردَّ مايك بصوت شخص يعاني من نزلة برد؛ «رغم الكثير من المتاعب، فقد وجدت واحدًا يا سيدي، كما ينبغي».

- على أي شيء هو مستعد للقسم؟

(١) أغنية للأطفال. المترجم.

قال مايك وهو يمسح أنفه بقبعته المصنوعة من الفرو هذه المرة:
حسنًا يا سيد جاغرز. بشكل عام، هو مستعد لأي شيء.

أصبح السيد جاغرز فجأة في شدة الغضب. قال وهو يشير بإصبعه
إلى العميل المذعور: الآن، لقد حذرتك من قبل، أنك إذا تجرأت على
التحدث بهذه الطريقة هنا، فسأجعل منك عبرة. أيها الوغد اللعين، كيف
تجرؤ على إخباري بذلك؟

بدا العميل خائفًا، ولكنه في حيرة أيضًا، كما لو كان لا يدرك فعلته.
«مغفل!» قال الموظف بصوتٍ منخفضٍ وهو يلكزه بمرفقه. «أيها
الأحمق! هل كان يجب أن تقول ذلك وجهًا لوجه؟».

قال وصيّي بصرامة شديدة: الآن، أسألك أيها المغفل المتخبط، مرة
أخرى وأخيرة، على أي شيء هذا الرجل الذي أحضرته إلى هنا مستعدٌّ
للقسم؟

نظر مايك بشدة إلى وصيّي، كما لو كان يحاول أن يتعلم درسًا من
وجهه، وأجاب ببطء: إما بحسن سلوكي، وإما أنني كنت بصحبته ولم
أتركه طوال الليل موضع السؤال.

– الآن، كن حذرًا. وماذا يعمل هذا الرجل؟

نظر مايك إلى قبعته، ونظر إلى الأرض، ونظر إلى السقف، ونظر إلى
الموظف، بل ونظر إليّ، قبل أن يبدأ في الرد بقلقي، «لقد ألبسناه ملابس...»
عندها صرخ وصيّي:

– ماذا؟ ماذا فعلت، حسنًا؟

(أضاف الموظف «مغفل!» مرة أخرى، مع لكزة أخرى).

بعد بعض التخطيط البائس، أشرق مايك وقال مرة أخرى: إنه يرتدي زي صانع فطائر محترم، طاهي حلوى.
«هل هو هنا؟» سأل وصيّي.

قال مايك: لقد تركته عند عتبة باب ما عند الناصية.
- مُر به أمام تلك النافذة، ودعني أراه.

النافذة المشار إليها كانت نافذة المكتب. ذهبنا جميعًا إليها، خلف الستارة الرفيعة، وشاهدنا العميل يمر بطريقة عرضية، مع شخص طويل القامة يبدو كأنه قاتل، يرتدي مئزرًا قصيرًا من الكتان الأبيض وقبعة الطاهي. كان صانع الحلويات هذا مخمورًا للغاية، ولديه كدمة حول عينه قاربت التعافي، وطُليت بالكامل.

قال وصيّي للموظف في حالة من الاشمئزاز الشديد: قل له أن يأخذ شاهده بعيدًا في الحال، واسأله عما يقصده بإحضار شخص كهذا.

بعد ذلك، أخذني وصيّي إلى غرفته الخاصة، وبينما كان يتناول طعام الغداء واقفًا، من علبة شطائر وقنينة من النبيذ (بدا أنه يتنمّر على شطيرته في أثناء تناولها)، أخبرني بالترتيبات التي قام بها من أجلي. كان عليّ أن أذهب إلى «نزل برنارد»، إلى غرف السيد بوكيت الشاب، حيث أُرسِل سرير لإقامتي؛ كان من المقرر أن أبقى مع السيد بوكيت الشاب حتى يوم الاثنين؛ كان من المقرر أن أذهب معه يوم الاثنين إلى منزل والده في زيارة، لأرى إن كان سيروق لي. كما أُخبرت بما يجب أن أحصل عليه من مصروف، وكان سخيًا للغاية، وسلّمني وصيّي من أحد أدراجته، بطاقات بعض التجار الذين كان عليّ أن أتعامل معهم في جميع أنواع الملابس، وأشياء أخرى بقدر ما أريده في حدود المعقول. قال وصيّي،

ورائحة قنينة النبيذ الخاصة به بدت كأنها برميل كامل، وهو ينعش نفسه منها على عجلٍ:

- سوف تجد أنك تحظى بمنزلة جيدة، وسأتمكن بهذه الوسيلة من النظر إلى فواتيرك، ولفت نظرك إذا وجدتك توشك على الفلس. بالطبع سوف تخطئ بطريقة أو بأخرى، ولكن هذا ليس خطئي.

بعد أن فكرت قليلاً في تفكيره المراعي، سألت السيد جاغرز إذا كان في إمكاني طلب عربة؟ قال إن الأمر لا يستحق العناء، فقد كنت قريباً جداً من وجهتي؛ يمكن لويميك أن يسير معي، إذا أردت ذلك.

علمت أن ويميك هو الموظف في الغرفة المجاورة. استدعي موظف آخر من الطابق العلوي ليحل محله في أثناء خروجه، ورافقته إلى الشارع بعد أن صافحت وصيّي. وجدنا مجموعة جديدة من الأشخاص يتسكعون بالخارج، لكن ويميك شق طريقاً بينهم بقوله بهدوء ولكن بحزم: «أقول لكم إنه لا فائدة من ذلك؛ لن يكون لديه كلمة يقولها لأي منكم.» وسرعان ما تخلصنا منهم، وسرنا جنباً إلى جنب.

الفصل الحادي والعشرون

رميت بنظري على السيد ويميك في أثناء سيرنا لأرى كيف كان شكله في وضح النهار، وجدته رجلاً ذابلاً، قصير القامة إلى حدٍّ ما، ذا وجه خشبي مربع، تبدو قسماته كأنه قُطعت بشكلٍ غير مثالي باستخدام إزميل ثالم. كانت هناك بعض الندبات التي ربما صارت غمازات لو كانت المادة الخام أكثر ليونة والأداة أكثر دقة، ولكنها، في تلك الحالة، كانت مجرد انبعاجات. لقد قام الإزميل بثلاث أو أربع محاولات لتجميل أنفه، ثم تركه هكذا دون أن يبذل أي جهد في صقله. لقد حكمت عليه بأنه أعزب بسبب حالة ملابسه البالية، ويبدو أنه عانى من عدد كبير من الفجائع؛ لأنه كان يرتدي ما لا يقل عن أربعة خواتم حداد، إلى جانب دبوس زينة يمثل سيدة وصففاة متدلّية عند قبر عليه جرة. ولاحظت أيضاً أن العديد من الخواتم والأختام معلقة في سلسلة ساعته، كما لو كان محملاً بذكريات الأصدقاء الراحلين. كانت له عينان لامعتان، صغيرتان، حادثان، وسوداوان، وشفاه رفيعة وواسعة مبقةة. لقد حملهم، على حد اعتقادي، منذ أربعين إلى خمسين عاماً.

«إذن، أنت لم تأتِ إلى لندن من قبل؟» قال لي السيد ويميك. قلت: لا.

قال السيد ويميك: كنت جديداً هنا ذات مرة. من الغريب التفكير في

هذا الآن!

- هل أنت ملئٌ بها جيداً الآن؟

قال السيد ويميك: نعم، بالتأكيد. أنا أعرفها قلباً وقالباً.

«هل هي مدينة شريرة للغاية؟» سألت، من أجل ملء فراغ الحديث أكثر منه للحصول على معلومات.

- قد تتعرض للغش والسرقة والقتل في لندن، ولكن هذا قد يحدث أيضاً في أي مكان آخر.

فقلت كي أخفف من حدة الموقف قليلاً: إذا كانت هناك عداوة.

«حسناً!» رد السيد ويميك: لا أعتقد أن هذا صحيحٌ تماماً. ليس هناك الكثير من العداوات. سيفعلون ذلك، إذا كان هناك أي شيء سيحصلون عليه في المقابل.

- هذا يجعل الأمر أسوأ.

«هل تعتقد ذلك؟» رد السيد ويميك، «أعتقد أنه نفس الشيء».

كان يضع قبعته على مؤخرة رأسه، وينظر أمامه مباشرة: يمشي بتحفظٍ كما لو لم يكن هناك شيء في الشوارع يستحق انتباهه. كان فمه أشبه بصندوق البريد إلى درجة أنه كان به ابتسامة آلية. كنا قد وصلنا إلى شارع هولبورن هيل حين أدركت أنه لم يكن يتسم على الإطلاق، وأن هذا كان مجرد تعبير آلي.

«هل تعرف أين يعيش السيد ماثيو بوكيت؟» سألت السيد ويميك.

«نعم» قال وهو يوميء برأسه في اتجاه المنزل. «في منطقة هامرسميث، غرب لندن».

- هل هي بعيدة؟

- حسنًا! نحو خمسة أميال.

- هل تعرفه؟

«يا لك محقق محترف!» قال السيد ويميك وهو ينظر إليَّ نظرة راضية، «نعم أنا أعرفه، أنا أعرفه!».

كان هناك لمحة من التساهل أو الاستخفاف بشأن نطقه لهذه الكلمات مما أصابني بالإحباط؛ وكنت لا أزال أنظر جانبًا إلى كتلة وجهه بحثًا عن أي ملاحظة مشجعة في كلامه، عندما قال إننا هنا في نُزل برنارد. لم يخفف هذا النبأ من إحباطي، لأنني كنت أفترض أن هذه المنشأة يديرها السيد برنارد، بينما كان بلو بور في مدينتنا مجرد فندق صغيرة. يبدُ أنني وجدت الآن أن برنارد روح بلا جسد، أو مجرد خيال، وأن نُزله عبارة عن مجموعة قدرة من المباني المتهالكة التي جُمعت معًا في زاوية مرتبة كنادٍ لشتى أنواع ققط الشوارع.

دخلنا هذا الملاذ من خلال خوخة، ودُفعنا إلى ممر تمهيدي ثم إلى باحة صغيرة موحشة بدت لي كأنها أرض مسطحة للدفن. اعتقدت أنها تحتوي على أكثر الأشجار كآبة، وأكثر العصافير كآبة، وأكثر الققط كآبة، وأكثر المنازل كآبة (التي يبلغ عددها ستة أو نحو ذلك) على الإطلاق. تراءى لي أن نوافذ الغرف التي قُسمت تلك المنازل إليها كانت تحتوي على شتى أنواع الستائر المتهالكة، وأواني الزهور المشوّهة، والزجاج المتشقق، والعفن المغبرّ، والإصلاحات المؤقتة المخزية؛ بينما لافتات «للإيجار، للإيجار، للإيجار» تحدد إلى وجهي من الغرف الفارغة، كما لو أنه لم يعد يشغلها تعساء جدد على الإطلاق، وإن انتقام روح برنارد سُكّنت ببطء من خلال الانتحار التدريجي للشاغلين الحاليين ودفنهم

المروع تحت الحصى. كان هناك لباس حداد كريه من السخام والدخان متشح به هذا التشييد البائس لبرنارد، وقد نُثر الرماد على رأسه كنوعٍ من الخزي وتكفير الذنب كأنه مجرد حفرة في التراب. كان هذا ما يخص ما أراه؛ أما العفن الجاف والرطب وجميع أنواع العفن الصامت التي أصابت السقف والقبو المهملين -عفن الجرذان والفئران والحشرات وأسطبلات المركبات القريبة أيضًا- فقد خاطبوا جميعًا بأني وبصوتٍ خافتٍ حاسة الشم لديّ قائلين: جرّب خليط برنارد^(١).

كان تحقّق أولى آمالي العظيمة غير مثالي أبدًا، إلى درجة أنني نظرت بفرع إلى السيد ويميك. «آه!» قال وقد أخطأ فهمي: المكان يذكرك بالقرية. هكذا يفعل بي.

قادني إلى زاوية، وصعد بي أعلى مجموعة من السلالم، التي بدت لي كأنها تنهار ببطء، وتحوّل إلى نشارة الخشب، وبدأ لي أنه في أحد تلك الأيام سينظر المستأجرون في الطابق العلوي من أبوابهم ويجدون أنفسهم دون وسيلة للنزول. وصلنا إلى مجموعة من الغرف في الطابق العلوي، كان اسم السيد بوكيت الأصغر مطلقًا على الباب، وكان هناك ملصق على صندوق البريد، «سأعود قريبًا».

وأوضح السيد ويميك: لم يكن يعتقد أنك ستأتي بهذه السرعة، هل تريد أي شيء آخر؟
قلت: لا، شكرًا لك.

قال السيد ويميك: بما أنني أحتفظ بالنقود، فمن المرجح أن نلتقي كثيرًا. يومك سعيد.

(١) يسخر ديكنز من إعلانات التبغ في ذلك الوقت. المترجم.

- يومك سعيد.

مددت يدي، ونظر إليها السيد ويميك في البداية كما لو كان يعتقد أنني أريد منه شيئاً ما، ثم نظر إليّ وقال وهو يصحح نفسه:

- للتأكد! نعم. هل أنت معتاد المصافحة؟

لقد كنت في حيرة من أمري، واعتقدت أن المصافحة صارت من الطراز القديم في لندن، لكنني قلت نعم.

قال السيد ويميك: لقد نسيت هذه العادة! باستثناء اللقاء الأخير، أنا سعيد جداً بالتعرف عليك. يومك سعيد!

وعندما تصافحنا ورحل، فتحت نافذة السلم وكدت أقطع رأسي، لأن الجبال كانت قد تعفنت، ونزلت مثل المقصلة. لحسن الحظ حدث الأمر بسرعة شديدة إلى درجة أنني لم أكن أخرجت رأسي. بعد نجاتي هكذا، كنت راضياً بالقاء نظرة ضبابية على النُّزل من خلال الأوساخ التي تكسو النافذة، والوقوف حزيناً أنظر إلى الخارج، وأقول لنفسي إن لندن مبالغ في تقديرها بالتأكيد.

فكرة السيد بوكيت الأصغر عن العودة قريباً لم تكن مثل فكرتي، لأنني كدت أصاب بالجنون وأنا أنظر إلى الخارج لمدة نصف ساعة، وكتبت اسمي بإصبعي عدة مرات على تراب كل لوح في النافذة، قبل أن أسمع خطوات على الدرج. تدريجياً، ظهرت أمامي القبة، والرأس، والوشاح، والمعطف، والسروال، والحذاء، لفرد في المجتمع بنفس مكانتي. كان يحمل كيساً ورقياً تحت كل ذراع، وفي إحدى يديه سلة من الفراولة، وكان منقطع الأنفاس.

قال: السيد بيب؟

قلت: السيد بوكيت؟

صاح: يا إلهي! أنا آسف للغاية؛ لكنني كنت أعلم أن هناك عربة قادمة من منطقتك في منتصف النهار، واعتقدت أنك ستأتي فيها. الحقيقة هي أنني خرجت من أجلك، وهذا ليس عذرًا، لأنني اعتقدت أنه بما أنك قادمًا من القرية، قد ترغب في تناول القليل من الفاكهة بعد العشاء، وذهبت إلى سوق كوفنت جاردن لأشتريها طازجة.

لسبب ما، شعرت كما لو أن عيني ستخرج من رأسي وأنا أنظر إليه. شكرته لاهتمامه بكلام غير مترابط، وبدأت أعتقد أن هذا كان حلماً. «يا إلهي!» قال السيد بوكيت الأصغر. «هذا الباب عالق جدًا!».

وبينما كان يسحق الفاكهة بسرعة وهو يصارع الباب والأكياس الورقية تحت ذراعيه، توسّلت إليه أن يسمح لي بإمساكها. تخلى عنها بابتسامة لطيفة، وصارع الباب كأنه وحش كاسر. فُتح الباب فجأة أخيرًا، إلى درجة أنه نظر إليّ متعجبًا، ونظرت أنا إلى الباب أمامنا، وضحكنا معًا. ولكنني ما زلت أشعر كما لو أن عيني سوف تخرجان من رأسي، كأن هذا لا بد أن يكون حلمًا.

قال السيد بوكيت الأصغر: أرجو أن تتفضل. اسمح لي أن أقود الطريق. ليس لدي الكثير هنا، ولكن آمل أن تتمكن من الاحتمال حتى يوم الاثنين. والذي يعتقد أنك ستشعر براحة أكثر في قضاء الغد معي، وربما ترغب في التنزه في أنحاء لندن. أنا متأكد من أنني سأكون سعيدًا جدًا بأن أريك لندن. بالنسبة إلى الطعام، آمل ألا تجده سيئًا، لأنه سيتوفر من المقهى الخاص بنا هنا، وسيكون (من العدل أن أضيف) على نفقتك الخاصة، حسب توجيهات السيد جاجرز. أما بالنسبة إلى إقامتنا، فهي

ليست رائعة بأي حال من الأحوال، لأنه يجب عليّ أن أكسب عيشي بنفسني، وليس لدى والدي أي شيء يعطيني إياه، وإذا كان لديه، فلن أكون على استعداد لأخذه. هذه هي غرفة جلوسنا، مجرد كراسي وطاولات وسجاد وما إلى ذلك، كما ترى، بقدر ما يمكنهم توفيره من المنزل. لا يجب أن تنسب إليّ الفضل في شراء مفرش المائدة والملاعق وملاحة الطعام، لأنها تأتي إليك من المقهى. هذه غرفة نومي الصغيرة؛ رائحتها تنتنه إلى حد ما، ولكن هكذا رائحة برنارد. هذه غرفة نومك؛ استؤجر الأثاث لهذه المناسبة، ولكنني على ثقة بأنه سيفي بالغرض؛ إذا كنت تريد أي شيء، سأذهب وأحضره. الغرف منزوية، وسنكون وحدنا معًا، لكننا لن نتقاتل، على ما أعتقد. لكن يا إلهي، أرجوك المعذرة، أنت تحمل الفاكهة طوال هذا الوقت، أرجوك دعني آخذ هذه الأكياس منك، أنا أشعر بالخجل الشديد.

بينما كنت أقف مقابل السيد بوكيت الأصغر، أسلمه الأكياس، واحد، اثنان، رأيت نفس الشعور السابق يتجلى في عينيه كما كان ما زال متجلىًا في عيني، وقال وهو يتراجع:

- يا رب باركني، أنت الصبي المتجول!

قلت: وأنت السيد الشاب الشاحب!

الفصل الثاني والعشرون

ظللنا أنا والشاب الشاحب يتأمل أحدهما الآخر في نزل برنارد، حتى انفجرنا ضاحكين. قال: «كونك أنت!» قلت: «كونك أنت!» ثم تأمل أحدهما الآخر من جديد، وضحكنا مرة أخرى. «حسنًا!» قال السيد الشاب الشاحب وهو يمد يده بمرح: آمل أن الأمر قد انتهى الآن، وسيكون من الكرم منك أن تسامحني لأنني أزعجتك بهذه الطريقة.

لقد استنتجت من هذا الكلام أن السيد هربرت بوكيت (لأن هربرت كان اسم الرجل الشاب الشاحب) لا يزال يخلط بين نيته وما حدث بالفعل. لكنني قدمت إجابة متواضعة، وتصافحنا بحرارة.

قال هربرت بوكيت: لم تكن قد حصلت على ثروتك في ذلك الوقت؟

قلت: لا.

أدعن قائلاً: لا، لقد سمعت أن هذا قد حدث مؤخرًا. كنت أنا من يبحث عن الثراء في ذلك الوقت.

- حقاً؟

- نعم. لقد أرسلت الآنسة هافيشام في طلبي لترى ما إذا كانت ستعجب بي، لكنها لم تستطع، على أي حال، لم تفعل. اعتقدت أنه من الأدب أن أشير إلى أنني فوجئت بسماع ذلك.

قال هربرت ضاحكًا: ذوقها سيئ، لكنه ما حدث بالفعل. نعم، لقد أرسلت في طلبي في زيارة تجريبية، وإذا خرجت منها بنجاح، أعتقد أنه كانت ستتكفل بمصروفاتي؛ وربما كنت سأصبح ما يمكن أن تسميه بالنسبة إلى إستيلا.

«ما هو؟» سألت باهتمام مفاجئ.

كان يرتب فاكهته في الأطباق في أثناء حديثنا، مما شتت انتباهه، وكان سببًا في تشويشه.

وأوضح قائلاً: «مخطوبًا»، وهو لا يزال مشغولًا بالفاكهة. «مرتبطًا، ملتزمًا، أيًا يكن، شيء من هذا القبيل».

سألت: «كيف تحمّلت خيبة أملك؟» قال: ياه! لم أهتم بالأمر كثيرًا. إنها متوحشة.

- الآنسة هافيشام؟

- لن أنكر ذلك، ولكنني أقصد إستيلا، تلك الفتاة قاسية ومتغطرة ومتقلبة إلى أقصى درجة، وقد قامت الآنسة هافيشام بتربيتها للانتقام من كل الذكور.

- ما علاقتها بالآنسة هافيشام؟

قال: لا شيء، تبنتها فقط.

- لماذا عليها أن تنتقم من كل الذكور؟ أي انتقام؟

قال: يا إلهي، يا سيد ييب! ألا تعلم؟

قلت: لا.

- عزيزي! إنها قصة رائعة، ويجب تأجيلها حتى وقت العشاء. والآن

اسمح لي أن أطرح سؤالاً عليك. كيف أتيت إلى هناك في ذلك اليوم؟

أخبرته، وظلّ متنبّهاً حتى انتهيت، ثم انفجر ضاحكاً مرة أخرى، وسألني إذا كنت تألمت بعد ذلك؟ ولم أسأله إن تألم هو، لأن اقتناعي بهذا الأمر كان راسخاً تماماً.

قال: السيد جاغرز هو الوصي عليك، صحيح؟

- نعم.

- هل تعلم أنه المحامي والمختص بأعمال الأنسة هافيشام، ويحظى

بثقتها، في حين لا يحظى بها أي شخص آخر؟

كان هذا يقودني (كما شعرت) نحو منطقة خطر. أجببت بإصرار لم أقم بأي محاولة لإخفائه، بأنني رأيت السيد جاغرز في منزل الأنسة هافيشام في نفس يوم قتالنا، لكنني لم أره مطلقاً منذ ذلك الوقت، وأعتقد أنه لم يتذكر أنه رأيني هناك على الإطلاق.

- لقد كان فضلاً منه أن ينصح بوالدي كي يكون معلمك، وقام بزيارة والدي ليقترح الأمر. بالطبع كان يعرف والدي من خلال علاقته بالأنسة هافيشام. والدي هو ابن عم الأنسة هافيشام، ولا يعني ذلك أن هناك وداً بينهما، فهو لا يجيد التملق ويرفض استرضاءها.

كان لدى هربرت بوكيت أسلوب صريح وسهل وطريقة جذابة للغاية. لم أر أحداً قط حينها، ولم أر أحداً منذ ذلك الحين، يعبر بقوة شديدة، في كل نظرة وبكل لهجة، عن عدم قدرته على القيام بأعمال خبيث مستترة. كان هناك شيء رائع من الأمل في سلوكه العام، وشيء همس لي في نفس الوقت بأنه لن يكون ناجحاً أو ثرياً أبداً، لا أعرف كيف حدث

هذا، لقد تأصلت الفكرة في ذهني في مقابلتنا الأولى قبل أن نجلس لتناول العشاء، لكن لا يمكنني تحديد السبب.

كان لا يزال شابًا شاحبًا، وكان يحيط به نوع من التخاذل المقهور وسط نشاطه وحيويته، وهو ليس مؤثرًا على القوة الغريزية. لم يكن وجهه وسيماً، لكنه كان أفضل من الوسامة: كونه ودودًا وبشوشًا للغاية. ولم يكن حسن المظهر للغاية، كما كانت حاله عندما تعار كنا في الصغر، لكنه بدا كما لو أنه سيكون دائمًا رشيقيًا وشابًا. قد يتناسب معه العمل المحلي للسيد تراب أكثر مني؛ لكنني أدرك أن ثقته بنفسه جعلت مظهره بملابسه القديمة أفضل بكثير مني في بذلتي الجديدة.

نظرًا إلى أنه كان صادقًا للغاية، شعرت أن التحفظ من جهتي سيكون له عائد سيئ غير مناسب للمرحلة. ولذلك أخبرته بقصتي الصغيرة، وشدّدت على منعي من الاستفسار عن هوية ولي نعمتي.

وذكرت أيضًا أنه بما أنني نشأت كحداد في الأرياف، ولم أعرف سوى القليل جدًا من آداب التعامل، فسوف اعتبره لطفًا كبيرًا منه إذا أعطاني تلميحًا كلما رأيته في مكان ما حائرًا أو واقفًا في الخطأ.

قال: من دواعي سروري، على الرغم من أنني قد أجرؤ على التنبؤ أنك ستحتاج إلى القليل جدًا من التلميحات. أعتقد أننا سنقضي وقتًا طويلاً معًا، وأود أن أزيل أي تقييد لا داعي له بيننا. هل تسدي لي معروفًا بأن تبدأ على الفور في مناداتي باسمي الأول، هربرت؟

شكرته وقلت أنني سأفعل. أخبرته في المقابل أن اسمي الأول هو فيليب.

قال مبتسمًا: أنا لا أستسيغ فيليب، لأنه يبدو كصبي خرج من كتابٍ

عن الأخلاقيات، وكان كسولاً جداً إلى درجة أنه سقط في بركة، أو سميناً جداً إلى درجة أنه لم يتمكن من الرؤية. أو كان جشعاً إلى درجة أنه خبأ كعكته حتى أكلتها الفئران، أو كان مصممًا على البحث عن أعشاش الطيور إلى درجة أن الدببة التي تعيش في الجوار افترسته. سأقول لك ما أوده. نحن متوافقان للغاية، وقد كنت حدادًا فيما سبق، هل تمانع في ذلك؟

أجبتة: لا ينبغي لي أن أمانع في أي شيء تقترحه، لكنني لا أفهمك.
- هل يبدو اسم هاندل محببًا لأذنك؟ هناك مقطوعة موسيقية ساحرة لهاندل^(١) تُسمَّى الحداد المنغم.
- أحب الاسم كثيرًا.

قال وهو يستدير عندما فُتح الباب: إذن يا عزيزي هاندل، ها هو العشاء، وأرجو منك أن تجلس على رأس المائدة، لأنك من أمنت لنا العشاء.

لم أسمح بذلك، فأخذ هو رأس المائدة، وجلست أنا قبالة. كان عشاءً صغيراً لطيفاً - بدا لي في ذلك الوقت بمنزلة وليمة حفل تنصيب عمدة المدينة^(٢) - وما أكسبه متعة إضافية هو الشعور بالاستقلال، وغياب كبار السن من حولنا، والوجود في قلب لندن نفسها. وما جعل مذاقه أفضل أيضًا هو الطابع الفجري الذي اكتسبته المائدة. لأنه في حين أن المائدة،

(١) جورج فريدريك هاندل مؤلف موسيقي كلاسيكي إنجليزي من أصل ألماني عاش الفترة الباروكية الأخيرة (١٦٨٥ - ١٧٥٩). المترجم.

(٢) حفل تنصيب عمدة المدينة يُعد أحد أشهر الأحداث السنوية في لندن، وواحدًا من أقدم الفعاليات التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر. المترجم.

كما كان من الممكن أن يقول السيد بامبلتشوك، هي قمة الفخامة، حيث جُهزت بالكامل في المقهى، فإن المنطقة المحيطة بغرفة الجلوس كانت ذات طابعٍ غير ملائم للأكل ومريب نسبياً؛ حيث فرضت على النادل التجول في الأنحاء، ووضع الأغذية على الأرض (حيث سقط فوقها)، وصلصة الزبدة على الكرسي، والخبز على أرفف الكتب، والجبن في دلو الفحم، والدجاج المسلوق في فراشي في الغرفة المجاورة، حيث وجدت الكثير من البقدونس والزبدة على هيئة هلام عندما ذهبت للنوم ليلاً. كل هذا جعل الوليمة شهية، وعندما لم يكن النادل هناك لمراقبتي، كانت سعادتِي لا يشوبها شائبة.

كنا قد بدأنا في العشاء، عندما ذكَّرت هربرت بوعده بأن يخبرني عن الأنسة هافيشام.

أجاب: صحيح. سوف أفِي بوعدي في الحال. اسمح لي أن أعرض الموضوع يا هاندل بالإشارة إلى أنه ليس من العادة في لندن أن نضع السكين في الفم، خوفاً من وقوع حوادث، وأنه على الرغم من أن الشوكة مخصصة لهذا الاستخدام، فإنها لا تُدخَل الفم بأكملها. إنه أمر لا يستحق الذكر، فقط من الجيد أن تفعل ما يفعله الآخرون. أيضاً، لا تُستخدم الملعقة بشكلٍ عام باليد من أعلى، بل من أسفل. وهذا له ميزتان؛ ستتمكن من التعامل مع فمك بشكلٍ أفضل (وهو الهدف في نهاية المطاف)، وتتجنب رفع المرفق الأيمن كأنك تفتح المَحَار.

لقد عرض هذه الاقتراحات الودية بطريقة مفعمة بالحيوية، حتى إننا ضحكنا وبالكاد احمرَّ وجهي.

تابع: والآن، فيما يتعلق بالآنسة هافيشام. يجب أن تعلم أن الآنسة

هافيشام كانت طفلة مدللة. تُوفيت والدتها عندما كانت طفلة، ولم يحرمها والدها من شيء. كان والدها رجلاً نبيلًا من منطقتك، وكان صانعًا للجمعة. لا أعرف ما المميز في أن تكون صانع الجمعة؛ ولكن مما لا جدال فيه أنه بينما لا يمكنك أن تكون خبازًا نبيلًا، فقد تكون في منتهى النبل وتصنع الجمعة، ترى ذلك كل يوم.

قلت: ومع ذلك، لا يجوز للرجل النبيل أن يكون لديه حانة؛ هل يجوز ذلك؟

أجاب هربرت: ليس بأي حال من الأحوال، لكن الحانة قد تجتذب الرجل النبيل. حسنًا! كان السيد هافيشام ثريًا جدًا ومترفًا جدًا، وكذلك كانت ابنته.

«الآنسة هافيشام كانت الطفلة الوحيدة؟» غمرت بالسؤال.

- توقف لحظة، أنا قادم إلى ذلك. لا، لم تكن الطفلة الوحيدة، كان لديها أخ غير شقيق. لقد تزوج والدها سرًا مرة أخرى، وأعتقد أنه تزوج من الطاهية.

قلت: اعتقدت أنه مترفعٌ.

- يا هاندل الطيب، لقد كان كذلك. تزوج زوجته الثانية سرًا لأنه كان مترفعًا، ومع مرور الوقت ماتت. عندما ماتت، أتوقع أنه أخبر ابنته أولاً بما فعله، وبعد ذلك أصبح الابن جزءًا من العائلة، ويقيم في المنزل الذي تعرفه، وعندما كبر الابن شابًا، أصبح مشاغبًا، مسرفًا، عاقًا، وفاسدًا تمامًا. وأخيرًا حرّمه والده من الميراث، لكن قلبه لان عندما كان يحتضر، وتركه ميسور الحال، على الرغم من أنه لم يكن في حال جيدة مثل الآنسة هافيشام.. خذ كأسًا أخرى

من النبذ، واعدرني على الإشارة إلى أن المجتمع في المجمل لا يتوقع من المرء أن يكون على هذا القدر من الحرص على إفراغ كأسه كلها، بقلبه من الأسفل إلى الأعلى مع وضع الحافة على أنفه.

لقد كنت أفعل هذا، في ظل الاهتمام الزائد بروايته. شكرته، واعتذرت، قال: لا داعي للاعتذار، ثم استأنف الحديث.

- لقد أصبحت الآنسة هافيشام الآن وريثة، وربما تفترض أنه نُظر إليها باعتبارها عروسًا رائعة. أصبح لدى أخيها غير الشقيق الآن موارد كافية مرة أخرى، لكن مع الديون والحماقة الجديدة، فقد لها بشكل مخيف مرة أخرى. كانت الاختلافات بينه وبينها أقوى مما كانت عليه بينه وبين والده، ومن المحتمل أنه كان يكنُّ لها ضغينة عميقة ومميتة لأنها أثرت على غضب الأب. والآن، أنتقل إلى الجزء القاسي من القصة، الذي أقطعه فقط يا عزيزي هاندل لأشير إلى أن منديل العشاء لا يدخل في الكأس.

لا أستطيع أن أجزم بسبب محاولتي أن أضع منديلي في كأس، كل ما أعرفه هو أنني وجدت نفسي، بمثابرة تستحق قضية أفضل بكثير، أبذل قصارى جهدي لحشره داخل حدود الكأس. شكرته واعتذرت مرة أخرى، ثم قال مرة أخرى بطريقة مرحة: «على الإطلاق، بالتأكيد!» واستأنف حديثه.

- وقد ظهر على الساحة -مثلًا في السباقات، أو الحفلات العامة، أو في أي مكان آخر- رجل معين تقرب من الآنسة هافيشام، لم أره قط (لأن هذا حدث قبل خمسة وعشرين عامًا، قبل أن نولد أنا وأنت

يا هاندل)، لكنني سمعت والدي يذكر أنه كان رجلاً مدعيًا، ومن نوعية الرجال الذين يسعون لهذا الغرض. لكن والدي يؤكد بشدة أنه لا ينبغي أن يُخطأ في اعتباره رجلاً نبيلًا، دون جهل أو تحيز؛ لأنه كمبدأ إذا لم يكن رجل ما نبيلًا حقًا في قلبه، لا يمكن على الإطلاق أن يكون رجلاً نبيلًا حقًا في سلوكه. يقول، لا يمكن للطلاء أن يخفي تجزّع الخشب؛ وأنه كلما وضعت المزيد من الطلاء، ظهر التجزّع أكثر. حسنًا! كان هذا الرجل يلاحق الأنسة هافيشام من كثب، ويعلن أنه مخلص لها. أعتقد أنها لم تظهر الكثير من المشاعر حتى ذلك الوقت؛ لكن كل المشاعر التي كانت تمتلكها ظهرت بالتأكيد حينها، وقد أحبته بشغف. ليس هناك شك في أنها كانت تعبه تمامًا. لقد لعب على عواطفها بطريقة منهجية، حيث حصل منها على مبالغ كبيرة من المال، وأقنعها بشراء حصة شقيقها في مصنع الجعة (التي تركها له والده بغير اقتناع) بسعر باهظ. بحجة أنه عندما سيصبح زوجها يجب عليه أن يتولى كل شيء ويديره. لم يكن وصيِّك في ذلك الوقت ضمن مستشاري الأنسة هافيشام، وكانت متغطرة جدًّا، وواقعة في الحب جدًّا، بحيث لم يتمكن أي شخص من نصحتها. كان معارفها فقراء وماكرين، باستثناء والدي؛ لقد كان فقيرًا بما فيه الكفاية، لكنه لم يكن غيورًا، ولم يحط من قدره. وكان الشخص المستقل الوحيد بينهم، حذرها من أنها تفعل الكثير من أجل هذا الرجل، وأنها تضع نفسها تحت سلطته دون تحفُّظ. لقد انتهزت الفرصة الأولى لتأمر والدي بغضبٍ بالخروج من المنزل، في حضوره، ولم يرها والدي منذ ذلك الحين.

وتذكرت أنها قالت: سوف يأتي ماثيو ليراني أخيرًا عندما أموت على تلك الطاولة، وسألت هربرت هل كان والده معارضًا لها بشدة؟

قال: ليس الأمر كذلك، لكنها اتهمته، في حضور زوجها المستقبلي، بخيبة الأمل على أمل أن يتودد لها من أجل مصلحته الشخصية، وإذا ذهب إليها الآن، فسيبدو الأمر حقيقياً - بالنسبة إليه - وحتى بالنسبة إليها. لنعد إلى الرجل وننتهي من حكايته. حُدد يوم الزواج، واشترت فساتين الزفاف، وخططت لجولة الزفاف، ودُعي ضيوف حفل الزفاف، وجاء اليوم، لكن ليس العريس. وكتب لها رسالة...

فتساءلت: تلقتها عندما كانت ترتدي ملابس زفافها؟ في التاسعة إلا عشرين دقيقة؟

قال هربرت وهو يومئ برأسه: في هذا الوقت بالتحديد، حيث أوقفت بعد ذلك كل الساعات. ما كان داخلها، أبعد من أنها أدت إلى فسخ الزواج بلا رحمة، لا أستطيع أن أخبرك، لأنني لا أعرف. وعندما تعافت من مرض سيئ كانت تعاني منه، أهلك المكان كله، كما رأيت، ولم تنظر إلى ضوء النهار منذ ذلك الحين.

«هل هذه كل القصة؟» سألت بعد تفكير.

- هذا كل ما أعرفه؛ وفي الواقع، لا أعرف سوى القليل الذي اكتشفته بنفسني؛ لأن والدي يتجنب الحديث عن الأمر دائماً، وحتى عندما دعيتي الآنسة هافيشام للذهاب إلى هناك، لم تخبرني أكثر مما كان من الضروري أن أفهمه. ولكنني نسيت شيئاً واحداً. من المفترض أن الرجل الذي منحته ثقتها تصرف طوال الوقت بالتنسيق مع أخيها غير الشقيق؛ وأنه كان مؤامرة بينهما؛ وأنهما تقاسما الأرباح.

قلت: أتساءل لم لم يتزوجها ويحصل على كل الممتلكات.

قال هربرت: ربما كان متزوجاً بالفعل، وربما كانت إهانتها القاسية جزءاً من مخطط أخيها غير الشقيق. قد يكون أي شيء! أنا لا أعرف.

«ماذا حدث للرجلين؟» سألت بعد النظر في الموضوع مرة أخرى.

- لقد وقعا في قاع العار والانحطاط والخراب، وإذا كان من الممكن أن يكون هناك أعمق من هذا.

- هل هما على قيد الحياة الآن؟

- لا أعرف.

- لقد قلت للتو إن إستيلا ليست على صلة قرابة بالآنسة هافيشام، ولكنها متبناة، متى تبنتها؟

هزَّ هربرت كتفيه. «طالما كانت إستيلا موجودة، منذ أن سمعت عن الآنسة هافيشام. لا أعرف أكثر من هذا». قال وهو يطرح روايته جانباً أخيراً: «والآن يا هاندل، هناك تفاهم تام بيننا. كل ما أعرفه عن الآنسة هافيشام، أنت تعرفه».

أجبت: وكل ما أعرفه، أنت تعرفه.

- أنا أصدق ذلك تماماً، لذلك لا يمكن أن يكون هناك تنافس أو حرج بيني وبينك. وفيما يتعلق بالشرط الذي بموجبه تحافظ على مستقبلك، وهو ألا تستفسر أو تناقش لمن تدين له بذلك، فيجب أن تكون على يقين تام من أنه لن يُتعدى عليه، أو حتى الاقتراب منه من قبلي أنا أو من قبل أي شخص من جهتي.

في الحقيقة، لقد قال ذلك بلطفٍ شديدٍ إلى درجة أنني شعرت

بأن الموضوع قد انتهى، على الرغم من أنني سأظل تحت سقف والده لسنوات وسنوات قادمة. ومع ذلك، فقد قال ذلك بعمقٍ أيضًا، إلى درجة أنني شعرت أنه يفهم تمامًا أن الأنسة هافيشام هي ولي نعمتي، كما اعتبرتها الحقيقة بنفسني.

لم يخطر ببالي من قبل أنه قد تطرق إلى الموضوع بغرض إزاحته عن كاهلنا؛ لكننا كنا أكثر خفة، وأسهل كثيرًا في التعامل بعد التطرق إلى هذا الأمر، إلى درجة أنني أدركت الآن أن هذه هي الحال. كنا مرحين واجتماعيين للغاية، وسألته في أثناء المحادثة من هو؟ فأجاب: ممول ومؤمن للسفن. افترض أنه رأيي ألقى نظرة في أنحاء الغرفة بحثًا عن بعض رموز الشحن أو رأس المال، لأنه أضاف: في المنطقة التجارية بالمدينة.

كانت لدي أفكار عظيمة عن ثروة وأهمية شركات التأمين على السفن في المدينة، وبدأت أفكر بإعجابٍ عما سأراه إذا ألقيت رجل تأمين شابًا على ظهره، وسودت عينيه المغامرتين، وفتحت رأسه المسؤول. ولكن مرة أخرى خطر في بالي ذلك الانطباع الغريب بأن هربرت بوكيت لن يكون ناجحًا أو ثريًا أبدًا.

«لن أكتفي بمجرد استثماري في تأمين السفن، سأشتري بعض أسهم التأمين على الحياة الجيدة، وأصبح رئيسًا في المجال. سأستثمر بعض المال أيضًا في التعدين. لن تتعارض أيٌّ من هذه الأشياء مع شحن بضعة آلاف من الأطنان على حسابي الخاص» قال وهو يستند إلى كرسيه: «أعتقد أنني سأناجر مع جزر الهند الشرقية في الحرير، والشالات، والتوابل، والأصباغ، والأدوية، والأخشاب الثمينة. إنها تجارة جذابة».

سألت: والأرباح كبيرة؟

قال: هائلة!

ترددت مرة أخرى، وبدأت أعتقد أن هناك آمالاً أكبر من آمالي.
قال وهو يضع إبهاميه في جيبي سترته: أعتقد أنني سأتاجر أيضاً مع
جزر الهند الغربية في السكر والتبغ والروم. وأيضاً مع سيلان^(١)، خاصة
في أنياب الفيلة.

قلت: سوف تحتاج إلى عدد كبير جداً من السفن.

قال: أسطولٍ كاملٍ.

لقد تأثرت للغاية بروعة هذه الصفقات، وسألته أين تتاجر معظم
السفن التي يؤمّنها في الوقت الحالي،

فأجاب: لم أبدأ بالتأمين بعد، أنا منتظر الفرصة.

بطريقة ما، بدا هذا الأمر أكثر توافقاً مع تواجده في نُزُل برنارد. قلت
(بنبرة إدانة): آها!

- نعم. أنا أعمل في مكتب محاسبة، وأنتظر الفرصة.

سألت: هل العمل في مكتب محاسبة أمر مربح؟

«هل تقصد مربحاً بالنسبة إليّ؟» سأل ردّاً على ذلك.

- نعم؛ بالنسبة إليك.

«حسناً، لا؛ ليس بالنسبة إليّ» قال هذا كأنه شخص يحسب حساباً
دقيقاً ثم يقرر: ليس مربحاً بشكلٍ مباشر، وهذا يعني أنه لا يدر لي المال،
ويجب عليّ أن أعول نفسي.

(١) سريلانكا حالياً. المترجم.

من المؤكد أن هذا لم يكن له مظهر مريح، وهززت رأسي كما لو كنت أشير ضمناً إلى أنه سيكون من الصعب جمع الكثير من رأس المال التراكمي من مصدر الدخل هذا.

قال هربرت بوكيت: لكن أهم شيء هو أنك تبحث عن الفرصة، هذا هو الأمر الرئيسي. أنا أعمل في مكتب محاسبة، كما تعلم، وأنتظر الفرصة.

لقد أذهلني ذلك كإشارة ضمنية فريدة مفادها أنه لا يمكنك الخروج من مكتب المحاسبة، كما تعلم، والبحث عن الفرصة؛ لكنني أذعنت بصمتٍ لخبرته.

قال هربرت: ثم يأتي الوقت الذي ترى فيه مدخلاً لك. وتدخل المجال، وتنقض على الفرصة، وتصنع رأس مالك، ثم ها أنت ذا! عندما تكون قد قمت بتكوين رأس المال الخاص بك، فلن يكون لديك ما تفعله سوى استخدامه.

كان هذا مشابهاً جداً لطريقته في تدبره لقاءنا في الحديقة؛ مشابهاً للغاية. كما أن أسلوبه في تحمل فقره يتوافق تماماً مع أسلوبه في تحمّل تلك الهزيمة. بدا لي أنه يتلقى كل اللكمات والضربات بنفس الأسلوب الذي تلقّاها بها في ذلك الوقت. كان من الواضح أنه لم يكن لديه أي شيء حوله سوى أبسط الضروريات؛ إذ تبين أن كل ما لاحظته قد أرسل على حسابي من المقهى أو من مكان آخر.

ومع ذلك، بعد أن جمع ثروته في فكره، كان متواضعاً جداً إلى درجة أنني شعرت بالامتنان له لأنه لم يكن متعجباً. لقد كانت إضافة رائعة لطرقه الممتعة بطبيعتها، واستمرنا في الحديث بطريقة بديعة. في

المساء خرجنا للتنزه في الشوارع، وذهبنا إلى المسرح بتذاكر مخفضة؛ وفي اليوم التالي ذهبنا إلى القديس في كنيسة وستمنستر، وفي فترة ما بعد الظهر مشينا في الحدائق؛ وتساءلت عمن صنع كل حدوات الخيول هناك، وتمنيت لو أن جو فعل ذلك.

وبتقديرٍ معتدلٍ، بدا في يوم الأحد ذلك كأن عدة أشهر قد مرّت منذ أن تركت جو ويدي. وكان الفضاء الفاصل بيني وبينهما يشترك في فداحة هذا الشعور، وكانت مستنقعاتنا بعيدة كل البعد. بدا كأن هناك حشدًا من العوامل، الجغرافية والاجتماعية، الشمسية والقمرية، تجعل وجودي في كنيستنا القديمة بملاسي القديمة، في يوم الأحد الماضي، الأحد الأخير على الإطلاق، من المستحيلات. ومع ذلك، في شوارع لندن المزدهمة بالناس والمضادة بشكلٍ رائعٍ في الغسق، كانت هناك ذرّاتٌ كثيفة من اللوم لأنني تركت المطبخ القديم الفقير في المنزل بعيدًا جدًّا؛ وفي جوف الليل، شعرت بالخواء في قلبي مع خطوات حاجب يبدو كأنه محتال غير كفؤ يتسكع حول نزل برنارد، بحجة مراقبته.

في صباح يوم الاثنين في التاسعة إلا ربع، ذهب هربرت إلى مكتب المحاسبة لتسجيل حضوره، -وينتظر فرصته أيضًا، على ما أعتقد- وصحبته. كان من المقرر أن يأتي خلال ساعة أو ساعتين ليصطحبني إلى منطقة هامرسميث، وكان عليّ أن أنتظره. بدا لي أن البيض الذي يفقس منه صغار رجال التأمين يُحتضن في الغبار والحرارة، تمامًا مثل بيض النعام، وهذا انطلاقًا من الأماكن التي يذهب إليها هؤلاء العمالقة الناشئون صباح يوم الاثنين. كما أن مكتب المحاسبة الذي كان هربرت مساعدًا فيه لم يبدو في نظري مرصّدًا جيدًا على الإطلاق؛ كونه يقع في الطابق الثاني أعلى

الفناء الخلفي، ذا مقر متسخ في جميع تفاصيله، ويطل على مكتب خلفي آخر، بدلاً من منظر مفتوح.

انتظرت حتى الظهر، وذهبت إلى مبنى البورصة، ورأيت رجالاً على ملابسهم زغب القطن يجلسون هناك تحت فواتير الشحن، والذين اعتبرتهم تجاراً عظماء، على الرغم من أنني لم أستطع فهم سبب كونهم جميعاً مغتمين. عندما جاء هربرت، ذهبنا وتناولنا الغداء في مطعم مشهور كنت أبجله كثيراً في ذلك الوقت، لكنني أعتقد الآن أنه كان أكثر الخرافات دناءة في أوروبا، وحيث لم أستطع إلا أن ألاحظ، حتى في ذلك الوقت، أنه كان هناك الكثير من المرق على المفارش وعلى السكاكين وملابس النُّدل أكثر من شرائح اللحم نفسها. كانت هذه الوجبة مقابل سعر معتدل (بالنظر إلى الشحوم، التي لم نتحمل ثمنها)، عدنا إلى نُزل برنارد، وأحضرنا حقيقتي الصغيرة، ثم أخذنا عربة إلى هامرسميث. وصلنا إلى هناك في الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر، ومشينا مسافة قصيرة جداً حتى منزل السيد بوكيت. بعد أن رفعنا مزلاج البوابة، مررنا مباشرة إلى حديقة صغيرة تطل على النهر، حيث كان أطفال السيد بوكيت يلعبون. وما لم أخدع نفسي بشأن نقطة لا تتعلق بالتأكيد بمصالحي أو ممتلكاتي، فقد رأيت أن أطفال السيد والسيدة بوكيت لم يكبروا أو يترعرعوا، بل يتعثرون.

كانت السيدة بوكيت تجلس على كرسي حديقة تحت شجرة، تقرأ، واضعة ساقها على كرسي حديقة آخر؛ وكانت مريتا السيدة بوكيت تنظران حولهما بينما كان الأطفال يلعبون. قال هربرت: «يا أمي، هذا هو السيد الشاب ييب» عندها استقبلتني السيدة بوكيت بوجه ودود وبهي.

صاحت إحدى المربيتين لاثنتين من الأطفال: سيد أليك والآنسة جين، إذا قفزتما على الشجيرات فسوف تسقطان في النهر وتغرقان، وماذا سيقول والدكما حينها؟

في الوقت نفسه، التقطت هذه المربية منديل السيدة بوكيت، وقالت: «إنها سادس مرة تُسقطين فيها المنديل أيتها الأم!» عندها ضحكت السيدة بوكيت، وقالت: «شكرًا لك يا فلوبسون»، ثم جلست على كرسي واحد فقط، واستأنفت كتابها. اتخذ وجهها على الفور تعبيرًا متماسكًا وهادئًا كما لو كانت تقرأ منذ أسبوع، ولكن قبل أن تتمكن من قراءة بضعة أسطر، ثبتت عينها عليّ، وقالت: «آمل أن تكون والدتك بخير؟» لقد وضعني هذا الاستفسار غير المتوقع في صعوبة كبيرة إلى درجة أنني بدأت أقول بطريقة سخيفة إنه لو كان هناك أي شخص من هذا القبيل، فلن يكون لدي أي شك في أنها ستكون بخير تمامًا وستكون ممتنة جدًا وسترسل إليها تحياتها، عندما جاءت المربية لإنقاذي.

«حسنًا!» صرخت وهي تلتقط منديل الجيب: «هذه سابع مرة! ماذا يشغلك هذا المساء أيتها الأم!» استلمت السيدة بوكيت منديلها، في البداية بنظرة متفاجئة لا توصف كما لو كانت لم تره من قبل، ثم ضحكت إدراكًا، وقالت: «شكرًا لك يا فلوبسون»، ونسيت أمري، واستمرت في القراءة.

والآن حيث أصبح لديّ متسع من الوقت لإحصائهم، وجدت أنه كان هناك ما لا يقل عن ستة أطفال صغار، في مراحل مختلفة من التعثر. بالكاد أحصيتهم حتى سمعت صوتًا سابعًا، كأنه يأتي من الفضاء، ينتحب بحزن.

«إذا لم يكن هذا هو الرضيع!» قالت فلوبسون، ويبدو أنها تعتقد أن الأمر مذهب للغاية. «أسرعي يا ميلرز».

انسحبت ميلرز، وهي المربية الأخرى، إلى المنزل، وبالتدريج أُسكت نحيب الطفل، كما لو كان يبكي وشيء في فمه. كانت السيدة بوكيت تقرأ طوال الوقت، وكان لديّ فضول لمعرفة الكتاب.

كنا ننتظر، على ما أعتقد، أن يأتي السيد بوكيت إلينا؛ على أي حال، انظرنا هناك، ولذلك أتيحت لي الفرصة لمراقبة الظاهرة العائلية الرائعة التي تتمثل في أنه كلما تجوّل أي من الأطفال بالقرب من السيدة بوكيت في أثناء لعبهم، كانوا دائماً يتعثرون ويسقطون عليها، مما يسبّب لها اندهاشاً خاطفاً، ويسبب لهم النحيب المتواصل. كنت في حيرة من أمري تجاه هذا الجوّ المذهل، ولم أستطع إلا أن أفكر في تكهنات حول هذا الموضوع، حتى نزلت ميلرز مع الرضيع، وسلّمته إلى فلوبسون، وسلّمته فلوبسون إلى السيدة بوكيت، عندما سقطت هي أيضاً برأسها فوق السيدة بوكيت، ومعها الرضيع، ومسكناه أنا وهربرت.

«يا إلهي، فلوبسون!» قالت السيدة بوكيت وهي تنظر إلى كتابها للحظة: «الجميع يتعثرون!».

«رحمك الله، بالفعل، أيتها الأم!» ردّت فلوبسون، وكان وجهها شديد الاحمرار؛ «ماذا لديك هناك؟».

«ماذا لديّ هنا يا فلوبسون؟» سألت السيدة بوكيت.

«حسناً، إذا لم يكن هذا مسند قدمك!» صاحت فلوبسون. «وإذا أبقيته تحت تنورتك بهذه الطريقة، فسوف تتعثر جميعاً. هيا! خذي الرضيع أيتها الأم وأعطني كتابك».

عملت السيدة بوكيت بالنصيحة، وهددت الرضيع قليلاً في حجرها بعدم خبرة، بينما كان الأطفال الآخرون يلعبون في الأنحاء. لم يَدُم هذا إلا فترة قصيرة جداً، عندما أصدرت السيدة بوكيت أوامر عاجلة باصطحابهم جميعاً إلى المنزل من أجل القيلولة. وهكذا قمت بالاكشاف الثاني.

في تلك المقابلة الأولى، كانت العناية بأطفال بوكيت الصغار الصغيرة تتمثل في التعثر والاستلقاء بالتناوب.

في ظل هذه الظروف، عندما أدخل فلوبسون وميلرز الأطفال إلى المنزل، مثل قطيع صغير من الأغنام، وخرج السيد بوكيت منه للتعرف عليّ، لم أَتفاجأ كثيراً عندما وجدت أن السيد بوكيت رجلٌ نبيلٌ ذو تعبير حائر إلى حدٍّ ما على وجهه، وشعر رمادي متناثر على رأسه، كما لو أنه لا يدري كيف يضع الأشياء في نصابها.

الفصل الثالث والعشرون

قال السيد بوكيت إنه سعيد برؤيتي، ويتمنى ألا أشعر بالأسف لرؤيته. وأضاف مع ابتسامة من ابنه: «لأنني في الحقيقة لست شخصًا مخيفًا». لقد كان رجلًا ذا مظهر شاب، على الرغم من تعبيره الحائر وشعره الرمادي للغاية، وبدا سلوكه طبيعيًا تمامًا. أستخدم كلمة طبيعي بمعنى بسيط؛ كان هناك شيء كوميدي في أسلوبه المشتت الذهن، كما لو كان هزليًا تمامًا، لولا إدراكه الخاص بأنه كان قريبًا جدًا من ذلك. وبعد أن تحدثت معي قليلًا، قال للسيدة بوكيت، وهو مقطبًا حاجبيه الأسودين الكثيفين بشدة: «بليندا، أتمنى أن تكوني قد رحبت بالسيد بيب؟» فرفعت نظرها عن كتابها، وقالت: «نعم». ثم ابتسمت لي بشرود، وسألني إذا كنت أحب نكهة ماء الزهر. وبما أن السؤال لم يكن له أي تأثير، قريبًا كان أو بعيدًا، على أي معاملة سابقة أو لاحقة، فأنا أعتبره كأنه قد لُفِظ، مثل محادثاتها السابقة، بتفضل عام في الحديث.

اكتشفت في غضون ساعات قليلة، وربما أذكر على الفور، أن السيدة بوكيت كانت الابنة الوحيدة لفارس راحل نُصِّب بشكل عرضي، وكان لديه قناعة تامة بأن والده المتوفى كان سيصبح بارونًا لولا وجود شخص ما ذي معارضة قاطعة ناشئة عن دوافع شخصية تمامًا -نسيت من، إذا كنت أعرف- صاحب السعادة الملك، رئيس الوزراء، اللورد المستشار،

رئيس أساقفة كانتربري، أو أي شخص كان- وقد ألحق نفسه بالنبلاء تبريراً لهذه الحقيقة المفترضة تمامًا. أعتقد أنه حصل على وسام فارس لأنه اقترح قواعد اللغة الإنجليزية بخط القلم، في خطاب يائس منسوخ على ورق الرق، بمناسبة وضع حجر الأساس لمبنى ما، ولتسليم بعض الشخصيات الملكية أيضًا المجرفة أو الهاون. على أي حال، فقد أمر بتربية السيدة بوكيت من المهد كمن يجب بطبيعة الحال أن تتزوج من شخص ذي لقب، ومن يجب حمايته من اكتساب المعرفة بأمر بالمنزل مثل العامة.

نجح هذا الوالد الرشيد في حماية وحراسة السيدة الشابة، إلى درجة أنها نشأت على درجة عالية من الزينة، لكنها كانت لا حول لها ولا قوة، وعديمة الفائدة تمامًا. مع تكوين شخصيتها بهذه الطريقة بنجاح، التقت في زهرة شبابها بالسيد بوكيت: الذي كان أيضًا في زهرة شبابه، ولم يقرر تمامًا ما إذا كان سيصعد إلى مجلس اللورد المستشار، أو يلبس تاج الأسقف. وبما أن قيامه بهذا الأمر أو ذاك كان مجرد مسألة وقت، قام هو والسيدة بوكيت باغتنام الفرصة (إذا حكمنا من الوقت الذي اتخذاه، يبدو أنهما لم يضيعا أي وقت)، وتزوجا دون علم الوالد الرشيد. وكان الوالد الرشيد، الذي لم يكن لديه ما يمنحه أو يحجبه سوى مباركته، قد أغدق عليهما بهذا المهر بعد صراع قصير، وأبلغ السيد بوكيت أن زوجته «كنز يليق بالأمراء». لقد استثمر السيد بوكيت هذا الكنز كما قد يفعل الآخرون منذ ذلك الحين، وكان من المفترض أن يعود عليه ذلك بالمنفعة. ومع ذلك، كانت السيدة بوكيت عمومًا موضع نوع غريب من الشفقة والاحترام، لأنها لم تتزوج بشخص ذي لقب؛ بينما كان السيد

بوكيت هدفًا لنوعٍ غريبٍ من اللوم المتسامح، لأنه لم يحصل على لقب. أخذني السيد بوكيت إلى المنزل وأطلعني على غرفتي: كانت غرفة جميلة، ومفروشة بشكلٍ يسمح لي باستخدامها بشكلٍ مريحٍ كغرفة الجلوس الخاصة بي. ثم طرق باب غرفتين أخريين مماثلتين، وقدمني إلى ساكنيهما، بالاسم درامل وستارتوب. درامل، وهو شاب يبدو كأنه كبير في السن، متخصص في عمارة الهياكل الثقيلة، كان يصفر. أما ستارتوب، الأصغر سنًا ومظهرًا، فكان يقرأ وهو ممسك برأسه، كما لو كان يعتقد أنه في خطر تفجيرِه بشحنة قوية جدًا من المعرفة.

كان لدى كل من السيد والسيدة بوكيت مظهر ملحوظ كأنهما في عهدة شخص آخر، إلى درجة أنني تساءلت عمن يملك المنزل حقًا ويسمح لهما بالعيش هناك، حتى وجدت أن هذه القوة المجهولة هي الخدم. ربما كانت هذه طريقة سلسلة للعيش، فيما يتعلق بتجنب المتاعب؛ ولكن بدا الأمر كأنه باهظ الثمن، لأن الخدم شعروا أنه من واجبهـم تجاه أنفسهم أن يكونوا مراعين لأكلهم وشربهم، وأن يحتفظوا ببعض الصحبة في الطابق السفلي. لقد سمحوا للسيد والسيدة بوكيت بطاولة سخية للغاية، ومع ذلك بدا لي دائمًا أن أفضل جزء من المنزل يمكن النزول فيه هو المطبخ، على افتراض دائمًا أن النزول كان قادرًا على الدفاع عن النفس، لأنه قبل ذهابي إلى هناك بأسبوع، كتبت سيدة من الجيران، لم تكن العائلة على معرفة شخصية بها، لتقول إنها شاهدت ميلرز تصفع الرضيع. أثار هذا الأمر حزنًا شديدًا لدى السيدة بوكيت، التي انفجرت بالبكاء عند استلامها الرسالة، وقالت إنه أمر غير عادي ألا يهتم الجيران بشؤونهم الخاصة.

علمت بالتدريج، خصوصًا من هربرت، أن السيد بوكيت تلقى تعليمه

في مدرسة هارو وجامعة كامبريدج، حيث تفوق هناك؛ ولكن عندما حظي بسعادة الزواج بالسيدة بوكيت في وقت مبكر جدًا من حياته، ضعفت فُرصه، وتولى مهنة المعلم الخاص. بعد شحذ عدد من العقول الباهتة، والتي كان من اللافت للنظر أن آباءهم، عندما كانوا في مناصب مؤثرة، كانوا دائمًا يعدون بمساعدته في الترقية، لكنهم كانوا يسلمون دائمًا عندما يغادر الأبناء مقره، قد سئم من ذلك العمل المتواضع، وجاء إلى لندن. وهنا، بعد أن فشل تدريجيًا في الآمال العليا، صار «يقرأ» مع الشباب الذين كانت تنقصهم الفرص أو أهملوها، وقام بصقل شباب آخرين لمناسبات الخاصة، وحوّل مؤهلاته في صالح التنسيق والتصحيح الأدبي، واستطاع بتلك الموارد، بالإضافة إلى بعض الموارد الخاصة المعتدلة جدًا، أن يعيل المنزل الذي رأيته.

كان للسيد والسيدة بوكيت جارة متملقة؛ سيدة أرملة ذات طبيعة متعاطفة للغاية، كانت تتفق مع الجميع، وتبارك الجميع، وتوزع الابتسامات وتذرف الدموع على الجميع، حسب الظروف. كانت هذه هي السيدة كويلر، وكان لي شرف اصطحابها لتناول العشاء في يوم تنصبيي. لقد أوضحت لي على الدرج أن الأمر كان بمنزلة ضربة لعزيتي السيدة بوكيت أن يكون السيد بوكيت العزيز في حاجة إلى استقبال السادة الشباب للقراءة معه. لم يشملني ذلك، قالت لي في غمرة من الحب والثقة (في ذلك الوقت، كنت أعرفها منذ أقل من خمس دقائق)؛ لو كانوا جميعًا مثلي، لكان الأمر مختلفًا تمامًا.

قالت السيدة كويلر: لكن عزيتي السيدة بوكيت، بعد خيبة أملها المبكرة (وليس أن السيد بوكيت العزيز هو المسؤول عن ذلك)، تتطلب

الكثير من الفخامة والأناقة...

«نعم يا سيدتي» قلت لأمنعها، لأنني كنت أخشى أن تبكي. أضافت:
وهي ذات طبع أرستقراطي للغاية...

قلت مرة أخرى: «نعم يا سيدتي»، بنفس الهدف السابق.

- أنه من الصعب تحويل وقت واهتمام السيد بوكيت العزيز عن
السيدة بوكيت العزيزة.

لم أستطع منع نفسي من التفكير في أن الأمر قد يكون من الأصعب
على السيدة بوكيت العزيزة إذا حوّل وقت واهتمام الجزار عنها؛ لكنني لم
أقل شيئاً، وكان في الواقع ما يكفي لفعله هو مراقبة سلوكيات صحبتي
بخجل.

لقد وصل إلى علمي، من خلال الحديث بين السيدة بوكيت ودرامل
بينما كنت متنبهاً لسكيني وشوكتي وملعقتي وكؤوسي وغيرها من أدوات
الدمار الذاتي، أن درامل، واسمه بالمعمودية بنتلي، كان في الواقع الوريث
الثاني لبارون ما. ويبدو أيضاً أن الكتاب الذي رأيت السيدة بوكيت تقرأه
في الحديقة كان عن أصحاب المقامات الرفيعة، وأنها تعرف بالضبط
التاريخ الذي كان سيظهر فيه جدها في الكتاب، هذا إذا كان قد أخذ لقب
بارون. لم يقل درامل الكثير، ولكن بطريقته المحدودة (أخذت عنه أنه
شخص متجهّم) تحدّث كفرّد من النخبة، وأنس بالسيدة بوكيت كامرأة
وأخت. لم يُظهر أحد سواهم والسيدة كويلر، الجارة المتملقة، أي اهتمام
بهذا الجزء من المحادثة، وبدا لي أنه كان مؤلماً لهربرت؛ لكن بدا أنه
سيستمر لفترة طويلة، عندما جاء الخادم بخبرٍ عن فاجعة منزلية. في
حقيقة الأمر، كان الطاهية قد بددت لحم البقر. ولدهشتي التي لا توصف،

رأيت الآن، ولأول مرة، السيد بوكيت يخفف عن نفسه من خلال أداء عرض أذهلني باعتباره استثنائياً للغاية، ولكنه لم يترك أي تأثير على أي شخص آخر، والذي سرعان ما أصبح مألوفاً لديّ مثل البقية. وضع سكين تقطيع اللحم والشوكة جانباً، حيث كان منشغلاً في تقطيع اللحم في تلك اللحظة، ووضع يديه في شعره المشعث، وبدا أنه يبذل جهداً غير عادي لرفع نفسه من خلاله. وعندما فعل ذلك، ولم يرفع نفسه على الإطلاق، واصل بهدوء ما كان يفعله.

ثم غيرت السيدة كويلر الموضوع وبدأت في إطرائي. أعجبني الأمر بضع لحظات، لكنها واصلت إطرائي بشدة إلى درجة أن المتعة سرعان ما انتهت. كانت لديها أسلوب متلوٍ في الاقتراب مني عندما تظاهرت بأنها مهتمة بشكل حيوي بالأصدقاء والمناطق التي تركتها ورائي، كان الأسلوب في مجمله أفعوانياً للغاية؛ وعندما كانت تقفز في حديثها من حين لآخر إلى ستارتوب (الذي أفاد بالقليل جداً)، أو إلى درامل (والذي أفاد بأقل منه)، كنت أحسدهما على وجودهما على الجانب الآخر من الطاولة.

بعد العشاء، قدّم الأطفال، وأدلت السيدة كويلر بتعليقات إعجاب على أعينهم وأنوفهم وأرجلهم، كونها طريقة ذكية لتحسين عقولهم. كان هناك أربع فتيات صغيرات، وصبيان صغيران، إلى جانب الرضيع الذي ربما كان فتاة أو صبياً، وخليفته الرضيع التالي الذي لم يعرف جنسه بعد. لقد أحضرهم فلوبسون وميلرز، كما لو أن ضابطي الصف هذين كانا يجندان الأطفال في مكان ما وقد قاما بتجنيدهم، بينما نظرت السيدة بوكيت إلى النبلاء الصغار، باعتبار ما سوف يكونون، كما لو أنها كان لها

شرف فحصبهم من قبل، ولكن لم تكن كَوْنَتْ رأياً عنهم بعد.
«هيا!» قالت فلوبسون: أعطيني شوكتك أيتها الأم، وخذي الرضيع.
ليس هكذا وإلا ستضعين رأسه تحت الطاولة.

هكذا نصحت السيدة بوكيت، فأخذت الرضيع من الاتجاه الآخر،
ووضعت رأسه فوق الطاولة؛ الأمر الذي أعلن للجميع من خلال ارتجاج
جبار.

«يا إلهي يا إلهي!» قالت فلوبسون: أعيديه إليّ أيتها الأم؛ الآنسة
جين، تعالي وارقصي للرضيع، هيا!

خرجت إحدى الفتيات الصغيرات، وهي مجرد طفلة صغيرة بدا أنها
تولّت قبل الأوان بعض مسؤولية الآخرين، من مكانها بجانبها، ورقصت
مع وإلى الرضيع حتى توقف عن البكاء، وضحك. بعد ذلك، ضحك
جميع الأطفال، وضحك السيد بوكيت (الذي حاول في هذه الأثناء رفع
نفسه من شعره مرتين)، وضحكنا جميعاً وسعدنا.

قامت فلوبسون بشني الطفل عند مفاصله بقوة مثل الدمية الهولندية،
ثم وضعه بأمان في حضن السيدة بوكيت، وأعطته كسرة البندق ليلعب
بها؛ وفي الوقت نفسه أوصت السيدة بوكيت بملاحظة أن مقابض تلك
الأداة من غير المرجح أن تتواءم مع عينيه، وكلفت الآنسة جين بالعتاية
به. بعد ذلك، غادرت الميربتان الغرفة، ودخلتا في شجار حاد على الدرج
مع خادم مستهتر كان يقدم العشاء، ومن الواضح أنه فقد نصف أزراره
باللعب بها على طاولة القمار.

لقد شعرت بعدم الارتياح الشديد بسبب دخول السيدة بوكيت في
نقاش مع درامل حول اثنين من البارونات، بينما كانت تأكل شرائح

برتقالة منقوعة في السكر والنيذ، ناسية تمامًا أمر الرضيع الذي كان في حجرها، والذي فعل أكثر الأشياء فظاعة بكسارة البندق. أخيرًا، أدركت جين الصغيرة أن رأس الرضيع معرّض للخطر، فغادرت مكانها بهدوء، وباستخدام العديد من الحيل الصغيرة أقنعته بترك السلاح الخطير بعيدًا. السيدة بوكيت أنهت برتقالتها في نفس الوقت تقريبًا، ولم توافق على ذلك، قالت لجين:

- أيتها الطفلة المشاغبة، كيف تجرئين؟ اذهبي واجلسي فورًا!
«أمي العزيزة» صرخت الفتاة الصغيرة، «كان الرضيع ليفقع عينيه».
«كيف تجرئين على إخباري بذلك؟» ردّت السيدة بوكيت، «اذهبي واجلسي على كرسيك فورًا!».

كانت السيدة بوكيت حانقة للغاية، إلى درجة أنني شعرت بالخجل الشديد، كما لو أنني بنفسني فعلت شيئًا لإثارة حفيظتها.
«بليندا»، اعترض السيد بوكيت، من الطرف الآخر من الطاولة، «كيف يمكنك أن تكوني غير معقولة إلى هذا الحد؟ تدخلت جين فقط لحماية الرضيع».

قالت السيدة بوكيت: لن أسمح لأي شخص بالتدخل. أنا مندهشة يا ماثيو لأنك يجب أن تعرضني لإهانة التدخل.

«يا إلهي!» صاح السيد بوكيت في نوبة من اليأس المقفر، «هل يفقد الأطفال الرضع حياتهم بسبب كسارة البندق، ولا يجدون من ينقذهم؟».
قالت السيدة بوكيت وهي تنظر بنظرة مهيبة إلى ذلك المجرم الصغير البريء: لن تتدخل جين في شؤوني. أتمنى لو عرفت رأي جدي المسكين. حقًا يا جين!

وضع السيد بوكيت يديه في شعره مرة أخرى، وهذه المرة رفع نفسه بضع بوصات عن كرسیه. «أستمعون جميعاً!» صاح بعجزٍ مندهشاً أمام الجميع. «يجب أن يموت الأطفال بكسارة البندق، لمعرفة رأي الأجداد التعسین!» ثم جلس مرة أخرى وصمت.

نظرنا جميعاً بشكلٍ محرجٍ إلى مفرش المائدة في أثناء حدوث ذلك. تبعته فترة صمت، قام خلالها الرضيع البريء، الذي يتعذر السيطرة عليه، بسلسلة من القفزات والصيحات تجاه جين الصغيرة، التي بدت لي أنها العضو الوحيد في الأسرة (بغض النظر عن الخدم) الذي كان لديه أي معرفة مؤكدة به.

قالت السيدة بوكيت: السيد درامل، هلا قرعت الجرس لفلوبسون؟ جين، أيتها الطفلة العاقة، اذهبي للنوم. والآن يا رضيعي، تعال مع أمك! كان الطفل مثال الشرف، واحتج بكل قوته. وثني نفسه بالعكس فوق ذراع السيدة بوكيت، وعرض أمامنا زوجاً من الأحذية المجدولة وكاحلين بغمازات بدلاً من وجهه الناعم، وشن نوبة من العصيان. وقد نال مطلبه بعد كل هذا، لأنني رأيته من خلال النافذة في غضون دقائق قليلة، حيث قامت جين الصغيرة برعايته.

وحدث أن الأطفال الخمسة الآخرين تركوا على مائدة العشاء، بسبب ارتباط فلوبسون ببعض المهام الخاصة، وعدم اهتمام أي شخص آخر بهم. وهكذا أدركت العلاقات المتبادلة بينهم وبين السيد بوكيت، والتي تمثلت على النحو التالي. نظر إليهم السيد بوكيت لعدة دقائق، وقد تزايدت الحيرة على وجهه وتجدد شعره، كما لو أنه لا يستطيع أن يفهم كيف وصلوا إلى هذا المنزل وأقاموا فيه، ولماذا لم تلق الطبيعة

بمسؤوليتهم على عاتق شخص آخر. بعد ذلك، وبطريقة تبشيرية باردة، سألهم بعض الأسئلة؛ مثل لماذا كان لدى جو الصغير هذا الثقب في كشكشة ياقته، والذي قال، يا أبي، كانت فلوبسون ستخيطه عندما يكون لديها الوقت، وكيف التهمت إصبع فاني، والتي قالت، يا أبي، كانت ميلرز ستقوم بوضع ضمادة عليه لكنها نسيت. ثم تحول إلى الحنان الأبوي، وأعطى كلاً منهم شلناً، وقال لهم أن يذهبوا ويلعبوا؛ وبعد ذلك عندما خرجوا، بذل جهداً قوياً للغاية لرفع نفسه من شعره، وصرف النظر عن الموضوع الميؤوس منه.

في المساء كان ثمة تجديد في النهر. نظرًا إلى أن درامل وستارتوب كان لدى كل منهما قارب خاص، قررت أن أقوم بتجهيز قاربي، بهدف إقصائهما. لقد كنت جيدًا جدًا في معظم التمارين التي كان فتيان الريف بارعين فيها، ولكن بما أنني كنت مدرّكًا لرغبتني في أناقة الأسلوب في نهر التايمز، ناهيك بالأنهار الأخرى، فقد وضعت نفسي على الفور تحت تعاليم سيد فاز بمركب كجائزة، والذي تموضع عند السلالم على النهر، وقد تعرفت عليه من قبل حلفائي الجدد. لقد أربكني كثيرًا بقوله إنني أملك ذراع حداد. إذا كان في إمكانه أن يعرف إلى أي مدى كادت هذه المجاملة أن تفقده تلميذه، فإنني أشك في أنه كان سيقولها.

كانت هناك صينية عشاء بعد عودتنا إلى المنزل ليلاً، وأعتقد أننا جميعًا كنا سنستمع بوقتنا، لولا حدوث حدث منزلي مزعج إلى حد ما. كان السيد بوكيت منشراح الصدر عندما جاءت خادمة وقالت:

- إذا سمحت يا سيدي، أود أن أتحدث إليك.

«التحدث إلى سيدك؟» قالت السيدة بوكيت، وقد أثّرت حفيظتها مرة أخرى. «كيف يمكنك التفكير في شيء من هذا القبيل؟ اذهبي وتحديثي إلى فلوبسون. أو تحدث معي، في وقت آخر».

ردّت الخادمة: أرجو المَعذرة يا سيدتي، أود أن أتحدث على الفور، وأن أتحدث إلى سيدي.

عندها، خرج السيد بوكيت من الغرفة، وقمنا بأخذ أماكننا حتى عاد.

«هذا شيء جميل يا بليندا!» قال السيد بوكيت، وهو يعود بوجه معبر عن الحزن واليأس: ها هي الطباخة ترقد على أرضية المطبخ ثملة وفاقة الوعي، ومعها صرة كبيرة من الزبدة الطازجة في الخزانة جاهزة لبيعها!

أظهرت السيدة بوكيت على الفور اللطف الشديد، وقالت: هذا من فعل صوفيا البغيضة!

«ماذا تقصدين يا بليندا؟» سأل السيد بوكيت.

قالت السيدة بوكيت: صوفيا أخبرتك. ألم أرها بعيني وأسمعها بأذني، تدخل الغرفة الآن وتطلب التحدث إليك؟

أجاب السيد بوكيت: لكن، ألم تأخذني إلى الطابق السفلي يا بليندا، وأرتني المرأة والصرة أيضًا؟

قالت السيدة بوكيت: وهل تدافع عنها يا ماثيو لأنها تسببت في الأذى؟

أطلق السيد بوكيت تأوّهًا حزنيًا.

«هل أنا حفيدة جدي ليس لديّ أي مكانة في المنزل؟» قالت السيدة بوكيت، «إلى جانب ذلك، كانت الطاهية دائمًا امرأة لطيفة جدًا ومحترمة،

وقالت بمتهى البساطة عندما جاءت لتعتني بالمطبخ، إنها شعرت أنني ولدت لأكون دوقة».

كانت هناك أريكة حيث يقف السيد بوكيت، سقط عليها في وضع المصارع المحتضر^(١). وقال بصوت أجوف وهو لا يزال على هذه الوضعية: «عمت مساءً يا سيد بيب» عندما رأيت أنه من المناسب أن أذهب إلى الفراش واتركه.

(١) إشارة إلى تمثال المصارع المحتضر، وهو تمثال نصف راقد من الرخام الروماني القديم- المترجم.

الفصل الرابع والعشرون

بعد مرور يومين أو ثلاثة أيام، عندما استقررت في غرفتي وذهبت إلى لندن عدة مرات، وطلبت كل ما أحتاج إليه من التجار، تحدثنا أنا والسيد بوكيت معًا فترة طويلة. لقد كان يعرف عن مسيرتي المهنية المقصودة أكثر مما أعرف أنا، لأنه أشار إلى ما أخبره به السيد جاغرز أنني لا أهيأ لأي مهنة، وأنني يجب أن أحصل على تعليم جيد بما يكفي لما قدر لي وهو أن أتمكن من «الحفاظ على مكانتي» وسط الشباب الأثرياء. لقد أذعنت بالطبع، فلم يكن بيدي حيلة.

لقد نصحتني بالذهاب إلى أماكن معينة في لندن، لمجرد اكتساب المبادئ الأساسية كلما أردت، وتكليفه بشرح وإدارة دراستي بأكملها. كان يأمل أن أتمكن من خلال المساعدة الرشيدة من أن أواجه القليل مما يشبط عزيمتي، وأن أتمكن قريبًا من الاستغناء عن أي مساعدة غير مساعدته. من خلال طريقته في قول هذا، وأكثر من ذلك بكثير لغرض مماثل، وضع نفسه في علاقة خاصة معي بطريقة مثيرة للإعجاب؛ ويمكنني أن أصرح على الفور أنه كان دائمًا متحمسًا ومبجلًا للغاية لاتفاقه معي، إلى درجة أنه جعلني متحمسًا ومبجلًا لاتفاقي معه. إذا كان قد أظهر اللامبالاة كمعلم، فليس لدي أدنى شك في أنني كنت سأرد عليه بالمثل كتلميذ؛ لكنه لم يعطيني مثل هذا العذر، وكلُّ منا قدَّر الآخر حقَّ قدره. كما أنني في تعاليمه

لي لم أرَ منه قَطُّ أي شيء مثير للسخرية، أو أي شيء سوى كل ما هو جدي وصادق وصالح.

عندما سُويت هذه النقاط نُفِّذت وبدأت العمل بجدية، خطر لي أنه إذا تمكنت من الاحتفاظ بغرفة نومي في نُزل برنارد، فإن حياتي ستكون متنوعة بشكل مقبول، في حين أن سلوكياتي لن تكون على الإطلاق أسوأ وأنا في صحبة هربرت. لم يعترض السيد بوكيت على هذا الترتيب، لكنه ألحَّ على أنه قبل اتخاذ أي خطوة فيه، يجب تقديمه إلى وصيِّي. شعرت أن هذه الحساسية نشأت بسبب أن الخطة ستوفّر على هربرت بعض النفقات، لذلك ذهبت إلى ليتل برستن وأخبرت السيد جاغرز برغبتي.

قلت: إذا كان في إمكاني شراء الأثاث المخصص لي الآن، وبعض الأشياء الصغيرة الأخرى، سأشعر أنني في بيتي تمامًا هناك.

«حسنًا!» قال السيد جاغرز بضحكة قصيرة. «لقد أخبرتك أنك ستنسجم مع هربرت. حسنًا! كم تريد؟».

قلت إنني لا أعرف.

«هيا!» ردَّ السيد جاغرز. «كم تريد؟ خمسين جنيهًا؟».

– أوه، هذا كثيرًا جدًّا.

«خمسة جنيهات؟» قال السيد جاغرز.

لقد كان هذا نزولًا ساحقًا، إلى درجة أنني قلت في خيبة: أوه، أكثر من ذلك.

«أكثر من ذلك، حسنًا!» رد السيد جاغرز وهو يتربص بي، ويداه

في جيبيه، ورأسه على جانب واحد، وعيناه على الحائط خلفي «إلى أي مدى؟».

قلت مترددًا: من الصعب للغاية تحديد المبلغ.

«هيا!» قال السيد جاغرز. «دعنا ننتهي من الأمر. أكثر مرتين؛ هل يصلح هذا؟ ثلاث مرات؛ هل يصلح هذا؟ أربعة مرات؛ هل يصلح هذا؟».

قلت إنني أعتقد أن ذلك سيكون مبلغًا سخياً.

«أربع مرات سيكون سخياً، أليس كذلك؟» قال السيد جاغرز وهو يعقد حاجبيه: «والآن، ما نتاج أربعة في خمسة؟».

– النتائج؟

«آه!» قال السيد جاغرز؛ «كم تريد؟».

قلت مبتسماً: أفترض أن تقدره بعشرين جنيهاً.

قال السيد جاغرز وهو يهز رأسه بدراية ومشاكسة: لا يهم ما أفدّره يا صديقي. المهم هو ما تقدره أنت.

– عشرون جنيهاً بلا شك.

«ويميك!» قال السيد جاغرز وهو يفتح باب مكتبه. «خذ أمر السيد بيب المكتوب، وادفع له عشرين جنيهاً».

لقد تركت هذه الطريقة المميزة في ممارسة الأعمال انطباعاً قوياً لديّ، ليس من النوع الجيد. لم يضحك السيد جاغرز قطُّ؛ لكنه كان يرتدي حذاءً عظيماً لامعاً يصدر صريراً، وفي أثناء حفاظه على توازنه في هذا الحذاء، ورأسه الكبير منحني إلى الأسفل وحاجباه ملتصقان ببعضهما البعض، في انتظار الإجابة، كان أحياناً يتسبب في صرير الحذاء، كما لو

كان يضحك بطريقة جافة ومربية. وبما أنه خرج الآن، وبما أن ويميك كان نشطاً وثرثراً، فقد قلت لويميك إنني لم أفهم أسلوب السيد جاغرز. أجاب ويميك: أخبره بذلك، وسيعتبر ذلك مجاملة. إنه لا يقصد أنه يجب عليك أن تعرف الإجابة دائماً. بدوت متفاجئاً، فقال: أوه! الأمر ليس شخصياً؛ إنه يتعلق بالعمل، العمل فقط.

كان ويميك جالساً إلى مكتبه، يتناول الغداء ويطحن قطعة بسكويت جافة صلبة حيث يلقي قطعاً منها بين حين وآخر في فتحة فمه الشبيهة بالشق كأنه يرسلها بالبريد.

قال ويميك: يبدو لي دائماً كما لو أنه ينصب فخاً للناس ويراقبه. فجأة، كليك، قد وقعوا في الشرك!

دون أن أشير إلى أن مصائد البشر ليست من كماليات الحياة، قلت أعتقد أنه كان ماهراً جداً.

«كالأرض الغور»، قال ويميك، «مثل أستراليا». مشيراً بقلمه إلى أرضية المكتب، للتعبير عن أن أستراليا عُرف عنها، من أجل التشبيه، أنها تقع في الجانب الآخر تماماً من الكرة الأرضية. وأضاف ويميك وهو يوجه قلمه إلى الورق: إذا كان هناك شيء أكثر غوراً، فسيكون هو.

ثم قلت إنني أفترض أن لديه عملاً جيداً، فقال ويميك: «ممتاز!» ثم سألت إذا كان هناك العديد من الموظفين؟ فأجاب:

نحن لا نعتمد كثيراً على الموظفين، لأنه لا يوجد سوى جاغرز واحد، ولن يقبل الناس بالتعامل مع غيره. نحن أربعة موظفين فقط. هل ترغب في رؤيتهم جميعاً؟ أنت واحد منا الآن، كما يمكنني القول. قبلت عرض السيد ويميك وعندها وضع كل البسكويت في فمه،

ودفع إليّ أموالِي من صندوق النقد الموجود في الخزانة، احتفظ بمفتاح الخزانة في مكان ما أسفل ظهره وأخرجه من ياقة معطفه مثل الضفيرة الحديدية، ذهبنا إلى الطابق العلوي. كان المنزل مظلمًا ومتهالكًا، ويبدو أن الأكتاف الدهنية التي تركت بصماتها في غرفة السيد جاغرز كانت تتنقل صعودًا وهبوطًا على الدرج لسنوات. في الطابق الأول الأمامي، كان الموظف الذي بدا كأنه شيء ما بين صاحب الحانة وصائد الفئران -وهو رجل كبير شاحب ومتنفخ ومتورم- يتعامل بيقظة مع ثلاثة أو أربعة أشخاص ذوي مظهر رث، كان يعاملهم بطريقة غير رسمية كما يُعامل مع كل من يساهم في ملء خزائن السيد جاغرز. قال السيد ويميك عند خروجنا: «نجمع الأدلة، من أجل سراي محكمة بيلي». في الغرفة التي فوقها، كان هناك موظف يشبه الكلب الصغير المترهل ذا الشعر المنسدل (يبدو أن شعره قد أهمل منذ أن كان جروًا) كان يتعامل بنفس الطريقة السابقة مع رجل واهن العينين، قدمه لي السيد ويميك على أنه يعمل في صهر المعادن، وأنه كان يُبقي وعاءه مغليًا دائمًا، ويمكنه أن يذيب أي شيء يحلّو لي، والذي كان يتصبّب عرقًا لونه أبيض للغاية، كما لو كان يجرب فنه على نفسه. في غرفة خلفية، كان هناك رجل ذو كتفين عاليتين يعاني من ألم في وجهه المربوط بقماش قدر، ويرتدي ملابس سوداء قديمة تبدو كأنها مشمعة، وكان ينحني فوق عمله في صنع نسخ واضحة من ملاحظاته عن السידين الآخرين للسيد جاغرز.

كان هذا كل شيء. وعندما نزلنا إلى الطابق السفلي مرة أخرى، قادني ويميك إلى غرفة وصيّ، وقال: لقد رأيت هذه بالفعل.

قلت عندما لفت نظري مرة أخرى القالبان المقيتان بالأعين التي تنظر شزّرًا، «ترى من هؤلاء؟».

«هؤلاء؟» قال ويميك وهو يجلس على كرسي وينفض الغبار عن الرؤوس المخيفة قبل أن ينزلها أرضًا. «هذان اثنان معروفان. عميلان شهيران منحونا صيتًا عظيمًا. هذا الرجل (لا بد أنك نزلت في الليل واختلست النظر إلى المحبرة لتحصل على هذه اللطخة على حاجبك، أيها المجرم!) قتل سيده، وقد خطط للأمر جيدًا، بالنسبة إلى شخص لم يكن على معرفة جيدة بالأدلة».

«هل من المرجح أن يكون فعل ذلك؟» سألته وأنا أترجع عن القلب، بينما بصق ويميك على حاجبه وفركه بكمه.

«مرجح؟ إنه من المؤكد، كما تعلم. صُنع القلبان في سجن نيوجيت، مباشرة بعد إعدام صاحبيهما. كان لديك اهتمام خاص بي، أليس كذلك أيها الداهية العجوز؟» قال ويميك. ثم أتبع هذه المناجاة بلمس دبوس الزينة الذي يمثل سيدة وصفصافة متدلّية عند قبر عليه جرة، قائلاً: لقد صنعته خصيصي من أجلي، تصور!

قلت: هل تعرف هذه السيدة؟

«لا» رد ويميك. «خليلته فحسب. (لقد أحببت خليلتك، أليس كذلك؟) لا؛ لا وجود لسيدة في هذه القضية، يا سيد بيب، باستثناء واحدة، ولم تكن من هذا النوع النحيل الذي يشبه هذه السيدة، ولم تكن لتتمكن من الإمساك بها وهي تعتني بهذه الجرة، إلا إذا كان فيها مشروب ما.» ومع توجيه انتباهه إلى الدبوس الزينة الخاص به، وضع ويميك القلب جانبًا، وقام بتلميع الدبوس الزينة بمنديل جيبه.

سألت: هل وصل المجرم الآخر إلى نفس النهاية؟ لديه نفس الهيئة.

قال ويميك: «أنت على حق. إنها الهيئة الأصلية. كما لو أن إحدى

فتحتي أنفه التَّقَطت بشعر حصان وخطاف صيد صغير. نعم، لقد وصل إلى نفس النهاية؛ النهاية الطبيعية، أوكد لك. لقد قام بتزوير الوصايا، هذا المزور البارع، إن لم يقتل المورثين أيضًا. «لقد كنت رجلًا نبيلًا، رغم ذلك» (كان السيد ويميك يناجي القلب مرة أخرى)، «وقلت إنك تستطيع كتابة اللغة اليونانية. ياه، أيها المتفاخر! كم كنت كاذبًا! لم أقابل كاذبًا مثلك قط!» قبل أن يضع ويميك صديقه الراحل على الرف مرة أخرى، لمس أكبر خواتم حداده وقال: لقد أوصى بشرائه لي، في اليوم السابق لإعدامه.

وبينما كان يضع القلب الآخر وينزل عن الكرسي، خطرت في ذهني فكرة أن جميع جواهره الشخصية مستمدة من مصادر ماثلة. وبما أنه لم يُظهر أي خوف بشأن الموضوع، فقد غامرت بالسماح لنفسي بطرح السؤال عليه عندما وقف أمامي وهو ينفض الغبار عن يديه.

فأجاب: نعم، هذه كلها هدايا من هذا النوع. واحد يجلب الآخر، كما ترى؛ هكذا تسير الأمور. أنا دائمًا آخذهم. إنها تحف فنية وممتلكات. قد لا تكون قيمتها كبيرة، لكنها في نهاية المطاف ممتلكات محمولة. هذا قد لا يعني لك شيئًا بمستقبلك المتوقع، ولكن بالنسبة إليّ، نجمي المرشد دائمًا هو «الحصول على الممتلكات المحمولة».

عندما قدمت إجلالاً لهذه الحقيقة، تابع قائلاً بطريقة ودية:

- إذا لم يكن لديك أي شيء أفضل لتفعله في وقت ما، فلن تمنع في القدوم لرؤيتي في الورث، يمكنني أن أستضيفك، وسيكون ذلك شرفًا لي. ليس لديّ الكثير لأريك إياه سوى اثنتين أو ثلاث من التحف الفنية التي قد ترغب في إلقاء نظرة عليها؛ وأنا مغرم بالحديقة والمجلس الصيفي لديّ.

قلت إنني سأكون سعيدًا بقبول ضيافته.

قال: شكرًا. إذن سأنتظر قدومك عندما يكون ذلك مناسبًا لك. هل تناولت العشاء مع السيد جاغرز بعد؟
- ليس بعد.

قال ويميك: حسنًا، سوف يقدم لك النبيذ، النبيذ الجيد. سأقدم لك أنا شراب البنش، لن يكون سيئًا. والآن سأخبرك بشيء. عندما تذهب لتناول العشاء مع السيد جاغرز، انظر إلى مدبرة منزله.
- هل سأرى شيئًا استثنائيًا للغاية؟

قال ويميك: حسنًا، سترى وحشًا بريًا رؤوس. ليس استثنائيًا للغاية، سوف تخبرني أنت. رأيي هو أن ذلك يعتمد على مدى الضراوة الأصلية للوحش، وعلى قدر الترويض. لن يقلل هذا من رأيك في صلاحيات السيد جاغرز. أبقى عينيك على الأمر.

أخبرته أنني سأفعل ذلك، بكل الاهتمام والفضول اللذين أثارهما تمهيده. وبينما كنت أغادر، سألني إذا كنت أرغب في تخصيص خمس دقائق لرؤية السيد جاغرز «وهو يعمل؟».

لعدة أسباب، ليس أقلها أنني لم أكن أعرف بوضوح ما يفعله السيد جاغرز الآن، أجبته بالإيجاب. ذهبنا إلى المدينة، ووصلنا إلى محكمة جنح مزدحمة، حيث كان قريب بالدم (بالمعنى الإجرامي) للشخص المتوفى، صاحب ذوق مذهل في دبابيس الزينة، يقف عند الحاجز، ويمضغ شيئًا بضيقة؛ بينما كان وصيي يحقق مع امرأة أو يستجوبها - لا أعرف أيهما - وقد أصابها والقضاة وكل الحضور بالرهبة. إذا قال أي شخص، مهما كانت درجته، كلمة لا يوافق عليها، فإنه يطلب على الفور

«تدوينها» إذا لم يعترف أي شخص، قال: «سأخذ اعترافك بالقوة!»، وإذا اعترف أي شخص، قال: «لقد تمكنت منك الآن!» ارتجف القضاة تحت عضة واحدة على إصبعه. أما اللصوص ومن أُلقي القبض عليهم قد تعلقوا بافتتانٍ مروع بكلماته، وانكمشوا عندما اتَّجهت شعرة من حاجبيه في اتجاههم. لم أتمكن من تحديد أي جانب كان يدعمه، لأنه بدا لي كأنه يطحن المكان بأكمله في طاحونة؛ كل ما أعرفه هو أنه عندما تسَلَلْتُ على رؤوس أصابعي، لم يكن يقف إلى جانب المنصة؛ لأنه كان يجعل ساق القاضي العجوز الذي ترأس الجلسة متشنجة تمامًا تحت الطاولة، من خلال إدانته لسلوكه كممثل للقانون والعدالة البريطانيين في كرسيه ذلك اليوم.

الفصل الخامس والعشرون

بينتلي درامل كان شخصًا متجهماً للغاية إلى درجة أنه عندما يتناول كتابًا كان كأن كاتبه قد ألحق به الأذى، وعندما يتعامل مع أحد معارفه لا يحدث هذا بنفسٍ أكثر رضا. كان ضخّم الجثة، ثَقِيل الحركة، والفهم، ملامحه راكدة، ولسانه الكبير الأخرق بدا كأنه راقدٌ في فمه كما كان هو نفسه يرقد في الغرفة، كان خاملاً، مختلاً، بخيلاً، متحفّظاً، ومثيراً للشك. انحدر من أثرياء سومرستشاير، الذين احتضنوا هذا المزيج من الصفات حتى اكتشفوا أنه كان بالغاً وأحمق. وهكذا، جاء بنتلي درامل إلى السيد بوكيت عندما كان أطول منه بمقدار رأس، ورأسه أكثر غباء من معظم السادة.

دُلَّ ستارتوب من قِبَل أم لينة العريكة، أبقته في المنزل عندما كان من المفترض أن يذهب إلى المدرسة، لكنه كان مرتبطاً بها بإخلاص، ومعجباً بها أشد الإعجاب. كان يتمتع بركة ملامح أنثوية، وكان، كما قال لي هيربرت: «كما قد ترى، رغم أنك لم ترها قطُّ، هو يشبه والدته تماماً». كان من الطبيعي أن آنس به أكثر بكثيرٍ من درامل، وإنه، حتى في الأمسيات الأولى من رحلاتنا بالقوارب، كنا نعود أنا وهو إلى المنزل جنباً إلى جنب، ونحدث من قارب إلى آخر، بينما كان بنتلي درامل يأتي وحده في أعقابنا، أسفل الضّفاف المائلة ووسط النباتات. كان يزحف دائماً نحو

الشاطئ، كأنه مخلوق برمائي مزعج، حتى عندما يدفعه المد بسرعة في طريقه؛ ودائمًا أتذكره وهو يأتي خلفنا في الظلام أو عكس التيار، عندما كان قاربانا يخترقان غروب الشمس أو ضوء القمر في منتصف النهر.

كان هربرت رفيقي وصديقي الحميم، كنت أترك له نصف حصّة قاريبي، كلما أتى إلى هامرسميث؛ وكثيرًا ما كانت حيازتي لنصف غرفه تقودني إلى لندن. وكنا نتنقل بين المكانين طوال الوقت.

لا يزال لديّ شغف بالطريق (على الرغم من أنه ليس طريقًا ممتعًا كما كان في ذلك الوقت)، وقد تكون هذا الشغف في ظل تأثير الشباب والأمل الناجم عن قلة الحنكة.

بعد مُضي شهر أو شهرين وأنا في كنف عائلة السيد بوكيت، حضر السيد والسيدة كامبلا. كانت كامبلا أخت السيد بوكيت. وحضرت أيضًا جورجيانا، التي رأيتها في منزل الأنسة هافيشام في نفس المناسبة. كانت ابنة عمهما، وهي امرأة عازبة تعاني من عسر الهضم، وكانت تعتبر تزمتهما تدينًا، وأن كبدها هو مصدر الحب لديها. هؤلاء الناس كرهوني بسبب الجشع وخيبة الأمل. بطبيعة الحال، لقد تودّدوا لي في ثرائني بأحط أنواع الخسة. تجاه السيد بوكيت، باعتباره طفلًا بالغًا ليس لديه أدنى فكرة عن مصالحة الخاصة، أظهروا التسامح الراضي الذي سمعتهم يعبرون عنه من قبل. كانوا يحتقرون السيدة بوكيت؛ لكنهم سلموا بأن هذه المسكينة قد أصابته خيبة أمل كبيرة في الحياة، لأن هذا عكس شعورهم تجاه أنفسهم إلى حدّ ما.

كانت هذه هي البيئة التي استقررت فيها، وكرست نفسي لتعليمي. وسرعان ما صار لديّ عادات شرائية باهظة، وبدأت في إنفاق مبلغ من

المال شبه خيالي خلال بضعة أشهر قصيرة؛ ولكنني تمسكت بكتبي في السراء والضراء. وكانت فضيلتي الوحيدة هو شعوري بالنقص في هذا النطاق. بين السيد بوكيت وهربرت، تقدّمت بسرعة؛ ومع وجود أحدهما دائماً على مقربة مني لمنحي الانطلاقة التي أردتها، وإزالة العوائق من طريقي، كنت سأصير أحقق مثل درامل لو أنني قصرت في واجباتي.

لم أر السيد ويميك منذ بضعة أسابيع، فقررت أن أكتب له رسالة، وأقترح الذهاب معه إلى منزله في إحدى الأمسيات. فأجابني أن ذلك سيسعده كثيراً، وأنه ينتظرني في المكتب في الساعة السادسة مساءً. ذهبت إلى هناك، ووجدته يضع مفتاح خزنته على ظهره مع دقائق الساعة. سألني: هل فكرت في السير إلى الورث؟

قلت: بالتأكيد، إذا أحببت ذلك.

كان رد ويميك: أحب ذلك جداً، لأنني كنت أضع ساقيّ تحت المكتب طوال اليوم، وسأكون سعيداً بمدّهما. الآن، سأخبرك بما لدينا على العشاء يا سيد بيب. لقد حصلت على شريحة لحم مطهية، وهي معدّة في المنزل، ودجاج مشوي بارد، وهو من المطعم. أعتقد أنه طازج، لأن صاحب المطعم كان عضواً في هيئة المحلفين في بعض قضايانا منذ بضعة أيام، وقد كنا متساهلين معه. ذكرته بذلك عندما اشتريت الدجاجة، وقلت: «اختر لنا دجاجة طيبة، أيها البريطاني العجوز، لأننا لو اخترنا أن نبقيك في المحاكمة يوماً أو يومين آخرين، كنا سنفعل ذلك بسهولة». فكان رده: «دعني أهديك أفضل دجاجة لديّ». لقد سمحت له بالطبع، فهي ممتلكات محمولة. أنت لا يزعجك وجود والد عجوز، كما أمل؟»

اعتقدت حقاً أنه لا يزال يتحدث عن الدجاج، حتى أضاف: «لأن

لديّ والدًا عجوزًا في المنزل». فكان ردي مهذبًا.

«إذن، أنت لم تتناول العشاء مع السيد جاغرز بعد؟» سألني بينما كنا نسير على طول الطريق.

- ليس بعد.

- لقد أخبرني بذلك بعد ظهر هذا اليوم عندما سمع أنك قادم. أتوقع أن تتلقى دعوة غدًا. سوف يدعو أصدقاءك أيضًا. لديك ثلاثة أصدقاء؛ أليس هناك؟

على الرغم من أنني لم أعتد اعتبار درامل واحدًا من رفاقي المقربين، إلا أنني أجبت: نعم.

«حسنًا، سوف يدعو المجموعة بأكملها» بالكاد شعرت بالثناء من هذه الكلمة، «ومهما كان ما يقدمه لك، فسوف يعطيك الخير، لا تتطلع إلى التنوع، ولكن سيكون لديك التميز. وهناك شيء غريب آخر في منزله» تابع ويميك، بعد أن توقف لحظة، كما لو أن الملاحظة التي أعقبت ذلك عن مدبرة المنزل قد فهمت؛ «هو لا يسمح أبدًا بإغلاق باب أو نافذة في الليل».

- ولم يُسرق قط؟

أجاب ويميك: بالظبط! إنه يقول في العلن، أريد أن أرى الرجل الذي سوف يسرقني، بارك الله فيك، لقد سمعته مرارًا وتكرارًا، وهو يقول للصوص المعتادين في مكتبتنا الأمامي: «أنت تعرف أين أعيش؛ الآن، لا يُغلق أي مزلاج هناك؛ لماذا لا أدفع لك مبلغًا سخيفًا؟ هيا؛ هل أستطيع إغراءك؟» لا يوجد رجل منهم، يا سيدي، لديه الجرأة الكافية لمحاولة سرقة، من أجل الشغف أو المال.

سألت: هل يرهبونه بشدة؟

قال ويميك: يرهبونه. أعتقد ذلك. بسبب مكره، حتى في تحدّيه لهم، فمنزله لا يحتوي على الفضة، يا سيدي. معدن بريطانيا^(١) حتى آخر ملعقة. قلت: لذلك لن يكون لديهم الكثير، حتى لو...

قال ويميك وهو يقاطعني: بالتأكيد! لكن هو سيكون لديه الكثير، وهم يعرفون ذلك. سيكونون تحت رحمته، العشرات منهم. سيحاكمهم بضرارة. ومن المستحيل ألا يحصل على ما يريد، إذا كرس نفسه لذلك. استغرقت في التفكير في عظمة وصيّ، عندما قال ويميك:

- فيما يتعلق بغياب الفضة من منزله، فهذا هو عمقه الطبيعي فقط، كما تعلم. النهر له عمقه الطبيعي، والسيد جاجرز له عمقه الطبيعي. انظر إلى سلسلة ساعته، إنها حقيقية تمامًا. قلت: إنها ضخمة للغاية.

«ضخمة؟» كرر ويميك مستطردًا: «أعتقد ذلك، وساعته دقاقة ذهبية، وتساوي مائة جنيه إذا حسبته بالمال. يا سيد بيب، هناك نحو سبعمائة لص في هذه البلدة يعرفون عن تلك الساعة؛ ليس هناك رجل، أو امرأة، أو طفل بينهم، لا يتعرف على أصغر حلقة في تلك السلسلة، وسوف يسقطها كما لو كانت ملتهبة، إذا خُدع للمسها».

في البداية، بمثل هذا الحديث، وبعد ذلك بمحادثة ذات طبيعة أكثر عمومية، تغلبنا أنا والسيد ويميك على الوقت والطريق، حتى أوضح لي أننا وصلنا إلى منطقة والورث.

(١) معدن أبيض يتكوّن من قصدير وأنتيمون ونحاس ورصاص. المترجم.

بدأت كأنها عبارة عن مجموعة من الحارات المظلمة، والخنادق، والحدائق الصغيرة، ولديها طابع كئيب معزول إلى حدٍّ ما. كان منزل ويميك عبارة عن كوخ خشبي صغير وسط أرض بها حدائق، وأزيل الجزء العلوي منه وطُليّ مثل بطارية محملة بالمدافع.

قال ويميك: من صنعي. يبدو جميلاً؛ أليس كذلك؟

لقد أثّنت عليه بشدة، وأعتقد أنه كان أصغر منزل رأيته في حياتي؛ مع النوافذ الغربية والمخيفة (الجزء الأكبر منها غير حقيقي إلى حدٍّ كبير)، وباب مخيف صغير جداً تقريباً بحيث لا يمكن الدخول منه.

قال ويميك: إنها سارية علم حقيقية، كما ترى، وفي أيام الأحاد أرفع علماً حقيقياً. ثم انظر هنا. بعد أن أعبر هذا الجسر، أرفعه -وهكذا- أ منع الوصول إلى هنا.

كان الجسر عبارة عن لوح خشبي، وقد مرّ فوق هوة يبلغ عرضها أربع أقدام وعمقها قدمين. ولكن كان من الممتع للغاية رؤية الفخر الذي رفعه به وثبّته لأعلى؛ كان يبتسم وهو يفعل ذلك، باستمتاع وليس بطريقة ميكانيكية فقط.

قال ويميك: في الساعة التاسعة كل ليلة، بتوقيت جرينتش، يُطلق المدفع. ها هو، كما ترى! وعندما تسمعه، أعتقد أنك ستقول إن ضربته عنيفة.

قطعة الذخيرة المشار إليها كانت مثبتة في حصنٍ منفصل، مبني من الحديد المتشابك. كانت محمية من الطقس بواسطة قطعة صغيرة ذكية من القماش المشمع على هيئة مظلة.

قال ويميك: بعد ذلك، في الخلف، بعيداً عن الأنظار، حتى لا أعترض طريق التحصينات، لأنها مبدأ بالنسبة إليّ، إذا كانت لديك فكرة،

نَفَّذَها وحافظ عليها... لا أعرف إذا كان هذا هو رأيك...
قلت بكل تأكيد.

«... في الخلف، يوجد خنزير، وهناك طيور وأرانب؛ ثم أقوم بصنع إطارٍ صغيرٍ، كما ترى، وأزرع الخيار؛ وسوف تحكم في أثناء العشاء على نوع السلطة التي يمكنني تجهيزها». قال ويميك مبتسمًا مرة أخرى، ولكن بجدية أيضًا، وهو يهز رأسه: «لذا يا سيدي، إذا فرضنا أنه حوصر هذا المكان الصغير، فإنه سيصمد مدة طويلة بسبب المؤن».

بعد ذلك، قادني إلى تعريشة على بُعد نحو اثنتي عشرة ياردة، ولكن الذهاب إليها تطلَّب المرور بطريقٍ ملتوٍ ببراعة استغرقتنا وقتًا طويلاً للوصول إليها؛ وفي هذه الخلوة كانت كؤوسنا موضوعة بالفعل. كان مشروب البنش يبرد في بحيرة مزخرفة، نُصِبَت التعريشة على حافتها. كانت هذه المساحة المائية (مع جزيرة في المنتصف والتي ربما كانت سلطة العشاء) ذات شكل دائري، وقد بُني فيها نافورة، والتي عندما تقوم بتشغيل ساقية صغيرة وتخرج السدادة من الماسورة، كانت تعمل بقوة إلى درجة أن ظهر يديك يصبح رطبًا تمامًا.

«أنا مهندسِي الخاص، ونجاري الخاص، وسباكي الخاص، وبستاني الخاص، وصاحب السبع صنائع» قال ويميك بعد إطرائي له: حسنًا؛ إنه أمر جيد، كما تعلم. إنه يزيح عني خيوط عنكبوت سجن نيو جيت ويسعد العجوز. أتمنح لو قدمتك إلى العجوز على الفور؟ هل يضايقك هذا؟
أعربت عن استعراضي التام، ودخلنا القلعة. وهناك وجدنا رجلًا عجوزًا يجلس بجوار النار يرتدي معطفًا خفيفًا: كان نظيفًا ومبهجًا ومرتاحًا ومعتنى به أشد العناية، لكنه أصم تمامًا.

قال ويميك وهو يصفحه بطريقة ودية ومرحة: والدي العجوز، كيف حالك؟

«حسنًا يا جون؛ حسنًا!» أجاب الرجل العجوز.

قال ويميك: ها هو السيد بيب، والدي العجوز، كنت أود لو تسمع اسمه. أومئ برأسك يا سيد بيب؛ هذا ما يحبه. أومئ برأسك، من فضلك، مثل الغمز!

«منزل ابني راقٍ يا سيدي» صاح الرجل العجوز، بينما أومأت برأسي بأقصى قوتي. «إنها أراضٍ مبهجة جدًا يا سيدي. يجب على الأمة أن تحافظ على هذا المقر وهذه الأعمال الجميلة الموجودة عليه، بعد رحيل ابني، من أجل متعة الشعب».

«أنت فخور به جدًا؛ أليس كذلك أيها العجوز؟ قال ويميك وهو يتأمل الرجل العجوز، وقد أصبح وجهه الصلب ناعمًا حقًا؛ «هذه إيماءة لك» يعطيه إيماءة هائلة. «وإيماءة أخرى لك» يمنحه إيماءة أكثر روعة؛ «أنت تحب ذلك، أليس كذلك؟ إذا لم تكن متعبًا يا سيد بيب - على الرغم من أنني أعرف أن الأمر متعب للغرباء - فهلاً تقدّم له إيماءة أخرى؟ لن تتخيل مدى رضاه».

أعطيته أكثر من إيماءة، وكان صدره منشرحًا. تركناه يحث نفسه على إطعام الدجاج، وجلسنا تحت التعريشة لتناول طعامنا؛ حيث أخبرني ويميك، وهو يدخن الغليون، أن الأمر استغرق سنواتٍ عديدة حتى يصل بالمكان إلى مستوى الكمال الحالي.

- هل هو ملكك يا سيد ويميك؟

قال ويميك: نعم، لقد تمكنت منه، رويّدًا رويّدًا، إنه ملكي، بالتأكيد!

- هل هو حقاً؟ أتمنى أن يكون قد نال إعجاب السيد جاغرز؟

قال ويميك: لم يره من قبل. لم يسمع به مسبقاً. لم يسبق له رؤية والدي. ولم يسمع عنه. لا؛ المكتب شيء والحياة الخاصة شيء آخر. عندما أذهب إلى المكتب، أترك القلعة خلفي، وعندما أدخل إلى القلعة، أترك المكتب خلفي. إذا لا يزعجك الأمر بأي حال من الأحوال، فأرجو منك أن تفعل الشيء نفسه؛ لا أرغب في الحديث عن ذلك في العمل. بالطبع أردت بإخلاص أن ألتزم بطلبه. كان البنش لطيفاً للغاية، فجلسنا هناك نشرب ونتحدث حتى الساعة التاسعة تقريباً. «نقترب من موعد إطلاق المدفع»، قال ويميك وهو يضع غليونه جانباً: العجوز يحبه للغاية.

وبالعودة إلى القلعة مرة أخرى، وجدنا العجوز يقوم بتسخين مسعر النار، بعينين مترقبتين، تمهيداً للحفل الليلي العظيم. وقف ويميك وساعته في يده حتى حانت اللحظة التي يأخذ فيها مسعر النار الساخن من العجوز، ويعود إلى بطارية المدفعية. أخذه، وخرج، وفي الحال انطلق الصاروخ محدثاً دويًا هز الكوخ الصغير المتعرج الشبيه بالصندوق كما لو أنه سينهار إلى أجزاء، وجعل كل كوب وفنجان شاي فيه يصلصل. عند ذلك، صرخ العجوز -الذي اعتقد أنه كان سيسقط من كرسيه لولا تمسكه بالمسند جيداً- بابتهاج: «لقد انطلق! لقد سمعته!»، وأومات برأسي إلى السيد العجوز حتى أصبح من غير المبالغ فيه أن أعلن أنني لم أعد أستطع رؤيته على الإطلاق.

الفترة الفاصلة بين ذلك الوقت والعشاء خصّصها ويميك ليعرض لي مجموعة ممتلكاته. كانت في الغالب ذات طابع إجرامي، وتشمل على

القلم الذي ارتكبت به عملية تزوير شهيرة، وشفرة أو شفرتين بطابع مميز، وبعض خصلات الشعر، والعديد من الاعترافات المخطوطة المكتوبة تحت الإدانة. كان السيد ويميك يقدّرهما تقديرًا خاصًا، وبكلماته الخاصة: «كل واحد منهم يكذب يا سيدي» كانت تلك الممتلكات متناثرة تمامًا وسط عينات صغيرة من الخزف الصيني والزجاج، والعديد من الأشياء الصغيرة الأنيقة التي صنعها صاحب المتحف، وبعض سدادات أنابيب التبغ التي نحتها العجوز. عُرضت جميعًا في تلك الغرفة بالقلعة التي اقتُدت إليها عند دخولي، والتي لم تكن بمنزلة غرفة الجلوس العامة فحسب، بل كانت بمنزلة المطبخ أيضًا، إذا جاز لي القول حيث كانت هناك قِدر على الموقد، وشواية نحاسية فوق المدفأة مصمّمة لشوي اللحم.

وكان هناك فتاة صغيرة مهندمة في وقتها، تعتنى بالعجوز خلال اليوم. عندما كانت تضع مفرش العشاء، كان قد أُنزل الجسر لمنحها وسيلة للخروج ليلاً. العشاء كان ممتازًا. وعلى الرغم من أن القلعة كانت عرضة للعفن الجاف إلى درجة أن رائحتها كانت تشبه الجوز الفاسد، وعلى الرغم من أن الخنزير ربما لم يكن بعيدًا، إلا أنني كنت سعيدًا للغاية بكل وسائل الترفيه التي استمتعت بها. ولم يكن هناك أي عيب في غرفة نومي الصغيرة، بخلاف وجود سقف رفيع للغاية بيني وبين سارية العلم، إلى درجة أنه عندما استلقيت على ظهري في الفراش، بدا الأمر كما لو كان عليّ موازنة ذلك العمود على جبهتي طوال الليل.

كان ويميك مستيقظًا في الصباح الباكر، وأخشى أنني سمعته وهو ينظف حذائي. بعد ذلك، انصرف إلى البستنة، ورأيت من نافذتي القوطية

يتظاهر بإعطاء العجوز شيئاً لكي يفعله، ويومئ إليه برأسه بمنتهى التفاني .
كان إفطارنا جيداً مثل العشاء، وفي الساعة الثامنة والنصف تحديداً انطلقنا
إلى ليتل بريتن . شيئاً فشيئاً، أصبح ويميك أكثر جفافاً وصلابة مع تقدمنا،
وانقبض فمه مثل صندوق البريد مرة أخرى . أخيراً، عندما وصلنا إلى مكان
عمله وأخرج مفتاحه من ياقة معطفه، بدا غافلاً عن بيته في الورث كما
لو أن القلعة والجسر المتحرك والشجرة والبحيرة والنافورة والعجوز قد
فُجِّروا جميعاً، وتناثرت أشلاؤهم في الفضاء مع انطلاقة أخيرة للصاروخ .

الفصل السادس والعشرون

وجاءت الدعوة كما أخبرني ويميك، حيث أتيت لي فرصة مبكرة لمقارنة منزل وصيِّ بمنزل موظفه وأمين صندوقه. كان وصيِّ في غرفته، يغسل يديه بالصابون المعطر، عندما دخلت المكتب من والورث؛ ناداني وأعطاني الدعوة التي أعدّني ويميك لتلقّيها، لي ولأصدقائي. اشترط الآتي: «من دون تكليف، أو لبس رسمي للعشاء، لنقل غداً». سألته عن العنوان (لأنني لم يكن لديّ أي فكرة عن عنوان منزله)، وأعتقد أنه كان مثل اعتراضه العام على الإدلاء بأي شيء كأنه اعتراف، حيث أجاب: «تعال هنا، وسوف آخذك إلى المنزل معي» أغتنم هذه الفرصة للإشارة إلى أنه غسل عنه عملاءه، كما لو كان جراحاً أو طبيب أسنان. كان لديه مرحاض في غرفته، مُجهز لهذا الغرض، تفوح منه رائحة الصابون المعطر مثل محل عطور. كان يحتوي على منشفة كبيرة بشكل غير عادي ملفوفة حول بكرة في الباب من الداخل، وكان يغسل يديه ويمسحهما ويجففهما على طول المنشفة، كلما كان يأتي من محكمة الجench أو يطرد عميلاً من غرفته. عندما ذهبت أنا وأصدقائي إليه في الساعة السادسة من اليوم التالي، بدا كأنه مشغول بقضية أكثر قتامة من المعتاد، لأننا وجدناه ورأسه منكفي على الحوض، ولم يغسل يديه فقط، بل كان يغسل وجهه ويتغرغر. وحتى بعد أن فعل كل ذلك، ومر على كل جوانب المنشفة، أخرج مطواة جيب ونزع القضية من أظفاره قبل أن يرتدي معطفه.

كان هناك بعض الأشخاص يتسكعون بالخارج كالمعتاد عندما خرجنا إلى الشارع، وبدأ واضحًا حرصهم على التحدث معه؛ ولكن كان هناك شيء حاسم للغاية في هالة الصابون المعطر التي أحاطت بحضوره، إلى درجة أنهم استسلموا في ذلك اليوم. وبينما اتجهنا غربًا، حدث مرارًا وتكرارًا أن شخصًا ما وسط الحشد في الشارع كان يتعرف عليه، وكلما حدث ذلك كان يتحدث معي بصوت أعلى؛ لكنه نفسه لم يتعرف على أي شخص، ولم يلقَ بالآ بأن أحدًا قد تعرّف عليه.

قادنا إلى شارع جيرارد، بمنطقة سوهو، إلى منزلٍ يقع على الجانب الجنوبي من ذلك الشارع. بالأحرى منزل فخم من نوعه، لكنه يفتقر إلى الطلاء بطريقة كئيبة، ونوافذه قذرة. أخرج مفتاحه وفتح الباب، ودخلنا جميعًا إلى قاعة حجرية، عارية، موحشة، وقليلة الاستخدام. ثم صعدنا سلمًا بنيًا داكنًا إلى سلسلة من ثلاث غرف بُنية داكنة في الطابق الأول. كانت هناك أكاليل منحوتة على الجدران المكسوة بالخشب، وبينما كان يقف وسطها يرحب بنا، جال بخاطري أن حلقاتها تبدو كأنها أصفاد.

وُضِعَ العشاء في أفضل هذه الغرف، والثانية كانت غرفة تبديل الملابس الخاصة به؛ والثالثة غرفة نومه. أخبرنا أنه كان يملك المنزل بأكمله، لكنه نادرًا ما استخدم أي غرف أخرى. كانت الطاولة موضوعة بشكل مريح - لا توجد أوانٍ من الفضة بالطبع - وعلى جانب كرسيه كان هناك صينية دوّارة جانبية فسيحة، عليها مجموعة متنوعة من الزجاجات والأواني، وأربعة أطباق من الفاكهة للتحلية. لاحظت طوال الوقت أنه يحتفظ بكل شيء تحت يده، ويوزع كل شيء بنفسه.

كانت هناك مكتبة في الغرفة؛ رأيت من أغلفة الكتب أنها كانت تدور

حول الأدلة والقانون الجنائي والسيرة الجنائية والمحاكمات وقوانين البرلمان وأشياء من هذا القبيل. كان الأثاث كله متيناً وجيداً للغاية، مثل سلسلة ساعته. ومع ذلك، كان له مظهر رسمي، ولم يكن هناك أي شيء للزينة فقط. في إحدى الزوايا كانت توجد طاولة صغيرة عليها مصباح مظلل وبعض الأوراق، بدا كأنه يحمل عمله إلى المنزل في هذه الغرفة أيضاً، ويخرجه في المساء وينكب على العمل.

وبما أنه بالكاد رأى رفاقي الثلاثة حتى الآن؛ إذ كنا نسير معاً أنا وهو، فقد وقف على السجادة بجانب المدفأة، بعد أن قرع الجرس، وألقى نظرة فاحصة عليهم. لدهشتي، بدا على الفور مهتماً بدرامل في المقام الأول، إن لم يكن بشكلٍ منفرد.

قال وهو يضع يده الكبيرة على كتفي، ويحركني نحو النافذة: ييب، لا أعرف أحدهما من الآخر، من هو العنكبوت؟

سألت: العنكبوت؟

- الرجل الملطخ، المتمدّد، العابس.

أجبت: هذا بنتلي درامل، والشخص ذو الوجه الرقيق هو ستارتوب. أجاب دون أدنى اهتمام للشخص ذي الوجه الرقيق: بنتلي درامل هو اسمه، أليس كذلك؟ أنا أحب مظهر ذلك الفتى.

بدأ على الفور في التحدث إلى درامل: لم يردعه على الإطلاق ردوده المتحفظة المتثاقلة، ولكن من الواضح أن ذلك دفعه إلى اقتلاع الحديث منه. كنت أنظر إليهما، عندما حالت بيننا مدبّرة المنزل، ومعها أول طبق للمائدة.

كانت امرأة في الأربعين من عمرها تقريباً، على ما أعتقد، لكنني

ربما كنت أعتقد أنها أصغر من عمرها الحقيقي. طويلة القامة إلى حدٍّ ما، ذات قوام رشيق، شاحبة للغاية، ذات عينين كبيرتين باهتتين، وشعر كثيف وغزير. لا أستطيع القول ما إذا كان هناك مرض من أمراض القلب تسبب في انفراج شفتيها كما لو كانت تلهث، وفي تعبير وجهها الغريب المرتعش والمتفاجئ؛ لكنني أعلم أنني كنت قد رأيت ماكبث في المسرح، قبل ليلة أو ليلتين، وأن وجهها بدا لي كما لو كان محتدماً، مثل وجوه الساحرات الشريرات اللواتي انبعثن من المِرجل.

وضعت الأطباق، ولمست ذراع وصيٍّ بهدوء بإصبعها لتعلن أن العشاء جاهز، ثم اختفت. جلسنا على مقاعدنا حول المائدة المستديرة، وأبقى وصيٍّ درامل على أحد جانبيه، بينما جلس ستارتوب على الجانب الآخر. لقد كان طبقاً رائعاً من السمك الذي وضعته مدبرة المنزل على المائدة، وكان لدينا بعد ذلك قطعة من لحم الضأن ثم دجاجة، كلاهما على أعلى مستوى، المرق، والنبيد، وجميع الملحقات التي أردناها، وكلها من أجود الأنواع، قدّمتها مضيفنا من الصينية الجانبية؛ وعندما كانوا يأخذون دورتهم حول المائدة، كان يعيدهم دائماً مرة أخرى. وبالمثل، كان يوزّع علينا أطباقاً وسكاكين وشوفاً نظيفة، مع كل طبق، ويسقط التي استخدمت في سلّتين على الأرض بجوار كرسيه. لم يظهر أي خادم آخر سوى مدبرة المنزل. وضعت لنا كل الأطباق، وكنت أرى دائماً وجهها كأنه انبعث للتو من المِرجل. بعد سنوات، تراءت لي تلك المرأة، من خلال تخيل لوجه لا يشبهها بطبيعة الحال باستثناء الشعر المنسدل من خلال انعكاس النيران على كأسٍ من المشروبات الروحية في غرفة قاتمة. ما دفعني إلى الاهتمام بشكل خاص بمدبرة المنزل، هو مظهرها

اللافت، هذا إلى جانب تمهيد ويميك، ولاحظت أنها كلما كانت في الغرفة كانت تضع عينيها على وصيّي، وأنها كانت تزيل يديها بتردد عندما تضع أمامه أي طبق كان، كأنها تخشى أن يستدعيها، وتريده أن يتكلم عندما تكون قريبة، إذا كان لديه ما يقوله. لقد تخيلت أنني أستطيع أن أستشف من أسلوبه إدراكه لذلك، وأنه يهدف لإبقائها دائماً في حالة ترقب.

كان العشاء مبهجاً، وعلى الرغم من أن وصيّي بدا كأنه يتبع الموضوعات بدلاً من أن يبدأها، فقد كنت أعلم أنه كان يظهر أسوأ ما داخلنا. بالنسبة إليّ، وجدت أنني كنت أعبر عن ميلي إلى الإسراف في الإنفاق، والتعالي على هربرت، والتفاخر بمستقبلي الباهر، قبل أن أدرك أنني نسبت ببنت شفة. لقد كان الأمر كذلك معنا جميعاً، ولكن أكثر مع درامل: الذي انتزع تطور ميله إلى السخرية من الآخرين بضغينة وريبة، قبل الانتهاء من أول طبق.

عندما انتهينا من العشاء ووصل طبق الجبن، تحوّلت محادثتنا إلى تفاخرنا بالتجديف، والسخرية من درامل لأنه كان يأتي في وقت متأخر من الليل بطريقته البرمائية البطيئة. وعلى هذا، أبلغ مضيفنا أنه يفضل كثيراً البقاء في الغرفة على صحبتنا، وأنه من حيث المهارة فهو أفضل من معلمنا، ومن حيث القوة فيمكنه أن يبعثنا مثل الهشيم. وبقوة خفية، سمع ما لا يرضيه من وصيّي بسبب هذه الاستهانة؛ فشرع في تعرية ذراعه ومدّها ليظهر مدى قوتها، وشرعنا جميعاً في تعرية وتمديد أذرعنا بطريقة سخيفة.

وكانت مدبرة المنزل في ذلك الوقت ترفع الأطباق عن المائدة؛

ووصيّ، الذي لم يلتفت إليها، بل ويشيح بوجهه عنها، كان متكئاً على كرسيه، ويعض على جانب سبابه، ويُظهر اهتماماً بدرامل، وهو ما كان بالنسبة إليّ أمراً لا يمكن تفسيره تماماً. وفجأة، أطبق بيده الكبيرة على يد مدبّرة المنزل، مثل المصيدة، وهي تمدّها عبر الطاولة. فعل ذلك فجأة وبدهاء، فتوقفنا جميعاً في نزاعنا الأحمق.

قال السيد جاغرز: إذا كنت تتحدث عن القوة، فسوف أريك معصماً. مولي، دعيهم يرون معصمك.

كانت يدها المحبوسة على الطاولة، لكنها كانت قد وضعت يدها الأخرى خلف خصرها بالفعل. «سيدي» قالت بصوتٍ منخفضٍ وعيناها مثبتتان عليه بتمعنٍ وتضرع، «لا تفعل».

كرر السيد جاغرز بتصميمٍ لا يتزعزع على إظهار معصمها: سأريك معصماً. مولي، دعيهم يرون معصمك.

«سيدي» تمتمت مرة أخرى، «أرجوك!».

قال السيد جاغرز، وهو لا ينظر إليها، بل ينظر بإصرارٍ إلى الجانب الآخر من الغرفة: مولي، دعيهم يرون معصمك. أظهريهما. هيا!

أخذ يده من يدها، ورفع معصمها إلى أعلى على الطاولة. أحضرت يدها الأخرى من خلفها ووضعتهما جنباً إلى جنب. كان المعصم الأخير مشوّهاً للغاية، وبه ندوب عميقة في كل مكان. عندما وضعت يديها أمامنا، رفعت عينيها عن السيد جاغرز، ووجّهتهما بحذرٍ نحو كل واحد منا على التوالي.

قال السيد جاغرز ببرودٍ وهو يتتبع أوتار المعصم بسبابه: توجد قوة هنا. قلة قليلة من الرجال لديهم قوة المعصم التي تمتلكها هذه المرأة.

من اللافت إلى النظر مدى قوة القبضة الموجودة في هاتين اليدين. لقد أتيحت لي الفرصة لملاحظة العديد من الأيدي؛ ولكنني لم أر قط أقوى منهما، لرجلٍ كان أو لامرأة.

وبينما كان يقول هذه الكلمات بأسلوبٍ حازمٍ متأنٍّ، واصلت مولتي النظر إلى كل واحدٍ منا على التوالي بينما جلسنا هناك. وفي اللحظة التي توقف فيها، نظرت إليه مرة أخرى. «هذا سيفي بالغرض يا مولتي» قال السيد جاغرز وهو يومئ إليها برأسه قليلاً؛ «لقد نلت الإعجاب، ويمكنك الرحيل» سحبت يديها وخرجت من الغرفة، وأخذ السيد جاغرز إناء النبيذ من الصينية الجانبية، وملاً كأسه ووزع النبيذ حوله.

قال: في الساعة التاسعة والنصف أيها السادة، يجب أن نن فصل، أرجو أن تستغلوا وقتكم بالشكل الأمثل، يسعدني رؤيتكم جميعاً، سيد درامل، في صحتك.

إذا كان هدفه من اختيار درامل هو إبرازه بشكلٍ أكبر، فقد نجح ذلك تماماً. بانتصارٍ عابسٍ، أظهر درامل استخفافه الكئيب ببقيتنا، بدرجة هجومية متزايدة، حتى أصبح لا يُطاق على الإطلاق. تابع السيد جاغرز درامل في كل حالاته بنفس الاهتمام الغريب. لقد بدا في الواقع كأنه يضيف نكهة خاصة إلى نبيذ السيد جاغرز.

بسبب عدم النضج وغياب حُسن التقدير، أعتقد أننا أفرطنا في الشرب، وأعلم أننا تحدثنا كثيراً. أثار درامل حفيظتنا بوجه خاص بسبب بعض السخرية الفظة والتي مفادها أننا كنا ننفق ببذخ. وقادني ذلك إلى ملاحظة، بحماسة أكبر من حسن التقدير، أنه لم يكن عليه قول هذا، وهو الذي أقرضه ستارتوب المال في حضوري الأسبوع الماضي أو نحو ذلك.

«حسنًا» رد درامل؛ «سوف أرد إليه المال».

قلت: لا أقصد أن أشير إلى أنك لن تفعل، ولكن أعتقد أن هذا قد يجعلك تصمت عنا وعن أموالنا.

«أنت تعتقد!» رد درامل، «يا إلهي!».

تابعت، بقصد أن أكون شديد القسوة: أعتقد أنك لم تكن لتقرض المال لأي منا إذا أردنا ذلك.

قال درامل: أنت على حق، لن أقرض أحدكم ستة بنسات، لن أقرض أحدًا ستة بنسات.

- أظن أنه من الخسة أن تقترض المال ما دام هذه هي الحال.

«تظن» كرر درامل، «يا إلهي!».

كان هذا الأمر مزعجًا للغاية - وخاصة عندما وجدت نفسي لا أتمكن من مواجهة بلادته الصارمة - فقلت، متجاهلاً جهود هربرت لكبح جماحي:

- هيا يا سيد درامل، بما أننا نتحدث عن هذا الموضوع، سأخبرك بالحديث الذي دار بيني وبين هربرت، عندما اقترضت هذا المال.

«لا أريد أن أعرف بالحديث الذي دار بينك وبين هربرت» تمتع درامل. وأعتقد أنه أضاف في تممة منخفضة: «اذهبوا إلى الجحيم».

قلت: ولكنني سأخبرك، سواء أردت ذلك أم لا. قلنا إنك عندما تضع المال في جيبيك وأنت سعيد للغاية بالحصول عليه، يبدو أنك مستمتع للغاية بكون ستارتوب أحرق للغاية لإقراضك إياه.

ضحك درامل في الحال، وجلس يضحك في وجوهنا، واضعًا يديه

في جيبه وكتفاه المستديرتان مرفوعتان؛ مما يدل بوضوح على أن هذا كان صحيحًا تمامًا، وأنه كان يحترقنا جميعًا ويرانا كالحمير .

عندها أمسكه ستارتوب بيده، ولكن بلطفٍ أكثر مما أظهرته بكثير، وحثّه على أن يكون ألطف قليلًا. ستارتوب، كونه شابًا مفعمًا بالحيوية والذكاء، ودرامل هو العكس تمامًا، كان الأخير دائمًا يميل إلى الاستياء منه باعتباره إهانة شخصية مباشرة. رد الآن بطريقة خشنة ومتثاقلة، وحاول ستارتوب أن يدير دفعة الحديث ببعض المجاملات الصغيرة التي جعلتنا جميعًا نضحك. استاء درامل من هذا النجاح الصغير أكثر من أي شيء آخر، ومن دون أي تهديد أو تحذير، أخرج يديه من جيبه، وأسقط كتفيه المستديرتين، وأطلق سبابًا، وتناول كأسًا كبيرة، وكان سيرميها على رأس خصمه، لولا مصادرة مضيفنا له بمهارة في اللحظة التي رُفعت فيها لهذا الغرض .

«أيها السادة» قال السيد جاغرز، وهو يتعمّد وضع الكأس جانبًا، وسحب ساعته الذهبية من سلسلته الضخمة، «يؤسفني للغاية أن أعلن أن الساعة التاسعة والنصف» .

بناءً على هذا التلميح نهضنا جميعًا للمغادرة. قبل أن نصل إلى باب المنزل، كان ستارتوب ينادي درامل بمرح بـ «الصبي العجوز»، كأن شيئًا لم يحدث. لكن الصبي العجوز كان بعيدًا جدًّا عن الاستجابة، إلى درجة أنه لم يرغب حتى في السير إلى هامرسميث على الجانب نفسه من الطريق؛ لذلك، رأيناها أنا وهربرت، حيث بقينا في المدينة، يسيران في الشارع على الجانبين المتقابلين؛ ستارتوب في المقدمة، ودرامل يأتي خلفه في ظل المنازل، كما اعتاد أن يتبعه في قاربه .

وبما أن الباب لم يكن مغلقًا بعد، فقد فكرت في أن أترك هربرت

هناك للحظة، ثم أصدعد إلى الطابق العلوي مرة أخرى لأقول كلمة لوصيي .
لقد وجدته في غرفة تبديل الملابس محاطاً بمخزون من الأحذية، وكان
مجتهداً في غسل يديه عنا.

أخبرته أنني جئت مرة أخرى لأعرب عن مدى أسفي لحدوث أي
شيء غير مقبول، وأنني آمل ألا يلومني كثيراً.

«ياه!» قال وهو يغسل وجهه ويتحدث من خلال قطرات الماء؛ «لا
تقلق، يا بيب. لقد أحببت هذا العنكبوت على الرغم من ذلك».
كان قد استدار نحوي الآن، وكان يهز رأسه، وينفخ، ويمسح نفسه
بالمشفة.

قلت: أنا سعيد لأنه أعجبك يا سيدي، لكنني لا أحبه.
«لا، لا،» وافق وصيي؛ «ليس لديك الكثير لتفعله معه، ابتعد عنه قدر
الإمكان، لكنني أحب هذا الزميل، يا بيب؛ إنه من النوع الحقيقي. ياه، لو
كنت عرافاً...».

أخرج وجهه من المشفة، ونظر إليّ.
«لكنني لست عرافاً»، قال وهو يضع رأسه في منشفته المزينة
بالفساطين، ويمسح أذنيه. «أنت تعرف من أكون، أليس كذلك؟ ليلة
سعيدة يا بيب».

- ليلة سعيدة يا سيدي.

وفي غضون شهر تقريباً بعد ذلك، انتهى وقت العنكبوت مع السيد
بوكيت إلى الأبد، ومما أثار ارتياحاً كبيراً لجميع أفراد المنزل باستثناء
السيدة بوكيت، أنه عاد إلى منزله في جحر العائلة.

الفصل السابع والعشرون

«عزيزي السيد بيب،

أكتب هذا بناءً على طلب السيد جاريجري، لإعلامك بأنه ذاهب إلى لندن بصحبة السيد ووبسل، وسيكون سعيدًا إذا وافقت على السماح له برؤيتك. سيصل إلى فندق برنارد صباح يوم الثلاثاء في الساعة التاسعة صباحًا، وإذا لم يكن ذلك مقبولًا، فيُرجى ترك رسالة. أختك المسكينة ما زالت على حالها منذ تركتها. نتحدث عنك في المطبخ كل ليلة، ونتساءل عما تقوله وتفعله. إذا نظرت إلى الأمر على أنه رفْعٌ للكلفة، فلتعذر فعلنا من أجل الأيام الخوالي. هذا كل شيء، عزيزي السيد بيب،

خادمتك المخلصة والمُحِبَّة دائماً،

بيدي».

«ملاحظة: إنه يرغب في أن أكتب على وجه التحديد «سنقضي أسعد الأوقات هناك». يقول إنك ستفهم قصده. آمل، ولا أشك في أنه سيكون من الممتع رؤيته، رغم كونك رجلًا نبيلاً، لأنه كان لديك أطيب قلب على الإطلاق، وهو رجل جدير، جدير جدًا بذلك. لقد قرأت له الخطاب كله، باستثناء الجملة الصغيرة الأخيرة فقط، ويتمنى بشكل خاص أن أكتب مرة أخرى «سنقضي أسعد الأوقات هناك»».

وصلتني هذه الرسالة بالبريد صباح يوم الاثنين، وبالتالي كان موعد الوصول اليوم التالي. اسمحوا لي أن أعترف بالضبط بالمشاعر التي تطلعت إليها عند مجيء جو.

لم أكن سعيدًا، على الرغم من أنني كنت مرتبطًا به بالعديد من الروابط؛ لا؛ شعرت بانزعاج كبير، وبعض الخزي، وإحساس شديد بالتناقض. لو كان المال سيبقيه بعيدًا، لكنت دفعته بالتأكيد. كان أعظم طمأنينة لي هو أنه سيأتي إلى نزل برنارد، وليس إلى هامرسميث، وبالتالي لن يقع في طريق بنتلي درامل. لم يكن لدي أي اعتراض على أن يراه هربرت أو والده، الذي أكنُّ له كل الاحترام؛ ولكن كان لدي حساسية شديدة تجاه أن يراه درامل، الذي كنت أحتقره. لذلك، على طول حياتنا، نرتكب أسوأ الأعمال الدنيئة المتخاذلة بسبب الأشخاص الذين نحتقرهم بشدة.

كنت قد بدأت في التزيين المستمر للغرف بطريقة غير ضرورية وغير مناسبة على الإطلاق، وثبت أن المقاومة ضد برنارد كانت مكلفة للغاية. وبحلول ذلك الوقت، كانت الغرف مختلفة تمامًا عما وجدتتها فيه، واستمتعت بشرف احتلال بضع صفحات بارزة في دفتر الفواتير لأحد منجلي الأثاث المجاورين. ارتقيت كثيرًا، وبسرعة كبيرة في الآونة الأخيرة، حتى إنني اتخذت من صبيًا يرتدي حذاءً طويل الرقبة، خادمًا وعبداً، والذي كان من الممكن أن يُقال إنني أقضي أيامي معه؛ لأنه، بعد أن صنعت الوحش (من مخلفات منزل الغسالة)، وألبسته معطفًا أزرق، وصدريه باللون الكناري، وربطة عنق بيضاء، وسروالًا قصيرًا باللون الكريمي، والحذاء الذي سبق ذكره، كان عليّ أن أجد له القليل للقيام

به والكثير من الطعام؛ ومع كل تلك المتطلبات الرهيبة، طارد كياني كله. طلب من هذا الشبح المنتقم أن يكون في الخدمة في الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء في القاعة (كانت مساحتها قدمين مربعتين، كما يتم حسابنا على مسح الأرضية)، واقترح هربرت أشياء معينة على الإفطار يعتقد أن جو سيحبها. على الرغم من أنني شعرت بالامتنان الصادق تجاهه لكونه مهتمًا ومراعيًا للغاية، فقد كان لدي شعور غريب شبه مستفز، وهو أنه لو كان جو قد جاء لرؤيته هو بدلًا مني، لما كان مفعمًا بالحيوية هكذا. ومع ذلك، فقد أتيت إلى المدينة ليلة الاثنين لأستعد لاستقبال جو، واستيقظت في الصباح الباكر، وجعلت غرفة الجلوس ومائدة الفطور تبدوان في أبهى صورهما. لسوء الحظ، كان الصباح ممطرًا، ولم يكن في وسع الملائكة أن تخفي حقيقة أن برنارد كان يذرف دموعًا سخية خارج النافذة، كأنه عامل مداخن عملاق ينتحب.

ومع اقتراب الوقت، كنت أود الهروب بعيدًا، لكن المنتقم كان موجودًا في الردهة تنفيذًا للأوامر، وفي الحال سمعت خطوات جو على الدرج. عرفت أنه جو، من طريقته الخرقاء في صعوده إلى الطابق العلوي، حيث كان حذاؤه الرسمي دائمًا كبيرًا جدًا بالنسبة إليه، والوقت الذي استغرقه في قراءة الأسماء في الطوابق الأخرى في أثناء صعوده. عندما توقف أخيرًا خارج بابنا، سمعت إصبعه ترسم الحروف المرسومة لاسمي، وبعد ذلك سمعته بوضوح يسحب نفسًا عند ثقب المفتاح. أخيرًا، طرّق طريقة خافتة، وأعلن بيير - هذا هو الاسم الملائم للصبي المنتقم - «السيد جارجيرى!» اعتقدت أنه لن ينتهي من مسح قدميه أبدًا، وأنني يجب أن أخرج لرفعه عن السجادة، لكنه دخل أخيرًا.

- جو، كيف حالك، يا جو؟

- بيب، كيف حالك يا بيب؟

بوجهه الطيب الصادق المتوهج والمشرق، وقبعته الموضوعة على الأرض بيننا، أمسك بيدي وحرهما بشكل مستقيم لأعلى ولأسفل، كما لو كنت آخر مضخة ماء حصلت للتو على براءة اختراع.

«أنا سعيد لرؤيتك، يا جو. أعطني قبعتك».

لكن جو، الذي أمسكها بعناية بكلتا يديه، مثل عش طائر به بيض، لم يستمع لي وينفصل عن تلك الملكية الخاصة، وأصر على الوقوف وهو يتحدث من فوقها بطريقة غير مريحة إطلاقاً.

قال جو: «لقد كبرت، وارتفع شأنك، وصرت من النبلاء». فكر جو قليلاً قبل أن يكتشف هذه الكلمة؛ «أنت تجلب العزة لملكك ووطنك، بالتأكيد».

- وأنت يا جو، تبدو في حالة جيدة بشكل رائع.

«الحمد لله» قال جو، «أنا مثلي مثل معظم الناس. وأختك ليست أسوأ مما كانت عليه. وبيدي، إنها سالمة ومتأهبة دائماً. وجميع الأصدقاء ليسوا في حال أسوأ، إن لم يكونوا في حال أفضل. باستثناء ووبسل، فقد تدهورت حاله».

طوال هذا الوقت (وهو لا يزال يعتني بعش الطائر بكلتا يديه)، كان جو يحرك عينيه في أنحاء الغرفة، وينظر إلى نقوش الزهور على الروب المنزلي الذي أرتديه.

- تدهورت حاله يا جو؟

قال جو وهو يخفض صوته: «نعم، لقد ترك الكنيسة، وذهب إلى التمثيل. وهو سبب مجيئه معي أيضًا إلى لندن» قال جو، وهو يضع عشب الطائر تحت ذراعه اليسرى للحظة، ويبحث فيه عن بيضة بيده اليمنى قائلاً: «كانت أمنيته هي: إذا لم يكن هناك أي إزعاج، أن أسلمك هذه».

أخذت ما أعطاني إياه جو، ووجدت ورقة مجمعة كانت عبارة عن دعوة لحضور مسرحية بمسرح صغير في العاصمة، معلنة عن أول ظهور، في ذلك الأسبوع بالذات، لـ «الهاوي الإقليمي ذائع الصيت ذي الشهرة في التمثيل، الذي أدى أداءً فريداً في أعظم تراجميديا لشاعرنا الوطني»^(١) وأحدث ضجة كبيرة مؤخراً في أوساط الدراما المحلية».

سألت: هل حضرت العرض يا جو؟

«نعم، حضرته» قال جو بتفخيم وإجلال.

- هل كان عرضاً مثيراً للغاية؟

قال جو: «نعم، كان هناك بالتأكيد الكثير من قشر البرتقال»^(٢)، خاصة عندما يظهر الشبح. على الرغم من ذلك، أنا أترك الأمر لك، يا سيدي، إن كان الرجل يمكنه الإبقاء على مستوى عمله بإخلاص، بينما تتم المقاطعة باستمرار بينه وبين الشبح بـ «آمين!» قال جو وهو يخفض صوته إلى نبرة جدلية ومتأثرة: «ربما كان الرجل يعاني من سوء حظ خلال عمله في الكنيسة، ولكن هذا ليس سبب إزعاجه في مثل هذا الوقت. وما أعنيه هو، إذا كان شبح والد الرجل لا يمكن السماح له بلفت انتباهه، فما الذي يمكن أن يفعل ذلك يا سيدي؟ علاوة على ذلك، عندما تكون قبعة حداده

(١) المقصود هنا مسرحية هاملت لوليم شكسبير. المترجم.

(٢) كان البرتقال هو الوجبة الخفيفة المعتمدة في المسرح في ذلك الوقت. المترجم.

صغيرة جدًا للأسف إلى درجة أن وزن الريش الأسود يتسبب في إسقاطها، فحاول أن يبقّيها مكانها بكل الطرق الممكنة».

ظهر تعبير على وجه جو كأنه رأى شبحًا، فعلمت أن هربت دخل الغرفة. لذلك، قدمت جو إلى هربت، الذي مديده؛ لكن جو تراجع إلى الوراء، وتمسك بعش الطائر.

قال جو: «خادمك يا سيدي، أتمنى أن تكون أنت وبيب» هنا وقعت عينه على المنتقم، الذي كان يضع بعض الخبز المحمص على الطاولة، وأظهر بوضوح نيّته في جعل ذلك السيد الشاب واحدًا منا فقطبت حاجبي وأربكته أكثر... «أقصد أن أقول أيها السيدان... أتمنى أن تكونا في أحسن صحة في هذا المكان الخانق» قال جو بثقة: «قد يكون في الوقت الحاضر نزلًا جيدًا وفقًا لآراء أهل لندن، وأعتقد أن طابعه يؤيد ذلك؛ لكن أنا شخصيًا لن أحتفظ فيه بخنزير، ليس في حالة رغبتني في تسمينه جيدًا لكي يكون شهياً عند أكله».

بعد أن قدم هذه الشهادة الممتعة عن مزايا مسكننا، وبعد أن أظهر بالمصادفة هذا الميل إلى مناداتي بـ «سيدي»، نظر جو، الذي تمت دعوته للجلوس إلى المائدة، في جميع أنحاء الغرفة بحثًا عن مكان مناسب لوضع قبعته فيه، كما لو أنها لم تجد مكانًا للراحة إلا فوق عدد قليل جدًا من المواد النادرة في الطبيعة، ووضعها في النهاية على أقصى حافة للمدفاة، والتي سقطت منها بعد ذلك أكثر من مرة.

«هل تناول الشاي أم القهوة يا سيد جارجيري؟» سأل هربت، الذي كان دائمًا يشرف على الفطور.

قال جو، متصليًا من رأسه إلى قدمه: «شكرًا لك يا سيدي، سأخذ ما يناسبك أكثر».

- ماذا عن القهوة؟

ردّ جو، وقد بدا من الواضح أن الاقتراح محبط: شكرًا لك يا سيدي،
فبما أنك لطيف جدًا في إعداد القهوة الأنيقة، فلن أعارض مع آرائك
الخاصة. لكن ألا تجدها تبعث على الحرارة قليلًا؟

قال هربرت وهو يسكبه: هو الشاي إذن.

وهنا سقطت قبة جو من فوق المدفأة، فنهض من كرسیه والتقطها،
وثبتّها في نفس المكان بالضبط، كما لو كان من علامات الخلق الحميد
أن تسقط مرة أخرى قريبًا.

- متى أتيت إلى المدينة يا سيد جارجيري؟

«هل كان ذلك بعد ظهر أمس؟» قال جو، بعد أن سعل في ظهر يده،
كما لو كان لديه الوقت الكافي للإصابة بالسعال الديكي منذ مجيئه. «لا،
لم يكن كذلك، نعم كان كذلك، نعم، كان ذلك بعد ظهر الأمس» (بمزيج
من الحكمة والارتياح والنزاهة التامة).

- هل رأيت أي جزء من لندن حتى الآن؟

قال جو: نعم يا سيدي، لقد ذهبنا أنا ووبسل مباشرة لإلقاء نظرة
على مصنع الورنيش^(١)، ولكننا لم نجده كما هو مصوّر في ملصقات
الإعلانات الحمراء على أبواب المتاجر. وأضاف جو بطريقة توضيحية:
وهو ما كنت أقصد قوله، لأنه مرسوم بشكلٍ معمعمعماري أكثر مما
ينبغي.

(١) مصنع وارن لصناعة ورنيش الأخذية، وهو المكان الذي عمل به تشارلز ديكنز نفسه في طفولته
عن عمر يناهز الاثني عشر عامًا. المترجم.

أعتقد حقاً أن جو كان سيُطيل هذه الكلمة (التي تعبر بقوة في ذهني عن بعض الهندسة المعمارية التي أعرفها) إلى نشيد متكامل، لولا أن انتباهه كان منجذباً إلى قبعته التي كادت تسقط. في الواقع، لقد تطلّب الأمر منه اهتماماً مستمراً وسرعة في العين واليد، تماماً مثل تلك التي يتطلّبها حارس الويكيت^(١). لقد لعب بشكل غير عادي، وأظهر أعظم مهارة؛ تارة يندفع نحوها ويمسك بها بدقة في أثناء سقوطها؛ وتارة يقوم فقط بإيقافها في منتصف الطريق، ويضربها، ويضعها بطريقة فكاهية في أجزاء مختلفة من الغرفة ومستندة إلى معظم تصاميم ورق الحائط، قبل أن يشعر أنه من الآمن أن يطبق عليها؛ وأخيراً، هبطت في سلطانية فضلات الطعام، حيث سمحت لنفسه بوضع يديه عليها.

أما بالنسبة إلى ياقة قميصه وياقة معطفه، فقد كانتا محيرتين تماماً، وكلتاها لغزان لا يمكن تفسيرهما. كيف يضع المرء نفسه في مثل هذه الورطة كي يُعِد نفسه في ثوبٍ رسمي؟ لماذا يفترض أنه من الضروري أن يتطهر بالآلام من أجل ملابس العيد؟ ثم وقع في نوبات تأمل غير مبرّرة، وشوكته في منتصف الطريق بين طبقه وفمه؛ والتفتت عيناه التفاتاً غريبة؛ كان يعاني من مثل هذا السعال الملحوظ؛ جلس بعيداً عن الطاولة، وأسقط طعاماً أكثر بكثير مما أكل، وتظاهر بأنه لم يُسقطه؛ كنت سعيداً للغاية عندما غادرنا هربرت إلى المدينة.

لم يكن لديّ أي حس سليم أو شعور جيد لأعلم أن هذا كله كان خطئي، وأنه لو كنت متساهلاً مع جو، لأصبح جو متساهلاً معي. لقد نفذ صبري منه، وغضبت منه؛ وفي حالتي هذه قابل هو الإساءة بالإحسان.

(١) ما يشبه المرمى في لعبة الكريكت. المترجم.

«نحن الاثنين الآن وحدنا يا سيدي»، قال جو.

قاطعته بتذمر: جو، كيف يمكنك مناداتي سيدي؟

نظر جو إليَّ لحظة واحدة بشيء يشبه اللوم، على الرغم من أن ربطة عنقه كانت منافية للعقل تمامًا، وكذلك ياقاته، فقد كنت أشعر بنوع من الهيبة في مظهره.

استأنف جو قائلاً: «نحن الاثنين الآن وحدنا، وليس لديّ النية أو القدرة على البقاء لدقائق قليلة أخرى، وسأختتم الآن -على الأقل أبدأ- بذكر السبب الذي أدى إلى حصولي على شرف القدوم إلى هنا». قال جو، بأسلوبه القديم الواضح في الشرح، «لولا أن أمنيّتي الوحيدة هي أن أكون مفيداً لك، لما كنت سأحظى بشرف مشاركة الطعام في صحبة السادة وفي دارهم».

لم أكن أرغب في رؤية تلك النظرة مرة أخرى، إلى درجة أنني لم أعترض على هذه النبذة.

تابع جو: «حسنًا يا سيدي، هكذا كان الأمر. لقد كنت في حانة الجولي بارجمن في ليلة ما يا بيب». كلما استقر في عاطفته، كان يناديني بيب، وكلما عاد إلى الكياسة كان يناديني سيدي؛ «عندما أتى بامبلتشوك في عربته». قال جو وهو يتبع أسلوبًا جديدًا: «هو نفسه، الذي يغطيني أحيانًا، شيء فظيع، قائلاً إنه كان يتجول بك في المدينة ذهابًا وإيابًا كما لو كان هو الذي كان يرافقك منذ طفولتك، وأنت تنظر إليه على أنه رفيق اللعب».

- كلام فارغ. لقد كان أنت يا جو.

قال جو وهو يهز رأسه قليلًا: «هذا ما أعتقد تمامًا يا بيب، على الرغم

من أن هذا لا يعني الكثير الآن يا سيدي. حسنًا يا بيب. هو ما زال على عهده، بطبيعته المتبجحة ذاتها، أتى إليّ في الحانة (إن الغليون ونصف لتر من البجعة يمنحان العامل الانتعاش، يا سيدي، من دون المغالاة في تحفيزه)، وكانت كلمته: «جوزيف. إنها الآنسة هافيشام، إنها ترغب في التحدث إليك».

– الآنسة هافيشام، يا جو؟

«إنها ترغب» كانت كلمات بامبلتشوك، «في التحدث إليك» جلس جو، وأدار عينيه إلى السقف.

– نعم يا جو؟ أرجوك استمر.

قال جو وهو ينظر إليّ كما لو كنت بعيدًا: في اليوم التالي يا سيدي، بعد أن نظفت نفسي، ذهبت لأرى الآنسة أ...

– الآنسة أ، يا جو؟ تقصد الآنسة هافيشام؟

«هذا ما أقوله يا سيدي» أجاب جو بأسلوب رسمي قانوني، كما لو كان يكتب وصيته، «الآنسة أ، أو هافيشام بطريقة أخرى، تلفّظت بالآتي: «السيد جارجيرى، هل أنت على تواصل مع السيد بيب؟» بعد أن تلقيت رسالة منك، تمكّنت من أن أقول «نعم، أنا كذلك» (عندما تزوجت أختك، يا سيدي، قلت: «نعم»، وعندما أجبت صديقتك، «يا بيب»، قلت: «نعم»».

قالت: هل يمكنك أن تخبره إذن أن إستيلا عادت إلى المنزل وستكون سعيدة برؤيته؟

شعرت أن وجهي يشتعل عندما نظرت إلى جو. أرجو ألا يكون أحد الأسباب الرئيسية هو إدراكي أنني لو كنت أعرف مهمة جو، كنت سأقدّم له المزيد من التشجيع.

تابع جو: «بيدي، عندما وصلت إلى المنزل وطلبت منها أن تكتب لك الرسالة، تراجعت قليلاً. وقالت بيدي: «أعلم أنه سيكون سعيداً جداً بالحصول على الرسالة شفهيّاً، إنه وقت العطلة، إذا كنت تريد رؤيته، اذهب!» قال جو، وهو ينهض من كرسیه: «لقد انتهيت الآن يا سيدي، ويا بيب، أتمنى لك التوفيق دائماً والازدهار دائماً إلى آفاقٍ أكبر وأكبر».

- لكنك لن تذهب الآن يا جو؟

قال جو: نعم أنا ذاهب.

- لكن هل ستعود لتناول العشاء يا جو؟

قال جو: لا، لن أعود.

التقت أعيننا، وذابت كل كلمات «سيدي» من ذلك القلب الرجولي عندما مدَّ إليَّ يده.

- بيب، أيها الصديق القديم العزيز، الحياة مصنوعة من أجزاء كثيرة ملحومة معاً، كما يمكنني القول، رجل واحد حداد، والآخر صفاح، والآخر صائغ، والآخر نحاس. يجب أن تأتي التفرقة بين هؤلاء، ويجب قبولها عند حدوثها. إذا كان هناك أي خطأ على الإطلاق اليوم، فهو خطئي. أنت وأنا لسنا شخصين يمكنهما البقاء معاً في لندن؛ ولا في أي مكان آخر سوى ما هو خاص ومعروف ومفهوم بين الأصدقاء. لا يعني ذلك أنني فخور بذلك، ولكنني أريد أن أكون منصفاً، لأنك لن تراني أبداً بهذه الملابس مرة أخرى. أنا لا أنتمي إلى هذه الملابس. لقد أخطأت في الخروج من دكان الحدادة، أو المطبخ، أو المستنقعات. لن تجد نصف هذا القدر من العيب فيّ إذا فكرت فيّ وأنا أرتمي ملابسي، أو بمطرقتي

في يدي، أو حتى غليونني. لن تجد نصف هذا القدر من العيب فيّ،
إذا أنت، إن رغبت في رؤيتي، أتيت ووضعت رأسك عند نافذة
دكان الحدادة وشاهدت جو الحداد، هناك، عند السندان القديم،
في المنزر القديم المحترق، أقوم بعملتي القديم. أنا ثقيل الفهم
جدًّا، لكنني آمل أن أكون قد فهمت الأمر أخيرًا؛ ولذا بارك الله
فيك، يا عزيزي بيب، أيها الصديق القديم، بارك الله فيك !

لم أكن مخطئًا في تصوري أن هناك هبة متواضعة فيه. لم يعد من
الممكن أن تعترض ثيابه طريقه عندما تكلم بهذه الكلمات، كما لن
تعترض طريقه في السماوات. لقد لمسني بلطفٍ

على الجبهة، وخرج. وبمجرد أن تمكنت من لملة شتات نفسي
بشكلٍ كافٍ، أسرع خلفه وبحث عنه في الشوارع المجاورة؛ لكنه قد
اختفى.

الفصل الثامن والعشرون

كان من الواضح أنني يجب أن أعود إلى مدينتنا في اليوم التالي، وفي الاسترسال الأول لتوبتي، كما كان من الواضح أنني يجب أن أبقى في منزل جو. ولكن عندما حصلت على مقعدي في مركبة الغد بجوار السائق، وذهبت إلى منزل السيد بوكيت وعدت، لم أكن مقتنعاً بأي حال من الأحوال بالنقطة الأخيرة، وبدأت في اختلاق الحجج والأعذار لنفسي للمبيت في البلو بور؛ مثلاً إنني سأكون مصدر إزعاج لجو؛ إنني لم أكن متوقعاً، إن فراشي لن يكون جاهزاً؛ إنني سأكون بعيداً جداً عن الأنسة هافيشام، وكان الأمر ملحاً وقد لا يعجبها ذلك. كل مخادعي الأرض ليسوا شيئاً بالنسبة إلى من يخدعون أنفسهم، وبهذه الذرائع خدعت نفسي. شيء غريب بالتأكيد. إن حصولي براءة على نصف كرون مزيف من صنع شخص آخر هو أمر معقول بما فيه الكفاية؛ ولكن أن أعتبر العملة المزيفة التي صنعتها أنا، عن عمد، نقوداً سليمة! إن شخصاً غريباً مهذباً، قد يقوم بطي أوراق النقدية بحجة الأمان، ثم يأخذ الأوراق النقدية ويعطيني قشر الجوز بدلاً منها؛ ولكن خفة يده هذه لا تقارن بي عندما أطوي أنا قشر الجوز وأمرره لنفسي على أنه أوراق نقدية!

بعد أن قررت أنني يجب أن أذهب إلى بلو بور، انزعج ذهني كثيراً بسبب التردد في اتخاذ قرار بشأن أخذ المنتقم معي أم لا. كان من المغري

أن نفكر في ذلك المرتزق الباهظ الثمن وهو يتنزّه بحذائه العالي علناً في ممر الفناء الخلفي الخاص بالبلو بور؛ كان من المهيّب تقريباً أن نتخيله وهو معروض بالصدفة في محل الخياط، الأمر الذي قد يربك حواس صبي ترّاب عديم الاحترام. من ناحية أخرى، قد يصادقه صبي تراب ويخبره بأشياء؛ أو، كونه متهوراً وبائساً كعهدي به، قد يهاجمه في هاي ستريت. قد تسمع عنه وليّة نعمتي أيضاً ولا توافق عليه؛ على العموم، قررت أن أترك المنتقم خلفي.

أخذت مكاني في عربة ما بعد الظهر، وبما أن الشتاء قد جاء الآن، فلن أصل إلى وجهتي إلا بعد ساعتين أو ثلاثة من حلول الظلام. كان وقت انطلاقنا من أمام حانة كروس كيز هو الساعة الثانية. وصلت إلى المكان قبل الموعد بربع ساعة، والمنتقم يقوم بخدمتي، هذا إذا جاز لي التعبير عن شخص لم يكن ليقوم بخدمتي أبداً إن استطاع.

في ذلك الوقت كان معتاداً نقل المدانين إلى المرفأ بواسطة عربة الخيل، وبما أنني سمعت عنهم كثيراً أنهم يمكنون على العربة من الخارج، ورأيتهم أكثر من مرة على الطريق السريع وهم يتدلون بأرجلهم المغلولة فوق سقف العربة، لم يكن لديّ أي سبب للدهشة عندما التقى بي هربرت في الساحة، وأخبرني أن هناك اثنين من المدانين سيركبان معي، ولكن كان لديّ سبب، وهو سبب قديم الآن، لأن أجفل كالمتعاد كلما سمعت كلمة «مدان».

«هل تمانع في ذلك يا هاندل؟» قال هربرت.

- ياه، لا!

- اعتقدت أنك تبدو كما لو كنت لا تحبهم؟

- لا أستطيع التظاهر بأنني أحبهم، وأفترض أنك لا تحبهم بشكل خاص. لكنني لا أمانع وجودهم.

«أترى!» قال هربرت: «ها هم، يخرجون من حانة تاب. يا له من منظر منحط وكريه!».

أعتقد أنهم كانوا قد دعوا حارسهم للشراب، لأنه كان معهم سجان، وخرج الثلاثة جميعاً وهم يمسحون أفواههم بأيديهم. كان المدانان مكبلي الأيدي معاً، وكانت رجلاهما مكبلتين بالحديد، وهو حديد من الطراز الذي كنت أعرفه جيداً. وقد ارتديا الزي الذي كنت أعرفه جيداً أيضاً. كان حارسهما يرتدي حامل مسدسات، ويحمل هراوة ذات مقبض غليظ تحت ذراعه؛ لكنه كان على تفاهم جيدٍ معهما، ووقف وهما إلى جانبه، ينظر إلى وضع الخيول، كما لو كان المدانان معرضاً مثيراً للاهتمام لم يُفتح رسمياً بعد، وكان هو أمين المعرض. كان أحدهما أطول وأكثر بدانة من الآخر، وكما هو متوقع، وفقاً لهذا العالم المليء بالألغاز، سواء كان الشخص مداناً أو حرّاً، أنه قد خصص له الثوب الأصغر مقاساً. كانت ذراعه وساقاه مثل وسادات الدبابيس المحشوة، وكانت ملابسه تجعله متخفياً بشكلٍ عبيّ؛ لكنني عرفت عينه نصف المغلقة بنظرة واحدة. كان يقف هناك الرجل الذي رأيته في المقعد المقابل لي في حانة ثري جولي بارجمن في إحدى ليالي السبت، والذي أطاحني ببندقته غير المرئية!

كان من السهل التأكد من أنه لا يعرفني حتى الآن كأنه لم يرني قط في حياته. نظر إليّ، وفحصت عينه سلسلة ساعتِي، ثم بصق بطريقة عرضية، وقال شيئاً للمدان الآخر، فضحكا وأدارا نفسيهما بصلصلة من قيودهما، ونظرا إلى شيء آخر. كانت الأرقام على ظهريهما كبيرة للغاية، كأنها

أبواب شوارع؛ سطحها الخارجي خشن وجرب، كما لو كانت حيوانات دنيا؛ أرجلها المكبلّة، مكلفة بمناديل الجيب^(١) بطريقة مؤسفة؛ والنهج الذي نظر به جميع الحاضرين إليهما وابتعدوا عنهما؛ جعلهما (كما قال هربرت) منظرًا منقطعًا وكريهًا للغاية.

لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر. وتبين أن الجزء الخلفي من الحافلة بالكامل قد أخذته عائلة تنتقل من لندن، وأنه لم يكن هناك مكان للسجينين إلا على المقعد الأمامي خلف السائق. كان هناك رجل سريع الغضب قد احتل المركز الرابع على ذلك المقعد، عندها اندفع باهتياج، وقال إن خلطه مع مثل هذه الصحبة الشريرة يُعد انتهاكًا للعقد، وأن هذا أمرٌ مؤذٍ ومسيء ومخزٍ وشائن، وغيرها من الصفات. في هذا الوقت كانت العربّة جاهزة، والسائق نفذ صبره، وكنا جميعًا نستعد للصعود، وجاء السجناء مع حارسهم، حاملين معهم تلك الرائحة الغريبة لمربط الجلد، والجوخ، وحبال السفن، ومنظف الموقد التي عادة ما تصطبح المدانين.

«لا تسيء فهم الأمر يا سيدي» توسّل الحارس إلى الراكب الغاضب؛ «سأجلس جوارك بنفسي. سأضعهم في الجزء الخارجي من الصف. لن يتعرضوا لك يا سيدي، لن تشعر أنهم على متن العربّة».

«ولا تلومني» زمجر المدان الذي تعرّف عليه، «لا أريد أن أذهب، أنا على استعداد تام للبقاء هنا. من ناحيتي، أرحب بأي شخص يريد أن يأخذ مكاني».

(١) لمنع احتكاك الأغلال بالكاحل أسوة بجيم بلشر الملاكم البريطاني (١٧٨١ - ١٨١١) الذي كان لديه ذوقٌ خاص في مناديل الجيب بتصميم أزرق منقط. المترجم.

«أو مكاني» قال الآخر بفظاظة، «لم أكن لأضايق أحداً منكم، لو كان الأمر بيدي». ثم ضحكا كلاهما، وبدأ في أكل المكسرات، وبصق القشر، أعتقد حقاً أنني كنت أتمنى ذلك لنفسي، لو كنت في مكانهما ومحتقراً إلى هذا الحد.

أخيراً، صوّت على أنه لا يمكن عمل شيء للرجل الغاضب، وأنه يجب عليه إما الجلوس بجوار الصحبة العارضة، وإما عدم الركوب على الإطلاق. لذلك دخل إلى مكانه، متذمراً، ودخل الحارس إلى المكان المجاور له، وقام المدانان بضم نفسيهما قدر استطاعتهما، وكان المتهم الذي تعرّف عليه يجلس خلفي وأنفاسه تداعب شعر رأسي.

«وداعاً يا هاندل!» صاح هربرت عندما تحررنا. وفكرت كم كان من حسن الحظ أنه وجد لي اسماً آخر غير بيب.

من المستحيل التعبير عن مدى حدة شعوري بتنفس السجين، ليس فقط في مؤخرة رأسي، بل على طول عمودي الفقري بأكمله. كان الإحساس كما لو أن حمضاً لاذعاً حاداً لمسني حتى النخاع، مما عكر صفوي. بدا النفس الذي يأخذه أعمق من أي رجل آخر، وضجيجاً أكبر يحدثه في أثناء القيام بذلك؛ وكنت واعياً بأن كتفًا من كتفي صار عاليًا، وأنا أجلس منكمشاً في محاولتي لصدّه.

كان الطقس قاسياً للغاية، وكان الاثنان يلعبان البرد. لقد جعلنا ذلك جميعاً خاملين للغاية قبل حتى أن نذهب بعيداً، وعندما انتصف الطريق، اعتدنا النعاس والارتعاش والصمت. لقد غفوت بنفسي وأنا أفكر إن كان ينبغي لي أن أعطي هذا المخلوق جنينين إسترلينيين قبل أن يغيب عن نظري، وكيف يمكن القيام بذلك على أفضل وجه. وبينما كنت

أترجع إلى الأمام كما لو كنت سأستحم بين الخيول، استيقظت مذعورًا،
وطرحت على نفسي السؤال مرة أخرى.

لكن لا بد أنني غفوت فترة أطول مما كنت أعتقد، لأنه على الرغم
من أنني لم أتمكن من التعرف على أي شيء في الظلام والأضواء والظلال
المتقطعة لمصايحنا، فإنني تعرفت على المستنقعات في الرياح الرطبة
الباردة التي هبَّت علينا. بسبب انكماشهما إلى الأمام طلبًا للدفع، وجعلي
ستارًا ضد الرياح، أصبح المدانان أقرب إليّ من ذي قبل. الكلمات الأولى
التي سمعتهما يتبادلانها عندما صحت، كانت كلمات فكرتي الخاصة:
ورقتين من فئة الجنيه.

«كيف حصل عليهما؟» قال المحكوم عليه الذي لم أره من قبل.

«كيف لي أن أعرف؟» أجاب الآخر. «خبأهما بطريقة ما، أتوقع أنه
حصل عليهما عن طريق بعض الأصدقاء».

قال الآخر وهو يلعن البرد بمرارة: أتمنى لو أنهما هنا.

- الورقتان فئة الجنيه، أم الأصدقاء؟

- الورقتان فئة الجنيه. سأبيع كل أصدقائي الذين حظيت بهم
مقابلهما، وأعتقد أنها ستكون صفقة جيدة ومباركة. حسنًا؟ ماذا
قال؟

استأنف السجين الذي تعرفت عليه، «لقد قيل كل شيء، ونُفذ
في نصف دقيقة، خلف كومة من الأخشاب على المرفأ،» سوف يتم
تسريحك؟» قلت نعم. «هلا تجد ذلك الصبي الذي أطعمني وكتم سري
وتعطيه هاتين الورقتين فئة الجنيه؟» قلت إنني سأفعل، وفعلت».

«يا لك من أحمق» زمجر الآخر. «كنت سأنفقها على نفسي في الأكل

والشراب. لا بد أنه كان ساذجًا. هل يعني ذلك أنه لا يعرف شيئًا عنك؟».

- على الإطلاق. عصابات مختلفة وسفن مختلفة. لقد حوِّك مرة

أخرى بتهمة هروبه من السجن، وحُكِّم عليه بالسجن مدى الحياة.

- وهل كانت تلك بالفعل المرة الوحيدة التي عملت فيها في هذا

الجزء من البلاد؟

- المرة الوحيدة.

- ما هو رأيك في المكان؟

- المكان الأكثر وحشية. ضفاف من الطين والضباب والمستنقع

والعمل؛ العمل والمستنقع والضباب وضفاف من الطين.

لعن كلاهما المكان أشد اللعنات، ثم زمجرا تدريجيًا، ولم يتبقَّ

لديهما ما يقولانه.

بعد أن سمعت هذا الحوار، كان عليّ أن أنزل وأترك في عزلة

الطريق السريع وظلامه، لولا يقيني بأن هويتي لم تثير شبهته بأي شكلٍ

من الأشكال. في الواقع، لم تتغير هيئتي فحسب، بل كنت أرتدي ملابس

مختلفة وفي مستوى مختلف تمامًا، إلى درجة أنه لم يكن من المحتمل

على الإطلاق أن يعرفني دون مساعدة خارجية. ومع ذلك، فإن مصادفة

وجودنا معًا على متن العربة، كانت غريبة بما يكفي لتملأني بالخوف من

أن مصادفة أخرى قد تجعله يسمع اسمي في أي لحظة. ولهذا السبب

قررت النزول بمجرد وصولنا إلى المدينة، كي أبعد نفسي عن أذنيه.

وقمت بتنفيذ الأمر بنجاح. كانت حقيبتى الصغيرة في صندوق الأمتعة

تحت قدمي؛ لم يكن عليّ سوى أن أدير المفصلة لإخراجها؛ ورميتها

أمامي، ثم نزلت خلفها، وتركت عند أول مصباح على أول حجارة من

رصيف المدينة. أما المدانان فقد ذهبا مع العربية، وكنت أعرف في أي نقطة سيُنقلنا إلى النهر. في خيالي، رأيت القارب مع طاقم المدانين ينتظرونهم عند الدرج المغمور بالوحل، وسمعت مرة أخرى الصوت الأجش يقول «أفسح الطريق!» كأنه يأمر الكلاب، ورأيت مرة أخرى النسخة الشريرة من سفينة نوح مُلقاة على المياه السوداء^(١).

لم يكن في وسعي أن أقول ما كنت خائفًا منه، لأن خوفي كان غير محددٍ وغامضًا تمامًا، ولكن كان هناك خوف عظيم داخلي. وبينما كنت أسير إلى الفندق، شعرت أن خوفًا يتجاوز بكثير مجرد الخوف من اعترافٍ مؤلم أو غير مقبول، جعلني أرتجف. أنا واثق من أنه لم يكن له شكل مميز، وأنه كان بمنزلة إحياء لرعب الطفولة لبضع دقائق.

كان المقهى في فندق بلو بور فارغًا، ولم أطلب العشاء هناك فحسب، بل جلست لتناوله حتى تعرّف عليّ النادل. بمجرد أن اعتذر لأن ذاكرته قد خانت، سألتني إذا كان عليه أن يطلب قدوم السيد بامبلتشوك؟ قلت: لا، بالتأكيد لا.

بدا النادل (وهو نفس النادل الذي أبلغنا باعتراض الحضور على الإزعاج، في اليوم الذي ألُزمت فيه)^(٢) مندهشًا، واغنم أول فرصة لوضع نسخة قديمة قدره من صحيفة محلية أمامي مباشرة، فأخذتها وقرأت هذه الفقرة:

نعلم قراءنا، بعناية شديدة، بالاغتناء الخيالي حديث العهد لصانع

(١) إشارة إلى أحداث نهاية الفصل الخامس. المترجم.

(٢) إشارة إلى أحداث نهاية الفصل الثالث عشر. المترجم.

الحديد الشاب من هذا الحي (يا له من موضوع، بالمناسبة، للقلم السحري لمواطن مدينتنا وشاعر أعمدتنا الذي لم يُعترف به عالمياً بعد، والذي سيترك أثراً في العالم!) ليكون أول راعٍ ورفيق وصديق لهذا الشاب، هو شخصٌ يحظى باحترامٍ كبيرٍ، ولم يكن منقطعاً تماماً عن تجارة الذرة والبذور، والذي تقع مبانيه التجارية الرحبة على بُعد مائة ميل من هاي ستريت وفي تناول الجميع. إننا من أعماق قلوبنا نشير إليه كمرشدٍ لشابنا تليماخوس^(١)، وأنا سعداء بمعرفة أن مدينتنا هي من أخرجت مؤسس ثروات هذا الشاب. هل يستفسر السادة الحكماء والسيدات الجميلات عن ثروات من نتحدث؟ نحن نعتقد أن كويتين ماتسيس كان حداد أنثويرب^(٢).

هذا هو مفتاح اللغز.

لديّ قناعة، بناء على خبرتي العظيمة، بأنني لو كنت قد ذهبت في أيام ازدهاري إلى القطب الشمالي، لكنت التقيت بشخصٍ ما هناك، رجل إسكيمو متجول أو رجل متحضر، والذي كان سيخبرني أن بامبلتشوك كان أول راعٍ لي ومؤسس ثروتي.

(١) إحدى شخصيات أوديسة هوميروس، حيث لعبت الربة أثينا دور المرشد له. المترجم.

(٢) كان كويتين ماتسيس (١٤٦٦-١٥٣٠) رساماً فلمنكياً، بدأ حياته كحدادٍ مثل بيب. المترجم.

الفصل التاسع والعشرون

في وقتٍ مبكرٍ من الصباح، استيقظت وخرجت. كان الوقت مبكرًا جدًا للذهاب إلى منزل الأنسة هافيشام، لذلك تسكعت في المدينة تجاه الحي الذي تسكن فيه الأنسة هافيشام، والذي لم يكن ناحية منزل جو؛ يمكنني أن أذهب إلى هناك غدًا؛ غدوت أفكر في وليّة نعمتي، وأرسم في خيالي صورًا رائعة لخططها لي.

لقد تبنت إستيلا، وتبنتني أنا أيضًا، ولا يمكن إلا أن تكون نيّتها جمعنا معًا. لقد احتفظت بإستيلا لي لنعيد إحياء المنزل المقفر، والسماح لأشعة الشمس بالدخول إلى الغرف المظلمة، وضبط الساعات للعمل مرة أخرى، وإشعال المواقد الباردة، وتمزيق خيوط العنكبوت، وإبادة الحشرات، وباختصارٍ، القيام بكل أعمال فارس الأحلام على الحصان الأبيض، وأتزوج بالأميرة. توقفت لإلقاء نظرة على المنزل في أثناء مروري؛ وجدرانه المحترقة من الطوب الأحمر، ونوافذه المسدودة، واللبلاب الأخضر القوي الذي يشبك حتى فتحات المداخل بأغصانه وأوتاره، كما لو كانت أذرعًا عتيقة مفتولة، قد شكّلت لغزًا غنيًا وجذابًا، كنت أنا بطله. كانت إستيلا مصدر الإلهام لهذا المنزل، وقلبه بالطبع. ولكن، على الرغم من أنها استحوذت عليّ بقوة، وعلى الرغم من أن خيالي وأملي كانا معلقين عليها، ورغم أن تأثيرها في حياتي الصببانية

وشخصيتي كان قويًا للغاية، فإنني لم أمنحها حتى في ذلك الصباح الرومانسي صفات سوى تلك التي تمتلكها. أذكر هذا في هذا المكان، لغرضٍ محددٍ، لأنه طرف الخيط الذي سأنبهه في متاهتي البائسة. وفقًا لتجربتي، فإن المفهوم التقليدي للحبيب لا يمكن أن يكون صحيحًا دائمًا. الحقيقة المطلقة هي أنني عندما أحببت إستيلا كرجل، أحببتها ببساطة لأنني وجدتها لا تقاوم. وأخيرًا، كنت أعلم للأسف، في كثيرٍ من الأحيان، إن لم يكن دائمًا، أنني أحببتها رغم العقل، والعهد، والأمان، والأمل، والسعادة، ورغم كل الإحباطات. أحببتها رغم كل ذلك لأنني كنت أعلمه، ولم يكن له تأثير في كبح جماح نفسي مثلما لو كنت أومن بإخلاصٍ بأنها صورة للكمال.

مشيت الهوينى حتى وصلت إلى البوابة في موعدي القديم. عندما قرعت الجرس بيدٍ مترعزة، أدركتُ ظهري للبوابة، بينما كنت أحاول التقاط أنفاسي والحفاظ على هدوء نبضات قلبي إلى حدٍّ ما. سمعت الباب الجانبي يفتح، وخطوات تمر عبر الفناء؛ لكنني تظاهرت بعدم سماعها، حتى عندما تأرجحت البوابة على مفصلاتها الصدئة.

لمس أحدهم كتفي أخيرًا، فاستدرت. تحركت حينها بشكلٍ طبيعي أكثر، لأجد نفسي في مواجهة رجل يرتدي ثوبًا رماديًا رصينًا، آخر رجل كنت أتوقع رؤيته كحارس بوابة عند الآنسة هافيشام.

- أورليك!

- نعم، أيها السيد الشاب، لست الوحيد الذي تغير، لكن ادخل، ادخل، إن إبقاء البوابة مفتوحة يخالف الأوامر الموجهة إليّ.

دخلت فأغلق البوابة وأحكم إغلاقها ثم أخرج المفتاح. «نعم!» قال

وهو يواجهني، بعد أن سبقني بإصرارٍ بضع خطوات تجاه المنزل، «ها أنا ذا!».

- كيف أتيت إلى هنا؟

أجاب: لقد أتيت إلى هنا على ساقَي، لقد أحضرت صندوقي بجانبني في عربة يد.

- هل أنت هنا بشكل دائم؟

- أنا لست هنا من أجل الأذى، أيها السيد الشاب، على ما أعتقد؟
لم أكن متأكدًا من ذلك. كان لديّ وقت للتفكير في الرد دون أن أنفّوه به، بينما كان يرفع ببطء نظراته الثقيلة من الرصيف، إلى أعلى ساقَي وذراعي، ثم إلى وجهي.

سألت: هل تركت دكان الحدادة إذن؟

«هل يبدو هذا كأنه دكان حدادة؟» أجاب أورليك، وأرسل نظراته إلى كل مكان حوله وقد بدا عليه بعض البأس، «والآن، هل يبدو كذلك؟».

سألته منذ متى ترك دكان حدادة جارجيري؟

أجاب: الأيام متشابهة، إلى درجة أنني لا أعرف دون أن أحسبها. ومع ذلك، جئت إلى هنا بعد مغادرتك.

- أنا أعلم ذلك يا أورليك.

«آه!» قال بجفاف، «إذن فأنت علامة».

بحلول هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى المنزل، حيث وجدت غرفته تقع داخل الباب الجانبي مباشرةً، وبها نافذة صغيرة تطل على الفناء. في أبعاده الصغيرة، لم يكن مختلفًا عن نوع المكان المخصص عادةً لحارس

البوابة في باريس. وكانت بعض المفاتيح معلقة على الحائط، وقد ألحق بها الآن مفتاح البوابة؛ وكان فراشه المغطى بغطاءٍ مرَّعٍ يقع في قسمٍ داخلي صغير أو تجويف. كان كل المكان ذا مظهرٍ قذر، منعزل، وخامل، مثل قفص للقوارض البشرية؛ بينما كان هو، الذي كان يلوح في الأفق مظلمًا وثقيلًا في ظل زاوية بجوار النافذة، بدا مثل القارض البشري الذي جُهِز المكان من أجله، كما كان بالفعل.

قلت: لم أرَ هذه الغرفة من قبل قطُّ؛ ولكن لم يكن هناك حارس بوابة هنا.

قال: لا، لم يكن الأمر كذلك حتى لم تكن هناك حماية في المبنى، وأصبح الأمر يُعتبر خطيرًا، حيث المدانون، وكل من هبَّ ودبَّ يأتون ويذهبون. زُكيت كرجلٍ يمكنه حماية المكان، فقبلت بالعمل، إنه أسهل من النفخ والطرق؛ فهذا المسدس محشو.

كانت عيناى قد علقنا بمسدس ذي مخزون نحاسي فوق رف المدفأة، وكانت عينه تتبع عيني.

قلت، وأنا لا أرغب في زيادة الحديث: حسنًا، هل يجب أن أذهب إلى الآنسة هافيشام؟

«ليس لديَّ أدنى فكرة!» أجاب، وهو يمدد جسمه أولًا، ثم يهزه؛ «أوامري تنتهي هنا، يا سيدي الشاب. اقرع هذا الجرس بهذه المطرقة، واستمر في السير على طول الممر حتى تقابل شخصًا ما».

- أنهم في انتظاري، أعتقد؟

قال: لتحرقني النيران، إن كنت أعلم!

عند ذلك، نزلت عبر الممر الطويل الذي مشيته لأول مرة بحذائي

الغليظ، وقرعت الجرس. في نهاية الممر، بينما كان صدى الجرس لا يزال يتردد، وجدت سارة بوكيت، التي بدا أنها أصبحت الآن خضراء وصفراء بسببي.

قالت: أوه! إنه أنت. أليس كذلك يا سيد بيب؟

- بالفعل يا آنسة بوكيت. يسعدني أن أخبرك أن السيد بوكيت وعائلته بخير.

«هل هم أكثر تعقلاً؟» قالت سارة بهزة كئيبة لرأسها؛ «من الأفضل أن يكونوا أكثر تعقلاً من أن يكونوا بخير. آه، ماثيو، ماثيو! هل تعرف طريقك يا سيدي؟».

كنت أعرف طريقي جيداً، لأنني كنت قد صعدت الدرج في الظلام عدة مرات. صعدت إليه الآن، مرتدياً حذاءً أخفّ من ذي قبل، وطرقت بطريقتي القديمة باب غرفة الآنسة هافيشام. سمعتها تقول على الفور: إنها طريقة بيب؛ تعال، يا بيب.

كانت على كرسيها بالقرب من الطاولة القديمة، بثوبها القديم، ويدها متقاطعتان على عصاها، وذقنها عليهما، وعيناها على النار. كانت تجلس بالقرب منها، وفي يدها الحذاء الأبيض الذي لم تلبسه من قبل، ورأسها منحني وهي تنظر إليه، سيدة أنيقة لم تسبق لي رؤيتها من قبل.

«تعال يا بيب» واصلت الآنسة هافيشام متمتمتها، دون أن تنظر حولها أو إلى أعلى؛ «تعال يا بيب، كيف حالك يا بيب؟ تقبل يدي كما لو كنت ملكة، أليس كذلك؟ حسناً؟».

نظرت إليّ فجأة، حركت عينيها فقط، وكررت بطريقة مرحة متجهمة:
- حسناً؟

قلت وأنا في حيرة من أمري: سمعت يا آنسة هافيشام أنك كنت لطيفة إلى درجة أنك رغبت في أن آتي لرؤيتك، وقد أتيت مباشرة.

– حسناً؟

السيدة التي لم تسبق لي رؤيتها من قبل، رفعت عينيها، ونظرت إليّ بمكر، ثم رأيت أن العينين كانتا عينيّ إستيلا. لكنها تغيرت كثيراً، وأصبحت أكثر جمالاً، وأكثر أنوثة، وصارت موضع إعجاب في كل شيء، وقد حققت تقدماً رائعاً، إلى درجة جعلتني أبدو كأنني لم أحقق شيئاً. لقد تخيلت، عندما نظرت إليها، أنني تحولت مرة أخرى بشكل يائس إلى الصبي الفظ من العامة مرة أخرى. انتابني شعور بالبعد والتفاوت وأنها ما زالت بعيدة المنال!

أعطتني يدها. تمتمتُ بشيء عن سعادتي برؤيتها مرة أخرى، وعن تطلّعي إلى ذلك لفترة طويلة جداً.

«هل تجدها تغيرت كثيراً يا بيب؟» سألت الآنسة هافيشام، بنظرتها الجشعة، وضربها بعصاها على الكرسي الذي كان بينهما، كإشارة إليّ للجلوس هناك.

– عندما دخلت يا آنسة هافيشام، اعتقدت أنه لم يبقَ هناك أي شيء من إستيلا في الوجه أو الشكل؛ ولكن الآن كل شيء يستقر بشكل غريب في شكلها...

«ماذا؟ أنت لن تقول القديم؟» قاطعت الآنسة هافيشام. «لقد كانت متكبرة ومهينة، وأردت أن تبعد عنها، ألا تتذكر؟».

قلت في حيرة من أمري إن ذلك كان منذ زمنٍ بعيدٍ، وإنني لم أكن أعرف أفضل من ذلك آنذاك، وما شابه ذلك. ابتسمت إستيلا بهدوء تام،

وقالت إنها لا تشك في أنني كنت على حق تمامًا، وأنها كانت سمجة للغاية.

«هل تغيرَ بيب؟» سألتها الآنسة هافيشام.

قالت إستيلا وهي تنظر إليَّ: «كثيرًا».

«صار أقل خشونة وسوقية؟» قالت الآنسة هافيشام وهي تلعب بشعر

إستيلا.

ضحكت إستيلا، ونظرت إلى الحذاء الذي في يدها، ثم ضحكت مرة أخرى، ونظرت إليَّ، ووضعت الحذاء أرضًا. لقد عاملتني كصبي، لكنها سحرتني.

جلسنا في الغرفة الحالمة وسط التأثيرات الغريبة القديمة التي أحدثتها عليَّ، وعلمت أنها عادت لتوها من فرنسا، وأنها ذاهبة إلى لندن. لقد أخضعت الصفات القديمة، الكبر والعند، لجمالها إلى درجة أنه كان من المستحيل وخارج نطاق الطبيعة -أو كما اعتقدت- فصلها عن جمالها. في الواقع، كان من المستحيل فصل حضورها عن كل تلك الرغبة البائسة في الحصول على المال والمكانة التي أزعجت طفولتي، وعن كل تلك التطلعات غير المنظمة التي جعلتني في البداية أشعر بالخجل من منزلي ومن جو، ومن كل تلك الرؤى التي أظهرت وجهها في النار المتوهجة، وأخرجته بضربه من الحديد على السندان، ومن ظلام الليل لينظر إلى النافذة الخشبية لداكان الحدادة، ويطير بعيدًا. باختصار، كان من المستحيل بالنسبة إليَّ أن أفصلها، في الماضي أو في الحاضر، عن وجداني.

واتفقنا على أن أبقى هناك بقية اليوم، ثم أعود إلى الفندق ليلاً وإلى

لندن غداً. عندما تحدثنا لفترة من الوقت، أرسلتنا الآنسة هافيشام للتنزه في الحديقة المقفرة. بعد دخولنا بقليل، قالت: يجب أن نطوف حول المكان قليلاً، كما كنا نفعل في الماضي.

لذا، خرجنا أنا وإستيلا إلى الحديقة عند البوابة -التي ضللت طريقي عندها، والتقيت بالشاب الشاحب، الذي أصبح الآن هربرت- روجي ترتجف وأعبد طرف ثوبها. وهي في منتهى الرزانة وبالتأكيد لا تعبد طرف ثوبي. عندما اقتربنا من مكان اللقاء، توقفت وقالت:

- لا بد أنني كنت مخلوقة صغيرة فريدة من نوعها، أختبئ وأرى تلك المعركة في ذلك اليوم؛ لكنني فعلت ذلك واستمتعت به كثيراً.
- لقد كافأتني كثيراً.

«هل فعلت؟» أجابت بطريقة عرضية متناسية ما حدث، «أذكر أنني كنت أعارض بشدة على خصمك، لأنني شعرت بالسوء من إحضاره إلى هنا ليزعجني بوجوده».

- أنا وهو صرنا الآن أفضل الأصدقاء.
- هل هذا صحيح؟ أعتقد أنني أتذكر أنك تدرس مع والده؟
- نعم.

أجبت على مضض، لأن الأمر بدا كأنه يحمل مظهرًا صبيانيًا، وقد عاملتني بالفعل كصبي أكثر من اللازم.
قالت إستيلا: منذ أن تغير حظك وآفاقك، غيرت رفاقك.
قلت: بشكل طبيعي.

وأضافت بنبرة متغطسة: وبالضرورة؛ ما كان مناسباً لك في السابق، سيكون غير مناسب لك الآن.

في داخلي، أشك كثيرًا فيما إذا كانت لديّ أي نية باقية في الذهاب لرؤية جو؛ ولكن إذا كان لديّ، فإن هذه الملاحظة دفعتها إلى الهروب.

«لم تكن لديك أي فكرة عن حظك المواتي في تلك الأوقات؟»

قالت إستيلا وهي تلوّح بيدها بخفة، في إشارة إلى أوقات القتال.

- لم يكن لديّ أدنى فكرة.

إن مسحة الكمال والترفع اللذين مشت بهما بجانبني، ومسحة الشباب والخضوع اللذين مشيتُ بهما بجانبها، أحدثا تباينًا شعرت به بقوة. كان الأمر سيثير غضبي أكثر لو لم أعتبر أنني من أيقظ هذا الشعور كونها مقسومة لي وأنا مقسوم لها.

كانت الحديقة مكسوة بالعشب ورائحتها كريهة جدًا بحيث لا يمكن الدخول إليها بسهولة، وبعد أن قمنا بالدوران حولها مرتين أو ثلاثًا، خرجنا مرة أخرى إلى ساحة مصنع البجعة. حكيت لها تفاصيل رؤيتي لها وهي تمشي على البراميل في اليوم الأول قديمًا، فقالت، بنظرة باردة وغير مبالية في ذلك الاتجاه: «هل فعلت ذلك؟» ذكّرتها بالمكان حيث خرجت من المنزل وأعطتني لحمي وشرابي، فقالت: «لا أتذكر». قلت: «لا تتذكرين أنك جعلتني أبكي؟» قالت: «لا»، وهزّت رأسها ونظرت حولها. أعتقد حقًا أن عدم تذّكرها وعدم اهتمامها على الإطلاق، جعلني أبكي مرة أخرى، داخليًا، وهذا هو البكاء الأكثر حدة على الإطلاق.

قالت إستيلا، وهي تتعالى عليّ كما قد تفعل امرأة جميلة ورائعة: يجب أن تعلم أنني لا أملك قلبًا، إذا كان لذلك علاقة بذاكرتي.

قلت بعض الكلمات غير المفهومة مفادها أنني أشك في ذلك، أنني أعرف أفضل، وأنه لا يمكن أن يكون هناك مثل هذا الجمال من دون قلب.

«أوه!» قالت إستيلا: «لديّ قلب يمكن طعنه أو إطلاق النار عليه، ليس لديّ أدنى شك، وبالطبع إذا توقف عن النبض فسأموت. لكنك تعرف ما أعنيه. ليس لديّ أي رحمة هناك، لا شفقة أو عواطف، لا مشاعر على الإطلاق».

ما الذي كان يدور في ذهني عندما وقفت ساكنة ونظرت إليّ باهتمام؟ هل رأيت أي شيء فيها من الأنسة هافيشام؟ لا، في بعض نظراتها وإيماءاتها كان هناك مسحة من التشابه مع الأنسة هافيشام، والتي غالبًا ما يُلاحظ أن الأطفال يكتسبون منها من الأشخاص البالغين الذين ارتبطوا بهم كثيرًا، بعزلة عن الآخرين، والتي، عندما تمر مرحلة الطفولة، تنتج تشابهًا عرضيًا ملحوظًا في التعبير بين الوجوه التي تكون مختلفة تمامًا بعضها عن بعض. ومع ذلك، لم أتمكن من إرجاعه إلى الأنسة هافيشام. نظرت مرة أخرى، وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال تنظر إليّ، فقد ذهب التشابه. «ماذا كان هذا؟».

قالت إستيلا: «أنا جادة»، ليس بوجه متجهم (لأن جبينها كان أملس) بقدر ما كان وجهها داكنًا؛ «إذا كنا سنجتمع معًا كثيرًا، فمن الأفضل أن تصدق ذلك على الفور، أليس كذلك!» أوقفتني بقوة وأنا على شفا الرد، «لم أمنح حناني لأي شخص كان، لم يسبق لي أن فعلت أي شيء من هذا القبيل».

وفي لحظة أخرى كنا في مصنع الجعة، الذي كان مهجورًا فترة طويلة، وأشارت إلى الشرفة العالية حيث رأيتها تخرج في نفس اليوم الأول، وأخبرتني أنها تتذكر أنها كانت هناك، وأنها رأيتني واقفًا خائفًا بالأسفل، بينما كانت عيناها تتبعان يدها البيضاء، خطر في ذهني مرة أخرى نفس

الإيحاء الخافت الذي لم أستطع فهمه. أجفلت بحركة لاإرادية جعلتها تضع يدها على ذراعي. وعلى الفور اختفى الطيف مرة أخرى. «ماذا كان هذا؟».

سألت إستيلا: ما المشكلة؟ هل أنت خائف مرة أخرى؟ أجبتها: «يجب أن أكون كذلك، إذا صدقت ما قلته الآن»، لأبعد تفكيرها عما يحدث لي.

- أنت لا تصدق إذن؟ جيد جداً. لقد قلته لك على أي حال. ستنتظرك الأنسة هافيشام قريباً للقيام بمهمتك القديمة، على الرغم من أنني أعتقد أنها توقفت عنها الآن مثل أشياء أخرى قديمة. فلنقم بجولة أخرى حول الحديقة، ثم ندخل. تعال! لن تذرف الدموع على قسوتي اليوم. ستكون غلامي، وتعطيني كتفك.

كان فستانها الجميل قد تدلى على الأرض، أمسكت به الآن بيد واحدة، وباليدين الأخرى لمست كتفي بخفة بينما كنا نسير. تجوّلنا حول الحديقة المقفرة مرتين أو ثلاثاً، وكان كل شيء مزدهراً بالنسبة إليّ. لو كان نمو الأعشاب الخضراء والصفراء في شقوق الجدار القديم هو أضمن الزهور التي تفجرت على الإطلاق، لما كان من الممكن أن أحتفظ بها في ذاكرتي أكثر من ذلك.

لم يكن بيننا فارق سن لأبعدها عني؛ كنا في نفس العمر تقريباً، على الرغم من أن العمر يؤثر بالطبع في حالتها أكثر منه في حالتي؛ لكن كونها بعيدة المنال، وهو الطابع الذي منحه إياها جمالها وأسلوبها، عذّبني في وسط بهجتي، وفي ذروة الثقة بأن راعيتنا قد اختارتنا بعضنا لبعض. يا لي من بائس!

أخيرًا عدنا إلى المنزل، وهناك تفاجأت بسماع أن وصيِّي جاء لرؤية الأنسة هافيشام في عمل، وأنه سيعود لتناول العشاء. أضيئت أغصان الثريات الذابلة في الغرفة التي بها الطاولة المتحللة في أثناء وجودنا بالخارج، وكانت الأنسة هافيشام جالسة على كرسيها في انتظاري.

كان الأمر أشبه بدفع الكرسي نفسه إلى الماضي، عندما بدأنا دورتنا البطيئة القديمة حول رماد وليمة الزفاف. لكن، في غرفة الجنازة، والقوام المتهالك المتكى على الكرسي مثبتًا عينيه عليها، بدت إستيلا أكثر إشراقًا وجمالًا من ذي قبل، وسحرتني بشدة أكبر.

لقد تلاشى الوقت تمامًا، حتى إن ساعة العشاء المبكرة قد اقتربت، وتركنا إستيلا لتجهيز نفسها. كنا قد توقفنا بالقرب من منتصف الطاولة الطويلة، وكانت إحدى ذراعي الأنسة هافيشام الذابلتين ممدودة على الكرسي، أراحت تلك اليد المقبوضة على القماش الأصفر، وبينما كانت إستيلا تنظر إلى الخلف من فوق كتفها قبل أن تخرج إلى الباب، قبّلت الأنسة هافيشام يدها، بقوة مفترسة ومروعة للغاية.

بعد ذلك، بعد أن رحلت إستيلا وبقينا وحدنا، التفتت إليّ، وقالت بصوتٍ هامسٍ:

- هل هي جميلة، أنيقة، متوهجة؟ هل أنت معجب بها؟

- يجب على كل من يراها أن يُعجَب بها يا آنسة هافيشام.

لَفَت ذراعها حول رقبتني، وقَرَّبَت رأسي من رأسها بينما كانت تجلس على الكرسي، «أحبها، أحبها، أحبها! كيف تعاملتك؟».

قبل أن أتمكن من الإجابة (إذا كان في إمكانني الإجابة عن سؤال صعب للغاية كذلك) كررت: «أحبها، أحبها، أحبها! إذا فضّلتك، أحبها.

إذا جرحتك، أحبها. إذا مزقت قلبك إربًا، وكلما كبر وصار أقوى سيمزق بشكلٍ أعمق، أحبها، أحبها، أحبها!». «.

لم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الحماسة العاطفية التي ارتبطت بنطقها لهذه الكلمات. شعرت بعضلات الذراع الرفيعة حول رقبتى تنتفخ بالقوة التي استحوزت عليها.

- اسمعني، يا بيب! لقد تبنيته لتكون محبوبة. لقد قمت بتربيتها وتعليمها لتكون محبوبة. لقد صنعتها على ما هي عليه، لتكون محبوبة. أحبها!

لقد قالت هذه الكلمة كثيرًا بما فيه الكفاية، ولا يمكن أن يكون هناك شك في أنها قصدت قولها؛ لكن لو كانت الكلمة التي تكررت كثيرًا هي الكراهية بدلًا من الحب، اليأس، الانتقام، الموت الرهيب، فما بدت من شفتيها أشبه باللعنة هكذا.

قالت بنفس الهمس العاطفي المتسارع: سأخبرك، ما هو الحب الحقيقي. إنه التفاني الأعمى، وإذلال الذات بلا شك، والخضوع المطلق، والثقة والإيمان ضد نفسك وضد العالم كله، والتخلي عن قلبك وروحك بالكامل للمحبوب، كما فعلت أنا!

عندما قالت ذلك، أعقبته بصرخة جامحة، أمسكت بها من خصرها لأنها نهضت عن الكرسي، في ثوبها الشبيه بالكفن، وضربت في الهواء كما لو كانت ستضرب نفسها بالحائط وتسقط ميتة.

كل هذا مرّ في بضع ثوانٍ. وبينما كنت أسحبها إلى كرسيها، انتبهت إلى رائحة كنت أعرفها، والتفت، ورأيت وصيّي في الغرفة.

كان يحمل دائمًا (أعتقد أنني لم أذكر ذلك بعد) منديل جيب ضخمًا

من الحرير الغني، والذي كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة إليه في مهنته. لقد رأيته يخيف عميلًا أو شاهدًا عندما يفتح منديل الجيب بشكلٍ رسمي كما لو كان على وشك أن يتمخط على الفور، ثم يتوقف، كما لو كان يعلم أنه لن يكون لديه الوقت للقيام بذلك قبل أن يعترف هذا العميل أو الشاهد، وبالفعل يعقبه الاعتراف فورًا، بطبيعة الحال. عندما رأيته في الغرفة كان يحمل منديل الجيب المعبر في كلتا يديه، وكان ينظر إلينا. عندما التقى بعيني، قال بوضوح، من خلال توقُّف مؤقت وصامت في هذا الموقف: «حقًا؟ مشهد فريد!» ثم استخدم المنديل في استخدامه الصحيح وبتأثير رائع.

لقد رأيته الآنسة هافيشام حالما رأيته، وكانت (مثل أي شخص آخر) خائفة منه. لقد بذلت محاولة قوية لضبط نفسها، وتلعثمت بأنه «كان دقيقًا في مواعيده كالمعتاد».

كرر وهو يقترب منا: دقيق في مواعيدي كالمعتاد، كيف حالك يا بيب؟ هل أوصلك يا آنسة هافيشام؟ حول المائدة؟ إذن أنت هنا يا بيب؟ أخبرته بموعد وصولي، وكيف أن الآنسة هافيشام أرادت مني أن آتي وأرى إستيلا. فأجاب: «آه! يا لها من سيدة شابة راقية جدًا!» ثم دفع الآنسة هافيشام في كرسيها أمامه بإحدى يديه الكبيرتين، ووضع الأخرى في جيب بنطاله كأن الجيب مليء بالأسرار.

«حسنًا، بيب! كم مرة رأيت الآنسة إستيلا من قبل؟» قال عندما توقف.

- كم مرة؟

- نعم! كم مرة؟ عشرة آلاف مرة؟

- أوه! بالتأكيد ليس كثيرًا.

- مرتين؟

«جاغرز» تدخلت الآنسة هافيشام، مما أراحني كثيرًا، «دع عزيزي بيب وشأنه، واذهب معه لتناول العشاء».

امثل جاغرز لأمرها، وذهبنا في طريقنا إلى أسفل الدرج المظلم معًا. بينما كنا لا نزال في طريقنا إلى تلك الشقق المنفصلة عبر الفناء المرسوف في الخلف، سألني كم مرة رأيت الآنسة هافيشام تأكل وتشرب؛ وقدم لي نطاقًا واسعًا من الاختيارات، كالعادة، بين مائة مرة ومرة واحدة.

فكرت وقلت: مطلقًا.

أجاب بابتسامة عابسة: ولن تفعل ذلك أبدًا يا بيب. لم تسمح قطُّ بأن تُرى وهي تفعل أيًا من ذلك، منذ أن بدأت تعيش حياتها الحالية. إنها تتجول في الليل، ثم تضع يديها على أي طعام يأتي أمامها.

قلت: من فضلك يا سيدي، هل لي أن أطرح عليك سؤالًا؟

قال: يمكنك ذلك، وقد أرفض الإجابة عنه. اسأل سؤالك.

«اسم إستيلا، هل هو هافيشام أم...؟» لم يكن لديّ ما أضيفه.

- أو ماذا؟

- هل هو هافيشام؟

- إنه هافيشام.

قادنا هذا إلى مائدة العشاء، حيث كانت إستيلا وسارة بوكيت في انتظارنا. ترأس السيد جاغرز المائدة، وجلست إستيلا قبالة، وواجهت أنا صديقتي ذات الوجه الأخضر والأصفر. تناولنا العشاء

جيداً، وكانت في انتظارنا خادمة لم أرها من قبل في كل زيارتي ومجيئي للمنزل، ولكنها، على حد علمي، كانت في ذلك المنزل الغامض طوال الوقت. بعد العشاء، وُضعت زجاجة من نبيذ بورت المعتقد أمام وصيّي (من الواضح أنه كان على دراية جيدة به)، وغادرتنا السيدتان.

لم أر أي شيء يعادل تحفظ السيد جاغرز الحازم تحت هذا السقف في أي مكان آخر، حتى فيه نفسه. احتفظ بنظراته لنفسه، ونادراً ما وجّه عينيه إلى وجه إستيلا مرة واحدة في أثناء العشاء. عندما تحدثت إليه، استمع إليها، وفي الوقت المناسب أجاب، لكنه لم ينظر إليها قط، رأيت هذا جيداً. من ناحية أخرى، كانت تنظر إليه غالباً باهتمام وفضول، إن لم يكن بارتياح، لكن وجهه لم يُظهر قط أدنى قدرٍ من الوعي بذلك. طوال العشاء، كان يشعر بسعادة غامرة في جعل سارة بوكيت أكثر خضرة وصفرة، وذلك من خلال الإشارة في كثير من الأحيان في حديثي معي إلى آمالي؛ ولكن هنا، مرة أخرى، لم يُظهر أي وعي بالامر، بل جعل الأمر يبدو كأنه ينتزع - بل انتزع بالفعل، على الرغم من أنني لا أعرف كيف - تلك الإشارات من نفسي البريئة.

وعندما تُركنا أنا وهو وحدنا، جلس بلمحة من الكذب نتيجة للمعلومات التي في حوزته، وكان ذلك كثيراً جداً بالنسبة إليّ. لقد قام حتى باستجواب النبيذ الخاص به عندما لم يكن لديه أي شيء آخر في يده. أمسك الزجاجة بينه وبين الشمعة، تذوق النبيذ، قلبه في فمه، ثم ابتلعه، نظر إلى كأسه مرة أخرى، شم النبيذ، جرّبه، شربه، ملاً كأسه مرة أخرى، وتفحص الكأس مرة أخرى، حتى شعرت بالتوتر كما لو كان

النبيذ يقول له شيئاً ضدي. ثلاث أو أربع مرات اعتقدت بضعف أنني سأبدأ المحادثة؛ ولكن كلما رأيته سألته عن أي شيء، كان ينظر إليّ وكأسه في يده، ويقلب نبيذه في فمه، كأنه يطلب مني أن ألاحظ أن سؤاله لا فائدة منه، لأنه لا يستطيع الإجابة عنه.

أعتقد أن الآنسة بوكيت كانت تدرك أن رؤيتي كانت تعرضها لخطر الاندفاع إلى الجنون، وربما تمزق قبعته -قبعة بشعة للغاية، تشبه ممسحة الشاش- وتفرش شعرها على الأرض، الذي كان واضحاً أنه شعراً مستعاراً. لم تظهر عندما صعدنا بعد ذلك إلى غرفة الآنسة هافيشام، لعبنا نحن الأربعة بالورق في صمت. وفي تلك الأثناء، وضعت الآنسة هافيشام، بطريقة رائعة، بعضاً من أجمل الجواهر من منضدة الزينة الخاصة بها على شعر إستيلا، وحول صدرها وذراعيها؛ ورأيت حتى وصيّي ينظر إليها من تحت حاجبيه الكثيفين، ويرفعهما قليلاً، عندما ظهر جمالها أمامه، مع تلك الجواهر الغنية البراقة الملونة.

عن الطريقة والمدى الذي حجز به على أوراقنا الراحلة، وخرج بأوراق صغيرة وضيعة في نهاية الأيدي، اهتز أمامها مجد ملوكنا وملكاتنا تماماً، لا أقول شيئاً؛ ولا الشعور الذي كان يراودني، بسبب نظرتة المتعالية إلينا شخصياً كأننا ثلاثة ألغاز واضحة جداً وبائسة للغاية، فك رموزها منذ فترة طويلة. ما عانيت منه هو عدم التوافق بين حضوره البارد ومشاعري تجاه إستيلا. لم يكن الأمر أنني كنت أعرف أنني لن أتحمل أبداً التحدث معه عنها، لأنني كنت أعرف أنني لن أتحمل أبداً سماع صرير حذائه فيما يخصها، لأنني كنت أعرف أنني لن أتحمل أبداً رؤيته يغسل يديه عنها؛ كل ما في الأمر أن إعجابي يجب أن يكون على بُعد قدم أو قدمين منه،

أما أن تكون مشاعري في نفس المكان معه، كان هذا هو الحدث المؤلم.
لعبنا حتى الساعة التاسعة مساءً، وبعد ذلك رتبنا أنه عندما تأتي إستيلا
إلى لندن يجب أن أُخبر مسبقاً كي أقابلها عند عربة الوصول؛ ثم ودعتها
ولمستها وتركتها.

بات وصيّي في البلو بور في الغرفة المجاورة لي. في منتصف الليل،
كانت كلمات الأنسة هافيشام: «أحبها، أحبها، أحبها!» ترن في أذني.
كررتها بطريقتي، وقلت لوسادتي: «أنا أحبها، أحبها، أحبها!» مئات
المرات. ثم جاءتني موجة من الامتنان، لأنها كانت مقسومة لي، أنا من
كنت صبي الحداد ذات يوم. ثم فكرت إذا لم تكن، كما كنت أخشى،
تشعر بالامتنان لهذا المصير بأي حال من الأحوال، متى ستبدأ في الاهتمام
بي؟ متى يجب أن أوقظ القلب الذي بداخلها الذي كان صامتاً نائماً الآن؟
آه! اعتقدت أن تلك كانت مشاعر سامية وعظيمة. لكنني لم أظن
قط أن هناك شيئاً ضيقاً أو مخزياً في ابتعادي عن جو، لأنني كنت أعلم
أنها ستحتقره. لقد مرّ يوم واحد فقط، وقد جلب جو الدموع إلى عيني؛
وسرعان ما جفت على الفور، فليسامحني الله!

الفصل الثلاثون

في الصباح، بعد أن فكرت جيدًا في الأمر بينما كنت أرتدي ملابس في البلو بور، قررت أن أخبر وصيّي بأنني أشك في أن أورليك هو الرجل المناسب ليكون محل ثقة عند الآنسة هافيشام. قال وصيّي، وقد كان راضيًا بشكل تام عن الرجل: «بالطبع هو ليس من النوع المناسب من الرجال يا بيب، لأنه لا يوجد نوع مناسب يكون محل ثقة أبدًا.» بدا الأمر مشوقًا له للغاية عندما وجد أن هذا المنصب بالذات لم يكن يشغله النوع المناسب من الرجال، وأصغى إليّ جيدًا بينما كنت أخبره بما أعرفه عن أورليك. قال بعد أن انتهيت من كلامي: «حسنًا يا بيب، سأذهب في الحال لأعطي لصديقنا معاشه» لقد انزعجت من هذا الإجراء العاجل، كنت أريده أن يترث قليلًا، بل وألمحت إلى أنه قد يكون من الصعب التعامل مع صديقنا. «أوه، لا، لن يكون كذلك» قال وصيّي وهو يمسك بمنديل جيبه بثقة تامة: أود أن أراه يتجادل معي في الأمر.

كان من المقرر أن نعود معًا إلى لندن في عربة منتصف النهار، وبينما كنت أتناول الإفطار تحت تأثير بامبلتشوك المرعب إلى درجة أنني بالكاد استطعت حمل كوبى، أعطاني ذلك فرصة للقول إنني أريد المشي، وأنني سأجول في طريق لندن بينما كان السيد جاغرز مشغولًا، إذا أخبر السائق أنني سأصل إلى مكاني في الموعد. وهكذا تمكنت من الهروب من البلو

بور مباشرة بعد الإفطار. وبعد أن قطعت مسافة ميلين تقريباً داخل الريف المفتوح من خلف مبنى بامبلتشوك، وصلت إلى هاي ستريت مرة أخرى، بعيداً قليلاً عن الشرك، شعرت بنفسي في أمان نسبي.

كان من الممتع أن أعود إلى البلدة القديمة الهادئة مرة أخرى، ولم يكن أمراً مزعجاً أنه فجأة يتعرف عليّ ويُحدّق إليّ هنا وهناك. حتى إن واحداً أو اثنين من التجار انطلقوا خارجاً من متاجرهم ومضيا قليلاً في الشارع أمامي، حتى يستديرا، كما لو أنهما نسيا شيئاً ما، ويمرّان بي وجهاً لوجه، وفي مثل هذه المناسبات لا أعرف ما إذا كان تظاهرها هما أم تظاهري أنا كان الأسوأ؛ كأنهما لم يفعلا ذلك، أو كأنني لم أراه. ومع ذلك، كان مركزي مرموقاً، ولم أكن مستاءً منه على الإطلاق، حتى ألقى بي القدر في طريق النذل المنحط، صبي تراب.

نظرت بعيني على طول الشارع عند نقطة معينة، ورأيت صبي تراب يقترب، وهو يحكم وثاق حقيبة غسيل زرقاء خاوية. معتقداً أن نظرتي الهادئة إليه كأي لا أعرفه ستكون أفضل بالنسبة إليّ، ومن المرجح أن تهدئ عقله الشرير، تقدمت بهذا التعبير على وجهي، وكنت بالأحرى أهني نفسي على نجاحي، عندما اصطدمت ركبتا صبي تراب فجأة وانتصب شعر رأسه، وسقطت قبعته، وارتجف جسده كله بشدة، وخرج مترنحاً في الطريق، وهو يصرخ لعوام الناس: «أمسكوني! أنا خائف جداً!» تظاهر بأنه في نوبة من الرعب والندم، بسبب رقي مظهري. عندما مررت به، اصطدمت أسنانه بصوت عالٍ في رأسه، ومع كل علامة من علامات الذل الشديد، ركع أمامي على الأرض.

كان هذا أمراً صعباً لتحمله، لكن هذا لم يكن شيئاً. لم أكن قد

تقدمت مائتي ياردة أخرى عندما رأيت صبي تراب يقترب مرة أخرى، وسط رعب ودهشة وسخط لا يوصف. كان قادمًا من زاوية ضيقة. كانت حقيبته الزرقاء معلقة على كتفه، وظهر الكد الصادق في عينيه، وكانت مشيته تشير إلى تصميمه على المُضي قدمًا إلى متجر تراب بخفة مرحة. تعرف عليَّ بصدمة، وتأثر بشدة كما حدث من قبل؛ لكن هذه المرة كانت حركته تدور، وكان يترنَّح حولي ويدور حولي بركبتين لا تقويان على حمله أكثر، ويداه مرفوعتان كما لو كان يتوسل الرحمة. استقبلت معاناته مجموعة من المتفرجين بفرحٍ شديد، وشعرت أنا بالارتباك التام.

لم أكن قد قطعت مسافة في الشارع أبعد من مكتب البريد، عندما رأيت صبي تراب مرة أخرى يستدير مندفعًا من طريق خلفي. هذه المرة، غيّر ملابسه تمامًا. كان يرتدي الحقيبة الزرقاء مثل معطفي الكبير، وكان يتبختر على طول الرصيف نحوي على الجانب الآخر من الشارع، برفقة مجموعة من الأصدقاء الشباب المبتهجين الذين كان يصيح لهم من وقت لآخر، ملوحًا لهم من يده: «لا أعرفكم!» لا يمكن للكلمات أن تصف مقدار السخط والأذى اللذين سببهما لي صبي تراب، عندما مرَّ بجانبني، قام بسحب ياقة قميصه، فتل شعره الجانبى، ووضع يد على خصرته وابتسم بإسراف، وهو يتلوى بمرفقيه وجسمه، ويتشدق بالكلام مع مرافقيه، «لا أعرفكم، لا أعرفكم، يا إلهي، لا أعرفكم!» وبذلك، فإن العار الذي صاحب نعيقه تجاهي مثل الغراب وملاحقتي عبر الجسر بنعيق الغربان - كما لو كان طائرًا مغتمًا للغاية يعرفني منذ أن كنت حداثًا - قد توجَّ العار الذي كان يلازمي لمغادرتي المدينة، وطُردت به، إن جاز التعبير، إلى الريف المفتوح.

لكن ما لم أكن قد قتلت صبي تراب في تلك المناسبة، فإنني لا أرى حتى الآن ما كان في إمكاني فعله لأصمد في وجهه. إن الصراع معه في الشارع، أو انتزاع شيء أقل من انتزاع قلبه من صدره، سيكون أمراً عديم الجدوى ومهيناً. علاوة على ذلك، كان فتى لا يستطيع أحد أن يؤذيه؛ ثعبان مراوغ ومنيع، عندما يحاصر في الزاوية، يهرب مرة أخرى من بين ساقَي أسره، وهو يصيح ساخراً. ومع ذلك، كتبت إلى السيد تراب رسالة في اليوم التالي، لأقول إن السيد يبب يرفض التعامل مرة أخرى مع شخصٍ يمكن أن ينسى حتى الآن ما يدين به لمصلحة المجتمع، مثل توظيف صبي يثير الكراهية تجاه كل شخص محترم.

وصلت العربة، وداخلها السيد جاغرز، في الوقت المناسب، وجلستُ في مقعدي بجوار السائق مرة أخرى، ووصلت إلى لندن سالمًا، ولكن لم أكن سليمًا، لأن قلبي قد رحل. بمجرد وصولي، أرسلت من ندمي سمك القد وبرميلاً من المحار إلى جو (كتعويضٍ عن عدم ذهابي بنفسي)، ثم ذهبت إلى نُزل برنارد.

وجدت هربرت يتناول اللحم البارد، وكان سعيدًا بالترحيب بي مرة أخرى. بعد أن أرسلت المنتقم إلى المقهى من أجل وجبة إضافية على العشاء، شعرت أنه يجب عليّ أن أفتح صدري في ذلك المساء لصديقي ورفيقي. وبما أن الثقة كانت غير واردة مع وجود المنتقم في الممر، والذي يمكنه اختلاس السمع من خلال ثقب المفتاح، فقد أرسلته إلى المسرح. أكبر دليل على استعباد هذا الرقيب لي لأبعد حدٍّ، كانت الحيل المخجلة التي قمتُ بها باستمرار للعثور على عملٍ له، حيلًا مخجلة بشدة إلى درجة أنني كنت أرسله أحيانًا إلى زاوية هايد بارك لمعرفة الوقت من الساعة هناك.

بعدما انتهينا من تناول العشاء وجلسنا وأقدامنا على سياج المدفأة، قلت لهربرت: عزيزي هربرت، لديّ شيء خاص جدًا لأخبرك به.

فأجاب: عزيزي هاندل، سأقدّر وأحترم ثقتك بي.
قلت: الأمر يخصني يا هربرت، وشخصًا آخر.

وضع هربرت قدمًا على قدم، ونظر إلى النار ورأسه على جانب واحد، وبعد أن نظر إليها عبثًا لبعض الوقت، نظر إليّ لأنني لم أستمّر في حديثي.

قلت: «هربرت»، وأنا أضع يدي على ركبته، «أنا أحب -وأعشق- إستيلا».

وبدلاً من الذهول، أجاب هربرت بطريقة سهلة: هذا مؤكد. حسناً؟

- حسناً يا هربرت؟ هل هذا كل ما تقوله؟ حسناً؟

«ماذا بعد ذلك، أعني؟» قال هربرت. «بالطبع أعرف ذلك.» سألت: «كيف تعرف ذلك؟».

- كيف أعرف ذلك يا هاندل؟ منك أنت.

- أنا لم أخبرك من قبل.

- تخبرني؟! لم تخبرني قط متى قمت بقص شعرك، لكن كان

لديّ حواس لأدرك ذلك. لقد عشقتها دائماً، منذ أن عرفتك.

لقد أحضرت عشقك وحقيقة سفرك إلى هنا معاً. تخبرني! لقد

أخبرتني كل يوم طوال اليوم. عندما أخبرتني بقصتك، أخبرتني

بوضوح أنك عشقتها منذ رأيتها أول مرة، عندما كنت صغيراً جداً

بالفعل.

فقلت له، وقد كان هذا منظورًا جديدًا ومرحبًا به بالنسبة إليّ: حسنًا جدًّا، لم أتوقف قطُّ عن حبي لها. وقد عادت كامرأة من أجمل وأرقى المخلوقات. ولقد رأيتهَا بالأمس. وإذا كنت أعشقها من قبل، فإنني الآن أعشقها أضعافًا مضاعفة.

قال هربرت: هذا رائع يا هاندل، أن تُختار لها، وأن تكون مقسومًا لها. ومن دون الحديث في الأمور المحرمة، يمكننا أن نجروء على القول إنه لا يمكن أن يكون هناك شك بيننا في هذه الحقيقة. هل لديك أي فكرة حتى الآن عن آراء إستيلا بشأن حبك لها؟

هزرت رأسي كآبةً، وقلت: أوه! إنها على بُعد آلاف الأميال مني.
- كن صبورًا يا عزيزي هاندل، عن قريب، عن قريب. ولكن هل لديك المزيد لتقوله؟

أجبت: إنني أشعر بالخجل من قول ذلك، ومع ذلك فإن قول ذلك ليس أسوأ من التفكير فيه. أنت تدعوني شخصًا محظوظًا، بالطبع أنا كذلك. كنت فتى حداد بالأمس؛ وأنا اليوم... ماذا أقول؟
ردَّ هربرت مبتسمًا، وهو يربت بيده على ظهر يدي: قُل شخصًا صالحًا، يتسم بالاندفاع والتردد، والجرأة والخجل، والعمل والحلم، خليط نادر.

توقفت لحظة لأفكر فيما إذا كان هذا الخليط بالفعل في شخصيتي. على العموم، لم أفهم تحليله بأي حال من الأحوال، لكنني اعتقدت أنه لا يستحق الجدل.

تابعت: عندما أسأل ماذا سأسمي نفسي اليوم يا هربرت، أقترح ما يدور في ذهني. أنت تقول إنني محظوظ. أعلم أنني لم أفعل شيئًا لرفع

شأنني في الحياة، وأن الحظ وحده فعل ذلك؛ هذا حظ جيد جدًا. ومع ذلك، عندما أفكر في إستيلا...

(«ومتى لا تفعل ذلك، كما تعلم؟» قال هربرت وعيناه على النار، قولاً ينم عن اللطف والتعاطف).

«إذن يا عزيزي هربرت، لا أستطيع أن أخبرك عن مدى شعوري بالتبعية والشك، وكيف أتعرض لمئات الاحتمالات. وبتجنب الحديث عن الأمور المحرمة، كما فعلت للتو، لا يزال في إمكاني أن أقول أن كل آمالي تعتمد على وفاء شخص واحد فقط (من دون تسمية أي شخص). وفي أحسن الأحوال، كم هو غامض وغير مُرضٍ، عدم معرفة ماهية هذه الآمال!» بقولي هذا، أرحت ذهني مما كان يشغله دائماً، بشكلٍ أو بآخر، على الرغم من أنه صار أكثر انشغالاً منذ الأمس بلا شك.

أجاب هربرت بطريقته المبهجة المفعمة بالأمل: الآن يا هاندل، يبدو لي أننا في خضم يأس العاطفة الرقيقة، ننظر بعدسة مكبرة إلى الحصان الهدية المقدم إليك، وبالمثل، يبدو لي أننا، بتركيز اهتمامنا على الفحص والتمحيص، نغفل تمامًا إحدى أفضل النقاط في الأمر كله. ألم تخبرني أن وصيَّك السيد جاغرز أخبرك في البداية أنك لم تُمنح الآمال العظيمة فقط؟ وحتى لو لم يخبرك بذلك، رغم أنه شيء لا يستهان به، أنا أقر بذلك، هل يمكنك أن تصدق أنه من بين جميع الرجال في لندن، فإن السيد جاغرز كان سيُبقي على علاقته الحالية معك ما لم يكن متأكدًا من أساسها؟

قلت إنني لا أستطيع أن أنكر أن هذه كانت نقطة قوية، لقد قلت ذلك (كثيرًا ما يفعل الناس ذلك، في مثل هذه الحالات) كأنه إقرار متردد بالحقيقة والعدالة؛ كما لو كنت أستطيع إنكار ذلك!

قال هربرت: أعتقد أنها نقطة قوية، وأعتقد أنه لا يمكن تخيل نقطة أقوى؛ أما بالنسبة إلى ما عداه، فيجب أن تتحلى بالصبر تجاه وصيِّك، كما يجب أن تتحلى بالصبر تجاه موكله. ستبلغ الحادية والعشرين قريباً، وبعد ذلك ربما ستحصل على مزيدٍ من الإفادة. على أي حال، ستكون أقرب إليها، لأنها لا بد أن تأتي أخيراً.

قلت، وأنا معجب بامتنانٍ بأساليبه المبهجة: يا لك من شخص مفعم بالأمل!

قال هربرت: يجب عليّ أن أكون كذلك، لأنه ليس لديّ الكثير غير ذلك. يجب أن أعترف، بالمناسبة، أن الحس السليم فيما قلته للتوّ ليس من عندي، بل من والدي. الملاحظة الوحيدة التي سمعته يدلي بها بشأن قصتك، كانت الملاحظة الأخيرة، «لقد سُويّ الأمر، وإلا لما كان السيد جاغرز مشتركاً فيه.» والآن قبل أن أقول أي شيء آخر عن والدي، أو عن نفسي، وأرد الثقة بثقة، أريد أن أجعل نفسي بغيضاً جداً بالنسبة إليك للحظة، مثيراً للاشمئزاز بلا ريب.

قلت: لن تنجح.

قال: «أوه نعم سأفعل! واحد، اثنان، ثلاثة، والآن ها نحن أولاء. هاندل، صديقي الطيب؛» على الرغم من أنه تحدث بهذه النبرة الناعمة، فإنه كان جاداً للغاية، «لقد كنت أفكر منذ أن كنا نتحدث وأقدامنا على سياج المدفأة، أن إستيلا بالتأكيد لا يمكن أن تكون شرطاً لميراثك، إذالم يشر إليها وصيِّك قطُّ. هل أنا على حقّ في فهم ما أخبرتني به، حيث إنه لم يشر إليها قطُّ، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، بأي شكلٍ من الأشكال؟ لم يلمح قطُّ، على سبيل المثال، إلى أن ولي نعمتك قد يكون لديه آراء حول زواجكما في نهاية المطاف؟

- مطلقاً.

- الآن يا هاندل، أنا خالٍ تمامًا من أي غيرة تجاهك لإستيلا، أتعهد لك بروحي وشرفي! أنت لست مقيدًا بها، ألا يمكنك أن تنفصل عنها؟ لقد أخبرتك أنني سأكون بغيضًا.

أدركت رأسي جانبًا، بسبب شعور غلبي، باندفاع واجتياح، مثل رياح المستنقعات القديمة القادمة من البحر، التي غلبتني في صباح مغادرتي لدكان الحدادة، عندما كان الضباب يتصاعد بشكلٍ مهيب، وعندما وضعت يدي على عمود لافتة القرية. وساد الصمت بيننا بعض الوقت.

«نعم، ولكن يا عزيزي هاندل» تابع هربرت، كما لو كنا نتحدث ولسنا صامتين: «إن رسوخ الأمر بقوة في صدر صبي جعلته الطبيعة والظروف رومانسيًا للغاية، يجعل الأمر خطيرًا جدًا. فكّر في نشأتها، وفكّر في الأنسة هافيشام، فكّر في طباع إستيلا (الآن أنا مقرز وأنت تكرهني)، وهذا قد يكون له عواقب مؤسفة».

«أعرف ذلك يا هربرت» قلت ورأسي لا يزال بعيدًا: «لكنني لا أستطيع منعه».

- لا يمكنك فصل نفسك؟

- لا، مستحيل!

- لا يمكنك المحاولة يا هاندل؟

- لا، مستحيل!

«حسنًا!» قال هربرت وهو ينهض بانتفاضة مفعمًا بالحيوية كما لو كان نائمًا، ويحرك النار: الآن سأحاول أن أجعل نفسي مقبولًا مرة أخرى!

فدار حول الغرفة ونفض الستائر، ووضع الكراسي في أماكنها، ورتّب الكتب والأشياء التي كانت ملقاة حولها، ونظر إلى القاعة، واختلس النظر في صندوق الرسائل، وأغلق الباب، وعاد إلى كرسيه عند المدفأة حيث جلس يحتضن رجله اليسرى بذراعيه.

- كنت سأقول كلمة أو كلمتين يا هاندل فيما يتعلق بأبي وبّي، وأخشى أنه ليس من الضروري ذكر أن منزل والدي ليس رائعاً بشكلٍ خاصٍّ فيما يخص التدبير المنزلي.

قلت: «إنه دائماً عامرٌ بالخيرات يا هربرت»، لأقول شيئاً مشجعاً.

- أوه نعم! وهكذا يقول جامع القمامة، على ما أعتقد، بموافقة شديدة، وكذلك يفعل صاحب متجر الأغراض المستعملة في الشارع الخلفي. لنكن جادين يا هاندل، لأن الموضوع جادٌ بما فيه الكفاية، أنت تعرف مثلي كيف تسير الأحوال. أعتقد أنه كان هناك وقتٌ كان والدي ممسكاً بزمام الأمور؛ ولكن إذا كان هذا صحيحاً، فهذا الوقت قد ولى. هل لي أن أسألك عما إذا كانت قد أتاحت لك الفرصة أن تلاحظ، في الجزء الذي كنت تعيش فيه من البلاد، أن الأطفال الذين ينتمون إلى زيجات غير متوافقة تماماً هم دائماً الحريصون بشكلٍ خاصٍّ على الزواج؟

لقد كان هذا سؤالاً فريداً، إلى درجة أنني سألته في المقابل: هل الأمر كذلك؟

قال هربرت: لا أعرف، هذا ما أريد أن أعرفه. لأن هذه هي الحال معنا بالتأكيد. فإن أختي المسكينة شارلوت، التي كانت تصغرنى وتؤفّيت قبل أن تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، كانت مثلاً صارخاً على هذا.

جين الصغيرة تسير على الوتيرة نفسها؛ في رغبته في أن تكون مستقرة في زواجها، قد تفترض أنها قضت فترة حياتها القصيرة في التأمل الدائم للنعيم المنزلي. أليك الصغير الذي ما زال يرتدي فستانًا قام بالفعل باتخاذ الترتيبات اللازمة للاقتران بفتاة مناسبة في كيو. وبالفعل، أعتقد أننا جميعًا مخطوبون، باستثناء الرضيع.

سألت: وماذا عنك؟

قال هربرت: أنا خاطب، لكنه سر.

أكدت له أنني سأحتفظ بالسر، وطلبت أن يتفضل عليّ بمزيد من التفاصيل. تحدّث بعقلانية وإحساس شديد بضعفي إلى درجة أنني أردت أن أعرف شيئًا عن قوته.

سألت: «هل يمكنني أن أسأل عن الاسم؟» قال هربرت: «اسمها كلارا».

- هل تعيش في لندن؟

قال هربرت، الذي أصبح خجولًا ووديعًا على نحوٍ غريب، منذ أن دخلنا في الموضوع المثير للاهتمام: نعم، ربما ينبغي لي أن أذكر أنها لا تتواءم مع أفكار أُمي الهُرائية عن العائلة. فوالدها كان له علاقة بتموين السفن. أعتقد أنه كان أمين حسابات.

قلت: ما يعمل الآن؟

«إنه قعيد الآن»، أجاب هربرت. «يعيش على...؟».

قال هربرت: «الطابق الأول». وهذا لم يكن ما أقصده على الإطلاق، لأنني قصدت أن أسأل عن موارده. «لم أره قطُّ، لأنه دائمًا ما بقي في غرفته بالأعلى، منذ أن عرفت كلارا. لكنني سمعت صوته باستمرار. إنه يصدر

صخبًا هائلًا، وضجة عالية، ويضرب على الأرض بأداة مخيفة.» بالنظر إليّ، ضحك هربرت من قلبه، واستعاد في هذه اللحظة أسلوبه المفعّم بالحيوية.

سألت: ألا تتوقع رؤيته؟

أجاب هربرت: أوه، نعم، أتوقع دائمًا رؤيته، لأنني لا أسمعه أبدًا، دون أن أتوقع أن يسقط عبر السقف. لكنني لا أعرف إلى متى يمكن أن تصمد العوارض الخشبية.

وعندما ضحك من قلبه مرة أخرى، أصبح وديعًا مرة أخرى، وأخبرني أنه في اللحظة التي يبدأ فيها في جمع المال، ينوي الزواج من هذه السيدة الشابة، وأضاف كمسألة بديهية، بمسحة من الكآبة: «لكن المرء لا يستطيع أن يتزوج، كما تعلم، بينما ينتظر الفرصة».

بينما كنا نتأمل النار، وبينما كنت أفكر في مدى صعوبة الوصول إلى المال في بعض الأحيان، وضعت يدي في جيبيّ. جذبتُ انتباهي قطعة من الورق المطوية في أحدهما، فتحتها، ووجدت دعوة المسرحية التي تلقيتها من جو، الخاصة بأحد الهواة الإقليميين الذائع الصيت ذي الشهرة في التمثيل. «غير معقول» أضفت بصوتٍ عالٍ تلقائيًا: إنها الليلة!

أدّى هذا إلى تغيير الموضوع في الحال، وقررنا على عجلٍ الذهاب إلى المسرحية؛ لذا، عندما تعهدت بمواساة هربرت ومساعدته في شؤون قلبه بكل الوسائل العملية وغير العملية، وعندما أخبرني هربرت أن خطيبته تعرفني بالفعل من حديثه عني، وأنه يجب تقديمي إليها، وعندما تصافحنا بحرارة على ثقتنا المتبادلة، وأطفأنا شموعنا، وأخمدنا نيران مدفأنا، وأغلقتنا بابنا، انطلقنا بحثًا عن السيد ووبسل والدنمارك^(١).

(١) إشارة إلى مسرحية هاملت. المترجم.

الفصل الحادي والثلاثون

عند وصولنا إلى الدنمارك، وجدنا الملك والملكة جالسين على كرسيين عاليين أمام طاولة المطبخ، ويعقدان مجلسًا. وكان النبلاء الدنماركيون حاضرين؛ يتألفون من صبي نبيل يرتدي حذاءً شمواه عاليًا ينتمي إلى سلف عملاق، ونبيل موقر ذي وجه قذر يبدو كأنه قد ارتقى من عوام الناس في وقت متأخر من الحياة، والخيالة الدنماركية بمشط في شعرها وزوج من الجوارب البيضاء الحريرية، وتعطي مظهرًا أنثويًا بشكل عام. وقف ابن مدينتي الموهوب كئيبيًا منفردًا عن الآخرين، وذراعه مطويتان، وكنت أتمنى لو أن تجعيدات شعره وجبهته كانت أكثر قبولًا.

ظهرت العديد من الملابس الصغيرة الغريبة مع استمرار الأداء. يبدو أن ملك البلاد الراحل لم يعانٍ من السعال وقت وفاته فحسب، بل أخذه معه إلى القبر وأعاده معه. كان شبح الملك يحمل أيضًا مخطوطة شبحية حول عصاه، التي بدا كأنه يقرأ منها أحيانًا، وذلك أيضًا، مع جو من القلق والميل إلى أن يتوه وسط السطور كان يوحي بحالة من الفناء. أعتقد أن هذا هو ما أدّى إلى أن ينصح الحضور الشبح بـ «قلب الصفحة!»، وهي توصية لقيت منه استياءً شديدًا. وكان من الجدير بالملاحظة أيضًا أن هذه الروح المهيبة، في حين أنها كانت تظهر دائمًا كأنها كانت في الخارج لفترة طويلة وتمشي مسافة هائلة، إلا إنها جاءت مباشرة وبوضوح من

جدارٍ مجاور. وقد أدى هذا إلى استقبال أهوالها بسخرية. ملكة الدنمارك، وهي سيدة بضّة للغاية، على الرغم من أنها تاريخيًا كانت تتزين بالكثير من الزينة الصفراء بلا شك، إلا أن الجمهور اعتبر أنها ترتدي الكثير من النحاس؛ ذقنها مربوط بإكليلها بشريطٍ عريضٍ منه (كما لو كانت تعاني من ألم شديد في أسنانها)، ويحيط خصرها بآخر، وكل ذراع من ذراعيها بآخر، بحيث سُميت علناً باسم «الطبل الجانبي». كان الصبي النبيل الذي يرتدي حذاء الأجداد غير متسق، حيث كان يمثل عدة أدوار في نفس الوقت، تارة يمثل نفسه، وتارة تجده بحارًا ماهرًا، وتارة ممثلًا جوالًا، وتارة حفار قبور، وتارة قسيسًا، وتارة أخرى شخصًا ذا أهمية قصوى في مباراة للمبارزة في البلاط، يحكم بين المتبارزين بعينه المتمرسة وتمييزه الدقيق. أدى هذا تدريجيًا إلى عدم احتماله، وحتى -بعد اكتشافه ككاهن ورفضه أداء مراسم الجنازة- إلى السخط العام الذي اتخذ شكل إلقاء المكسرات تجاهه. أخيرًا، كانت أوفيليا فريسة لهذا الجنون المسرحي المضجر، إلى درجة أنها عندما جاء الوقت وخلعت وشاحها الأبيض من الموسلين، وطوته، ودفتته، كان هناك رجلٌ متجهّم نافذ الصبر يجلس واضعًا أنفه على القضييب الحديدي الموجود في الصف الأمامي من الرواق، زمجر قائلًا: «الآن قد وضع الطفل في الفراش، فلنتناول العشاء!» الذي كان، على أقل تقدير، غير ملائمٍ على الإطلاق.

تراكمت كل هذه الأحداث على ابن مدينتي البائس، وكان لها تأثير هزلي. كلما كان على ذلك الأمير المتردد أن يطرح سؤالًا أو يشكك في أمرٍ ما، ساعده الجمهور في ذلك. وعلى سبيل المثال؛ فيما يتعلق بمسألة «أكون أو لا أكون»، ردّد البعض «نعم»، والبعض الآخر «لا»، وقال البعض

الذين يميلون إلى كلا الرأيين: «اقذف بعملة للقرعة»، وعلت المناظرة. وعندما سأل ماذا يجب أن يفعل وهو يزحف بين الأرض والسماء، قُوبِلَ بصرخات تشجيع عالية: «مرحى، مرحى» عندما ظهر مع جوره غير المرتب (الذي تُني عن طريق طيَّة أنيقة جدًّا في الأعلى، أفترض أنها تُرفع دائمًا بمكواة)، دارت محادثة بين الحضور حول شحوب لون ساقه، وما إذا كان ذلك بسبب الصدمة التي أصابته من الشبح. عندما أخذ الناي، الذي يشبه إلى حدٍّ كبير الناي الأسود الصغير الذي عُزف للتو في الأوركسترا، وسُلِّمَ له عند الباب، طالبه الحضور بالإجماع بعزف الأغنية الوطنية «احكمي يا بريطانيا». وعندما أوصى ممثل آخر بعدم تطويح يديه كمن ينشر الهواء بمنشار، قال الرجل المتجهم: «ولا تفعل ذلك أيضًا؛ أنت أسوأ منه بكثير!» ويؤسفني القول إن نوبات الضحك استقبلت السيد ووبسل في كل مناسبة من هذه المناسبات.

لكن أصعب محنة كانت في باحة الكنيسة، التي كانت تبدو كأنها غابة بدائية، بها ما يشبه مغسلة كنسية صغيرة على أحد الجانبين، وبوابة رئيسية على الجانب الآخر. السيد ووبسل الذي كان يرتدي عباءة سوداء واسعة، عندما لمح الجمهور وهو يدخل عند الباب الرئيسي، حُذِرَ حفَّار القبر بطريقة ودية: «انتبه! ها هو الحانوتي قادم ليرى كيف تمضي في عملك!» أعتقد أنه من المعروف جيدًا في دولة تهتم بالمعايير الصحية كهذه أن السيد ووبسل لم يكن في إمكانه إعادة الجمجمة، بعد إلقاء الوعظ عليها، دون نفث الغبار بأصابعه على منديل أبيض أخذه من صدره؛ ولكن حتى ذلك الفعل الضروري البريء لم يمر دون تعليق: «أيها النادل!» كان وصول الجثة للدفن (في صندوق أسود فارغ وغطاء مفتوح)

بمنزلة إشارة إلى فرحة عامة، تعززت كثيرًا باكتشاف شخص قبيح للغاية بين حاملية. رافقت الفرحة السيد ووبسل خلال صراعه مع ليرتس على حافة الأوركسترا والقبر، ولم تتوانَ حتى النهاية حين أسقط الملك من على طاولة المطبخ، ومات هو ميتة مطولة من رسغ قدميه وحتى رأسه.

لقد بذلنا بعض الجهود الواهنة في البداية للتصفيق للسيد ووبسل؛ لكنها كانت يائسة للغاية بحيث باءت بالفشل. لذلك جلسنا، متحمسين له بشدة، ونضحك مع ذلك ملء شديقنا. لقد ضحكت رغماً عني طوال الوقت، كانت المسرحية بأكملها هزلية للغاية؛ ومع ذلك، كان لديّ انطباعٌ كامنٌ بأن طريقة إلقاء السيد ووبسل كانت حتمًا متقنة، ليس بسبب معرفتي السابقة به، على ما أخشى، ولكن لأنها كانت بطيئة للغاية، وكثيية للغاية، وصاخبة وهامسة، وليس لها مثل على الإطلاق في الطرائق التي يعبرُ بها أي رجل عن نفسه في أي ظروف طبيعية للحياة أو الموت. عندما انتهت المأساة، واستدعي وُندد به، قلت لهربرت: دعنا نذهب على الفور، وإلا سنضطر إلى لقائه.

بذلنا قصارى جهدنا للنزول إلى الطابق السفلي، لكننا لم نكن سريعين كفاية أيضًا. كان واقفًا عند الباب رجل يهودي ذو حاجبٍ كثيفٍ بشكل غير طبيعي، لفت انتباهي ونحن نتقدم، وقال عندما اقتربنا منه:

– السيد بيب وصديقه؟

صُرِّح بهوية السيد بيب وصديقه.

قال الرجل: السيد فالدنجارفر سيكون سعيدًا بشرف لقائكما.

«فالدنجارفر؟» كررت ذلك، عندما همس هربرت في أذني: ربما

كان ووبسل.

قلت: أوه! نعم، هل تتبعك؟

«بضع خطوات من فضلك.» وعندما كنا في زقاق جانبي، استدار وسألنا: «كيف كان مظهره في رأيك؟ أنا ألبسته».

لا أعرف كيف كان شكله، باستثناء أنه كان جنازتيًا؛ بالإضافة إلى شمس أو نجمة دنماركية كبيرة معلقة حول رقبتة بشريط أزرق، مما أوحى بأنه مؤمن عليه ضد الحريق من قبل مكتب إطفاء استثنائي، لكنني قلت إنه بدا لطيفًا جدًا.

قال قائدنا: عندما وصل إلى القبر، أظهر عباءته الجميلة. ولكن، من مكاني في الجانب، بدا لي أنه عندما يرى الشبح في غرفة الملكة، ربما يكون قد أظهر جزءًا كبيرًا من جواربه.

لقد وافقت بتواضع، ودلفنا جميعًا من خلال باب متأرجح صغير متسخ، إلى ما يشبه صندوق التعبئة الحار خلفه مباشرة. هنا كان السيد ووبسل يجرد نفسه من ملابسه الدنماركية، وهنا لم يكن هناك سوى مجال لنا للنظر إليه من فوق أكتاف بعضنا البعض، من خلال إبقاء باب أو غطاء صندوق التعبئة مفتوحًا على مصراعيه.

قال السيد ووبسل: أيها السادة، أنا فخور برويتكم. أمل يا سيد بيب أن تعذر إرسالتي في طلبك. لقد كان من دواعي سروري أن أعرفك في الماضي، ومن المعروف دومًا أن الدراما طالما اجتذبت النبلاء والأثرياء. في هذه الأثناء، كان السيد فالدنجارفر، وهو يتصبب عرقًا مخيفًا، يحاول إخراج نفسه من زي الأمير المصنوع من فرو السمور.

قال صاحب المكان: انزع الجوارب بلطف يا سيد والدنجارفر، وإلا ستقطعها. إن قطعها ستدفع خمسة وثلاثين شلنًا. لم يُكرّم شكسبير قط بزوج أفضل. ابق هادئًا في كرسيك الآن، واترك الأمر لي.

وبذلك جثا على ركبتيه وبدأ بسلخ ضحيته. الذي، عند نزول الجورب الأول، كاد يسقط بكرسيه للخلف، لولا عدم توفر مكان للسقوط على أي حال.

كنت خائفاً حتى ذلك الحين من قول كلمة واحدة عن المسرحية. ولكن بعد ذلك، نظر إلينا السيد فالدينجارفر منشراً، وقال:
- أيها السادة، كيف بدا لكم العرض من الصف الأمامي؟
قال هربرت من الخلف (وكان يلكنني في الوقت نفسه): «ممتاز».
لذلك قلت: «ممتاز».

«كيف أعجبكم قراءتي للشخصية أيها السادة؟» قال السيد فالدينجارفر، بنوعٍ من الاستعلاء.
قال هربرت من الخلف (يلكنني مرة أخرى): «عظيمة وواقعية»
فقلت بجرأة، كأني أنا من ابتكر الوصف، ويجب أن أصر عليه: عظيمة وواقعية.

قال السيد فالدينجارفر، بهيئة من الوقار، على الرغم من استناده إلى الحائط في ذلك الوقت، وتشبُّه بمقعد الكرسي: أنا سعيد بالحصول على استحسانكم أيها السادة.

قال الرجل الجاثي على ركبتيه: لكنني سأخبرك شيئاً واحداً يا سيد فالدينجارفر، حيث تكون على المسرح. يجب أن تراعي الآتي! لا يهمني من يقول عكس هذا. أنت تخرج عن قراءتك لهاملت عندما تقف على المسرح في وضع جانبي. هاملت الأخير الذي كنت ألبسه ثيابه، كان يرتكب نفس الخطأ في قراءته في أثناء التدريب، حتى جعلته يضع رقاقة حمراء كبيرة على ساقه، ثم في تدريبه (الأخير) تقدمت للأمام، يا سيدي،

إلى الجزء الخلفي من الصفوف الأولى، وكلما أوصلته قراءته إلى وضع جانبي، صرخت: لا أرى أي رقائق! وفي الليل كانت قراءته جميلة.

ابتسم لي السيد والدنجارفر، بقدر ما قال لي: «تابع مخلص.. أنا أتجاهل حماقته». ثم قال بصوت عالٍ: وقفني كلاسيكية بعض الشيء وبها عمق تفكير بالنسبة إليهم هنا؛ لكنهم سيتحسنون، سوف يتحسنون.

قلت أنا وهربرت معاً، لا شك في أنهم سيتحسنون.

قال السيد فالدينجارفر: هل لاحظتم، أيها السادة، أنه كان هناك رجل بين الحضور يحاول السخرية من القداس، أعني الأداء؟

أجبنا بكل تواضع أننا اعتقدنا أننا لاحظنا مثل هذا الرجل. قلت: كان ثملاً بلا شك.

قال السيد ووبسل: لا يا عزيزي، يا سيدي، ليس ثملاً. من وظّفه سيتأكد من ذلك، يا سيدي. ولن يسمح له من وظفه بالثمالة.

سألت: هل تعرف من وظّفه؟

أغمض السيد ووبسل عينيه، وفتحهما مرة أخرى؛ فعل ذلك ببطء شديد، ثم قال: لا بد أنكم لاحظتم أيّها السادة، حماراً جاهلاً وصارخاً، ذا حنجرة خشنة وملامح معبرة عن الحقد الوضع، وقد أخذ دور (إن جاز لي نطقها بالفرنسية) -ولن أقول جسده- لكلوديوس، ملك الدنمارك، هذا هو من وظّفه، أيها السادة، هكذا هي مهنتنا!

دون أن أعرف بوضوح ما إذا كان ينبغي لي أن أشعر بمزيد من الأسف على السيد ووبسل لو كان يائساً أكثر من هذا، لكنني شعرت بالأسف عليه على أي حال، إلى درجة أنني انتهزت فرصة استدارته لوضع حمالات بنطاله، مما جعلنا نحشد في الخارج عند المدخل،

لأسأل هربرت عن رأيه في دعوته إلى المنزل لتناول العشاء؟ قال هربرت إنه يعتقد أنه سيكون من اللطيف القيام بذلك؛ ولذلك دعوته، فذهب معنا إلى نُزل برنارد وكل ما يشغله هو نجاحه، وبدلنا ما في وسعنا من أجله، وجلس حتى الساعة الثانية صباحًا، يستعرض نجاحه ويضع خطته. لا أتذكر تلك الخطط بالتفصيل، لكن لديّ ذكرى عامة أنه كان عليه أن يبدأ بإحياء الدراما، وينتهي بسحقها؛ بحيث يتركها موته مفاجئة تمامًا ومن دون أي فرصة أو أمل.

ذهبتُ إلى الفراش بائسًا، وفكرت بإستيلا بائسًا، وحلمت بائسًا أن كل آمالي قد تلاشت، وأن عليّ أن أتزوج من كلارا صديقة هربرت، أو ألعب دور هاملت لشبح الأنسة هافيشام، أمام عشرين ألف شخص، دون أن أعرف حتى عشرين كلمة.

الفصل الثاني والثلاثون

في أحد الأيام، عندما كنت مشغولاً بكتبي والسيد بوكيت، وصلتني رسالة عبر البريد، مجرد شكلها جعل قلبي يخفق بشدة؛ لأنه على الرغم من أنني لم أرَ خط اليد المرسل من قبل، فإنني تمكنت من معرفة صاحبة الرسالة. لم يكن للرسالة بداية محددة، مثل عزيزي السيد بيب، أو عزيزي بيب، أو سيدي العزيز، أو عزيزي أي شيء، ولكنها كانت كالتالي:

«سأتي إلى لندن بعد غدٍ في عربة الظهرية. أفترض أننا اتفقنا على أن تقابلني؟ على أي حال، لدى الآنسة هافيشام هذا الانطباع، وأنا أكتب إذعاناً لها. إنها ترسل إليك تحيتها».

المخلصة، إستيلا.

لو كان هناك وقت، ربما كنت سأطلب عدة بذلات لهذه المناسبة؛ ولكن بما أنه لم يكن هناك وقت، كنت مضطراً إلى أن أكون راضياً عما لديّ. تلاشت شهيتي على الفور، ولم أشعر بالسلام أو الراحة حتى جاء اليوم. لا يعني ذلك أن مجيئه جلب لي السلام أو الراحة؛ لأنني كنت حينها أسوأ من أي وقت مضى، وبدأت أطارد مكتب المركبات عند تقاطع شارعِي وود ستريت وتشيسايد قبل أن تغادر العربة البلو بور في مدينتنا. على الرغم من أنني كنت أعرف ذلك جيداً، فإنني ما فتئت أشعر

أنه ليس من الآمن ترك مكتب المركبات بعيداً عن عيني لمدة تزيد على خمس دقائق في كل مرة؛ وفي هذه الحالة غير العقلانية، كانت قد مرّت أول نصف ساعة من مراقبة مدتها أربع أو خمس ساعات، عندما ركض ويميك تجاهي.

قال: مرحباً، سيد بيب. كيف حالك؟ لم أكن أعلم أنك تستمتع بقضاء الوقت هنا.

أوضحت له أنني أنتظر مقابلة شخص قادم بالعربة، وسألت عن صحة العجوز وحال القلعة.

قال ويميك: كلاهما في خير حال، وخاصة العجوز، مزاجه رائع فهو سيبلغ الثانية والثمانين من عمره في عيد ميلاده القادم. لديّ فكرة بإطلاق النار اثنان وثمانين مرة، إذا لم يشتك الجيران، ويجب أن يرقى مدفعي للمستوى، ومع ذلك، هذا الحديث غير مناسب للندن، إلى أين تعتقد أنني ذاهب؟

سألت: «إلى المكتب؟» لأنه كان يذهب في اتجاهه.

أجاب ويميك: بجوار المكتب، حيث إنني ذاهب إلى سجن نيوجيت. نحن نعمل في قضية سرقة طرد مصرفي في الوقت الحاضر، وكنت أتفقد مكان الحادث، ومن ثم يجب أن أتحدث مع عميلنا بكلمة أو كلمتين.

سألت: هل ارتكب عميلك السرقة؟

أجاب ويميك بجفافٍ شديدٍ: بارك الله روحك وجسدك، لا، لكنه متهم بذلك. كما يمكن أن يحدث لك أو لي، قد يُتَّهم أي منا بذلك، كما تعلم.

قلت: لكن لا أحد منا كذلك.

قال ويميك وهو يلمس صدري بإصبعه: نعم! أنت شخص عميق يا سيد بيب! هل ترغب في إلقاء نظرة على سجن نيوجيت؟ هل لديك وقت فراغ؟

كان لديّ الكثير من الوقت، حتى إن الاقتراح جاء بمنزلة ارتياح، على الرغم من عدم توافقه مع رغبتى الكامنة في إبقاء عيني على مكتب المركبات. تمتمت بأنني سأستفسر عما إذا كان لديّ وقت للسير معه، فذهبت إلى المكتب، وتأكدت من الموظف بدقة فائقة وإثارة لسخطه، عن أقرب وقتٍ يمكن أن تأتي فيها العربة، والذي كنت أعرفه مسبقاً، مثله تماماً. انضمت بعد ذلك إلى السيد ويميك، وبعد أن تظاهرت بالنظر إلى ساعتى، واندهاشي من المعلومات التي تلقيتها، قبلت عرضه.

وصلنا إلى سجن نيوجيت في غضون دقائق قليلة، ومررنا عبر المدخل حيث كانت بعض الأغلال معلقة على الجدران العارية بين قواعد السجن، ووصلنا إلى الداخل. في ذلك الوقت، كانت السجون مهمة كثيراً، وفترة العقوبة المشددة للجنح العامة -العقوبة الأشد والأطول- لا تزال بعيدة. لذلك، لم يؤوَ المجرمون ويُطعموا بشكل أفضل من الجنود (ناهيك بالفقراء)، ونادراً ما أضرموا النار في سجونهم بحجة تحسين نكهة حسائهم^(١). كان وقت الزيارة عندما أخذني ويميك للداخل، وكان أحد عمال الحانة يقوم بجولاته حاملاً الجعة؛ والسجناء، خلف القضبان في الساحات، كانوا يشترون الجعة، ويتحدثون مع الأصدقاء؛ وكان المشهد كريهاً، قبيحاً، فوضوياً، ومحبطاً.

(١) إشارة إلى أعمال الشعب التي وقعت في سجن مدينة شاتام بإنجلترا عام ١٨٦١. المترجم.

أذهلني أن ويميك كان يسير بين السجناء مثلما يمشي البستاني بين نباتاته. أول ما جلب هذا إلى ذهني هو رؤيته لشجيرة ظهرت في الظلام، فقال: «ماذا؟ كابتن توم؟ هل هذا أنت؟ نعم، بالتأكيد! وأيضًا، هل هذا بلاك بيل خلف الصهريج؟ لم أسأل عنك في هذين الشهرين؛ كيف حالك؟» وبالمثل، في توقفه عند القضبان واستماعه لهمسات المتلهفين، وحده دائمًا، كان ويميك بفمه الشبيه بصندوق البريد بلا عواطف، ينظر إليهم في أثناء مداولاته معهم، كما لو كان يرصد بشكل خاص التقدم الذي أحرزوه، منذ آخر مرة رآهم فيها، نحو الخروج بازدهار كامل في محاكمتهم.

كان يحظى بشعبية واسعة، ووجدت أنه على الرغم من رفعه للكلفة وهو يقوم بأعمال السيد جاغرز؛ فإن جزءًا من هالة السيد جاغرز أحاط به أيضًا، مما يمنع الاقتراب من حدود معينة. كان تعرفه على كل عميل وراء الآخر يتألف من إيماءة، وتعديل وضع قبعته على رأسه بكلتا يديه، ثم زم شفتيه، ووضع يديه في جيبيه. في حالة أو حالتين، كانت هناك مشكلة مراعاة زيادة الرسوم، حيث قال السيد ويميك، مؤيدًا الأمر بقدر الإمكان بعدم كفاية الأرباح، «لا فائدة من ذلك يا بني. أنا مجرد مرؤوس. لا أستطيع أن أحتمل. لا تستمر بهذه الطريقة مع المرؤوس. إذا كنت غير قادر على دفع المبلغ الخاص بك، يا بني، فمن الأفضل أن تتحدث مع محام آخر؛ هناك الكثير من المحامين في المهنة، كما تعلم، وما لا يستحق وقت أحدهم، قد يستحق وقت شخص آخر؛ هذه نصيحتي لك، أنا أتحدث كمرؤوس. لا تضيع وقتك. لماذا يجب عليك ذلك؟ الآن، من التالي؟»

وهكذا، مشينا عبر دفيئة ويميك، حتى التفت إليّ، وقال: «لاحظ الرجل الذي سأصافحه.» كنت سألاحظ على أي حال، دون تمهيده، لأنه

لم يصفاح أحدًا بعد.

بمجرد أن تحدث تقريبًا، كان هناك رجل ضخّم منتصب القامة (أستطيع رؤيته الآن، وأنا أكتب هذا الكلام) يرتدي معطفًا زيتوني اللون، ذو شحوب غريب يغطي اللون الأحمر في بشرته، وعيناه تتجولان في الأنحاء وهو يحاول تثبيتهما، وتقدم إلى زاوية القضبان، ووضع يده على قبعته -التي كان على سطحها طبقة دهنية مثل المرق البارد- مع تحية عسكرية نصف جدية ونصف فكاهية.

قال ويميك: أحبك أيها العقيد! كيف حالك أيها العقيد؟

- لا بأس يا سيد ويميك.

- فعلنا كل ما في وسعنا، لكن الأدلة ضدك كانت قوية جدًا أيها العقيد.

- نعم، كانت قوية جدًا يا سيدي، لكنني لا أبالي.

قال ويميك ببرود: «لا، لا، أنت لا تبالي» ثم التفت إليّ قائلاً: لقد خدم هذا الرجل جلالة الملك. كان جنديًا في الصف ودفع ثمن تسريحه. قلت: «حقًا؟» ونظر الرجل إليّ، ثم نظر فوق رأسي، ثم نظر حولي في كل مكان، ثم وضع يده على شفثيه وضحك.

قال لويميك: أعتقد أنني سأنتهي من هذا الأمر يوم الاثنين يا سيدي.

أجاب صديقي: ربما، ولكن لا يوجد شيء مؤكد.

قال الرجل وهو يمد يده بين القضبان: أنا سعيد لأنني أتيت لي فرصة توديعك يا سيد ويميك.

قال ويميك وهو يصفاحه: شكرًا، وأنا أيضًا أيها العقيد.

قال الرجل وهو غير راغب في ترك يده: لو كان المال الذي لديّ عندما قُبِضَ عليّ حقيقياً يا سيد ويميك، كنت طلبت منك ارتداء خاتم آخر تقديرًا لاهتمامك.

قال ويميك: «النية تكفيني. بالمناسبة؛ لقد كنت من هواة تربية الحمام.» نظر الرجل إلى السماء. «قيل لي إن لديك سلالة رائعة من الحمام البهلواني. هل يمكنك تكليف أي صديق لك بإحضار زوج لي، إذا لم يكن لديك أي استخدام آخر لها؟»
- لك ذلك يا سيدي.

قال ويميك: «حسنًا، سوف أعتني بهم. عمت مساء أيها العقيد. وداعاً!» تصافحا مرة أخرى، وبينما كنا نسير مبتعدين، قال لي ويميك: «إنه مزور، مزور ماهر للغاية. أعد تقرير مأمور السجل اليوم، ومن المؤكد أنه سيُعدم يوم الاثنين. لكن كما ترى، فيما يخص هذا الأمر، فإن زوجًا من الحمام يعد ممتلكات محمولة على الرغم من ذلك.» وبهذا نظر إلى الوراء، وأومأ برأسه إلى هذا النبات الهالك لا محالة، ثم أدار عينيه حوله وهو يخرج من الفناء، كما لو كان يفكر في أي وعاء آخر سيكون أفضل في مكانه.

عندما خرجنا من السجن عبر المدخل، وجدت أن السجنانيين يولون اهتمامًا كبيرًا لوصيي، مثلهم مثل أولئك الذين هم تحت مسؤوليتهم. «حسنًا يا سيد ويميك» قال السجنان، الذي أبقانا بين بوابتي المدخل الزاخرتين بالمسامير والتنوعات المعدنية، والذي أغلق إحداهما بعناية قبل أن يفتح الأخرى، «ما الذي سيفعله السيد جاجرز بهذه الجريمة التي وقعت على جانب الماء؟ هل سيجعله قتلاً خطأ أم ماذا؟».

«لماذا لا تسأله؟» أجاب ويميك.

«أوه نعم، بالتأكيد!» قال السجان.

قال ويميك وهو يستدير نحوي وفمه ممدود: «الآن، هذه هي الطريقة المتبعة معهم هنا يا سيد بيب. إنهم لا يمانعون في سؤالني، أنا المروؤوس؛ لكنك لن تجدهم أبدًا يطرحون أي أسئلة على مخدومي».

«هل هذا السيد الشاب هو أحد المحامين تحت التمرين أو تحت التدريب في مكتبك؟» سأل السجان، وهو يتسم لدعابة السيد ويميك.

«ها هو يسأل مرة أخرى، كما ترى!» صاح ويميك قائلاً: «لقد أخبرتك بذلك! يسأل سؤالاً آخر للمروؤوس قبل أن يجف الأول! حسنًا، لنفترض أن السيد بيب هو واحد منهم؟».

قال السجان مبتسمًا مجددًا: إذن، فهو يعرف من هو السيد جاغرز؟

«نعم!» صاح ويميك، وهو يهاجم فجأة السجان بطريقة مرحة: أنت غبي كواحد من مفاتيحك الخاصة عندما يتعلق الأمر بمخدومي، أنت تعلم ذلك. دعنا نخرج أيها الثعلب العجوز، وإلا سأجعله يرفع دعوى ضدك بتهمة السجن الباطل.

ضحك السجان، وتمنى لنا يومًا سعيدًا، ووقف يضحك علينا من فوق مسامير الخوخة عندما نزلنا الدرج إلى الشارع.

«انتبه يا سيد بيب» قال ويميك، بجدية في أذني، وهو يأخذ ذراعي ليكون أكثر سرية: لا أعلم شيئًا يفعلهُ السيد جاغرز أفضل من الطريقة التي يحافظ بها على مكانته العالية. مكانته دائما عالية جدًا، وهي تناسب مع قدراته الهائلة. لم يجرؤ ذلك العقيد على محاولة تركه، مثلما لم يجرؤ ذلك السجان على سؤاله عن نواياه فيما يتعلق بقضية ما. ومن ثم، بين مكانته وبينهم، يدس مروؤوسه، ألا ترى؟ وهكذا يمتلكهم روحًا وجسدًا.

لقد تأثرت كثيرًا، بدهاء وصبي، ولم تكن هذه أول مرة. أعترف أنني قد تمنيت من كل قلبي، وهي ليست أول مرة أيضًا، لو كان لدي وصي آخر أقل قدرة وأكثر إنسانية.

افترقنا أنا والسيد ويميك عند المكتب في شارع ليتل بريتن، حيث كان المتضرعون للحصول على اهتمام السيد جاغرز يتسكعون كالعادة، وعدت للنظر إلى ساعتني في شارع مكتب المركبات، وكان ما زال أمامي نحو ثلاث ساعات. استنفدت الوقت كله في التفكير في مدى غرابة أن أكون محاطًا بكل وصمة السجن والجريمة هذه؛ في طفولتي، في مستنقعاتنا المنعزلة، في أمسية شتوية، حيث واجهتها لأول مرة؛ ثم تعود لتظهر مرة أخرى في مناسبتين، حيث تبدأ مثل وصمة عار تذوي ولكنها لا تتلاشى؛ وبهذه الطريقة الجديدة تتخلل آمالي وتقدمي. بينما كان ذهني منشغلًا بهذه الطريقة، فكرت في الشابة الجميلة إستيلا، المتكبرة والراقية، وهي تتقدم نحوي، وفكرت باشمئزازٍ مطلقٍ في التناقض بينها وبين السجن. تمنيت لو أن ويميك لم يقابلني، أو أنني لم أستسلم له وأذهب معه، بحيث، من بين كل أيام السنة في هذا اليوم، لم يكن من الواجب أن يوجد سجن نيوجيت في أنفاسي وعلى ملابسي. كنت أنفض غبار السجن عن قدمي وأنا أتجول ذهابًا وإيابًا، فنفضته من ثوبي، وأخرجت هواء من رئتي. شعرت بأنني ملوثٌ للغاية، عندما تذكرت من سيأتي، جاءت العربة سريعًا بعد كل هذه الأحداث، ولم أكن قد تحررت بعد من الوعي المتسخ بمشغل السيد ويميك، عندما رأيت وجهها في نافذة العربة ويدها تلوح لي.

«ما هذا الطيف المجهول الذي مرَّ مجددًا واختفى في لحظة واحدة؟».

الفصل الثالث والثلاثون

في ثوب سفرها المكسو بالفرو، بدت إستيلا أكثر جمالاً ورقة مما كانت عليه من قبل، حتى في عيني. كان أسلوبها أخذاً أكثر مما اعتزمته تجاهي من قبل، واعتقدت أنني رأيت تأثير الأنسة هافيشام في هذا التغيير. وقفنا في ساحة الحانة ودلّتني إلى أمتعتها، وعندما جمعت كل شيء تذكرت -بعد أن كنت نسيت كل شيء عدا إستيلا- أنني لم أكن أعرف شيئاً عن وجهتها.

قالت لي: أنا ذاهبة إلى ريتشموند. لتعلم أن هناك منطقتين باسم ريتشموند، واحدة في سوري وواحدة في يوركشاير، وتلك الخاصة بي هي التي في سوري. المسافة عشرة أميال. يجب أن أستقل عربة، وأنت يجب أن تأخذني. هذه حافظة النقود، وعليك أن تدفع الأجرة منها. أوه، يجب أن تأخذها! ليس لدينا خيار، أنا وأنت، سوى الامتثال لتعليماتنا. نحن لسنا أحراراً في اتباع رغباتنا الخاصة، أنا وأنت.

عندما نظرت إليّ وهي تعطيني حافظة النقود، تمنيت أن يكون هناك معنى داخلي في كلماتها. قالتها باستخفاف، ولكن ليس باستياء.

- يجب طلب عربة يا إستيلا. هلا ترتاحين هنا قليلاً؟

- نعم، سأرتاح هنا قليلاً، وأشرب بعض الشاي، وعليك أن تعتني بي في هذه الأثناء.

لَفَّت ذراعها حول ذراعي، كما لو كان لا بد من القيام بذلك، وطلبت من النادل الذي كان يحدق إلى العربية مثل رجل لم يرَ مشهداً كهذا في حياته، أن يُرينا غرفة جلوس خاصة. عند ذلك، أخرج مندبلاً، كأنه دليل سحري لا يستطيع من دونه أن يجد الطريق إلى الطابق العلوي، وقادنا إلى جحر مظلم للمنشأة، مزود بمرآة محدبة (غرض زائد عن الحاجة، مع الأخذ في الاعتبار أبعاد المكان)، وإبريق زجاجي به صلصة الأنشوجة، وواقى أحذية لشخص ما. بسبب اعتراضني على هذه الخلوة، أخذنا إلى غرفة أخرى بها مائدة عشاء تتسع لثلاثين فرداً، وفي المدفأة ورقة محروقة من دفترٍ ما تحت كمية من غبار الفحم. بعد أن نظر إلى هذا الحريق المنطفئ وهز رأسه، أخذ طلبي: «بعض الشاي للسيدة»، أخرجته هذه العبارة من الغرفة وهو في حالة مزاجية سيئة للغاية.

لقد كنت، وما زلت، أدرك أن هواء هذه الغرفة، بمزيجه القوي من رائحة الإسطبل والحساء، ربما دفع المرء إلى استنتاج أن مركز المركبات لم يكن ميسور الحال، وأن المالك الجريء كان يغلي الخيول ليصنع المرق. ومع ذلك، كانت الغرفة مكتملة بالنسبة إليّ، بوجود إستيلا فيها. اعتقدت أنني معها كان من الممكن أن أكون سعيداً هناك مدى الحياة. (أحيطكم علماً بأنني لم أكن سعيداً على الإطلاق هناك في ذلك الوقت، وكنت أعرف ذلك جيداً).

«إلى أين أنت ذاهبة، في ريتشموند؟» سألت إستيلا.

قالت: سوف أعيش بنفقة عالية، مع سيدة هناك، لديها القدرة - كما تقول - على اصطحابي في جولات، وتقديمي للمجتمع، وإظهاره للناس، وإظهارهم لي.

- أفترض أنك ستكونين سعيدة بالتنوع والإعجاب؟

- نعم، أظن كذلك.

أجابت بلا مبالاة إلى درجة أنني قلت: أنت تتحدثين عن نفسك كما لو كنت شخصاً آخر.

«أين تعلمت كيف أتحدث عن الآخرين؟» قالت إستيلا وهي تبسم بسعادة: «هيا، هيا، لا ينبغي أن تتوقع مني أن أدرس على يديك؛ يجب أن أتحدث بطريقة الخاصة. كيف تبلي مع السيد بوكيت؟».

«أعيش هناك بكل سرور؛ على الأقل...» بدا لي كأنني كنت أخسر فرصة.

«على الأقل؟» كررت إستيلا.

- بسرور قدر المستطاع في أي مكان، بعيداً عنك.

قالت إستيلا بهدوء شديد: أيها الفتى السخيف، كيف يمكنك أن تتحدث بمثل هذا الهراء؟ أعتقد أن صديقك السيد ماثيو أفضل من بقية أفراد عائلته؟

- إنه الأفضل بالتأكيد. إنه ليس عدواً لأحد...

تدخلت إستيلا: لا تقل إنه ليس عدواً لأحد سوي نفسه، فأنا أكره تلك الفئة من الرجال. لكنه في الحقيقة نزيه، وقد سمعت أنه بعيد كل البعد عن الغيرة والحقد؟

- أنا متأكد من أن لديّ كل الأسباب لقول ذلك.

«لكن ليس لديك كل الأسباب لقول ذلك عن بقية أفراد عائلته» قالت إستيلا، وهي تومئ برأسها إليّ وقد كان تعبير وجهها جدياً ومتنعشاً في

آنٍ واحدٍ، «لأنهم يحاصرون الأنسة هافيشام بالتقارير والتلميحات التي تسيء إليك. إنهم يشاهدونك، ويشوّهون صورتك، ويكتبون عنك رسائل (مجهولة أحياناً)، وأنت شاعلمهم ومعذبهم. بالكاد يمكنك أن تدرك مدى الكراهية التي يشعر بها هؤلاء الناس تجاهك».

- آمل ألا يسبوا لي أي ضرر؟

وبدلاً من الإجابة، انفجرت إستيلا بالضحك. كان هذا أمراً غريباً جداً بالنسبة إليّ، ونظرت إليها في حيرة كبيرة. وعندما غادرت -ولم تكن قد ضحكت فتوراً، بل باستمتاع حقيقي- قلت لها بطريقتي الخجولة:

- آمل ألا تستمتعي بالأمر إذا سبوا لي أي ضرر.

قالت إستيلا: «لا، لا، يجب أن تكون متأكداً من ذلك. عليك أن تكون على يقين من أنني أضحك لأنهم فشلوا. يا لهؤلاء الناس مع الأنسة هافيشام والعذاب الذي يذوقونه!» ضحكت مرة أخرى، وعلى الرغم من أنها الآن قد أخبرتني بالسبب، كان ضحكها ما زال غريباً جداً بالنسبة إليّ، لأنني لم أشك في صدقه، ومع ذلك بدا مبالغاً فيه لهذه المناسبة. اعتقدت أنه لا بد أن يكون هناك شيء أكثر مما أعرفه هنا؛ رأيت الفكرة في ذهني وأجابت عليها.

«الأمر ليس سهلاً حتى بالنسبة إليك» قالت إستيلا: «أن تعرف مدى الرضا الذي أشعر به عندما أرى هؤلاء الأشخاص محبطين، أو ما أجمل الشعور بالسخرية الذي يتباني عندما يُسخر منهم؛ لأنك لم تنشأ في هذا المنزل الغريب منذ أن كنت مجرد طفل، أنا فعلت. لم يتم شحذ ذكائك الصغير من خلال مؤامراتهم ضدك، تحت قناع التعاطف والشفقة وما هو غير ذلك من اللين والهدوء، وأنت مقموع ولا حول لك ولا قوة، هذا ما حدث لي. لم تفتح تدريجياً عينيك الطفوليتين المستديرتين أوسع وأوسع

لتكتشف تلك المرأة المحتالة التي تحسب مخزونها من راحة البال عندما تستيقظ في الليل^(١)؛ أنا فعلت».

لم يكن الأمر مضحكًا بالنسبة إلى إستيلا الآن، وهي تستدعي تلك الذكريات من أعماق ذاكرتها. لم أكن لأكون السبب في نظرتها هذه ولو انهارت كل آمالي.

قالت إستيلا: هناك أمران أستطيع أن أخبرك بهما. أولاً، على الرغم من المثل القائل بأن القطر المستمر يؤدي إلى تآكل الحجر، يمكنك أن تطمئن إلى أن هؤلاء الأشخاص لن يفعلوا ذلك أبدًا - ولا بعد مائة عام - لن يضعفوا موقفك مع الأنسة هافيشام، في أي شيء، كبيرًا كان أو صغيرًا. ثانيًا، أنا مدينة لك بالفضل في انشغالهم الشديد ووقاحتهم بلا طائل، وها هي يدي.

وبينما كانت تعطيني يدها على سبيل المزاح، لأن مزاجها المظلم كان عابرًا، أمسكت بها ووضعتها على شفتي. قالت إستيلا: أيها الفتى السخيف، ألن تحذر أبدًا؟ أم تقبل يدي بنفس الروح التي سمحت لك بها أن تقبل خدي؟ سألت: أي روح كانت تلك؟

- يجب أن أفكر لحظة.. روح الاحتقار للمتملقين والمتآمرين.

- إذا قلت نعم، هل يمكنني تقبيل خدك مرة أخرى؟

- كان عليك أن تسأل قبل أن تلمس يدي، ولكن نعم إن أردت.

انحنيت، وكان وجهها الهادئ مثل التمثال. قالت إستيلا وهي تنزلق بعيدًا في اللحظة التي لمست فيها خدها: الآن، عليك أن تهتم بأن أتناول بعض الشاي، وعليك أن تأخذني إلى ريتشموند.

(١) إشارة إلى كامبلا من الفصل الحادي عشر. المترجم.

إن عودتها إلى هذه اللهجة كما لو أن رفقتنا مفروضة علينا، وأنا مجرد دُميتين، أصابني بالألم؛ لكن كل شيء في تعاملاتنا كان يسبب لي الألم. مهما كانت لهجتها معي، لم أستطع أن أثق بها، ولا أبني عليها أي أمل؛ ومع ذلك فقد واصلت السير ضد الثقة وضد الأمل. لماذا تكرر ذلك ألف مرة؟ هكذا كان الأمر دائماً.

قرعت الجرس لطلب الشاي، وعاد النادل للظهور ومعه دليله السحري، وأحضر بالتدريج نحو خمسين ملحفاً لذلك المرطب، ولكن من دون أثر للشاي. صينية الشاي، وفناجين وأطباق، وصحون، وشوك وسكاكين (بما في ذلك سكين تقطيع اللحم)، وملاعق (متنوعة)، وملاحة طعام، وكعكة صغيرة وديعة محصورة بأقصى قدر من الاحتياطات تحت غطاء حديدي قوي، وقطعة ناعمة من الزبدة وسط كمية من البقدونس يشبه سفت موسى وسط الحلفاء^(١)، ورغيف خبز أبيض يعلوه مسحوق من نوع ما، وقطع مثلثة من الخبز تركت عليها قضبان موقد المطبخ بصماتها، وفي النهاية جرة عائلية سميكة؛ وهي ما ترنح بها النادل، معبراً في وجهه عن العبء والمعاناة. وبعد غياب طويل في هذه المرحلة من الترفيه، عاد أخيراً ومعه صندوق ذو مظهر ثمين يحتوي على بعض الأغصان. نقتها في الماء الساخن، ومن ثم استخرجت من كل هذه اللوازم كوباً واحداً لا أعرف ماهيته بالتحديد من أجل إستيلا.

دُفعت الفاتورة، والبقيشيش للنادل، ولم ننس سائس الخيل، وأخذنا الخادمة في الاعتبار؛ باختصار، ورغم ذلك أصبح النزول بأكمله في حالة من الازدراء والعداء، وخفت محفظة إستيلا كثيراً، ثم صعدنا إلى عربتنا

(١) سفر الخروج الإصحاح الثاني. المترجم.

وابتعدنا. اتجهنا إلى تشيبسايد وتجولنا في شارع نيوجيت، وسرعان ما كنا تحت أسوار المكان الذي شعرت بالخجل الشديد منه.

«ما هذا المكان؟» سألتني إستيلا.

تظاهرت بحماقة بأنني لم أعرف عليه في البداية، ثم أخبرتها. عندما نظرت إليه، وعادت برأسها مرة أخرى، ثم تمتمت: «البائسون!» لم أكن لأعترف بزيارتي السابقة لأي سبب من الأسباب.

قلت، على سبيل رمي الأمر بإتقان على عاتق شخص آخر: إن السيد جاجرز يتمتع بسمعة كونه مطلعًا على أسرار ذلك المكان الكئيب أكثر من أي رجل في لندن.

قالت إستيلا بصوت منخفض: أعتقد أنه أكثر من يعرف أسرار كل مكان.

- أنت معتادة رؤيته كثيرًا، على ما أعتقد؟

- لقد اعتدت رؤيته على فترات غير محددة، منذ الصغر. لكنني لا أعرفه الآن أفضل مما كنت أعرفه قبل أن أتمكن من التحدث بوضوح. كيف كانت تجربتك معه؟ هل توطدت علاقتك به؟

فقلت: بمجرد أن تعودت على أسلوبه المرتاب، صارت علاقتي به جيدة.

- هل أنت على علاقة وثيقة به؟

- لقد تناولت العشاء معه في منزله الخاص.

قالت إستيلا منكشمة: أتصور أنه مكان مثير للفضول.

- إنه مثير للفضول بالفعل.

كان يجب أن أحذر من مناقشة وصيّي بحرية شديدة حتى معها؛ وكنت سأستمر في الموضوع إلى حد وصف العشاء في شارع جيرارد، لو لم نواجه أماننا وهجاً مفاجئاً لمصباح غاز. بدا الأمر، في أثناء استمراره، كأنه متوهج وملّيء بذلك الشعور الذي لا يمكن تفسيره والذي كان لديّ من قبل؛ وعندما عبرناه، كنت في حالة ذهول لبضع لحظات كما لو ضربني البرق.

لذلك دخلنا في حديث آخر، وكان يدور بشكلٍ أساسي حول الطريقة التي كنا نسافر بها، وحول أجزاء لندن التي تقع على هذا الجانب منها، وماذا على ذلك. أخبرتني أن المدينة العظيمة كانت جديدة تقريباً بالنسبة إليها، لأنها لم تغادر حي الأنسة هافيشام قَطُّ حتى ذهبت إلى فرنسا، وكانت قد مرّت عبر لندن فقط ذهاباً وإياباً. سألتها إذا كان وصيّي مسؤولاً عنها في أثناء بقائها هنا؟ قالت بشكل قاطع: «لا سمح الله!» وليس أكثر.

كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أتجنب رؤية اهتمامها بجذبي إليها؛ وأنها جعلت نفسها ساحرة، وكانت ستفوز بي حتى لو استلزم الأمر بعض الألم. ومع ذلك، فإن هذا لم يجعلني أكثر سعادة، لأنها حتى لو لم تتبنى تلك النبوة التي تعبّر عن كوننا تحت تصرف أشخاص آخرين، كنت سأشعر أنها تحمل قلبي في يدها لأنها اختارت أن تفعل ذلك عمداً، وليس لأنها قد انتزعت أي حنان بداخلها لسحق قلبي ورميه بعيداً.

عندما مررنا بمدينة هامرسميث، أريتها المكان الذي يعيش فيه السيد ماثيو بوكيت، وقلت لها إنه ليس بعيداً عن ريتشموند، وأني أتمنى أن أراها أحياناً.

- نعم، عليك أن تراني؛ عليك أن تأتي عندما تكون في عقلك السليم؛

يجب أن تذكر للعائلة؛ في الواقع لقد ذكرت بالفعل.

سألتها: هل هي عائلة كبيرة التي ستضم إليها؟

- لا؛ هناك اثنتان فقط، الأم وابنتها. الأم سيدة ذات مكانة، رغم أنها لا تكره زيادة دخلها.

- أتساءل كيف استطاعت الأنسة هافيشام أن تنفصل عنك مرة أخرى بهذه السرعة.

قالت إستيلا وهي تتنهد كما لو كانت متعبة: إنه جزء من خطط الأنسة هافيشام لي يا بيب. يجب أن أكتب إليها باستمرار، وأراها بانتظام، وأبلغها كيف تسير أموري، أنا والجواهر، لأنها كلها تقريباً ملكي الآن. كانت هذه هي المرة الأولى التي تناديني فيها باسمي، بالطبع فعلت ذلك عمداً، وعلمت أنني يجب أن أقدر ذلك.

وصلنا ريتشموند بسرعة غير متوقعة، وكانت وجهتنا هناك منزلاً يقع وسط الخضرة، منزلاً قديماً مهيباً، حيث كانت التنانير والمساحيق والرقع التجميلية، والسترات المطرزة، والجوارب المطوية، والكشكشات، والسيوف، قد قضت وقتاً ممتعاً في الملاحظة مراراً وتكراراً. وكانت بعض الأشجار القديمة التي كانت موجودة أمام المنزل لا تزال تُقَلَّم بأشكالٍ نمطية وغير طبيعية، مثل الأطواق والشعر المستعار والتنانير المتبيسة؛ لكن الأماكن المخصصة لهم في الموكب العظيم للموتى لم تكن بعيدة، وسرعان ما سينزلون إليها ويسلكون الطريق الساكن مثل البقية.

كان هناك جرس ذو صوت قديم بدا حاداً في ضوء القمر، أعتقد أنه فيما مضى طالما أخبر المنزل: ها قد وصلت التنورة المقببة الخضراء، ها قد وصل السيف ذو المقبض الألماسي، ها قد وصلت الأحذية ذات

الكعب الأحمر والسوليتير الأزرق، جاءت خادمتان بوجوهين متوردين وخُطى سريعة لاستقبال إستيلا. وسرعان ما ابتلع المدخل حقائبها، وأعطتني يدها وابتسمت، وقالت ليلة سعيدة، وابتلعت بالمثل. ووقفت أنظر إلى المنزل، وأفكر في مدى سعادتي إذا عشت معها هناك، وأعلم أنني لم أكن سعيدًا معها قط، بل كنت بائسًا على الدوام.

ركبت العربة لتعيدني إلى هامرسميث، وصعدت وقلبي حزين، وترجّلت وقلبي حزين. عند باب منزلنا، وجدت جين بوكيت الصغيرة عائدة إلى المنزل من حفلة صغيرة برفقة حبيبها الصغير؛ وحسدت حبيبها الصغير، على الرغم من تعرض فلوبسون له.

كان السيد بوكيت يلقي محاضرة بالخارج؛ لأنه كان محاضرًا ممتعًا للغاية في الاقتصاد المنزلي، واعتُبرت أطروحته حول إدارة الأطفال والخدم أفضل المراجع لهذه الموضوعات. لكن السيدة بوكيت كانت في المنزل، وكانت تواجه بعض الصعوبات، بسبب إعطاء الرضيع علبة الإبر لإبقائه هادئًا في أثناء غياب ميلرز غير المبرّر (مع أحد أقاربها في حرس المشاة). وكان هناك عدد كبير من الإبر المفقودة مما يمكن اعتباره مفيدًا تمامًا للمريض في نعومة أظفاره إما للاستخدام الخارجي وإما أخذها عن طريق الفم.

ولما كان يُحتفى بالسيد بوكيت عن حق لأنه يقدم نصائح عملية ممتازة، ولأنه كان يمتلك تصورًا واضحًا وسليمًا للأشياء، وعقلًا حكيماً للغاية، كان لديّ فكرة وسط حزني أن أشاركه سري. لكن عندما نظرت إلى السيدة بوكيت وهي تجلس تقرأ كتاب أصحاب المقامات الرفيعة الخاص بها بعد أن وصفت النوم كعلاجٍ فعالٍ للرضيع، فكرت -حسنًا- لا، لن أفعل ذلك.

الفصل الرابع والثلاثون

عندما اعتدت آمالي، بدأت ألاحظ تدريجيًا تأثيرها في نفسي وفيمن حولي. لقد أخفيت عن نفسي تأثيرها على شخصيتي قدر الإمكان، لكنني كنت أعلم جيدًا أن تأثيرها لم يكن جيدًا. لقد عشت في حالة من عدم الارتياح المزمن فيما يتعلق بسلوكي تجاه جو. لم يكن ضميري مرتاحًا بأي حال من الأحوال بشأن بيدي. عندما كنت أستيقظ في الليل، مثل كاميل، كنت أفكر، بروح مجهدة، أنني كنت سأصبح أكثر سعادة وأفضل حالًا لو لم أرَ وجه الأنسة هافيشام قطُّ، وكنت قد ارتقيت إلى الرجولة قانعًا بأن أكون شريكًا لجو في دكان الحدادة القديم المتواضع. في كثير من الأمسيات، عندما كنت أجلس وحدي أنظر إلى النار، كنت أفكر، على الرغم من كل شيء، أنه لم يكن هناك نار مثل نار دكان الحدادة ونار المطبخ في المنزل.

ومع ذلك، كانت إستيلا لا تنفصل عن كل قلقي واضطرابات عقلي، إلى درجة أنني وقعت في حيرة من أمري فيما يتعلق بدوري في جلب كل هذا إلى نفسي. وهذا يعني أنه، لنفترض أنه لم تكن لدي أي آمال، ومع ذلك كانت إستيلا تشغل تفكيري، لما كنت قرير العين أيضًا. الآن، فيما يتعلق بتأثير مركزي على الآخرين، لم أكن أواجه مثل هذه الصعوبة، ولذلك أدركت -على الرغم من أن ذلك ربما يكون غير واضحٍ بدرجة

كافية- أنه لم يكن مفيدًا لأي شخص، ولا سيما هربرت. عاداتي الباذخة قادت طبيعته السهلة إلى نفقات لم يكن يستطيع تحملها، وأفسدت بساطة حياته، وأزعجت سلامه بالقلق والندم. لم أندم على الإطلاق لأنني قمت -عن غير قصد- بتعريف أعضاء عائلة بوكيت الآخرين بالفنون الرديئة التي كانوا يمارسونها؛ لأن مثل هذه التفاهات كانت نزعة طبيعية لديهم، وكان من الممكن أن يثيرها أي شخص آخر، لو تركتهم في حالة من الرقاد. لكن حالة هربرت كانت مختلفة تمامًا، وكثيرًا ما كنت أشعر بتأنيب ضمير كوني قدمت له خدمة شريرة عندما كدّست غرفه المفروشة ببساطة بأثاث غير متناسب، ووضعت المتقمم ذا الصدرية بلون الكناري تحت تصرفه.

والآن، وكطريقة مؤكدة لتسهيل الأمور البسيطة، بدأت في التعاقد على قدرٍ من الديون. استطعت أن أبدأ بصعوبة، ولكن كان على هربرت أن يبدأ أيضًا، لذا سرعان ما تبعني. بناءً على اقتراح ستارتوب، أدرجنا أسماءنا لنُختار في نادٍ يُدعى فينشز أوف ذا جروف: الهدف من هذه المؤسسة لم أتخيله قط، كان على الأعضاء أن يتناولوا العشاء الباهظ مرة كل أسبوعين، وأن يتشاجروا فيما بينهم بقدر الإمكان بعد العشاء، والتسبب في ثمانية ستة نُذل على الدرج. أعلم أن هذه الغايات الاجتماعية المُرضية كانت تتحقق دائمًا، إلى درجة أنني وهربرت لم نفهم شيئًا آخر يمكن الإشارة إليه في أول نخب لأعضاء النادي: «أيها السادة، نتمنى أن يكون تعزيز المشاعر الطيبة هو السائد دومًا بين أعضاء فينشز أوف ذا جروف».

أنفق أعضاء النادي أموالهم بحماقة (الفندق الذي تناولنا فيه العشاء كان يقع في كوفنت جاردن)، وكان أول فينش رأيتُه عندما حظيت بشرف الانضمام إلى ذا جروف هو بتلي درامل، الذي كان في ذلك الوقت

يتخبط في أنحاء المدينة بعربة الخيل الخاصة به، ويسبب أضرارًا جسيمة للأعمدة الموجودة في زوايا الشوارع. في بعض الأحيان، كان يُوقع نفسه أرضًا من العربة فوق الحاجز الواقى؛ ورأيت ذات مرة يحرر نفسه عند باب الجروف بهذه الطريقة غير المقصودة، مثل شوال الفحم. لكنني أستبق الأحداث قليلًا، لأنني لم أكن من نوع فينش، ولا يمكن أن أكون كذلك، وفقًا للقوانين المقدسة للنادي، حتى بلوغي سن الرشد.

وبسبب شعوري بالراحة المادية، كنت مستعدًا عن طيب خاطر لتحمل نفقات هربرت؛ لكن هربرت كان أبيًا، ولم أتمكن من طرح مثل هذا الأمر. فواجه الصعوبات في كل اتجاه، وظل ينتظر الفرصة. عندما اعتدنا تدريجيًا السهر لساعات متأخرة مع الصحبة الجديدة، لاحظت أنه كان ينظر في الأمر بعين يائسة وقت الإفطار؛ وأنه بدأ ينظر في الأمر بأمل أكبر في منتصف النهار؛ وأنه يئس من الأمر عندما جاء وقت العشاء؛ وبدا أنه يلمح رأس المال من بعيد، بشكل واضحٍ إلى حدٍّ ما بعد العشاء؛ وأنه جمع رأس المال قرب منتصف الليل؛ وأنه في نحو الساعة الثانية صباحًا، أصبح يائسًا للغاية مرة أخرى إلى درجة أنه تحدث عن شراء بندقية والذهاب إلى أمريكا، بهدف عام هو إخضاع الجاموس لجني الثروة.

كنت عادةً أقضي نصف الأسبوع تقريبًا في هامرسميث، وعندما كنت في هامرسميث كنت أتردد على ريتشموند. كان هربرت يأتي في كثير من الأحيان إلى هامرسميث عندما كنت هناك، وأعتقد أنه في تلك الأوقات كان لدى والده في بعض الأحيان تصور عابر بأن الفرصة التي يبحث عنها لم تظهر بعد. لكن في حالة التعثر العام للأسرة، فإن تعثره في خضم الحياة، كان شيئًا يجب أن يحل نفسه بنفسه. في هذه الأثناء،

ازداد السيد بوكيت شيبًا، وحاول كثيرًا أن يخلص نفسه من حيرته وهو يرفع نفسه من شعره. بينما أزعجت السيدة بوكت العائلة بمسند قدميها، وقرأت كتاب أصحاب المقامات الرفيعة الخاص بها، وفقدت منديل جييها، وأخبرتنا عن جدها، وعلمت الرضيع كيف ينمو، عن طريق دفعه إلى الفراش كلما حاول لفت انتباهها.

بما أنني الآن أذكر إجمالًا فترة من حياتي بهدف تمهيد الطريق أمامي، فلا أستطيع أن أفعل ذلك بشكل أفضل من وصف سلوكياتنا وعاداتنا في نُزُل برنارد على الفور.

لقد أنفقنا أكبر قدر ممكن من المال، ولم نحصل مقابلته إلا على أقل ما يمكن للناس أن يقرروا منحنا إياه. كنّا دائمًا بائسين على نحوٍ أو آخر، وكان معظم معارفنا في نفس الحالة. كان هناك الوهم المشرق بيننا أننا كنا نقضي وقتًا ممتعًا باستمرار، والحقيقة القاطعة هي أننا لم نفعل قط. ما أعلمه جيدًا، هو أن حالتنا في هذا الصدد كانت بالأحرى حالة عامة.

كل صباح، بمظهر متجدد دائمًا، كان هربرت يذهب إلى المدينة ليبحث عن فرصته. كثيرًا ما كنت أزوره في الغرفة الخلفية المظلمة حيث كان يرافقه جرة حبر، ومشجب قبة، وصندوق فحم، وعلبة شرائط، وورزنامة، ومكتب ومقعد، ومسطرة؛ ولا أتذكر أنني رأيته يفعل أي شيء آخر سوى البحث عن الفرص. إذا قمنا جميعًا بما تعهدنا به، بنفس الإخلاص الذي فعله هربرت، فقد نعيش في جمهورية الفضيلة. لم يكن لديه أي شيء آخر ليفعله، ذلك المسكين، إلا في ساعة معينة من بعد ظهر كل يوم «للذهاب إلى لويديز»، امتثالًا لطقس مقابلة مديره، على ما أعتقد. لم أجده يفعل أي شيء آخر فيما يتعلق بلويديز، باستثناء العودة إلى هناك

مرة أخرى. عندما كان يشعر أن حالته صارت حرجة على نحوٍ غير عادي، وأنه يجب عليه بالتأكيد أن يجد فرصة، كان يذهب إلى البورصة في وقتٍ مزدحمٍ من اليوم، ويدخل ويخرج، في نوعٍ من الرقص الريفى الكئيب، بين أقطاب الصناعة المجتمعين. قال لي هربرت وهو عائد إلى المنزل لتناول العشاء في أحد تلك الأوقات الفارقة: «لأنني أجد في الحقيقة يا هاندل أن الفرصة لن تأتي إلى أحد، بل يجب على المرء أن يذهب إليها، ولذلك أنا ذهبت إلى هناك».

لو كنا أقل ارتباطاً ببعضنا ببعض، أعتقد أننا كنا سنكره بعضنا البعض على الدوام كل صباح. لقد كرهت الغرف بشكلٍ لا يمكن التعبير عنه في فترة الندم هذه، ولم أستطع تحمل رؤية زي المنتقم؛ الذي كان مكلفاً وغير مجزٍ في الصباح أكثر من أي وقت آخر خلال الأربع وعشرين ساعة. ومع غرقنا في الديون أكثر فأكثر، أصبح الإفطار غير مشبع أكثر وأكثر، وفي إحدى المرات في وقت الإفطار هُددت (برسالة) باتخاذ إجراءات قانونية، كما قد تقول صحيفتي المحلية: «مقترنة بالأصفاد» ذهبت إلى حد الإمساك بالمنتقم من ياقته الزرقاء، أهزّه وأرفعه إلى أعلى، حتى صار في الهواء بالفعل، مثل كيوييد ذي الحذاء طويل الرقبة، لافتراضه أننا نريد رغيفاً من الخبز.

في أوقاتٍ محددة -أي في أوقاتٍ غير مؤكدة، لأنها تعتمد على نفسيتنا- كنت أقول لهربرت، كما لو كان اكتشافاً رائعاً:

- عزيزي هربرت، نحن نسير بشكلٍ سيئ.

كان هربرت يقول لي بكل صدق: عزيزي هاندل، إن كنت تصدقني، فإن تلك الكلمات ذاتها كانت على لساني، بمحض الصدفة الغريبة.

أجبت: إذن يا هربرت، دعنا ننظر في شؤوننا.

لقد استمددنا دائماً رضاً عميقاً من تحديد موعد لهذا الغرض. لقد اعتقدت دائماً أن هذه مسؤولية، وأنها الطريقة المناسبة لمواجهة الأمر، والإمساك بالعدو من تلايبه. وأنا أعلم أن هربرت كان يعتقد ذلك أيضاً. طلبنا شيئاً مميزاً للعشاء، مع زجاجة من مشروب مميز أيضاً، حتى نقوي أذهاننا لهذه المناسبة، علناً نرقى للمستوى المطلوب. بعد انتهاء العشاء، أحضرنا مجموعة من الأقلام وكمية وفيرة من الحبر واستعراض جيد لورق الكتابة والورق المجفف. لأنه كان هناك شيء مريح جداً في وجود الكثير من الأدوات المكتبية.

كنت بعد ذلك آخذ ورقة، وأكتب فوقها، بيد أنيقة، العنوان، «مذكرة ديون بيب»؛ مع إضافة نزل برنارد والتاريخ بعناية فائقة. كان هربرت أيضاً يأخذ ورقة ويكتب عليها بإجراءات مماثلة «مذكرة ديون هربرت».

يشير كل واحد منا بعد ذلك إلى كومة من الأوراق المتشابكة بجانبه، والتي أُلقيت في الأدراج، وتآكلت داخل ثقب الجيوب، ونصفها احترق في شموع الإضاءة، وظلت عالقة لأسابيع في المرأة، أو تضررت بطرق أخرى. أنعشنا صوت أقلامنا كثيراً، إلى درجة أنني وجدت أحياناً صعوبة في التمييز بين هذا الإجراء التهذيبي المسؤول ودفع المال فعلياً. من وجهة النظر الجديرة بالتقدير، بدا الأمران متساويين تقريباً.

عندما كنا نكتب لبعض الوقت، كنت أسأل هربرت كيف حاله؟ كان هربرت يحك رأسه بطريقة حزينة جداً عند رؤية أرقامه المتراكمة.

كان هربرت يقول: إنهم يزدادون يا هاندل؛ احلف لك بحياتي، إنهم يزدادون.

«كن حازماً يا هربرت»، كنت أجيب، وأنا أستعمل قلمي بمثابة

كبيرة. «واجه الأمر، انظر في شؤونك، أربكهم».

- أود أن أفعل ذلك يا هاندل، لكنهم يربكونني أنا.

ومع ذلك، كان لأسلوبى الحازم تأثيره، ليعود هربرت إلى العمل مرة أخرى. بعد برهة، يستسلم مرة أخرى، بحجة أنه لم يحصل على فاتورة كوبز، أو لوبس، أو نوبس، حسب الحالة.

- حسنًا يا هربرت، قم بالتقدير؛ قم بتقديرها بأعداد تقريبية، ثم ضعها جانبًا.

«يا لك من داهية!» يجيب صديقي بإعجاب: «حقًا إن مداركك في هذا الشأن واسعة للغاية».

اعتقدت ذلك أيضًا. لقد اكتسبت بنفسى، في هذه المناسبات، سمعة رجل أعمال من الدرجة الأولى، سريع وحازم ونشط وواضح وهادئ. عندما انتهيت من تدوين كافة الديون في قائمتي، قمت بمقارنة كل منها مع الفاتورة، ووضعت علامة عليها. كان شعوري بالرضا عن ذاتي عندما قمت بوضع علامة على أحد الإدخالات بمنزلة إحساس بالفخامة. عندما لم يعد لديّ المزيد من العلامات لوضعها، قمت بطي جميع فواتيري بنظام، وقمت بتلخيصها على الظهر، وربطتها كلها في حزمة متسقة. ثم فعلت الشيء نفسه مع هربرت (الذي قال بكل تواضع إنه لا يتمتع بعبقريتي الإدارية)، وشعرت أنني وضعت شؤونه في نصابها الصحيح.

كان لعاداتي التجارية ميزة ذكية أخرى، والتي أسميتها «ترك الهامش». على سبيل المثال؛ لنفترض أن ديون هربرت تبلغ مائة وأربعة وستين جنيهًا وأربعة شلنات وبنسين، كنت أقول: «اترك هامشًا، وقدرها بمائتي جنيه». أو لنفترض أن ما لديّ هو أربعة أضعاف، سأترك هامشًا،

وأقדרه بسبعمائة. كان لديّ رأي كبير حول حكمة هذا الهامش نفسه، لكن لا بد لي من الاعتراف بأنه عندما أنظر إلى الوراء، أرى أنه كان إجراءً باهظ الثمن. لأننا كنا نواجه دائماً ديوناً جديدة على الفور، تتخطى حد الهامش، وفي بعض الأحيان، بسبب الحرية واليسر اللذين منحهما الهامش، يصل تجاوزنا إلى حد إنشاء هامش آخر.

ولكن كان هناك هدوء، وراحة، وصمت عفيف، نتيجة لهذا التفحص في شؤوننا مما كان يجعلني، في ذلك الوقت، معجباً بنفسني للغاية. بعد أن يجلب مجهودي وطريقتي ومجاملات هربرت لي السكون، كنت أجلس وحزمتي وحزمتي المتسقتان على الطاولة أمامي بين القرطاسية، وأشعر كأنني مَصرف من نوع ما، وليس فرداً عادياً.

كنا نغلق بابنا الخارجي في هذه المناسبات الجليّة، حتى لا يقاطعنا أحد. ذات مساء، كنا قد دلفنا لحالة الصفاء هذه، عندما سمعنا رسالة تسقط من خلال شق الباب، وتستقر على الأرض. قال هربرت وهو يخرج ويعود بها: «إنها لك يا هاندل، وآمل أن يكون كل شيء على ما يرام». كان هذا في إشارة إلى ختمها الأسود الثقيل وإطارها.

دُيِّلت الرسالة بتوقيع تراب وشركاه، وكان محتواها ببساطة أنني السيد المحترم، وأنهم يتوسلون لإبلاغي بأن السيدة جيه جاريجري قد رحلت عن هذه الحياة يوم الاثنين الماضي في الساعة السادسة وعشرين دقيقة مساءً، وأنه مطلوب حضوري الدفن يوم الاثنين القادم الساعة الثالثة بعد الظهر.

الفصل الخامس والثلاثون

كانت المرة الأولى التي يُفتح فيها قبر في طريق حياتي، وكانت الفجوة التي أحدثها في الأرض المستوية مدهشة. صورة أختي على كرسيها بجوار نار المطبخ، كانت تطاردني ليل نهار. أن يتواجد المكان من دونها هو شيء لم أستطع استيعابه؛ وعلى الرغم من أنني نادراً ما كنت أفكر فيها مؤخراً أو بالأحرى، أنا لم أفكر فيها مؤخراً على الإطلاق، فقد راودتني الآن أغرب الأفكار بأنها كانت قادمة نحوي في الشارع، أو أنها ستطرق الباب في التو واللحظة. وفي غرفتي أيضاً، التي لم ترتبط بها على الإطلاق، كان هناك في الحال سكون الموت وإيحاء دائم بصوتها أو التفاتة وجهها أو جسدها، كما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، وكانت موجودة في كثير من الأحيان.

مهما كانت أقداري، ما كنت لأتذكر أختي بكثيرٍ من العطف. لكنني أعتقد أن هناك صدمة من الندم قد تتواجد من دون الكثير من العطف. تحت تأثيرها (وربما للتعويض عن الافتقار إلى رقة الشعور) اجتاحني سخطٌ عنيفٌ ضد المعتدي الذي عانت بسببه كثيراً؛ وشعرت أنه كان في إمكاني، إذا توفّر دليل كافٍ، أن ألاحق أورليك، أو أي شخص آخر حتى النهاية، للأخذ بثأرها.

بعد أن بعثت برسالة إلى جو لأقدم له العزاء، وأؤكد له أنني سأحضر

الجنّازة، قضيت الأيام التالية في الحالة الذهنية الغريبة التي تطرقت إليها. نزلت في الصباح الباكر، ووصلت عند فندق بلو بور في الوقت المناسب للسير إلى دكان الحدادة.

كان الطقس صيفياً جميلاً مرة أخرى، وبينما كنت أمضي في طريقي، عادت إليّ بوضوح الأوقات التي كنت فيها طفلاً صغيراً عاجزاً، ولم تتركني أختي لحالي. لكنها عادت بلمسة رقيقة خففت حتى من حدة النغازة. في الوقت الراهن، همس عبير الفاصوليا والبرسيم في قلبي أنه لا بد أن يأتي اليوم الذي سيكون فيه من الجيد لذكراي أن يرق قلب الآخرين الذين يسرون في ضوء الشمس عندما يفكرون بي.

أخيراً، أصبحت على مرأى من المنزل، ورأيت أن تراب وشركاه قد قاموا بإجراءات الجنّازة واستحوذوا عليها. عند الباب الأمامي، وُضع أحماقان كثيبان، يُظهر كلُّ منهما بشكلٍ لافت للنظر عكازاً مغطىً بعصابة سوداء، كما لو أن هذه الأداة يمكن أن توفر أي عزاء لأي شخص؛ وتعرّفت على أحدهم وهو الخيال الذي سُرّح من البلو بور لأنه أوقع زوجين شابين في حفرة نشر الخشب صباح زفافهما، نتيجة ثمالته وركوبه لحصانه وهو ممسكٌ برقبتة بكلتا ذراعيه. كان جميع أطفال القرية، ومعظم النساء، معجبين بحراس الحداد والنوافذ المغلقة للمنزل ودكان الحدادة؛ وعندما وصلت، طرق أحد الحراس (الخيال) الباب، موحياً بأنني قد أضنّاني الحزن فلم يعد لديّ القوة لأطرق بنفسِي.

فتح حارس آخر (نجار)، كان قد أكل ذات مرة إوزتين على سبيل الرهان) الباب، وقادني إلى غرفة الجلوس. هنا، اتخذ السيد تراب لنفسه أفضل طاولة، ورفع كل جوانبها، وكان يعقد ما يشبه البازار الأسود،

بمساعدة عددٍ من الدبابيس السوداء. في لحظة وصولي، كان قد انتهى لتوّه من وضع قبعة شخص ما في قماش أسود طويل، مثل طفل إفريقي؛ فمد يده إليّ. لكنني، بعد أن ضلّلتني الفعل، وأربكتني المناسبة، صافحته بكل مودة ودفع.

كان عزيزي جو المسكين، الذي كان عالماً في عباءة سوداء صغيرة مربوطة تحت ذقنه كالفراشة، يجلس منفصلاً في الطرف البعيد من الغرفة؛ حيث من الواضح أنه كان متمركزاً هناك على يد تراب بصفته كبير المشيعين. عندما انحنيت وقلت له: «عزيزي جو، كيف حالك؟» قال: «بيب، أيها الصديق القديم، لقد عرفتها عندما كانت امرأة جميلة...» وأطبق على يديّ ولم يقل المزيد.

كانت بيدي، التي كانت تبدو أنيقة ومحتشمة للغاية في ثوبها الأسود، تتجوّل بهدوء هنا وهناك، وكانت خير عون. بعدما تحدثت إلى بيدي، لأنني اعتقدت أن هذا ليس الوقت المناسب للحديث، ذهبت وجلست بالقرب من جو، وهناك بدأت أتساءل في أي جزء من المنزل كانت -هي- أختي. كان هواء الغرفة به رائحة خجولة للكعك الحلو، فبحثت عن طاولة المرطبات؛ كانت بالكاد مرئية حتى يعتاد المرء العتمة، ولكن كانت هناك كعكة برقوق مقطعة عليها، وكان هناك برتقال مقطّع، وشطائر، وبسكويت، وأبريقان كنت أعرفهما جيداً كزينة، ولكن لم يسبق لي أن رأيتهما مستخدمين طوال حياتي؛ واحد مليء ببنبيذ بورت، وواحد ببنبيذ الشيري. عندما وقفت على هذه الطاولة، انتبهت إلى الحقير بامبلتشوك الذي يرتدي عباءة سوداء وعصابة قبعة طولها عدة ياردات، والذي كان يملأ فمه ويقوم بحركات متذللة لجذب انتباهي بالتناوب. في اللحظة

التي نجح فيها، جاء إليَّ (ينفث الشيري وفتات الكعك)، وقال بصوتٍ خافتٍ: «هل تسمح لي يا سيدي العزيز؟» وصافحني. ثم لمحت السيد والسيدة هابل؛ كانت الأخيرة في نوبة بكاء شديدة في الزاوية. كنا جميعًا على وشك «الامثال»، وكنا جميعًا في انتظار تقييدنا جانبًا (بواسطة تراب) في حزمٍ سخيفة.

«ما قصدته يا بيب» همس جو لي بينما كنا نتشكل كما وصف السيد تراب في الردهة، اثنين اثنين، وكان الأمر أشبه بالتحضير لنوع من الرقص الكئيب على نحوٍ مخيفٍ؛ «ما قصدته يا سيدي، هو أنني كنت أفضل أن أحملها بنفسي إلى الكنيسة، مع ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء الذين سيأتون إليها طواعية بقلوبٍ وأذرع مفتوحة، ولكن كان من المعتقد أن الجيران سينظرون بازدراء إلى مثل هذا الترتيب وسيجدونه غير لائق».

«أخرجوا مناديل الجيب، جميعكم!» صاح السيد تراب في هذه اللحظة بصوتٍ عملي كئيب. «أخرجوا مناديل الجيب! نحن جاهزون!». لذلك وضعنا جميعًا مناديل الجيب على وجوهنا، كما لو أن أنوفنا تنزف، واتجهنا إلى الخارج في أزواج؛ جو وأنا؛ بيدي وبامبلتشوك؛ السيد والسيدة هابل. جُلِبَ جثمان أختي المسكينة من باب المطبخ، وبما أن من شروط مراسم دفن الموتى هو خنق الحمالاة الستة وإصابتهم بالعمى تحت غطاء مخملي أسود فظيع ذي أطراف بيضاء، فقد بدا الأمر كله كأن وحشًا ذا اثنتي عشرة ساقًا بشرية، يمشي ويتخبط تحت إشراف اثنين من الحراس، الخيال ورفيقه.

ومع ذلك، هذه الترتيبات لاقت استحسان أفراد الحي، وأعجبوا بنا كثيرًا في أثناء مرورنا بالقربة؛ اندفع من هم أكثر شبابًا ونشاطًا في الحي

بين الحين والآخر لقطع الطريق علينا، وترصدوا لنا لاعتراض سبيلنا من المشارف. في مثل هذه الأوقات، كان الأشخاص الأكثر نشاطاً بينهم يصيحون بطريقة حماسية عند ظهورنا حول ركنٍ ما من مكان ترقبهم، «ها هم قادمون!» «ها هم أولاء!» وهللوا لنا جميعاً. في وسط تقدُّمنا، كنت منزعجاً جداً من الحقير بامبلتشوك، الذي كان خلفي، واستمر طوال الطريق مهتماً بترتيب عصابة القبعة الخاصة بي، والتمليس على عباءتي. تشتت أفكارني أكثر بسبب التباهي المفرط للسيد والسيدة هابل، اللذين كانا يختالان ويتبخران بشكلٍ مبالغٍ كونهما أعضاء في هذه المسيرة المشرفة للغاية.

والآن أصبحت المستنقعات واضحة أماننا، وأشرعة السفن في النهر تنبثق منها؛ وذهبنا إلى باحة الكنيسة، بالقرب من قبور والديَّ المجهولين، فيليب بيريب، الراحل من رعية الكنيسة، وأيضاً جورجيانا، زوجته. وهناك، استلقت أختي بهدوء في قبرها، بينما كانت طيور القبرة تغني عالياً فوقها، وتناثرت عليها الريح الخفيفة بظلال جميلة من السحب والأشجار.

فيما يتعلق بتصرفات بامبلتشوك ذي العقلية الدنيوية في أثناء القيام بذلك، لا يسعني قول أكثر من أنها كانت تتمحور حولي بالكامل؛ وأنه حتى عندما قُرئت تلك المقاطع النبيلة التي تذكر الإنسانية كيف أننا لم ندخل إلى العالم حاملين شيئاً، ولا نستطيع أن نخرج منه حاملين شيئاً^(١)، وأن الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً^(٢)، سمعته مع

(١) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس (٦: ٧). المترجم.

(٢) سفر أيوب (١: ٢١). المترجم.

بعض السعال يسوي مسألة الشاب الذي وقع بشكلٍ غير متوقعٍ على ثروة كبيرة. عندما عدنا، كانت لديه الجرأة ليخبرني أنه يتمنى لو عرفت أختي أنني منحتها كل هذا الشرف، وألمح إلى أنها كانت ستعتبر موتها ثمناً زهيداً أمام هذا الشرف. بعد ذلك، شرب كل ما تبقى من الشيري، وشرب السيد هابل البورت، وتحدث الاثنان (وهو ما لاحظته منذ ذلك الحين أنه أمر معتادٌ في مثل هذه الحالات) كما لو كانا من جنس مختلف تماماً عن المتوفاة، كأنهما خالداً. أخيراً، ذهب بعيداً مع السيد والسيدة هابل، كنت متأكداً أن السبب كان استمراره في الحديث، وإخبار الجولي بارجمن أنه مؤسس ثروتي وولي نعمتي الأول.

عندما رحلوا جميعاً، وعندما رحل تراب ورجاله، ولكن ليس صبيه؛ بحثت عنه، فقد حشر مراسمهم السخيفة في أكياس، وذهب أيضاً، وبدأ المنزل أكثر هناءً. بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، تناولنا أنا وبيدي وجو عشاءً بارداً معاً؛ لكننا تناولنا العشاء في غرفة الجلوس، وليس في المطبخ القديم، وكان جو شديد الدقة فيما يفعله بشوكتة وسكينه والملاحة وما إلى ذلك، مما جعلنا نشعر بضبط النفس الشديد. لكن بعد العشاء، عندما جعلته يأخذ غليونته، وعندما كنت أتسكع معه حول دكان الحدادة، وعندما جلسنا معاً على كتلة كبيرة من الحجر خارجه، تحسنت علاقتنا. لاحظت أنه بعد الجنازة، قام جو بتغيير ملابسه إلى حدٍّ ما، حل وسط بين زي أيام الأحاد وملابس العمل؛ حيث بدا جو العزيز على طبيعته، كالرجل الذي أعرفه.

كان سعيداً جداً بسؤالِي عما إذا كان في إمكاني النوم في غرفتي الصغيرة، وكنت سعيداً أيضاً؛ لأنني شعرت أنني قد عملت عملاً نبيلاً

بطلبي هذا. عندما اقتربت ظلال المساء، انتهزت الفرصة للدخول إلى الحديقة مع بيدي لتتحدث قليلاً.

قلت: بيدي، أعتقد أنه كان يجب عليك أن تكتبي لي عن هذه الأمور المحزنة.

«هل تعتقد ذلك يا سيد بيب؟» قالت بيدي. «كنت سأكتب لك لو كنت حقاً تعتقد ذلك».

- لا أقصد أن أكون قاسياً يا بيدي، عندما أقول إنني أعتقد أنه كان ينبغي لك أن تفكري في الكتابة لي.

- هل الأمر كذلك يا سيد بيب؟

لقد كانت هادئة جداً، وكان أسلوبها هادئاً وحلوّاً وجذاباً، إلى درجة أنني لم أحبذ فكرة جعلها تبكي مرة أخرى. بعد أن نظرت قليلاً إلى عينيها المنكسرتين وهي تسير بجاني، توقفت عن الحديث في هذا الأمر.

- أفترض أنه سيكون من الصعب عليك البقاء هنا الآن، عزيزتي بيدي؟

«أوه!» قالت بيدي بنبرة ندم، ولكن مع قناعة هادئة: «لا أستطيع فعل ذلك يا سيد بيب». «لقد كنت أتحدث مع السيدة هابل، وسوف أذهب إليها غداً، أمل أن نكون قادرين على الاهتمام بالسيد جاريجري معاً حتى يستقر حاله».

- كيف ستعيشين يا بيدي؟ إذا كنت تريدين الما...

«كيف سأعيش؟» كررت بيدي، مقاطعة، مع احمرار عابر على وجهها. «سأخبرك يا سيد بيب، سأحاول الحصول على منصب معلمة

في المدرسة الجديدة التي على وشك الانتهاء هنا. يمكن أن يوصيني جميع الجيران جيداً، وآمل أن أكون مجتهدة وصبورة، وأن أعلم نفسي، بينما أعلم الآخرين» تابعت بيدي بابتسامة وهي ترفع عينيها إلى وجهي، «أعلم يا سيد بيب، المدارس الجديدة ليست مثل المدارس القديمة، لكنني تعلمت الكثير منك بعد ذلك الوقت، وكان لديّ الوقت للتحسن منذ ذلك الحين».

- أعتقد أنك ستتحسّنين دائماً يا بيدي، تحت أي ظروف.

«آه!» «تمتت بيدي، «باستثناء ما يخص الجانب السيئ من طبيعتي البشرية».

لم يكن ذلك عتاباً بقدر ما كان تفكيراً مندفعاً بصوت عالٍ. «حسناً!» فكرت أنه يجب عليّ أن أتوقف عن الحديث في هذا الأمر أيضاً. لذلك، مشيت مسافة أبعد قليلاً مع بيدي، ونظرت بصمتٍ إلى عينيها المنكسرتين.

- لم أسمع تفاصيل وفاة أختي، يا بيدي.

- إنها تفاصيل بسيطة جداً، يا لها من مسكينة. لقد كانت في إحدى حالاتها السيئة، على الرغم من أنها كانت أفضل مؤخراً، وليست أسوأ، لمدة أربعة أيام، عندما تحسنت في المساء، في وقت الشاي، قالت بوضوح تام: «جو» نظراً إلى أنها لم تتفوّه بأي كلمة منذ فترة طويلة، ركضتُ، وأحضرتُ السيد جارجيري من دكان الحدادة. أشارت إليّ بأنها تريده أن يجلس بالقرب منها، وتريدني أن أضع ذراعيها حول رقبتة. لذا وضعتهما حول رقبتة، ووضعتُ رأسها على كتفه وهي مطمئنة وقريرة العين تماماً. ثم قالت على الفور «جو» مرة أخرى، وقالت مرة «السماح»، ومرة «بيب» وبعد ذلك

لم ترفع رأسها قَطُّ، وبعد ساعة كاملة وضعناها في فراشها، لأننا عرفنا أنها قد رحلت.

بكت بيدي؛ كانت الحديقة المظلمة، والزقاق، والنجوم البازغة، غير واضحة في نظري.

- لم يُكتشف أي شيء على الإطلاق يا بيدي؟

- لا شيء.

- هل تعرفين ماذا حدث لأورليك؟

- أعتقد من لون ملابسه أنه يعمل في المحاجر.

- لقد رأيته بالتأكيد إذن؟ لماذا تنظرين إلى تلك الشجرة المظلمة في الزقاق؟

- لقد رأيته هناك ليلة وفاتها.

- لم تكن تلك المرة الأخيرة أيضًا يا بيدي؟

«لا؛ لقد رأيته هناك عندما بدأنا السير هنا». قالت بيدي وهي تضع يدها على ذراعي، بينما كنت أهم للركض خارجًا: لا فائدة من ذلك، أنت تعلم أنني لن أخدعك؛ لم يبقَ هناك إلا دقيقة، ثم رحل.

لقد أثار ذلك سخطًا شديدًا عندما وجدت أن هذا الرجل لا يزال يلاحقها، وشعرت بالعداء الشديد له. أخبرتها ذلك، وأخبرتها أنني سأنفق أي أموال أو أبذل قصارى جهدي لطرده من ذلك البلد. قادتني تدريجيًا إلى حديث أكثر اعتدالًا، وأخبرتني كيف أحبّتي جو، وكيف أن جو لم يشتك قط من أي شيء، لم تقل مني أنا؛ لم تكن في حاجة إلى قولها؛ كنت أعرف ما كانت تقصده، ودائمًا ما أدى واجبه في حياته، بيد قوية، ولسان هادئ، وقلب رقيق.

قلت: «في الواقع، لا يمكن للكلام أن يوفيه حقه. بيدي، يجب أن نتحدث كثيرًا عن هذه الأمور، لأنني بالطبع سأتي إلى هنا كثيرًا الآن؛ لن أترك جو المسكين وحده.» لم تقل بيدي كلمة واحدة قط.

- بيدي، ألا تسمعينني؟

- نعم يا سيد بيب.

- ناهيك بدعوتك لي بالسيد بيب، التي تبدو كأنها تخرج منك بمرارة، ماذا تقصدين بصمتك هذا؟

سألت بيدي بضعفٍ: ماذا أقصد؟

قلت بثقة شديدة: بيدي، يجب أن أطلبك بمعرفة ما تعنيه بهذا؟

قالت بيدي: أعنيه بهذا؟

أجبتها: الآن، لا ترددي كلامي، لم تكوني مرددة للكلام في الماضي يا بيدي.

قالت بيدي: لم أكن! يا سيد بيب! كنت!

حسنًا! فكرت أن أتوقف عن الحديث في هذا الأمر أيضًا. وبعد انعطافة صامتة أخرى في الحقيقة، رجعت إلى مناقشة الأمر.

قلت: بيدي، لقد أدليت بملاحظة تتعلق بقدومي إلى هنا كثيرًا لرؤية جو، وقد استقبلت ذلك بصمتٍ ملحوظٍ، أرجوك يا بيدي أن تخبريني بالسبب.

توقفت في ممر الحقيقة الضيق، ونظرت إلى تحت النجوم بعينٍ واضحة وصادقة ثم سألت: هل أنت متأكد إذن أنك ستأتي لرؤيته كثيرًا؟ «يا إلهي!» قلت، كما لو أنني وجدت نفسي مضطرًا إلى ترك بيدي

بسبب يأسي منها. «هذا حقًا جانب سيئ جدًا من الطبيعة البشرية! لا تقول لي المزيد، إذا سمحت، يا بيدي. هذه صدمة كبيرة لي».

ولهذا السبب المقنع، أبقيت بيدي على مسافة مني في أثناء العشاء، وعندما صعدت إلى غرفتي الصغيرة القديمة، افترقت عنها فراقًا مهيبًا بقدر المستطاع، بدا في نفسي المتذمرة، متوافقًا مع باحة الكنيسة وأحداث اليوم. كلما كنت مضطربًا في الليل، وكان ذلك كل ربع ساعة، كنت أفكر في القسوة، والأذى، والظلم الذي سببته لي بيدي.

كان عليّ أن أرحل في الصباح الباكر. وفي الصباح الباكر خرجت من المنزل وذهبت للنظر خلال إحدى النوافذ الخشبية لكان الحدادة دون أن يراني أحد. هناك وقفت، دقائق، أنظر إلى جو، الذي بدأ في عمله، وعلى وجهه وهج من العافية والقوة جعله يبدو كأن شمس الحياة الساطعة التي يخبئها له المستقبل تشرق على محياه.

- وداعًا، يا عزيزي جو! لا، لا تمسح عنك هذه الهبة .. بحق السماء، أعطني يدك المغطاة بالسواد! سأتي قريبًا ومرارًا.

قال جو: لن يكون أبدًا أقرب من اللازم يا سيدي، ولن يكون أبدًا زائدًا على الحد يا بيب!

كانت بيدي تنتظرني عند باب المطبخ، ومعها كوب من الحليب الطازج وقطعة خبز. قلت لها عند مصافحتها عند الفراق: بيدي، أنا لست غاضبًا، ولكنني تأذيت.

«لا، لا تأذني» توصلت بشكل مثير للشفقة؛ «ليتني أنا أتأذى إذا كنت غير ودودة معك».

ومرة أخرى، كان الضباب ينقشع بينما كنت أسير مبتعدًا. إذا أفضى لي، كما أظن أنه فعل، بأنني لن أعود إلى هناك، وأن بيدي كانت على حق تمامًا، فكل ما يمكنني قوله هو، أن الضباب كان على حق تمامًا أيضًا.

الفصل السادس والثلاثون

انتقلنا أنا وهربرت من سيئ إلى أسوأ، من حيث ديوننا، والنظر في شؤوننا، وترك الهوامش، وما شابه ذلك من المعاملات المثلثي؛ ومضى الوقت، دون أن أشعر، كما هي طريقته؛ وبلغت سن الرشد، تحقيقاً لتنبؤات هربرت بأنني يجب أن أفعل ذلك قبل أن أعرف مكاني في هذا العالم.

بلغ هربرت نفسه سن الرشد قبلي بثمانية أشهر، نظرًا إلى أنه لم يحدث له أي شيء آخر سوى أنه أصبح في الواحد والعشرين من عمره، لم يثر الحدث ضجة كبيرة في نُزل برنارد. لكننا كنا نتطلع إلى عيد ميلادي الحادي والعشرين، وسط حشدٍ من التكهّنات والتوقعات، لأننا كنا نعتبر أن وصيّي يجب أن يكون لديه القول القاطع في تلك المناسبة.

حرصت على أن أعلم كلّ من في ليتل برتين بعيد ميلادي. في اليوم السابق، تلقيت مذكرة رسمية من ويميك، يبلغني فيها أن السيد جاغرز سيكون سعيدًا إذا قمت بزيارته في الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم الميمون. أقتنعنا هذا بأن شيئًا عظيمًا سيحدث، وخفق قلبي على نحوٍ غير عادي عندما ذهبت إلى مكتب وصيّي، على دقة الساعة.

في المكتب الخارجي، قدّم لي ويميك التهنئة، وبالصدفة فرك جانب أنفه بقطعة مطوية من المناديل الورقية التي أعجبتني شكلها. لكنه لم يقل

شيئاً فيما يتعلق بذلك، وأشار إليّ برأسه إلى غرفة وصيّ. كان ذلك في شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وكان وصيّ واقفاً أمام نار مدفأته، مستنداً بظهره إلى رف المدفأة، واضعاً يديه تحت معطفه.

قال: حسنًا يا بيب، يجب أن أناذك بالسيد بيب اليوم. تهانينا يا سيد بيب.

تصافحنا، طالما كانت مصافحته قصيرة بشكل ملحوظ، وشكرته.

قال وصيّ: خذ كرسيًا يا سيد بيب.

وبينما جلست، ظل هو واقفاً وعقد حاجبيه ناظرًا إلى حذائه، شعرت بأنني في موقف ضعيف، وهو ما ذكرني بذلك الوقت القديم عندما وُضعت على شاهد القبر. لم تكن الجبیرتان المروعتان على الرف بعيدتين عنه، وعليهما تعبير يوحى بمحاولة خرقاء للانتباه للمحادثة تشبه السكتة الدماغية. «الآن يا صديقي الشاب» قال وصيّ، كما لو كنت على منصة شاهد: سأحدث معك بكلمة أو كلمتين.

– إذا سمحت يا سيدي.

قال السيد جاغرز وهو ينحني للأمام لينظر إلى الأرض، ثم يرجع رأسه إلى الخلف لينظر إلى السقف:

– ما الذي تفترضه؟ ما الذي تفترضه بالمعدل الذي تعيش به؟

– المعدل يا سيدي؟

كرر السيد جاغرز وهو لا يزال ينظر إلى السقف: «في... المعدل؟» وبعد ذلك نظر حول الغرفة كلها، ومنديل جيبه في يده متوقفًا في منتصف المسافة إلى أنفه.

لقد بحثت في شؤوني كثيرًا، إلى درجة أنني قضيت تمامًا على أي فكرة بسيطة قد تكون لديّ عن تأثيرهم. على مضض، اعترفت بأنني غير قادر على الإجابة عن هذا السؤال. وبدا هذا الرد مقبولًا للسيد جاغرز الذي قال: «أعتقدت ذلك!» وتمخط أنفه بشيء من الرضا.

- الآن، لقد طرحت عليك سؤالًا يا صديقي. هل لديك أي سؤال لي؟

- بالطبع سينشرح صدرى إن طرحت عليك عدة أسئلة يا سيدي؛ ولكنني أذكر نهيك لي.

قال السيد جاغرز: اسأل سؤالًا واحدًا.

- هل سأعرف من هو ولي نعمتي اليوم؟

- لا، اسأل سؤالًا آخر.

- هل سيتم الإفصاح عن هذا السر قريبًا؟

قال السيد جاغرز: اترك هذا الأمر لحظة، واسأل سؤالًا آخر.

نظرت حولي، ولكن يبدو أنه لا يوجد الآن مفر من السؤال: «هل سألتقى أي شيء يا سيدي؟» وعن ذلك، قال السيد جاغرز منتصرًا: «أعتقدت أننا يجب أن نصل إلى هذا الهدف!» ودعا ويميك ليعطيه قطعة من الورق. ظهر ويميك وسلّمه الورقة واختفى.

قال السيد جاغرز: الآن يا سيد بيب، استمع إليّ إذا شئت. لقد كنت تسحب المال بحرية كبيرة هنا؛ يظهر اسمك كثيرًا في دفتر النقود الخاص بويميك؛ لكنك واقع في الديون بالطبع؟

- أخشى أنني يجب أن أقول نعم يا سيدي.

«أنت تعلم أنه يجب عليك أن تقول نعم؛ أليس كذلك؟» قال السيد جاغرز.

- نعم سيدي.

«أنا لا أسألك كم تدين، لأنك لا تعرف؛ وإذا كنت تعرف، فلن تخبرني؛ سوف تقول أقل. نعم، نعم، نعم يا صديقي...» صاح السيد جاغرز، ملوحًا بسبابته لإيقافي بينما كنت أظاهر بالاحتجاج: «من المحتمل جدًا أنك تعتقد أنك لن تفعل ذلك، ولكنك ستفعله. اعذرني، لكنني أعرف أفضل منك. الآن، خذ هذه القطعة من الورق في يدك. هل حصلت عليها؟ جيد جدًا. والآن افتحها وأخبرني ما داخلها».

فقلت: هذه ورقة نقدية بقيمة خمسمائة جنيه.

كرر السيد جاغرز: هذه ورقة نقدية بقيمة خمسمائة جنيه، ومبلغ كبير جدًا من المال أيضًا، على ما أعتقد. هل تعتبر الأمر كذلك؟

- كيف يمكنني أن أقول خلاف ذلك!

قال السيد جاغرز: آه! لكن أجب عن السؤال.

- بلا شك.

- أنت تعتبره بلا شك مبلغًا كبيرًا من المال. الآن، هذا المبلغ السخي من المال، يا بيب، هو ملكك. وهي هدية لك في هذا اليوم، وفاءً لآمالك. وسوف تعيش بهذا المعدل الكبير من المال سنويًا، وليس بمعدل أعلى، حتى يظهر ولي نعمتك. وهذا يعني أنك ستولى الآن شؤونك المالية بالكامل بين يديك، وسوف تسحب من ويميك مائة وخمسة وعشرين جنيهًا إسترلينيًا كل ثلاثة أشهر، حتى تصير على اتصالٍ مباشرٍ بالمنع وليس مجرد الوكيل. وكما قلت لك من

قبل، أنا مجرد وكيل، أنا أنفذ التعليمات، وأتقاضى أجرًا مقابل ذلك. أعتقد أن هذا طيش منهم، لكنني لا أتقاضى أجرًا مقابل إبداء أي رأي حول أهليتهم.

كنت قد بدأت في التعبير عن امتناني لولي نعمتي على السخاء الكبير الذي عُوِّمِلت به عندما أوقفني السيد جاغرز وقال ببرود: «أنا لا أقبض أجرًا، يا بيب، كي أحمل كلماتك إلى أي شخص» ثم لملم أطراف معطفه، كأنه يللم أطراف الحديث، ووقف مقطبًا حاجبيه ناظرًا إلى حذائه كما لو كان يشك في أن الحذاء يخطط لشيء ضده.

بعد توقف مؤقت، أُلْمحت إليه قائلاً: كان هناك سؤال منذ قليل يا سيد جاغرز، والذي طلبت مني أن أتركه للحظة. آمل ألا أرتكب أي خطأ في طرحه مرة أخرى؟

قال: ما هو؟

ربما كنت أعلم أنه لن يساعدني أبدًا؛ لكنه أدهشني عندما اضطرت إلى صياغة السؤال من جديد، كما لو كان سؤالًا جديدًا تمامًا. قلت بعد تردد: «هل من المحتمل أن ولي نعمتي، المنيع الذي تحدثت عنه يا السيد جاغرز، قريبًا...» هناك توقفت بحذر.

سأل السيد جاغرز: قريبًا ماذا؟ هذا ليس سؤالًا هكذا، كما تعلم.

قلت بعد البحث عن صيغة محددة من الكلمات: هل سيأتي قريبًا إلى لندن، أم سيستدعيني إلى أي مكان آخر؟

أجاب السيد جاغرز وهو يحدق إليَّ للمرة الأولى بعينيه الداكنتين العميقتين: الآن، هنا، يجب أن نعود إلى المساء الذي التقينا فيه لأول مرة في قريتك. ماذا قلت لك حينها، يا بيب؟

- لقد أخبرتني يا سيد جاغرز، أنه قد تمر سنوات حتى يظهر هذا الشخص.

قال السيد جاغرز: بالضبط، هذا هو جوابي.

وبينما كان ينظر بعضنا إلى بعض، شعرت أن أنفاسي تتسارع مع رغبتني القوية في الحصول على معلومات منه. وكلما تسارعت أنفاسي أكثر، وأدركت أنه يراها تتسارع أكثر، شعرت أن فرصتي أقل من أي وقت مضى للحصول على أي معلومات منه.

- إذن فأنت تظن أنه الأمر سيستمر سنوات يا سيد جاغرز؟

هز السيد جاغرز رأسه، ليس لنفي السؤال، ولكن لنفي فكرة إجابته عن السؤال بأي حال من الأحوال، وعندما شردت عيناى نحو الجيرتين الرهيبتين للوجهين المختلفين، بدتا كأنهما وصلتا إلى أزمة في ظل انتباههما المترقب، وكانتا على وشك العطس.

«هيا!» قال السيد جاغرز وهو يدفع ظهر ساقيه بظهر يديه الدافئتين: سأكون واضحاً معك يا صديقي بيب. هذا سؤال لا يجب أن تسأله. ستفهم ذلك بشكل أفضل عندما أخبرك إنه سؤال قد يضر بمكانتي. دعني أذهب معك أبعد قليلاً؛ سأقول شيئاً أكثر.

انحنى إلى الأسفل إلى درجة أنه كان يقطب حاجبيه ناظراً إلى حذائه، إلى درجة أنه كان قادراً على فرك ساقيه في الفترة التي توقف فيها.

قال السيد جاغرز وهو يعدل من جلسته: عندما يكشف هذا الشخص عن نفسه، ستسويان شؤونكما الخاصة. عندما يكشف ذلك الشخص عن نفسه، فإن دوري في هذا العمل سيتوقف وينتهي. عندما يكشف ذلك الشخص عن نفسه، لن يكون من الضروري بالنسبة إليّ أن أعرف أي

شيء عنه، وهذا كل ما يجب أن أقوله.

نظر بعضنا إلى البعض حتى سحبت عيني ونظرت متأملاً إلى الأرض. من هذا الخطاب الأخير استنتجت فكرة أن الأنسة هافيشام، بسبب أو من دون سبب، لم تطلعه بشأن تجهيزي من أجل إستيلا؛ وأنه استاء من ذلك، وشعر بالغيرة منه؛ أو أنه اعترض حقاً على هذا المخطط، ولم يشأ أن يكون له أي علاقة به. عندما رفعت عيني مرة أخرى، وجدت أنه كان ومازال ينظر إليّ بذكاء طوال الوقت.

فقلت: إذا كان هذا هو كل ما تريد قوله يا سيدي، فلم يتبقَّ لديّ ما أقوله.

أوماً برأسه بالموافقة، وأخرج ساعته التي يخاف منها اللصوص، وسألني أين سأتناول العشاء؟ أجبت «في المنزل، مع هيربرت». وكنتيجة حتمية، سألته عما إذا كان يتفضّل علينا بصحبته، وقَبِلَ الدعوة على الفور. لكنه أصر على العودة معي إلى المنزل، حتى لا أقوم بأي تحضيرات إضافية له، وكان عليه في البداية أن يكتب رسالة أو اثنتين، و(بالطبع) كان عليه أن يغسل يديه. لذلك قلت إنني سأذهب إلى المكتب الخارجي وأتحدث إلى ويميك.

والحقيقة هي أنه عندما وصلت الخمسمائة جنيه إلى جيبِي، خطرت في ذهني فكرة ظهرت في كثير من الأحيان من قبل؛ وبدا لي أن ويميك كان شخصاً جديراً بتقديم المشورة في هذا الشأن.

كان قد أغلق خزنته بالفعل، واستعد للعودة إلى المنزل. كان قد ترك مكتبه، وأخرج شمعتي المكتب المشحمتين ووضعهما في الصف مع مطفأة الشموع على لوحٍ بالقرب من الباب، جاهزتين للإطفاء؛ كان

قد أطفأ ناره، وجهاز قبعته ومعطفه الكبير، وكان يضرب صدره بالكامل بمفتاح الخزنة الخاص به، كتمرين رياضي بعد العمل.

قلت: سيد ويميك، أريد أن أسأل رأيك؛ أنا أرغب بشدة في خدمة صديق.

ضيق ويميك الخناق على فمه الشبيه بصندوق البريد، وهز رأسه، كما لو أن رأيه هو المعارضة الشديدة لأي ضعف قاتل من هذا النوع. تابعت: هذا الصديق يحاول المُضي قُدَمًا في التجارة، لكنه لا يملك المال أو العزيمة، ويجد صعوبة في البدء. الآن أريد أن أساعده بطريقة ما في البداية.

«بإعطائه المال؟» قال ويميك بنبرة أكثر جفافاً من أي نشارة خشب. أجبته: «بإعطائه المال» مع ذكرى غير مريحة لتلك الحزمة المتسقة من الأوراق في المنزل، «بإعطائه المال، وربما مع ضمان سداذه من آمالي المتوقعة».

قال ويميك، «يا سيد بيب، أود فقط أن أراجع معك على أصابعي، إذا سمحت، أسماء الجسور المختلفة التي يصل ارتفاعها إلى تشيلسي ريتش. دعنا نرى؛ جسر لندن، واحد؛ جسر ساوثوارك، اثنان؛ بلاك فراير، ثلاثة؛ جسر واترلو، أربعة؛ جسر وستمنستر، خمسة؛ جسر فوكسهول، ستة.» قام بالتأشير على كل جسر في دوره، بمقبض مفتاح الخزنة على راحة يده. «هناك ستة جسور، كما ترى، للاختيار من بينها».

قلت: أنا لا أفهمك.

ردَّ ويميك: اختر جسر ك يا سيد بيب، واذهب في نزهة هناك، واخذف بأموالك إلى نهر التايمز فوق القوس المركزي له، وستعرف نهاية الأمر.

اخدم بها صديقًا، وربما تعرف نهاية الأمر أيضًا، ولكنها نهاية أقل متعة وربحية.

كان في إمكاني أن أضع صحيفة في فمه، بسبب اتساعه بعد قوله هذا. قلت: هذا محبط للغاية.

قال ويميك: من المفترض أن يكون كذلك.

سألته بشيء من السخط: إذن، هل رأيك هو أن الرجل لا ينبغي له أبدًا أن...

قال ويميك: يستثمر المال في صديقه؟ بالتأكيد لا ينبغي له ذلك، إلا إذا كان يريد التخلص من هذا الصديق، وعندها سوف يتمحور السؤال حول مقدار المال اللازم للتخلص منه.

قلت: «وهذا هو رأيك الموزون يا سيد ويميك؟» فأجاب: «هذا هو رأيي الموزون في هذا المكتب».

«آه!» قلت وأنا أضغط عليه، لأنني اعتقدت أنني رأيت لديه ثغرة هنا؛ «ولكن هل هذا هو رأيك في الورث؟».

أجاب بثقلٍ: يا سيد بيب، والورث مكان، وهذا المكتب مكان آخر. بقدر كون العجوز شخصًا، والسيد جاغرز شخصًا آخر، ولا ينبغي الخلط بينهما. يجب أن يؤخذ رأيي في الورث داخل الورث نفسها؛ لا شيء غير رأيي الرسمي يمكن أن تأخذه في هذا المكتب.

قلت وقد شعرت بارتياح كبير: حسنًا جدًا، إذن سأزورك في الورث، يمكنك الاعتماد على ذلك.

أجاب: يا سيد بيب، أنت مرحّب بك هناك، بصفة خاصة وشخصية.

أَجْرِينَا هَذِهِ الْمَحَادَثَةُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ أُذُنَيَّ وَصِيَّ هِيَ
الْأَكْثَرُ حِدَةً، حَيْثُ ظَهَرَ الْآنَ فِي مَدْخَلِ مَكْتَبِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ يَدَيْهِ، ارْتَدَى
وَيَمِيكَ مَعْطَفُهُ الْكَبِيرُ، وَوَقَفَ بِجَانِبِهِ لِإِطْفَاءِ الشَّمْعِ. ذَهَبْنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ
إِلَى الشَّارِعِ مَعًا، وَمِنْ عَتَبَةِ الْبَابِ ذَهَبَ وَيَمِيكَ فِي طَرِيقِهِ، وَأَنَا وَالسَّيِّدُ
جَاغَرَزَ ذَهَبْنَا فِي طَرِيقِنَا.

لَمْ أَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ أَتَمْنَى أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ لَوْ أَنَّ السَّيِّدَ
جَاغَرَزَ كَانَ لَدَيْهِ عَجُوزٌ يَنْتَظِرُهُ فِي مَنْزِلِهِ بِشَارِعِ جِيرَارْدَ، أَوْ صَارُوخَ، أَوْ
أَيِّ شَيْءٍ، أَوْ أَيِّ شَخْصٍ، لِيَرُخِيَ حَاجِبِيهِ قَلِيلًا. لَقَدْ كَانَ تَفْكِيرًا مَزْعُجًا فِي
عِيدِ الْمِيلَادِ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ، أَنْ يَجِدَ الْمَرْءَ نَفْسَهُ مَعَ بَلُوغِ سِنِ الرُّشْدِ
لَا يَسْتَحِقُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَجُودَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَالَمِ الْحَذِرِ وَالْمُرِيبِ
الَّذِي صَنَعَهُ جَاغَرَزَ. لَقَدْ كَانَ أَفْضَلَ إِطْلَاعًا وَأَكْثَرَ ذِكَاءً مِنْ وَيَمِيكَ بِأَلْفِ
مَرَّةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ أَفْضَلُ أَلْفَ مَرَّةٍ لَوْ تَنَاوَلَ وَيَمِيكَ مَعِيَ الْعِشَاءَ. وَلَمْ
يَجْعَلْنِي السَّيِّدُ جَاغَرَزَ وَحْدِي أَشْعَرَ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ، لِأَنَّهُ بَعْدَ رَحِيلِهِ، قَالَ
هَرَبَرْتُ نَفْسَ الشَّيْءِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَيْنَاهُ مُثَبَّتَتَانِ عَلَى النَّارِ، فَقَدْ شَعَرَ بِالذَّنْبِ
وَالْانْقِبَاضِ، كَأَنَّهُ ارْتَكَبَ جُنَايَةً وَنَسِيَ تَفَاصِيلَهَا.

الفصل السابع والثلاثون

بما أن أيام الأحاد هي الأفضل لمعرفة رأي السيد ويميك في الـ وورث، فقد كرسـت بعد ظهر يوم الأحد التالي لزيارة القلعة. عند وصولي أمام أسوار القلعة، وجدت علم الاتحاد يرفرف والجسر المتحرك مرفوعاً للأعلى؛ لكن دون أن يثنيني هذا العرض من التحدي والمقاومة، قرعت الجرس عند البوابة، وأدخلني العجوز بطريقة مسالمة للغاية.

قال الرجل العجوز بعد تأمين الجسر المتحرك: ولدي يا سيدي، خطر في باله أنك قد تقوم بالزيارة اليوم، وترك رسالة مفادها أنه سيعود قريباً إلى المنزل بعد نزهة بعد الظهر. ولدي منتظم جداً في نزهته، ولدي منتظم جداً في كل شيء.

أومأت برأسي إلى الرجل العجوز كما كان من الممكن أن يومئ ويميك نفسه برأسه، ودخلنا وجلسنا بجوار المدفأة.

قال الرجل العجوز بطريقته المبتهجة وهو يدفع يديه بنار المدفأة: «لقد تعرّفت على ولدي يا سيدي، في مكتبه، كما أتوقع؟» أومأت. «هاه! لقد سمعت أن ولدي حذق جداً في عمله، يا سيدي؟» أومأت بشدة. «نعم؛ كما يقولون لي، عمله هو القانون؟» أومأت بقوة أكبر. قال الرجل العجوز: «مما يجعل الأمر مذهلاً للغاية، فولدي لم ينشأ على القانون، بل على بيع النبيذ».

كنت أشعر بالفضول حول مدى معرفة السيد العجوز بسمعة السيد جاغرز، فصحت أمامه بهذا الاسم. أثار ارتباكي الشديد من خلال ضحكته بحرارة وردّه بمنتهى الحيوية: «لا، بالتأكيد؛ أنت على حق». وحتى هذه الساعة ليس لديّ أدنى فكرة عن قصده، أو ما هي النكتة التي ظن أنني قلتها.

وبما أنني لم أتمكن من الجلوس هناك والايماء إلى ما لا نهاية، دون القيام بأي محاولة أخرى لإثارة اهتمامه، صحت مستفسراً عما إذا كانت مهنته في السابق هي «بيع النبيذ» بعد أن أنهكني التعب بسبب الصباح بالمصطلح عدة مرات، والربت على صدر السيد العجوز لأربطه به، نجحت أخيراً في جعل قصدي مفهوماً.

قال السيد العجوز: «لا. التخزين، التخزين. أولاً، هناك» لقد بدا كأنه يقصد أعلى المدخنة، لكنني أعتقد أنه كان يشير إلى ليفربول «ثم في لندن هنا، ومع ذلك، فلديّ عاهة، لأنني أعاني من ضعف السمع، يا سيدي...». عبّرت بالإشارة عن دهشتي الكبرى.

«... نعم، ضعيف السمع؛ بعد أن أصابني هذا المرض، توجّه ولدي إلى القانون، وتولّى أمري، وأعدّ هذه الملكية الأنيقة والجميلة شيئاً فشيئاً، لكن بالعودة إلى ما قلته، كما تعلم» تابع الرجل العجوز وهو يضحك من قلبه مرة أخرى، «ما أقوله هو: لا بالتأكيد؛ أنت على حق».

كنت أتساءل على استحياء ما إذا كانت براعتي القصوى تخول لي قول أي شيء كان من شأنه أن يبهجه بمقدار نصف ما أبهجته هذه المجاملة الخيالية، عندما أجفلتني نقرة مفاجئة في الجدار على أحد جوانب المدفأة، وباب خشبي صغير قلاب كُتب عليه «جون» انقلب

مفتوحًا أمامنا بقوة غير مرئية. وصرخ الرجل العجوز، وهو يتبع عيني، بانتصارٍ عظيم: «لقد عاد ولدي إلى المنزل!» وخرج كلانا إلى الجسر المتحرك.

كان مشهدًا يساوي الكثير، وهو رؤية ويميك يلوح لي من الجانب الآخر من الخندق، في حين كان من الممكن أن نتصافح عبره بسهولة كبيرة. كان العجوز سعيدًا جدًا بالعمل على إنزال الجسر المتحرك، إلى درجة أنني لم أعرض عليه أي مساعدة، لكنني ظللت هادئًا حتى وصل ويميك، وقدمني إلى الأنسة سكيفينز؛ سيدة كان برفقتها.

كانت الأنسة سكيفينز ذات مظهر متيسّس، وكانت، مثل مرافقها، من ناحية الفم الشبيه بصندوق البريد. ربما كانت أصغر من ويميك بسنتين أو ثلاث سنوات، وبدا لي أنها تمتلك هي الأخرى ممتلكات محمولة. تصميم فستانها من الخصر إلى الأعلى، من الأمام والخلف، جعل شكلها يشبه إلى حدٍّ كبير الطائرة الورقية؛ ويمكنني قول إن ثوبها كان لونه برتقاليًا بلا جدال، وقفازها ذوي لون أخضر فاقع للغاية. لكنها بدت كأنها شخص صالح، وأظهرت احترامًا كبيرًا للعجوز. لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى اكتشفت أنها كانت زائرة متكررة للقلعة؛ لأنه، عند دخولنا، وبعد مدحي لويميك على حيلته البارعة للإعلان عن نفسه للعجوز، توسّل إليّ أن أركز انتباهي لحظة على الجانب الآخر من المدفأة، واختفى. وبعد قليل جاءت نقرة أخرى، وانفتح باب صغير آخر وعليه عبارة «الآنسة سكيفينز»؛ ثم أغلق باب الآنسة سكيفينز، وسقط باب جون مفتوحًا، ثم انفتح كلٌّ من الآنسة سكيفينز وجون معًا، وأخيرًا أغلقا معًا. عند عودة ويميك من العمل على هذه المعدات الميكانيكية، عبّرت عن إعجابي

الكبير بها، وقال: «حسنًا، كما تعلم، إنها ممتعة ومفيدة للعجوز. ويا إلهي، من الجدير بالذكر، يا سيدي، أنه من بين جميع الأشخاص الذين يأتون إلى هذه البوابة، فإن سر تلك التأثيرات لا يعرفه سوى العجوز، والآنسة سكيفينز، وأنا!».

أضافت الآنسة سكيفينز: إنها من اختراع السيد ويميك وقد صنعها بيديه.

وبينما كانت الآنسة سكيفينز تخلع قلنسوتها (احتفظت بقفازيها الأخضرين خلال المساء كعلامة خارجية ومرئية على وجود صحبة)، دعاني ويميك إلى التنزه معه حول المكان، ورؤية كيف تبدو الجزيرة في فصل الشتاء، معتقدًا أنه فعل ذلك ليمنحني الفرصة كي آخذ رأيه داخل والورث، فانتهزت الفرصة بمجرد خروجنا من القلعة.

بعد أن فكرت في الأمر بعناية، تناولت موضوعي كما لو أنني لم ألمح إليه من قبل. أبلغت ويميك أنني كنت قلقًا بشأن هربرت بوكيت، وأخبرته كيف التقينا للمرة الأولى، وكيف تشاجرنا. قدمت شرحًا سريعًا لمنزل هربرت، وشخصيته، وعدم وجود موارد مالية لديه بجانب ما يأخذه من والده؛ وهو مصدر غير ثابت وغير منتظم. أشرت إلى كل المنافع التي اكتسبتها منه حين كنت غشيماً وجاهلاً بأمور مجتمعه، واعترفت بأنني كنت أخشى أنني لم أقابله بالمثل، وأنه كان من الممكن أن يكون أفضل حالاً من دوني ومن دون آمالي. مع إبقاء الآنسة هافيشام في الخلفية من بعيد، ألمحت إلى إمكانية منافستي له في آفاقه، وبقيني في امتلاكه روحًا كريمة، وكونه بعيداً عن أي سوء ظن أو انتقام أو مطامع. لكل هذه الأسباب (أخبرت ويميك)، ولأنه كان رفيقي وصديقي الشاب، وكانت

لديَّ عاطفة كبيرة تجاهه، تمنيت أن تنعكس بعض أشعة حظي السعيد عليه، ولذلك طلبت نصيحة ويميك لخبرته ومعرفته بالرجال والأعمال، كيف يمكنني أن أبذل قصارى جهدي - باستخدام مواردِي - لمساعدة هربرت في الحصول على بعض الدخل الحالي، مثل مائة جنيها سنويًا، لإبقائه في حالة طيبة من الأمل وانسراح الصدر، والدخول معه تدريجيًا بمبلغ صغير من المال في شراكة. توسَّلت إلى ويميك، في الختام، أن يتفهم أن مساعدتي يجب أن تُقدَّم دائمًا دون علم هربرت أو أي شك منه، وأنه لا يوجد أي شخص آخر في العالم يمكنني طلب النصيحة منه. وانتهى بي الأمر بوضع يدي على كتفه، وقولي: لا يسعني إلا أن أثق بك، على الرغم من أنني أعلم أن ذلك قد يكون مزعجًا بالنسبة إليك؛ ولكن هذا خطؤك لأنك أحضرتني إلى هنا.

ظل ويميك صامتًا بعض الوقت، ثم قال كبداية: حسنًا، كما تعلم يا سيد بيب، يجب أن أخبرك بشيء واحد؛ هذا لطف مفرط منك. قلت: قل إنك ستساعدني على أن أكون صالحًا إذن. أجاب ويميك وهو يهز رأسه: يا إلهي، هذه ليست مهنتي. قلت: وهذا ليس مكان تجارتك.

«أنت على حق» أجاب ويميك: لقد أصبت كبد الحقيقة يا سيد بيب، سوف أردي قبعة التفكير الخاصة بي، وأعتقد أن كل ما تريد القيام به يمكن أن يتم بالتدريج. سكيفينز (الأخ الشقيق) هو محاسب ووكيل، سأبحث عنه كي يعمل على مساعدتك. - أشكرك عشرة آلاف مرة.

قال: على العكس من ذلك، أشكرك أنت، لأنه على الرغم من أننا نلتزم بصفتنا الخاصة والشخصية بشكل صارم، فإنه لا يزال من الممكن الإشارة إلى وجود خيوط عنكبوت من سجن نيو جيت حولنا، وما تفعله أنت يزيلها بعيدًا.

بعد مزيدٍ من المحادثة حول نفس الموضوع، عدنا إلى القلعة حيث وجدنا الأنسة سكيفينز تُعد الشاي. فُوِّضَت المهمة المتمثلة في صنع الخبز المحمص إلى العجوز، وكان ذلك الرجل العجوز الممتاز عازمًا على القيام بمهمته إلى درجة أن عينيه بدتا لي معرّضة لخطر الذوبان من الحرارة. لم تكن هذه وجبة رمزية كنا سنعدها، بل كانت حقيقة قوية. أعد العجوز كومة كبيرة من الخبز المحمص المدهون بالزبدة، إلى درجة أنني بالكاد استطعت رؤيته من فوقها وهي تغلي على حاملٍ حديدي معلقٍ بالقضيب العلوي؛ بينما كانت الأنسة سكيفينز تغلي قدرًا كبيرًا من الشاي، إلى درجة أن الخنزير الموجود في المبنى الخلفي أصبح متحمسًا بشدة، وأعرّب مرارًا وتكرارًا عن رغبته في المشاركة في الضيافة.

مُد العلم وأُطلقت النار في الوقت المحدد لهما، وشعرت باستكانة بأنني معزول عن بقية الورث كما لو كان يبلغ عرض الخندق ثلاثين قدمًا وبعمقٍ مماثلٍ. لم يكن هناك شيء يزعج هدوء القلعة، سوى فتح لافتة جون والأنسة سكيفينز من حين إلى آخر: الأبواب الصغيرة كانت فريسة لخلل متقطع، مما جعلني أجفل إلى حدِّ الإرهاق حتى اعتدتها. استتجت من الطبيعة المنسقة لترتيبات الأنسة سكيفينز أنها كانت تصنع الشاي هناك كل ليلة أحد؛ وكنت أشك في أن الدبوس الزينة الكلاسيكي الذي كانت ترتديه، الذي يمثل صورة أنثى غير مرغوب فيها ذات أنف

مستقيم جدًا، وهلال صغير جدًا، كان قطعة من الممتلكات المحمولة التي أعطها لها ويميك.

أكلنا الخبز المحمص بالكامل، وشربنا الشاي بالقدر الكافي، وكان من الممتع رؤية مدى الدفء والشبع اللذين أَلَمَّا بنا جميعًا بعد ذلك. العجوز على وجه الخصوص كان من الممكن اعتباره زعيمًا عجوزًا نظيفًا لقبيلة متوحشة، بيد أنه مليء بالدهون. وبعد فترة قصيرة من الراحة، قامت الآنسة سكيفينز - في غياب الخادمة الصغيرة التي بدا أنها كانت تعود إلى حضن عائلتها بعد ظهر أيام الأحد - بغسل أدوات الشاي بطريقة أنثوية بسيطة ومحبة، لم تسبب الضرر لأحد منا. ثم ارتدت قفازيها مرة أخرى، وقمنا بالالتفاف حول النار، فقال ويميك: الآن، أيها الوالد العجوز، اقرأ لنا الجريدة.

أوضح لي ويميك بينما كان العجوز يُخرج نظارته، أن هذا كان وفقًا للعرف، وأن قراءة الأخبار بصوت عالٍ كانت تمنح السيد العجوز ارتياحًا لا حدود له. قال ويميك: لن أعتذر عن ذلك، لأنه غير قادر على الاستمتاع بالعديد من الملذات، أليس كذلك أيها الوالد العجوز؟

«حسنًا يا جون، حسنًا»، أجاب الرجل العجوز وهو يرى أن ويميك يتحدث إليه.

قال ويميك: فقط أعطه إيماءة بين الحين والآخر عندما ينظر من فوق جريدته، وسيكون سعيدًا كالملك، كلنا آذان مصغية، أيها العجوز.

«حسنًا يا جون، حسنًا!» أجاب الرجل العجوز المبتهج، الذي كان مشغولًا جدًا وسعيدًا للغاية، إلى درجة أن الأمر كان ساحرًا حقًا.

ذكرتني قراءة العجوز بالفصول الدراسية في مدرسة عمّة السيد

ووبسل، بطابع جذابٍ أكثر حيث بدا من انخفاض صوته كأنه يأتي من خلال ثقب المفتاح. وبما أنه أراد أن تكون الشموع قريبة منه، وبما أنه كان دائماً على وشك وضع رأسه أو الجريدة فيها، فقد كان يحتاج إلى قدرٍ كبيرٍ من المراقبة مثل مصنع البارود. لكن ويميك كان بالمثل لا يكل، وكان لطيفاً في احترازه، وواصل المسن القراءة، وهو غير واعٍ تماماً بعمليات الإنقاذ العديدة التي قام بها ويميك. كلما نظر إلينا عبرنا جميعاً عن الاهتمام والدهشة البالغين، وأومأنا برؤوسنا حتى استأنف قراءته من جديد.

بينما جلس ويميك والآنسة سكيفينز جنباً إلى جنب، وبينما كنت جالساً في زاوية معتمة، لاحظت استطالة بطيئة وتدريبية لفم السيد ويميك، مما يوحي بقوة بأن ذراعه تسللت حول خصر الآنسة سكيفينز تدريجياً وبتأنٍ. وبمرور الوقت رأيت يده تظهر على الجانب الآخر من الآنسة سكيفينز؛ لكن في تلك اللحظة، أوقفته الآنسة سكيفينز بعناية بالقفز الأخضر، وفردت ذراعه مرة أخرى كما لو كانت قطعة من الملابس، وبكل تمهل وضعتها على الطاولة أمامها. كان ثبات الآنسة سكيفينز في أثناء قيامها بذلك أكثر المشاهد إثارة للإعجاب على الإطلاق، إلا أنني أعتقد أن ردة فعلها تمت بشروود ذهن، فقد تراءى لي أن الآنسة سكيفينز قامت بذلك من دون تفكير.

ومع مرور الوقت، لاحظت أن ذراع ويميك بدأت تختفي مرة أخرى، وتتلشى تدريجياً بعيداً عن الأنظار. وبعد فترة وجيزة، بدأ فمه في الاتساع مرة أخرى. وبعد فترة من التشويق من جهتي كانت أسرة للغاية لكن شبه مؤلمة، رأيت يده تظهر على الجانب الآخر من الآنسة سكيفينز. على

الفور، أوقفت الأنسة سكيفينز الأمر بأناقة الملاك المهادي، وخلعت ذلك الطوق أو المشد كما فعلت من قبل، ووضعت على الطاولة. لو كانت الطاولة تمثل طريق العفة، فيحق لي القول إنه طوال فترة قراءة العجوز للجريدة، كانت ذراع ويميك تنحرف عن طريق العفة وتعيدها مرة أخرى الأنسة سكيفينز.

أخيرًا، دخل العجوز في نوم خفيف، كان هذا هو الوقت المناسب لويميك لإحضار غلاية صغيرة، وصينية بها كؤوس، وزجاجة سوداء ذات غطاء من الفلين مكلل بمنحوتة من البورسلين على شكل كاهن رفيع المقام ودود ومتورد الخدين. وبمساعدة هذه اللوازم، حصلنا جميعًا على شراب دافئ، بما في ذلك العجوز، الذي سرعان ما استيقظ مرة أخرى. خلطت الأنسة سكيفينز بين كأسها وكأس ويميك، ولاحظت أنهما شربا من كأس واحدة. بالطبع لم أكن لأعرض على الأنسة سكيفينز توصيلها إلى المنزل، وفي ظل هذه الظروف اعتقدت أنه من الأفضل أن أذهب أولاً؛ وهو ما فعلته، حيث قلت وداعًا بودًا للعجوز، وإنني قضيت أمسية ممتعة.

قبل انقضاء أسبوع، تلقيت رسالة من ويميك، مؤرخة في والورث، تفيد بأنه قد أحرز بعض التقدم في هذه المسألة المتعلقة بصفتنا الخاصة والشخصية، وأنه سيكون سعيدًا إذا تمكنت من القدوم لرؤيته مرة أخرى بهذا الشأن. لذا، ذهبت إلى والورث أكثر من مرة، ورأيت بموعدي سابق في المدينة عدة مرات أخرى، ولكن لم أتحدث معه مطلقًا بشأن هذا الموضوع في ليتل بريتن أو بالقرب منها. وكانت النتيجة أننا وجدنا تاجرًا أو سمسارَ شحن شابًا شريفًا، لم يمض وقتًا طويلًا في مجال الأعمال التجارية، وكان يريد مساعدًا نبيها، ويريد رأس مال، ويريد شريكًا مع

مرور الوقت وتوفّر رأس المال. وُقِّعت نصوص سرية بيني وبينه، كان هربرت موضوعها، ودفعت إليه نصف مبلغ الخمسمائة جنيه مقدّمًا، والتزمت بدفع دفعات أخرى متنوعة: بعضها يستحق السداد في تواريخ معينة من دخلي، والبعض الآخر مشروط بحصولي على كامل ثروتي. أجرى شقيق الأنسة سكيفينز المفاوضات، وكان ويميك على علمٍ بكل تفاصيلها، لكنه لم يظهر فيها قَطُّ.

أدير العمل برمّته بذكاء شديد، حتى إن هربرت لم يكن لديه أدنى شكٍّ في أن يدي متورطة فيه. لن أنسى أبدًا الوجه المشرق الذي عاد به إلى المنزل بعد ظهر أحد الأيام، وأخبرني بالخبر عظيم، الذي مفاده أنه وقع على أحد أفراد عائلة كلاريكر (اسم التاجر الشاب)، وعن إظهار كلاريكر ميلًا غير عادي تجاهه، وإيمانه بأن الفرصة قد جاءت أخيرًا. يومًا بعد يوم، وبينما كانت آماله تزداد قوة وأصبح وجهه أكثر إشراقًا، لا بد أنه كان يعتبرني صديقًا حنونًا أكثر فأكثر، لأنني واجهت صعوبة كبيرة في حبس دموع النصر عندما رأيته سعيدًا للغاية. أخيرًا، بعد أن تم الأمر، وبعد أن دخل مقر كلاريكر في ذلك اليوم، وتحدّثت معي طوال أمسية كاملة في غمرة من المتعة والنجاح، بكيت حقًا بصدقٍ عندما ذهبت إلى النوم، وأنا أفكر أن آمالي قد أفاضت بالخير على شخص ما.

الحدث الأعظم ونقطة التحول في حياتي، سوف يتجلى الآن أمام ناظري. لكن، قبل أن أشرع في سرده، وقبل أن أنتقل إلى جميع التغييرات التي تضمّنها، يجب أن أعطي فصلًا واحدًا للإستيلا. وهو ليس بالكثير بالنسبة إلى موضوع ملأ قلبي فترة طويلة.

الفصل الثامن والثلاثون

إذا أصبح هذا المنزل القديم بالقرب من حدائق ريتشموند مسكونًا عند مماتي، فمن المؤكد أن شبحي هو الذي يطارده. يا ليليالي والأيام العديدة التي سكنت خلالها روحي المضطربة ذلك المنزل الذي كانت تعيش فيه إستيلا! أينما كان جسدي، كانت روحي تتجول دائمًا، تتجول، تتجول حول ذلك المنزل.

السيدة التي وُضعت معها إستيلا، السيدة براندلي، كانت أرملة ولديها ابنة واحدة أكبر من إستيلا بعدة سنوات. بدت الأم شابة، وبدت الابنة عجوزًا؛ كانت بشرة الأم وردية اللون وبشرة الابنة صفراء. الأم مهيأة للعبث والابنة مهيأة للاهوت. لقد كانتا فيما يُسمَّى بوضعٍ جيدٍ، وقد زارهم، وزارهم، عدد كبير من الناس. لم يكن هناك سوى القليل، إن وجد، من المشاعر المشتركة بينهم وبين إستيلا، لكن الفهم كان راسخًا على أنهم ضروريون بالنسبة إليها، وأنها ضرورية بالنسبة إليهم، كانت السيدة براندلي صديقة للآنسة هافيشام قبل وقت عزلتها.

في منزل السيدة براندلي وخارج منزل السيدة براندلي، عانيت من كل أنواع ودرجات التعذيب التي يمكن أن تسببها لي إستيلا. إن طبيعة علاقتي بها، التي وضعتني على شروط الألفة دون أن تضعني على شروط المحابة، أدت إلى تشيت انتباهي. لقد استغلّنتي لإثارة معجبين آخرين، وحوّلت الألفة

بيني وبينها إلى الاستخفاف المستمر بإخلاصي لها. لو كنت سكرتيرها، أو وكيلها، أو الأخ غير الشقيق، أو أحد أقاربها الفقراء، -لو كنت الأخ الأصغر لزوجها المقرر- لما كنت سأبدو لنفسى أبعد عن آمالي عندما كنت قريباً من إستيلا. أصبح امتياز مناداتها باسمها وسماعها تناديني باسمي، في ظل هذه الظروف، سبباً في تفاقم محنتي؛ وبينما اعتقدت أن ذلك كاد يثير جنون عشاقها الآخرين، فأنا أعلم يقيناً أنه كاد أن يثير جنوني أنا.

كان لديها عدد لا نهائي من المعجيين. لا شك أن غيرتي جعلت كل من يقترب منها معجباً بها؛ ولكن كان هناك ما يكفي منهم دون الحاجة إلى غيرتي.

كنت أراها كثيراً في ريتشموند، وسمعت عنها كثيراً في المدينة، وكنت كثيراً ما أخذها مع عائلة براندلي إلى الماء؛ كانت هناك نزعات، ومهرجانات، ومسرحيات، وأوبرا، وحفلات موسيقية، واحتفالات، وكل أنواع الملذات، التي كنت أطاردها خلالها، وكانت كلها بؤساً بالنسبة إليّ. لم أحظ قط بالسعادة لمدة ساعة واحدة في رفقتها، ومع ذلك كان ذهني طوال الأربع وعشرين ساعة يعزف على وتر سعادة وجودها معي حتى الموت.

طوال هذا الجزء من تواصلنا، الذي استمر، كما سنرى لاحقاً، فترة طويلة كما اعتقدت بعد ذلك، كانت تعود عادةً إلى تلك النغمة التي تعبّر عن أن علاقتنا كانت مفروضة علينا. كانت هناك أوقات أخرى يحدث تغيير مفاجئ لهذه النبرة ونبراتها العديدة الأخرى، ويبدو أنها تشفق عليّ. «بيب، بيب» قالت ذات مساء، عندما وصلنا إلى مثل هذا الموقف، عندما جلسنا منفصلين عند نافذة مظلمة للمنزل في ريتشموند؛ «ألن تحذر أبداً؟»

- من ماذا؟

- مني.

- أحذر من الانجذاب إليك، هل هذا ما تقصدين يا إستيلا؟

- ما أقصده! إذا كنت لا تعرف ما أقصده، فأنت أعمى.

كان ينبغي لي أن أجيب بأن الحب معروف عادة بأنه أعمى، لكن لأنني كنت مقيدًا دائمًا، ولم يكن هذا أقل ما أعانيه من بؤس، بسبب شعوري بأنه من الوقاحة أن أفرض نفسي عليها، وهي تعلم أنها لا تستطيع اختيار شيء بجانب طاعة الأنسة هافيشام. كان خوفي دائمًا هو أن هذه المعرفة من جانبها وضعتني في موقف غير مؤاتٍ بسبب كبريائها، وجعلتني موضوعًا لصراع متمرد داخلها.

فقلت: على أي حال، لم أتلَقَ أي تحذير الآن، لأنك كتبت لي لكي آتي إليك هذه المرة.

«هذا صحيح»، قالت إستيلا، بابتسامة باردة لا مبالية كانت تقشعر لها بدني دائمًا.

وبعد أن نظرت إلى الشفق في الخارج لبعض الوقت، تابعت قائلة:
- لقد حان الوقت الذي ترغب فيه الأنسة هافيشام في استضافتي ليوم واحد في ساتيس. عليك أن تأخذني إلى هناك، وتعيدني إذا سمحت. إنها تفضّل ألا أسافر وحدي، وتعرض على استقبال خادمتي، لأنها تشعر بالرعب الشديد من الحديث عنها من قبل هؤلاء الأشخاص. هل يمكنك أن تأخذني؟

- هل يمكنني أن آخذك يا إستيلا!

- هل تستطيع إذن؟ بعد غد، إذا سمحت. عليك أن تدفع جميع الرسوم من محفظتي. هل سمعت شرط ذهابك معي؟ قلت: ويجب عليّ الطاعة.

كان هذا كل الاستعداد الذي تلقّيته لتلك الزيارة، أو مثيلاتها؛ لم تكتب لي الأنسة هافيشام قَطُّ، ولم يسبق لي أن رأيت خط يدها. ذهبنا إلى هناك في اليوم المحدد، ووجدناها في الغرفة التي رأيتها فيها أول مرة، وغني عن القول أنه لم يكن هناك أي تغيير في منزل ساتيس على الإطلاق. لقد كانت مغرمة بإستيلا بشكلٍ مخيفٍ أكثر مما كانت عليه عندما رأيتها معاً آخر مرة؛ سأكرر الكلمة عن عمد، فقد كان هناك شيء مروع بالتأكيد في نظراتها وعناقها. تعلقت بجمال إستيلا، وتعلقت بكلماتها، وتعلقت بإيماءاتها، وجلست تتمتم وهي تحرك أصابعها المرتعشة بينما كانت تنظر إليها، كما لو كانت تلتهم المخلوق الجميل الذي قامت بتنشئته. حوّلت نظرها من إستيلا إليّ، بنظرة فاحصة بدا أنها تتطفل على قلبي وتسبّر جراحه. «كيف تستغلك يا بيب؛ كيف تستغلك؟» سألتني مرة أخرى بلهفة ساحرة، حتى في مسمعٍ من إستيلا. لكن عندما جلسنا بجانب نيرانها المتلائة في الليل، كانت غريبة للغاية؛ لأنها أبقت يد إستيلا ملفوفة حول ذراعها وممسكة بيدها، وانتزعت منها، من خلال العودة إلى ما قالته لها إستيلا في رسائلها المعتادة، أسماء وأحوال الرجال الذين فتنّتهم. وبينما انشغلت الأنسة هافيشام بالتفكير في هذه القائمة، بعقلٍ شديد الأذى والمرض، جلست ويدها الأخرى وذقنها على عصا عكازها، وعيناها اللامعتان الشاحبتان تحدقان إلى وجهي، كانت كالشبح إلى حدٍّ بعيدٍ.

لقد رأيت في هذا، على الرغم من أنه جعلني بائسًا ومريئًا، الشعور بالتبعية وحتى الانحطاط الذي أيقظه فيّ، رأيت أن إستيلا كانت عازمة على الأخذ بثأر الأنسة هافيشام من الرجال، وأنها لن تُمنح لي حتى ترضيها لفترة. رأيت في هذا سببًا في تكليفي بها سابقًا. أرسلتها الأنسة هافيشام لإثارة الفتنة والتعذيب وإحداث الأذى، وأرسلتها مع تأكيدات خبيثة بأنها بعيدة عن متناول يد جميع المعجبين، وأن كل من راهن على هذا الوجه سيخسر بالتأكيد. ورأيت في هذا أنني أيضًا كنت معذبًا بسبب براعتي المشوهة، حتى وإن كانت الجائزة محفوظة لي. لقد رأيت في هذا سبب صدها لي لفترة طويلة وسبب الرفض السابق لوصيّي في الالتزام بالمعرفة الرسمية لمثل هذا المخطط. باختصار، رأيت الأنسة هافيشام في كل هذا كما رأيته في تلك اللحظة أمام ناظري، وكما كنت أراها دائمًا أمام ناظري؛ ورأيت في هذا الظل الواضح للمنزل المظلم العليل الذي كانت حياتها فيه مخفية عن الشمس.

الشموع التي أضاءت غرفتها كانت موضوعة في حوامل على الحائط. كانت عالية عن الأرض، وكانت مشتعلة بالضوء الزائف الباهت الهادئ في الهواء الذي نادرًا ما يتجدد. وبينما كنت أنظر حولي إليها، وإلى الكأبة الشاحبة التي أحدثتها، وإلى الساعة المتوقفة، وإلى قطع فستان الزفاف الذابلة على الطاولة والأرض، وإلى جسمها القبيح مع انعكاسه الشبحي الضخم الذي ألقى به ضوء النار على السقف والجدار، رأيت في كل شيء التفسير الذي جاء في ذهني يتكرر ويعود إليّ مرة أخرى. انتقلت أفكاري إلى الغرفة الكبيرة المقابلة للبهو حيث أُعدت الطاولة، ورأيته مكتوبة، كما كانت، في تساقط خيوط العنكبوت من القطعة المركزية، في

زحف العناكب على القماش، في آثار الفئران وهي تتوجه بقلوبها الصغيرة المتسارعة خلف الألواح، وفي تحسس الخنافس وتوقفها على الأرض. في تلك الزيارة صدرت بعض الكلمات الحادة بين إستيلا والأنسة هافيشام. كانت هذه هي المرة الأولى التي رأيتهما فيها على غير وفاق. كنا جالسين بجوار النار، كما وصفت للتو، وكانت الأنسة هافيشام لا تزال تحمل ذراع إستيلا في يدها، وما زالت تمسك بيد إستيلا في يدها، عندما بدأت إستيلا تنفصل عنها تدريجياً. لقد أظهرت نفاد صبرها بتعجرف أكثر من مرة من قبل، وفضّلت تحمّل تلك المودة الشرسة بدلاً من قبولها أو التجاوب معها.

«ماذا!» قالت الأنسة هافيشام وهي تنظر إليها: هل سئمت مني؟ أجابت إستيلا: «لقد سئمت قليلاً من نفسي فحسب»، وفكّت ذراعها، وانتقلت إلى المدفأة الكبيرة، حيث وقفت تنظر إلى النار. «قولي الحقيقة، أيتها الجاحدة!» صاحت الأنسة هافيشام، وهي تضرب بعصاها على الأرض بانفعال؛ «أنت مللت مني». نظرت إليها إستيلا برباطة جأش، ونظرت مرة أخرى إلى النار. كان قوامها الرشيق ووجهها الجميل يعبران عن لامبالاة هادئة تجاه الغضب الجامح للأنسة هافيشام، بشيء من القسوة.

«أنت يا حجر الصوان!» صاحت الأنسة هافيشام. «يا لقساوة قلبك!».

«ماذا؟» قالت إستيلا، وهي تحافظ على موقف اللامبالاة الذي اتخذته وهي تتكئ على المدفأة الكبيرة، ولا تحرك سوى عينيها؛ «هل تلوميني لكوني قاسية القلب؟ أنت؟».

«ألست كذلك؟» كان الرد الشرس.

قالت إستيلا: يجب أن تعرفي، أنا من صُنعتك أنت. خذي كل الثناء، خذي كل اللوم؛ خذي كل النجاح، خذي كل الفشل؛ باختصار، خذي كل شيء.

«أوه، انظر إليها، انظر إليها!» صاحت الأنسة هافيشام بمرارة؛ «انظر إليها بشدة هذه القاسية ناكرة الجميل، على الموقد حيث نشأت! حيث أخذتها إلى هذا الصدر البائس عندما كان ينزف أول مرة من طعناته، وحيث أغدقت عليها بسنوات من الحنان!».

قالت إستيلا: على الأقل أنا لم أطلب منك أن تتبني، لأنه إذا كان في إمكانني المشي والتحدث، عندما تم الأمر، فقد كان ذلك أقصى ما أستطيع فعله. ولكن ماذا سيكون لديك؟ لقد كنت طيبة جدًا معي، وأنا مدينة لك بكل شيء. ماذا تريدن؟

أجابت الأخرى: الحب.

- لديك الحب.

قالت الأنسة هافيشام: لا ليس لديّ الحب.

ردت إستيلا: «يا أمي بالتبني» دون أن تبتعد أبدًا عن رونقها العفوي، ولم ترفع صوتها قطُّ كما فعلت الأخرى، ولم تستسلم قطُّ للغضب أو الحُنو، «يا أمي بالتبني، لقد قلت إنني مدينة لك بكل شيء. كل ما أملكه هو لك من دون قيود. كل ما قدمته لي هو تحت أمرك لتحصلي عليه مرة أخرى. أبعد من ذلك، ليس لديّ أي شيء. وإذا طلبت مني أن أعطيك ما لم تعطني إياه قطُّ، فإن امتناني وواجبي لا يمكنهما فعل المستحيل».

«ألم أعطها الحب قطُّ؟!» صاحت الأنسة هافيشام وهي تستدير

نحوي بعنفٍ. «ألم أعطيها قُطُّ حبًّا متقدًّا، مليء بالغيرة على الدوام، والألم الحاد، بينما تتحدث هي معي هكذا! دعها تصفني بالجنون، دعها تصفني بالجنون!». »

ردَّت إستيلا: لماذا يجب أن أصفك بالجنون، أنا من بين كل الناس؟ هل يعيش أي شخص، ممن يعرفون بحالك، بنصف ما أعيشه؟ أنا من جلست على نفس الموقد على الكرسي الصغير الذي لا يزال بجانبك هناك، أتعلم دروسك وأنظر إلى وجهك، عندما كان وجهك غريبًا ومخيفًا!

«طواها النسيان!» قالت الآنسة هافيشام بتأوه. «الأوقات الحلوة طواها النسيان!». »

ردَّت إستيلا: لا، لم يطوها النسيان، لم يطوها النسيان، بل هي محفورة في ذاكرتي. متى وجدتني لا أتبع تعاليمك؟ متى وجدتني غافلة عن دروسك؟ متى وجدتني أدخل هنا (لامست صدرها بيدها) أي شيء أنتِ استثنيت؟ كوني عادلة.

«متعجرفة جدًا، متعجرفة جدًا!» قالت الآنسة هافيشام بتأوه، وهي تدفع شعرها الرمادي بيديها.

ردَّت إستيلا: من علّمني أن أكون متعجرفة؟ من أثني عليَّ عندما تعلمت الدرس؟

«منتهى القسوة، منتهى القسوة!» قالت الآنسة هافيشام بتأوه وهي تدفع شعرها الرمادي بيديها مرة أخرى.

ردَّت إستيلا: من علّمني القسوة؟ من أثني عليَّ عندما تعلمت الدرس؟

«إلا أن تكوني متعجرفة وقاسية تجاهي!» صرخت الأنسة هافيشام بشدة، وهي تمد ذراعيها. «إستيلا، إستيلا، إستيلا، إلا أن تكوني متعجرفة وقاسية تجاهي!».

نظرت إليها إستيلا للحظة بنوعٍ من التعجب الهادئ، لكنها لم تكن مضطربة؛ وعندما انتهت اللحظة، نظرت إلى النار مرة أخرى.

قالت إستيلا وهي ترفع عينيها بعد صمت: لا أستطيع أن أفكر لماذا يجب أن تكوني غير عقلانية إلى هذا الحد عندما آتي لرؤيتك بعد فراق. لم أنس قطُّ أخطاءك وأسبابها. كنت دومًا مخلصه لك ولتعاليمك. لم أظهر قطُّ أي ضعف يمكنني أن أتهم نفسي به.

«هل سيكون من الضعف أن تحبيني في المقابل؟» صاحت الأنسة هافيشام. «ولكن نعم، نعم، سوف تسمينه ضعفًا!».

قالت إستيلا، بطريقة متأملة، بعد لحظة أخرى من التعجب الهادئ: بدأت أفكر، وأكاد أفهم كيف حدث هذا. لو أنك قمت بترية ابتك بالتبني بالكامل في الظلام محبوسة بين جدران تلك الغرف، ولم تخبرها قطُّ أن هناك ما يُسمى بضوء النهار الذي لم يرَ وجهك من قبل قطُّ، إذا كنت قد فعلت ذلك، وبعد ذلك، لسبب ما، أردتها أن تعرف كل شيء عن ضوء النهار، هل كنت تصابين بالغضب وخيبة الأمل؟

جلست الأنسة هافيشام، ورأسها بين يديها، وهي تئن بصوتٍ منخفضٍ، وتمايلت على كرسيها، لكنها لم تعطِ أي إجابة.

قالت إستيلا: أو أنك قد علّمتها، منذ نعومة أظفارها، بكل قوتك وطاقتك، وهو ما حدث، أن هناك شيئًا اسمه ضوء النهار، ولكنه خُلِق ليكون عدوًّا ومدمرًا لها، ويجب عليها دائمًا أن تنقلب ضده، لأنه أفسدك

وسيفسدها أيضًا؛ إذا كنت قد فعلت هذا، وبعد ذلك، لغرضٍ ما، أردت منها أن ترى ضوء النهار كشيء طبيعي، ولم تستطع أن تفعل ذلك، هل كنت تصابين بالغضب وخيبة الأمل؟

جلست الآنسة هافيشام تستمع (أو بدا الأمر كذلك، لأنني لم أتمكن من رؤية وجهها)، لكنها لم تُجِب بعد.

قالت إستيلا: لذلك، يجب أن أُؤخذ كما خُلقت. النجاح ليس من نصيبي، والفشل ليس من نصيبي، ولكن الاثنين معًا يصنعانني.

كانت الآنسة هافيشام قد استقرت، بالكاد أعرف كيف، على الأرض، بين آثار الزفاف الباهتة التي تناثرت حولها. انتهزت الفرصة - كنت قد سعت للحصول على فرصة منذ البداية - لمغادرة الغرفة، بعد أن ناشدت إستيلا للذهاب إليها، بحركة من يدي. عندما غادرت، كانت إستيلا لا تزال واقفة بجوار المدفأة الكبيرة، تمامًا كما كانت واقفة طوال الوقت. كان شعر الآنسة هافيشام الرمادي كله متناثرًا على الأرض، بين حطام الزفاف الأخرى، وكان المنظر تعيسًا.

مشيت بقلبٍ مغتم تحت ضوء النجوم لمدة ساعة وأكثر، حول الفناء، وحول مصنع الجعة، وحول الحديقة المقفرة. وعندما تشجعت أخيرًا للعودة إلى الغرفة، وجدت إستيلا تجلس عند ركة الآنسة هافيشام، وتقوم بخياطة بعض الغرز في إحدى قطع الملابس القديمة التي كانت تتساقط إلى أجزاء، والتي كثيرًا ما ذكّرني بها منذ ذلك الحين البقايا الباهتة من اللافتات العسكرية القديمة التي رأيته معلقة في الكاندرائيات. بعد ذلك، لعبنا أنا وإستيلا بالورق كما في الماضي، فقط كنا ماهرين الآن، ولعبنا ألعابًا فرنسية، وهكذا انتهى المساء، وذهبت إلى الفراش.

استلقيت في ذلك المبنى المنفصل عبر الفناء. كانت تلك هي المرة الأولى التي أستلقي فيها للنوم في منزل ساتيس، ورفض النوم أن يقترب مني. لقد طاردتني الأنسة هافيشام ألف مرة. كانت على هذا الجانب من الوسادة، وذاك، عند رأس الفراش، وطرفه، خلف باب غرفة الملابس نصف المفتوح، في غرفة الملابس، في الغرفة العلوية، في الغرفة السفلية، في كل مكان. أخيرًا، عندما بدأ الليل يزحف ببطء نحو الساعة الثانية صباحًا، شعرت أنني لم أعد أتحمّل مرقي على الإطلاق، وأنه يجب عليّ النهوض. لذلك نهضت وارتديت ملابس، وخرجت عبر الفناء إلى الممر الحجري الطويل، عازمًا على الوصول إلى الفناء الخارجي والسير هناك من أجل راحة ذهني. ولكنني ما إن كنت في الممر حتى أطفأت شمعتي؛ لأنني رأيت الأنسة هافيشام تسير عبر الطريق كالشبح، وتبكي بصوتٍ خافت. تتبّعها من بعيد، ورأيتها تصعد الدرج. كانت تحمل في يدها شمعة مكشوفة، ربما تكون قد أخذتها من أحد الحوامل الموجودة في غرفتها، وكانت تبدو في نورها من خارج هذا العالم. عندما وقفت في أسفل الدرج، شعرت بالهواء العفن في غرفة الاحتفال، دون أن أراها تفتح الباب، وسمعتها تمشي هناك، وهكذا عبرت إلى غرفتها الخاصة، وهكذا عبرت مرة أخرى إلى تلك الغرفة، دون أن تتوقف أبدًا عن البكاء الخافت. بعد فترة من الوقت، حاولت في الظلام الخروج أو العودة، لكنني لم أتمكن من فعل أي منهما حتى بزغت بعض خطوط الفجر التي أظهرت لي أين أضع يدي. طوال تلك الفترة، كلما ذهبت إلى أسفل الدرج، سمعت وقع قدمها، ورأيت نورها يمر من الأعلى، وسمعت بكاءها الخافت المتواصل.

لم يتجدد الخلاف بينها وبين إستيلا قبل مغادرتنا في اليوم التالي، ولا في أي زيارة مماثلة؛ وكانت هناك أربع زيارات مماثلة، على ما أذكر. كما أن أسلوب الأنسة هافيشام تجاه إستيلا لم يتغير بأي حال من الأحوال، إلا أنني اعتقدت أن بعض الخوف قد امتزج بخصائصه السابقة.

من المستحيل أن أقلب صفحة حياتي هذه دون أن أضع اسم بنتلي درامل عليها؛ وسأفعل ذلك بكل سرور.

في إحدى المناسبات، عندما تجمّع أعضاء نادي فينش، وبعد تعزيز المشاعر الطيبة بالطريقة المعتادة من دون أي توافق لأحد مع الآخر، دعا رئيس فينش أعضاء جروف للانتظام، حيث إن السيد درامل لم يكن قد شرب نخب سيدة بعد؛ ووفقاً للدستور المبجل للمجموعة، فقد جاء دور هذا الهمجي للقيام بذلك في ذاك اليوم. رأيته ينظر إليّ بطريقة سمجة بينما كانت دوارق المشروب تأخذ دورتها في أنحاء الغرفة، وبما أننا كنا نبغض أحداً الآخر فلم أهتم، لكن سخطي ودهشتي جاء حين دعا المجموعة إلى شرب نخبه مع «إستيلا!».

سألت: إستيلا من؟

ردّ درامل: لا يعنيك.

«إستيلا من أين؟» قلت: «لا بد أن تقول من أين» وهو ما كان عليه، باعتبار هافيشام.

قال درامل، ناظرًا إلى الجمع: من ريتشموند أيها السادة، جمال منقطع النظير.

همست لهربرت: ماذا يعرف عن الجمال المنقطع النظير، هذا الصعلوك الوضع المعتوه!

قال هربرت وهو يجلس عبر الطاولة: أعرف تلك السيدة.

قال درامل: أتعرفها؟

أضفت بوجه قزمي: وأنا أيضًا.

قال درامل: وأنت؟ يا إلهي!

كان هذا هو الرد الوحيد - باستثناء صوت الزجاج أو الخزف - الذي صدر من هذا المخلوق المتثاقل؛ لكنني أصبحت ثائرًا جدًا من رده كما لو كان محملاً بالسخرية اللاذعة، وقمت على الفور من مكاني وقلت إنني لا أستطيع إلا أن أعتبرها وقاحة من الفينش المحترم أن يأتي هكذا إلى الجروف - نحن كنا نتحدث دائمًا عن ذهابنا إلى الجروف، كتعبير برلماني أنيق - ويشرب نخب سيدة لا يعرف عنها شيئًا. عندها بدأ السيد درامل يسألني عما أقصده بذلك؟ ومن ثم قدمت له ردي الحازم باستعدادي لمواجهة قتال معه.

ما إذا كان من الممكن في بلد مسيحي العيش من دون دماء، بعد هذا الحدث، كان هو السؤال الذي انقسمت حوله جماعة فينش. لقد أصبح النقاش حول هذا الموضوع حيويًا للغاية، في الواقع، إلى درجة أن ستة أعضاء على الأقل من الأعضاء المحترمين أخبروا ستة آخرين، في أثناء المناقشة، أنهم مستعدون لمواجهة قتال. ومع ذلك، فقد تقرر أخيرًا (كون الجروف مجلس شرف) أنه إذا قدم السيد درامل شهادة بسيطة من السيدة، تشير إلى أنه كان له شرف التعرف عليها، فيجب على السيد ييب أن يعرب عن أسفه، كرجل نبيل وكفينش، لأن «عواطفه خائنه وجعلته يغضب». حُدِّد اليوم التالي للتحقيق في الأمر (لئلا يبرد شرفنا بسبب التأخير)، وفي اليوم التالي ظهر درامل وهو يحمل اعترافًا مهذبًا بخط يد إستيلا بأنها كان

لها شرف الرقص معه عدة مرات. لم يترك لي هذا أي طريق سوى الندم لأن «عواطفني خانتني وجعلتني أغضب»، والتخلي في العموم عن فكرة القتال، باعتبارها فكرة واهية. بعد ذلك، جلسنا أنا ودرامل ننفخ وننفث بعضنا تجاه بعض لمدة ساعة، بينما انخرط آل جروف في اختلاف أرعن، وأعلن أخيراً أن تعزيز المشاعر الطيبة قد مضى بشكلٍ مذهلٍ.

أقول هذا ببسرٍ، لكنه لم يكن شيئاً هيناً بالنسبة إليّ؛ لأنني لا أستطيع التعبير بشكلٍ كافٍ عن الألم الذي حلَّ بي عندما فكرت أن إستيلا قد قدّمت أي خدمة لمغفلٍ حقيرٍ، أخرق، متجهّم، أقل بكثير من المتوسط. حتى الآن، أعتقد أن ما حدث يرجع إلى نفحة خالصة من الكرم وعدم المبالاة لحبي لها، إلى درجة أنني لم أستطع تحمّل فكرة نزولها إلى مستوى هذا الحقير. لا شك أنني كنت سأشعر بالتعاسة أيّاً كان من فضّلته؛ لكن شخصاً أكثر قيمة كان سيسبب لي نوعاً مختلفاً ودرجة مختلفة من الضيق.

كان من السهل بالنسبة إليّ أن أعرف، وسرعان ما اكتشفت أن درامل بدأ يتبعها من كتب، وأنها سمحت له بذلك. وبعد فترة، علمت أنه كان دائماً يطاردها، وأنا وهو التقينا كل يوم. لقد تمسك بها بطريقة مثابرة ممّلة، وتمسكت به إستيلا؛ تارة بتشجيع، تارة بإحباط، تارة تتملقه تقريباً، تارة تحتقره علناً، تارة تعرفه جيداً، وتارة بالكاد تتذكر من هو.

كان هذا العنكبوت، كما أطلق عليه السيد جاغرز، معتاداً الانتظار، وكان يتمتع بصبرٍ عسيرته. إضافة إلى ذلك، كانت لديه ثقة حمقاء في ماله وفي عظمة عائلته، الأمر الذي كان يخدمه أحياناً بشكل جيد، وكان يحل محل التركيز والغرض المحدد تقريباً. لذلك، كان العنكبوت، الذي كان

يراقب إستيلا بإصرار، يتفوق على العديد من الحشرات الأكثر براعة، وغالبًا ما كان يبسط نفسه ويهبط في الوقت المناسب.

في حفل من حفلات الرقص في ريتشموند (كانت هناك حفلات رقص في معظم الأماكن في ذلك الوقت)، حيث تفوقت إستيلا على بقية الجميلات، كان درامل المتخبط هذا يهيم على مقربة منها، وبقدر كبير من التسامح من جانبها، إلى درجة أنني قررت التحدث إليها بشأنه. انتهزت أول فرصة. وكان ذلك عندما كانت تنتظر السيدة بلاندلي لتأخذها إلى المنزل، وكانت تجلس منفصلة بين بعض الزهور، مستعدة للذهاب. كنت معها، لأنني كنت أرافقهم معظم الوقت من وإلى هذه الأماكن.

- هل أنت متعبة يا إستيلا؟

- بعض الشيء، يا بيب.

- يجب أن تكوني متعبة.

- قل بالأحرى: لا ينبغي أن أكون متعبة؛ لأن لدي رسالة إلى ساتيس هاوس لأكتبها قبل أن أنام.

قلت: إعادة سرد انتصار الليلة؟ بالتأكيد انتصار هزيل جدًا يا إستيلا.

- ماذا تقصد؟ لم أكن أعلم أنه كان هناك أي انتصارات.

قلت: إستيلا، انظري إلى ذلك الرجل الجالس في الزاوية هناك، والذي ينظر إلينا.

ردت إستيلا وعيناها عليّ بدلًا منه: لماذا يجب أن أنظر إليه؟ ما الذي يوجد في ذلك الرجل الموجود في الزاوية هناك، إذا استخدمت كلماتك، والذي أحتاج إلى إلقاء نظرة عليه؟

قلت: في الواقع، هذا هو السؤال الذي أريد أن أطرحه عليك، لأنه كان يحوم حولك طوال الليل.

أجابت إستيلا وهي تنظر إليه: مثل العثة، وكل أنواع المخلوقات القبيحة، التي تحوم حول شمعة مضاءة. هل يمكن للشمعة أن تسيطر عليها؟

أجبت: لا، ولكن هل تستطيع إستيلا السيطرة عليها؟

قالت وهي تضحك بعد لحظة: حسنًا! ربما. نعم، أي شيء تريده.

- لكن يا إستيلا، أصغي إليّ، أنا أشعر بالتعاسة لتشجيعك لرجلٍ حقيرٍ بشكل عام مثل درامل، أنت تعلمين أنه حقير.

قالت: حسنًا؟

- أنت تعلمين أنه أحق ظاهرًا وباطنًا، شاب فاسد، سيء المزاج، وضيع، وغبي.

قالت: حسنًا؟

- أنت تعلمين أنه ليس هناك ما يشفع له سوى المال وقائمة سخيّة من الأسلاف الأغبياء؛ أليس كذلك؟

«حسنًا؟» قالت مرة أخرى؛ وفي كل مرة قالت ذلك، كانت تفتح عينيها الجميلتين على نطاق أوسع.

ولحّثها على قول أكثر من هذا المقطع الوحيد، قلت، مكرّرًا له بتوكيد: حسنًا! هذا هو ما يجعلني بائسًا.

الآن، لو كان في وسعي أن أصدق أنها فضّلت درامل لكي تجعلني -أنا- بائسًا، لكنت تقبّلت الأمر؛ لكن بطريقتها المعهودة هذه، أقصتني تمامًا، إلى درجة أنني لم أستطع تصديق الأمر.

قالت إستيلا وهي تلقي نظرة على الغرفة: ييب، لا تكن أحمق بشأن تأثير الأمر فيك. قد يكون له تأثيره في الآخرين، وقد يكون هذا مقصودًا، الأمر لا يستحق المناقشة.

قلت: بل يستحق، لأنني لا أستطيع تحمّل أن يقول الناس إنها تبدد جمالها ومفاتها على مجرد فلاح ساذج، أخط من في الحشد.

قالت إستيلا: أستطيع أن أتحمّل ذلك.

- أوه! لا تكوني متغطرة جدًّا يا إستيلا، وعنيدة إلى هذا الحد.

قالت إستيلا وهي تفتح يديها: تارة يدعوني متغطرة وعنيدة! وتارة أخرى يعاتبني لأنني تعطّفت على هذا الوقح!

قلت على عجلة: ليس هناك شك في أنك تفعلين ذلك، لأنني رأيته تنظرين إليه وتبسمين في هذه الليلة بالذات، كما لم تنظري إليّ قطّ.

قالت إستيلا وهي تستدير فجأة بنظرة ثابتة وجادة، إن لم تكن نظرة غضب: هل تريد مني إذن أن أخدعك وأوقعك في الفخ؟

- هل تخدعينه وتوقعينه في الفخ يا إستيلا؟

- نعم، وغيره الكثيرين، كلهم ما عداك أنت. ها هي السيدة براندلي، لن أقول المزيد.

والآن بعد أن كرست هذا الفصل للموضوع الذي ملأ قلبي، وكثيرًا ما جعله يتألم ويتوجع مرة تلو الأخرى، أمضي دون عوائق إلى الحدث الذي كان وشيك الحدوث لفترة أطول؛ الحدث الذي تم الاستعداد له، قبل أن أعرف أن العالم به إستيلا، في الأيام التي كان فيها ذكاؤها كطفلة يتلقى أولى تشوهات على يدي الأنسة هافيشام الهزيلتين.

في القصة الشرقية^(١)، اللوح الثقيل الذي كان سيسقط على العرش في حالة الغزو أُخرج ببطء من المحاجر، والتفك الخاص بالحبل الذي يثبت في مكانه نُقل ببطء عبر فراسخ من الصخور، رُفع اللوح ببطء وُثِّب في السقف، ورُفع الحبل إليه وأُخذ ببطء عبر الأميال المجدوفة إلى الحلقة الحديدية العظيمة. جُهِز كل شيء بجهد كبير، وعندما حانت الساعة، استيقظ السلطان في جوف الليل، ووضع في يده الفأس الحادة التي كانت ستقطع الحبل من الحلقة الحديدية الكبيرة، وضرب بها. وانفصل الحبل واندفع وسقط السقف. لذلك، في حالتي؛ كان أنجز العمل الذي أدى إلى هذه اللحظة بالكامل؛ وفي غمضة عين جاءني الضربة، وسقط عليّ سقف قلعتي.

(١) حكايات الجنّي للمؤلف الإنجليزي جيمس ريدلي ١٧٦٤. المترجم.

الفصل التاسع والثلاثون

كنت في الثالثة والعشرين من عمري. لم أسمع كلمة أخرى تنيرني بخصوص آمالي، وقد مر أسبوع على عيد ميلادي الثالث والعشرين. كنا قد غادرنا نزل برنارد منذ أكثر من عام، ذهبنا للعيش في منطقة تمبل. كانت غرفنا تقع في جاردن كورت، أسفل النهر.

كانت علاقتي بالسيد بوكيت كمرشيد قد انتهت، لكننا ظللنا على علاقة وطيدة. على الرغم من عدم قدرتي على الاستقرار على مجال محدد، والذي آمل أن يكون ناشئاً عن سيطرتي غير التامة والمضطربة على أموالني، إلا أنني كنت أهوى القراءة، وأقرأ بانتظام ساعات طويلة في اليوم. كانت مسألة هربت لا تزال تمضي قُدُماً، وكانت أحوالي كما تركتها في نهاية الفصل السابق للأخير.

أخذت الأعمال هربت في رحلة إلى مرسلينا. كنت بلا مؤنس، وكان لدي شعورٌ مملٌ بالوحدة. كنت محبطاً وقلقاً، وكنت آمل أن غداً أو الأسبوع المقبل سأكون في حال أفضل، ومع استمرار خيبة أمني، شعرت بالحزن لافتقادي صديقي ذي الوجه البشوش والاستجابة السريعة.

كان الطقس سيئاً؛ عاصفاً ورطباً؛ والطين، الطين، الطين متعمق في الشوارع. يوماً بعد يوم، كان حجاب ثقيل ضخم يحلق فوق لندن من الشرق، ويتحرك بثبات، كما لو كان هناك سحب ورياح سمرمية في

الشرق. كانت العواصف شديدة للغاية، إلى درجة أن المباني الشاهقة في المدينة قد نُزِع الرصاص عن أسطحها؛ وفي الريف اقتُلعت الأشجار وحملت أشعة طواحين الهواء بعيدًا. وجاءت أخبار محزنة من الساحل عن غرق سفينة وموت. رافقت هبوب الأمطار العنيفة هذه الرياح العاتية، وكان اليوم الذي انتهى للتو بينما جلست للقراءة هو الأسوأ على الإطلاق.

أُجريت تعديلات على ذلك الجزء من تمبل منذ ذلك الوقت، ولم يعد الآن ذا طابع منعزل كما كان في ذلك الوقت، كما أنه لم يعد يطل على النهر. كنا نعيش في الجزء العلوي من المنزل الأخير، وهزّت الرياح المتدفقة أعلى النهر المنزل في تلك الليلة، مثل إطلاق مدفع أو ارتطام البحر. عندما هطل المطر معها واصطدم بالنوافذ، تخيلت نفسي، وأنا أرفع عيني إليها وهي تهتز، في منارة ضربتها العاصفة. من حين لآخر، جاء الدخان من المدفأة كما لو أنه لا يستطيع تحمّل الخروج في مثل هذه الليلة؛ وعندما فتحت الأبواب ونظرت إلى أسفل الدرج، وجدت مصابيح الدرج قد انطفأت؛ وعندما ظللت وجهي بيدي ونظرت من خلال النوافذ السوداء (كان فتحها قليلًا أمرًا غير وارد في ظل هذا المطر والرياح العاتية)، رأيت أن المصابيح في الفناء قد انطفأت أيضًا، وأن مصابيح الجسور والشاطيء كانت تهتز، ونيران الفحم في المراكب على النهر كانت تُحمل بعيدًا في مواجهة الرياح مثل رذاذ ساخن تحت المطر.

قرأت وساعتي على الطاولة، معتزمًا إغلاق كتابي في الساعة الحادية عشرة، عندما أغلقته، كانت ساعة كنيسة القديس بولس تدق، وجميع ساعات الكنائس العديدة في المدينة؛ بعضها قبلها، وبعضها مصاحب لها، وبعضها بعدها. كان الصوت معيًّا بشكل غريب بسبب الرياح.

وكنت أستمع وأفكر كيف هبَّت الريح ومزقته عندما سمعت وقع أقدام على الدرج.

أي حماقة متقدمة جعلتني أجفل، وأربطها بفضاعة بخطوات أختي المتوفاة، هذا لا يهم. مرّت لحظة، واستمعت مرة أخرى، وسمعت وقع الأقدام تتعثر في طريقها إليّ. وتذكرت بعد ذلك أن أضواء الدرج قد انطفأت، فأخذت مصباح القراءة الخاص بي وخرجت إلى مقدمة الدرج. من كان بالأسفل توقف عند رؤية مصباحي، لأن كل شيء كان هادئاً.

«هناك شخص ما هناك، أليس كذلك؟» ناديت، ونظرت إلى أسفل.

«نعم» قال صوت من الظلام بالأسفل.

- أي طابق تريد؟

- الطابق الأعلى. السيد بيب.

- هذا هو اسمي.. هل كل شيء على ما يرام؟

«لا توجد مشكلة» أجاب الصوت. وصعد الرجل.

وقفت ومصباحي معلقٌ فوق حاجز السلم، فدخل ببطء في ضوءه. كان سراجاً مظلاً، ليضيء على كتاب، وكانت دائرة نوره ضيقة جداً؛ حتى إنه كان فيها للحظة واحدة فقط، ثم خرج منها. في تلك اللحظة، رأيت وجهاً كان غريباً بالنسبة إليّ، كان ينظر إلى الأعلى بهيئة غير مفهومة من التأثر والسرور لرؤيتي.

بتحريك المصباح مع حركة الرجل، تبين أن كان يرتدي ملابس جيدة، ولكن بخشونة، مثل مسافر عبر البحار. أنه كان لديه شعر رمادي طويل لامع. أن عمره كان نحو الستين. أنه كان رجلاً مفتول العضلات، قوي الساقين، وقد اسمرت بشرته وتبيست بسبب تعرضه للهواء

الخارجي. عندما صعد الدرج الأخير أو الدرجين الأخيرين، وشمنا ضوء مصباحي، رأيت، بنوعٍ من الدهشة البلهاء، أنه كان يمد يديه الاثنتين إليّ.

سألته: ترى ما الذي جاء بك؟

كرر وهو يتوقف: ما الذي جاء بي؟ آه! نعم. سأشرح ما جاء بي إذا أذنت لي.

- هل ترغب في الدخول؟

أجاب: نعم، أرغب في الدخول يا سيدي.

طرح عليه هذا السؤال بطريقة وقحة بما فيه الكفاية، لأنني كنت مستاءً من ذلك النوع من العرفان بالجميل الواضح الذي لا يزال يلعب في وجهه. لقد استأثرت من ذلك، لأنه بدا كأنه يعني أنه يتوقع مني الاستجابة له. لكنني أخذته إلى الغرفة التي غادرتها للتو، وبعد أن وضعت المصباح على الطاولة، طلبت منه بأكبر قدرٍ ممكن من التحضر أن يشرح موقفه.

نظر حوله بمظهر غريب، ونوع من الإمتاع الشغوف، كما لو كان له دور في الأشياء التي أعجب بها، وخلع قبعته ومعطفًا خارجيًا خشنًا. ثم رأيت رأسه مجعدًا أصلع، والشعر الرمادي اللامع الطويل لا ينمو إلا في جوانبه. لكنني لم أر شيئًا يوضح موقفه على الإطلاق، على العكس من ذلك، رأيته في اللحظة التالية، وهو يمد إليّ يديه الاثنتين مرة أخرى.

قلت، وأنا أشك في أنه مجنون: ما الذي تسعى إليه؟

توقف عن النظر إليّ، وفرك يده اليمنى ببطء فوق رأسه. قال بصوتٍ خشن متقطع: إنه أمر مخيب للآمال بالنسبة إلى الرجل، الذي كان يتطلع إلى هذا اللقاء جدًّا، ويأتي كل هذه المسافة؛ ولكنك لست مُلامًا على

ذلك، لا أحد منا ملام على ذلك. سأحدث خلال نصف دقيقة. أعطني نصف دقيقة من فضلك.

جلس على كرسي أمام النار، وغطى جبهته يديه البنيتين الكبيرتين. نظرت إليه باهتمام حينها، وابتعدت عنه قليلاً؛ لكنني لم أعرف عليه. قال وهو ينظر من فوق كتفه: لا يوجد أحد هنا، أليس كذلك؟

سألت: لماذا أنت، أيها الغريب الذي يأتي إلى غرفتي في هذا الوقت من الليل، تسأل هذا السؤال؟

«أنت فتى شجاع» أجاب، وهو يهز رأسه في وجهي بانفعال متأن، انفعال غير مفهوم ومثير للغضب في نفس الوقت؛ «أنا سعيد لأنك كبرت لتصير فتى شجاعاً! لكن لا تمسك بي. ستكون أسفاً لفعلك هذا».

لقد تخليت عن النية التي كشفها، لأنني عرفته! على الرغم من أنني لم أتمكن من تذكر ملامحه، لكنني عرفته! لو كانت الرياح والأمطار قد أبعدت السنوات الفاصلة بيننا، وتناثرت كل الأشياء المتداخلة، وجرفتنا إلى باحة الكنيسة حيث وقفنا لأول مرة وجهاً لوجه على هذه المستويات المختلفة، لم يكن في إمكاني أن أعرف المدان الخاص بي بشكل أكثر وضوحاً مما كنت أعرفه الآن وهو جالس على الكرسي أمام النار. لا حاجة إلى أخذ مبرد من جيبه وإظهاره لي؛ لا حاجة إلى أخذ المنديل من رقبته ولفه حول رأسه؛ لا داعي لأن يعانق نفسه بكلتا ذراعيه، ويدور مرتجفاً عبر الغرفة، وينظر إليّ من أجل التعرف عليه. كنت أعرفه قبل أن يقوم بكل تلك التذكريات، على الرغم من أنني، قبل لحظة، لم أكن واعياً بأنني أعرف هويته ولو من بعيد.

عاد إلى حيث وقفت، ومد يديه الاثنتين مرة أخرى. لم أكن أعرف

ماذا أفعل، لأنني فقدت السيطرة على نفسي بسبب دهشتي، وأعطيته يدي على مضض. أمسك بهما من قلبه، ورفعهما إلى شفتيه، وقبلهما، ووقف يحتضنهما.

قال: لقد تصرفت بُبُل يا بني، تصرفت بُبُل يا بيب! بُبُل لم أنساه قَطُّ! وعندما تحرك كما لو كان على وشك أن يحتضنني، وضعت يدي على صدره وأبعدته.

«قف عندك!» قلت: «ابق بعيداً! إذا كنت ممتناً لي لما فعلته عندما كنت طفلاً صغيراً، أتمنى أن تكون قد أظهرت امتنانك من خلال إصلاح أسلوب حياتك. إذا أتيت إلى هنا لتشكرني، لم يكن ذلك ضرورياً. ومع ذلك، كيفما وجدتني، لا بد أن مجيئك إلى هنا نبع من شعور طيب، ولن أصدك؛ ولكن من المؤكد أنك يجب أن تفهم أنني... أنا...».

لقد جذب انتباهي غرابة نظراته المعلقة بي، إلى درجة أن الكلمات تلاشت من لساني.

قال عندما واجه بعضنا بعضاً في صمت: لقد كنت تقول إنني يجب عليّ أن أفهم بالتأكيد، ماذا، يجب عليّ أن أفهم بالتأكيد؟

- إنني لا أرغب في إحياء ذكرى لقائنا القديم، في ظل هذه الظروف المختلفة. يسعدني أن أصدق أنك تبت وأبرأت نفسك. أنا سعيد لقولي هذا. أنا سعيد لأنك أتيت لتشكرني، معتقداً أنني أستحق الشكر، ولكن كل منا له طريقه. أنت مبطل، وتبدو مرهقاً. هل تشرب شيئاً قبل أن تذهب؟ أعاد ربط منديل رقبته بشكل غير محكم، ووقف يراقبني باهتمام، وهو يعض طرفاً طويلاً منه. أجابني وطرف المنديل لا يزال في فمه ولا يزال هو يراقبني: أعتقد أنني سأشرب شيئاً قبل أن أذهب (شكراً لك.).

كان هناك صينية جاهزة على طاولة جانبية. أحضرته إلى الطاولة القريبة من النار، وسألته عما يريد. لمس إحدى الزجاجات دون أن ينظر إليها أو يتكلم، وأعددت له بعضًا من مشروب الروم الساخن والماء. حاولت أن أبقى يدي ثابتة بينما أفعل ذلك، لكن نظرت إليه وهو متكئ إلى الخلف على كرسيه والنهاية الطويلة لمنديل رقبته بين أسنانه - من الواضح أنه قد نسيه - جعلت من الصعب جدًا السيطرة على يدي. عندما قدمت له الكأس أخيرًا، رأيت بذهول أن عينيه كانتا ممتلئتين بالدموع.

حتى ذلك الوقت كنت لا أزال واقفًا، حتى لا أخفي أنني أتمنى رحيله. لكن لانت عريكتي من مظهر الرجل الضعيف، وشعرت بلمسة من اللوم. قلت، وأنا أضع مشروبًا لنفسي على عجل، وأسحب كرسيًا إلى الطاولة: أمل ألا تعتقد أنني تحدثت معك بقسوة الآن، لم يكن لدي أي نية للقيام بذلك، وأنا آسف إذا فعلت ذلك. أتمنى لك الخير والسعادة! وبينما كنت أضع كأسني على شفتي، نظر بدهشة إلى نهاية منديل رقبته، الذي سقط من فمه عندما فتحه، ومد يده إليّ. أعطيته يدي، ثم شرب، ووضع كُفّه على عينيه وجبهته.

سألته: كيف تعيش؟

قال: لقد كنت راعيًا للأغنام، ومربيًا للماشية، ولديّ مهن أخرى إلى جانب ذلك، بعيدًا في العالم الجديد^(١).

- بعيدًا عن هنا عدة آلاف الأميال من المياه العاصفة.

- أمل أن تكون قد قمت بعمل جيد؟

(١) المقصود أستراليا. المترجم.

- لقد قمت بعمل رائع. هناك آخرون ذهبوا معي وصاروا في حال جيد أيضًا، لكن لم يصيروا مثلي. أنا مشهور بذلك.

- أنا مسرور لسماع ذلك.

- أمل أن أسمعك تقول ذلك يا ولدي العزيز.

ومن دون التوقف لمحاولة فهم تلك الكلمات أو النبوة التي قيلت بها، انحرفت إلى نقطة خطرت في ذهني للتو.

فسألته: هل رأيت يومًا الرسول الذي أرسلته إليّ منذ تعهدته بتلك الأمانة؟

- لم أره قط. لم يكن من المرجح حدوث ذلك.

«لقد جاء بأمانة، وأحضر لي ورقتين من فئة الجنيه. لقد كنت فتى فقيرًا في ذلك الوقت، كما تعلم، وبالنسبة إلى الصبي الفقير كانت تلك ثروة متواضعة. لكن، مثلما فعلت، لقد قمت أنا بعمل جيد منذ ذلك الحين، ويجب أن تسمح لي بسداد هذا المبلغ؛ يمكنك إعطاؤها لصبي فقير آخر». أخرجت حقيتي.

راقبني وأنا أضع حقيتي على الطاولة وأفتحها، وراقبني وأنا أفصل ورقتين نقديتين من فئة الجنيه عن محتوياتها. وكانت نظيفة وجديدة، فبسطتها أمامه وسلمتها له. كان لا يزال يراقبني، فوضع واحدة فوق الأخرى، وطواهما بشكل طولي، ولفهما، وأحرقهما بنار المصباح، وأسقط الرماد في الصينية.

قال حينها، بابتسامة تشبه العبوس، وعبوس يشبه الابتسامة: اسمح لي أن أكون جريئًا جدًّا، عندما أسألك كيف صرت في هذا الحال منذ أن كنا أنت وأنا وحيدين في رعشة المستنقعات؟

- كيف؟

- نعم!

أفرغ كأسه، ونهض، ووقف بجانب النار، واضعاً يده البنية الثقيلة على رف المدفأة. وضع قدمه على القضبان لتجفيفها وتدفئتها، فبدأ الحذاء المبلل يتصاعد منه البخار؛ لكنه لم ينظر إليه ولا إلى النار، بل نظر إليّ بثبات. عندها فقط بدأت أرتجف.

عندما انفصلت شفتاي، وتشكلت بعض الكلمات التي كانت بلا صوت، أجبرت نفسي على إخباره (على الرغم من أنني لم أتمكن من القيام بذلك بوضوح)، أنني قد اخترت كي أرث بعض الممتلكات.
قال: هل يمكن لشخص حقير مثلي أن يسأل أي ممتلكات؟
تلعثمت: لا أعرف.

قال: «هل يمكن لشخص حقير مثلي أن يسأل ممتلكات من؟»
تلعثمت مرة أخرى قائلاً: «لا أعرف».

قال المدان: أتساءل هل يمكنني أن أخمن مقدار دخلك منذ أن بلغت سن الرشد! من انطباعي الأول الأول الآن. خمسة؟

مع دقائق قلبي مثل مطرقة ثقيلة تعمل بشكل غير منتظم، نهضت من الكرسي، ووقفت ويدي على ظهر الكرسي، ونظرت إليه بجموح.

وتابع: فيما يتعلق بوصيك. كان يجب أن يكون هناك وصي، أو شيء من هذا القبيل، عندما كنت قاصراً. ربما محام ما. أما بالنسبة إلى الحرف الأول من اسم ذلك المحامي الآن. هل هو جيم؟

ظهرت حقيقة موقعي عليّ؛ وخيبات الأمل، والمخاطر، والعار،

والعواقب من جميع الأنواع، اندفعت في حشد كبير أثقل كاهلي وكان عليَّ أن أكافح من أجل كل نفس أتنفسه.

استطرد قائلاً: ليكن إن عميل المحامي ذاك الذي يبدأ اسمه بحرف الجيم، والذي قد يكون جاغرز، أتى عبر البحار إلى بورتسموث، وهبط هناك، وأراد أن يأتي إليك. حسناً، كيف وجدته، كما تقول الآن.

- حسناً! كيف وجدته؟ لقد كتبت من بورتسموث إلى شخص ما في لندن، للحصول على تفاصيل عنوانك.

- ما اسم هذا الشخص؟ لنقل ويميك.

لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، رغم أنها كانت لتتقذ حياتي. وقفت، بيدٍ على ظهر الكرسي واليد الأخرى على صدري، حيث بدا لي كأنني أختنق، وقفت هكذا، أنظر إليه بعنف، حتى أمسكت بالكرسي، عندما بدأت الغرفة في الارتفاع والدوران. أمسك بي، وسحبني إلى الأريكة، ووضعني على الوسائد، وركع على ركبة واحدة أمامي، وبذلك أصبح الوجه الذي أتذكره الآن جيداً، والذي أرتعد منه، قريباً جداً من وجهي.

- نعم يا ييب، أيها الفتى العزيز، لقد جعلت منك رجلاً نبيلًا! إنه أنا من فعل ذلك! أقسمت منذ ذلك الوقت، كلما كسبت جنيتها دائماً، أن الجنيه يجب أن يذهب إليك. لقد أقسمت بعد ذلك، بالتأكيد كما توقعت دائماً أن أصبح ثرياً، يجب أن تصبح أنت أيضاً ثرياً. لقد عشت في ظروف قاسية، لكي تعيش أنت بنعومة؛ لقد عملت بجهد، بحيث تترفع أنت عن العمل. لم يهم ذلك يا ولدي العزيز؟ كي تدرك التزامك تجاهي؟ أبداً. لكن لكي تعلم أن ذلك الكلب

المطارد وسط كوم الروث والذي أنقذت أنت حياته، قد رفع رأسه
عاليًا حتى يمكنه أن يصنع رجلًا نبيلًا، يا ييب، إنه أنت هذا الرجل
النبيل!

إن الكراهية التي كنت أحملها للرجل، وفزعي منه، والاشمئزاز الذي
شعرت به تجاهه، لم يكن من الممكن أن يفوقه شيء حتى لو كنت أمام
وحشًا رهيبًا.

- انظر هنا يا ييب. أنا والدك الثاني. أنت ابني، أكثر من أي ابن آخر.
لقد ادخرت المال، فقط لكي تنفقه. عندما كنت راعيًا مستأجرًا في
كوخ منعزل، لم أكن أرى أي وجوه سوى وجوه الأغنام حتى نسيت
وجوه الرجال والنساء، كنت أرى وجهك أنت. عندما كنت أسقط
سكينتي في ذلك الكوخ وأنا أتناول غدائي أو عشائي، كنت أقول:
«ها هو الصبي مرة أخرى، ينظر إليّ بينما أكل وأشرب!» رأيتك
هناك عدة مرات، واضحًا كما كنت أراك على تلك المستنقعات
الضبابية. كنت أقول في كل مرة، «يا رب عهدًا عليّ!» وأخرج في
الهواء لأقول ذلك تحت السماء المفتوحة، «عهدًا عليّ يا إلهي، إذا
حصلت على الاستقلالية والمال، سأجعل من ذلك الصبي رجلًا
نبيلًا!» وقد فعلت. انظر إليك، أيها الفتى العزيز! انظر إلى هذا
المسكن الذي يليق بسيد نبيل! سيد نبيل؟ هاه! يجب أن تتباهى
بالمال أمام النبلاء وتراهنهم، وتهزمهم!

وفي خضم انفعاله وشعوره بالانتصار، وعلمه بأنني كنت على وشك
الإغماء، لم يعلق على استقبالي لكل هذا؛ لقد كانت تلك ذرة الراحة
الوحيدة التي حصلت عليها.

«انظر هنا!» قال مستكماً حديثه، وأخرج ساعتى من جيبى، وأدار نحوه خاتماً فى إصبعى، وأنا أراجع عن لمستى كما لو كان ثعباناً، «ساعة ذهب جميلة: هذا ما يميز الرجل النبيل، كما أمل! ألماسة مرصعة بالياقوت، هذا ما يميز الرجل نبيل، كما أمل! انظر إلى المفروشات الخاصة بك. راقية وجميلة! انظر إلى ملابسك؛ لن تجد أفضل منها! وكتبك أيضاً (وهو يدير عينيه حول الغرفة) ويزايد عددها على الرفوف بالمئات! وأنت قرأتها، أليس كذلك؟ أرى أنك كنت تقرؤها عندما أتيت. هيا، هيا، هيا! يجب أن تقرأها لى، يا ولدى العزيز! وإذا كانت بلغة أجنبية لا أفهمها، فسأشعر بالفخر كما لو كنت أفهمها».

ومرة أخرى أخذ يديّ ووضعهما على شفتيه، بينما سرى الدم بارداً فى عروقي.

«لا تهتم بالحديث يا بيب» قال ذلك بعد أن وضع كُمه مرة أخرى على عينيه وجبهته، عندما جاءت النقرة فى حلقة والتي أذكرها جيداً، وكان أكثر فظاعة بالنسبة إليّ لأنه كان مخلصاً للغاية. «يمكنك أن تبقى هادئاً يا ولدى العزيز. أنت لم تتطلع بتأنٍ إلى هذا اللقاء كما فعلت أنا؛ لم تكن مستعداً له كما كنت أنا. لكن ألم تعتقد قط أنه قد يكون أنا؟».

أجبت: أوه لا، لا، لا، أبداً، أبداً!

— حسناً، كما ترى، لقد كنت أنا وحدي. لم يتدخل أحد سواى أنا والسيد جاغرز.

سألت: ألم يكن هناك أحد آخر؟

«لا»، قال بنظرة مفاجئة: مَنْ يجب أن يكون هناك أيضاً؟ أيها الولد العزيز، كم أصبحت وسيماً! هناك أعين مشرقة فى مكان ما، أليس كذلك؟ ألا توجد أعين مشرقة فى مكان ما، تفكر فيها؟

(أوه إستيلا، إستيلا!).

- سوف تكون ملكاً لك، أيها الفتى العزيز، إذا كان بالمال أن يشتريها. لا يعني ذلك أن رجلاً نبيلًا، يتمتع بمكانة جيدة مثلك، لا يمكنه الفوز بها وحده؛ ولكن المال سوف يدعمك! دعني أنهي ما كنت أقوله لك يا عزيزي. ومن ذلك الكوخ ومن عملي كأجير هناك، حصلت على المال الذي تركه لي سيدي (الذي مات وكان مداناً مثلي)، وحصلت على استقلالي وعملت بنفسي. كل شيء فعلته، فعلته من أجلك. كنت أقول يا رب، أفسده، مهما كان ما أفعله، إذا لم يكن من أجله! وازدهر كل شيء بشكل رائع. كما أوضح لك الآن، فأنا مشهور بذلك. أرسلت المال الذي تركه لي، ومكاسب السنوات القليلة الأولى إلى السيد جاغرز - كل شيء من أجلك - عندما أتى إليك لأول مرة، حسب رسالتي.

ليته لم يأت قط! ليت تركني عند دكان الحدادة، غير راضٍ على الإطلاق، وإنما سعيد مقارنة بهذا!

- وبعد ذلك، أيها الصبي العزيز، كانت مكافأة لي، انظر إليك، أن أعرف في الخفاء أنك صرت رجلاً نبيلًا. ربما كانت خيول المستعمرين الأصيلة تذر الغبار فوقى بينما كنت أسير؛ ماذا أقول؟ أقول لنفسي: «أنا أصنع رجلاً أفضل منكم بكثير!» عندما يقول أحدهم للآخر: لقد كان سجيناً منذ سنوات قليلة، وهو الآن مواطن جاهل، مع أنه محظوظ، فماذا أقول؟ أقول لنفسي: إذا لم أكن رجلاً نبيلًا، ولم أتعلم بعد، فأنا لذي ذلك. كل ما تمتلكون هو الأسهم والأراضي؛ من منكم يملك رجلاً نبيلًا نشأ وترعرع في لندن؟ بهذه الطريقة صمدت. وبهذه الطريقة جعلته ثابتاً في ذهني بأنني ساتي يوماً ما وأرى ابني وأعرّفه بنفسي على أرضه.

وضع يده على كتفي. ارتجفت من فكرة أنه على الرغم من أي شيء أعرفه، فقد تكون يده ملطخة بالدماء.

- ليس من السهل يا بيب أن أترك المكان هناك، كما أن المكان ليس آمنًا هنا. لكنني تمسكت بالفكرة، وكلما كان الأمر أصعب، كلما صمدت أكثر، لأنني كنت مصممًا، وعقلي عازم على الأمر، وأخيرًا فعلتها. يا ولدي العزيز، لقد فعلتها!

حاولت جمع أفكاري لكنني ذهلت. طوال الوقت، بدا لي أنني أهتم بالريح والمطر أكثر من اهتمامه به؛ وحتى الآن لم أتمكن من فصل صوته عن تلك الأصوات، رغم أنها عالية وصوته صامت.

«أين ستضعني؟» سأل على الفور. «يجب أن تضعني في مكان ما، يا ولدي العزيز».

سألت: للنوم؟

فأجاب: نعم. نومًا طويلًا وهادئًا. لأن البحر قد قذفني وغسلني لشهور وشهور.

قلت وأنا أنهض من الأريكة: صديقي ورفيقي غائب؛ يجب أن يكون لديك غرفته.

- لن يعود غدًا؛ أليس كذلك؟

أجبت: «لا» بشكل شبه آلي، على الرغم من بذل قصارى جهدي؛ «ليس الغد».

قال وهو يخفض صوته ويضع إصبعه الطويلة على صدري بطريقة مؤثرة: «لأنه انظر هنا يا فتى، الحذر ضروري».

- ماذا تعني بهذا؟ أي حذر؟

- يا إلهي، من الموت!

- الموت؟

- لقد نُفيت هناك مدى الحياة، وفي العودة هلاكي. لقد عاد الكثيرون في السنوات الأخيرة، ومن المؤكد أنني سأُشْنَق إذا أُمسِك بي.

لم تكن هناك حاجة إلى شيء سوى هذا؛ هذا الرجل التعس، بعد أن أثقلني بأغلاله الذهبية والفضية لسنوات، خاطر بحياته كي يأتي إليّ، وتصير حياته بين يدي! لو كنت أحببته بدلاً من أن أكرهه؛ لانبجذبت إليه من شدة الإعجاب والمودة، بدلاً من أن أتقلص منه من شدة الاشمئزاز؛ لم يكن من الممكن أن يكون الأمر أسوأ. على العكس من ذلك، كان من الممكن أن يكون أفضل، لأن الحفاظ على حياته كان سيخاطب قلبي بشكل طبيعي ولطيف.

كان أول اهتماماتي هو إغلاق المصارع، بحيث لا يمكن رؤية أي ضوء من الخارج، ثم إغلاق الأبواب وتثبيتها بإحكام. وبينما كنت أفعل ذلك، وقف عند الطاولة يشرب الروم ويأكل البسكويت؛ وعندما رأيته منهمكاً على هذا النحو، رأيت المُدان الخاص بي في المستنقعات يتناول وجبته مرة أخرى، بدا لي تقريباً كما لو كان عليه أن ينحني للأسفل الآن، ليبرد حديد ساقه.

عندما دخلت غرفة هربرت، وأغلقت أي اتصال آخر بينها وبين الدرج باستثناء الغرفة التي جرت فيها محادثتنا، سألتها إذا كان يرغب في الذهاب إلى النوم. قال نعم، لكنه طلب مني بعضاً من «ثياب الرجل النبيل المنزلية» ليرتديها في الصباح. أخرجتها، وأعددتها له، وتجمّد دمي مرة

أخرى عندما أمسكني بكلتا يدي مرة أخرى ليتمنى لي ليلة سعيدة.

ابتعدت عنه، دون أن أعرف كيف فعلت ذلك، وحركت النار في مدفأة الغرفة التي كنا فيها معًا، وجلست بجوارها، خائفًا من الذهاب إلى النوم. لمدة ساعة أو أكثر، بقيت مذهولًا جدًا إلى درجة أنني لم أستطع التفكير؛ ولم يكن الأمر كذلك إلا بعد أن بدأت بالتفكير، حتى بدأت أعرف تمامًا كم كنت محطماً، وكيف تحطمت السفينة التي أبحرت فيها. نوايا الأنسة هافيشام تجاهي، كانت مجرد حلم؛ إستيلا ليست مقسومة لي؛ لقد عانيت فقط في منزل ساتيس كنوع من الرفاهية، شوكة في حلق الأقارب الجشعين، ونموذج بقلب ميكانيكي للتدرب عليه عندما لم يكن هناك اختيارات أخرى في تناول اليد؛ كانت تلك أول أنواع الآلام التي مررت بها. لكن، الألم الأشد والأعمق على الإطلاق، هو أنه بسبب هذا المدان، المذنب بارتكاب جرائم لا أعرفها، والمعرض لإخراجه من تلك الغرفة التي جلست فيها أفكر، وشتقه عند باب أولد بيلي، قد هجرت جو. لم أكن لأعود إلى جو الآن، ولم أكن لأعود إلى بيدي الآن، لأي اعتبار كان؛ لأن ببساطة، على ما أعتقد، إحساسي بسلوكي الخسيس تجاههم كان أشد من كل اعتبار. لا يمكن لأي حكمة على وجه الأرض أن تمنحني الراحة التي كان ينبغي أن أستمدها من بساطتهم وإخلاصهم؛ لكنني لم يكن في إمكاني أبداً التراجع عما فعلته.

وفي كل هبوب للرياح وهطول للأمطار، كنت أسمع المطارين مرتين، كان في إمكاني أن أقسم إنه كان هناك طرقٌ وهمسٌ على الباب الخارجي. مع هذه المخاوف، بدأت أتذكر أو أتخيل أنني تلقيت تحذيرات غامضة من اقتراب هذا الرجل. لقد مررت لأسابيع في الشوارع

بوجوه كنت أعتقد أنها تشبه وجهه. وأن هذه الأمثلة قد ازدادت عددًا عندما اقترب هو إلى المدينة عن طريق البحر. أن روحه الشريرة قد أرسلت بطريقة أو بأخرى هؤلاء الرسل إليّ، وأنه الآن في هذه الليلة العاصفة كان يفي بوعدده، بوجوده معي.

وسط هذه الأفكار المزدحمة، جاءني التفكير بأنني رأيته بعيني الطفولية رجلًا عنيفًا إلى حد اليأس؛ وأنني سمعت ذلك المدان الآخر يكرر أنه حاول قتله؛ أنني رأيته يسقط في الخندق وهو يمزق ويقاقل مثل الوحش البري. ومن خلال هذه الذكريات، أمام نار المدفأة تكوّن داخلي شعور أشبه بالرعب من أنه قد لا يكون من الآمن البقاء معه هناك في جوف هذا الليل الثائر المنعزل. اتسع الشعور حتى ملأ الغرفة، ودفعني إلى أخذ شمعة والدخول وإلقاء نظرة على العبء المخيف الذي لديّ.

كان قد لف منديلًا حول رأسه، وكان وجهه ثابتًا ومتجهّمًا في أثناء نومه. لكنه كان نائمًا، وبهدوء أيضًا، رغم أنه كان يحمل مسدسًا على وسادته. بعد تأكدي من ذلك، أخرجت المفتاح بلطفٍ من خارج باب غرفته، وأحكمت إغلاقه عليه قبل أن أجلس مرة أخرى بجوار النار. تدريجيًا انزلقت من الكرسي واستلقيت على الأرض. عندما استيقظت دون أن أفارق في نومي إدراكي بمدى بؤسي، كانت ساعات كنائس الحي الشرقي تدق الخامسة، وانطفأت الشموع، وخمدت النيران، وعززت الرياح والأمطار من الظلام الأسود الكثيف.

هذه هي نهاية المرحلة الثانية من آمال ييب.

الفصل الأربعون

من حسن حظي أنني اضطررت إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة (قدر المستطاع) لضمان سلامة زائري الرهيب؛ لأن هذه الفكرة كانت تلح عليّ عندما استيقظت، إلى درجة أنها أبقت أفكارًا أخرى بعيدًا في حشد فوضوي.

كانت استحالة إيقائه مختبئًا في مسكني أمرًا واضحًا. لا يمكن القيام بذلك، ومحاولة القيام بذلك ستثير حتمًا الشكوك. صحيح أنه لم يعد لديّ منتقم في خدمتي الآن، ولكن اعتنت بي امرأة عجوز مشاغبة، تساعدها في ذلك ابنة أختها، وكانت امرأة قادرة لكن نشطة، والاحتفاظ بسرية الغرفة عنهم سيكون بمنزلة دعوة للفضول والمبالغة. كانت كلتاها تتمتعان بنظرٍ ضعيف، وهو ما أرجعته منذ فترة طويلة إلى نظرهما المستمر خلال ثقب المفاتيح، وكائنا دائمًا نظهران في الأنحاء عند عدم وجود حاجة إليهما؛ في الواقع كانت هذه هي الصفة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليهما فيها إلى جانب السرقة. وحتى لا أثير الغموض مع هؤلاء الأشخاص، قررت أن أعلن في الصباح أن عمي قد جاء بشكلٍ غير متوقع من الأرياف.

قررت اتّباع هذا المسار بينما كنت لا أزال أتلمس طريقي في الظلام بحثًا عن إضاءة. لم أعثر عليها فخرجت إلى السكن المجاور لإحضار الحارس إلى هنا ومعه فانوسه. الآن، بينما كنت أتلمس طريقي إلى أسفل

الدرج المظلم، سقطت فوق شيء ما، وكان هذا الشيء رجلاً ينحني في الزاوية.

نظرًا إلى أن الرجل لم يُجب عندما سألته عما كان يفعله هناك، لكنه تملّص من لمستي في صمت، ركضت إلى السكن وحشت الحارس على الحضور بسرعة؛ وأخبرته بالحادث في طريق العودة. كانت الريح عاتية للغاية، ولم نهتم بتعريض ضوء الفانوس للخطر من خلال إعادة إشعال المصابيح المطفأة على الدرج، لكننا فحصنا الدرج من الأسفل إلى الأعلى، ولم نجد أحدًا هناك. ثم خطر لي أنه من الممكن أن يكون الرجل قد تسلل إلى غرفتي؛ لذا، أشعلت شمعتي من فانوس الحارس، وتركته واقفًا عند الباب، وتفحصتهم بعناية، بما في ذلك الغرفة حيث ينام ضيفي الرهيب. كان كل شيء هادئًا، وبالتأكيد لم يكن هناك أي رجل آخر في تلك الغرفة.

أزعجتني فكرة أن يكون هناك متربص على الدرج، في تلك الليلة دون كل الليالي، وسألت الحارس، عن فرصة الحصول على بعض التفسيرات المشجعة عندما أعطيته مشروبًا عند الباب، عما إذا كان قد أدخل من بوابته أي رجل كان يتناول طعامه بالخارج؟ قال نعم؛ في أوقات مختلفة من الليل، ثلاثة. كان أحدهما يسكن في فاونتن كورت، بينما يعيش الاثنان الآخران في لين، وقد رأهم جميعًا وهم يعودون إلى منازلهم. ومرة أخرى، فإن الرجل الآخر الوحيد الذي كان يسكن المجموعة التي تشكّل غرفتي جزءًا منها، كان في الريف لعدة أسابيع، ومن المؤكد أنه لم يعد في الليل، لأننا رأينا بابه مغلقًا بإحكام ونحن في طريقنا إلى الطابق العلوي. قال الحارس وهو يعيد إليّ كأسِي: كانت الليلة سيئة للغاية يا سيدي،

وما رأيت إلا عددًا قليلًا جدًا من الأشخاص عند بوابتي. بالإضافة إلى هؤلاء السادة الثلاثة الذين ذكرتهم، لا أذكر شخصًا آخر منذ الساعة الحادية عشرة تقريبًا، عندما سألت شخص غريب عنك.

تمتت: عمي.

- نعم. هل رأيته يا سيدي؟

- نعم. نعم بالتأكيد.

- وكذلك الرجل الذي معه؟

«الشخص الذي معه!» كررت.

أجاب الحارس: لقد افترضت أن الشخص الآخر معه. توقف الرجل عندما توقف هو ليسألني عنك، ومضى الرجل في طريقه عندما مضى هو في طريقه.

- أي نوع من الأشخاص؟

لم يلاحظ الحارس ذلك بشكلٍ خاص؛ قال إنه عاملٌ؛ حسب اعتقاده، كان يرتدي ملابس رملية اللون، تحت معطف داكن. لقد سلط الحارس الضوء على الأمر أكثر مني، وبطبيعة الحال؛ ليس لديَّ سبب لإعطاء الأمر أكبر من حجمه.

وعندما تخلّصت منه، وهو الأمر الذي رأيت أنه من الجيد أن أفعله دون إطالة التوضيح، اضطرب ذهني كثيرًا من هذين الطرفين معًا. في حين كان من السهل فصلهما عن بعضهما، على سبيل المثال، ربما شخص ما كان يتعشّى في الخارج أو في منزله، ولم يقترب من بوابة الحارس هذا، قد ضلّ طريقه إلى درجي ونام هناك، وربما يكون زائري المجهول قد فعل

ذلك حين جلب شخصاً معه ليدلّه على الطريق، ومع ذلك، هذان الظرفان معاً، كانا بمنزلة نمطٍ مزعجٍ لشخصٍ يميل إلى عدم الثقة والخوف وهو ما جعلتني إياه كل تلك التغيرات التي حدثت خلال بضع ساعات فقط. أشعلت نار المدفأة، التي اتّقدت بشعلة باهتة في ذلك الوقت من الصباح، وغلبنى النعاس أمامها. يبدو كأنني كنت نائماً طوال الليل عندما كانت الساعة تشير إلى السادسة. وبما إنه كان هناك ساعة ونصف كاملة بيني وبين ضوء النهار، فقد غفوت مرة أخرى؛ الآن، استيقظت مضطرباً، مع محادثات مطولة حول لا شيء، في أذني؛ الآن، صوت الريح كالرعد في المدخنة؛ وأخيراً، دخلت في نوم عميقٍ أيقظني منه ضوء النهار مجفلاً. طوال هذا الوقت لم أتمكن قط من التفكير في وضعي الخاص، ولا يمكنني القيام بذلك بعد. لم تكن لديّ القدرة على الاهتمام بذلك. لقد شعرت بالاكئاب والحزن الشديدين، ولكن بطريقة مشوّشة في المجل. أما فيما يتعلق بوضع أي خطة للمستقبل، فكنت أحتاج إلى وقتٍ طويل. عندما فتحت المصاريح ونظرت إلى الصباح النائر الرطب، ذي اللون الرصاصي؛ عندما كنت أمشي من غرفة إلى أخرى؛ عندما جلست مرتجفاً مرة أخرى أمام النار منتظراً ظهور الخادمة؛ فكرت في مدى البؤس الذي أصابني، ولكنني بالكاد أعرف السبب، أو كم من الوقت كنت على هذا النحو، أو في أي يوم من أيام الأسبوع كنا، أو حتى من أكون.

أخيراً، دخلت المرأة العجوز وابنة أختها، وكان رأس الأخيرة لا يمكن تمييزه بسهولة عن مكنستها المتربة، وأثارتها الدهشة عند رؤيتي أمام النار. وأخبرتني كيف جاء عمي ليلاً وأنه نائم، وأنه يجب تعديل تحضيرات الإفطار وفقاً لذلك. ثم اغتسلت وارتديت ملابسني بينما كانتا

تقلباً الأثاث، وتشيران الغبار؛ وهكذا، في نوعٍ من الحلم أو الاستيقاظ في أثناء النوم، وجدت نفسي جالساً بجوار النار مرة أخرى، أنتظره -هو- كي يأتي لتناول الإفطار.

ومع مرور الوقت، فُتح بابهُ وخرج. لم أتمكن من حمل نفسي على رؤيته، واعتقدت أن مظهره أسوأ في وضح النهار.

قلتُ بصوتٍ منخفضٍ وهو يجلس على مقعده عند المائدة: أنا لا أعرف حتى، بأي اسم سأناديك. لقد أعلنت أنك عمي.

- هذا كل شيء، أيا ولدي العزيز! نادني بعمي.

- أعتقد أنك اتخذت اسماً ما على متن السفينة؟

- نعم يا ولدي العزيز، لقد أخذت اسم بروفيس.

- هل تنوي الاحتفاظ بهذا الاسم؟

- نعم، يا ولدي العزيز، إنه جيد مثل غيره، إلا إذا كنت ترغب في اسم آخر.

«ما هو اسمك الحقيقي؟» سألتَه بصوتٍ هامسٍ.

أجاب بنفس النبرة: ماجويتش، واسمي بالعماد هايل.

- ماذا نشأت لتكون؟

- شخص وضيع، يا ولدي العزيز.

أجاب بجدية تامة، واستخدم الكلمة كما لو أنها تشير إلى مهنة ما.

«عندما أتيت إلى تمبل الليلة الماضية...» قلت، وتوقفت لأتساءل

عما إذا كان من الممكن أن يكون ذلك بالفعل الليلة الماضية، والذي بدا أنه منذ فترة طويلة جداً.

- نعم يا ولدي العزيز؟
- عندما دخلت عند البوابة وسألت الحارس عن الطريق إلى هنا، هل كان معك أحد؟
- معي؟ لا يا ولدي العزيز.
- ولكن كان هناك شخص ما هناك؟
- قال بارتياحٍ: لم أهتم بالأمر بشكلٍ خاص، لأنني لم أكن أعرف المكان. لكنني أعتقد أنه كان هناك شخص آخر، جاء معي.
- هل أنت معروف في لندن؟
- «لا أتمنى ذلك!» قال وهو ينفض رقبته بسبابته مما جعلني أشعر بالسخونة والغثيان.
- هل كنت معروفًا في لندن ذات مرة؟
- ليس كثيرًا، يا ولدي العزيز، كنت في الأقاليم أغلب الأحيان.
- هل حُوكمت في لندن؟
- «في أي وقت؟» قال بنظرة حادة.
- آخر مرة.
- أومأ، «تعرفت على السيد جاغرز حينها، جاغرز كان يدافع عني».
- كان على شفتي أن أسأله عن السبب الذي حوِّك من أجله، لكنه تناول سكينًا، ولوّح بها قائلاً: «وما فعلته دفعت ثمنه!» وانهمك في إفطاره.
- كان يأكل بنهم كريحٍ جدًّا، وكانت جميع أفعاله فظةً وصاخبةً وشرهة.
- لقد خذلته بعض أسنانه منذ أن رأيته يأكل في المستنقعات، وبينما كان يقلب طعامه في فمه، ويدبر رأسه جانبًا ليجلب أقوى أنيابه إليه، بدا بشكلٍ

رهيبٍ مثل كلبٍ عجوزٍ جائع. إذا كنت قد بدأت بأي شهية، فقد بدّدها، وجلست كما أنا، نافرًا منه نفورًا لا يمكن التغلب عليه، وأنظر إلى مفرش المائدة بكآبة.

قال كنوعٍ من الاعتذار المهذب عندما أنهى وجبته: أنا شره للغاية يا ولدي العزيز، لطالما كنت كذلك. لو كان في إمكاني ألا أكون كذلك، ربما وقعت في مشكلات أقل. وبالمثل، يجب أن أتناول دخاني. عندما عُينت لأول مرة كراعٍ في الجانب الآخر من العالم، كان اعتقادي أنني سأتحوّل إلى خروف مجنون، إذا لم أدخن.

عندما قال ذلك، نهض عن المائدة، ووضع يده في صدر معطفه الخشن الذي كان يرتديه، وأخرج غليونًا أسود قصيرًا، وحفنة من التبغ السائب من النوع الذي يسمى نيجرو هيد. وبعد أن ملأ غليونه، أعاد التبغ الفائض مرة أخرى، كما لو أن جيبه كان درجًا. بعد ذلك، أخذ فحمًا حيًا من النار بالملقط، وأشعل غليونه، ثم استدار على بساط الموقد وظهره للنار، وقام بحركاته المفضّلة وهي مد كلتا يديه للإمساك بيدي.

قال وهو يحرك يدي إلى أعلى وإلى أسفل في يده وهو ينفث دخان غليونه: وهذا هو الرجل النبيل الذي صنّعه! الحقيقي الأصلي! يسعدني أن أنظر إليك يا بيب، كل ما أطلبه هو أن أقف هكذا وأنظر إليك يا ولدي العزيز!

حرّرت يدي بأسرع ما يمكن، ووجدت أنني بدأت أركز بتمهلٍ في التفكير في حالتي. ما كنت مقيدًا به ومدى ثقله، أصبح واضحًا بالنسبة إليّ عندما سمعت صوته الأَجَش، وجلست أنظر إلى رأسه الأَصْلَع المَجْعَد وشعره الرمادي اللامع على الجانبين.

- لا ينبغي لي أن أرى سيدي النبيل وهو يطأه بقدمه في وحل الشوارع؛ يجب ألا يكون هناك طين على حذائه. يجب أن يكون لدى سيدي النبيل خيول يا بيب! خيول ليركبها، وخيول ليقودها، وخيول لخدمه ليركبها ويقودها أيضًا. هل يمتلك المستعمرون خيولهم (خيول أصيلة، يا إلهي!) وليس سيدي اللندني النبيل؟ لا. سنريهم زوجًا آخر من الأحذية غير ذلك يا بيب؛ أليس كذلك؟ أخرج من جيبه محفظة ضخمة سميكة مليئة بالأوراق، وألقاها على الطاولة.

«هناك شيء يستحق الإنفاق في هذه المحفظة، يا عزيزي. هذا المال ملكك. كل ما أملكه ليس ملكي؛ إنه ملكك. لا تخف، هناك المزيد من حيث أتى ذلك. لقد أتيت إلى هنا لأرى سيدي النبيل ينفق أمواله كرجل نبيل. سيكون هذا من دواعي سروري. سيكون من دواعي سروري أن أراه يفعل ذلك. ويقضي عليكم جميعًا!» وانتهى به الأمر وهو ينظر حول الغرفة ويفرقع بأصابعه بصوت عالٍ، «يقضي عليكم جميعًا، بدءًا من القاضي في شعره المستعار، وحتى المستعمّر الذي يثير الغبار، سأظهر لكم رجالًا أفضل منكم جميعًا!».

«توقف!» قلت وأنا في نوبة من الخوف والكراهية: «أريد أن أتحدث إليك. أريد أن أعرف ما يجب القيام به. أريد أن أعرف كيف ستبتعد عن الخطر، وإلى متى ستبقى، وما هي مشاريعك».

«انظر هنا يا بيب» قال وهو يضع يده على ذراعي بنبرة مفاجئة متغيرة وهادئة. «أولاً، وقبل كل شيء، انظر هنا. لقد نسيت نفسي منذ نصف دقيقة. ما قلته كان وضيعًا. هذا ما كان عليه؛ وضيعًا. انظر هنا يا بيب.

تجاهل الأمر. لن أكون وضيعاً هكذا».

«أولاً» استأنفت كلامي وأنا نصف متأوّه، «ما هي الاحتياطات التي يمكن اتخاذها ضد التعرف عليك والقبض عليك؟».

قال بنفس النبرة السابقة: لا يا ولدي العزيز، دعنا لا نبدأ هكذا. دَعِ الوضاعة تذهب أولاً. لم يستغرق الأمر الكثير من السنوات لأصنع منك رجلاً نبيلًا، دون أن أعرف ما يستحقه من كل ذلك. انظر هنا يا بيب. كنت وضيعاً. هذا ما كنت عليه؛ وضيعاً. تجاهل الأمر يا ولدي العزيز.

لقد دفعني بعض الإحساس بالسخرية القائمة إلى الضحك المضطرب، عندما أجبّت: لقد تجاهلت الأمر، بحق السماوات، لا تضرب على وتر واحد هكذا!

«نعم، ولكن انظر هنا» أصرّ، «يا ولدي العزيز، أنا لم آتِ كل هذه المسافة، من أجل أن أكون وضيعاً. الآن، استمر يا ولدي العزيز. لقد كنت تقول...».

- كيف بقي نفسك من الخطر الذي قد يصيبك؟

- حسناً يا ولدي العزيز، الخطر ليس كبيراً. مع عدم إخبار أحد بقدومي، فإن الخطر ليس كبيراً. هناك جاغرز، وهناك ويميك، وهناك أنت. ليس هناك أحد آخر لإبلاغه؟

سألت: ألا يوجد أي شخص يمكن أن يتعرف عليك في الشارع؟

«حسناً»، أجاب، «ليس هناك الكثير، ولا أنوي حتى الآن الإعلان عن نفسي في الصحف باسم هـ.م العائد من مدينة بوتاني باي؛ بعد سنين طوال وهل من مستفيد؟ ومع ذلك، انظر هنا يا بيب. لو كان الخطر أكبر بخمسين مرة، لكنت أتيت لرؤيتك على الرغم من ذلك أيضاً».

- وإلى متى ستبقى؟

«إلى متى؟» قال وهو يأخذ غليونيه الأسود من فمه، ويدلي فكه وهو يحدق إلى وجهي، «أنا لن أذهب إلى هناك مرة أخرى، لقد عدت بلا رجعة».

«أين ستعيش؟» قلت: ماذا أفعل بك؟ أين ستكون آمنًا؟

أجاب: يا ولدي العزيز، هناك باروكات مقنعة يمكن شراؤها بالمال، وهناك بودرة شعر، ونظارات، وملابس سوداء، وسراويل قصيرة وما إلى ذلك. لقد فعلها الآخرون بأمان من قبل، وما فعله الآخرون من قبل، يمكن القيام به مرة أخرى. أما بالنسبة إلى مكان وكيفية العيش، يا ولدي العزيز، أعطني آراءك الخاصة حول هذا الموضوع.

قلت: أنت تأخذ الأمر بسلاسة الآن، ولكنك كنت جادًا للغاية الليلة الماضية، عندما أقسمت إنه الموت.

قال وهو يعيد غليونيه إلى فمه: لذلك أقسم إنه الموت، والموت شنفًا، في الشارع المفتوح وليس بعيدًا عن هنا، عليك أن تفهم تمامًا أن الأمر كذلك. ماذا بعد ذلك، عندما يتم ذلك؟ ها أنا ذا. العودة الآن ستكون سيئة بقدر البقاء هنا، بل أسوأ. علاوة على ذلك، يا بيب، أنا هنا، لأنني قصدت الخير لك منذ سنوات وسنوات. فيما يتعلق بما أنا مقدم عليه، فأنا طائر عجوز الآن، كما أقدمت على كل أنواع الفخاخ منذ أن كنت صغيرًا، ولا أخشى أن أحط على فزاعة. إذا كان هناك موت مختبئ داخلها، فهذا مصيري، دعه يخرج وسأواجهه، وعندها سأومن به وليس قبل ذلك. والآن اسمح لي أن ألقى نظرة على رجلي النبل مرة أخرى.

ومرة أخرى، أمسكني بكلتا يدي ونظر إليَّ بجوٍّ من الإعجاب

بملكيتيه: كان يدخن بقدرٍ كبيرٍ من الرضا عن النفس طوال الوقت.

بدا لي أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً أفضل من أن أوّمن له سكناً هادئاً بالقرب مني، والذي قد يحصل عليه عندما يعود هربرت: وهو ما كنت أتوقعه خلال يومين أو ثلاثة أيام. كان من الواضح بالنسبة إليّ أن الثقة بالسر لهربرت هي ضرورة لا مفرّ منها، حتى إن تغاضيت عن الراحة الهائلة التي سأحصل عليها من مشاركته معه. لكن الأمر لم يكن واضحاً على الإطلاق بالنسبة إلى السيد بروفيس (قررت أن أدعوه بهذا الاسم)، الذي احتفظ بموافقته على مشاركة هربرت حتى يراه ويشكل حكماً إيجابياً بناء على مظهره. قال وهو يخرج أنجياً أسود صغيراً مشحماً ومغلقاً بمشبكٍ من جيبه: وحتى حينها يا عزيزي، سنجعله يقسم.

إن القول بأن ولي نعمتي الرهيب حمل معه هذا الكتاب الأسود الصغير أينما ذهب فقط ليقسم الناس عليه في حالات الطوارئ، سيكون بمنزلة تصريح لم أتمكن من إثباته تماماً؛ لكن يمكنني أن أقول إنني لم أعلم قط أنه استخدمه أي استخدام آخر. بدا الكتاب نفسه كأنه سُرق من إحدى محاكم العدل، وربما كانت معرفته بسوابقه، بالإضافة إلى خبرته الخاصة في هذا الصدد، منحه الاعتماد على قواه كنوعٍ من التميمة أو التعويذة القانونية. عندما أخرجه من جيبه أول مرة في هذه المناسبة، تذكرت كيف جعلني أقسم بالأمانة في باحة الكنيسة منذ فترة طويلة، وكيف وصف نفسه الليلة الماضية بأنه يقسم دائماً على قراراته في عزلته. وبما أنه كان يرتدي حالياً بذلة بحرية فضفاضة، حيث بدا كما لو كان لديه بعض البيغاوات والسيجار لبيعها، فقد ناقشت معه بعد ذلك الزي الذي يجب أن يرتديه. كان يعتز بإيمانٍ غير عادي بفضائل «السر اويل

القصيرة» كوسيلة للتكرار، وكان في ذهنه أن يرسم لنفسه زياً من شأنه أن يجعل منه شيئاً ما بين رجل الدين وطبيب الأسنان. لقد تمكنت بصعوبة كبيرة من إقناعه بفكرة ارتداء زي أشبه بزي مزارع ثري؛ ورتبنا له أن يقص شعره، ويضع القليل من البودرة. وأخيراً، بما أنه لم يكن قد رأى بعد الخادمة أو ابنة أختها، كان عليه أن يظل بعيداً عن أنظارهم حتى يغير ملابسه.

قد يبدو من السهل اتخاذ قرار بشأن هذه الاحتياطات؛ لكن في ظل حالتي المذهولة، إن لم أقل المشتتة، استغرق الأمر وقتاً طويلاً، إلى درجة أنني لم أخرج لقضاء حاجاتي حتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر. كان عليه أن يظل محبوبساً في الغرف في أثناء غيابي، ولم يكن عليه أن يفتح الباب بأي حال من الأحوال.

نظراً إلى وجود سكن محترم، على حد علمي، في شارع إسيكس، يطل الجزء الخلفي منه على تمبل، وكان على مسافة قريبة من نافذتي تقريباً، فقد قمت أولاً بالذهاب إلى ذلك المنزل، وكنت محظوظاً جداً لأنني تمكنت من تأمين السكن الثاني لعمي، السيد بروفيس. ثم انتقلت من متجر إلى متجر، وقمت بعمليات الشراء اللازمة لتغيير مظهره. بعد إتمام هذا الأمر، توجهت إلى ليتل برستن، لأسباب تتعلق بي. كان السيد جاغرز جالساً على مكتبه، ولكن عندما رأيته أدخل، نهض على الفور ووقف أمام النار.

قال: الآن يا بيب، كُن حذراً.

«سأفعل يا سيدي» أجبت. لأنني عندما أتيت كنت أفكر جيداً فيما سأقوله.

قال السيد جاغرز: لا تُلْزِم نفسك، ولا تلزم أحدًا. أنت تفهم... أيًا كان. لا تخبرني بأي شيء؛ لا أريد أن أعرف أي شيء؛ أنا لست فضوليًا. بالطبع رأيت أنه يعرف أن الرجل قد أتى.

قلت: أريد فقط يا سيد جاغرز أن أؤكد لنفسني أن ما قيل لي صحيح. ليس لديّ أمل في أن يكون هذا غير صحيح، ولكن على الأقل يمكنني التحقق منه.

أومأ السيد جاغرز برأسه قائلاً: «ولكن هل قلت «قيل لك» أم «أبلغت به»؟» سألني، ورأسه على جانب واحد، ولا ينظر إليّ، بل ينظر بإنصاتٍ إلى الأرض، «قيل» قد تعني التواصل اللفظي؛ لا يمكنك التواصل لفظيًا مع رجل في نيو ساوث ويلز، كما تعلم».

– سأقول «أبلغت به» يا سيد جاغرز.

– جيد.

– لقد أبلغني شخص يُدعى هابيل ماجويتش، أنه هو ولي نعمتي الذي لم أكن أعرفه منذ فترة طويلة.

قال السيد جاغرز: هذا هو الرجل في نيو ساوث ويلز.

قلت: هو وحده؟

قال السيد جاغرز: هو وحده.

– أنا لست غير معقول يا سيدي، إلى درجة أنني أعتقد أنك مسؤول على الإطلاق عن أخطائي واستنتاجاتي الخاطئة؛ لكنني كنت أظن دائمًا أنها الأنسة هافيشام.

«كما تقول يا بيب» رد السيد جاغرز، وهو يدير عينيه نحوي ببرود، ويعض على سبابته، «أنا لست مسؤولاً على الإطلاق عن ذلك».

«ومع ذلك كان الأمر يبدو كذلك يا سيدي» توسلت بقلب حزين.
قال السيد جاغرز وهو يهز رأسه، ويللم أطراف معطفه: «ليس هناك
أي دليل يا بيب، لا تأخذ الأشياء بمظهرها؛ خذ كل شيء بالأدلة. لا توجد
قاعدة أفضل».

«ليس لديّ المزيد لأقوله» قلت، مع تنهيدة، بعد أن وقفت صامتاً
لبعض الوقت: «لقد تحققت من معلوماتي، وهذا هو مرادي».

قال السيد جاغرز: وبعد أن كشف ماجويتش -في نيو ساوث ويلز-
عن نفسه أخيراً، ستدرك يا بيب مدى شدة التزامي دائماً بالحقيقة التامة
طوال تعاملتي معك. لم يكن هناك أدنى خروج عن خط الحقيقة التامة.
هل أنت على علم بذلك تمامًا؟
- تمامًا يا سيدي.

- لقد أبلغت ماجويتش -في نيو ساوث ويلز- عندما كتب لي لأول
مرة -من نيو ساوث ويلز- محذراً من أنه يجب ألا يتوقع مني أن
أنحرف أبداً عن خط الحقيقة الكاملة. كما أبلغته بتحذير آخر.
لقد بدا لي أنه قد ألمح بشكلٍ غامضٍ في رسالته إلى فكرة بعيدة
كانت تراوده عن رؤيتك هنا في إنجلترا. لقد حذّرتني من أنني لن
أسمع المزيد عن هذا الأمر؛ وأنه من غير المحتمل على الإطلاق
أن يحصل على عفو؛ وأنه سيظل مغترباً طيلة حياته الطبيعية؛ وأن
حضوره إلى هذا البلد سيكون بمنزلة جناية، وسوف يعرضه لعقوبة
القانون القصوى.

قال السيد جاغرز وهو ينظر إليّ بنظرة شديدة: لقد أعطيت ماجويتش
هذا التحذير؛ لقد كتبت ذلك إلى نيو ساوث ويلز. فقد اهتدى به لا شك.

قلت: لا شك.

«لقد أبلغني ويميك» تابع السيد جاغرز، وهو لا يزال ينظر إليّ نظرة شديدة، «أنه تلقى خطاباً، مؤرخاً في بورتسموث، من مستعمر يُدعى بروفيس، أو...».

اقترحت: أو بروفيس.

- أو بروفيس... شكراً لك يا بيب. ربما هو بروفيس؟ ربما تعلم أنه بروفيس؟

قلت: نعم.

- أنت تعلم أنه بروفيس. خطاباً، مؤرخاً في بورتسموث، من مستعمر يُدعى بروفيس، يطلب منه تفاصيل عنوانك، نيابةً عن ماجويتش. لقد أرسل إليه ويميك التفاصيل، كما أفهم، عن طريق البريد. ربما من خلال بروفيس تلقيت شرح ماجويتش في نيو ساوث ويلز؟ أجبته: تلقيت الشرح عبر بروفيس.

قال السيد جاغرز وهو يمد يده: يوم سعيد يا بيب، سعدت برؤيتك. بالكتابة بالبريد إلى ماجويتش - في نيو ساوث ويلز - أو بالتواصل معه عبر بروفيس، يُرجى الإشارة إلى أنه سترسل تفاصيل وقوائم حسابنا الطويل إليك، مع الرصيد؛ لأنه لا يزال هناك رصيد متبقٍ. يوم سعيد يا بيب!

تصافحنا ونظر إليّ بشدة إلى أن خرجت. استدرت نحو الباب، وكان لا يزال ينظر إليّ بشدة، بينما بدا أن الرجلين الحقيرين على الرف يحاولان فتح جفنيهما، ويقولان بحنجرتيهما المتفتحة، «يا له من رجل!».

كان ويميك خارج المكتب، حتى وإن كان متواجداً، فلم يكن في

إمكانه فعل أي شيء من أجلي. عدت مباشرة إلى تمبل، حيث وجدت بروفيس الرهيب يشرب مشروب الروم والماء ويدخن النيجرو هيد، بأمان.

في اليوم التالي، وصلت جميع الملابس التي طلبتها إلى المنزل، وارتداها بروفيس. مهما كان ما يرتديه، كان يجعله (بدا لي ذلك بخيبة أمل) أقل شأنًا مما كان عليه من قبل. في اعتقادي، كان هناك شيء داخله جعل من محاولة إخفائه أمرًا ميثوسًا منه. كلما ألبسته أكثر وألبسته أفضل، بدا مثل الهارب المتراخي في المستنقعات. كان هذا التأثير على خيالي القلق يرجع جزئيًا، بلا شك، إلى وجهه القديم وأسلوبه الذي أصبح مألوفًا بالنسبة إليّ؛ لكنني أعتقد أيضًا أنه جرّ إحدى ساقيه كما لو كان لا يزال هناك ثقل من الحديد عليها، وأنه من الرأس إلى القدم كان هناك مُدان في صميم الرجل.

بالإضافة إلى ذلك، كانت تأثيرات حياته في كوخٍ منعزلٍ واضحة عليه، وأعطته مظهرًا همجيًا لا يمكن لأي ثوب أن يروضه؛ يضاف إلى كل ذلك تأثيرات حياته المميزة بين الرجال، وتوزيعًا لكل ذلك، وعيه بأنه الذي كان يتهرب ويختبئ الآن. في كل طرقة في الجلوس والوقوف، والأكل والشرب، والتفكير بأسلوبٍ مترددٍ مرتفع الكتفين، وإخراج سكينه الكبير ذي المقبض القرني ومسحها على ساقيه وتقطيع طعامه، ورفع الكؤوس والأكواب الخفيفة على شفتيه، كما لو كانت قوارير، يقطع قطعة من خبزه، ويمتص بها آخر بقايا المرق في أنحاء طبقه، كما لو كان يريد تحقيق أقصى استفادة مما هو متاح، ثم يجفف أطراف أصابعه عليها، ثم يبتلعها، بهذه الطرق وآلاف الأمثلة الصغيرة الأخرى التي لا

توصف، والتي تُظهره في كل دقيقة في اليوم على أنه سجين، ومجرم، وأجير، بكل ما في الصورة من وضوح.

لقد كانت فكرته هو أن يضع تلك اللمسة من البودرة، وقد منحته البودرة بعد أن جعلته يتخلى عن السراويل القصيرة. لكن لا يمكنني مقارنة تأثيرها، عند وضعها على وجهه، بشيء سوى التأثير المحتمل لأحمر الشفاه على الموتى؛ كانت فظيعة للغاية الطريقة التي أظهرت بها تلك الطبقة الرقيقة من التظاهر كل شيء داخله؛ كل ما كان يجب قمعه، بدا كأنه يندلع من قمة رأسه. تخلي عنها بمجرد تجربتها، وقص شعره الأَشيب.

لا يمكن للكلمات أن تصف مدى الإحساس الذي كان لديّ، في الوقت نفسه، بالغموض المخيف الذي كان يمثّله بالنسبة إليّ. عندما كان يغفو في إحدى الأمسيات، ويداه المعقودتان تقبضان على جانبي الكرسي المريح، ورأسه الأصيل الموشوم بتجاعيد عميقة يتدلى إلى الأمام على صدره، كنت أجلس وأنظر إليه، وأتساءل عما فعله، وأحمّله بكل الجرائم الموجودة في قوائم السجون، حتى يظهر لديّ الحافز للاندفاع والفرار منه. كل ساعة كانت تزيد من بغضي له، حتى إنني أعتقد أنني كدت أستسلم لهذا الحافز في صراعاتي الأولية كوني معذبًا بهذا الشكل، على الرغم من كل ما فعله من أجلي والمخاطرة التي خاضها، لولا معرفة أن هربرت سيتعيّن عليه العودة قريبًا. ذات مرة، بدأت بالفعل في النهوض من الفراش في الليل، وبدأت في ارتداء أسوأ ملابسني، وكنت أنوي على عجلٍ أن أتركه هناك مع كل ما أملكه، وأتطوع في الجيش كجندي خاص في الهند.

أشك في أن يكون الشبح أكثر رعبًا بالنسبة إليّ، في تلك الغرف المنعزلة في الأمسيات الطويلة والليالي الطويلة، حيث تهب الرياح والأمطار دائمًا. لم يكن من الممكن أن يؤخذ شبح ويُسق بسببي، مجرد التفكير في أنه يمكن أن يؤخذ، والخوف من أن يشنق، كانا يشكّلان لي رعبًا إضافيًا. عندما لا يكون نائمًا، أو يلعب نوعًا معقدًا من لعبة سوليتير بمجموعة أوراق ممزقة خاصة به، وهي لعبة لم أرها من قبل أو منذ ذلك الحين، والتي يسجل فيها مكاسبه عن طريق غرس سكينه في الطاولة، وعندما لا يكون منخرطًا في أي من هذه الأنشطة، كان يطلب مني أن أقرأ له: «باللغة الأجنبية، يا ولدي العزيز!» وبينما كنت أستجيب، كان يقف أمام النار، دون أن يفهم كلمة واحدة، يتفحصني بمظهر العارض، فأراه بين أصابع اليد التي أظلل بها وجهي، يناشد في عرضٍ آخرس الأثاث ليلاحظ كفاءتي. لم يكن الطالب الخيالي الذي يطارده المخلوق المشوّه الذي صنعه بطريقة غير شرعية^(١) أكثر بؤسًا مني، حيث يلاحقني المخلوق الذي صنعني، لأراجع عنه بنفورٍ أقوى، كلما ازداد إعجابه وولعه بي.

أدرك أنه مع قراءة كل هذه الأحداث، يظن المرء كأن الأمر استمر سنة، لكنه استمر نحو خمسة أيام. كنت أتوقع هربرت طوال الوقت، ولم أجروُ على الخروج، إلا عندما كنت آخذ بروفيس في نزهة بعد حلول الظلام. أخيرًا، في إحدى الأمسيات، عندما انتهى العشاء وسقطتُ في سبات منهكًا تمامًا، لأن الليالي كانت مضطربة وقلّت راحتي بسبب أحلام مخيفة، أيقظتني وقع الأقدام الترحيبية على الدرج. ترنّح بروفيس، الذي كان نائمًا أيضًا، عند سماعه الضجّة التي أحدثتها، وفي لحظة رأيت سكينه يلمع في يده.

(١) إشارة إلى رواية فرانكشتاين للكاتبة الإنجليزية ماري شيلي. المترجم.

قلت: «اهدأ! إنه هربرت!» وجاء هربرت مندفعاً، حاملاً نضارة هواء
ستمائة ميل من فرنسا.

- هاندل، يا صديقي العزيز، كيف حالك، ومرة أخرى كيف حالك،
ومرة أخرى كيف حالك؟ يبدو أنني قد غبت لمدة عام! كأن الأمر
كذلك، لأنك أصبحت نحيفاً وشاحباً للغاية! هاندل، يا... أهلاً!
أستميحك عذراً.

توقّف في أثناء ركضه ومصافحتي عندما رأي بروفيس. كان بروفيس،
الذي كان ينظر إليه باهتمامٍ شديدٍ، يضع مطواته ببطء جانباً، ويبحث في
جيبه عن شيء آخر.

قلت وأنا أغلق الأبواب المزدوجة بينما وقف هربرت يحرق
ويتساءل: هربرت، صديقي العزيز، لقد حدث شيء غريب جداً، هذا
ضيفي.

«لا بأس يا ولدي العزيز!» قال بروفيس وهو يتقدم، ممسكاً بكتابه
الأسود الصغير، ثم يخاطب هربرت.

- خذه بيمينك، سيأخذك الرب على الفور، إذا وشيت بالأمر بأي
شكل من الأشكال! قبّله!

قلت لهربرت: «افعل كما يريد». لذا، نظر إلى هربرت بنظرة ودية من
عدم الارتياح والدهشة، وامتلأ لي، وصافحه بروفيس على الفور، وقال:
الآن أنت على قسمك، كما تعلم. ولا تصدقني أبداً، إذا لم يجعل منك
بيب رجلاً نبيلًا!

الفصل الحادي والأربعون

عَبثًا إِن حاولت وصف دهشة واضطراب هربرت، عندما جلسنا أنا وهو وبروفيس أمام النار، وسردت له السر بأكمله. يكفيني القول بأنني رأيت مشاعري تنعكس على وجه هربرت، وليس أقلها اشمئزازي من الرجل الذي فعل الكثير من أجلي.

ما كان وحده سِيحِدْثَ فارَقًا بيننا وبين ذلك الرجل، لو لم يكن هناك أي فوارق أخرى، هو شعوره بالانتصار بسببي. باستثناء إحساسه المزعج بأنه كان «وضيعًا» في إحدى المناسبات منذ عودته -وعند هذه النقطة بدأ يتحدث إلى هربرت، في اللحظة التي انتهت فيها من إفشاء السر- لم يكن لدى الرجل أي تصور لاحتمال وجود أي علة في رغد عيشي. كان يفتخر بنفسه مثلما كان يفتخر بي، وأنه جعل مني رجلًا نبيلًا، وأنه جاء لرؤيتي ألعب هذا الدور في ظل خيره الوافر، وأن هذا التفاخر مقبولٌ للغاية لكلينا، وأنا يجب أن نكون معتدين جدًّا به، كان هذا استنتاجًا راسخًا في ذهنه.

قال لهربرت، بعد أن تحدث بعض الوقت: على الرغم من ذلك، انظر هنا يا رفيق بيب، أعلم جيدًا أنه ذات مرة منذ عودتي -لمدة نصف دقيقة- كنت وضيعًا. قلت لبيب، كنت أعرف أنني كنت وضيعًا، ولكن لا تقلق بسبب هذا. أنا لم أجعل من بيب رجلًا نبيلًا، ولن يجعلك بيب

رجلاً نبيلًا، دون أن أعرف ما الذي يليق بكما. عزيزي الصبي، ورفيق
بيب، يمكنكما الاعتماد على أن أنفوه دائمًا بما يليق بالنبلاء. لقد كنت
أتكلم بنُّبل منذ نصف دقيقة عندما تعرضت لزلتي، وسوف أستمِر بالنفوه
بما يليق بالنبلاء دائمًا وأبدًا.

قال هربرت: «بالتأكيد»، لكنه بدا كأنه لا يجد عزاءً محددًا في
هذا، وظل في حيرة وفزع. كنا متشوقين إلى الوقت الذي سيذهب فيه
إلى مسكنه ويتركنا معًا، لكن من الواضح أنه كان يشعر بالغيرة من تركنا
معًا، فجلس معنا حتى وقت متأخر. كان الليل قد انتصف حين أخذته
إلى شارع إسيكس، وأوصلته بأمانٍ عند باب منزله المظلم، وعندما أغلق
الباب، شعرت بأول لحظة ارتياح عرفتها منذ ليلة وصوله.

لم أتحرر قطُّ من الذكرى المضطربة للرجل الذي كان على الدرج،
وكنت دائمًا أتطَّلع حولي عند إخراج ضيفي بعد حلول الظلام، وعند
عودتنا مرة أخرى؛ ونظرت حولي الآن. من الصعب في مدينة كبيرة كهذه
تجنُّب الشك في كون المرء مُراقَّبًا، عندما يكون العقل واعياً بالخطر في
هذا الصدد، لم أتمكن من إقناع نفسي بأنَّ أيًّا من الأشخاص الموجودين
على مرمى البصر يهتم بتحركاتي. القلائل الذين كانوا يمرون ذهبوا في
طريقهم، وكان الشارع خاليًا عندما عدت إلى تمبل. لم يخرج أحد معنا
من البوابة، ولم يدخل معي أحد من البوابة. عندما عبرت النافورة، رأيت
نوافذه الخلفية المضيئة تبدو مشرقة وهادئة، وعندما وقفت بضع لحظات
في مدخل المبنى الذي أعيش فيه، قبل صعود الدرج، كان جاردن كورت
ساكنًا وبلا حياة، كما كان الدرج عندما صعدت إليه.

استقبلني هربرت بذراعين مفتوحتين، ولم أشعر من قبل بمثل هذه السعادة التي يعينها أن يكون لديك صديق، وعندما تكلم ببعض كلمات التعاطف والتشجيع القيمة، جلسنا لتأمل في السؤال: ماذا يجب أن نفعل؟ الكرسي الذي كان يشغله بروفيس لا يزال في مكانه، لأنه كان لديه أسلوب في المكوث في مكان واحد مثل ثكنة عسكرية، بطريقة متقلبة، وممارسة جولة من طقوسه مع غليونه وتبغته وسكينه وحزمة أوراقه، وما إلى ذلك، كما لو كانت كلها مكتوبة على لوح أمامه. أقول إن كرسيه ظل في مكانه، جلس هربرت عليه دون وعي، ولكن في اللحظة التالية وقف منتصبًا، ودفعه بعيدًا، واتخذ كرسيًا آخر. لم يكن عليه أن يقول بعد ذلك إنه كان يشعر بالنفور من ولي نعمتي، ولم يكن عليّ الاعتراف بنفوري. قمنا بتبادل ذلك السر دون أن ننس ببت شفة.

قلت لهربرت، عندما كان يجلس آمنًا على كرسي آخر: ما الذي يجب فعله؟

فأجاب وهو يمسك برأسه: عزيزي المسكين هاندل، أنا مذهول جدًا إلى درجة أنني لا أستطيع التفكير.

- وكذلك كنت أنا، يا هربرت، حين سقط عليّ الخبر أول مرة كالصاعقة. ومع ذلك، لا بد من القيام بشيء ما. إنه عازم على صرف نفقات جديدة متنوعة، مثل الخيول والعربات والمظاهر الفخمة بجميع أنواعها، يجب إيقافه بطريقة ما.

- تقصد أنك لا تستطيع قبول...

قاطعته فتوقف هربرت: كيف يمكنني؟ فكر فيه! انظر إليه! مرّت قشعريرة لا إرادية على كلّ منا.

- ومع ذلك، فأنا أخشى أن الحقيقة المروعة يا هربرت هي أنه متعلق

بي، متعلق بي بشدة، يا له من مصير!

كرر هربرت: عزيزي المسكين هاندل.

قلت: لكن، في النهاية، إن توقفت عند هذا الحد، ولم آخذ منه فلسًا آخر قط، فكر فيما أدين له به بالفعل! لكن أيضًا: أنا مثقل بالديون، ديون كثيرة جدًا، أنا الذي ليس لدي الآن أي آمال، ولم أدرّب على أي مهنة، ولا أصلح لأي شيء.

«حسنًا، حسنًا، حسنًا!» احتجّ هربرت. «لا تقل إنك لا تصلح لأي شيء».

- ما الذي أصلح له؟ أنا أعرف شيئًا واحدًا فقط أنا مؤهل له، وهو أن

أصبح جنديًا، وكان من الممكن أن أذهب يا عزيزي هربرت، لولا صداقتك ومحبتك.

بالطبع أجهشت بالبكاء عند هذه النقطة: وبالطبع تظاهر هربرت، بعيدًا عن الإمساك بيدي بقبضته الدافئة، بأنه لم يدرك ذلك.

قال في الحال: على أي حال يا عزيزي هاندل، فالتجنيد لن يجدي نفعًا. إذا كنت ستتخلى عن هذه الرعاية وهذه الخدمات، أفترض أنك ستفعل ذلك مع بعض الأمل الضعيف في سداد ما حصلت عليه بالفعل يومًا ما. لن يكون قويًا جدًا، هذا الأمل، إذا أصبحت جنديًا! إلى جانب ذلك، فإنه أمر سخيف. ستكون أفضل بكثير في شركة كلاريكر، على الرغم من صغر حجمها. أنا أعمل من أجل الشراكة، كما تعلم.

مسكين! لم يشك في مصدر الأموال.

قال هربرت: لكن هناك سؤال آخر، هذا رجل جاهل وعنيد، وكان

لديه فكرة واحدة راسخة منذ فترة طويلة، والأكثر من ذلك، يبدو لي (قد أسىء الحكم عليه) أنه رجل ذو شخصية يائسة وعنيفة.

أجبت: «أعلم أنه كذلك، دعني أخبرك بالدليل الذي رأيته على ذلك» وأخبرته بما لم أذكره في روايتي، من ذلك اللقاء مع المتهم الآخر.

قال هربرت: انظر إذن، فكر في هذا! لقد جاء إلى هنا مجازفًا بحياته، من أجل تحقيق فكرته الراسخة. وفي لحظة إدراكها، بعد كل تعب وانتظاره، تسحب البساط من تحت قدميه، وتدمر الفكرة، وتجعل مكاسبه عديمة القيمة بالنسبة إليه، ألا ترى أنه قد يفعل شيئًا ما في ظل خيبة أمله؟ - لقد فكرت في ذلك يا هربرت، وحلمت به منذ ليلة وصوله المشؤومة. لم يكن هناك شيء جليًا في أفكاره مثل تعريض نفسه لخطر القبض عليه.

قال هربرت: إذن يمكنك الاعتماد على أنه سيكون هناك خطر كبير في قيامه بذلك. هذه هي سلطته عليك ما بقي في إنجلترا، وسيكون هذا مساره المتهور إذا تخلّيت عنه.

أذهلتني هذه الفكرة المرعبة، التي أثقلت كاهلي منذ البداية، والتي كان تنفيذها سيجعلني أمام نفسي، بطريقة ما، السبب في هلاكه، إلى درجة أنني لم أكن مرتاحًا في جلستي، وبدأت أمشي ذهابًا وإيابًا. قلت لهربرت، في هذه الأثناء، إنه حتى لو تم التعرف على بروفيس وأخذه بعيدًا، على الرغم منه، فسوف أكون بائسًا لأنني كنت السبب في ذلك، على الرغم من براءتي. نعم؛ على الرغم من أنني كنت بائسًا جدًا لوجوده طليقًا وقريبًا مني، وعلى الرغم من أنني كنت أفضل العمل في دكان الحدادة طوال حياتي على أن أصل إلى هذا الحد!

وبقي السؤال الذي لا يمكن تلافيه: ما الذي يجب فعله؟

قال هربرت: الشيء الأول والأساسي الذي يجب فعله هو إخراجهم من إنجلترا. سيكون عليك أن تذهب معه، عندها يمكن حثه على الرحيل.

- لكن أينما أخذته، هل يمكنني منع عودته؟

- يا عزيزي هاندل، أليس من الواضح أنه مع وجود سجن نيوجيت في الشارع المجاور، لا بد أن يكون هناك خطر أكبر بكثير في أن تفعل ما تريد وتجعله متهورًا هنا، أكثر من أي مكان آخر؟ إذا كان من الممكن إيجاد حجة مثل إبعاده عن ذلك المدان الآخر، أو أي شيء آخر في حياته.

«ها نحن أولاء مرة أخرى!» قلت وأنا أتوقف أمام هربرت، ويدي مفتوحتان، كما لو أنهما تحتويان على ياسي من القضية. «أنا لا أعرف شيئًا عن حياته. لقد كاد يصيبني الجنون وأنا أجلس هنا طوال الليل وأراه أمامي، وهو مرتبط جدًا بثروتي ومصائبي، ومع ذلك فهو مجهول بالنسبة إليّ، باستثناء كونه الصعلوك البائس الذي أرعيني لمدة يومين في طفولتي!».

نهض هربرت، وأخذ بذراعي، وسرنا معًا ببطء ذهابًا وإيابًا، نتفحص السجادة.

قال هربرت متوقفًا: هاندل، أنت مقتنع أنك لن تستطيع الاستفادة منه مرة أخرى؛ أليس كذلك؟

- تمامًا. بالتأكيد ستفعل ذلك أيضًا لو كنت مكاني؟

- وهل أنت مقتنع بأنه يجب عليك الانفصال عنه؟

- هربرت، كيف يمكنك أن تسألني؟

- وأنت تشفق، ولا بد لك، على حياته التي خاطر بها من أجلك، وتشعر أنه يجب عليك إنقاذه، إن أمكن، من التفريط فيها. إذن يجب عليك إخراجه من إنجلترا قبل أن تحرك إصبعًا لانتشال نفسك من هذا الموقف. متى انتهيت من انتشال نفسك، باسم السماوات، سنكون خرجنا معًا من هذا الموقف أيها الشاب العزيز.

كان من المريح أن نتصافح على هذا الاتفاق، وأن نمشي ذهابًا وإيابًا مرة أخرى، وألا نفعل شيئًا سوى ذلك.

قلت: الآن يا هربرت، في إشارة إلى معرفة جزء من حكايته، هناك طريقة واحدة أعلمها، وهي أنني يجب أن أسأله مباشرة.

قال هربرت: «نعم، أسأله عندما نتناول الإفطار في الصباح»، لأنه قال، عندما ودّع هربرت، إنه سيأتي لتناول الإفطار معنا.

مع ترتيبنا لهذا المخطط، ذهبنا للنوم. لقد راودتني أعنف الأحلام بشأنه، واستيقظت في خمول؛ استيقظت أيضًا لاستعادة خوفي الذي فقدته في أثناء الليل، من أن يُعثر عليه كونه عائدًا من المنفى. وفي صبحي، لم أفقد هذا الخوف قط.

جاء في الوقت المحدد، وأخرج سكينه، وجلس لتناول وجبته. كان مليئًا بالاستعدادات «لكي يظهر رجله قويًا، ونبيلًا»، وحثني على أن أبدأ بسرعة في صرف كل ما تحويه محفظة الجيب التي تركها في حوزتي. لقد اعتبر مسكني ومسكنه بمنزلة مساكن مؤقتة، ونصحني بالبحث على الفور عن «منزل راقٍ» بالقرب من هايد بارك، حيث يمكن أن يحصل على «فراش أرضي». وعندما انتهى من فطوره، وكان يمسح سكينه في ساقه، قلت له، دون مقدمات:

- بعد رحيلك الليلة الماضية، أخبرت صديقي عن الصراع الذي كنت فيه حين وجدك الجنود في المستنقعات، عندما لحقنا بك. هل تتذكر؟

قال: أتذكر! أعتقد ذلك!

- نريد أن نعرف شيئاً عن ذلك الرجل، وعنك. ومن الغريب ألا أعرف عن أي منكما، وخاصة عنك أنت، أكثر مما أخبرتنا به الليلة الماضية، أليس هذا وقتاً مناسباً مثل أي وقت آخر لمعرفة المزيد؟ «حسناً!» قال بعد تفكير. «أنت على قَسَمك، كما تعلم يا رفيق ييب؟» أجاب هربرت: بالتأكيد.

أصر قائلاً: فيما يتعلق بأي شيء أقوله، أنت تعلم. القسم يشمل كل ما أقوله.

- أنا أفهم ذلك.

- وانظر هنا! وأصر مرة أخرى على أن كل ما فعلته قد سُوي ودُفع ثمنه.

- ليكن.

أخرج غليونه الأسود، وكان على وشك أن يملأه بالتبغ، عندما نظر إلى كتلة التبغ المتشابكة في يده، بدا أنه يعتقد أن الغليون قد يضيف نكهة مضللة على روايته. أعاد التبغ مرة أخرى، ووضع غليونه في فتحة زر معطفه، وبسط يديه على ركبتيه، وبعد أن أدار عينه الغاضبة إلى النار لبضع لحظات صامتة، نظر إلينا وقال ما يلي.

الفصل الثاني والأربعون

«يا ولدي العزيز ورفيق بيب. أنا لا أسعي لإخباركما بحياتي مثل أغنية أو كتاب قصص. ولكي أجعلها مختصرة وسهلة، سأضعها فوراً في كلمات بسيطة. كنت في السجن وخارج السجن، في السجن وخارج السجن، في السجن وخارج السجن، هذا هو كل ما في الأمر، هذه هي حياتي إلى حد كبير، حتى تلك الأوقات التي رُحلت فيها، بعدما وقف بيب بجانبني كالصديق.

لقد فعلوا كل شيء، باستثناء شنقي. حُبست مثل إبريق شاي فضي، ونُقلت هنا وهناك، وطُردت من هذه المدينة وتلك، وحُشرت في المخازن، وجُلِدَت ودُفعت وخُنِقت. ليس لديّ أي فكرة عن المكان الذي وُلدت فيه أكثر منكم، إلى حد كبير. أدركت لأول مرة نفسي في إسيكس، كنت أسرق اللفت لكي أعيش. كان قد هجرني رجل ما -عامل إصلاح- وأخذ النار معه، وتركني أشعر بالبرد. كنت أعرف أن اسمي هو ماجويتش، واسمي بالعماد هابيل. كيف عرفت ذلك؟ بقدر ما كنت أعرف أن أسماء الطيور الموجودة في السياج هي: الدوري، والحسون، والسمان. ربما ظننت أن الأمر كله عبارة عن أكاذيب، لكن عندما وجدت أسماء الطيور حقيقية، افترضت أن اسمي كذلك.

لم أجد حولي أحداً يرافق هابيل ماجويتش الصغير، الذي لم يجد

شيئاً في الدنيا، سوى الخوف، أو الهروب أو الحبس. لقد حُبِسْتُ، حُبِسْتُ، حُبِسْتُ، إلى درجة أنني نشأت في الحبس.

هكذا كان الأمر، عندما كنت مخلوقاً صغيراً رثاً مثيراً للشفقة كما لم أَرُ قَطُّ (لا يعني ذلك أنني نظرت إلى نفسي في المرآة، لأنني لم أَرُ الكثير من المنازل المفروشة)، حصلت على اسم القاسي. «هذا شخص قاسٍ رهيب» يقولون لزوار السجن، إن اختاروني. «يقال إنه يعيش في السجون، هذا الصبي» ثم نظروا إليّ، ونظرت إليهم، وقاموا بقياس رأسي، وكان من الأجدي أن يقيسوا معدتي، والبعض الآخر أعطوني نشرات لا أستطيع قراءتها، وحدّثوني بخطاباتٍ لا أستطيع فهمها. تحدثوا معي دائماً عن الشيطان. ولكن ماذا كان عليّ أن أفعل بحق الشيطان؟ يجب أن أضع شيئاً في معدتي، أليس كذلك؟ على أي حال، كنت وضيعاً، وأعرف ما العائد عليّ به. يا ولدي العزيز ورفيق بيب، لا تخافا من كوني وضيعاً.

التسكع، والتسول، والسرقة، والعمل أحياناً عندما أستطيع ذلك، لكن ليس بالقدر الذي قد تظنانه، فلم يكن هناك الكثيرون ممن هم على أتم الاستعداد لإعطائي عملاً، عملت صياداً، وعاملاً، وسائق عربة، وصانع القش، وبائعاً جوالاً، معظم الأعمال غير المربحة التي تؤدي إلى المتاعب، ومن خلالها كبرت وصرت رجلاً. جندي هارب في سكن ما، كان مختبئاً حتى ذقنه تحت أكوام من البطاطس، علّمني القراءة؛ وعملاق جوال يوقّع باسمه للناس مقابل فلس واحد في كل مرة علّمني الكتابة. على الرغم من أنني لم أعد محبوباً كما كنت من قبل، إلا أنني أخذت نصيبي من الأصفاد.

في سباقات الخيل ببلدة إيسوم، منذ أكثر من عشرين عاماً، تعرفت

على رجل كنت سأكسر جمجمته بهذا المسعر، مثل مخلب جراد البحر، إن أمكنتني وضعها على هذه المدفأة، كان اسمه هو كومبيسون. وهذا هو الرجل، يا ولدي العزيز، الذي رأيته أضر به في الخندق، وفقًا لما أخبرت رفيقك حقًا بعد ذهابي الليلة الماضية.

لقد نشأ كرجل نبيل، كومبيسون هذا، وكان قد التحق بمدرسة داخلية عامة وتعلم هناك، وكان سلسًا في الحديث، وبارعًا في أسلوب النبلاء، وكان حسن المظهر أيضًا. كانت تلك الليلة التي سبقت السباق الكبير، عندما وجدته في المرح، في كشك كنت أعرفه. كان هو وآخرون يجلسون بين الطاولات عندما دخلت، فناداه المالك (الذي كان يعرفني وكان شخصًا ودودًا) وقال: «أعتقد أن هذا هو الرجل الذي قد يناسبك»، يعني أنا.

كان كومبيسون ينظر إليّ باهتمام شديد، وأنا أنظر إليه. لديه ساعة وسلسلة وخاتم ودبوس صدر وحلة جميلة من الملابس. قال لي كومبيسون: إذا حكمنا من خلال المظاهر، فإنك لم يحالفك الحظ.

- نعم يا سيدي، ولم أشارك فيه كثيرًا من قبل. (كنت لقد خرجت من سجن كينجستون آخر مرة بتهمة التشرّد. كان من الممكن أن يكون أي شيء آخر؛ لكنه لم يكن).

يقول كومبيسون: يتغير الحظ؛ ربما ستتغير حالتك.

قلت: أتمنى أن يكون الأمر كذلك، فأنا أحتاج إليه.

قال كومبيسون: ما الذي تستطيع القيام به؟

قلت: الأكل والشرب، إذا وجدت المواد.

ضحك كومبيسون، ونظر إليّ مرة أخرى ملاحظاً للغاية، وأعطاني خمسة شلنات، أعطاني موعداً في الليلة التالية، نفس المكان.

ذهبت إلى كومبيسون في الليلة التالية، في نفس المكان، وأخذني لأكون رجله وشريكه. وما هو عمل كومبيسون الذي كنا سنتشارك فيه؟ كان عمل كومبيسون هو النصب، والتزوير، وتصريف الأوراق النقدية المسروقة، وما شابه ذلك. كل أنواع الفخاخ كان يمكن أن ينصبها كومبيسون بدهائه، ويُبقي نفسه خارجاً ويحصل على الأرباح، ويدع رجلاً آخر يلبس التهمة مكانه، كان هذا صميم عمل كومبيسون. لم يكن لديه قلب أكثر من مبرد حديدي، وكان باردًا مثل الموت، وكان لديه عقل الشيطان المذكور آنفًا.

كان هناك شريك لكومبيسون، وكان يُدعى آرثر، ليس اسمه بالعماد، بل لقبه. كانت حالته سيئة، وكان النظر إليه مثل النظر إلى شبح. دخل هو وكومبيسون في مؤامرة ضد سيدة غنية قبل ذلك بعدة سنوات، وجمعا قدرًا كبيرًا من المال من خلالها؛ لكن كومبيسون راهن وقامر، وكان يمكنه تبديد ضرائب الملك نفسه. لذلك، كان آرثر يحتضر، فقيرًا يحتضر، ويعاني من الهذيان، وكانت زوجة كومبيسون (التي ركلها كومبيسون طوال الوقت) تشفق عليه عندما تستطيع ذلك، وكان كومبيسون لا يشفق على شيء، ولا على أحد.

كان يجب أن آخذ العبرة من معاملته لآرثر، لكنني لم أفعل؛ ولن أظهار بأنني كنت مميزًا، فما فائدة التظاهر يا ولدي العزيز والرفيق العزيز؟ لذلك بدأت العمل مع كومبيسون، واستغلني أسوأ استغلال. عاش آرثر في الجزء العلوي من منزل كومبيسون (كان ذلك بالقرب من بريننفورد)، واحتفظ كومبيسون بحساب طعامه وإقامته بدقة، حتى

تتحسن حالته ويسدد حسابه. لكن آرثر سرعان ما سَوَّى الحساب. في المرة الثانية أو الثالثة التي رأيته فيها، كان يأتي إلى ردهة كومبيسون في وقت متأخر من الليل، مرتدياً فقط رداءً خفيفاً، وشعره يتصبب عرقاً، ويقول لزوجته كومبيسون، «سالي، إنها حقاً في الطابق العلوي معي الآن، ولا أستطيع التخلص منها. إنها ترتدي ملابس بيضاء بالكامل، وفي شعرها زهور بيضاء، وهي غاضبة للغاية، ولديها كفنٌ معلق على ذراعها، وتقول إنها ستضعه عليّ في الخامسة صباحاً».

يقول كومبيسون: أيها الأحمق، ألا تعلم أنها ما زالت حية؟ وكيف ينبغي لها أن تكون هناك، دون أن تدخل من الباب، أو من النافذة، أو تصعد الدرج؟

قال آرثر وهو يرتجف من هول الرعب: لا أعرف كيف جاءت إلى هنا، لكنها وافقة في الزاوية عند سفح الفراش، غاضبة بشدة. وعلى المكان الذي انكسر فيه قلبها - أنت كسرتة! - هناك قطرات من الدم.

كان كومبيسون يتحدث بقوة، لكنه كان دائماً جباناً. يقول لزوجته: «اصعدي مع هذا الرجل المريض التافه، هلا تمد إليها يد المساعدة يا ماجويتش؟» لكنه لم يصعد بنفسه قط.

اصطحبناه أنا وزوجة كومبيسون إلى الفراش، وكان يهذي بشدة. «انظر إليها!» يصرخ. «إنها تهز الكفن في وجهي! ألا تراها؟ انظر إلى عينيها! أليس من المروع رؤيتها غاضبة إلى هذا الحد؟» بعد ذلك يبكي قائلاً: «سوف تضعه عليّ، وبعد ذلك ينتهي أمري! خذه منها، خذه بعيداً!» وبعد ذلك أمسك بنا، واستمر في الحديث معها والرد عليها، حتى تهياً لي أنني أراها بنفسه.

زوجة كومبيسون، التي اعتادته، أعطته بعض المشروبات الكحولية للتخلص من الهذيان، وتدرجياً هداً. قال: «أوه، لقد ذهبت! هل أخذها السجان؟». قالت زوجة كومبيسون: «نعم»، «هل أخبرته أن يحبسها ويمنعها من الدخول؟» «نعم»، «وأن يأخذ هذا الشيء القبيح منها؟» «نعم، نعم، حسناً». قال: «أنت امرأة صالحة، لا تتركيني مهما فعلت، وشكراً لك!».

استراح بهدوء حتى بضع دقائق قبل الخامسة، ثم بدأ بالصراخ، يصرخ، ويقول: «ها هي هنا! تمسك بالكفن مرة أخرى، إنها تبسطه أمامها، إنها تخرج من الزاوية، إنها قادمة إلى الفراش. ضمّاني إليكما، من كلا الجانبين، ولا تدعا الكفن يلمسني، هاه! لقد أخطأتني هذه المرة، لا تدعاها ترميه على كتفي. لا تدعاها ترفعني لتلفّه حولي، إنها ترفعني، أبقاني في الأسفل!» ثم انتصب بعنف ومات.

تعامل كومبيسون مع الأمر بسهولة باعتباره خلاصاً للطرفين. وسرعان ما انشغلنا أنا وهو، وفي البداية أقسم لي (كونه ماهراً دائماً) على كتابي الخاص، هذا الكتاب الأسود الصغير هنا، يا ولدي العزيز، الذي أقسم عليه رفيقك.

كي لا أخوض في الأمور التي خطط لها كومبيسون، ونفذتها أنا -والتي قد تستغرق أسبوعاً للسرد- سأقول لك ببساطة، يا ولدي العزيز، ورفيق بيب، إن ذلك الرجل أوقعني في مثل هذه الشباك التي جعلتني عبده الأسود. لقد كنت دائماً مديناً له، ودائماً تحت سيطرته، ودائماً ما أعمل لأجله، ودائماً ما أعرض للخطر. لقد كان أصغر مني، لكنه كان يمتلك الدهاء، والعلم، وغلبني خمسمائة مرة بلا رحمة. واجهنا زوجتي وأنا وقتاً

عصياً، لكن لا! لن أتحدث عنها هنا.

نظر حوله في حيرة، كأنه تائه في كتاب ذكرياته؛ وحوّل وجهه إلى النار، وبسط يديه على ركبتيه، ثم رفعهما وبسطهما مرة أخرى.

قال وهو ينظر حوله مرة أخرى: ليست هناك حاجة إلى الخوض في هذا الأمر. كان الوقت الذي قضيته مع كومبيسون من أصعب الأوقات التي مررت بها في حياتي؛ والحق يقال، هذا هو كل شيء. هل أخبرتكم أنني حوكت وحدي في جنحة في أثناء عملي مع كومبيسون؟ أجبت: لا.

قال: حسناً! حوكت وأدنت، كما اعتُقلت للاشتباه فيّ، نحو مرتين أو ثلاث مرات في الأربع أو الخمس سنوات في أثناء عملي معه؛ لكن كان هناك عدم كفاية في الأدلة. أخيراً، اعتُقلنا أنا وكومبيسون لارتكاب جناية، بتهمة التداول بأوراق نقدية مسروقة، وتُهم أخرى. قال لي كومبيسون: «دفاع منفصل، من دون تواصل»، وكان هذا كل شيء. وكنت فقيراً بائساً للغاية، إلى درجة أنني بعت كل ما أملك من ملابس، باستثناء ما كان معلقاً على ظهري، قبل أن أتمكن من الحصول على جاغرز.

عندما وُضِعنا في قفص الاتهام، لاحظت في البداية كيف كان يبدو كومبيسون كرجل نبيل، بشعره المجعد وملابسه السوداء ومنديل جيبه الأبيض، وكم كنت أبدو أنا صعلوكاً من العامة. عندما افتتحت النيابة وقُدِّمت الأدلة بسرعة، لاحظت مدى ثقل الأمر كله عليّ، وكم كان خفيفاً عليه. عندما تقدم الشهود في المقصورة، لاحظت كيف أنني كنت دائماً من يتم التعرف عليه، ويتم سبّه، وكيف كنت دائماً أنا من يُدفع له المال، وكيف كنت دائماً أنا من بدا أنه يقوم بالأعمال ويحصل على المكاسب.

وعندما أتى الدفاع، رأيت الخطة أكثر وضوحًا؛ لأنه، كما قال مستشار كومبيسون: «سيدي وسادتي، مائل أمامكم هنا، جنبًا إلى جنب، شخصان الفرق بينهما واضحٌ للعيان؛ أحدهما، الأصغر سنًا، ذو تربية حسنة، والذي سيتم التحدث عنه على أنه كذلك؛ والآخر، كبير السن، سيئ النشأة، والذي سيتم التحدث عنه على أنه كذلك؛ أحدهما، الأصغر سنًا، نادرًا ما يُرى في هذه المعاملات هنا، ومشتبه به فقط؛ والآخر، الأكبر سنًا، حاضِرٌ دائمًا في هذه المعاملات، ودائمًا ذنبه واضح بالبرهان. هل يمكنكم الشك، إذا كان هناك واحدٌ منهم فقط متورط في الأمر، فهو أي منهما، وإذا كان الاثنان متورطين، فمن هو الأسوأ بكثير؟» وهكذا، وعندما يتعلق الأمر بالسمعة، أَلَمْ يذهب كومبيسون إلى المدرسة، وأَلَمْ يكن زملاء دراسته في هذا المنصب أو ذاك، وأَلَمْ يرَ الشهود العيان في الأندية والمجتمعات، وأَلَمْ يكن هو من لم تشوبه شائبة؟ وأَلَمْ أكن أنا من أُدين من قبل، وكنت معروفًا في الحبس هذا أو السجن ذاك! وعندما يتعلق الأمر بإلقاء الخطاب، أليس كومبيسون هو من يمكنه التحدث إليهم وهو يُسقط وجهه بين الحين والآخر في منديل جيبه الأبيض، آه! وأبيات من الشعر في خطابه أيضًا، أما أنا فلم أستطع إلا أن أقول: «أيها السادة، هذا الرجل الذي بجانبني هو أعتى المجرمين؟» وعندما أتى الحكم، أَلَمْ يكن كومبيسون هو من تم تزكيته للرحمة بسبب حسن سلوكه وسوء صحبته، وإفصاحه عن كل المعلومات التي يمكن أن يفضي بها عني، وأَلَمْ أحصل أنا على أي شيء سوى كلمة مذنب؟ وعندما أقول لكومبيسون: «بمجرد خروجي من هذه المحكمة، سأحطم وجهك هذا!» أَلَمْ يطلب كومبيسون من القاضي حمايته، ويضع له حراسًا بيننا؟ وعندما حُكِم علينا، أَلَمْ يحصل هو على

حكمٍ بسبع سنوات في السجن، وأنا أربعة عشر عامًا، ألم يأسف القاضي عليه، كونه قام بفعل سيئ رغم أنه كان من الممكن أن يكون مستقيمًا، وألم يرني القاضي كمجرمٍ قديمٍ عنيف، ومن المرجح أن أصبح أسوأ؟». دخل في حالة من الهياج، لكنه خرج منها، وأخذ نفسين أو ثلاثة أنفاس قصيرة، وابتلع ريقه مرارًا وتكرارًا، ومدَّ يده نحوي، وقال بطريقة مطمئنة: لن أرثي لحالي أيها الفتى العزيز!

كان غضبه قد اشتد إلى درجة أنه أخرج منديله ومسح وجهه ورأسه ورقبته ويديه قبل أن يتمكن من المتابعة.

- قلت لكومبيسون أنني سأحطم وجهه، وطلبت من ربي أن يحطم وجهي إذا لم أحطم وجهه! لقد كنا في سفينة السجن ذاتها، لكنني لم أتمكن من الوصول إليه لفترة طويلة، على الرغم من محاولاتي. أخيرًا، جئت من خلفه وضربته على خده لأديره وأضربه ضربة قوية، عندما رأوني وأمسكوا بي. الزنانة في تلك السفينة لم تكن قوية لمنعي من الهرب وأنا عالمٌ بالسجون ويمكنني السباحة والغوص. هربت إلى الشاطئ، واختبأت بين القبور هناك، أحسد قاطنيها على حالهم، عندما رأيت ولدي لأول مرة!

نظر إليَّ بنظرة حبٍّ جعلته شبه كره في نظري مرة أخرى، على الرغم من أنني شعرت بشفقة كبيرة تجاهه.

- أخبرني فتاي أن كومبيسون كان خارجًا في المستنقعات أيضًا. بلا شك، أعتقد إلى حدٍّ ما أنه هرب من رعبه، ليتخلص مني، دون أن يعلم أنه أنا الذي وصل إلى الشاطئ. طاردته، وحطمت وجهه». قلت: «والآن، أسوأ شيء يمكنني فعله، دون التفكير في نفسي،

هو سحبه إلى هناك مرة أخرى». وكنت سأسبح وأسحبه من شعره
لو وصل الأمر إلى هذا الحد، وكنت سأصعد به على متن السفينة
من دون مساعدة الجنود.

بالطبع استغل الموقف للنهاية، فقد كان في منتهى الذكاء. اعتبروا
هربه نتيجة لخوفه مني ومن نواياي القاتلة؛ وكان عقابه خفيفاً. أما أنا
فقيّدت، وقُدِّمت للمحاكمة مرة أخرى، ونُفيت مدى الحياة. لم يرضني
العيش هناك مدى الحياة، يا ولدي العزيز ورفيق بيب، ولهذا ها أنا ذا.
مسح نفسه مرة أخرى، كما فعل من قبل، ثم أخرج ببطء التبغ
المتشابك من جيبه، وأخرج غليونته من عروته، وملأه ببطء، وبدأ بالتدخين.
«هل هو ميت؟» سألت بعد صمت.

- من هو يا ولدي العزيز؟

- كومبيسون.

قال بنظرة شرسة: إنه يأمل أن أكون أنا ميتاً، إذا كان على قيد الحياة،
تأكد من هذا. لم أسمع عنه قطُّ منذ ذلك الحين.

كان هربرت يكتب بالقلم الرصاص على غلاف كتاب. دفع بالكتاب
نحوي بهدوء بينما كان بروفيس واقفاً يدخن وعيناه على النار، وقرأت فيه:

«آرثر كان اسم هافيشام الشاب، كومبيسون هو الرجل الذي ادّعى أنه
عاشق الأنسة هافيشام».

أغلقت الكتاب وأومأت برأسي قليلاً لهربرت، ووضعت الكتاب
جانباً؛ لكن لم يقل أيُّ مناشيء، ونظر كلانا إلى بروفيس وهو واقف يدخن
بجوار النار.

الفصل الثالث والأربعون

لماذا يجب أن أتوقف وأتساءل عن مقدار انقباضي من بروفيس الذي يمكن إرجاعه إلى إستيلا؟ لماذا يجب أن أتلکأ في طريقي لأقارن الحالة الذهنية التي حاولت فيها تخليص نفسي من وصمة السجن قبل لقاءها في مكتب المركبات، مع حالتي الذهنية الآن وأنا أتأمل في الفجوة بين إستيلا في كبريائها وجمالها، والسجين العائد الذي آوَيْته؟ لن يكون طريقي أسهل، ولن تكون النهاية أفضل، لا عون له، ولا عذر لي.

لقد نشأ خوف جديد في ذهني بسبب روايته، أو بالأحرى، أعطت روايته الشكل والمبرر للخوف الذي كان موجودًا بالفعل. لو كان كومبيسون على قيد الحياة وكان من الممكن أن يكتشف عودته، فلن أشك في العواقب. فإن كان كومبيسون يخاف منه بشدة، وأنا أدري بما يمكن أن يحدث له، فكان من الصعب تخيل أن أيَّ رجل مثل الذي وُصف سيتردد في تحرير نفسه للأبد من عدو مخيف بطريقة مضمونة كأن يصبح مرشدًا مثلاً.

لم أنطق قطُّ، ولن أنطق أبدًا - أو هكذا قررت - بكلمة عن إستيلا لبروفيس. لكنني قلت له بربرت إنه قبل أن أتمكن من السفر إلى الخارج، يجب أن أرى كلاً من إستيلا والآنسة هافيشام. كان هذا عندما تُرکنا وحدنا في الليل عندما روى لنا بروفيس قصته. قررت أن أذهب إلى ريتشموند في اليوم التالي، وذهبت.

عندما قدمت نفسي في منزل السيدة براندلي، استدعت خادمة إستيلا لتخبرني أن إستيلا قد ذهبت إلى الضاحية. أين؟ إلى منزل ساتيس، كالعادة. قلت: ليس كالمعتاد، لأنها لم تذهب إلى هناك من دوني من قبل؛ متى ستعود؟ كان هناك جو من التحفظ في الجواب مما زاد من حيرتي، وكان الجواب أن خادمتها تعتقد أنها لن تعود إلا لفترة قصيرة. لم أتمكن من فهم شيء، باستثناء أنه كان من المفترض ألا أفهم شيئاً، فعدت إلى المنزل مرة أخرى وأنا في حالة من الارتباك التام.

ليلة أخرى من التشاور مع هربرت بعد عودة بروفيس إلى المنزل (كنت أصطحبه دائماً إلى المنزل، وأنظر حولي دائماً)، قادتنا إلى نتيجة مفادها أنه لا ينبغي قول أي شيء عن السفر إلى الخارج حتى أعود من منزل الآنسة هافيشام. في هذه الأثناء، كان علينا أنا وهربرت أن نفكر بشكل منفصل فيما سيكون من الأفضل قوله؛ وما إذا كان ينبغي لنا أن نخترع أي ادعاء بالخوف من أنه كان تحت مراقبة مربية؛ أو ما إذا كان ينبغي لي، الذي لم أسافر قط خارج البلاد، أن أقترح رحلة استكشافية. كلانا كان يعلم أنه ليس عليّ سوى أن أقترح أي شيء، وسوف يوافق هو عليه. اتفقنا على أن الأيام العديدة المتبقية له في خطره الحالي لا ينبغي التفكير فيها.

في اليوم التالي، كان لديّ خسة كافية للتظاهر بأنني كنت ملزماً بوعد زيارة جو؛ بيد أنني كنت قادراً تقريباً على ممارسة أي نوع من الخسة تجاه جو أو اسمه. كان على بروفيس أن يتوخى الحذر الشديد في أثناء غيابي، وكان على هربرت أن يتولى المسؤولية التي توليتها أنا. كان من المقرر أن أتغيب ليلة واحدة فقط، وعند عودتي، يبدأ إشباع نفاذ صبره على تقديمي

كـر جـلٍ نـبـيـلٍ عـلـى نـطـاقٍ أـوسـع . خـطـر لـي حـيـنـها ، و كـما اكـتـشـفـت لـاحـقًـا أـنـه
خـطـر لـهـر بـرت أـيـضًـا ، أن اسـتـخـدام هـذا كـحـجـة لـلـذـهـاب عـبـر البـحـار ، لـلـتـبـضـع
و ما شـابـه ، هـو الخـيار الأـفـضـل .

بـعـد أن مـهـدـت الطـريق لـرحـلـتي إـلى الأـنـسـة هـافـيشـام ، انـطـلـقـت بـعـرـبة
الصـبـاح البـاكـر قـبـل شـروق الشـمـس ، و كـنت خـارجًـا عـلى الطـريق الـرـيفـي
المـفـتـوح عـندـما جـاء النـهار زـاحـفًـا ، و مـتـوقًـفًـا و نـاشـجًـا و مـر تـعـشًـا ، و مـلـتـمًـا فـي
بـقـع مـن السـحـاب و خـرق مـن الضـباب ، مـثـل المـتـسـول . عـندـما تـوجـهـنا بـالعـرـبة
إـلى بـلو بـور بـعـد رـحـلـة مـمـطـرة ، رآيت شـخـصًـا يـخـرج مـن تـحـت البـوابة ، و خـلـة
الأسـنان فـي يـده ، لـيـنـظر إـلى العـرـبة ، لـم يـكـن سـوى بـنـتـلي دـرامـل !

و كـما تـظـاهـر بـأنـه لـم يـرـني ، تـظـاهـرت بـأنـي لـم أـره . لـقـد كان تـظـاهـراً و اهـيًـا
لـلـغـايـة مـن كـلا الجـانـبـين . بـل أكـثـر مـن ذـلك ، لـأنـنا ذـهـبـنا إـلى المـقـهـى ، حـيـث
أنـهـى لـلتـو إـفـطـاره ، و حـيـث طـلـبـت أنا إـفـطـاري . لـقـد كان مـن المـؤـذـي بـالنـسـبة
إـليّ أن أـراه فـي المـدـيـنـة ، لـأنـني كـنت أـعـرف جـيـدًـا سـبـب قـدومـه إـلى هـنـاك .

جـلـست عـلى طـاوـلـتي بـيـنـما كان واقـفًـا أـمـام النـار ؛ تـظـاهـرت بـقـراءـة
صـحـيفـة مـلـطَّخـة عـفا عـلـيـها الزـمـن ، و لـم يـكـن بـها ما يـمـكـن قـراءـته فـي أخـبـارها
المـحـلـية ، كـما المـواد الغـرـيـبة مـن القـهـوة و المـخـلـلات و صـلـصـات السـمـك
و المـرق و الزـبـدة المـذـابة و النـبـيـذ الـتي تـناـثـرت فـوقـها فـي كـل مـكان ، كـما لو
أصـابـتـها الحـصـبة فـي أـماـكن مـتـفـرقة . تـدرـيـجًـا ، أصـبـحـت مـتأـذًـيا لـلـغـايـة بـسـبـب
و قـوفـه أـمـام النـار . و نـهـضـت مـصـمًـا عـلى أن آخـذ نصـيـبي مـنـها . كان عـليّ أن
أضـع يـدي خـلف سـاقـيه مـن أـجـل مـسـعر النـار عـندـما اتـجـهـت إـلى المـدـفـأة
لـتـحـريك النـار ، لـكـنـني تـظـاهـرت بـعـدم مـعـرفـتي بـه .

«هل هذا خصام؟» قال السيد درامل .

قلت، والمسعر في يدي: أوه! إنه أنت، أليس كذلك؟ كيف حالك؟
كنت أتساءل من يقف أمام نار المدفأة هكذا.

وبهذا، حركت الجمر بقوة، ثم وقفت جنباً إلى جنب مع السيد
درامل، وكتفائي مرفوعتان وظهري نحو النار.

«هل وصلت للتو؟» قال السيد درامل وهو يدفعني بعيداً بكتفه قليلاً.

أجبتُه وأنا أبعدُه قليلاً عن كتفي: نعم.

قال درامل: مكان وحشي. أنت من هذا الجزء من البلاد، أليس
كذلك؟

«نعم» وافقت. «لقد قيل لي إنها تشبه إلى حد كبير منطقة شرويشاير^(١)
الخاصة بك».

قال درامل: ليست كذلك على الإطلاق.

هنا نظر السيد درامل إلى حذائه ونظرت أنا إلى حذائي، ثم نظر السيد
درامل إلى حذائي، ونظرت إلى حذائه.

«هل مضى وقتٌ طويلٌ على وجودك هنا؟» سألت، وقد عقدت العزم
على عدم التخلي عن شبر واحد من النار.

«طويل بما يكفي ليصيبني الضجر» أجاب درامل، متظاهراً بالتشاؤم،
لكن متمسكاً بمكانه مثلي.

– هل ستبقى هنا لفترة طويلة؟

«لا أدري» أجاب السيد درامل. «وأنت؟» قلت: لا أدري.

شعرت هنا، ودمي يفور، أنه لو اقترب كتف السيد درامل ولو شعرة

(١) ذكر ديكنز مسبقاً أن درامل من سومرستشاير وليس شرويشاير. المترجم.

أخرى، لدفعته إلى النافذة؛ وكذلك، لو اقترب كتفي بالمثل، لكان السيد درامل قد دفعني إلى أقرب مقصورة في المقهى. صَفَّرَ قليلاً. فصنفت بدوري.

سأل درامل: «مساحة كبيرة من المستنقعات هنا، على ما أعتقد؟»

قلت: «نعم. ماذا في ذلك؟».

نظر السيد درامل إليّ، ثم إلى حذائي، ثم قال: «أوه!» وضحك.

- هل يوجد أمر ممتع يا سيد درامل؟

قال: لا، ليس بشكلٍ خاص. أنا خارج للركوب على صهوة الحصان. أنوي استكشاف تلك المستنقعات للتسلية. أخبروني أن هناك قرى نائية. بيوتاً عامة صغيرة غريبة - ودكاكين حدادة - وما إلى ذلك. أيها النادل!

- نعم سيدي.

- هل حصاني جاهز؟

- لقد أحضر إلى الباب يا سيدي.

- انظر هنا يا سيدي. أتوقع أن السيدة لن تتركب الخيل اليوم؛ الطقس لن يكون مناسباً.

- جيد جداً سيدي.

«وأنا لن أتناول الغداء هنا، لأنني سأتناوله في منزل السيدة». «جيد جداً سيدي».

بعد ذلك، نظر إليّ درامل، بانتصارٍ وقحٍ على وجهه ذي اللغد الكبير الذي طعنني في الصميم، ببلادة مماثلة لبلاذته، وأثار غضبي إلى درجة أنني شعرت برغبة في أخذه بين ذراعي (مثل اللص في الكتاب القصصي

الذي اختطف السيدة العجوز^(١) وأجلسه فوق النار.

كان هناك شيء واحد واضح لكلينا، وهو أنه حتى يأتي الفرج، لا يستطيع أي منا أن يتخلى عن النار. وقفنا هناك، منتصبين أمامها، كتفًا إلى كتف، وقدمًا إلى قدم، وأيدينا خلفنا، لا تتزحزح قيد أنملة. كان الحصان مرئيًا في الخارج تحت المطر عند الباب، ووُضع إفطاري على الطاولة، وأُزيل طعام درامل، ودعاني النادل للبدء، فأومأت برأسي، ووقف كل منا على موقفه.

«هل ذهبت إلى ذا جروف منذ ذلك الحين؟» قال درامل.

قلت: لا، لقد اكتفيت من جماعة الفينش منذ آخر مرة كنت فيها هناك.

– هل كان ذلك عندما كان اختلفنا في الرأي؟

«نعم.» أجبته في وقت قصير جدًا.

«دعك من هذا! لقد تساهلوا معك كثيرًا» قال درامل ساخرًا. «لا ينبغي أن تفقد أعصابك».

قلت: يا سيد درامل، أنت لست مؤهلًا لتقديم المشورة في هذا الموضوع. عندما أفقد أعصابي (لا أعترف أنني فعلت ذلك في تلك المناسبة)، فإنني لا أرمي الكؤوس. قال درامل: أنا أفعل.

بعد أن نظرت إليه مرة أو مرتين، في حالة متزايدة من الشراسة المشتعلة، قلت:

(١) إشارة إلى ديك توربين قاطع الطريق البريطاني (١٧٠٥ - ١٧٣٩). المترجم.

- يا سيد درامل، لم أطلب هذه المحادثة، ولا أعتقد أنها مستساغة.
قال بغطرسة من فوق كتفه: أنا متأكد من أنها ليست كذلك؛ ولا أبالي
بها على الإطلاق.

وتابعت: ولذلك، بعد إذنك، سأقترح ألا نُجري أي نوع من
المحادثات في المستقبل.

قال درامل: هذا رأيي تمامًا، وهو ما كان ينبغي أن أقترحه بنفسه، أو
أفعله -على الأرجح- دون أن أقترحه. ولكن لا تفقد أعصابك. ألم تخسر
بما فيه الكفاية؟

- ماذا تقصد سيدي؟

«أيها النادل!» قال درامل، عن طريق الرد عليّ.

عاد النادل للظهور.

- انظر هنا يا سيدي. هل تفهم جيدًا أن السيدة الشابة لن تركب الخيل
اليوم، وأنني سأتناول الغداء في منزلها؟

- تمامًا يا سيدي!

بعد أن تحسّس النادل إبريق الشاي الذي أوشك على أن يبرد على
مائدتي براحة يده، نظر إليّ متوسلاً، ثم خرج. أخذ درامل، حريصاً على
عدم تحريك كتفه المجاورة لي، سيجاراً من جيبه وقضم نهايته، ولكن لم
يظهر أي علامة على الاستفزاز. شعرت بالاختناق والغليان، وشعرت أنه
لا يمكن أن يدور بيننا كلام آخر، دون طرح اسم إستيلا، الذي لم أستطع
تحمل سماعه وهو ينطق به؛ ولذلك نظرت بجمودٍ إلى الجدار المقابل،
كما لو لم يكن هناك أحد، وأجبرت نفسي على الصمت. من المستحيل

أن نعرف كم من الوقت بقينا في هذا الوضع السخيف، لولا اقتحام ثلاثة مزارعين أثرياء -رافقهم النادل على ما أعتقد- حيث دخلوا المقهى، وفكوا أزرار معاطفهم الكبيرة، وفركوا أيديهم، عندما توجهوا إلى النار، اضطررنا إلى إفساح المجال أمامهم.

رأيت من خلال النافذة، وهو يمسك بعرف حصانه، ويعتليه بطريقته الوحشية المتخبطة، ويمشي جانبًا ويتراجع. ظننته قد رحل، عندما عاد، طالبًا إشعال السيجار في فمه، الذي كان قد نسيه. ظهر رجل يرتدي ثوبًا رملي اللون ومعه ما يريد، لم أستطع أن أقول من أين: سواء من ساحة الفندق، أو من الشارع، أو أي مكان كان، وبينما انحنى درامل عن السرج وأشعل سيجاره وضحك وهو يهز رأسه نحو نوافذ المقهى، ذكرتني الأكتاف المترهلة والشعر الخشن لهذا الرجل الذي كان ظهره نحوي بأورليك.

كنت في مزاج سيئ للغاية فلم أستطع الاهتمام كثيرًا في ذلك الوقت إذا ما كان هو أم لا، أو حتى تناول الإفطار، غسلت الطقس والرحلة عن وجهي ويدي، وخرجت إلى المنزل القديم الذي لا يُنسى، والذي كان من الأفضل بكثير بالنسبة إليّ لو لم أدخله قط، ولم أره قط.

الفصل الرابع والأربعون

في الغرفة حيث مكثت طاولة الزينة، وتبددت الشموع على الحائط، وجدت الأنسة هافيشام وإستيلا؛ جلست الأنسة هافيشام على أريكة بالقرب من النار، وإستيلا على وسادة عند قدميها. كانت إستيلا تحيك، والأنسة هافيشام تنظر إليها بعين الرضا. رفعت كلتاها عينيها عندما دخلت، ورأتا تغيراً في داخلي. استنبطت ذلك من النظرة التي تبادلناها.

قالت الأنسة هافيشام: أي ريح أتت بك يا بيب؟

على الرغم من أنها نظرت إليّ بشبات، فإنني رأيت أنها كانت مرتبكة إلى حدٍّ ما. توقفت إستيلا للحظة في أثناء حياكتها وعيناها عليّ، ثم تابعت، وتخيلت أنني قرأت في حركة أصابعها، بوضوحٍ كما لو أنها أخبرتني بلغة الإشارة، أنها أدركت أنني اكتشفت ولي نعمتي الحقيقي.

قلت: يا آنسة هافيشام، لقد ذهبت إلى ريتشموند أمس للتحدث مع إستيلا؛ ووجدت أن الريح قد أتت بها هنا، فتبعتها.

أشارت إليّ الأنسة هافيشام للجلوس للمرة الثالثة أو الرابعة، فجلست على الكرسي بجوار طاولة الزينة، التي كنت أراها تشغله في كثير من الأحيان. مع كل هذا الخراب الذي كان عند قدمي ومن حولي، بدا لي مكاناً طبيعياً في ذلك اليوم.

- ما كان عليّ أن أقوله لإستيلا، يا آنسة هافيشام، سأقوله أمامك،

الآن، بعد لحظات قليلة. لن يفاجئك، ولن يزعجك، أنا تعس بقدر ما أردت تمامًا.

واصلت الأنسة هافيشام النظر إليّ بثباتٍ. كنت أرى في حركة أصابع إستيلا وهي تعمل أنها تهتم بما قلته؛ لكنها لم تنظر إلى الأعلى.

- لقد اكتشفت من هو ولي نعمتي. إنه ليس اكتشافاً ميموناً، وعلى الأرجح لن يُثيرني على الإطلاق من حيث السمعة أو المكانة أو الثروة أو أي شيء. هناك أسباب تجعلني لا أنفوه بالمزيد عن الأمر. فهذا ليس سري، بل سر شخص آخر.

وبينما كنت صامتاً لبعض الوقت، أنظر إلى إستيلا أفكر فيما سأقوله، كررت الأنسة هافيشام: هذا ليس سرّك، بل سر شخص آخر. حسناً؟

- عندما تسببت في إحضاري إلى هنا لأول مرة يا آنسة هافيشام من القرية هناك، والتي كنت أتمنى لو لم أعادها قط، أفترض أنني أتيت حقاً إلى هنا، كما كان من الممكن أن يأتي أي فتى آخر بالصدفة؛ مثل الخدم، يشبع حاجة أو رغبة، ويتقاضى أجراً مقابل ذلك؟

«نعم، يا بيب» أجابت الأنسة هافيشام، وهي تومئ برأسها بثباتٍ، «لقد فعلت».

- وهذا السيد جاغرز...

قالت الأنسة هافيشام وهي تخاطبني بلهجة حازمة: السيد جاغرز لا علاقة له بالأمر، ولم يعرف عنه شيئاً. كونه المحامي الخاص بي، وكونه محامي ولي نعمتك هو مجرد صدفة. وله نفس العلاقة مع آخرين ببساطة. ومهما كان الأمر، فقد حدث ولم يكن متعمداً.

يمكن لأي شخص أن يرى في وجهها المنهك أنه لم يكن هناك أي كبح أو تهرب حتى الآن.

قلت: لكن عندما وقعت في سوء الفهم الذي بقيت فيه فترة طويلة، على أي حال فقد سمحت بتضليلي؟ «نعم»، أجابت، وأومات مرة أخرى بثبات، «لقد سمحت بتضليلك».

- هل كان هذا فعلاً طيباً؟

صرخت الأنسة هافيشام وهي تضرب بعصاها على الأرض، وتشتعل في غضب فجأة إلى درجة أن إستيلا نظرت إليها بدهشة: من أنا بحق السماء كي أكون طيبة؟

لقد كانت شكوى واهنة، ولم أقصد تقديمها. أخبرتها بذلك، وجلست هي تفكر بعد فورة غضبها.

«حسناً حسناً حسناً!» قالت: «ماذا بعد؟»

قلت لها لتهدئتها: كنت أتناقضى أجراً سخياً مقابل حضوري القديم هنا، في أثناء تدريبي، ولقد طرحت هذه الأسئلة فقط لمعلوماتي الخاصة. ما يلي له غرض آخر (وآمل أن يكون أكثر تجرداً من العاطفة). بمجاراتك لي في سوء فهمي، يا آنسة هافيشام، لقد عاقبت أقاربك وتآمرت عليهم، كونهم يسعون وراء مصالحهم، ربما ستقدمين أي مصطلح يعبر عن نيتك، دون إساءة؟

- فعلتُ. كان ذلك فهمهم! وكذلك فهمك أنت. لا يعنيني بذل أي جهد كي أتوسل إليهم أو إليك لعدم أخذ الأمور على هذا النحو! لقد صنعت أفضاخك بنفسك، لم أصنعها أنا قطُ.

انتظرت حتى هدأت مرة أخرى، لأن هذا أيضًا خرج منها بطريقة جامحة ومفاجئة، وتابعت حديثي.

«لقد رُجَّ بي وسط عائلة من أقاربك يا آنسة هافيشام، وكنت بينهم باستمرار منذ أن ذهبت إلى لندن. أعلم أنهم كانوا تحت تأثير نفس الوهم مثلي تمامًا، وسأكون كاذبًا وحقيراً إذا لم أخبرك، سواء كان ذلك مقبولاً لديك أم لا، وسواء كنت تميلين إلى تصديقه أم لا، أنك تخطين بشدة في كل من السيد ماثيو بوكيت وابنه هربرت، إذا افترضت أنهم ليسوا كرماء، ومستقيمين، ومنفتحين، بل وعاجزين على القيام بأعمال اللؤم والتخطيط».

قالت الآنسة هافيشام: إنهم أصدقاؤك.

قلت: لقد جعلوا من أنفسهم أصدقائي، حتى وإن ظنوا أنني تفوقت عليهم؛ في الوقت الذي لم تكن سارة بوكيت، والآنسة جورجيانا، والسيدة كاميللا صديقات لي، على ما أعتقد.

لقد بدا لي أن هذا التناقض بينهم وبين الآخرين، كما كنت سعيداً برؤيته، كان يثير تعاطفها تجاههم. نظرت إليّ نظرة طويلة ثم قالت بهدوء:

- ماذا تريد لهم؟

قلت: فقط، ألا تخلطي بينهم وبين الآخرين. ربما يكونوا من نفس الدم، لكن صديقي، ليسوا من نفس المعدن.

كررت الآنسة هافيشام وهي لا تزال تنظر إليّ باهتمام:

- ماذا تريد لهم؟

أجبتها وأنا أعلم أن وجهي احمر قليلاً: أنا لست مأكراً جداً، كما

ترين، لكي أستطيع أن أخفي عنك، حتى لو كنت أرغب في ذلك، أنني أريد شيئاً ما. يا آنسة هافيشام، إذا كنت ستوفرين المال لتؤدي خدمة دائمة في الحياة لصديقي هربرت، ولكن بحكم طبيعة القضية يجب أن تتم دون علمه، فيمكنني أن أوضح لك كيفية القيام بذلك.

«ولماذا يجب أن يتم ذلك دون علمه؟» سألتني وهي تضع يديها على عصاها حتى تنظر إليّ باهتمام أكبر.

فقلت: لأنني بدأت الخدمة بنفسي، منذ أكثر من عامين، دون علمه، ولا أريد أن يُكشَف أمري. لماذا أفضل في القدرة على الاستمرار، هو أمر لا أستطيع شرحه، إنه جزء من السر الذي هو ملك لشخص آخر وليس لي. أبعدت عينيها عني تدريجيًا، وأدارتهما ناحية النار. وبعد أن شاهدها لفترة ظهرت في الصمت وعلى ضوء الشموع التي تذوي ببطء على أنها فترة طويلة، أيقظها تساقط بعض الجمر الأحمر، ونظرت نحوي مرة أخرى - في البداية، نظرة خاوية - ثم، بتركيز تدريجيًا. كل هذا الوقت كانت إستيلا مشغولة بحياتها. عندما ركزت الآنسة هافيشام انتباهها عليّ، قالت وهي تتحدث كما لو لم تكن هناك أي انقطاع في حديثنا:

- وماذا أيضًا؟

قلت: «إستيلا»، وأنا أنظر نحوها الآن، وأحاول أن أسيطر على صوتي المرتعش، «أنت تعلمين أنني أحبك. أنت تعلمين أنني أحببتك كثيرًا وطويلاً».

رفعت عينيها إلى وجهي عندما خاطبتها بهذه الطريقة، وقامت أصابعها بعملها، ونظرت إليّ بوجه غير متأثر. رأيت أن الآنسة هافيشام نظرت مني إليها ومنها إليّ.

- كان ينبغي أن أقول هذا من قبل؛ ولكن سوء فهمي الذي استمر طويلاً، دفعني إلى الأمل في أن الآنسة هافيشام اعتزمتنا بعضنا لبعض، بينما اعتقدت أنك لا تملكين التحكم في الأمر، إذا جاز التعبير، امتنعت عن إشهار حبي. ولكن يجب أن أشهره الآن.

حافظت إستيلا على ملامحها الهادئة، وأصابعها لا تزال تتحرك، هزت رأسها.

قلت ردًا على هذا الإجراء: أعرف، أعرف. ليس لدي أي أمل في أن أدعوك ملكي يا إستيلا. أنا أجهل ما قد يحدث لي قريبًا جدًا، أو إلى أي درجة قد أكون فقيرًا، أو إلى أين قد أذهب. ومع ذلك، أنا أحبك. لقد أحبيتك منذ أن رأيتك لأول مرة في هذا المنزل.

نظرت إليّ دون أن تتأثر تمامًا، وكانت أصابعها مشغولة، وهزت رأسها مرة أخرى.

- كان من قسوة الآنسة هافيشام، قسوة رهيبة، أن تلعب على سهولة تأثر صبي فقير، وأن تعذبني طوال تلك السنوات بأمل فارغ وسعي عقيم، لو كانت فكرت في خطورة ما فعلته. لكنني أعتقد أنها لم تفكر في ذلك. أعتقد أنها، في أثناء تحملها لمحتتها، نسيت محنتي يا إستيلا.

رأيت الآنسة هافيشام تضع يدها على قلبها وتثبتها هناك، بينما كانت تجلس تنظر إلى إستيلا وإليّ بالتناوب.

قالت إستيلا بهدوء شديد: يبدو أن هناك مشاعر وخيالات - لا أعرف كيف أسميها - لا أستطيع فهمها. عندما تقول إنك تحبني، أعرف ما تعنيه، كنوع من الكلمات؛ ولكن لا شيء أكثر من ذلك. أنت لا تخاطب شيئًا

في داخلي، ولا تلمس شيئاً هناك. لا يهمني ما تقوله على الإطلاق. لقد حاولت أن أحذرك من هذا، أليس كذلك؟

قلت مبتئساً: نعم.

- نعم. لكنك لم تأخذ حذرك، لأنك ظننت أنني لم أقصد ذلك، ألا تعتقد ذلك؟

- لقد اعتقدت وتمنيت ألا تقصدي ذلك. أنت، الشابة، وغير المحنكة، والجميلة، يا إستيلا! بالتأكيد ليس هذا من طبعك.

عادت قائلة: «إنه من طبعي»، ثم أضافت مع التشديد على الكلمات: «إنه الطبع الذي تشكّل داخلي. أنا أفرق كثيراً بينك وبين جميع الأشخاص الآخرين بقولي هذا، لا أستطيع فعل المزيد».

فقلت: أليس صحيحاً أن بتلي درامل موجود في المدينة هنا ويسعى وراءك؟

فأجابت: «هذا صحيح تماماً»، مشيرةً إليه بلامبالاة واحتقار مطلق.
- ألم تشجعيه وتخرجي معه وسوف يتغدى معك في هذا اليوم بالذات؟

بدت مندهشة بعض الشيء من أنني أعرف ذلك، لكنها أجابت مرة أخرى: «هذا صحيح تماماً».

- لا يمكنك أن تحبيه يا إستيلا!
توقفت أصابعها للمرة الأولى، فأجابت بغضب إلى حد ما: ماذا قلت لك؟ أما زلت تظن رغم ذلك أنني لا أقصد ما أقول؟
- لا يمكن أن تتزوجه أبداً، أليس كذلك يا إستيلا؟

نظرت نحو الأنسة هافيشام، وفكرت للحظة وهي تحمل عملها بين يديها. ثم قالت: لماذا لا أقول لك الحقيقة؟ سوف أتزوجه.

أسقطت وجهي بين يدي، لكنني تمكنت من السيطرة على نفسي بشكل أفضل مما كنت أتوقع، مع الأخذ في الاعتبار مدى الألم الذي شعرت به عندما سمعتها تقول هذه الكلمات. عندما رفعت وجهي مرة أخرى، كان هناك نظرة مروعة على وجه الأنسة هافيشام، لقد أذهلتني، حتى في ظل لوعتي وحرقتي.

- إستيلا، عزيزتي إستيلا، لا تدعي الأنسة هافيشام تقودك إلى هذه الخطوة المشؤومة. اصبرني نظرك عني للأبد، أنا أعلم جيداً أنك فعلت ذلك، لكن امنحي نفسك لشخص أفضل من درامل. إن منح الأنسة هافيشام إياك له، ستكون أكبر إهانة وأذى يمكن أن يحدث للعديد من الرجال الأفضل بكثير والذين يعجبون بك، والقلّة الذين يحبونك حقاً. من بين هؤلاء القلائل قد يكون هناك من يحبك كثيراً مثلي، على الرغم من أنه لم يحبك لفترة طويلة كما فعلت أنا. اختاريه، وسوف أتحمّل الأمر بشكل أفضل، من أجلك!

لقد أيقظ صدقي فيها دهشة بدت كأنها من الممكن أن يمسه الحنان، لو كان في إمكانها أن تفهمني بأي شكل من الأشكال.

قالت مرة أخرى بصوت ألطف: سوف أتزوجه، التحضيرات جارية لزواجي، وسأتزوج قريباً. لماذا تقوم بالحديث عن اسم والدتي بالتبني بتجريح؟ هذا قراري أنا.

- قرائك أنت يا إستيلا أن تلقي بنفسك على حيوان كهذا؟

«على من يجب أن ألقى نفسي؟» ردَّت بابتسامة. «هل يجب أن ألقى بنفسي على رجل سرعان ما يشعر (إذا شعر الناس بمثل هذه الأشياء) ببرودي تجاهه؟ لا عليك! لقد تم الأمر. سأقوم بعمل جيد بما فيه الكفاية، وكذلك زوجي. أما فيما يتعلق بقيادتي إلى ما تسميه هذه الخطوة المشؤومة، فإن الأنسة هافيشام كانت ستجعلني أنتظر، وألا أتزوج بعد؛ لكنني سئمت من الحياة التي أعيشها، والتي لا تجذبني كثيرًا، وأنا على استعداد لتغييرها. لا تقل المزيد. لن يفهم بعضنا بعضًا أبدًا».

حششتها في يأس: مثل هذا الحيوان اللئيم، مثل هذا الحيوان الغبي!
قالت إستيلا: لا تخف من أن أكون نعمة له. لن أكون كذلك. هيا!
خذ يدي. هل نفترق على هذا، أيها الفتى - أو الرجل - الحالم؟
«إستيلا!» أجبته وقد سقطت دموعي المريرة على يدها، وفعلت ما في وسعي لكبحها؛ «حتى لو بقيت في إنجلترا واستطعت أن أرفع رأسي أمام الناس، كيف يمكنني رؤيتك زوجة لدرامل؟
فأجابت: هراء، هراء. ستتغلب على الأمر في الحال.

- أبدًا يا إستيلا!

- سوف تخرجني من أفكارك في غضون أسبوع.
- أخرجك من أفكارى! أنت جزء من وجودي، جزء من نفسي.
لقد كنت في كل سطر قرأته منذ مجيئي إلى هنا أول مرة، ذلك الفتى الخشن من العامة الذي جرح قلبه المسكين حتى في ذلك الوقت. لقد كنت في كل مشهد رأيته منذ ذلك الحين، على النهر، على أشعة السفن، على المستنقعات، في السحب، في الضوء، في الظلام، في الريح، في الغابة، في البحر، وفي الشوارع. لقد

كنت تجسيدا لكل خيال جميل عرفه عقلي. إن الحجارة التي
تُصنع منها أقوى مباني لندن ليست أكثر ثباتًا، وإزاحتها بيدك
ليست أكثر استحالة من وجودك وتأثيرك فيّ، هناك وفي كل مكان،
وسيطل كذلك. إستيلا، حتى الساعة الأخيرة من حياتي، لا يمكنك
الاختيار إلا أن تظلي جزءًا من شخصيتي، جزءًا من الخير القليل
داخلي، وجزءًا من الشر أيضًا. لكنني في هذا الفراق لن أربطك إلا
بالخير؛ وسألتزم بذلك دائمًا، لأنك لا بد أن تكوني قد فعلت لي
خيرًا أكثر بكثير من الأذى، دعيني في شقائي الآن. بارك الله فيك،
وغفر الله لك!

لا أعرف في أي نشوة من البؤس أخرجت هذه الكلمات المكسورة
من نفسي. اندفعت الحماسة من داخلي، مثل الدم من الجرح، ثم تدفقت.
وضعت يدها على شفتي بتريث للحظات، وهكذا تركتها. لكن بعد ذلك،
تذكرت، وبعد ذلك بوقت قصير لسبب أقوى، أنه بينما كانت إستيلا تنظر
إليّ بدهشة لا تصدق، بدا من هيئة الأنسة هافيشام وهي كالشبح، ويدها
لا تزال تغطي قلبها، أن نظرتها المروعة قد تحولت إلى نظرة شفقة وندم.
انتهى كل شيء، انقضى كل شيء! انتهى الكثير وانقضى الكثير، إلى
درجة أنه عندما خرجت عند البوابة، بدا ضوء النهار بلون أعمق مما كان
عليه عندما دخلت. لفترة من الوقت، اختبأت بين بعض الأزقة والممرات
الجانبية، ثم انطلقت للذهاب سيرًا إلى لندن. لأنني بحلول ذلك الوقت
كنت قد استعدت وعيي وفكرت أنني لا أستطيع العودة إلى الفندق ورؤية
درامل هناك؛ أنني لم أستطع تحمل الجلوس في العربة وتلقي الحديث؛
أنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا أفضل لنفسي من إنهاكها.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما عبرت جسر لندن. متتبعًا التعقيدات الضيقة للشوارع التي كانت تتجه في ذلك الوقت غربًا بالقرب من شاطئ نهر ميدلسكس، كان أقرب مدخل لي إلى تمبل قريبًا من جانب النهر، عبر وايتفرايرز. لم يكن من المتوقع وصولي حتى الغد؛ لكن كان معي مفاتيحي، وإذا كان هربرت قد ذهب للنوم، فيمكنني الذهاب إلى الفراش بنفسى دون إزعاجه.

نظرًا إلى أنه نادرًا ما دخلت من بوابة وايتفرايرز بعد إغلاق تمبل، وبما أنني كنت موحلاً ومرهقًا للغاية، لم أشعر بالسوء عندما فحصني الحاجب الليلي باهتمام كبير وهو يمسك بالبوابة وهي مفتوحة قليلًا ويسمح لي بالمرور. ولأذكره بنفسى ذكرت له اسمي.

- لم أكن متأكدًا تمامًا يا سيدي، لكنني اعتقدت ذلك. هذا الخطاب لك، يا سيدي. طلب الرسول الذي أحضره أن تقرأه على ضوء فانوسي. فوجئت كثيرًا بالطلب، فأخذت الخطاب. كان موجهًا إلى المبجل فيليب بيب، وفي الجزء العلوي منه كانت الكلمات، «يرجى قراءة هذا هنا» فتحته، وكان الحارس يحمل مصباحه، وقرأت ما داخله، بخط ويميك،

«لا تذهب إلى المنزل».

الفصل الخامس والأربعون

انعطفت من بوابة تمبل بمجرد أن قرأت التحذير، وبذلت قسارى جهدي في طريقي إلى شارع فليت، وهناك حصلت على عربة متأخرة، وتوجهت إلى فندق هامومز في كوفنت جاردن. في ذلك الوقت، كان من الممكن دائماً الحصول على فراش هناك في أي ساعة من الليل، وسمح لي الحاجب بالدخول عند بوابته التي كانت قيد الاستعداد، وأشعل الشمعة التالية في الترتيب على رفه، وقادني مباشرة إلى غرفة النوم التالية في الترتيب على قائمته. كانت بمنزلة قبو في الطابق الأرضي في الخلف، به فراش هائل للغاية ذو أربعة أعمدة، منتشر في المكان بأكمله، ويضع إحدى ساقيه الهائلة في المدفأة والأخرى في المدخل، ويضغط منضدة أواني الغسيل الصغيرة البائسة كأنه يحقق العدل الإلهي.

عندما طلبت إضاءة ليلية، أحضر لي الحاجب، قبل أن يتركني، مصباحاً محمولاً قديماً من عهد مضى، كان شبح عصا مشي، التي قد تكسر ظهرها على الفور إذا لمستها، والتي لا يمكن إضاءة أي شيء عليها، ووُضعت في حبس انفرادي أسفل برج عالٍ من الصفيح، به ثقوب مستديرة شكلت نمطاً من الأعين اليقظة المحدقة على الجدران. عندما ذهبت إلى الفراش واستلقيت هناك متألماً ومرهقاً وبائساً، وجدت أنني لا أستطيع أن

أغمض عيني أكثر مما كنت أستطيع إغماض عيني أرجوس^(١) الأحمق هذا. وهكذا، في ظلام الليل وموته، حرق بعضنا إلى بعض.

يا لها من ليلة حزينة! إلى متى يستمر القلق، والكآبة! كانت هناك رائحة كريهة في الغرفة، من السخام البارد والغبار الساخن؛ وعندما نظرت إلى أركان اللوح فوق رأسي، فكرت في عدد الذباب الأزرق من عند الجزارين، وحشرة الأذن من السوق، واليرقات من الريف، لا بد أنها عالقة هناك في سكون حتى الصيف المقبل. قادني هذا إلى التكهّن بما إذا كان أي منها قد سقط على الإطلاق، ثم هُيئ لي أن هناك سقطات خفيفة على وجهي، هاجس بغيض، ألمح إلى أنه هناك أشياء أخرى أكثر بغضاً على ظهري. عندما بقيت مستيقظاً لبعض الوقت، تلك الأصوات غير العادية التي يعج بها الصمت بدأت تعلو. همست الخزانة، وتنهّدت المدفأة، ودقّت منضدة أواني الغسيل الصغيرة، وعزف وتر جيتار بين الحين والآخر في خزانة الأدراج. في نفس الوقت تقريباً، اكتسبت الأعين على الحائط تعبيراً جديداً، وفي كل واحدة من الدوائر المحدقة تلك رأيت مكتوباً: لا تذهب إلى المنزل.

مهما كانت الأوهام الليلية والضوضاء الليلية التي تزاхمت حولي، فإنها لم تصدّق قط جملة «لا تذهب إلى المنزل»، تركت هذه الجملة بصمتها على كل ما فكرت فيه، مثل آلام الجسدية. قبل وقت ليس ببعيد، قرأت في الصحف كيف أن رجلاً مجهولاً جاء إلى هذا الفندق ليلاً، وأوى إلى فراشه، وانتحر، وعُثر عليه في الصباح غارقاً في دمه. خطر في ذهني أنه

(١) أرجوس بانوبتس الملقب بذي المئة عين، هو عملاق له أعين كثيرة في رأسه وسائر جسده حسب الأساطير الإغريقية. المترجم.

لا بد أنه احتل هذا القبو الخاص بي، ونهضت من الفراش لأؤكد لنفسي أنه لا توجد علامات حمراء حوله؛ ثم فتحت الباب لأنظر إلى الممرات، وأواسي نفسي بصحبة ضوء بعيد، كنت أعرف أن الحاجب نائم بالقرب منه. لكن طوال هذا الوقت، لماذا لم أتمكن من العودة إلى المنزل، وماذا حدث في المنزل، ومتى يجب أن أعود إلى المنزل، وما إذا كان بروفيسر آمنًا في المنزل، كانت أسئلة تشغل ذهني بشدة إلى درجة أنه ربما كان من الممكن أن يفترض المرء أنه لا يوجد مساحة فيه لأي موضوع آخر. حتى عندما فكرت في إستيلا، وكيف افترقنا في ذلك اليوم إلى الأبد، وعندما تذكرت كل ظروف فراقنا، وكل نظراتها ونبرات صوته، وحركات أصابعها في أثناء الحياكة، كنت حتى في ذلك الوقت أتتبع، هنا وهناك وفي كل مكان، التحذير: لا تذهب إلى المنزل. عندما غفوت أخيرًا، بسبب الإرهاق الشديد للعقل والجسد، أصبح ذلك فعلًا غامضًا كان عليّ تصريفه. صيغة النهي: لا تذهب إلى المنزل، دعه لا يذهب إلى المنزل، دعونا لا نذهب إلى المنزل، لا تذهبا إلى المنزل، لا تدعهم يعودون إلى المنزل. ثم صيغة النفي: لا يجوز لي ولا أستطيع العودة إلى المنزل؛ ولن أستطيع العودة إلى المنزل، ولا ينبغي لي أن أعود إلى المنزل؛ حتى شعرت بأنني قد التهيت، فتدحرجت على الوسادة، ونظرت إلى الدوائر المحدقة على الحائط مرة أخرى.

كنت قد تركت تعليمات بأن أوقظ الساعة السابعة صباحًا؛ لأنه كان من الواضح أنني يجب أن أرى ويميك قبل أي شخص آخر، ومن الواضح أيضًا أن هذه كانت حالة لا يمكن فيها إلا أن يؤخذ رأيه في الورث. لقد كان من المريح الخروج من الغرفة التي كانت فيها الليلة بائسة للغاية، ولم

أكن في حاجة إلى طرق الباب ثانية لإفراعي من فراشي المضطرب.
لاحت أسوار القلعة أمام ناظري في الساعة الثامنة. صادف أن الخادمة الصغيرة كانت تدخل القلعة ومعها لفافتان من الخبز الساخن، مررت عبر الجزء الخلفي، وعبرت الجسر المتحرك بصحبتهما، وهكذا دخلت دون إعلان مواجهًا ويميك بينما كان يُعيد الشاي لنفسه وللعجوز، من خلال باب مفتوح كان من الممكن رؤية العجوز في الفراش.

قال ويميك: مرحبًا، سيد ييب! هل عدت إلى المنزل إذن؟
- نعم، عدت. لكنني لم أدخل المنزل.

قال وهو يفرك يديه: لا بأس. لقد تركت لك رسالة عند كل باب من أبواب تمبل، بالمناسبة، من أي بوابة أتيت؟
أخبرته.

قال ويميك: سأذهب إلى البوابات الأخرى اليوم وأتلف بقية الملاحظات. إنها قاعدة جيدة ألا تترك أدلة موثقة أبدًا إذا كان في إمكانك ذلك، لأنك لا تعرف متى يمكن استخدامها ضدك. سوف أرفع الكلفة بيننا، هل تمانع في شوي هذه النقائق من أجل الوالد العجوز.
قلت إنني سأكون سعيدًا بذلك.

قال ويميك للخادمة الصغيرة: «إذن يمكنك أن تقومي بعملك يا ماري آن. والآن نحن وحدنا، أليس كذلك يا سيد ييب؟» أضاف بغمزة في أثناء وهي تتوارى عن الأنظار.

شكرته على صداقته وحذره، واستمر حديثنا بنبرة منخفضة، بينما كنت أشوي نقائق العجوز وهو يدهن كسرة الخبز بالزبدة.

قال ويميك: الآن يا سيد ييب، كما تعلم، أنا وأنت يفهم بعضنا بعضًا. نحن بصفتنا الخاصة والشخصية، وقد دخلنا في صفقة سرية من قبل. الآراء الرسمية شيء، والشخصية شيء آخر.

وافقته بمودة. لقد كنت متوترًا للغاية، إلى درجة أنني كنت قد أشعلت النار في نقائق العجوز مثل الشعلة، واضطرت النفخ فيها حتى انطفأت. قال ويميك: سمعت بالصدفة، صباح أمس، أنك في مكان معين أخذتك فيه ذات مرة، حتى بيني وبينك، من الجيد أيضًا عدم ذكر الأسماء عندما يكون من الممكن تجنب ذلك...

قلت: من الأفضل ذلك. أنا أفهمك.

قال ويميك: سمعت هناك بالصدفة، صباح أمس، أن شخصًا معينًا ذا مساعٍ استعمارية إلى حدٍّ ما، ولديه ممتلكات محمولة، -لا أعرف من قد يكون حقًا- لن نذكر اسم هذا الشخص...

قلت: ليس ضروريًا.

«لقد أحدث بعض الضجة في جزء معين من العالم حيث يذهب عدد كبير من الناس، ليس دائمًا إشباعًا لميولهم الخاصة، وليس بصرف النظر تمامًا عن النفقات الحكومية...».

عندما شاهدت وجهه، اشتعلت نقائق العجوز مثل الألعاب النارية، وشت انتباهي وانتباه ويميك بشكل كبير؛ واعتذرت عن ذلك.

قال ويميك: بالاختفاء من هذا المكان، وعدم سماع أي شيء عنه، نشأت التخمينات وتشكلت النظريات. سمعت أيضًا أنك في غرفتك في جاردن كورت، داخل تمبل، قد رُوقبت، وربما تُراقب مرة أخرى.

سألت: بواسطة من؟

قال ويميك بشكلٍ مراوغ: لن أخوض في هذا الأمر، فقد يتعارض مع المسؤوليات الرسمية. لقد سمعت ذلك، كما سمعت في الماضي أشياء أخرى غريبة في نفس المكان. أنا لا أقول ذلك بناء على معلومات واردة. لقد سمعت ذلك فقط.

أخذ مني شوكة الشوي والنقانق وهو يتحدث، ووضع إفطار العجوز بشكلٍ أنيق على صينية صغيرة. قبل أن يضعها أمامه، ذهب إلى غرفة العجوز بقطعة قماش بيضاء نظيفة، وربطها تحت ذقن السيد العجوز، وعدّل من جلسته، ووضع قبعته الليلية على جانب واحد، مما أعطاه مظهرًا أنيقًا للغاية. ثم وضع إفطاره أمامه بعناية كبيرة، وقال: «هذا حسنًا، أليس كذلك أيها الوالد العجوز؟» فأجاب العجوز المبتهج: «حسنًا يا جون، يا ولدي، حسنًا!» نظرًا إلى أنه بدا أن هناك فهمًا ضمنيًا بأن العجوز لم يكن يلبس ملابس أنيقة، وبالتالي يجب اعتباره غير مرئي، فقد تظاهرت بأنني في جهل تام بهذه الإجراءات.

قلت لويميك عندما عاد: إن مراقبتي في منزلي (التي كان لديّ سبب للشك فيها) لا يمكن فصلها عن الشخص الذي أشرت إليه؛ أليس كذلك؟ بدا على ويميك الجدية الشديدة وهو يقول: لا أستطيع التعهد بقول ذلك، على حد علمي. أعني أنني لم أستطع أن أقول إنه كان كذلك في البداية، لكنه إما أن يكون، وإما سيكون، وإما أن هناك خطرًا كبيرًا من كونه كذلك.

وبما أنني رأيت أن ولاءه للبتل بريتن منعه من قول كل ما يستطيع، وبما أنني عرفت وأنا ممتن له مدى تماديه في هذا القول، لم أستطع

الضغط عليه. ولكنني قلت له، بعد قليل من التأمل في النار، إنني أود أن أسأله سؤالاً، يستطيع إجابته أو لا، حسبما يراه صحيحاً، ومتأكدًا من أنه سيقوم بالاختيار الصحيح. توقف في أثناء تناول إفطاره، وعقد ذراعيه، وشمر أكمام قميصه (كانت فكرته عن الراحة داخل المنزل هي الجلوس دون أي معطف)، وأوماً إليّ برأسه مرة واحدة لكي أطرح سؤالاً.

- هل سمعت عن رجل سيئ السمعة، واسمه الحقيقي كومبيسون؟
أجاب بإيماء واحدة أخرى.

- هل هو على قيد الحياة؟
إيماءة أخرى.

- هل هو في لندن؟

أوماً إليّ برأسه مرة أخرى، وأطبق على فمه الشبيه بصندوق البريد بشدة، وأعطاني إيماءة أخيرة، ثم واصل تناول إفطاره.

قال ويميك: «الآن» بعد أن انتهى الاستجواب، وهو ما أكدته وكرره ليكون في علمي، «لقد فعلت ما فعلته، بعد سماع ما سمعته. ذهبت إلى جاردن كورت لكنني لم أجذك، ذهبت إلى كلاريكرز للعثور على السيد هربرت».

«وهل وجدته؟» قلت بقلق شديد.

- وجدته. ومن دون ذكر أي أسماء أو الخوض في أي تفاصيل، أوضحت له أنه إذا كان على علم بوجود أي شخص -يُدعى توم، أو جاك، أو ريتشارد- في المنزل، أو في منزل مجاور، فمن الأفضل أن يبعد توم، أو جاك، أو ريتشارد عن المكان بينما أنت بعيد.

- سيقع في حيرة كبيرة إزاء ما يمكنه فعله؟

- لقد كان في حيرة من أمره بالفعل؛ لأنني أعطيته رأيي بأنه ليس من الآمن محاولة إبعاد توم أو جاك أو ريتشارد عن الطريق في الوقت الحاضر. سيد يبب، سأخبرك بشيء. في ظل الظروف الحالية، بمجرد دخولك المدينة الكبيرة، تصير أكثر الأماكن أماناً بالنسبة إليك. لا تغادر مكانك قبل الأوان. ابقَ على مقربة، انتظر حتى تهدأ الأمور، قبل أن تجرب الخروج، حتى لو خارج البلاد.

شكرته على نصيحته القيمة، وسألته ماذا فعل هربرت؟

قال ويميك: السيد هربرت، بعد أن ظل في حالة من الذهول لمدة نصف ساعة، وضع خطة. لقد ذكر لي سرّاً، أنه يتودد لسيدة شابة، كما تعلم بلا شك، والدها طريح الفراش. وهذا الأب، الذي عمل كأمين حسابات على سفينة، يرقد على فراش في نافذة بارزة مقوسة حيث يستطيع رؤية السفن تبحر أعلى وأسفل النهر. أنت على دراية بالسيدة الشابة، على الأرجح؟

قلت: ليس شخصياً.

والحقيقة هي أنها اعترضت عليّ باعتباري رفيقاً مسرفاً لم يُضف فائدة لهربرت، وعندما اقترح هربرت لأول مرة أن يقدمني لها، تلقت العرض بفتور، إلى درجة أن هربرت اضطر إلى إخباري بالأمر، على أمل مرور بعض الوقت قبل أن أتعرف عليها. عندما بدأت في تعزيز آفاق هربرت خلصةً، كنت قادراً على تحمّل ذلك بهدوء وانسراح صدر؛ لم يكن هو وشريكته، من جانبهما، بطبيعة الحال تواقين جداً إلى إدخال شخص ثالث في مقابلاتهما؛ وهكذا، على الرغم من تأكيد لي بأن كلارا

قد زاد احترامها لي، ورغم أنني والسيدة الشابة تبادلنا الرسائل والتحيات بانتظامٍ منذ فترة طويلة من خلال هربرت، إلا أنني لم أرها قط. ومع ذلك، لم أزعج ويميك بهذه التفاصيل.

قال ويميك: المنزل ذو النافذة البارزة المقوسة، يقع على ضفة النهر، في المنطقة هناك بين لايمهاوس وجرينتش، تملكه أرملة مهذبة للغاية، ويبدو أن لديها طابقاً علوياً مفروشاً توجره. قال لي السيد هربرت، ما رأيي في ذلك باعتباره مسكناً مؤقتاً لتوم أو جاك أو ريتشارد؟ الآن، وجدت الأمر جيداً، لثلاثة أسباب سأقولها لك. أولاً: إنه بعيد كل البعد عن أماكن مراقبتك، وعن كومة الشوارع المعتادة الكبيرة منها والصغيرة، ثانياً: دون أن تقترب منه بنفسك، في إمكانك دائماً أن تتأكد من سلامة توم أو جاك أو ريتشارد، من خلال السيد هربرت، ثالثاً: بعد فترة من الوقت، وعندما يكون من الصواب، إذا كنت تريد أن تضع توم أو جاك أو ريتشارد على متن سفينة أجنبية، سيكون جاهزاً لذلك.

شعرت بالارتياح الشديد لهذه الاعتبارات، وشكرت ويميك مراراً وتكراراً، وتوسلت إليه أن يكمل.

- حسناً يا سيدي! انطلق السيد هربرت نفسه في العمل بمنتهى الحماس، وبحلول الساعة التاسعة من الليلة الماضية كان قد أسكن توم، أو جاك، أو ريتشارد، أيّاً كان اسمه -أنا وأنت لا نريد أن نعرف- بنجاح تام. كان من المفهوم في السكن القديم أنه استدعي إلى بلدة دوفر، وفي الواقع، نُقل من خلال الطريق المؤدي إلى دوفر ثم انعطف خارجه. الآن، هناك ميزة عظيمة أخرى لكل هذا، وهي أن الأمر تم من دونك، وإذا كان أي شخص

يتابع تحركاتك، فلا بد أن يكون معروفًا أنك على بُعد أميال كثيرة،
وأنت منشغل بأشياء مختلفة تمامًا. فهذا يصرف الشبهة ويسبب
الارتباك؛ ولنفس السبب أوصيت، حتى لو عدت الليلة الماضية،
ألا تعود إلى المنزل؛ إنه يجلب المزيد من الارتباك، وهو شيء في
صالحك.

بعد أن أنهى ويميك إفطاره، نظر إلى ساعته، وبدأ في ارتداء معطفه.
قال ويداه لا تزالان داخل كُمَي معطفه: والآن يا سيد بيب، ربما
بذلت أقصى جهدي، ولكن إذا كان في إمكاني فعل المزيد -في رأيي
داخل والورث، وبصفة خاصة وشخصية بحثة- فسوف أكون سعيدًا
للقيام بذلك. وها هو العنوان. لن يكون هناك أي ضرر في ذهابك إلى
هناك الليلة، والتأكد بنفسك من أن كل شيء على ما يرام مع توم أو جاك
أو ريتشارد، قبل أن تعود إلى المنزل، وهذا سبب آخر لعدم عودتك إلى
المنزل الليلة الماضية. ولكن، بعد أن تذهب إلى المنزل، لا تعد إلى هنا.
أنت مرحّب بك، بالتأكيد يا سيد بيب.

كانت يده الآن خارج كُمَيه، وكنت أصافحهما؛ «واسمح لي أخيرًا
أن أطرح عليك نقطة مهمة» وضع يديه على كتفي، وأضاف في همسٍ
مهيب: اغتنم هذا المساء للاستيلاء على ممتلكاته المحمولة، أنت لا
تعرف ما قد يحدث له، لا تدع أي شيء يحدث للممتلكات المحمولة.
شعرت باليأس من توضيح رأيي لويميك بشأن هذه النقطة، لذا
توقفت عن المحاولة.

قال ويميك: لقد انتهى الوقت، ويجب أن أغادر. إذا لم يكن لديك
شيء أكثر إلحاحًا للقيام به من البقاء هنا حتى حلول الظلام، فهذا ما يجب

أن أنصح به. تبدو قلقًا جدًّا، وسيكون من الجيد لك أن تقضي يومًا هادئًا
تمامًا مع العجوز، سيستيقظ قريبًا، وهل تذكر الخنزير؟
قلت: بالطبع.

«حسنًا؛ وتأكّل القليل من لحم الخنزير. تلك النقائق التي شويتها
كانت منه، وكان ممتازًا من جميع النواحي. جرّبه، ولو فقط لأجل الرفقة
القديمة. وداعًا أيها الوالد العجوز!» في صيحة مبهجة.
«حسنًا يا جون؛ حسنًا يا ولدي!» صاح الرجل العجوز من أعماق
قلبه.

وسرعان ما غفوت أمام نار ويميك، واستمتعت أنا والعجوز برفقة
بعضنا لبعض من خلال النوم أمامها طوال اليوم تقريبًا. تناولنا لحم
الخنزير على العشاء، والخضار المزروع في المزرعة؛ وأومأت برأسي
إلى العجوز بقصدٍ حسنٍ إن لم أستطع ذلك حين يغلبني النعاس. عندما
حلّ الظلام تمامًا، تركت العجوز يُعد النار للخبز المحمص؛ واستنتجت
من عدد فناجين الشاي، وكذلك من نظراته إلى البابين الصغيرين في
الجدار، أنه يتربّب وصول الأنسة سكيفينز.

الفصل السادس والأربعون

دَقَّت الساعة الثامنة قبل خروجي إلى الهواء الطلق، وكان الهواء معباً، بشكلٍ مقبول، برائحة برادة ونشارة بناء القوارب على الشواطئ الطويلة، وصانعي الصواري، والمجاديف، والبكرات. كل تلك الأرض الواقعة بجانب الماء من المنطقة العلوية والسفلية أسفل الجسر كانت أرضاً مجهولة بالنسبة إليّ؛ وعندما واصلت طريقي حذاء النهر، وجدت أن البقعة التي أردتها لم تكن في المكان الذي كنت أفترضه، ولم يكن من السهل العثور عليها على الإطلاق. كان يُطلق عليها اسم ميل بوند بانك، حوض تشينكس؛ ولم يكن لديّ أي دليل آخر لحوض تشينكس سوى ممر الجبال النحاسية الصدئة.

يا لكم السفن التي تقطعت بها السبل في أثناء إصلاحها في الأحواض الجافة التي فقدت نفسي وسطها، وهياكل السفن القديمة التي كانت في طريقها للتقطيع، والأوساخ والوحل وغيرها من رواسب المد، وساحات بناء السفن وقاطعي السفن، والمراسي الصدئة التي تخترق الأرض بشكلٍ عشوائي، على الرغم من أنها كانت خارج الخدمة لسنوات، يا لها من بلدة جبلية مليئة بالبراميل والأخشاب المتركمة، وممرات الجبال التي لم تكن ذات لون نحاسي صدئ. بعد أن فشلت عدة مرات في الوصول إلى وجهتي، وفي كثير من الأحيان تجاوزتها، وصلت بشكلٍ غير متوقع إلى

الزاوية عند ميل بوند بانك. لقد كان مكانًا منعشًا، مع أخذ جميع الظروف في الاعتبار، حيث كانت للرياح القادمة من النهر مساحة للدوران؛ وكانت فيه شجرتان أو ثلاث، وجذع طاحونة هوائية متهدمة، وممر الجبال النحاسية الصدئة، الذي أستطيع أن أتبع أطرافه الطويلة الضيقة على ضوء القمر، بطول سلسلة من الإطارات الخشبية مغروسة في الأرض، وكانت تبدو مثل أدوات جرف التبن المتقاعدة التي هربت وفقدت معظم أسنانها.

اخترت من بين المنازل القليلة الغربية الواقعة على ميل بوند بانك منزلًا بواجهة خشبية وثلاثة طوابق بنوافذ بارزة (وليست مثلثة، فذلك شيء آخر)، ونظرت إلى اللوحة الموجودة على الباب، وقرأت هناك، السيدة ويمبل. وبما أن هذا هو الاسم الذي أردته، فقد طرقت الباب، واستجابت لي امرأة عجوز ذات مظهر جميل وزاهٍ. نحاسها هربت جانبًا على الفور، وقادني بصمتٍ إلى الردهة، وأغلق الباب. لقد كان إحساسًا غريبًا رؤية وجهه المألوف للغاية مستقرًا كأنه في منزله في تلك الغرفة والمنطقة غير المألوفتين على الإطلاق؛ ووجدت نفسي أنظر إليه، مثلما نظرت إلى خزانة الزاوية ذات الكؤوس والخزف، والأصداف الموجودة على رف المدفأة، والنقوش الملونة على الحائط، التي تمثل موت الكابتن كوك، وإطلاق سفينة، وجلالة الملك جورج الثالث يرتدي باروكة سائق عربة وسروالًا جلدًا وحذاءً عاليًا على شرفة قلعة وندسور.

قال هربت: كل شيء على ما يرام يا هاندل، وهو راضٍ تمامًا، رغم أنه متلهف على رؤيتك. فتاتي العزيزة مع والدها؛ وإذا انتظرت حتى تنزل إلى هنا، سأقدمك إليها، ثم نصعد إلى الطابق العلوي، ها هو والدها.

لقد أدركت وجود زمجرة مزعجة فوق رأسي، وربما عبّرت عن هذا في ملامح وجهي.

قال هربرت مبتسمًا: أخشى أنه نذل عجوز بائس، لكنني لم أره قط، ألا تشم رائحة الروم؟ دائمًا ما يشرب.

سألت: الروم؟

رد هربرت: نعم، ويمكنك أن تتخيل تأثيره الملطف على مرض النقرس لديه. وهو يصبر أيضًا على أن يحتفظ بجميع المؤمن في غرفته بالطابق العلوي وتوزيعها بنفسه، يحتفظ بها على الرفوف فوق رأسه، ويزينها جميعًا؛ غرفته تشبه دكان البقالة على الأرجح.

وبينما كان يتحدث بهذه الطريقة، تحوّلت الزمجرة إلى زئير طويل، ثم تلاشت.

قال هربرت مفسرًا: ماذا تتوقع أن تكون العواقب إذا قطع الجبن؟ فالرجل المصاب بالنقرس في يده اليمنى - وفي جسده بالكامل - لا يمكن أن يتوقع تقطيع جبن الجلوستر دون أن يؤدي نفسه.

بدا كأنه قد أذى نفسه كثيرًا، لأنه أطلق زئيرًا غاضبًا آخر.

قال هربرت: إن الحصول على بروفيس كمستأجرٍ للغرفة العلوية هو بمنزلة هبة من السماء للسيدة ويمبل، لأن الناس بشكلٍ عام لن يتحمّلوا هذا الضجيج بالطبع. مكان غريب يا هاندل؛ أليس كذلك؟

كان مكانًا غريبًا بالفعل؛ ولكنه مصان جيدًا ونظيف بشكل ملحوظ.

قال هربرت عندما أخبرته بذلك: السيدة ويمبل هي أفضل ربة منزل، وأنا حقًا لا أعرف ماذا ستفعل فتاتي كلارا من دون مساعدتها الأمومية؛

لأن كلارا ليس لديها أم، يا هاندل، وليس لها أي قريب في العالم سوى جرافاندجريم العجوز.

- بالتأكيد هذا ليس اسمه يا هربرت؟

قال هربرت: لا، لا، هذا هو اسمه بالنسبة إليّ، اسمه السيد بارلي. ولكن يا لها من نعمة أن يحب شاب مثلي فتاة ليس لها أي أقارب، ولا تستطيع أن تزجج نفسها أو أي شخص آخر بعائلتها!

لقد أخبرني هربرت في مناسبات سابقة، ويذكّرني الآن، أنه عرف الآنسة كلارا بارلي لأول مرة عندما كانت تكمل تعليمها في مدرسة في هامرسميث، وأنه عندما استدعي إلى المنزل لتمرّض والدها، أقرأ بعاطفتهم للسيدة ويمبل الحنونة، التي قامت برعايتها وتوجيهها بنفس القدر من اللطف والتكتم منذ ذلك الحين. لقد كان مفهومًا أنه لا يمكن الوثوق بأي شيء له علاقة بأمور القلب لبارلي العجوز، نظرًا إلى كونه غير قادر أبدًا على التفكير في أي موضوع متعلق بالنفس أكثر من النقرس، والروم، ومخزن المؤن.

وبينما كنا نتحدث بنبرة منخفضة وزمجرة العجوز بارلي المستمرة تهز العارضة الخشبية التي تقطع السقف، فُتح باب الغرفة، ودخلت فتاة جميلة جدًا ونحيفة ذات أعين داكنة تبلغ العشرين من عمرها أو نحو ذلك ومعها سلة يد؛ خلّصها هربرت من السلة بحنان، وقَدّمها إليّ، وهو يحمر خجلًا، على أنها «كلارا». كانت حقًا فتاة ساحرة للغاية، وربما كانت تبدو كأنها جنية أسيرة، دفعها ذلك الغول المشاكس، العجوز بارلي، إلى خدمته.

قال هربرت وهو يُريني السلة، بابتسامة حنونة ورقيقة، بعد أن تحدثنا قليلًا: انظر هنا. هذا هو عشاء كلارا المسكينة، الذي تُعطي إياه كل ليلة.

هذا هو نصيبها من الخبز، وهذه هي شريحة الجبن، وهذا هو مشروب الروم الذي أشربه. هذا هو إفطار السيد بارلي للغد، الذي تُعطى إياه لطهيه. قطعتان من لحم الضأن، وثلاث حبات بطاطس، وبعض البازلاء، والقليل من الدقيق والزبدة والملح، وكل هذا الفلفل الأسود، يُطهى معاً ويُؤخذ ساخناً، وأعتقد أنه طبق مناسب لمرض النقرس!

كان هناك شيء طبيعي جداً وجذاب في طريقة كلارا المستكينة في النظر إلى هذا المخزون بتفاصيله، بينما أشار إليها هربرت؛ وشيء واثق ومحب وبريء للغاية في طريقتهما المتواضعة في امتثالها لعناق هربرت لها؛ وشيء رقيق جداً داخلها، يحتاج بشدة إلى الحماية على ميل بوند بانك، بالقرب من حوض تشينكس، وممر الحبال ذي اللون النحاسي الصدئ، وزمجرة بارلي العجوز تهز العارضة الخشبية للسقف، إلى درجة أنني لم أكن لأفسخ الخطبة بينها وبين هربرت مقابل كل الأموال الموجودة في محفظة الجيب التي لم أفتحها قط.

كنت أنظر إليها بسرور وإعجاب، عندما تحوّلت الزمجرة فجأة إلى زئير مرة أخرى، وسمعنا صوت ارتطام مخيف في الأعلى، كما لو كان عملاقاً بساق خشبية يحاول اختراق السقف ليصل إلينا. عندها قالت كلارا لهربرت: «أبي يريدني يا عزيزي!» وهربت.

قال هربرت: يا له من سمكة قرش عجوز بلا أي ضمير! ماذا تعتقد أنه يريد الآن يا هاندل؟

قلت: لا أعرف. هل يحتاج إلى مشروب؟

«هذا هو!» صاح هربرت، كما لو أنني قد خمنت عن جدارة. «إنه يبقى مشروبه جاهزاً مخلوطاً في حوض صغير على الطاولة. انتظر لحظة،

وسوف تسمع كلارا ترفعه ليأخذ بعضًا منه. ها هو ذا!» زئير آخر، مع هزة طويلة في النهاية. قال هربرت وقد حل الصمت: «الآن، هو يشرب». قال هربرت بينما تردد صوت الزمجرة في العارضة مرة أخرى: الآن، استلقِ على ظهره مرة أخرى!

عادت كلارا بعد ذلك بوقت قصير، ورافقني هربرت إلى الطابق العلوي لرؤية عهدتنا. عندما مررنا بباب السيد بارلي، سمعنا صوته يتمتم بصوتٍ أجش في الداخل، بنبرة تعلو وتنخفض مثل الريح، النشيد التالي، استبدل فيها الأمنيات الطيبة بشيء عكسها تمامًا:

«مرحبًا! بارك الله فيك، ها هو بيل بارلي العجوز. ها هو بيل بارلي العجوز، بارك الله فيك. ها هو بيل بارلي العجوز مستلقيًا على ظهره، الملك لله. مستلقيًا على ظهره المسطح مثل سمكة مفلطحة عجوز ميتة، ها هو بيل بارلي العجوز، بارك الله فيك. مرحبًا! بارك الله فيك».

مع نشيد السلوان هذا، أخبرني هربرت أن بارلي الخفي يبقى وحده مع أفكاره ليل نهار؛ في النهار، وفي الوقت نفسه، كثيرًا ما ينظر بعين واحدة إلى تلسكوب رُكِّب على فراشه لتسهيل متابعته للسفن في النهر.

في الحجرتين الموجودتين في الجزء العلوي من المنزل، حيث الهواء متجدد ومنعش، وحيث كان صوت السيد بارلي أقل سماعًا من الأسفل، وجدت بروفيس مستقرًا بشكل مريح. لم يُبَد أي انزعاج، وبدا أنه لم يشعر بأي انزعاج يستحق الذكر؛ ولكن أذهلني أنه كان أكثر رقة بالتأكيد، بشكلٍ غامض،

لأنني لم أستطع أن أقول كيف، ولم أستطع بعد ذلك أن أتذكر كيف حتى ولو حاولت.

إن الفرصة التي منحتها لي راحة اليوم للتفكير أدت إلى إصراري التام على عدم قول أي شيء له فيما يتعلق بكومبيسون. حسب معرفتي به، فإن عداوته تجاه الرجل قد تؤدي إلى سعيه وراءه والاندفاع إلى تدمير نفسه. لذلك، عندما جلسنا أنا وهربرت معه بجوار النار، سألته أولاً عما إذا كان يثق بحكم ويميك ومصادر معلوماته؟

«نعم، نعم، يا ولدي العزيز!» أجاب بإيماء خطيرة: «جاغر زيعرف». قلت: إذن، لقد تحدثت مع ويميك، وجئت لأخبرك بالتحذير والنصيحة اللذين قدمهما إليّ.

فعلت ذلك بدقة، مع التحفظ المذكور للتو؛ وأخبرته كيف سمع ويميك، في سجن نيوجيت (لم أتمكن من تحديد ما إذا كان من الضباط أو السجناء)، أنه كان موضع اشتباه، وأن غرفتي كانت تحت المراقبة؛ وكيف أوصى ويميك بالابتعاد عنه لبعض الوقت، وإبقائه في الأنحاء؛ وما قاله ويميك عن نقله إلى خارج البلاد. أضفت أنه بالطبع، عندما يحين الوقت، يجب أن أذهب معه، أو ألحق به على الفور، كما قد يكون أكثر أماناً في حكم ويميك. وما يلي ذلك لم أتطرق إليه؛ وفي الواقع، لم أكن واضحاً أو مرتاحاً بشأن ذلك في ذهني، الآن بعد أن رأيته في تلك الحالة الأكثر رقة، وفي خطر محقق بسببي. أما بالنسبة إلى تغيير طريقة معيشتي من خلال زيادة نفقاتي، فسألته عما إذا كان الأمر في ظروفنا الحالية غير المستقرة والصعبة، لن يكون أمراً سخيلاً، إذا لم يكن أسوأ؟

لم يستطع إنكار هذا، وكان في الواقع متفهماً جداً طوال الوقت. وقال إن عودته كانت مغامرة، وكان يعرف دائماً أنها مغامرة. لن يفعل

شيئاً يجعلها مغامرة يائسة، ولم يكن لديه خوف كبير على سلامته بمثل هذه المساعدة الجيدة.

قال هربرت، الذي كان ينظر إلى النار ويتأمل، إن شيئاً ما خطر في ذهنه نتيجة لاقتراح ويميك، الذي قد يكون جديراً بالتحري: «كلانا يجدف بكفاءة يا هاندل، ويمكننا أن ننزله بأنفسنا أسفل النهر عندما يحين الوقت المناسب. لن نحتاج إلى استئجار أي قارب لهذا الغرض، ولا رجال القوارب؛ وهذا من شأنه ألا يترك مجالاً للشك على الأقل، وأي فرصة تستحق الاستغلال. لا يهم الموسم. لا تظن أنه قد يكون جيداً لو بدأنا على الفور في الاحتفاظ بقارب أسفل درج تمبل، نأخذه للتجديف صعوداً وهبوطاً في النهر؟ عندما تصبح عادة، من سيلاحظ أو يعترض؟ افعل ذلك عشرين أو خمسين مرة، ولن يوجد شيء مميز في أن تفعل ذلك في المرة الحادية والعشرين أو الحادية والخمسين».

أعجبني هذا المخطط، وطار به بروفيس فرحاً. اتفقنا على أنه ينبغي تنفيذه، وألا يتعرف علينا بروفيس أبداً إذا وصلنا إلى أسفل الجسر، وتجاوزنا ميل بوند بانك. لكننا اتفقنا أيضاً على أنه يجب عليه أن يسدل الستارة في ذلك الجزء من نافذته المطلّة على الشرق، كلما رأنا وكان كل شيء على ما يرام.

الآن وقد انتهى اجتماعنا، ورُتّب كل شيء، نهضت للذهاب؛ مُشيراً إلى هربرت أنه من الأفضل ألا نعود أنا وهو إلى المنزل معاً، وأني سأذهب قبله بنصف ساعة. قلت لبروفيس: لا أحب أن أترك هنا، على الرغم من أنني لا أشك في أنك هنا أكثر أماناً مما أنت بالقرب مني. وداعاً!

أجاب وهو يشبك يديّ: يا ولدي العزيز، لا أعرف متى قد نلتقي مرة

أخرى، وأنا لا أحب الوداع. قل ليلة سعيدة!

- ليلة سعيدة! سوف ينتقل هربرت بيننا بانتظام، وعندما يحين الوقت تأكد من أنني سأكون جاهزًا. ليلة سعيدة، ليلة سعيدة!

رأينا أنه من الأفضل أن يبقى في غرفته الخاصة؛ وتركناه على الدرج خارج الباب، حملنا مصباحًا فوق حاجز السلم ليضيء لنا الطابق السفلي. عندما نظرت إليه مرة أخرى، فكرت في الليلة الأولى لعودته، عندما كانت أوضاعنا معكوسة، وعندما لم أتخيل أن قلبي يمكن أن يكون مثقلًا وقلقلًا عند فراقه كما هو الآن.

كان بارلي العجوز يزمر ويسب عندما عدنا إلى بابه، دون أن يبدو أنه توقف أو كان هناك هدف للتوقف. عندما وصلنا إلى أسفل الدرج، سألت هربرت عما إذا كان قد احتفظ باسم بروفيس. فأجاب: «بالتأكيد لا، وأن المستأجر هو السيد كامبل». وأوضح أيضًا أن كل ما عرف عن السيد كامبل هناك هو أنه (هربرت) كان يتكفل بالسيد كامبل، وشعر باهتمام شخصي قوي بأن يحظى بالعناية الجيدة وأن يعيش حياة منعزلة. لذلك، عندما ذهبنا إلى الردهة حيث كانت السيدة ويمبل وكلاهما جالستين منهنمكتين في العمل، لم أقل شيئًا عن اهتمامي بالسيد كامبل، بل احتفظت بالأمر لنفسى.

عندما ودّعت الفتاة الجميلة الرقيقة ذات الأعين الداكنة، والمرأة ذات الحنان الأمومي بتعاطفها الصادق مع علاقة الحب الحقيقية هذه، شعرت كما لو أن ممر الحبال ذا اللون النحاسي الصديء أصبح مكانًا مختلفًا تمامًا. قد يكون بارلي العجوز قديمًا مثل التلال، وربما كذلك يسب مثل مجموعة كاملة من الجنود، ولكن كان هناك ما يكفي من الشباب والثقة

والأمل في حوض تشينكس لملئه حتى يفيض. ثم فكرت في إستيلا، وفي فراقنا، وعدت إلى المنزل في حزن شديد.

كانت كل الأشياء هادئة في تمبل كما عهدتها. كانت نوافذ الغرف الموجودة على ذلك الجانب، التي شغلها بروفيس مؤخراً، مظلمة وساكنة، ولم يكن هناك متسكع واحد في جاردن كورت. مررت بجوار النافورة مرتين أو ثلاثاً قبل أن أنزل الدرج الذي يفصل بيني وبين غرفتي، لكنني كنت وحيداً تماماً. جاء هربرت إلى جانب فراشي عندما دخل، لأنني ذهبت مباشرة إلى الفراش، محبطاً ومرهقاً، وأقر بالشيء نفسه. فتح إحدى النوافذ بعد ذلك، ونظر إلى ضوء القمر، وأخبرني أن الرصيف خالٍ تماماً مثل رصيف أي كاتدرائية في تلك الساعة نفسها.

في اليوم التالي، قررت أن آتي بالقارب. تم الأمر سريعاً، ونُقل القارب إلى درج تمبل، ووُضع حيث يمكنني الوصول إليه في غضون دقيقة أو دقيقتين. ثم بدأت بالخروج للتدريب والممارسة: أحياناً وحدي، وأحياناً مع هربرت. كنت في كثير من الأحيان بالخارج في البرد والمطر والصقيع، لكن لم يلاحظني أحد كثيراً بعد خروجي عدة مرات. في البداية، ظللت فوق جسر بلاكفرايرز؛ ولكن مع تغير ساعات المد، توجهت نحو جسر لندن. كان اسمه جسر لندن القديم في تلك الأيام، وفي بعض حالات المد كان هناك سيل وتساقط للمياه هناك مما أعطاه سمعة سيئة، لكنني كنت أعرف جيداً كيف أعبر من تحت الجسر بعد أن شاهدته من قبل، وهكذا بدأت في التجديف وسط السفن في البركة، وصولاً إلى إيريث. في المرة الأولى التي مررت فيها بميل بوند بانك، كنا أنا وهربرت نسحب زوجاً من المجاديف؛ وفي ذهابنا وعودتنا رأينا الستارة نحو الشرق تُسدل. كان

هربرت يذهب هناك ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل، ولم يأتني قطُّ بمعلومة واحدة مثيرة للقلق. ومع ذلك، كنت أعلم أن هناك سبباً للقلق، ولم أتمكن من التخلص من فكرة المراقبة. بمجرد تلقيها، تصبح فكرة مزعجة؛ من الصعب حساب عدد الأشخاص العاديين الذين كنت أشك في أنهم يراقبونني.

باختصار، كان دائماً يملؤني الخوف على الرجل المتهور المختبئ. كان هربرت يقول أحياناً إنه يجد متعةً في الوقوف عند إحدى نوافذنا بعد حلول الظلام، عندما كان المد ينحسر، والتفكير في أنه يتدفق بكل ما يحمله نحو كلارا. لكنني كنت أفكر بخوف أنه كان يتدفق نحو ماجويتش، وأن أي علامة سوداء على سطحه قد تكون مطارديه، يتجهون بسرعة وصمت وثبات للقبض عليه.

الفصل السابع والأربعون

مرّت بضعة أسابيع دون أي تغيير. انتظرنا ويميك، ولم يبعث بإشارة. لو أنني لم أعرفه قطّ خارج ليتل برين، ولم أتمتع قطّ بامتياز ذهابي المعتاد إلى القلعة، ربما كنت سأشك فيه؛ لكنني لم أشك للحظة، فأنا كنت أعرفه جيداً.

بدأت حياتي اليومية تلتف بمظهرٍ كئيب، وتعرضت للضغط من أجل المال من قبل أكثر من دائن. حتى أنا نفسي بدأت أدرك نقص المال (أعني المال الحاضر في جيبي)، وحصلت عليه عن طريق بيع بعض الجواهر التي أمكن الاستغناء عنها بسهولة. لكنني قررت تمامًا أنه سيكون من الاحتيال الفج أن آخذ المزيد من المال من ولي نعمتي في ظل عدم استقرار أفكاره وخططي. لذلك، أرسلت إليه محفظة النقود كما هي مع هربرت، ليحتفظ بها في حوزته، وشعرت بنوعٍ من الرضا - لا أعرف إن كان مزيفاً أم حقيقياً - لأنني لم أستفد من كرمه منذ كشفه عن نفسه.

ومع مرور الوقت، استقر في ذهني انطباع قوي بأن إستيلا كانت متزوجة. خوفاً من تأكيد ذلك، على الرغم من أنه كان يقيناً، تجنبت الصحف، وتوسلت إلى هربرت (الذي أسرت إليه بظروف مقابلتنا الأخيرة) ألا يتحدث عنها أبداً. لماذا احتفظت بهذه الخرقة الصغيرة البائسة من ثوب الأمل الذي تمزق وذهب مع الريح؟ لست أدري. لماذا

ارتكبت، أنت أيها القارئ، هذا التناقض المشابه في العام الماضي، أو الشهر الماضي، أو الأسبوع الماضي؟

لقد عشت حياة تعيسة. وقلقي المهيمن، المتغلب على كل الهموم الأخرى، مثل جبل عالٍ فوق سلسلة من الجبال، لم يخف من نظري قَطُّ. ومع ذلك، لم يظهر أي سبب جديد للخوف. دعني أبدأ من فراشي كما سأفعل، والرعب الذي يتنباني من أن أمره قد انكشف؛ دعني أجلس أستمع، كما أفعل بخوف لخطى هربرت العائدة في الليل، خشية أن تكون سريعة أكثر من المعتاد، وملية بالأخبار السيئة، ورغم كل ذلك، وأشياء أخرى ذات صلة، استمرت دائرة الحياة. بعد أن حُكم عليَّ بالبطالة وحالة من القلق والترقب المستمرين، جددت بقاربي، وانتظرت، وانتظرت، وانتظرت، قدر المستطاع.

في بعض حالات المد، عندما كنت في أسفل النهر، لم أتمكن من العودة عبر الدعائم والأقواس التي أبلتها الدوامات في جسر لندن القديم؛ فأترك قاربي عند رصيف الميناء بالقرب من مصلحة الجمارك، ليُحضر بعد ذلك إلى سلالم تمبل. لم أكن أكره القيام بذلك، لأنه جعلني أنا وقاربي حادثًا شائعًا بين الأشخاص المتواجدين على ضفاف النهر هناك، ومن هذه المناسبة البسيطة انبثق لقاء ان يجب أن أتحدث عنهما الآن.

بعد ظهر أحد الأيام، في أواخر شهر فبراير، وصلت إلى الشاطئ عند رصيف الميناء عند الغسق. وصلت إلى جرينتش مع الجَرز، ثم استدرت مع المد. لقد كان يومًا مشرقًا وجميلًا، لكنه أصبح ضبابيًا مع هبوط الشمس، وكان عليَّ أن أتَحَسَّس طريق عودتي بين السفن بحذرٍ شديدٍ،

سواء في الذهاب أو العودة، رأيت الإشارة في نافذته، كل شيء على ما يرام.

نظرًا إلى أن الأمسية كانت قاسية، وكنت أشعر بالبرد، فكرت في أن أريح نفسي بتناول العشاء في الحال؛ وبما أنني كنت أواجه ساعاتٍ من الاكتئاب والعزلة إذا عدت إلى المنزل في تمبل، فقد اعتقدت أنني سأذهب بعد ذلك إلى المسرحية. كان المسرح الذي حقق فيه السيد ووبسل انتصاره المشكوك فيه يقع في ذلك الحي المشرف على النهر (لم يعد موجودًا في أي مكان الآن)، وعقدت العزم على الذهاب إلى ذلك المسرح. كنت أعلم أن السيد ووبسل لم ينجح في إحياء الدراما، بل على العكس من ذلك، شارك في انهيارها. لقد ذاع صيته بشكلٍ مشؤوم، من خلال إعلانات المسرح، باعتباره أسود مخلصًا ذا علاقة بفتاة صغيرة من عائلة نبيلة وقرداً. وقد رآه هربرت على أنه عدواني، سريع الانفعال، ذو ميول كوميدية، بوجه يشبه الطوب الأحمر، وقبعة شنيعة تغطيها الأجراس. تناولت العشاء فيما كنا نطلق عليه أنا وهربرت مطعمًا جغرافيًا، حيث كانت على مفرش المائدة بقعٌ على شكل خرائط للعالم شكَّلتها حواف أواني الجعة على كل نصف ياردة منه، ورسومات من المرق على كل واحدة من السكاكين، إلى هذا اليوم، نادرًا ما يوجد مطعم واحد داخل نطاق سيطرة عمدة لندن، ليس جغرافيًا. وقد استنفدت الوقت في النوم فوق الفتات، والتحديث إلى موقد النار، والتحمص في الهواء المحموم لوجبات العشاء. ومع مرور الوقت، حملت نفسي على النهوض وذهبت إلى المسرحية.

هناك، وجدت ربانًا فاضلاً في خدمة صاحب جلالة، وهو رجل بارع

للغاية، على الرغم من أنني كنت أتمنى ألا يكون سرواله ضيقًا للغاية في بعض الأماكن، وفضفضًا للغاية في أماكن أخرى، والذي ضرب بكل قبعات الرجال الصغار على أعينهم، رغم أنه كان كريمًا وشجاعًا جدًا، ولم يسمح لأحد أن يدفع الضرائب، رغم أنه كان وطنيًا للغاية. كان لديه صرة من المال في جيبه، مثل البودينج في القماش، وبذلك الممتلكات تزوج من شابة ترتدي ما يشبه البياضات، بفرح عظيم؛ خرج جميع سكان بورتسموث (تسعة في آخر تعداد) إلى الشاطئ لفرك أيديهم في تشويق ومصافحة الجميع، ولكي يصيحوا «املؤوا الكؤوس، املؤوا الكؤوس!» ومع ذلك، فثمة بحار ذو بشرة داكنة، لم يكن ليملاً الكؤوس أو يفعل أي شيء آخر يُملى عليه، وصرّح عنه (بواسطة الربان) أن قلبه أسود مثل رأسه، جعل بحارين آخرين يثيران المتاعب بين الناس؛ وقد تم الأمر بالفعل (فأسرة البحار تتمتع بنفوذ سياسي كبير) إلى درجة أن الأمر استغرق نصف المساء لوضع الأمور في نصابها الصحيح، ولم يتحقق ذلك إلا من خلال بقال صغير نزيه يرتدي قبعة بيضاء، وواقى حذاء أسود، وأنف أحمر، دخل في عراك، بشبكة حديدية، ويستمتع، ويخرج، ويطرح أرضًا من الخلف بالشبكة، كل من لم يتمكن من تفنيد ما سمعه. أدى هذا إلى دخول السيد ووبسل (الذي لم يُسمع عنه من قبل) بوسام رفيع ونجمة، بصفته مفوضًا ذا قوة عظمى مباشرة من الأميرالية، ليقول إن البحارة جميعًا سيذهبون إلى السجن على الفور، وإنه قام بإركاع الربان أمام العلم كتقدير بسيط لخدماته العامة. قام ربان القارب، الذي ظهر من دون بحارة للمرة الأولى، بتجفيف عينيه باحترام أمام العلم، ثم ابتهج، مخاطبًا السيد ووبسل بصاحب الفخامة، وطلب الإذن بأن يشد على ذراعه. تنازل السيد

ووبسل عن ذراعه بوقارٍ كريم، ودُفع على الفور إلى ركن مترب، بينما كان الجميع يرقصون على أنغام المزمارة؛ ومن تلك الزاوية، كان يراقب الجمهور بعين ساخطة، وتعرف عليّ.

كانت القطعة الثانية هي أحدث مسرحية إيمائية كوميدية كبيرة لعيد الميلاد، وفي المشهد الأول، آلمني أن أشك في أنني اكتشفت السيد ووبسل بساقيه الصوفيتين الحمراء تحت وجه بلون فسفوري مضخم للغاية وكومة من الشعر الأحمر تشبه الستارة، يعمل في صناعة الصواعق في منجم ما، ويُظهر خوفًا شديدًا عندما يعود سيده العملاق إلى المنزل (بصوت أجش للغاية) لتناول العشاء. لكنه سرعان ما قدم نفسه في ظروف أفضل؛ لأن نزعة الحب الفتّي لديه تحتاج إلى المساعدة، بسبب قسوة والد مزارع جاهل عارض اختيار قلب ابنته، ليسقط عمداً فوق جوال من الدقيق، من نافذة الطابق الأول، واستدعى ساحراً بليغاً؛ وقد أثبت هو، وهو قادم من أقطاب بعيدة متعثراً بعض الشيء، بعد رحلة عنيفة على ما يبدو، أنه السيد ووبسل بقبعة عالية، ولديه أعمال سحر في مجلد تحت ذراعه. كل ما كان عليه فعله على المسرح هو أن يُوجّه إليه الكلام، والغناء، والضربات، والرقصات، والقذائف بمختلف الألوان، وكان لديه وقت شاغر بين يديه. ولاحظت بدهشة كبيرة أنه خصص هذا الوقت للتحديق إلى اتجاهي كأنه تائه في دھول.

كان هناك شيء ملحوظ جدًّا في الوهج المتزايد في عين السيد ووبسل، وبدأ أنه يقلب الكثير من الأشياء في ذهنه، وأصبح في حالة من الارتباك الشديد، إلى درجة أنني لم أتمكن من فهم السبب. جلست أفكر في الأمر فترة طويلة بعد أن صعد إلى السحاب في علبة ساعة عملاقة،

وما زلت لا أستطيع أن أفهم السبب. كنت لا أزال أفكر في الأمر عندما خرجت من المسرح بعد ساعة، ووجدته ينتظرني بالقرب من الباب.
«كيف حالك؟» قلت وأنا أصافحه ونحن نسير في الشارع معاً.
«رأيت أنك رأيتني».

«لقد رأيتك يا سيد بيب!» أجاب هو. «نعم، بالطبع رأيتك. ولكن من كان هناك أيضاً؟»
- من؟

قال السيد ووبسل وهو ينحرف إلى نظراته المفقودة مرة أخرى: إنه أغرب شيء؛ ومع ذلك أستطيع أن أقسم إنه هو.
شعرت بالانزعاج، وطلبت من السيد ووبسل أن يشرح لي قصده.
قال السيد ووبسل وهو يتابع بنفس الطريقة التائهة: لا أدري إن كنت سألاحظه في البداية لولا وجودك هناك؛ أعتقد أنني كنت سأتعرف عليه.
نظرت حولي لا إرادياً، كما اعتدت أن أنظر حولي في أثناء عودتي إلى المنزل؛ لأن هذه الكلمات الغامضة أصابتني بالقشعريرة.
«أوه!» قال السيد ووبسل: لا يمكن أن يكون في الأنحاء، لقد خرج قبل أن أغادر خشبة المسرح. لقد رأيتَه يغادر.

نظراً إلى وجود سبب يدفعني إلى الشك، فقد شككت في هذا الممثل المسكين. ارتبت في أن تكون هناك خطة لتوريطي في اعترافٍ ما. لذلك نظرت إليه بينما كنا نسير معاً، لكنني لم أقل شيئاً.

- كان لديّ وهم سخيّف أنه جاء معك يا سيد بيب، حتى رأيت أنك لم تدرك وجوده إطلاقاً، جالساً خلفك مثل الشبح.

تسللت القشعريرة إليّ مرة أخرى، لكنني عقدت العزم على عدم التحدث بعد، لأنه كان يبدو في كلامه كأنه يحثني على ربط هذه الإشارات مع بروفيس. بالطبع، كنت متأكدًا تمامًا من أن بروفيس لم يكن هناك.

- أعتقد أنك مندهش مني يا سيد بيب؛ في الواقع، أرى أنك كذلك بالفعل. ولكن الأمر غريب جدًا! لن تصدق ما سأقوله. لن أستطيع أن أصدق نفسي، إذا أخبرتني أنت بذلك.

سألت: حقًا؟

- حقًا يا سيد بيب، هل تتذكر في الأيام الخوالي يومًا معينًا من أيام عيد الميلاد، عندما كنت طفلًا، وكنت أتناول الغداء في منزل آل جارجيرى، وجاء بعض الجنود إلى الباب لإصلاح زوج من الأصفاد؟

- أتذكر ذلك جيدًا.

- وهل تتذكر أنه كانت هناك مطاردة لمدانين اثنين، وأنا انضمنا إليها، وأن جارجيرى أخذك على ظهره، سرت أنا في المقدمة، وسائرتموني أنتم قدر المستطاع؟

«أتذكر كل ذلك جيدًا» أفضل مما كان يعتقد، باستثناء الجملة الأخيرة.

- وهل تتذكر أننا وصلنا لنجد الاثنين في خندق، وأنه حدث شجار بينهما، وأن أحدهما قد دُفع بقسوة وضُرب في وجهه من قبل الآخر؟

- كأنني أرى كل شيء أمامي.

- وأن الجنود أشعلوا المشاعل، ووضعوا الاثنتين في المركز، وأننا ذهبنا لرؤية ترحيلهم، فوق المستنقعات السوداء، وضوء المشاعل يضيء وجوههم، وأنا محدد بخصوص ضوء المشاعل الذي كان يسطع على وجوههم، بينما كانت هناك إطار من الليل المظلم حولنا؟

أجبت: نعم، أتذكر كل ذلك.

- جلس أحد هذين السجينين خلفك الليلة، يا سيد بيب. لقد رأيته من فوق كتفك.

«اهدا!» فكرت في نفسي. ثم سألته: أي الاثنتين تظن أنك رأيت؟
أجاب بسهولة: الشخص الذي ضُرب، وأقسم إنني رأيته! كلما فكرت فيه أكثر، كلما زاد يقيني به.
«هذا غريب للغاية!» قلت مدعيًا أن الأمر لا يعني لي الكثير: غريب للغاية حقًا!

لا يمكنني وصف القلق المتزايد الذي دفعني إليه هذه المحادثة، أو الرعب الغريب وغير العادي الذي شعرت به عندما علمت أن كومبيسون كان خلفي «مثل الشبح». لأنه إذا كان قد غاب عن أفكاري لبضع لحظات منذ أن بدأ الاختباء، فقد كان ذلك في تلك اللحظات بالذات أقرب ما يكون إليّ؛ والاعتقاد بأنني كنت على غير دراية بالأمر وفي غفلة عنه بعد كل احتياطاتي كان كما لو أنني أغلقت طريقًا من مائة باب لإبعاده، ثم وجدته على مقربة مني رغم ذلك. لم يكن في إمكاني أيضًا أن أشك في أنه كان هناك، لأنني كنت هناك، ومهما كان الخطر بعيدًا عن أعيننا، إلا أنه كان دائمًا قريبًا وحقيقيًا.

لقد طرحت بعض الأسئلة على السيد ووبسل، مثل متى جاء الرجل؟ لم يستطع أن يخبرني بذلك؛ قال إنه رأي، ثم رأى الرجل من فوق كتفي. ولم يبدأ في التعرف عليه إلا بعد أن رآه لبعض الوقت؛ لكنه ربطه بي بشكل غامض منذ البداية، وعلم أنه ذو صلة بي بطريقة ما من أيام القرية قديمًا. ماذا كان يرتدي؟ بشكل ميسور الحال، ولكن ليس بشكل ملحوظ؛ كان يعتقد أن حلته كانت سوداء. هل كان وجهه مشوهًا على الإطلاق؟ لا، لم يعتقد هذا. لم أعتقد ذلك أيضًا، لأنه بتفكيري في الأمر، على الرغم من أنني لم أهتم بشكل خاص بالأشخاص من خلفي، إلا أنه لو كان هناك وجه مشوه ولو قليلًا سيجذب ذلك انتباهي.

بعد أن نقل لي السيد ووبسل كل ما يمكن أن يتذكره، وكل ما استطعت استخراجه منه، وبعد أن قدمت له وجبة خفيفة مناسبة، بعد تعب المساء، افترقنا. كانت الساعة بين الثانية عشرة والواحدة صباحًا عندما وصلت إلى تمبل، وكانت الأبواب مغلقة. لم يكن أحد بالقرب مني عندما دخلت وذهبت إلى المنزل.

جاء هربرت، وعقدنا مجلسًا جديدًا للغاية بجوار النار. لكن لم يكن هناك ما يمكن فعله، باستثناء إخبار ويميك بما اكتشفته تلك الليلة، وتذكيره بأننا انتظرنا إشارة منه. نظرًا إلى أنني اعتقدت أنني قد أعرضه للخطر إذا ذهبت كثيرًا إلى القلعة، فقد قمت بإجراء هذا التواصل عبر رسالة. كتبته قبل أن أذهب إلى الفراش، وخرجت وأرسلتها؛ ومرة أخرى لم يكن أحد بالقرب مني. اتفقنا أنا وهربرت على أنه لا يمكننا فعل أي شيء سوى توخي الحذر الشديد. وكنا حذرين للغاية في الواقع،

أكثر حذرًا من ذي قبل، إذا كان ذلك ممكنًا، وأنا من جهتي لم أذهب قطُّ
بالقرب من حوض تشينكس، إلا عندما كنت أجدف بجانبه، وبعد ذلك
كنت أنظر فقط إلى ميل بوند بانك مثلما أنظر إلى أي شيء آخر.

الفصل الثامن والأربعون

حدث اللقاء الثاني، المشار إليه في الفصل السابق، بعد نحو أسبوع من لقائي مع ووبسل. كنت قد تركت قاربي مرة أخرى عند رصيف الميناء أسفل الجسر؛ قبل الظهر بساعة؛ ولأنني لم أقرر أين سأتناول الغداء، فقد تجوّلت في منطقة شيبسايد، ومشيت الهوينى على طولها، وكنت بالتأكيد الشخص الأكثر اضطراباً في الحشد المزدحم كله، عندما داهمني شخص ما بوضع يد كبيرة على كتفي. لقد كانت يد السيد جاغرز، وقد مرّرها عبر ذراعي.

- بينما نسير في نفس الاتجاه يا بيب، يمكننا أن نسير معاً. إلى أين أنت متجه؟

قلت: متجه إلى تمبل، على ما أعتقد.

«ألا تعلم؟» قال السيد جاغرز.

أجبت، وأنا سعيد لأنني تمكنت من التغلب عليه في الاستجواب: حسناً، لا أعرف، لأنني لم أحسم أمري بعد.

«هل ستتناول الطعام؟» قال السيد جاغرز، «أنت لا تمنع البوح بذلك، على ما أعتقد؟».

أجبت: لا، لا أمانع البوح بذلك.

- وأنت غير مرتبط بموعد؟

- أنا لا أمانع البوح أيضًا بأنني لست مرتبطًا بموعد.

قال السيد جاغرز: إذن، تعال وتناول الطعام معي.

كنت سأعتذر عندما أضاف: «ويميك قادم» لذلك حوّلت اعتذاري إلى قبول، فالكلمات القليلة التي تفوهت بها، كانت استفتاحة جيدة لكل منهما، وذهبنا على طول شيبسايد واتجهنا إلى ليتل بريتن، بينما كانت الأضواء تتألق بشكل رائع في واجهات المتجر، وكان مشعلو مصابيح الشوارع، الذين لم يجدوا مكانًا كافيًا لوضع سلالهم وسط هرج ومرج الظهيرة، يتنقلون صعودًا وهبوطًا في الداخل والخارج، وفتحوا المزيد من الأعين الحمراء في الضباب المتراكم أكثر من الأعين البيضاء التي فتحتها شمعة مصباحي على الجدار الشبحي في فندق هومومز.

في مكتب ليتل بريتن، كانت هناك الأمور المعتادة مثل كتابة الرسائل، وغسل اليدين، وإطفاء الشموع، وقفل الخزنة، وهي الأمور التي اختتمت أعمال اليوم. وبينما كنت واقفًا خاملاً بجوار نيران السيد جاغرز، جعل اللهب المتصاعد والهابط القالبيين الموجودين على الرف يبدوان كما لو كانا يلعبان لعبة الغميضة معي؛ بينما كان زوج الشموع المكتبية الخشنة السميكة التي أضاءت للسيد جاغرز بشكل خافت بينما كان يكتب في إحدى الزوايا، مكسوفًا بكفن قدر، كما لو كان تخليدًا لذكرى مجموعة من العملاء المشنوقين.

ذهبنا معًا إلى شارع جيرارد، في عربة أجرة. وبمجرد وصولنا إلى هناك، قُدم العشاء. على الرغم من أنه لم يكن ينبغي لي أن أفكر في القيام بأي إشارة في ذلك المكان للحصول على مشاعر ويميك الخاصة بوالورث، إلا أنه لم يكن لدي أي اعتراض على أن أتبادل معه نظرة ودية

بين الحين والآخر. ولكن هذا لم يحدث. فقد التفت نحو السيد جاغرز كلما رفع نظره عن الطاولة، وكان جافاً وبعيداً عني كما لو كان هناك توأمان من ويميك، وكان هذا التوأم الخطأ.

«هل أرسلت تلك الرسالة الخاصة بالآنسة هافيشام إلى السيد بيب، يا ويميك؟» سأل السيد جاغرز بعد وقت قصير من بدء العشاء.

«لا يا سيدي» ردَّ ويميك؛ «كانت سترسل بالبريد، عندما أحضرت السيد بيب إلى المكتب. ها هي» وسلَّمها إلى مديره بدلاً مني.

قال السيد جاغرز وهو يسلمها لي: إنها رسالة من سطين يا بيب، أرسلتها إليَّ الآنسة هافيشام لأنها لم تكن متأكدة من عنوانك. أخبرتني أنها تريد رؤيتك بشأن مسألة صغيرة ذكرتها لها. هل ستذهب؟

«نعم» أجبت وأنا ألقى نظرة على الرسالة التي كانت تحمل هذا المعنى بالضبط.

- متى تفكر في الذهاب؟

قلت، وأنا ألقى نظرة على ويميك الذي كان يضع السمك في فمه الأشبه بمكتب البريد: لديَّ ارتباط وشيك، وهذا يجعلني غير متأكد من التوقيت. أعتقد على الفور.

قال ويميك للسيد جاغرز: إذا كان لدى السيد بيب نية الذهاب فوراً، فلن يحتاج إلى إرسال رد، كما تعلم.

عندما تلقيت هذا كإشارة إلى أنه من الأفضل عدم التأخير، قررت أن أذهب غداً، وقلت ذلك. شرب ويميك كأساً من النبيذ، ونظر بتجهم إلى السيد جاغرز، ولكن ليس إليَّ.

«إذن يا بيب!» قال السيد جاغرز: لقد لعب صديقنا العنكبوت أوراقه وفاز.

لم يسعني إلا موافقته.

- هاه! إنه رجل واعد -بطريقته الخاصة- لكنه قد لا يحصل على كل شيء بطريقته الخاصة. الأقوى سيتصر في النهاية، لكن يجب اكتشاف الأقوى أولاً. إذا كان عليه أن يتصدى لها ويضربها... قاطعته بوجهه وقلب محترقين: بالتأكيد، أنت لا تعتقد جدياً أنه وغد بما فيه الكفاية لذلك يا سيد جاغرز؟

- لم أقل ذلك يا بيب. أنا أطرح المسألة. إذا تصدى لها وضربها، فمن المحتمل أن يكتسب القوة في جانبه؛ إذا كان الأمر يتعلق بالذكاء، فهو بالتأكيد لن يفعل ذلك. سيكون من قبيل الصدفة العمل على إبداء الرأي حول كيفية ظهور شخص من هذا النوع في مثل هذه الظروف، فهو تأرجح بين نتيجتين.

- هل لي أن أسأل ما هما؟

أجاب السيد جاغرز: شخص مثل صديقنا العنكبوت، إما ينتصر وإما ينكمش. قد ينكمش ويتدمر، وقد لا يتدمر؛ لكنه إما ينتصر وإما ينكمش. اسأل ويميك عن رأيه.

قال ويميك، دون أن يخاطبني على الإطلاق: إما ينتصر وإما ينكمش.

قال السيد جاغرز وهو يأخذ إناءً من النبيذ الفاخر من الصينية الدوارة ويملؤه لكل واحد منا: إذن نشرب نخب السيدة بنتلي درامل، وأرجو أن تُحسَم مسألة التفوق في صالح السيدة! فلن يحسم الأمر أبداً لصالح الطرفين. الآن يا مولاي، مولاي، مولاي، مولاي، كم أنت بطيئة اليوم!

كانت عند مرفقه عندما خاطبها، تضع طبقًا على الطاولة. عندما سحبت يديها منه، تراجعت خطوة أو خطوتين، وتمتعت ببعض الأعدار بانفعال. وقد لفت انتباهي حركة معينة من أصابعها وهي تتحدث.

«ماذا جرى؟» قال السيد جاغرز.

قلت: لا شيء. فقط الموضوع الذي كنا نتحدث عنه كان مؤلمًا بالنسبة إليّ.

وكانت حركة أصابعها مثل حركة الحياكة. وقفت تنظر إلى سيدها، دون أن تفهم ما إذا كانت حرة في الذهاب، أو أن لديه المزيد ليقوله لها وسيناديهما إن ذهب. كانت نظرتها مليئة بالتصميم. من المؤكد أنني رأيت مثل هذه الأعين ومثل هذه الأيدي في مناسبة لا تُنسى مؤخرًا!

صرفها فخرجت من الغرفة. لكنها ظلت أمامي بوضوح كما لو كانت لا تزال واقفة هناك. نظرت إلى تلك اليدين، نظرت إلى تلك الأعين، نظرت إلى ذلك الشعر المنساب؛ وقارنتها بأيدي أخرى، وأعين أخرى، وشعر آخر، كنت أعرفها، وبما قد تصير عليه بعد عشرين عامًا مع زوج وحشي وحية عاصفة. نظرت مرة أخرى إلى يدي مدبرة المنزل وعينيها، وفكرت في الشعور الذي لا يمكن تفسيره الذي اجتاحني عندما مشيت آخر مرة -ليس وحدي- في الحديقة المقفرة، وفي مصنع الجعة المهجور. فكرت كيف عاد لي نفس الشعور عندما رأيت وجهًا ينظر إليّ، ويدًا تلوح لي من نافذة عربة الأجرة؛ وكيف عاد مرة أخرى وومض من حولي مثل البرق، عندما مررت في عربة -ليس وحدي- من خلال وهج الضوء المفاجئ في شارع مظلم. فكرت كيف أن رابطًا واحدًا ساعد في تحديد هوية شخص ما في المسرح، وكيف أن مثل هذا الرابط، الذي كان مفقودًا من قبل، قد

ثبت في ذهني الآن، عندما مررت بسرعة من اسم إستيلا إلى هذه الأعين
اليقظة والأصابع التي تقوم بحركة شبيهة بالحياكة. شعرت على يقين تام
أن هذه المرأة هي والدة إستيلا.

لقد رأي السيد جاغرز مع إستيلا، ومن غير المرجح أن يغيب عن
ذهني المشاعر التي لم أبدل أي جهد في إخفائها. أوماً برأسه عندما قلت
إن الموضوع مؤلم بالنسبة إليّ، وربت على ظهري، ثم ملاً كؤوسنا مرة
أخرى، وواصل غداءه.

عادت مدبرة المنزل للظهور مرتين فقط، ومكثت في الغرفة فترة
قصيرة جداً، وكان السيد جاغرز حاداً معها، لكن يديها كانتا يدي إستيلا،
وعيناها كانتا عيني إستيلا، ولو أنها عادت للظهور مائة مرة لما كنت أكثر
يقيناً أو أقل يقيناً من أن هذه هي الحقيقة.

كانت أمسية فاترة، لأن ويميك كان يسحب النبيذ كلما جاء إليه،
تماماً كما كان من الممكن أن يسحب راتبه عندما يأتي أيضاً، وجلس
وعيناه على رئيسه في مقعده في حالة استعداد دائم للاستجواب. وفيما
يتعلق بكمية النبيذ، كان فمه الشبيه بمكتب البريد غير مبالٍ وجاهزاً للنبيذ
مثلما يكون أي مكتب بريد آخر جاهزاً للرسائل. من وجهة نظري، كان هو
التوأم الخطأ طوال الوقت، ولا يشبه ويميك من والورث إلا من الخارج
فقط.

استأذنا للانصراف مبكراً وغادرنا معاً. وعندما كنا نتلمس طريقنا بين
أحذية السيد جاغرز من أجل قبعاتنا، شعرت أن التوأم الصحيح كان في
طريقه للعودة؛ ولم نكن قد قطعنا ست ياردات في شارع جيرارد في اتجاه
والورث، قبل أن أجد أنني والتوأم الصحيح نسير متشابكي الذراعين، وأن

التوأم الخطأ قد تبخر في هواء المساء.

«حسنًا!» قال ويميك: انتهى الأمر! إنه رجل رائع، ليس له مثل؛ لكنني أشعر أن عضلاتي تنقبض عندما أتناول العشاء معه، وأنا أتناول عشايتي بهناء أكثر عندما تكون عضلاتي منبسطة.

شعرت أن هذا كان معبرًا للغاية عن الواقع، وأخبرته بذلك.

فأجاب: لن أقول ذلك لأحد سواك؛ أعلم أن ما يقال بيننا يظل بيننا. سألته إذا كان قد رأى ابنة الأنسة هافيشام بالتبني، السيدة بتتلي درامل. قال لا. ولتجنب أن أكون جافًا للغاية، تحدثت بعد ذلك عن العجوز وعن الأنسة سكيفينز. لقد بدا متكتمًا إلى حدٍّ ما عندما ذكرت الأنسة سكيفينز، وتوقف في الشارع ليتمخض، مع تحريك رأسه، وبزهوٍ لا يخلو تمامًا من التباهي الخفي.

قلت: ويميك، هل تتذكر أنك أخبرتني، قبل أن أذهب لأول مرة إلى منزل السيد جاغرز الخاص، أن أنتبه لمديرة المنزل تلك؟ رد: هل قلت ذلك؟ نعم، أعتقد أنني فعلت ذلك. أضاف فجأة: بحق السماء، أعرف أنني فعلت ذلك. أجد أنني لست مرتاحًا تمامًا بعد.

- قلت عنها إنها وحش بري تم ترويضه.

- وما رأيك أنت؟

- نفس الشيء. كيف روضها السيد جاغرز يا ويميك؟

- هذا هو سره. لقد كانت معه لسنوات طويلة.

- أتمنى أن تخبرني قصتها. أشعر باهتمام خاص بالتعرف عليها. وأنت تعلم أن ما يقال بيننا يظل بيننا.

«حسنًا!» أجاب ويميك: لا أعرف قصتها، أي ليس بأكملها. لكنني سأخبرك بكل ما أعرفه. نحن بصفتنا الخاصة والشخصية بالطبع.

- بالطبع.

- منذ نحو عشرين عامًا، حُكمت تلك المرأة في محكمة أولد بيلي بتهمة القتل، وتمت تبرئتها. لقد كانت شابة جميلة جدًا، وأعتقد أن داخلها بعض الدم العجري. على أي حال، كانت في زهرة شبابها، كما قد تفترض.

- لكن تمت تبرئتها.

«كان السيد جاغرز يدافع عنها» تابع ويميك، بنظرة مليئة بالمعنى، «وتعامل مع القضية بطريقة مذهلة تمامًا. لقد كانت حالة ميؤوسًا منها، وكان في أيامه الأولى نسبيًا في ذلك الوقت، وقد عمل عليها حتى نال الإعجاب العام؛ في الواقع، يمكن القول تقريبًا إنها جعلته ما هو عليه الآن. لقد كان يعمل بنفسه في مكتب الشرطة، يومًا بعد يوم لعدة أيام، مكافحًا حتى ضد الإحالة؛ وفي المحاكمة، حيث لم يتمكن من العمل بنفسه، جلس مساعدًا للمحامي، و-الجميع يعلم- وضع كل الملح والفلفل. كانت القتيلة امرأة، امرأة تكبرها بعشر سنوات، وأضخم بكثير، وأقوى بكثير. كانت قضية غيرة. عاشت كلتاها حياة التشرّد، وهذه المرأة في شارع جيرارد هنا تزوجت في سن صغيرة جدًا، زواجًا مشكوكًا في صحته (كما نقول)، من رجل متشرّد، وكانت شديدة الغضب بسبب الغيرة. عُثر على المرأة المقتولة، التي كانت أقرب سنًا إلى الرجل بالتأكيد، في حظيرة بالقرب من هونسلو هيث. كان هناك صراع عنيف، وربما قتال. كانت مصابة بكدمات وخدوش وجروح، وأمسكت من حلقها أخيرًا وخُفَّت.

الآن، لم يكن هناك أي دليل معقول لتورط أي شخص سوى هذه المرأة؛ وبنى السيد جاغرز قضيته بشكل أساسي على احتمالات قدرتها على القيام بذلك.» قال ويميك وهو يلمس كمي: «ربما تكون متأكدًا من أنه لم يفكر قط في قوة يديها في ذلك الوقت، على الرغم من أنه يفعل ذلك أحيانًا الآن».

كنت قد أخبرت ويميك أنه كشف عن معصمها في ذلك اليوم من حفل العشاء.

«حسنًا يا سيدي!» أكمل ويميك. «لقد تم الأمر، ألا ترى؟ فهذه المرأة ارتدت ملابسها بدهاء بالغ منذ وقت إلقاء القبض عليها، حتى إنها بدت أنحف بكثير مما كانت عليه في الواقع؛ على وجه الخصوص، أتذكر جيدًا أن أكمامها حيكت بمهارة شديدة إلى درجة أن ذراعيها كان لهما مظهر رقيق للغاية. لم يكن بها سوى كدمة أو كدمتين، لا شيء يُذكر لفئة متشردة، لكن ظهر يديها كان ممزقًا، وكان السؤال: هل كان ذلك تمزيق أظفار؟ الآن، أظهر السيد جاغرز أنها كانت تحاول التخلص من مجموعة متشابكة من نبات العليق التي لم تصل إلى ارتفاع وجهها؛ لكنها لم تتمكن من تجاوزها دون أن تتأذى يديها؛ وعُثر بالفعل على قطع من العليق في جلدها وأُخذت كدليل، بالإضافة إلى حقيقة أن المجموعة المعنية من العليق عُثر عليها عند الفحص وقد كُسرت، وبها قطع صغيرة من فستانها وبقع صغيرة من الدم عليها هنا وهناك. لكن النقطة الأكثر جراحة التي أثارها هي ما يلي: لقد جرت محاولة تلفيق، كدليل على غيرتها، أنها كانت تحت شك قوي بأنها، في وقت القتل تقريبًا، قتلت طفلها من هذا الرجل في نوبة جنون - عمره نحو ثلاث سنوات - للانتقام منه. لقد عالج

السيد جاجرز الأمر كالآتي: «نقول إن هذه ليست علامات أظفار، بل إنها من العليق، ونعرض لكم العليق. تقولون إنها علامات أظفار، وتفترضون أنها قتلت طفلها. يجب عليكم قبول جميع النتائج المترتبة على تلك الفرضية. كل ما نعرفه، هو أنها ربما قتلت طفلها، وربما خدش الطفل يديها بسبب تشبته بها. ماذا إذن؟ لم لا تحاكمونها بتهمة قتل طفلها؟ ماذا عن هذه القضية، بالنسبة إلى الخدوش، فربما تكونون مسؤولين عنها، مفترضين على سبيل الجدل أنكم لم تفتعلوها». خلاصة القول يا سيدي، كان للسيد جاجرز الغلبة التامة على هيئة المحلفين، واستسلموا له».

- هل صارت في خدمته منذ ذلك الحين؟

«نعم» قال ويميك: «ولكن ليس هذا فحسب، فقد دخلت في خدمته فوراً بعد تبرئتها، وقد رُوِّضت كما هي الآن. لقد تعلمت منذ ذلك الحين شيئاً أو آخر عن واجباتها، ولكن تم ترويضها منذ البداية».

- هل تتذكر جنس الطفل؟

- قيل إنها كانت فتاة.

- ليس لديك أي شيء آخر لتقوله لي الليلة؟

- لا شيء. وصلتنى رسالتك وأتلفتها. لا شيء آخر.

تبادلنا ليلة سعيدة ودية، ثم عدت إلى المنزل حاملاً أفكاراً جديدة، على الرغم من عدم وجود أي راحة من القديمة.

الفصل التاسع والأربعون

وضعت رسالة الأنسة هافيشام في جيبي، والتي تؤهلني للظهور مرة أخرى قريباً في ساتيس هاوس، في حال أن تقلبها دفعها إلى التعبير عن أي مفاجأة عند رؤيتي، استقلت العربدة مرة أخرى في اليوم التالي. لكنني نزلت في استراحة منتصف الطريق، وتناولت الإفطار هناك، ثم مشيت بقية المسافة؛ لأنني سعت إلى دخول المدينة بهدوء عبر الطرق غير المأهولة، والخروج منها بنفس الطريقة.

كان أفضل ضوء في النهار قد اختفى عندما مررت عبر الساحات ذات صدى الصوت الهادئ خلف شارع هاي ستريت. كانت زوايا الأطلال، حيث كان الرهبان القدامى يقيمون قاعات طعامهم وحدائقهم، وحيث ضُمَّت الأسوار القوية لخدمة الحظائر والإسطبلات المتواضعة، تكاد تكون صامتة مثل الرهبان القدامى في قبورهم. كان لدقات الكاتدرائية صوت أكثر حزناً وبعداً بالنسبة إليّ، بينما كنت أسرع متجنباً الملاحظة، أكثر من أي وقت مضى؛ لذلك، وصل صوت الجرس القديم إلى أذني مثل الموسيقى الجنائزية؛ وبدا أن الغربان، وهي تحوم حول البرج الرمادي وتتأرجح بين الأشجار العالية العارية في حديقة الدير، تنبهني إلى أن المكان قد تغير، وأن إستيلا قد غادرته للأبد.

فتحت البوابة امرأة عجوز، كنت قد رأيته من قبل كواحدة من الخدم

الذين يعيشون في المنزل الملحق المقابل للفناء الخلفي. كانت الشمعة المضاءة قائمة في الممر المظلم بالداخل، كما في الماضي، فحملتها وصعدت السلم وحدي. لم تكن الأنسة هافيشام في غرفتها الخاصة، بل كانت في الغرفة الأكبر عبر الدرج. عندما نظرت من الباب، بعد طرده دون جدوى، رأيتهما تجلس عند المدفأة على كرسي مهترئ، بالقرب من النار الرمادية، وتأنية في تأملها.

فعلت كما كنت أفعل في كثير من الأحيان، دخلت ووقفت ملاصقاً المدفأة القديمة، حيث كان في إمكانها رؤيتي عندما ترفع عينيها. كان يحيط بها جو من الوحدة المطلقة، كان من شأنه أن يثير شفقتي على الرغم من أنها ألحقت بي عمداً ضرراً أعمق مما أستطيع أن أدينها به. وبينما كنت أفق متعاطفاً معها، وأفكر كيف أصبحت أنا أيضاً، مع مرور الوقت، جزءاً من ثروات ذلك المنزل المحطمة، وقعت عيناها عليّ. حدقت وقالت بصوت منخفض: هل هذا حقيقي؟

- إنه أنا، ييب. لقد أعطاني السيد جاغرز رسالتك بالأمس، وحضرت على الفور.

- شكراً لك، شكراً لك.

عندما أحضرت كرسيّاً آخر من الكراسي المهترئة إلى المدفأة وجلست، لاحظت تعبيراً جديداً على وجهها، كما لو كانت خائفة مني. قالت: أريد أن أتابع هذا الموضوع الذي ذكرته لي عندما كنت هنا آخر مرة، وأن أظهر لك أنني لست متحجرة القلب تماماً. ولكن ربما لا يمكنك أن تصدق الآن أن هناك أي شفقة في قلبي؟

عندما قلت بعض الكلمات المطمئنة، مدت يدها اليمنى المرتجفة،

كما لو كانت ستلمسني؛ لكنها سحبتها مرة أخرى قبل أن أفهم الفعل، أو أعرف كيف أستقبله.

- لقد قلت، متحدثًا عن صديقك، أنه يمكنك أن تخبرني كيف أفعل شيئًا مفيدًا وصالحًا. شيئًا تود القيام به، أليس كذلك؟
- شيء أود القيام به كثيرًا.

- ما هو؟

بدأت أشرح لها ذلك التاريخ السري للشراسة. لم أكن قد تعمقت في الأمر، عندما حكمت من نظراتها أنها تفكيرها كان يدور حولي أنا، وليس ما أقوله. ويبدو أن الأمر كذلك؛ لأنه عندما توقفت عن الكلام، مرت لحظات عديدة قبل أن تظهر أنها لاحظت ذلك.

سألتني حينها، بهيئتها السابقة كأنها تخاف مني: هل توقفت لأنك تكرهني كثيرًا إلى درجة أنك لا تتحمل التحدث معي؟
أجبت: لا، لا، كيف تظنين ذلك يا آنسة هافيشام! توقفت لأنني اعتقدت أنك لم تتابعي ما قلته.

أجابت وهي تضع يدها على رأسها: ربما لم أكن كذلك. ابدأ من جديد، ودعني ألقي نظرة على شيء آخر. انتظر! الآن أخبرني.

وضعت يدها على عصاها بالطريقة الحازمة التي اعتادتها أحيانًا، ونظرت إلى النار بتعبير قوي لإجبار نفسها على الانتباه. واصلت شرحي، وأخبرتها كيف كنت أتمنى إتمام الصفقة من نفقاتي الخاصة، ولكن كيف شعرت بخيبة أمل في هذا الأمر. هذا الجزء من الموضوع (ذكرتها) يتعلق بأمور لا يمكنني شرحها، لأنها كانت أسرارًا لا يستهان بها لشخص آخر.

«إذن!» قالت وهي موافقة برأسها، لكنها لم تنظر إليّ: كم ينقص لإتمام الصفقة؟

كنت خائفاً من ذكر المبلغ، لأنه بدا مبلغاً كبيراً. «تسعمائة جنيه».

- إذا أعطيتك المال لهذا الغرض، فهل ستحافظ على سري كما حافظت على سرك؟

- بوفاء تام.

- وسيكون ذهنك أكثر راحة؟

- أكثر راحة بكثير.

- هل أنت تعيّسٌ للغاية الآن؟

سألت هذا السؤال دون أن تنظر إليّ، ولكن بنبرة تعاطف غير معتادة. لم أتمكن من الرد في تلك اللحظة لأن صوتي خذلني. وضعت ذراعها اليسرى على رأس عصاها، ووضعت جبهتها عليها بهدوء.

- أنا لست سعيداً على الإطلاق يا آنسة هافيشام؛ ولكن لديّ أسباب أخرى للقلق أكثر من أي سبب تعرفينه. وهي الأسرار التي ذكرتها. وبعد قليل رفعت رأسها ونظرت إلى النار مرة أخرى.

- من النبل أن تخبرني أن لديك أسباباً أخرى لتعاستك. هل الأمر صحيح؟

- صحيح تماماً.

- هل يمكنني أن أخدمك يا بيب فقط من خلال خدمة صديقك؟ فيما يتعلق بهذا الأمر، ألا يوجد شيء يمكنني أن أفعله لك؟

- لا شيء. أشكرك على السؤال. وأشكرك أكثر على نبرة السؤال.
ولكن لا يوجد شيء.

نهضت من مقعدها في الحال، ونظرت في الغرفة المليئة بالخراب
بحثاً عن أدوات للكتابة. لم يكن هناك شيء، فأخذت من جيبها مجموعة
صفراء من الألواح العاجية، مثبتة بالذهب المنطفي، وكتبت عليها بقلم
رصاص في علبة من الذهب المنطفي معلقة من رقبتها.

- هل ما زلت على علاقة ودية مع السيد جاغرز؟
- إلى حد كبير، لقد تناولت العشاء معه بالأمس.

- هذا تفويض له كي يدفع لك هذا المال، ليكون جاهزاً من أجل
صديقك وفقاً لتقديرك غير المسؤول. لا أحتفظ بأي مال هنا؛
ولكن إذا كنت تفضل أن السيد جاغرز لا يعرف شيئاً عن الأمر،
فسأرسله إليك.

- شكراً لك يا آنسة هافيشام؛ ليس لدي أي اعتراض على تلقي المال
منه.

قرأت لي ما كتبه؛ وكان مباشراً وواضحاً، ومن الواضح أنه يهدف
إلى إعفائي من أي شك في تحقيق الربح من خلال استلام الأموال.
أخذت الألواح من يدها، فارتجفت من جديد، وارتعشت أكثر عندما
نزعت السلسلة التي كان معلقاً بها القلم، ووضعتها في يدي. فعلت كل
هذا دون أن تنظر إليّ.

- اسمي موجود على الورقة الأولى. إذا كان في إمكانك أن تكتب
تحت اسمي «أسامحها»، لكن بعد أن يصبح قلبي المكسور تراباً
بفترة طويلة، أرجو أن تفعله!

قلت: يا آنسة هافيشام، أستطيع أن أفعل ذلك الآن. كانت هناك أخطاء فادحة. وكانت حياتي عمياء ومليئة بنكران الجميل؛ وأريد المغفرة والتوجيه أكثر بكثير من شعوري بالمرارة تجاهك.

أدارت وجهها نحوي للمرة الأولى منذ أن تجنبت النظر إليّ، ومما أثار دهشتي أو حتى رعبي، أنها سقطت على ركبتيها عند قدمي؛ ويدها المطويتان مرفوعتان نحوي بالطريقة التي، عندما كان قلبها المسكين شاباً وعذباً وسليماً، كانتا ترتفعان بها إلى السماء بجانب أمها.

إن رؤيتها بشعرها الأبيض ووجهها المتعب راکعة عند قدمي أصابني بصدمة في كل جسدي. توسلت إليها أن تنهض، ووضعت ذراعي حولها لمساعدتها على النهوض؛ لكنها ضغطت فقط على يدي الأقرب إلى قبضتها، وعلقت رأسها عليها وبكت. لم يسبق لي أن رأيتها تذرف دموعاً من قبل، وعلى أمل أن يفيدها البكاء، انحنيت عليها دون أن أتكلم. لم تكن راکعة الآن، بل كانت منبطحة على الأرض.

«آه!» بكت بيأس. «ماذا فعلت! ماذا فعلت!».

- إذا كنت تقصدين يا آنسة هافيشام، ما الذي فعلته لإيذائي، دعيني أجيب. القليل جداً. كنت سأحبها تحت أي ظرف من الظروف. هل تزوجت؟

- نعم.

لقد كان سؤالاً لا داعي له، لأن الوحشة الجديدة في المنزل المقفر أخبرتني بذلك.

«ماذا فعلت! ماذا فعلت!» اعتصرت يديها، وسحقت شعرها الأبيض، وعادت إلى هذه الصرخة مراراً وتكراراً، «ماذا فعلت!».

لم أعرف كيف أجيها، أو كيف أريحها. كنت أعرف جيداً أنها فعلت شيئاً فظيماً عندما أخذت طفلة لدنة لتشكّلها بالشكل الذي تنتقم من خلاله لاستيائها الشديد، وعاطفتها المرفوضة، وكبرياتها الجريح. لكنها، بحجبها ضوء النهار، قد حجبت أشياء أكثر بكثير؛ وأنها في عزلتها عزلت نفسها عن آلاف التأثيرات الطبيعية والشفافية؛ كنت أعرف جيداً أن عقلها المنعزل، أصبح مريضاً، كما تمرض كل العقول وهذا هو النظام الذي وضعه خالقها. وهل أستطيع أن أنظر إليها بلا شفقة، وأرى عقابها في الخراب الذي كانت عليه، في عدم صلاحيتها العميقة لهذه الأرض التي وُضعت عليها، في غرور الحزن الذي أصبح هوساً رئيسياً، مثل غرور التوبة، غرور الندم، وغرور عدم الجدارة، وغيرها من أنواع الغرور الفظيع الذي صارت لعنات في هذا العالم؟

- إلى أن تحدثت معها في ذلك اليوم، وإلى أن رأيت فيك مرآة أظهرت لي ما شعرت به ذات يوم، لم أكن أدرك ما فعلته. ماذا فعلت! ماذا فعلت! ومرة أخرى، عشرين، خمسين مرة، ماذا فعلت!

قلت بعد أن هدأ صراخها: آنسة هافيشام، يمكنك أن تطرديني من عقلك وضميرك. لكن إستيلا حالة مختلفة، وإذا كان في إمكانك التراجع عن أي جزء مما ارتكبت به بشكل خاطئ في الحفاظ على جزء من طبيعتها الحقيقية بعيداً عنها، فسيكون من الأفضل أن تفعل ذلك بدلاً من التحسر على الماضي ولو خلال مائة عام.

«نعم، نعم، أعرف ذلك. ولكن يا بيب، يا عزيزي!» كان هناك تعاطف أنثوي صادق في عاطفتها الجديدة تجاهي. «عزيزي! صدق هذا: عندما أتت إليّ لأول مرة، قصدت أن أنقذها من بؤس مثل بؤسي. في البداية، لم أقصد أكثر من هذا».

«حسنًا حسنًا!» قلت: آمل ذلك.

- لكن عندما كبرت، وصارت جميلة للغاية، أصبحت أحوالها أسوأ
تدريجياً، ومع مديحي، وجواهري، وتعاليمي، وهيئتي هكذا دائماً
أمامها، كان هذا بمنزلة تحذير لها كي تتعلم دروسي وتؤيدها، لقد
سرق قلبها ووضعت الثلج مكانه.

لم أستطع منع نفسي من القول: كان من الأفضل أن تتركي قلبها على
حاله، حتى لو كان مجروحاً أو مكسوراً.

نظرت الآنسة هافيشام إليّ مشتتة فترة من الوقت، ثم انفجرت مرة
أخرى: ماذا فعلت!

وتوسلت قائلة: لو كنت تعرف قصتي كلها، سيكون لديك بعض
التعاطف معي وتفهمني بشكل أفضل.

أجبت بأكبر قدر ممكن من الدقة: آنسة هافيشام، أعتقد أنني أستطيع
أن أقول إنني أعرف قصتك، وأعرفها منذ أن غادرت هذا الحي أول مرة.
لقد ألهمتني عزاءً عظيماً، وآمل أن أفهمها وأفهم تأثيراتها. هل ما حدث
بيننا يعطيني أي عذر لطرح سؤال عليك بخصوص إستيلا؟ ليس كما هي
الآن، ولكن كما كانت عندما جاءت إلى هنا أول مرة؟

كانت جالسة على الأرض، وذراعاها على الكرسي المتهترئ، ورأسها
متكى عليهما. نظرت إليّ بالكامل عندما قلت هذا، وأجابت: أكمل.

- ابنة من إستيلا؟

هزّت رأسها.

- أنت لا تعرفين؟

هزّت رأسها مرة أخرى.

- لكن السيد جاغرز أحضرها إلى هنا، أم أرسلها إلى هنا؟

- أحضرها إلى هنا.

- هلا تخبريني كيف حدث ذلك؟

أجابت بهمسٍ خفيضٍ وحذرٍ: لقد كنت محبوسة في هذه الغرفة لفترة طويلة (لا أعرف كم من الوقت، أنت تعرف كيف حال الساعة هنا)، عندما أخبرته أنني أريد فتاة صغيرة لتربيتها وحبها وإنقاذها من مصري. لقد رأيته أول مرة عندما أرسلته ليدمر لي هذا المكان؛ بعد أن قرأت عنه في الصحف، قبل أن نفترق أنا والعالم. أخبرني أنه سيبحث حوله عن مثل هذه الطفلة اليتيمة. وفي إحدى الليالي أحضرها إلى هنا نائمة، وسميتها إستيلا.

- هل يمكنني أن أسأل عن عمرها في ذلك الوقت؟

- سنتان أو ثلاثة. هي نفسها لا تعرف شيئًا سوى أنها تركت يتيمة وأنا تبنيها.

لقد كنت مقتنعًا جدًا بأن تلك المرأة هي والدتها، إلى درجة أنني لم أرغب في وجود دليل يثبت الحقيقة في ذهني. ولكن، بالنسبة إلى أي عقل، اعتقدت أن الارتباط هنا كان واضحًا ومباشرًا.

ما الذي يمكن أن أفعله أكثر بإطالة اللقاء؟ لقد نجحت في مساعي بخصوص هربرت، وأخبرتني الآنسة هافيشام بكل ما تعرفه عن إستيلا، وقد قلت وفعلت ما في وسعي لتهدئتها. افترقنا، لا يهم بأي كلمات قلناها في الفراق، لكننا افترقنا.

كان الغسق يقترب عندما نزلت إلى الطابق السفلي في الهواء الطلق. ناديت المرأة التي فتحت البوابة عندما دخلت، قائلاً إنني لن أزعجها الآن، ولكنني سأتجول في المكان قبل المغادرة. لأنه كان لدي شعور بأنني لن أذهب إلى هناك مرة أخرى أبداً، وشعرت أن الضوء المحتضر كان مناسباً لرؤيتي الأخيرة له.

عبر وحشة البراميل التي مشيت عليها منذ فترة طويلة، والتي هطلت عليها أمطار السنين منذ ذلك الحين، مما أدى إلى تعفنها في شتّى الأماكن، وتركت مستنقعات صغيرة وبركاً من المياه على تلك التي كانت واقفة، شققت طريقي إلى الحديقة المقفرة وتحوّلت فيها. بالقرب من الزاوية حيث خضنا أنا وهربرت معركتنا؛ حول الممرات التي مشينا فيها أنا وإستيلا. كل شيء كان بارداً جداً، وحيداً جداً، كثيفاً جداً!

عدت بمحاذاة مصنع الجعة، ورفعت المزلاج الصديء لباب صغير عند طرف الحديقة، وسرت عبره. كنت خارجاً من الباب المقابل، الذي لم يكن من السهل فتحه الآن، لأن الخشب الرطب قد تحرك وانتفخ، وكانت المفصلات تنهار، وكانت العتبة مثقلة بنمو الفطريات، عندما أدرت رأسي لأنظر خلفي. استحضرتني فكرة طفولية بقوة هائلة في تلك اللحظة، وتخيلت أنني رأيت الأنسة هافيشام متدلية من العارضة. كان انطباعاً قوياً جداً، إلى درجة أنني وقفت تحت العارضة أرتجف من قمة رأسي إلى أخمص قدمي قبل أن أعرف أن الأمر خيالي، لكن من أجل التأكد، ذهبت إلى هناك في الحال.

إن حزن المكان والزمان، والرعب الكبير لهذا الوهم، على الرغم من أنه كان مؤقتاً، جعلني أشعر برهبة لا توصف عندما خرجت من البوابات

الخشبية المفتوحة حيث كنت أعتصر شعري ذات مرة بعد أن اعتصرت إستيلا قلبي. عندما مررت إلى الفناء الأمامي، ترددت فيما إذا كنت سأنادي المرأة لتسمح لي بالخروج من البوابة المغلقة التي كان لديها مفتاحها، أو سأصعد أولاً إلى الطابق العلوي وأؤكد لنفسي أن الأنسة هافيشام آمنة وبصحة جيدة كما تركتها. سلكت المسار الأخير وصعدت إلى الأعلى.

نظرت إلى الغرفة التي تركتها فيها، فرأيتها جالسة على الكرسي المهترئ عند المدفأة بالقرب من النار، وظهرها نحوي. في اللحظة التي كنت أسحب فيها رأسي لأذهب بهدوء بعيداً، رأيت ضوءاً عظيماً ملتهباً ينبثق. وفي نفس اللحظة رأيتها تركض نحوي، كانت تصرخ، مع دوامة من النار تشتعل في كل مكان حولها، وترتفع فوق رأسها بعدة أقدام.

كنت أرتدي معطفاً كبيراً بغطاء مزدوج، وعلى ذراعي معطف سميك آخر. نزعتهما، وأطبقت عليهما، وألقيتهما أرضاً، وغطيتهما بهما؛ ثم قمت بسحب المفروش الهائل من فوق الطاولة لنفس الغرض، وسحبت معه كومة العفن الموجودة في الوسط، وكل الأشياء القبيحة التي كانت تحتمي هناك؛ كنا على الأرض نتصارع مثل عدوين يائسين، وكلما غطيتها منها، صرخت بعنف وحاولت تحرير نفسها، عرفت كل ذلك مما آلت إليه الأحداث، ولكن ليس من خلال أي شيء شعرت به أو فكرت فيه أو علمت أنني فعلته. لم أكن أعرف شيئاً حتى أدركت أننا كنا على الأرض بجوار الطاولة الكبيرة، وأن رقعاً مشتعلة تتطاير في الهواء المليء بالدخان، والتي كانت منذ لحظة فستان زفافها الباهت.

ثم نظرت حولي ورأيت الخنافس والعناكب المهتاجة تجري بعيداً على الأرض، والخدم يأتون إلى الباب بصرخاتٍ لاهثة. ما زلت أحملها

بقوة بكل ما أوتيت من قوة، مثل السجين الذي قد يهرب؛ وأشك في أنني كنت أعرف من هي، أو لماذا كنا نناضل، أو أنها كانت تحترق، أو أن النيران انطفأت، حتى رأيت ثيابها التي كانت عبارة عن رُقع مشتعلة متطايرة لم تعد مشتعلة بل تنهمر كالمطر الأسود من حولنا.

كانت فاقدة الوعي، وكنت أخشى أن أحركها، أو حتى ألمسها. طلبت المساعدة، وتمسكت بها حتى وصلت، كما لو كنت أتخيل بشكل غير معقول (أعتقد أنني فعلت ذلك) أنه إذا تركتها، فسوف تندلع النار مرة أخرى وتأكّلها. عندما نهضت، كان الجراح قد جاء إليها بمساعدات أخرى، دهشت عندما رأيت يديَّ محروقتين؛ لأنني لم أشعر بذلك.

عند الفحص، تبين أنها تلقت إصابات خطيرة، لكن حالتها في حد ذاتها ليست ميؤوساً منها؛ يكمن الخطر بشكل رئيسي في الصدمة العصبية. بناءً على تعليمات الجراح، نُقل فراشها إلى تلك الغرفة وُوضع على الطاولة الكبيرة، والتي تصادف أنها مناسبة تمامًا لتضميد جراحها. وعندما رأيتها مرة أخرى، بعد ساعة، كانت مستلقية بالفعل، في نفس المكان الذي رأيتها فيه ذات يوم تضرب عصاها، وتقول إنها سوف ترقد هناك يومًا ما.

على الرغم من أن كل بقايا فستانها كانت محترقة، كما أخبروني، فإنها لا تزال تحتفظ بشيء من مظهرها الزفافي الشبحي القديم؛ وعلى الرغم من أنهم غطوا حتى حلقها بقطعة من القطن الأبيض، بينما كانت مستلقية بملاءة بيضاء تغطيها بشكل غير محكم، كان المظهر الشبحي لشيء كان ثم تغير ما زال يخيم عليها.

اكتشفت، عند استجواب الخدم، أن إستيلا كانت في باريس،

وحصلت على وعد من الجراح بأنه سيرسل إليها رسالة في البريد التالي . بالنسبة إلى عائلة الأنسة هافيشام أخذت أمرها على عاتقي؛ بنية التواصل مع السيد ماثيو بوكيت فقط، وتركه يفعل ما يريد بشأن إبلاغ باقي أفراد العائلة . وهذا ما فعلته في اليوم التالي، من خلال هربرت، فور عودتي إلى المدينة.

كانت هناك مرحلة، في ذلك المساء، تحدثت فيها الأنسة هافيشام ببرود عما حدث، ولكن بحيوية رهيبة. قرب منتصف الليل بدأت تشرد في أثناء حديثها. وبعد ذلك بدأ الأمر تدريجيًا وهي تقول مرات لا حصر لها بصوت منخفض مهيب: «ماذا فعلت!» وبعد ذلك: «عندما جاءت لأول مرة، قصدت أن أنقذها من البؤس الشبيه ببؤسي». وبعد ذلك: «خذ القلم واكتب تحت اسمي «أنا أسامحها!» لم تغير قط ترتيب هذه الجمل، لكنها أحيانًا كانت تترك كلمة في واحدة أو أخرى منها؛ لا تضع مكانها كلمة أخرى، بل تترك فراغًا وتنتقل إلى الكلمة التالية.

وبما أنني لم أتمكن من تقديم أي خدمة هناك، ولأنني كنت بالقرب من المنزل، كان لديّ ذلك السبب الملح للقلق والخوف الذي لم يستطع حتى شرودها أن يطرده من ذهني، فقد قررت خلال الليل أن أعود في عربة في الصباح الباكر، أسير ميلاً أو نحو ذلك، وأستقلها بعيدًا عن القرية. لذلك، في نحو الساعة السادسة صباحًا، انحنيت عليها ومسست شفتيها بشفتي، وهما تقولان، دون التوقف عند لمسهما: «خذ القلم واكتب تحت اسمي، «أنا أسامحها»».

الفصل الخمسون

ضُمدت جراحي مرتين أو ثلاثة في الليل، ومرة أخرى في الصباح. كانت ذراعي اليسرى مصابة بحروق شديدة حتى المرفق، وبدرجة أقل خطورة، وصلت إلى مستوى الكتف؛ كان الأمر مؤلماً للغاية، لكن النيران اشتعلت في هذا الاتجاه، وشعرت بالامتنان لأن الأمر لم يكن أسوأ. لم تكن يدي اليمنى محترقة بشدة، تمكنت من تحريك أصابعي. لقد كانت مُضمّدة بالطبع، ولكن بطريقة أقل إزعاجاً من يدي اليسرى وذراعي اليسرى؛ رُفعتا بحمالة الذراع؛ ولم يكن في وسعي إلا أن أرتدي معطفي مثل عباءة، فضفاضاً فوق كتفي ومثبتاً عند الرقبة. لقد تأثر شعري بالنار، لكن ليس رأسي أو وجهي.

عندما ذهب هربرت إلى هامرسميث ورأى والده، عاد إليّ في المسكن، وخصص يومه لرعايتي. لقد كان ألطف ممرض على الإطلاق، وفي أوقات محددة كان ينزع الضمادات، وينقعها في السائل المرطب الذي كان مجهزاً، ويضعها مرة أخرى بحنان وصبر، كنت ممتناً له بشدة. في البداية، بينما كنت مستلقياً على الأريكة بهدوء، وجدت أنه من الصعب جداً، بل من المستحيل، أن أتخلص من التفكير في وهج النيران، وسرعتها وضجيجها، ورائحة الحريق الشديدة. إذا غفوت لدقيقة، كنت أستيقظ على صرخات الأنسة هافيشام، وعلى ركضها نحوي، والنار تعلو

بشدة فوق رأسها. كان الألم النفسي هذا أصعب بكثير من مقاومة أي ألم جسدي عانيت منه؛ وعندما رأى هربرت ذلك، بذل قصارى جهده لجذب انتباهي.

لم يتحدث أي منا عن القارب، لكنْ كلانا فكر فيه. وقد ظهر ذلك بوضوح من خلال تجنبنا للموضوع، وموافقنا -دون اتفاق- على جعل شفائي لهدف استخدام يدي مسألة تستغرق ساعات، وليس أسابيع عديدة. كان سؤالى الأول عندما رأيت هربرت هو بالطبع ما إذا كان كل شيء يسير على ما يرام أسفل النهر؟ فأجاب بالإيجاب وبكل ثقة وابتهاج، ولم نستأنف الموضوع حتى كاد اليوم ينتهي. ولكن بعد ذلك، عندما غيّر هربرت الضمادات، على ضوء النار أكثر من الضوء الخارجي، عاد إلى الموضوع تلقائياً.

- جلست مع بروفيس الليلة الماضية، يا هاندل، ساعتين كاملتين.

- أين كانت كلارا؟

قال هربرت: عزيزتي الصغيرة! لقد كانت تصعد وتهبط من عند جروفاندجرىم طوال المساء. كان يستمر في الضرب على الأرض منذ اللحظة التي تبعد فيها عن ناظره. ومع ذلك، أشك في أنه يستطيع الصمود لفترة طويلة. مع كل الروم والفلفل -والفلفل والروم- أعتقد أن هذه الضوضاء على وشك الانتهاء.

- وبعد ذلك سوف تتزوج يا هربرت؟

- كيف يمكنني الاعتناء بطفلي العزيزة بأي طريقة أخرى؟ ضع ذراعك على ظهر الأريكة، يا ولدي العزيز، وسأجلس هنا، وأزيل الضمادة تدريجياً ولن تشعر بها. كنت أتحدث عن بروفيس. هل

تعلم يا هاندل أنه يتحسن؟

- لقد قلت لك إنه قد لانت عريكته عندما رأيته آخر مرة.

- هكذا قلت. وهو ما حدث. لقد كان كثير الكلام بالأمس وأخبرني المزيد عن حياته. هل تتذكر عندما توقف عن الحديث هنا عن امرأة كان لديه مشكلة كبيرة معها... هل أذيتك؟

لقد أجفلت، ولكن ليس تحت لمسته. لقد أجفلتني كلماته.

- لقد نسيت ذلك يا هربرت، لكنني أتذكره الآن وأنت تتحدث عنه.
- حسنًا! لقد تحدثت عن هذا الجزء من حياته، وهو جزء مهمجي مظلم. هلا أخبرك عنه؟ أم أن هذا سيقلقك الآن؟

- أخبرني بالتأكيد. كل كلمة.

انحنى هربرت للأمام لينظر إليّ من كذب، كما لو أن ردي كان أكثر استعجالًا أو حماسًا مما يستطيع تفسيره. «رأسك بارد؟» قال وهو يلمسه.

قلت: تمامًا. أخبرني ماذا قال بروفيس يا عزيزي هربرت.

قال هربرت: يبدو أن- ها هي الضمادة تم نزعها بطريقة ساحرة جدًا، والآن تأتي الضمادة الباردة، تجعلك تنكمش في البداية يا صديقي العزيز المسكين، أليس كذلك؟ لكنها ستكون مريحة الآن- يبدو أن المرأة كانت شابة، وامرأة غيورة، وامرأة انتقامية؛ انتقامية يا هاندل إلى أبعد حد.

- إلى أي حد؟

- القتل... هل الضمادة باردة جدًا في هذا المكان الحساس؟

- أنا لا أشعر بذلك. كيف قتلت؟ من قتلت؟

قال هربرت: ربما لم يكن هذا الفعل يستحق اسمًا فظيلاً إلى هذا

الحد، لكنها حوكت على ذلك، ودافع عنها السيد جاجرز، وكانت شهرة هذا الدفاع أول ما جعل اسمه معروفًا لبروفيس. لقد كانت الضحية امرأة أخرى أقوى منها، وكان هناك صراع في الحظيرة. من الذي بدأه، أو مدى عدالته، أو مدى ظلمها، قد يكون موضع شك؛ لكن كيف انتهى الأمر ليس موضع شك بالتأكيد، إذ وجدت الضحية مخنوقة.

- هل حُكِمَ على المرأة؟

- لا؛ لقد تمت تبرئتها... يا هاندل المسكين، لقد آذيتك!

- من المستحيل أن تكون أرق من ذلك يا هربرت. نعم؟ ماذا بعد؟

- هذه الشابة التي تمت تبرئتها وبروفيس كان لديهما طفلة صغيرة؛ طفلة صغيرة كان بروفيس مولعًا بها للغاية. وفي مساء الليلة التي خنقت فيها المرأة الأخرى، كما أقول لك، ظهرت الشابة أمام بروفيس للحظة واحدة، وأقسمت إنها ستقتل الطفلة (التي كانت في حوزتها)، وإنه لن يراها مرة أخرى؛ ثم اختفت. ها هو أسوأ ذراع ترقد في حمالة الذراع مرة أخرى، والآن لم يتبق سوى اليد اليمنى، وهي مهمة أسهل بكثير. يمكنني أن أفعل ذلك باستخدام هذا الضوء أفضل من الضوء الأقوى، لأن يدي تكون أكثر ثباتًا عندما لا أرى بقع البثور المسكينة بوضوح شديد. ألا تعتقد أن تنفسك يتأثر، يا ولدي العزيز؟ يبدو أنك تتنفس بسرعة.

- ربما أفعل ذلك يا هربرت. هل التزمت المرأة بقسمها؟

- هنا يأتي أحلك جزء من حياة بروفيس. لقد فعلت.

- أي إنه يقول إنها فعلت.

«بالطبع يا ولدي العزيز» رد هربرت بنبرة مفاجأة، وانحنى إلى الأمام

مرة أخرى ليلقي نظرة فاحصة عليّ: «إنه يقول كل شيء. ليس لديّ أي معلومات أخرى».

- لا، بالتأكيد.

تابع هيربرت: الآن، لم يقل بروفيسر إذا ما كان قد عامل والدته الطفلة بشكل سيئ أو جيد؛ فقد عاشت نحو أربع أو خمس سنوات من الحياة البائسة التي وصفها لنا عند هذه المدفأة، ويبدو أنه شعر بالشفقة عليها والتسامح تجاهها. لذلك، خوفاً من استدعائه ليشهد ضدها عن هذه الطفلة القتيلة، فيكون سبباً في موتها، اختبأ (بقدر ما حزن على هذه الطفلة)، ظل مختبئاً، كما يقول، بعيداً عن الطريق وبعيداً عن المحاكمة، ولم يتم الحديث عنه إلا بشكل غامض على أنه رجل معين يُدعى هابيل، والذي نشأت بسببه الغيرة. وبعد الحكم بالبراءة اختفت، وبذلك فقد الطفلة وأم الطفلة.

- أريد أن أسأل...

- لحظة يا ولدي العزيز، وأنتهي. ذلك العبقري الشرير، كومبيسون، الأسوأ بين كل الأوغاد، الذي كان يعلم بحرصه على الابتعاد عن الطريق في ذلك الوقت وأسباب قيامه بذلك، بالطبع بعد ذلك استغل هذه المعلومة ضده لتوريطه أكثر وإبقائه أكثر فقراً. كان من الواضح الليلة الماضية أن هذا ما أوصل بروفيسر إلى شفا العداة معه.

قلت: أريد أن أعرف، وبالتحديد يا هيربرت، هل أخبرك بموعد حدوث ذلك؟

- وبالتحديد؟ دعني أذكر إذن ما قاله في هذا الشأن. كان تعبيره هو:

«منذ عشرين عامًا، وبعد أن انضمت مباشرة إلى كومبيسون». كم

كان عمرك عندما صادفته في باحة الكنيسة الصغيرة؟

- أعتقد سبع سنوات.

- نعم. قال: «لقد حدث قبل ذلك بثلاث أو أربع سنوات»، وقد

جلبت إلى ذهنه الفتاة الصغيرة التي فقدتها بشكل مأساوي، والتي

كانت في نفس عمرك تقريبًا.

قلت، بعد صمت قصير، بطريقة سريعة: هربرت، هل تستطيع رؤيتي

بشكل أفضل على ضوء النافذة، أم على ضوء النار؟

أجاب هربرت وهو يقترب مجددًا: على ضوء النار.

- انظر إليّ.

- أنا أنظر إليك يا ولدي العزيز.

- المسني.

- أنا ألمسك يا ولدي العزيز.

- هل أنا مصاب بأي حمى، أو أن رأسي مضطرب كثيرًا بسبب

حادث الليلة الماضية؟

قال هربرت بعد أن خصص بعض الوقت لفحصي: لا، يا ولدي

العزيز. أنت منفعل إلى حد ما، لكنك على طبيعتك تمامًا.

- أعلم أنني على طبيعتي تمامًا. وأن الرجل الذي خبأنه أسفل النهر

هو والد إستيلا.

الفصل (الحادي والخمسون)

لا أعرف ما الهدف وراء حرصي الشديد على تعقب وإثبات نسب إستيلا. سيتبين الآن أن السؤال لم يكن أمامي بشكل جلي حتى طرحه أمامي شخص أكثر حكمة مني.

ولكن عندما أجرينا أنا وهربرت محادثتنا المصيرية، ساورتني قناعة جنونية بأنني يجب أن أنقب عن الأمر، وأنه لا ينبغي لي أن أتركه جانباً، ولكن يجب أن أرى السيد جاغرز وأصل إلى الحقيقة المجردة. لا أعرف حقاً ما إذا كنت شعرت بأنني فعلت ذلك من أجل إستيلا، أو ما إذا كنت سعيداً بنقل بصيص من الشغف العاطفي الذي أحاط بي لفترة طويلة إلى الرجل الذي كنت مهتماً جداً بحمايته، ولعل الاحتمال الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة.

على أي حال، بالكاد استطعت منع نفسي من الخروج إلى شارع جيرارد في تلك الليلة. إن اعتراض هربرت بأنني إذا فعلت ذلك، فمن المحتمل أن أقع طريح الفراش وأصير بلا فائدة، في حين أن سلامة الهارب ستعتمد عليّ، هذا وحده هو ما كبح جماحي. على أساس أنني، وقد كررت ذلك مراراً وتكراراً، مهما حدث، سأذهب إلى السيد جاغرز غداً، وقد استسلمت أخيراً بالتزام الصمت، والاعتناء بجراحي، والبقاء في المنزل. خرجنا معاً في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وعند زاوية

شارع جيلتسبير بجوار سميثفيلد، تركت هربرت متوجهًا إلى المدينة، ثم سلكت طريقي إلى ليتل بريتن.

كانت هناك مناسبات بين الحين والآخر عندما قام السيد جاغرز وويميك بمراجعة حسابات المكتب، والتحقق من بطاقات السداد، ووضع كل الأمور في نصابها الصحيح. في هذه المناسبات، أخذ ويميك كتبه وأوراقه إلى غرفة السيد جاغرز، ونزل أحد الموظفين في الطابق العلوي إلى المكتب الخارجي. عندما وجدت مثل هذا الموظف في مكتب ويميك ذلك الصباح، عرفت ما كان يحدث؛ لكنني لم أشعر بالأسف لوجود السيد جاغرز وويميك معًا، حيث سيسمع ويميك بعد ذلك بنفسه أنني لم أقل شيئًا من شأنه أن يعرضه للخطر.

كان مظهري، وذراعي مربوطة بالضمادات ومعطفي فضفاضًا على كتفي، يدعمني. على الرغم من أنني أرسلت إلى السيد جاغرز وصفًا موجزًا للحدث بمجرد وصولي إلى المدينة، إلا أنه كان عليّ أن أقدم له كل التفاصيل الآن؛ وقد جعلت خصوصية المناسبة حديثنا أقل جفافًا وصعوبة، وأقل خضوعًا لقوانين الإثبات، مما كان عليه من قبل. وبينما كنت أصف الكارثة، وقف السيد جاغرز، كعادته، أمام النار. انحنى ويميك إلى الخلف في كرسيه، وهو يحدق إليّ، واضعًا يديه في جيبي بنطاله، وقد وضع قلمه في فمه. يبدو أن القالبين الوحشيين، اللذين لا ينفصلان أبدًا في ذهني عن الجلسات القضائية، كانا يفكران باحتقان فيما إذا كانا يشمان رائحة النار في تلك اللحظة.

انتهت روايتي، وانتهت أسئلتهما، ثم قدمت إذن الأنسة هافيشام للحصول على التسعمائة جنيه لهربرت. تعمقت عينا السيد جاغرز في رأسه قليلًا عندما سلمته الألواح، لكنه سلمها على الفور إلى ويميك، مع

تعليمات بسحب الشيك لتوقيعه. وبينما كان ذلك يحدث، نظرت إلى ويميك وهو يكتب، ونظر إليّ السيد جاغرز، الذي كان يتأرجح ويتمايل على حذائه الملمع جيداً. قال بينما أضع الشيك في جيبي بعد أن وقع عليه: أنا آسف يا ييب، لأننا لا نفعل شيئاً من أجلك.

أجبت: لقد كانت الآنسة هافيشام كريمة بما يكفي لتسألني ما إذا كانت تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلي، لكنني رفضت.

قال السيد جاغرز: «يجب على الجميع أن يعرفوا مصلحتهم». ورأيت شفّتي ويميك تشكّلان عبارة «ممتلكات محمولة».

قال السيد جاغرز: لم أكن لأرفض، لو كنت مكانك. ولكن يجب على كل إنسان أن يعرف مصلحته أفضل معرفة.

قال ويميك، وهو يوبّخني إلى حد ما: إن مصلحة أي رجل تكمن في الممتلكات المحمولة.

عندما اعتقدت أن الوقت حان لمتابعة الموضوع الذي كان يدور في ذهني، قلت، وتحولت إلى السيد جاغرز:

- لقد طلبت شيئاً من الآنسة هافيشام، يا سيدي. طلبت منها أن تعطيني بعض المعلومات عن ابنتها بالتبني، فقالت لي كل ما تعرفه.

«هل فعلت؟» قال السيد جاغرز وهو ينحني إلى الأمام لينظر إلى حذائه ثم يعدل نفسه: هاه! لا أعتقد أنه كان ينبغي لي أن أفعل ذلك، إذا كنت مكان الآنسة هافيشام. ولكن بالتأكيد هي تعرف مصلحتها الخاصة بشكل أفضل.

- أنا أعرف تاريخ طفلة الآنسة هافيشام بالتبني أكثر من الآنسة هافيشام نفسها. أنا أعرف والدتها.

نظر إليّ السيد جاغرز مستفسراً، وكرر: والدتها؟

- لقد رأيت والدتها خلال هذه الأيام الثلاثة.

«هل فعلت؟» قال السيد جاغرز.

- وأنت أيضاً يا سيدي. وقد رأيتها مؤخراً.

«هل فعلت أنا؟» قال السيد جاغرز.

قلت: ربما أعرف عن تاريخ إستيلا أكثر مما تعرفه أنت. وأنا أعرف والدها أيضاً.

كانت هناك وقفة معينة في طريقة السيد جاغرز - فقد كان مسيطراً على نفسه إلى درجة أنه لم يتمكن من تغيير طريقته، لكنه لم يستطع منع توقفه بانتباه غامض - أكدت لي أنه لا يعرف من هو والدها. لقد شككت بشدة في هذا من خلال رواية بروفيس (كما كررها هربرت) عن أنه أبقى نفسه مختبئاً؛ وهو ما استنتجته من حقيقة أنه هو نفسه لم يكن عميلاً للسيد جاغرز إلا بعد نحو أربع سنوات، وعندها لم يكن لديه أي سبب للمطالبة بهويته. على الرغم من أنني لم أتمكن من التأكد من عدم معرفة السيد جاغرز له من قبل، إلا أنني كنت متأكداً منه الآن.

«إذن! أنت تعرف والد السيدة الشابة يا بيب؟» قال السيد جاغرز.

أجبت: نعم، واسمه بروفيس، من نيو ساوث ويلز.

حتى السيد جاغرز أجفل عندما قلت هذه الكلمات. كانت أقل حركة يمكن أن تفلت من الرجل، وكانت تلك الحركة التي قُمعت بعناية أكبر، وُصِّحت بشكل أسرع، لكنه أجفل بالفعل، على الرغم من أنه جعلها جزءاً من عملية إخراج منديل جيبه. لا أستطيع أن أقول كيف تلقى ويميك

الخبر؛ لأنني كنت أخشى أن أنظر إليه في تلك اللحظة، خشية أن تكشف فطنة السيد جاغرز أنه كانت هناك بعض الاتصالات بيننا غير المعروفة له. «وعلى أي دليل يا بيب يقدم بروفيس هذا الادعاء؟» سأل السيد جاغرز ببرود شديد، وهو يتوقف ومنديله في منتصف الطريق إلى أنفه. فقلت: إنه لم يفعل ذلك، لم يفعله قط، وليس لديه علم أو اعتقاد بوجود ابنته.

للمرة الأولى، عجز منديل الجيب القوي عن أداء مهمته. كان ردي غير متوقع إلى درجة أن السيد جاغرز أعاد المنديل إلى جيبه دون أن يكمل مهمته المعتادة، وطوى ذراعيه ونظر إليّ باهتمام صارم، ولكن بوجه جامد.

ثم أخبرته بكل ما أعرفه، وكيف عرفته؛ مع التحفظ الوحيد الذي تركته له وهو أن يستنتج أنني عرفت من الآنسة هافيشام ما عرفته في الواقع من ويميك. لقد كنت حذرًا جدًا حقًا فيما يتعلق بذلك. كما أنني لم أنظر نحو ويميك حتى انتهيت من كل ما كان عليّ قوله، وبقيت بعض الوقت أقابل نظرة السيد جاغرز بصمت. وعندما وجهت نظري أخيرًا نحو ويميك، وجدت أنه قد أزاح قلمه من فمه، وصب تركيزه على الطاولة أمامه.

«هاه!» قال السيد جاغرز أخيرًا وهو يتجه نحو الأوراق الموجودة على الطاولة: أين كنا يا ويميك، عندما قاطعنا السيد بيب؟

لكنني لم أستطع الاستسلام للتخلص مني بهذه الطريقة، ووجهت نداءً عاطفيًا، يكاد يكون ساخطًا، إليه ليكون أكثر صراحة وشجاعة معي. ذكّرته بالأمال الكاذبة التي وقعت فريسة لها، وطول مدتها، والاكتشاف الذي توصلت إليه: وألمحت إلى الخطر الذي كان يثقل كاهلي. لقد

قدمت نفسي على أنني بالتأكيد أستحق القليل من الثقة منه، مقابل الثقة التي منحتها للتو. فقلت إنني لا ألومه، أو أشك فيه، أو أسيء الظن فيه، ولكنني أريد التأكد من الحقيقة. وإذا سألني لماذا أريد ذلك، ولماذا أعتقد أن لي أي حق في ذلك، سأقول له، على الرغم من أنه لا يهتم كثيرًا بهذه الأحلام البائسة، إلا أنني أحببت إستيلا كثيرًا ولفترة طويلة، وأنه على الرغم من أنني خسرتها، وأنني من المحتم أن أعيش حياة محرومة، فكل ما يتعلق بها كان لا يزال أقرب وأعز إليّ من أي شيء آخر في العالم. وعندما رأيت أن السيد جاغرز وقف ساكنًا وصامتًا تمامًا، وعلى ما يبدو متعنتًا تمامًا، في ظل هذا النداء، التفتُ إلى ويميك، وقلت: ويميك، أعرف أنك رجل ذو قلب رقيق. لقد رأيت منزلك الجميل، ووالدك العجوز، وكل الطرق البريئة والمبهجة التي تنعش بها حياتك العملية. وأنا أتوسل إليك أن تقول كلمة للسيد جاغرز لصالحه، وأن توضح له أنه، مع مراعاة جميع الظروف، يجب أن يكون أكثر انفتاحًا معي!

لم يسبق لي أن رأيت رجلين ينظر بعضهما إلى بعض بشكل أكثر غرابة مما فعل السيد جاغرز وويميك بعد هذه المناجاة. في البداية، راودتني شكوك حول إمكانية طرد ويميك من عمله على الفور؛ لكن شكوكي تبددت عندما رأيت السيد جاغرز يسترخي ويتسم، وأصبح ويميك أكثر جراءة.

«ما كل هذا؟» قال السيد جاغرز: أنت ووالدك العجوز، وطرقك الممتعة والمرحة؟

«حسنًا!» أجاب ويميك، «إذا لم أحضرهم إلى هنا، فما الذي يهم؟».

قال السيد جاغرز وهو يضع يده على ذراعي ويتسم علنًا: بيب، لا بد

أن هذا الرجل هو المحتال الأكثر مكرًا في لندن كلها.
«على الإطلاق» أجاب ويميك، وقد أصبح جريئًا أكثر وأكثر، «أعتقد أنك كذلك أيضًا».

تبادلًا مرة أخرى نظراتهما الغريبة السابقة، ويبدو أن كلا منهما يشك في أن الآخر كان يخدعه.

«هل لديك منزل لطيف؟» قال السيد جاغرز.

أجاب ويميك: بما أن ذلك لا يتعارض مع العمل، فليكن. الآن، عندما أنظر إليك يا سيدي، لا ينبغي لي أن أتساءل عما إذا كنت تخطط وتدبر للحصول على منزل جميل خاص بك في أحد الأيام، عندما تصبح متعبًا من كل هذا العمل.

أومأ السيد جاغرز برأسه متأملًا مرتين أو ثلاث مرات، وتنهد في الواقع. قال: بيب، لن نتحدث عن الأحلام البائسة أنت تعرف عن مثل هذه الأمور أكثر مني، ولديك خبرة أحدث بكثير في هذا الصدد. ولكن الآن عن هذه المسألة الأخرى. سأطرح عليك قضية. انتبه! أنا لا أعترف بأي شيء.

انتظر مني أن أعلن أنني أفهم تمامًا أنه قال صراحة إنه لا يعترف بأي شيء.

قال السيد جاغرز: الآن يا بيب، افترض أن هناك قضية. لنفترض أن المرأة، في ظل هذه الظروف التي ذكرتها، أخفت طفلتها، واضطرت إلى إبلاغ مستشارها القانوني بالأمر، عندما وضح لها أنه يجب أن يعرف ما حدث حقًا للطفلة لأنه في قلب دفاعه. افترض أنه في الوقت نفسه أو تمن على العثور على طفلة لسيدة غنية غريبة الأطوار لتبناها وتربيتها.

- أنا أتابعك يا سيدي.

- فلنفترض أن هذا المستشار القانوني عاش في جو من الشر، وأن كل ما رآه من الأطفال هو أنهم يُولَدون بأعدادٍ كبيرة من أجل هلاك محقق. ضع في اعتبارك أنه كثيرًا ما رأى أطفالًا يحاكمون رسميًا في محكمة جنائية، حيث يُحملون لصعوبة رؤيتهم؛ لنفترض أنه كان يعرف عادة عن سجنهم، وجلدهم، ونقلهم، وإهمالهم، ونبذهم، وتأهيلهم بكل الطرق للجلاد، ويكبرون ليُشنقوا. ضع في اعتبارك أن جميع الأطفال الذين رآهم في حياته العملية اليومية تقريبًا كان لديه سبب للنظر إليهم على أنهم بيض السمك، يصيرون أسماكًا تستصل إلى شبكته، ليحاكموا، ويدافع عنهم، وينبذوا، ويضربوا. فالأيتام، فاسدون بطريقة أو بأخرى.

- أنا أتابعك يا سيدي.

- افترض يا بيب، حيث كانت هناك طفلة صغيرة جميلة من بين الكومة يمكن إنقاذها؛ الذي اعتقد أبوها أنها ماتت، ولم يجروا على إثارة أي ضجة بشأنها؛ أما بالنسبة إلى المستشار القانوني الذي يتمتع بالسلطة على الأم فيقول لها: «أنا أعرف ما فعلته وكيف. قلت كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا لتدفعي بالشبهة عنك. لقد تعقبتك خلال كل ذلك، وأخبرتكم بكل شيء. فارقي الطفلة، إلا إذا كان من الضروري إظهارها لتبرئتك، فيتم إظهارها. اتركي الطفلة بين يدي، وسأبذل قصارى جهدي لإخراجك. إذا كُتب لك الخلاص، يُكتب لطفلتك الخلاص أيضًا؛ وإن لم يكتب لك الخلاص، فسيكتب لطفلتك الخلاص على الرغم من ذلك.

افترض أن الأمر قد تم، وأن المرأة قد بُرِّتْ.

- أفهم تمامًا.

- لكنك تفهم أنني لا أقدم أي اعترافات؟

«أنت لا تقدم أي اعترافات» وكرر ويميك: «أنت لا تقدم أي اعترافات».

- افترض، يا بيب، إن العاطفة والخوف من الموت قد هزَّ عقل المرأة قليلاً، وأنها عندما أُطلق سراحها، كانت خائفة من العالم من حولها، وذهبت إليه لتحتمي. افترض أنه استقبلها، وأنه كبح جماح الطبيعة القديمة الوحشية العنيفة كلما رأى لمحة من اندلاعها، من خلال تأكيد سلطته عليها بالطريقة القديمة. هل تفهم القضية المتخيلة؟

- تمامًا.

- افترض أن الطفلة نشأت وتزوجت من أجل المال. أن الأم كانت لا تزال على قيد الحياة. أن الأب كان لا يزال على قيد الحياة. أن الأم والأب، من دون علمهما، كانا يسكنان على بُعد أميال كثيرة، أو فراسخ، أو ياردات، إذا شئت، من بعضهما البعض. وأن السر لا يزال سرّاً، إلا أنه ترامى إلى مسامعك. افترض هذا الأمر الأخير بعناية فائقة.

- افترضت.

«اطلب من ويميك أن يفترض الأمر بعناية فائقة»، وقال ويميك:

«افترضت».

- لأجل مَنْ ستكشف السر؟ من أجل الأب؟ أعتقد أنه لن يكون أفضل بكثير من الأم. من أجل الأم؟ أعتقد أنها لو فعلت مثل هذا الفعل لكانت أكثر أمانًا حيث هي الآن. من أجل الابنة؟ أعتقد أنها لن تستفيد من إثبات نسبها أمام زوجها، وجرها إلى العار، بعد كتمان دام عشرين عامًا، ومن الآن جدًا أن يستمر مدى الحياة. لكن أضف إلى ذلك أنك أحببتها يا ييب، وجعلتها أساس تلك «الأحلام البائسة» التي كانت، في وقت أو آخر، في رؤوس عدد من الرجال أكبر مما تعتقد، ثم أقول لك ذلك من الأفضل لك -ومن الأفضل أن تفعل ذلك عاجلاً عندما تفكر في الأمر جيداً- أن تبتري يدك اليسرى المغطاة بالضمادات بيدك اليمنى، ثم تمرر الساطور إلى ويميك هناك، ليبتري يدك اليمنى أيضًا.

نظرت إلى ويميك، الذي كان وجهه حادًا جدًا. لمس شفثيه بإصبعه بشكلٍ حاد. فعلت نفس الشيء، فعل السيد جاغرز نفس الشيء. قال الأخير بعد ذلك وهو يستأنف أسلوبه المعتاد: الآن يا ويميك، أين كنا عندما قاطعنا السيد ييب؟

عندما وقفت لبعض الوقت، بينما اتَّجَّها إلى العمل، لاحظت أن النظرات الغريبة التي ألقاها كلُّ منهما على الآخر تكررت عدة مرات: مع هذا الفارق الآن، بدا كل واحد منهما مرتابًا، إن لم يكن خجولًا، بعد إظهار نفسه للآخر في ضوء ضعيف وغير مهني. ولهذا السبب، أعتقد أنهما أصبحا الآن متعتين أحدهما تجاه الآخر؛ كان السيد جاغرز ديكاتورياً للغاية، وكان ويميك يبرر نفسه بعنادٍ كلما كانت هناك أدنى

نقطة معطلة للحظة. لم يسبق لي أن رأيت علاقتهما سيئة؛ لأنهما بشكل عام كانا يتعاملان بشكل جيد جدًا معًا.

لكنهما شعرا بالارتياح والسعادة بسبب الظهور المناسب لمايك، العميل ذي القلنسوة الفرو الذي اعتاد مسح أنفه على كفه، والذي رأيته في اليوم الأول لظهوري بين تلك الجدران. هذا الشخص، الذي بدا أنه، سواء هو أو أحد أفراد أسرته، كان دائمًا في ورطة (ورطة في هذا المكان تعني سجن نيو جيت)، جاء بخبر أن ابنته الكبرى قد حُبست بشبهة سرقة متجر ما. وبينما كان ينقل هذا الخبر الكئيب إلى ويميك، كان السيد جاغرز واقفًا بشكلٍ مهذبٍ أمام النار، ولم يشارك في الحديث، وحدث أن لمعت عين مايك بالدموع.

«ماذا حدث لك؟» سأل ويميك بأقصى درجات السخوط. «لماذا أتيت تبكي هنا؟».

- لم آتِ إلى هنا للبكاء يا سيد ويميك.

قال ويميك: لقد فعلت للتو. كيف تجرؤ؟ أنت لست في حالة مناسبة للمجيء إلى هنا، إذا كنت لا تستطيع المجيء دون أن تقطر مثل القلم العاطب. ماذا تقصد بذلك؟

توسّل مايك قائلاً: لا يستطيع الرجل أن يكبح مشاعره يا سيد ويميك. «يكبح ماذا؟» سأل ويميك بوحشية شديدة. «قل ذلك مجددًا!».

قال السيد جاغرز، وهو يتقدم خطوة ويشير إلى الباب: انظر هنا يا رجل. اخرج من هذا المكتب. لن أسمح بأي مشاعر هنا. اخرج. قال ويميك: أنت تستحق ذلك، اخرج.

لذا، انسحب مايك سبيى الحظ بكل تواضع، وبدأ أن السيد جاغرز
وويميك قد استعدا تفاهمهما السليم، والتفتا إلى العمل مرة أخرى في
جو من الانتعاش كما لو كانا قد تناولا الغداء للتو.

الفصل الثاني والاربعسون

اتجهت من ليتل بريتن، والشيك في جيبي، إلى المحاسب، شقيق الأنسة سكيفينز؛ وذهب المحاسب، شقيق الأنسة سكيفينز، مباشرة إلى مكتب كلاريكر وأحضر كلاريكر إليّ، وشعرت بسعادة غامرة لعقد هذا الاتفاق. كان هذا هو الشيء الجيد الوحيد الذي قمت به، والشيء الوحيد المكتمل الذي قمت به، منذ أن تمت مباركتي بآمالي العظيمة.

أبلغني كلاريك في تلك المناسبة أن شؤون الشركة تتقدم بثبات، وأنه سيكون قادرًا الآن على إنشاء فرع صغير في الشرق، وهو أمر مطلوب بشدة لتوسيع نطاق الأعمال، وأن هربرت بشراكته الجديدة سيذهب إلى هناك ويتولى زمام الأمور، فوجدت أنني لا بد أن أبدأ في الاستعداد للانفصال عن صديقي، رغم أن شؤوني الخاصة كانت أكثر استقرارًا. والآن، في الواقع، شعرت كما لو أن مرساتي الأخيرة بدأت تتحرر من ركيزتها، وقريبًا ستدفعني الرياح والأمواج.

ولكن كان هناك تعويض في الفرحة التي عاد بها هربرت إلى المنزل في إحدى الليالي ليخبرني بهذه التغييرات، دون أن يتخيل أنه لم يأتني بأي أخبار جديدة، وأخذ يرسم لنفسه صورًا خيالية وهو يقود كلارا بارلي إلى بلاد ألف ليلة وليلة، وعن خروجي للانضمام إليهما (بقافلة من الجمال على ما أعتقد)، وعن صعودنا جميعًا إلى نهر النيل ورؤية العجائب. دون

أن أكون واثقًا فيما يتعلق بدوري في تلك الخطط المشرقة، شعرت أن طريق هربرت كان يُمهّد سريعًا، وأن بيل بارلي العجوز لم يكن عليه سوى التمسك بالفلفل والروم، وسيتم توفير الرعاية لابنته قريبًا.

دخلنا الآن شهر مارس. على الرغم من أن ذراعي اليسرى لم تظهر عليها أي أعراض سيئة، فقد استغرقت وقتًا طويلاً للشفاء، بطبيعة الحال، إلى درجة أنني كنت لا أزال غير قادر على ارتداء المعطف. سُفيت ذراعي اليمنى بشكلٍ محتمل، مشوّهة، ولكن تلمي الحاجة إلى حدٍّ ما.

في صباح يوم الاثنين، عندما كنت أنا وهربرت نتناول الإفطار، تلقيت الرسالة التالية من ويميك عبر البريد.

«من وولورث، أحرق الرسالة بمجرد قراءتها. في وقت مبكر من الأسبوع، أو في يوم الأربعاء على سبيل المثال، يمكنك أن تقوم بالأمر الذي أنت على علم به، إذا كنت جاهزًا للمحاولة. الآن أحرق الرسالة».

عندما عرضت الرسالة على هربرت وأحرقتها في النار -ولكن ليس قبل أن نحفظها عن ظهر قلب- فكرنا فيما يجب فعله. لأنه بالطبع لم يعد من الممكن الآن إخفاء كوني عاجزًا عن الأنظار.

قال هربرت: لقد فكرت في الأمر مرارًا وتكرارًا، وأعتقد أنني أعرف طريقًا أفضل من استئجار أحد ملاحي نهر التايمز. دعنا نأخذ ستارتوب؛ فهو زميل جيد، يده ماهرة، مولع بنا، متحمس وأمين.

كنت قد فكرت فيه أكثر من مرة.

- ولكن ماذا ستخبره يا هربرت؟

- من الضروري أن أقول له القليل جدًا. دعه يفترض أنها مجرد نزوة، ولكنها سرية، حتى يأتي الصباح، ثم دعه يعرف أن هناك سببًا عاجلاً

لأخذ بروفيس على متن السفينة ومغادرة البلاد. هل ستذهب معه؟
- من دون شك.

- إلى أين؟

لقد بدا لي، في ضوء المباحثات القلقة الكثيرة التي طرحتها، أنني غير مبالٍ تقريباً بالميناء الذي ستجّه إليه، هامبورج، روتردام، أنتويرب، المكان لا يعني شيئاً يُذكر، ما دام خارج إنجلترا. أي باخرة أجنبية نجدها في طريقنا وتقبل بنا ستكون مناسبة. لقد كنت أقترح دائماً على نفسي أن أذهب به إلى أسفل النهر بالقارب؛ من المؤكد أن الأمر يقع خارج منطقة جريفسيند، وهو مكان بالغ الأهمية للبحث أو الاستفسار إذا كان هناك أي اشتباه في الأمر. وبما أن البواخر الأجنبية ستغادر لندن في وقت ارتفاع منسوب المياه تقريباً، فإن خطتنا ستكون النزول إلى أسفل النهر من خلال الجزر السابق له، والبقاء في مكان هادئ حتى تتمكن من الصعود على متن إحدى هذه البواخر. أما عن موعد قدوم البواخر، فيمكن حسابه من مكان اختبائنا، أينما كان، بشكل تقريبي، إذا قمنا بالاستعلام مسبقاً.

وافق هربرت على كل هذا، وخرجنا مباشرة بعد الإفطار لمتابعة تحقيقاتنا. لقد وجدنا أن الباخرة المتجهة إلى هامبورج من المرجح أن تناسب غرضنا على أفضل وجه، ووجهنا اهتمامنا بشكل رئيسي نحو تلك السفينة. لكننا قمنا بتسجيل البواخر الأجنبية الأخرى التي ستغادر لندن مع المد نفسه، وقنعنا بمعرفتنا بتصميم ولون كلٍّ منها. ثم انفصلنا بضع ساعات؛ أنا، للحصول على جوازات السفر اللازمة؛ وهربرت، لرؤية ستارتوب في مسكنه. لقد فعل كلٌّ منا ما كان عليه فعله دون أي عائق، وعندما التقينا مرة أخرى في الساعة الواحدة ظهراً، أقررنا أن الأمر

قد تم. أنا، من جهتي، كنت مستعدًا بجوازات السفر؛ وقام هربرت بزيارة ستارتوب، وكان مستعدًا للانضمام إلينا.

قررنا أن يسحب هذان الاثنان زوجًا من المجاديف وأتولى أنا القيادة؛ ستكون مسؤوليتنا هي الجلوس بهدوء. وبما أن السرعة لم تكن هدفنا، فيجب علينا فقط إحراز تقدم كافٍ. ربّنا ألا يعود هربرت إلى المنزل لتناول العشاء قبل الذهاب إلى ميل بوند بانك في ذلك المساء؛ وأنه لا ينبغي له أن يذهب إلى هناك على الإطلاق مساء الغد الثلاثاء؛ أن يعد بروفيس للنزول إلى بعض السلالم القريبة من المنزل، يوم الأربعاء، عندما يرانا نقترّب، وليس قبل ذلك؛ وأن جميع الترتيبات معه يجب أن تنتهي ليلة الاثنين تلك؛ وأنه لا يجوز التواصل معه بأي شكلٍ من الأشكال حتى نأخذه على متن القارب.

بعد فهمنا لهذه الاحتياطات جيدًا، عدت إلى المنزل.

عندما فتحت الباب الخارجي بمفتاحي، وجدت رسالة في الصندوق موجهة إليّ؛ رسالة قدرة للغاية، وإن لم تكن مكتوبة بشكل سيئ. لقد تم تسليمها باليد (بالطبع منذ أن غادرت المنزل)، وكانت محتوياتها كما يلي:

«إذا لم تكن خائفًا من القدوم إلى المستنقعات القديمة هذه الليلة أو ليلة الغد في الساعة التاسعة، والقدوم إلى بيت السد الصغير بجوار الجيارة، فمن الأفضل أن تأتي. إذا كنت تريد معلومات بخصوص عمك بروفيس، فمن الأفضل أن تأتي وألا تخبر أحدًا، وألا تضعي الوقت. يجب أن تأتي وحدك. أحضر هذه الرسالة معك».

كان ذهني مثقلًا بالفعل قبل استلام هذه الرسالة الغريبة. ماذا أفعل

الآن، لا أدري. والأسوأ هو أنني يجب أن أتخذ قرارًا سريعًا، وإلا سأفوت
عربة ما بعد الظهر، التي ستأخذني في الوقت المناسب لهذه الليلة. في
ليلة الغد، لم أستطع أن أفكر في الذهاب، لأن الوقت سيكون قريبًا جدًا
من موعد الرحلة. ومرة أخرى، بغض النظر عن أي شيء أعرفه، قد يكون
للمعلومات المقدمة بعض التأثير المهم في الرحلة نفسها.

لو كان لديّ متسع من الوقت للتفكير، أعتقد أنني كنت سأذهب على
أي حال. لم يكن لديّ أي وقت للتفكير، حيث أظهرت لي ساعتني أن
العربة سوف تتحرك خلال نصف ساعة، فقررت الرحيل. بالتأكيد لم أكن
لأذهب، لولا الإشارة إلى عمي بروفيس. مجيء هذه الرسالة، بعد تلقي
خطاب ويميك والاستعدادات الصباحية الحافلة، قلب كل الموازين.

من الصعب جدًا أن أتمكن من فهم محتويات أي رسالة تقريبًا، في
عجلة شديدة، إلى درجة أنني اضطررت إلى قراءة هذه الرسالة الغامضة
مرتين، قبل أن يتبادر إلى ذهني بشكل آلي تحذيرها بأن تكون سرًا.
استسلمت للأمر بنفس الطريقة الآلية، وتركت رسالة بالقلم الرصاص
لهربرت، أخبرته فيها أنني سأغادر عاجلاً، ولا أعرف إلى متى، فقد قررت
الإسراع والعودة للتأكد بنفسني من حالة الآنسة هافيشام. بالكاد كان لديّ
الوقت الكافي لإحضار معطفي الكبير، وإغلاق الغرف، والتوجه إلى
مكتب المركبات عبر الطرق الفرعية المختصرة. لو أنني أخذت عربة
أجرة وسرت في الشوارع، كنت سأفوت العربة؛ وبينما كنت أسير كما
فعلت، أمسكت بالعربة فور خروجها من الفناء. كنت الراكب الوحيد في
الداخل، غارقًا حتى ركبتني في القش، عندما عدت إلى رشدي.

لأنني لم أكن في رشدي حقًا منذ تلقيت الرسالة؛ فقد حيرتني كثيرًا، بعد كل عجلة الصباح. كانت عجلة الصباح وربكته عظيمة؛ لأنني، رغم انتظاري لويميك فترة طويلة وبفارغ الصبر، جاءت إشارته بمنزلة مفاجأة في النهاية. والآن بدأت أنساءل عن سبب وجودي في العربة، وأشك فيما إذا كان السبب كافيًا لوجودي هناك، وأفكر فيما إذا كان ينبغي لي أن أخرج منها في الحال وأعود أدراجي، وأجادل إذا ما كان يجب على الالتفات أبدًا إلى الرسالة المجهولة، وباختصار، أمر بكل تلك المراحل من التناقض والتردد التي أعتقد أن معظم الأشخاص المتعجلين يفهمونها جيدًا. ومع ذلك، فإن الإشارة إلى بروفيس بالاسم هي التي تحكمت في كل شيء. لقد فكرت بالفعل، دون أن أعرف ذلك، إن كان هذا من الحكمة، أنني لن أسامح نفسي في حالة حدوث أي ضرر له بسبب عدم ذهابي إلى هناك!

حلّ الظلام قبل أن نصل، وبدأت الرحلة طويلة وكثيرة بالنسبة إليّ، لأنني لم أتمكن من رؤية سوى القليل منها من الداخل، حيث لم أتمكن من الخروج مع إعاقتي. تجنبت بلو بور، وأقمت في نزل ذي شهرة بسيطة في وسط المدينة، وطلبت بعض العشاء. في أثناء تجهيزه، ذهبت إلى منزل ساتيس واستفسرت عن الأنسة هافيشام؛ كانت لا تزال مريضة جدًّا، على الرغم من تحسُّنها إلى حدٍّ ما.

كان النزل ذات يوم جزءًا من منزل قديم تابع للكنيسة، وتناولت العشاء في غرفة مشتركة صغيرة مثمَّنة الأضلاع، مثل حوض المعمودية. وبما أنني لم أتمكن من تقطيع طعامي، قام المالك العجوز ذو الرأس الأضلع اللامع بذلك من أجلي. حشًا هذا على تجاذب أطراف الحديث،

حيث كان يسألني بقصتي أنا، بالطبع مع السمّة الشهيرة أن بامبلتشوك كان أول ولي نعمة لي ومؤسس ثروتي.

سألت: هل تعرف ذلك الشاب؟

«أعرفه!» كرر المالك. «منذ أن كان ... صغيرًا للغاية».

- هل يعود إلى هذا الحي؟

قال صاحب المنزل: نعم، إنه يعود إلى أصدقائه الصدوقين، بين الحين والآخر، ويتجاهل الرجل الذي صنعه.

- أي رجل هذا؟

«هو الذي أتحدث عنه» قال المالك، «السيد بامبلتشوك».

- هل هو جاحد تجاه شخص آخر؟

أجاب المالك: لا شك أنه سيفعل ذلك، لو استطاع، لكنه لا يستطيع. ولماذا؟ لأن بامبلتشوك فعل كل شيء من أجله.

- هل يقول بامبلتشوك ذلك؟

«يقول ذلك!» أجاب المالك، «لا داعي إلى أن يقول ذلك».

- ولكن هل يقول ذلك؟

قال المالك: إن الدم يتحوّل إلى خل نبيذ أبيض حين تسمعه يتحدث عن الأمر يا سيدي.

وفكرت: ومع ذلك، يا جو، عزيزي جو، فإنك لا تخبرني بذلك أبدًا. جو المعذب والمحب، أنت لا تشكي أبدًا. ولا أنت يا بيدي اللطيفة!

قال صاحب المنزل وهو ينظر إلى ذراعي المغطاة بالضمادات تحت معطفي: لقد تأثرت شهيتك بالحادث. جرّب بعض اللحم الطري.

أجبتة: «لا، شكرًا لك»، وتحوّلت عن الطاولة لأتأمل النار،
«لا أستطيع أن أكل أكثر من ذلك. من فضلك خذه بعيدًا».

لم يسبق لي أن تعرضت للهجوم الشديد من قبل بسبب جحودي
لجو، كما حدث من خلال المحتال الوقح بامبلتشوك. كلما كان كاذبًا،
كان جو أصدق؛ كلما كان أكثر وضاعة، كان جو أنبل.

شعرت بالقهر الشديد بحق عندما كنت أتأمل النار لمدة ساعة أو
أكثر. أيقظتني دقائق الساعة، لكن ليس بسبب حزني أو ندمي، فنهضت
وربطت معطفي حول عنقي وخرجت. لقد سبق لي أن بحثت في جيوبي
عن الرسالة لعلّي أرجع إليها مرة أخرى؛ لكنني لم أتمكن من العثور
عليها، وانزعجت بتفكيري في أنها لا بد أن تكون سقطت وسط قش
العربة. ومع ذلك، كنت أعلم جيدًا أن المكان المحدد هو بيت السد
الصغير بجوار الجيارة في المستنقعات، في الساعة التاسعة. توجهت الآن
نحو المستنقعات مباشرة، ولم يكن لديّ وقت لأضيعه.

الفصل الثالث والخنسور

لقد كانت ليلة مظلمة، على الرغم من أن القمر كان قد بزغ عندما غادرت الأراضي المسورة، وخرجت إلى المستنقعات. خلف الخط المظلم للمستنقعات كان هناك شريط من السماء الصافية، لا يكاد يكفي القمر الأحمر الكبير. وفي غضون دقائق قليلة، كان قد ارتفع أعلى ذلك الصعيد الصافي، ليأخذ مكانه بين جبال السحب المتراكمة.

كانت ثمة رياح حزينة، وكانت المستنقعات كثيفة للغاية. كان من الممكن أن يجدها شخص غريب لا تحتمل، وحتى بالنسبة إليّ كانت ثقيلة جدًا إلى درجة أنني ترددت، وكنت شبه ميّال إلى العودة. لكنني أعرفها جيدًا، وكان في إمكاني العثور على طريقي في ليلة أكثر ظلمة من تلك بكثير، ولم يكن لديّ أي عذر للعودة بما أنني وصلت إلى هذا الحد. لذلك، مثلما أتيت رغماً عني، واصلت طريقي رغماً عني.

الاتجاه الذي سلكته لم يكن هو الاتجاه الذي يقع فيه بيتي القديم، ولا الاتجاه الذي كنا نلاحق فيه المدانين. كنتُ أدير ظهري نحو سفن السجن البعيدة بينما كنت أسير، وعلى الرغم من أنني تمكنت من رؤية الأضواء القديمة بعيداً على ألسنة الرمال، إلا أنني رأيتها فوق كتفي. كنت أعرف الجيابة جيداً كما كنت أعرف بطارية المدفعية القديمة، كانت تفصلهما أميال؛ لذا، لو كان هناك ضوء مشتعل عند كل نقطة في تلك الليلة، سيكون هناك شريط طويل من الأفق الخالي بين البقعتين اللامعتين.

في البداية، اضطررت إلى إغلاق بعض البوابات ورائي، وبين الحين والآخر وقفت ساكنًا بينما تنهض الماشية التي كانت ترقد في الممر المنحني وتتخبط بين العشب والبوص. ولكن بعد فترة قصيرة بدا كأنني أمتلك المسطحات بأكملها وحدي.

مرّت نصف ساعة أخرى قبل أن أقترّب من الجيارة. كان الجير يحترق برائحة خانقة بطيئة، لكن النيران كانت قد أشعلت وتُركت، ولم يظهر أي عمال. كان بالقرب منها مقلع حجارة صغير، في طريقي مباشرة، وقد تم العمل فيه في ذلك اليوم، كما رأيت من خلال الأدوات وعربات اليد الملقاة حولي.

عندما بلغت مرة أخرى مستوى المستنقع من موقع التنقيب هذا، حيث كان الطريق الوعري يمر من خلاله، رأيت ضوءًا في بيت السد القديم. أسرعت في خطوتي وطرقت الباب بيدي. في انتظار الرد، نظرت حولي، ولاحظت كيف أن السد مهجور ومكسور، وكيف أن البيت -المصنوع من الخشب وسقفه قرميد- لن يكون مقاومًا لعوامل الجو لفترة أطول، لو كان كذلك الآن، وكيف كان الوحل والطين مغطّيين بالجير، وكيف تسلس دخان الجيارة الخائق نحوي بطريقة شبحية. ومع ذلك لم يكن هناك رد، وطرقت الباب مرة أخرى. ما زال لا يوجد رد، فحاولت فتح المزلّاج.

ارتفع المزلّاج تحت يدي، وأذعن الباب. عندما نظرت إلى الداخل، رأيت شمعة مضاءة على طاولة، ومقعّدًا، وفراشًا على سرير دولاب. وبما أنه كان هناك دور علوي في الأعلى، ناديت: «هل يوجد أحد هنا؟» ولكن لم يُجب أي صوت. ثم نظرت إلى ساعتِي، ووجدت أنها تجاوزت التاسعة، فناديت مرة أخرى: «هل يوجد أحد هنا؟» نظرًا إلى عدم وجود

أي جواب حتى الآن، خرجت عند الباب، غير متأكدة مما يجب فعله. بدأت تمطر بسرعة. لم أر شيئاً سوى ما رأيته بالفعل، عدت إلى البيت، ووقفت داخل ملجأ المدخل، أنظر إلى الليل. بينما كنت أفكر في أن شخصاً ما كان هناك مؤخراً ويجب أن يعود قريباً، وإلا فإن الشمعة لن تكون مشتعلة، خطر في ذهني أن أرى ما إذا كان الفتيل طويلاً. استدرت للقيام بذلك، وأخذت الشمعة التي في يدي، عندما انطفأت بسبب صدمة عنيفة؛ والشيء التالي الذي أدركته هو أنني كنت عالماً في حبل قوي، ألقى فوق رأسي من الخلف.

«الآن» قال صوت مكتوم بسباب، «لقد أمسكت بك!».

«ما هذا؟» صرخت وأنا أكافح. «من أنت؟ النجدة النجدة النجدة!».

لم تُسحب فقط ذراعي إلى جانبي، ولكن الضغط على ذراعي المصابة سبب لي ألماً شديداً. في بعض الأحيان، كانت يد رجل قوي، وأحياناً صدر رجل قوي، يوضعان على فمي لإيقاف صرخاتي، ومع أنفاس ساخنة قريبة دائماً مني، كنت أكافح دون جدوى في الظلام، بينما كنت مثبتاً بإحكام على الحائط. قال الصوت المكتوم بسباب آخر: والآن، نادِ مجدداً، وسأختصر عليك المهمة!

كنت أشعر بالإغماء والغثيان بسبب ألم ذراعي المصابة، وذهلت من المفاجأة، ومع ذلك أدركت مدى سهولة تنفيذ هذا التهديد، توقفت عن الصراخ، وحاولت تخفيف ذراعي ولو قليلاً. ولكنها كانت مربوطة بإحكام شديد. شعرت أنها كما احترقت من قبل، كانت الآن في طور الغليان.

نبهني الإقصاء المفاجئ لليل، واستبدال الظلام الحالك مكانه، من أن الرجل قد أغلق الشباك. وبعد أن بحث لفترة قصيرة، وجد الصوان

والفولاذ اللذين كان يريد هما، وبدأ في إشعال الضوء. ركزت نظري على الشرر الذي تساقط حول الفتيل، والذي كان يتنفس ويتنفس من فوقه، كان الفتيل في يده، لكنني لم أستطع رؤية شيء سوى شفتيه، والنقطة الزرقاء من الفتيل وبشكل متقطع. كان الفتيل رطباً، ولا عجب في ذلك، وانطفأ الشرر الواحد تلو الآخر.

لم يكن الرجل في عجلة من أمره، فضرب مرة أخرى بالصوان والفولاذ. وبينما كان الشرر يتساقط كثيفاً ومشرقاً حوله، تمكنت من رؤية يديه ولمسات وجهه، واستطعت أن أرى أنه كان جالساً ومنحنياً فوق الطاولة؛ ولكن لا شيء أكثر من ذلك. وفي تلك اللحظة رأيت شفتيه الزرقاوين مرة أخرى، وهو يتنفس فوق الفتيل، ثم ومضت شعلة من الضوء، وظهر أمامي أورليك.

توقعت أن يكون هو، لا أدري. لم أكن أنتظره. عندما رأيته، شعرت أنني في وضع خطير حقاً، وأبقيت نظري عليه.

أشعل الشمعة من الفتيل بتمهل شديد، ثم أسقط الفتيل وداس فوقه حتى انطفأ. ثم وضع الشمعة بعيداً عنه على الطاولة حتى يتمكن من رؤيتي، وجلس وذراعاها مطويتان على الطاولة، ونظر إليّ. لقد تأكدت من أنني كنت مشدوداً على سلم عمودي قوي على بُعد بضعة بوصات من الجدار، كان مثبتاً هناك، وهو وسيلة الصعود إلى الدور العلوي.

قال بعد أن تفحص بعضنا بعضاً لوهلة: الآن، لقد أمسكت بك.

- حل وثاقي. دعني أذهب!

«آه!» رد قائلاً: سأدعك تذهب. سأدعك تذهب إلى القمر، سأدعك

تذهب إلى النجوم. كل شيء في وقته.

- لماذا استدرجتني إلى هنا؟

«ألا تعلم؟» قال بنظرة قاتلة.

- لماذا هاجمتني في الظلام؟

- لأنني أقصد أن أفعل كل شيء بنفسني. واحد يحافظ على سر أفضل من اثنين. أيها العدو، أيها العدو!

استمتعاه بالمشهد الذي قدمته له، وهو يجلس وذراعا مطويتان على الطاولة، ويهز رأسه في وجهي ويحتضن نفسه، كان يحمل في طياته خبثاً جعلني أرتجف. وبينما كنت أراقبه في صمت، وضع يده في جانبه، وأمسك بمسدس ذي مخزون نحاسي.

«هل تعرف هذا؟» قال وهو يبدو كما لو أنه سيستهدفني. «هل تعرف أين رأيته من قبل؟ تكلم أيها الذئب!».

أجبت: نعم.

- لقد جعلتني أخسر عملي في ذلك المكان، أنت فعلت ذلك. تكلم!

- ماذا كنت تريدني أن أفعل؟

- لقد فعلت ذلك، وهذا كافٍ، دون فعل المزيد. كيف تجرأت على الوقوف بيني وبين المرأة التي أحببتها؟

- متى فعلت ذلك؟

- متى لم تفعل ذلك؟ لقد كنت أنت دوماً من جلب السمعة السيئة لأورليك العجوز.

- لقد جلبتها لنفسك؛ اكتسبتها بنفسك. لم يكن في إمكاني أن أؤذيك، لو لم تلحق أنت أي ضرر بنفسك.

«أنت كاذب. أنت سوف تتحمل أي عذاب، وتنفق أي أموال لطردني من هذا البلد، أليس كذلك؟» قال وهو يكرر كلماتي ليدي في آخر مقابلة أجريتها معها. «الآن، سأخبرك ببعض المعلومات، لم يكن الأمر يستحق جهدك على الإطلاق لإخراجي من هذا البلد كما هي الحال الليلة. آه! ولا ضعف أموالك عشرين مرة، حتى آخر فلس!» وبينما كان يهز يده الثقيلة أمامي، وكان فمه يزجر مثل فم النمر، شعرت أن هذا صحيح.

- ماذا ستفعل بي؟

قال وهو يضرب بقبضته على الطاولة بقوة، ثم يرتفع مع سقوط الضربة ليمنحها قوة أكبر: سأقتلك!

انحنى إلى الأمام وهو يحدق إلى وجهي، وفتح يده ببطء وسحبها عبر فمه كما لو كان لعبه يسيل من أجلي، ثم جلس مرة أخرى.

- لقد كنت دائماً في طريق العجوز أورليك منذ كنت طفلاً. وستخرج من طريقه الليلة. لن يتحملك أكثر من ذلك. أنت ميت لا محالة. شعرت بأنني وصلت إلى حافة قبري. للحظة نظرت بعنف حول الفخ الذي وقعت فيه بحثاً عن أي فرصة للهروب؛ ولكن لم يكن هناك مهرب.

قال وهو يطوي ذراعيه على الطاولة مرة أخرى: أكثر من ذلك، لن يتبقى منك قطعة قماش، ولن يتبقى منك عظمة على هذه الأرض. سأضع جسدك في الفرن، يمكنني حمل اثنين مثلك على كتفي، ودع الناس يظنون ما قد يظنونه بك، لن يعرفوا شيئاً أبداً.

تابع عقلي، بسرعة لا يمكن تصورها، كل عواقب مثل هذه الميته. والد إستيلا سيعتقد أنني تخليت عنه، وسيُعتقل، وسيموت وهو يتهمني بالخيانة؛ حتى هربت سيشك بي عندما يقارن الرسالة التي تركتها له

بحقيقة أنني زرت بوابة الآنسة هافيشام لحظة واحدة فقط؛ لن يعرف جو ويدي أبدًا مدى أسفي في تلك الليلة، ولن يعرف أحد أبدًا ما عانيت، وإلى أي مدى كنت أقصد أن أكون صادقًا، وأي معاناة مررت بها. كان الموت الوشيك فظيعةً، لكن الأفظع من الموت هو الخوف من أن تُساء ذكراي بعد الموت. وكانت أفكاري سريعة للغاية، بينما كانت كلمات هذا الصعلوك لا تزال على شفتيه، رأيت نفسي محتقرًا حتى من قبل الأجيال التي لم تُولد بعد، أطفال إستيلا وأطفالهم من بعدهم.

قال: الآن أيها الذئب، قبل أن أقتلك مثل أي حيوان آخر، وهو الشيء الذي أريد أن أفعله، والشيء الذي قيدتك من أجله، سوف ألقى نظرة فاحصة عليك وأشمت فيك، أيها العدو!

لقد مرّ بأفكاري أن أصرخ طلبًا للمساعدة مرة أخرى؛ على الرغم من أن قليلين هم من يعرفون أفضل مني، طبيعة المكان المنعزلة، واليأس من المساعدة. ولكن عندما جلس وهو يشمت بي، كنت مدعوًا بكرامية ازدرائي له أطبقت شفتي. فوق كل شيء، قررت أنني لن أتوسل إليه، وأنني سأموت وأنا أقاومه مقاومة بئسة. رَقَّ قلبي لكل امرئ وجد نفسه في وضعٍ بئسٍ مثل هذا؛ يطلب العفو من السماء بكل تواضع، كما فعلت أنا؛ ويذوب قلبه، كما ذاب قلبي، من فكرة أنني لم أودّع أحدًا، ولن أتمكن أبدًا من توديع من كانوا قريبين إلى قلبي، أو أستطيع أن أشرح لهم موقفني، أو أطلب عفوهم عن أخطائي البائسة، ومع ذلك، لو كان في إمكاني قتله، حتى في أثناء موتي، لفعلت ذلك.

كان يشرب الخمر وكانت عيناه حمراوين دامتيتين. وكانت هناك زجاجة من الصفيح معلقة حول رقبتة، تمامًا كما كنت أرى في كثير من

الأحيان لحمه وشرابه متدليين حولها في الماضي. رفع الزجاجاة إلى شفتيه، وشرب منها بانفعال؛ وشممت الخمر القوي الذي توهج به وجهه. «ذئب!» قال وهو يطوي ذراعيه مرة أخرى: سوف يخبرك أورليك العجوز بشيء ما. لقد كنت أنت سبب ما حدث لأختك سليطة اللسان. ومرة أخرى، استنفذ ذهني، بسرعته السابقة التي لا يمكن تصورها، موضوع الهجوم على أختي برمتي، ومرضاها، ووفاتها، قبل أن يشكل حديثه البطيء والمتردد هذه الكلمات. قلت: لقد كنت أنت أيها الوضع.

«أقول لك إنه كان من فعلك أنت، أقول لك إنه حدث بسببك» أجاب وهو يلتقط البندقية ويوجه ضربة بمخزون المسدس إلى الهواء الفارغ بيننا. «لقد جئت إليها من الخلف، كما جئت إليك الليلة. ضربتها! وتركتها لتموت، ولو كان هناك جيارة قريبة منها كما هي الحال الآن بالقرب منك، لما عادت إلى الحياة مرة أخرى. لكنه لم يكن أورليك العجوز من فعل هذا؛ لقد كنت أنت. لقد تم تفضيلك أنت، بينما تم التنمر عليه وضربه. أورليك العجوز يتعرض للتنمر والضرب، أليس كذلك؟ الآن أنت تدفع الثمن، أنت فعلتها؛ الآن أنت تدفع الثمن».

شرب مرة أخرى، وأصبح أكثر شراسة. فرأيت بميله للزجاجة أنه لم يبق فيها قدر كبير. فهمت بوضوح أنه كان يجهز نفسه بالخمر ليقضي عليّ. كنت أعلم أن كل قطرة تحملها هي قطرة من حياتي. كنت أعلم أنه عندما أتحول إلى جزء من الدخان الذي زحف نحوي قبل فترة قصيرة، مثل الشبح يحذرني، فإنه سيفعل ما فعله في حالة أختي، يسرع إلى المدينة ليشاهده الجميع وهو يتسكع ويشرب في الحانات هناك. تبعه عقلي

السريع إلى المدينة، ورسم صورة للشارع وهو داخله، وقارن بين أضوائه وحياته وبين المستنقعات المنعزلة والضباب الأبيض الذي يزحف فوقها، الضباب الذي سوف أذوب فيه.

لم يكن في إمكاني فقط اختصار سنوات وسنوات وبينما كان يقول عشرات الكلمات فقط، ولكن ما قاله قدّم لي صوراً، وليس مجرد كلمات. في حالة الإثارة والنشوة التي يتمتع بها ذهني، لا أستطيع أن أفكر في مكان دون رؤيته، أو في أشخاص دون رؤيتهم. من المستحيل المبالغة في مدى حيوية تلك الصور، ومع ذلك كان تفكيري منصباً عليه طوال الوقت، ومن لا يكون كذلك أمام نمر رابض يستعد للقفز! إلى درجة أنني كنت واعياً لأدق حركة من أصابعه.

وعندما شرب للمرة الثانية، نهض عن المقعد الذي كان يجلس عليه، ودفع الطاولة جانباً. ثم أخذ الشمعة وظلّلها بيده القاتلة ليلقي بنورها عليّ، ووقف أمامي ينظر إليّ ويستمتع بالمنظر.

- أيها الذئب، سأخبرك بشيء آخر. لقد كان العجوز أورليك هو من تعثّرت عليه فوق الدرج في تلك الليلة.

رأيت الدرج بمصابيحه المطفأة. رأيت ظلال الدرابزين الثقيل، وفانوس الحارس على الحائط يلقي عليه بضوئه. رأيت الغرف التي لن أراها مرة أخرى؛ وهنا باب نصف مفتوح؛ هناك باب مغلق. رأيت كل الأثاث داخلها.

«ولماذا كان العجوز أورليك هناك؟ سأخبرك بشيء أكثر أيها الذئب. لقد أخرجتني أنت وهي بنجاح من هذا المكان، والحياة السهلة فيه، وقد تعاملت مع رفاقٍ جددٍ ومخدومين جدد. بعضهم يكتب رسائلني حينما

أريد، هل تمنع؟ يكتب رسائلي أيها الذئب! يكتبون بخمسين خط يد؛ وليسوا مثلك أيها الحقير، تكتب بخط يد واحد. لقد كان لديّ عقل راسخ وإرادة قوية لقتلك، منذ أن كنت هنا عند دفن أختك. لم أجد طريقة لأخذك بأمان، وقد بحثت عنك لأعرف بواطنك وظواهرك. حيث يقول العجوز أورليك لنفسه: «بطريقة أو بأخرى سأحصل عليه!» ماذا بعد! عندما بحثت عنك، وجدت عمك بروفيس، أليس كذلك؟».

ميل بوند بانك، وحوض تشينكس، وممر الحبال النحاسية الصدئة، كلها واضحة وجليّة! بروفيس في غرفته، الإشارة التي كان استخدامها قد ولّى، كلارا الجميلة، المرأة الحنون الطيبة، وييل بارلي العجوز على ظهره، كلهم يمرون أمامي، كما في تيار حياتي الخاطف الذي يمضي بسرعة تجاه البحر!

«أنت لديك عمٌّ أيضًا! كنت أعرفك في منزل جاريجيري عندما كنت ذئبًا صغيرًا جدًّا إلى درجة أنه كان في إمكاني أن أضع حلقك بين هذا الإصبع والإبهام وألقي بك بعيدًا ميتًا (كما كنت أفكر في القيام به، في الأوقات العابرة، عندما أراكم تتسكعون بين السدود أيام الأحاد) ولم يكن لديك أعمام في ذلك الوقت. لا لست أنت! لكن عندما جاء العجوز أورليك لسمع أن عمك بروفيس كان يرتدي قطعة الحديد التي التقطها العجوز أورليك منشطرة إلى نصفين على هذه الشبكات منذ سنوات عديدة، والتي احتفظ بها وأسقط أختك بها، مثل العجل الصغير، كما يقصد إسقاطك -هاه؟- عندما يسمع ذلك... هاه؟»

وفي تهكمه الوحشي، أشعل الشمعة بالقرب مني إلى درجة أنني أشحت بوجهي لحمايته من اللهب.

«آه!» صاح ضاحكًا، بعد أن فعل ذلك مرة أخرى: «الطفل المحترق يخشى النار! عرف أورليك العجوز أنك قد احترقت، وعرف أورليك العجوز أنك كنت ستقوم بتهريب عمك بروفيس بعيدًا، وكان أورليك العجوز نذًا لك، وكان يعرف أنك ستأتي الليلة! الآن سأخبرك بشيء آخر أيها الذئب، وهذا ينهي الأمر. هناك نذٌ لعمك بروفيس تمامًا كما أنا نذٌ لك. ليحترس منهم، عندما يفقد ابن أخيه! ليحترس منهم، عندما لا يتمكن أحد من العثور على قطعة قماش من ملابس قريبه العزيز، ولا حتى عظمة من جسده. هناك من لا يستطيعون احتمال ماجويتش، -نعم، أعرف الاسم!- يعيشون معه في نفس البلد، وكان لديهم معلومات مؤكدة عنه عندما كان يعيش في بلاد أخرى، ولا يمكنهم إخفاء الأمر وتعرض أنفسهم للخطر. ربما أنهم هم من يكتبون بخمسين خط يد، وليسوا مثلك أيها الحقيير، تكتب بخط يد واحد. «احذر من كومبيسون، يا ماجويتش ومن المشنقة!»).

قَرَّبَ الشمعة من وجهي مرة أخرى، ودخل الدخان في وجهي وشعري، وأصابني بالعمى للحظة، وأدار ظهره القوي وهو يعيد الشمعة على الطاولة. تلوثُ الصلاة في سري، وكنت مع جو وبيدي وهربرت، قبل أن يستدير نحوي مرة أخرى.

كانت هناك مسافة واضحة تبلغ بضع أقدام بين الطاولة والجدار المقابل، وفي هذه المسافة، تراخى إلى الخلف والأمام. بدت قوته العظيمة أشد من أي وقت مضى، لأنه فعل ذلك ويداه متدليتان وثقلتان على جانبيه، وعيناه عابستان في وجهي، ولم يبق لي أي ذرة أمل، كانت سرعة ذهني جامحة، والصور التي اندفعت أمامي بدلًا من الأفكار كانت

مدهشة، لكنني استطعت أن أدرك بوضوح أنه ما لم يكن قد قرر أنني في غضون لحظات قليلة سأفنى بالتأكيد من على وجه البسيطة، فلم يكن ليخبرني أبداً بكل ما قاله.

وفجأة، توقف، ونزع السدادة من زجاجته، وألقاها بعيداً. على الرغم من أنها كانت خفيفة، إلا أنني سمعتها تسقط سقوطاً حاداً. كان يتلع ببطء، ويرفع الزجاجاة شيئاً فشيئاً، والآن لم يعد ينظر إليّ. سكب القطرات القليلة الأخيرة من الخمر في كف يده، ولعقها. وبعد ذلك، وبسرعة مفاجئة من العنف والشتائم الشنيعة، ألقى بالزجاجاة وانحنى إلى الأمام؛ ورأيت في يده مطرقة حجرية ذات مقبض طويل الثقيل.

لم أنخلّ عن قراري، لأنني، دون أن أنطق بكلمة استعطاف واحدة، صرخت بكل قوتي، وناضلت بكل قوتي. لم يكن في وسعي أن أحرك إلا رأسي وساقّي، ولكن إلى هذا القدر كافحت بكل قوتي، والتي لم أكن أعرف أنني أملكها حتى ذلك الحين. وفي اللحظة نفسها سمعت صيحات مستجيبة، ورأيت أشخاصاً وبريقاً من الضوء يندفع نحو الباب، وسمعت أصواتاً وبلبله، ورأيت أورليك يخرج من صراع مع بعض الرجال، كأنه مياه متدفقة، ويعبر الطاولة بقفزة واحدة، ويتلاشى في ظلام الليل.

أظلمت الدنيا من حولي، وبعد فترة، وجدت نفسي مستلقياً بلا قيود، على الأرض، في نفس المكان، ورأسي على ركة شخص ما. كانت عيناى مثبتتين على السلم المواجه للحائط، عندما استرددت وعيي، وأدركته بعيني قبل أن يراه عقلي، وهكذا عندما استعدت وعيي، عرفت أنني كنت في ذات المكان.

كنت متراخياً في البداية، إلى درجة أنني لم أستطع أن أنظر حولي
وأتحقق ممن يسندني، وكنت مستلقياً أنظر إلى السلم، عندما حال بيني
وبينه وجه ما، وجه صبي تراب!

قال صبي تراب بصوت رزين: أعتقد أنه بخير! لكنه شاحبٌ فحسب!
عند هذه الكلمات، نظر وجه من يسندني إلى وجهي، ووجدته:

– هربرت! يا إله السماوات!

«بهدوء» قال هربرت. «رويداً، يا هاندل. لا تكن متحمساً للغاية».

«ورفيقنا القديم ستارتوب!» صحت لأنه انحنى فوقني أيضاً.

قال هربرت: تذكر ما سيساعدنا فيه، وكن هادئاً.

هذا التلميح جعلني أنهض؛ على الرغم من أنني سقطت مرة أخرى
من الألم في ذراعي. «الوقت لم يمر يا هربرت، أليس كذلك؟ ما هي
الليلة؟ منذ متى وأنا هنا؟» لأنه كان لديّ شك غريب وقوي في أنني كنت
مستلقياً هناك لفترة طويلة، ليلة، ليلتين، أو أكثر.

– الوقت لم يمر، وما زالت ليلة الاثنين.

– الحمد لله!

قال هربرت: ولديك الثلاثاء بأكمله لتستريح فيه. لكنك لا تتوقف
عن الأنين يا عزيزي هاندل. ما الذي أصابك؟ هل يمكنك الوقوف؟
قلت: نعم، نعم، أستطيع المشي. لا أشعر إلا باختلاج شديد في هذه
الذراع.

كشفوا ذراعي، وفعلوا ما في وسعهم. لقد كانت متنفخة وملتهبة
بشدة، وبالكاد تمكنت من تحمّل لمسها. لكنهم مزّقوا مناديلهم لصنع

ضمادات جديدة، ووضعوها بعناية في حامل الذراع، حتى يتمكن من الوصول إلى المدينة والحصول على بعض الدهان المرطب لوضعه عليها. وبعد فترة قصيرة أغلقنا باب بيت السد المظلم والخالي، وكنا نمر عبر المحجر في طريق عودتنا. تقدم أمامنا صبي تراب، الذي أصبح الآن شابًا ناضجًا، ومعه فانوس، وهو الضوء الذي رأيته يدخل عند الباب. لكن القمر كان أعلى بساعتين مما رأيته آخر مرة في السماء، وكان الليل، على الرغم من هطول الأمطار، أكثر إضاءة بكثير. كان الدخان الأبيض المنبعث من الفرن يمر بيننا ونحن نمضي، وكما تلوت الصلاة من قبل، كنت أتلو في سري الآن صلاة شكر.

طلبت من هربرت أن يخبرني كيف أتى لإنقاذي، وهو ما رفضه في البداية رفضًا قاطعًا، وأصر على أن أبقى هادئًا، وعلمت أنني على عجل أسقطت الرسالة مفتوحة في منزلنا، حيث عاد إلى المنزل ليحضر معه ستارتوب الذي التقى به في الشارع وهو في طريقه إليّ، ووجد الرسالة بعد وقت قصير جدًا من رحيلي. جعلته لهجتها يشعر بعدم الارتياح، وخاصة بسبب التناقض بينها وبين الرسالة المتسرعة التي تركتها له. زاد قلقه بدلًا من أن يهدأ، بعد ربع ساعة من التفكير، انطلق إلى مكتب المركبات مع ستارتوب، الذي تطوع لصحبته، لمعرفة موعد العربة التالية. اكتشفا أن عربة ما بعد الظهر قد رحلت، وتحول عدم ارتياحه إلى ذعر محقق، عندما وقفت العقبات في طريقه، فقرر أن يتبعني في عربة خيول أجرة. لذلك وصل هو وستارتوب إلى بلو بور، متوقعين تمامًا العثور عليّ أو الحصول على أخباري؛ ولكن، عندما لم يجدا أيًا منهما، ذهبا إلى منزل الأنسة هافيشام، بعد أن تركته. ومن ثم عادا إلى الفندق (لا شك في ذلك الوقت

الذي كنت أستمع فيه إلى النسخة المحلية الشهيرة من قصتي الخاصة) لإنعاش نفسيهما والحصول على شخص يرشدهم إلى المستنقعات. صادف أن كان من بين المتسكعين أسفل ممر الفندق صبي تراب، طبقاً لعاداته القديمة المتمثلة في التواجد في كل الأماكن التي لا تخصه، وقد رأي صبي تراب وأنا أعبر من منزل الأنسة هافيشام في اتجاه مكان تناول الطعام الخاص بي. وهكذا أصبح صبي تراب مرشدهما، وخرجا معه إلى بيت السد، عبر طريق المدينة إلى المستنقعات، وهو ما كنت قد تجنبتة. الآن، في أثناء سيرهما، فكر هربرت في أنه ربما أحضرت إلى هناك في نهاية المطاف في مهمة حقيقية ومفيدة من أجل سلامة بروفيس، وفكر في أن المقاطعة في هذه الحالة لا بد أن تكون ضارة، وترك مرشده وستارتوب. على حافة المحجر، ومضى بنفسه، ولف حول المنزل مرتين أو ثلاث مرات، محاولاً التأكد مما إذا كان كل شيء على ما يرام في الداخل. نظراً إلى أنه لم يتمكن من سماع أي شيء سوى غمغمات بصوت خشن وعميق (كان ذلك بينما كان ذهني مشغولاً جداً)، فقد بدأ أخيراً يشك فيما إذا كنت هناك، عندما صرخت فجأة بصوت عالٍ، وأجاب هو على الصرخات، هرع إليّ، وتبعه من كشب الآخرون.

عندما أخبرت هربرت بما حدث داخل المنزل، كان ذاهباً على الفور إلى قاضي التحقيق في المدينة، في وقت متأخر من الليل، لإحضار مذكرة اعتقال. لكنني كنت قد فكرت بالفعل أن مثل هذا المسار، من خلال احتجازنا هناك، أو إلزامنا بالعودة، قد يكون له عواقب وخيمة على بروفيس. لم يكن هناك من ينكر هذه المشكلة، وتخلينا عن كل أفكارنا في ملاحقة أورليك في ذلك الوقت. في ذلك الوقت، وفي ظل تلك

الظروف، ارتأينا أنه من الحكمة تسليط الضوء على الأمر لصبي تراب؛ وأنا على يقين من أنه كان سيتأثر كثيرًا بخيبة الأمل لو علم أن تدخله أنقذني من الموت. لا يعني ذلك أن صبي تراب كان شريرًا، ولكنه كان مفعماً بالحيوية، وكانت تركيبته تتطلب التنوع والإثارة على حساب أي شخص آخر. عندما افترقنا، قدمت له جنهين (وهو ما لاقى استحسانه)، وأخبرته أنني آسف إذا كنت قد كونت رأياً سيئاً عنه في يوم من الأيام (وهو ما لم يؤثر فيه على الإطلاق).

نظرًا إلى اقتراب يوم الأربعاء، قررنا العودة إلى لندن تلك الليلة، ثلاثتنا في عربة خيول أجرة؛ كان ذلك من الأفضل قبل أن يبدأ الناس في الحديث عن هذه المغامرة. أحضر هربرت زجاجة كبيرة من الدهان المرطب لذراعي؛ وبفضل وضعه لهذه المادة فوقها طوال الليل، تمكنت من تحمّل آلامها في أثناء رحلة العودة. كان ضوء النهار ساطعاً عندما وصلنا إلى المنزل، وذهبت على الفور إلى الفراش، واستلقيت هناك طوال اليوم.

كان رعبي، عندما كنت مستلقيًا هناك، من المرض وعدم الاستعداد للغد، يحاصرني إلى درجة أنه كاد وحده بصيبي بالعجز. كان من الممكن أن يحدث ذلك، بالتأكيد، بالتزامن مع الإرهاق النفسي الذي عانيت منه، لولا الضغط غير الطبيعي الذي كان عليّ في الغد. لقد تطلعت بفارغ الصبر إلى الغد وكل ما هو مترتب عليه، وعواقبه غير المعلومة، وكان الغد لناظره قريب.

لم يكن من الممكن أن يكون هناك أي احتياط أوضح من امتناعنا عن الاتصال ببروفيس في ذلك اليوم؛ لكن هذا زاد من قلقي مرة أخرى.

أجفلت عند كل خطوة وكل صوت، معتقداً أنه اكتُشف واعتُقل، وأن الرسول الذي سيخبرني بذلك كان في طريقه إليّ. أقنعت نفسي بأنني أعلم أنه قد قُبِض عليه؛ أنه كان هناك شيء في ذهني أكثر من الخوف أو الذعر؛ أن هذا أمر واقع، وكان لديّ معرفة غامضة به. مع مرور اليوم، وغياب أي أخبار سيئة، ومع انتهاء اليوم وحلول الظلام، سيطر عليّ خوفي من أن أكون عاجزاً بسبب المرض قبل صباح الغد. اختلجت ذراعي المحترقة، وخفق رأسي المحترق، وتخيلت أنني بدأت أخرف. أحصيت أعداداً كبيرة لأتأكد من نفسي، وكررت المقاطع التي كنت أعرفها نثراً وشعرًا. أحياناً كان يهرب مني عقلي المتعب، فأنام بعض اللحظات أو أنسى؛ ثم أقول لنفسي بانتفاضة: ها أنا ذا، بدأت في الهذيان!

لقد أبقوني هادئاً طوال اليوم، وألبسوني حامل الذراع باستمرار، وقدموا لي مشروبات باردة. كلما غفوت، استيقظت على فكرة كانت لديّ في بيت السد، وهي أن وقتاً طويلاً قد انقضى، وأن فرصة إنقاذه قد ضاعت. في منتصف الليل تقريباً، نهضت من الفراش وذهبت إلى هربرت، مقتنعاً بأنني كنت نائماً لمدة أربع وعشرين ساعة، وأن يوم الأربعاء قد انقضى. كان هذا آخر جهد مضنٍ في ظل قلقي، لأنني نمت بعد ذلك نوماً عميقاً. كان صباح الأربعاء قد بزغ عندما نظرت من النافذة. كانت الأضواء الغامضة على الجسور شاحبة بالفعل، وكانت الشمس قادمة مثل بركة من النيران في الأفق. كان النهر لا يزال مظلماً وغامضاً

تمتد عبره الجسور التي كانت تتحول إلى اللون الرمادي البارد، مع لمسة دافئة هنا وهناك في الأعلى من احتراق السماء. وبينما كنت أنظر إلى الأسطح المتجمعة، وأبراج الكنائس والقمم التي تنطلق في الهواء

النقي على غير العادة، أشرقت الشمس، وبدا أن حجابًا قد ارتفع عن
النهر، وانفجرت ملايين التلألؤات على مياهه. بدا كأن حجابًا قد ارتفع
عني أيضًا، فشعرت بالقوة والعافية.

كان هربرت نائمًا في فراشه، وكان زميلنا القديم نائمًا على الأريكة.
لم أستطع أن أردي ملابسي دون مساعدة؛ لكنني حركت النار التي كانت
لا تزال مشتعلة، وأعددت لهم بعض القهوة. وفي الوقت المناسب،
انطلقوا بقوة وعافية أيضًا، وسمحنا لهواء الصباح الحاد بالدخول إلى
النوافذ، ونظرنا إلى المد الذي كان لا يزال يتدفق نحونا.

قال هربرت بمرح: عندما تبلغ الساعة التاسعة صباحًا، انتظرنا، وكن
مستعدًا، أنت يا من في ميل بوند بانك!

الفصل الرابع والخمسون

كان أحد أيام شهر مارس حيث تشرق الشمس حارة وتهب الرياح باردة: عندما يكون الجو صيفاً تحت الشمس، وشتاء تحت الظل. كانت معنا المعاطف الثقيلة، وأخذت أنا حقيرة. ومن بين كل ممتلكاتي، لم آخذ أكثر من الضروريات القليلة التي ملأت الحقيرة. أين سأذهب، وماذا سأفعل، أو متى قد أعود، كانت أسئلة مجهولة تماماً بالنسبة إليّ؛ ولم أعرها اهتماماً أيضاً، لأن الأمر كان متعلقاً بالكامل بسلامة بروفيس. تساءلت فقط للحظة العابرة، عندما توقفت عند الباب ونظرت إلى الورا، إن كنت، تحت أي ظروف متغيرة، سأرى تلك الغرف مرة أخرى.

ترينثا في نزولنا على سلالم تمبل، ووقفنا مترئين هناك، كما لو أننا لم نقرر قطّ النزول إلى النهر. بالطبع، حرصت على أن يكون القارب جاهزاً، وأن كل شيء على ما يرام. بعد استعراض بعض التردد، الذي لم يكن هناك من يراه سوى اثنين أو ثلاثة من المخلوقات البرمائية المنتمية إلى سلالم تمبل، صعدنا على متن القارب وانطلقنا به؛ هربرت في المقدمة، وأنا على دفة القيادة. كان الوقت آنذاك وقت المد تقريباً، الساعة الثامنة والنصف.

خطتنا كانت كالأتي. يبدأ المد في الساعة التاسعة، ويبقى معنا حتى الساعة الثالثة، وكنا ننوي الاستمرار في الزحف بعد أن يتحول مساره،

والتجديف ضده حتى حلول الظلام. يجب أن نكون بعد ذلك في أمان في تلك المناطق الممتدة أسفل جريفسيند، بين كينت وإسيكس، حيث النهر واسع ومنعزل، وحيث عدد سكان الضفاف قليل جداً، وحيث تنتشر التُّزُل المنعزلة هنا وهناك، والتي يمكننا اختيار واحد منها للراحة. هناك، كنا ننوي الاستلقاء طوال الليل. ستنتقل الباخرة المتجهة إلى هامبورج والباخرة المتجهة إلى روتردام من لندن في نحو الساعة التاسعة من صباح الخميس. يجب أن نعرف وقت وصولهما، وفقاً للمكان الذي سنكون فيه، ولنلوح للسفينة التي تمر أولاً؛ لذلك، إذا لم ننجح في أول مرة، ستتاح لنا فرصة أخرى. وكنا نعرف العلامات المميزة لكل سفينة.

كان الارتياح الذي شعرت به عندما انشغلت أخيراً بتنفيذ الخطة عظيمًا إلى درجة أنني شعرت بصعوبة إدراك الحالة التي كنت عليها قبل ساعات قليلة. الهواء النقي، وضوء الشمس، والحركة على النهر، والنهر المتحرك نفسه، والطريق الذي كان يمر إلى جوارنا، كأنه يتعاطف معنا، ويملأنا بالحيوية، ويشجعنا على المُضي قُدُمًا، كل هذا أُنْعَشِنِي بأمل جديد. شعرت بالخزي لعدم فائدتي في القارب؛ لكن لم يكن هناك سوى قلة من المجدفين أفضل من صديقي، وكانا يجدفان بحركة ثابتة استمرت طوال اليوم.

في ذلك الوقت، كانت حركة السفن البخارية في نهر التايمز أقل بكثير من حجمها الحالي، وكانت قوارب الملاحين أكثر عددًا بكثير. ربما كان هناك عدد كبير من البوارج، وحاملات الفحم الشراعية، والتجار الساحليين، كما هي الحال الآن؛ ولكن ليس عُشْرًا أو جزءًا من عشرين من السفن البخارية، الكبيرة والصغيرة، التي تتواجد الآن. في وقت مبكر، كان هناك الكثير من زوارق التجديف تتحرك هنا وهناك في ذلك الصباح، وكان

الكثير من البوارج تسير مع المد؛ كانت الملاحاة في النهر بين الجسور، في قارب مفتوح، أمرًا أسهل بكثير وأكثر شيوعًا في تلك الأيام مما هو عليه الآن؛ وتقدمنا بخفة بين العديد من الزوارق والقوارب.

وسرعان ما تجاوزنا جسر لندن القديم، وسوق بيلينجسجيت القديم بقوارب المحار والهولنديين، والبرج الأبيض وبوابة تريتورز، وكنا بين صفوف الشحن. هنا كانت سفن بخارية من ليث، وأبردين، وجلاسكو، تقوم بتحميل البضائع وتفريغها، وتبدو عالية للغاية في أثناء مرورنا بجانبها؛ هنا، كانت حاملات الفحم بأعداد كبيرة جدًا، مع تعلق حاملي الفحم بالسقالات من سطح السفينة، كثقل موازن للفحم المتأرجح في الهواء، الذي كان يقع بعد ذلك على الجانب في البوارج؛ هنا، في المرسى، كانت السفينة البخارية المتجهة إلى روتردام غدًا، التي انتبهنا إليها جيدًا؛ وهناك السفينة البخارية المتجهة إلى هامبورج غدًا، التي عبرنا تحت صاري مقدمتها. والآن، وأنا جالس في مؤخرة القارب، أستطيع أن أرى، بنبضٍ متسارع، ميل بوند بانك وسلالهما.

«هل هو هناك؟» قال هربرت.

- ليس بعد.

- حسنًا! لم يكن لينزل حتى يرانا. هل يمكنك رؤية إشارته؟

- ليس جيدًا من هنا؛ لكنني أعتقد أنني أراها. الآن أراه! اسحب كلا المجذافين! رويدًا يا هربرت.

لمسنا الدرج بخفة للحظة واحدة، وصعد على متن القارب، ثم انطلقنا مرة أخرى. كان معه عباءة بحرية، وحقيبة قماش سوداء؛ وكان يبدو مثل الملاح كما تمنى قلبي.

«ولدي العزيز!» قال وهو يضع ذراعه على كتفي ويجلس في مقعده.
«ولدي العزيز المخلص، أحسنت. شكرًا، شكرًا!».

مرة أخرى بين صفوف الشحن، في الداخل والخارج، متجنبين السلاسل الصدئة، والجبال المهترئة والعوامات المتأرجحة، والسلاسل المكسورة العائمة التي كانت تغرق في تلك اللحظة، ورقائق الخشب والنشارة المتناثرة الطافية، وبقايا الفحم العائم، في الداخل والخارج، تحت منحوتة جون سندرلاند الخشبية وهو يلقي خطابًا للريح من مقدمة السفينة (كما تفعل العديد من السفن)، ومنحوتة بيتسي من يارموث ذات الصدر المشدود وعيناها المكعبرتان على بُعد بوصتين عن رأسها؛ في الداخل والخارج، تطرق المطارق في ساحات بناء السفن، والمناشير تقطع الأخشاب، والمحركات المتنازعة تضرب أشياء مجهولة، والمضخات تشفط المياه من السفن، وعجلات الرفع تدور، والسفن تخرج إلى البحر، ومخلوقات بحرية غامضة تزار باللعنات في وجه عاملي البوارج من فوق حائل الأمواج، في الداخل والخارج، أخيرًا على النهر الأكثر صفاءً، حيث يمكن لعمال السفن أن يرفعوا مصداتهم، بعد الخروج من المياه المضطربة، حيث تحلق الأشعة المزخرفة بعيدًا مع الريح.

منذ اصططحبناه على سطح المركب عند الدرج، وأنا أبحث بحذر عن أي دليل على الاشتباه فينا. لم أر أي شيء. من المؤكد أننا لم نكن مراقبين، وفي ذلك الوقت بالتأكيد لم يكن هناك أي قارب يرافقنا أو يتبعنا. لو كان هناك أي قارب ينتظرنا، لكنت ركضت إلى الشاطئ، وأجبرته على الاستمرار، أو توضيح هدفه. لكننا كنا نحقق هدفنا دون أي نوع من المضايقات.

كان يرتدي عباءة البحارة، وبداء، كما قلت، جزءاً طبيعياً من المشهد. كان من اللافت للنظر أنه كان أقل قلقاً من أي منا (ولكن ربما كانت الحياة البائسة التي عاشها هي السبب في ذلك). لم يكن غير مبالي، لأنه أخبرني أنه يأمل أن يعيش ليرى رجله النبيل واحداً من أفضل السادة في بلد أجنبي؛ لم يكن يميل إلى السلبية أو الاستسلام، كما فهمت؛ لكن لم يكن لديه أي فكرة عن الوصول إلى حل وسط في وقت الخطر. إذا جاءه الخطر فسوف يواجهه، ولكن يجب أن يأتي قبل أن يزج نفسه به.

قال لي: لو كنت تعلم يا ولدي العزيز شعوري وأنا أجلس هنا بجانب ولدي العزيز أدخن غليونني، بعد أن كنت أقضي أيامي بين أربعة جدران، فسوف تحسدني. لكنك لا تعرف شعوري.

أجبت: أعتقد أنني أعرف مباحج الحرية.

«آه» قال وهو يهز رأسه بشدة، «لكنك لا تعرفها كما أعرفها أنا. لا بد أن تبقى تحت رحمة القفل والمفتاح، يا عزيزي، لتعرفها كما أعرفها أنا، لكنني لن أكون وضيعاً».

لقد خطر لي أنه من التناقض أنه، بسبب أي فكرة كانت، ما كان يجب عليه أن يعرض حريته، وحتى حياته للخطر. لكنني فكرت في أنه ربما كانت الحرية دون خطر بعيدة كل البعد عن كيانه بحيث لن تمثل له كما يمكن أن تمثله لرجل آخر. لم أكن مخطئاً للغاية، إذ قال بعد تدخينه قليلاً:

- كما ترى، يا عزيزي، عندما كنت هناك، في الجانب الآخر من العالم، كنت دائماً أطلع إلى هذا الجانب؛ ومن الممتع أن أكون هناك، لأنني كنت ثرياً بشكل متزايد. الجميع يعرف ماجويتش، ويمكن أن يأتي ماجويتش، ويمكن أن يذهب ماجويتش، ولن ينزعج أحد بشأنه. لكنهم

ليسوا كذلك هنا، يا ولدي العزيز، ولن يكون الأمر كذلك، على الأقل، إذا عرفوا مكاني.

قلت: إذا سارت الأمور على ما يرام، فستكون حرًا وآمنًا تمامًا مرة أخرى في غضون ساعات قليلة.

«حسنًا» عاد وهو يلتقط نفسًا طويلاً، «آمل ذلك».

- وهل تعتقد ذلك؟

غمس يده في الماء فوق حافة القارب، وقال مبتسمًا بذلك الهواء اللطيف على وجهه الذي لم يكن جديدًا بالنسبة إليّ:

«نعم، أعتقد ذلك يا عزيزي. لا يمكن أن نكون أكثر هدوءًا واسترخاءً مما نحن عليه الآن. ولكن، إن المركب يتدفق بشكل ناعم وممتع للغاية عبر الماء، مما يجعلني أفكر، كنت أفكر في أثناء تدخينني الآن، أننا لن نتمكن من معرفة ما تحمله لنا الساعات القليلة المقبلة أكثر مما نستطيع النظر إلى قاع هذا النهر الذي أمسك به. ولا يمكننا حتى أن نتحكم في أحداثها أكثر مما أستطيع أن أمسك بمياه النهر هذه. وقد انسابت بين أصابعي وذهبت، كما ترى!» يرفع يده والمياه تتساقط من بين أصابعه.

فقلت: لكن بالنظر إلى وجهك، أعتقد أنك كنت واجمًا بعض الشيء.

- كلا ألبتة، يا ولدي العزيز! إن الماء يتدفق بهدوء شديد، ومن ثم الأمواج عند رأس القارب تشكّل ما يشبه لحن أيام الأحاد، ربما تقدم بي العمر قليلًا، فضلًا عن ذلك.

أعاد غليونه إلى فمه وعلى وجهه تعبيرات هادئة، وجلس هادئًا وراضيًا كما لو كنا خارج إنجلترا بالفعل. ومع ذلك، خضع لنصيحتي له

كما لو كان في حالة رعب مستمر؛ لأنه عندما ذهبنا إلى الشاطئ لإحضار بعض زجاجات الجعة، وكاد ينزل من القارب، ألمحت إلى أنني أعتقد أنه سيكون أكثر أماناً حيثما كان، فقال: «هل تعتقد ذلك يا ولدي العزيز؟» وجلس بهدوء مرة أخرى.

كان الهواء بارداً عند النهر، لكنه كان يوماً صحواً، وكانت أشعة الشمس مبهجة للغاية. كان المد قوياً، وحرصت بقيادتي للمركب على الاستفادة منه إلى أقصى حد، وتقدمنا بشكل جيد مع تجديدنا بثبات. تدريجياً، مع انقضاء المد، بعدنا أكثر فأكثر عن الغابات والتلال، وانخفضنا أكثر فأكثر بين الضفاف الموحلة، لكن المد كان لا يزال في صالحنا عندما كنا قبالة جريفسيند. وبينما كان حملنا ملفوفاً بعباءته، مررت عمداً على بُعد قارب أو قاربين من مصلحة الجمارك العائمة، وهكذا خرجت لألحق بالتيار، بحذاء سفينتين من سفن المهاجرين، وتحت مقدمة سفينة نقل جنود كبيرة حيث وقف حشد من الجنود أعلى مقدمتها ينظرون إلينا. وسرعان ما بدأ المد في الانحسار، وبدأت السفن الراسية في التراجع، وسرعان ما تأرجحت جميعها، وبدأت السفن التي كانت تستفيد من المد الجديد لتنضم للركب في التزامم علينا في هيئة أسطول، وبقينا قريبين من الشاطئ، بعيداً عن قوة المد قدر استطاعتنا الآن، ووقفنا بحذر بعيداً عن المياه الضحلة المنخفضة والضفاف الطينية.

كان مجدّفونا منتعشين للغاية، وذلك بفضل السماح للقارب أحياناً بالانسياق مع المد لدقيقة أو دقيقتين، حتى تبين أن ربع ساعة من الراحة كانت كافية لهم. وصلنا إلى الشاطئ بين بعض الأحجار الزلقة وأكلنا وشربنا ما معنا ونظرنا حولنا. كان المكان أشبه ببلدة المستنقعات التي

أتيت منها، مسطحة ورتيبة، وذات أفق معتم؛ بينما كان النهر المتعرج يلتف ويلتف، والعوامات العائمة الكبيرة عليه تدور وتدور، وبدا كل شيء آخر عالقًا وساكنًا. وصلت آخر سفينة في أسطول السفن الآن عند آخر نقطة منخفضة اتجهنا إليها؛ وتبعتها آخر بارجة خضراء محملة بالقش ذات شراع بني؛ وكانت بعض زوارق الحصى، التي كانت على شكل أول رسم سيئ لقارب يرسمه طفل ما، تقع في مكان منخفض في الوحل؛ وكانت منارة صغيرة قصيرة فوق ألواح عارية تقف كسيحة في الوحل على ركائز ودعامات؛ وأوتاد وحجارة لزجة عالقة في الوحل، وعلامات حمراء وعلامات المد والجزر عالقة في الوحل، ومنصة رصيف مرفأ قديمة ومبنى قديم بلا سقف منزلقين في الوحل، وكل ما حولنا كان الركود والطين.

انطلقنا مرة أخرى، وبذلنا قصارى جهدنا. لقد كان العمل أصعب بكثير الآن، لكن هربرت وستارتوب كانا مثابرين، وجدفا وجدفا وحتى غربت الشمس. وبحلول ذلك الوقت كان النهر قد رفعنا قليلًا فصار في إمكاننا الرؤية أعلى الضفة. كانت هناك الشمس الحمراء في الأسفل على مستوى الشاطئ، وسط ضباب أرجواني، يتحول سريعًا إلى السواد؛ وكان هناك المستنقع المنعزل؛ وعلى مسافة بعيدة كانت هناك الأراضي المرتفعة، التي بدا أنه لا توجد حياة بيننا وبينها، باستثناء نورس كئيب هنا وهناك في الطليعة.

بما أن الليل كان يهبط سريعًا، وبما أن القمر قد تجاوز اكتماله، ورفض أن يسطع مبكرًا، عقدنا مجلسًا صغيرًا قصيرًا، كان من الواضح أن الخطة تتمثل في المكوث في أول نُزُل منعزل يمكن أن نجده. لذلك،

استخدموا مجاديفهم مرة أخرى، وبحثت أنا عن أي شيء يشبه المنزل. وهكذا استمررنا في الحديث قليلاً لأربعة أو خمسة أميال مملة. كان الجو بارداً جداً، وبدت سفينة نقل الفحم المارة بجانبنا، بنيران مطبخها مندلعة عالياً، كأنها منزل مريح. كان الليل مظلماً في هذا الوقت كما سيظل حتى الصباح؛ ويبدو أن الضوء الذي كان لدينا أتى من النهار أكثر من السماء، حيث كانت المجاديف تصطدم ببعض النجوم المنعكسة في أثناء هبوطها في النهر.

في هذا الوقت الكئيب، كان من الواضح أننا جميعاً مهووسون بفكرة أننا مُطاردون. ومع ظهور الأمواج، ارتطمت بقوة على فترات غير منتظمة على الشاطئ؛ وكلما جاء هذا الصوت، كان أحداً يجفل بلا شك وينظر في ذلك الاتجاه. هنا وهناك، أدت الأمواج إلى تآكل الضفة وتحولها إلى جدول صغير، وكنا جميعاً نشك في مثل هذه الأماكن، وننظر إليها باضطراب. في بعض الأحيان، يتساءل أحداً بصوت منخفض: «ما هذه التموجات؟» أو يتساءل الآخر: «هل هذا قارب هناك؟» وبعد ذلك، نقع في صمت مطبق، وأجلس أفكر بفارغ الصبر في مقدار الضجيج غير المعتاد الذي أحدثته المجاديف في الأوتاد.

أخيراً، لمحنا ضوءاً وسقفاً، ثم مررنا بعد ذلك بمحاذاة مجازة صغيرة مصنوعة من الحجارة التي وُضعت جنباً إلى جنب. تركت البقية في القارب، وتوجهت إلى الشاطئ، ووجدت الضوء موجوداً في نافذة أحد النُزل. كان مكاناً قذراً للغاية، وأعتقد أنه غير مجهول تماماً للمهربين المغامرين؛ ولكن كانت هناك نار جيدة في المطبخ، وكان هناك بيض ولحم خنزير مقدد لتناوله، وأنواع خمر متعددة للشرب. كما كانت هناك

غرفتان بسريرين مزدوجين «ليستا في أفضل حال»، كما قال المالك. لم يكن هناك أي جماعة أخرى في المنزل سوى المالك وزوجته ومخلوق أشيب، وهو «جاك»^(١) صاحب المجازة الصغيرة، الذي كان لزجًا وملطخًا كما لو كان هو أيضًا علامة من علامات انخفاض المياه.

مع هذا المساعد، عدت إلى القارب مرة أخرى، ووصلنا جميعًا إلى الشاطئ، وأخرجنا المجاديف والدفة وخطاف القارب، وكل شيء آخر، ورفعنا القارب بالأعلى طوال الليل. أعددنا وجبة شهية على نار المطبخ، وتم تعيين غرف النوم: شغل هربرت وستارتوب غرفة؛ وأنا وحمِلنا شغلنا الأخرى. وجدنا أنه قد أُقصي الهواء في كلا الغرفتين، كما لو كان الهواء خطرًا على الحياة؛ وكان هناك كم من الملابس القذرة وصناديق القبعات تحت الأسرة أكثر مما ظننت أن العائلة تمتلكه. لكننا اعتبرنا أنفسنا في وضع جيد، على الرغم من أننا لم نتمكن من العثور على مكان أكثر عزلة.

بينما كنا نريح أنفسنا بجوار النار بعد تناول وجبتنا، كان جاك، الذي كان يجلس في الزاوية، والذي كان يرتدي زوجًا من الأحذية المتفتحة، والذي كان يستعرضه بينما كنا نأكل البيض ولحم الخنزير المقدد، كبقايا مثيرة للإعجاب التقطها قبل بضعة أيام من قدمي بحار غريق جرفته الأمواج إلى الشاطئ، سألني إذا كنا قد رأينا قاربًا بأربعة مجدفين يصعد مع المد؟ عندما قلت له لا، قال إنه لا بد أن يكون قد نزل في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد «استأنف طريقه أيضًا» عندما غادر المكان.

قال جاك: لا بد أنهم غيروا رأيهم لسبب أو لآخر، ونزلوا.

سألت: هل قلت قارب بأربعة مجدفين؟

(١) صبي أو شاب يتم تعيينه للقيام بالمهام وأداء أعمال لا تتطلب المهارة. المترجم.

قال جاك: أربعة، واثنين ركاب.

- هل وصلوا إلى الشاطئ هنا؟

قال جاك: لقد جاءوا بجرة حجرية تسع جالونين من الجعة. أردت أن أضع السم في الجعة بنفسني، أو بعض المليينات القوية.
- لماذا؟

قال جاك: «أعرف السبب» تحدث بصوتٍ محشرج، كما لو أن الطين قد غمر حلقه.

قال المالك، وهو رجل ضعيف التفكير ذو عين شاحبة، ويبدو أنه يعتمد بشكل كبير على العامل: «إنه يعتقد أنهم ليسوا ما يدعونه».
قال جاك: أنا أعرف ما أفكر فيه.

قال المالك: أعتقد أنهم رجال الجمارك يا جاك؟
«بالفعل» قال جاك.

- إذن أنت مخطئ يا جاك.

- حقاً!

وبكل المعاني التي يحملها رده وثقته اللامحدودة بآرائه، خلع جاك فردة حذائه المتنفخ، ونظر فيها، وأزال منها بعض الحجارة على أرضية المطبخ ثم انتعلها مرة أخرى. فعل ذلك بمظهر شخص كان على حق إلى درجة أنه يستطيع فعل أي شيء.

«ماذا تعتقد أنهم فعلوا بأزرارهم إذن يا جاك؟» سأل المالك، متردداً واهناً.

«ماذا فعلوا بأزرارهم؟» كرر جاك. «رموها في البحر. ابتلعوها. نشروها كي تنبت لهم الخُضر. ماذا فعلوا بأزرارهم!..»

«لا تكن وقحًا يا جاك» اعترض المالك بطريقة كثيفة ومثيرة للشفقة.
«يعرف رجال الجمارك ما يفعلونه بأزرارهم» قال جاك، مكرراً الكلمة
البعيضة بأكبر قدر من الازدراء، «عندما تقف بينه وبين هدفه. لا يمكن
لأربعة مجدفين وراكبين أن يتسكعوا ويحوموا للأعلى مع مد، وللأسفل
مع مد آخر، دون أن يكونوا رجال جمارك» قال هذا وخرج مستهزئاً، ووجد
المالك أنه لا يمكنه متابعة الحديث مع عدم وجود من يجيبه.

هذا الحوار جعلنا جميعاً نشعر بعدم الارتياح، أنا بالأخص. كانت
الريح الكثيية تهب حول المنزل، وكان المد يضرب على الشاطئ، وكان
لديّ شعور بأننا محبوسون ومهدّدون. كان المركب ذو الأربعة مجدفين،
الذي يحوم بطريقة غير معتادة لجذب هذا الانتباه، ظرفاً مزعجاً لم أستطع
طرده من تفكيري. عندما حثت بروفيس على الذهاب للنوم، خرجت مع
رفيقي (كان ستارتوب في ذلك الوقت قد علم بالأمر)، وعقدنا مجلساً
آخر. كان السؤال الذي ناقشناه هو ما إذا كان ينبغي لنا البقاء في النزل
حتى اقتراب موعد وصول الباخرة، الذي سيكون نحو الساعة الواحدة
بعد الظهر، أو ما إذا كان ينبغي لنا أن نذهب في وقتٍ مبكرٍ من الصباح.
على العموم، رأينا أنه من الأفضل أن نرقد حيث كنا، حتى غصون ساعة
أو نحو ذلك من وقت الباخرة، ثم نخرج في مسارها، ونجرف بسهولة مع
المد. بعد أن قررنا القيام بذلك، عدنا إلى النزل وذهبنا للنوم.

استلقيت مرتدياً معظم ملابس، ونمت جيداً لبضع ساعات. عندما
استيقظت، كانت الريح قد هبّت، وكانت لافتة النزل (السفينة) تصر
وتضرب، بأصواتٍ أفزعني. نهضت بهدوء، لأن حملي كان يغط في
النوم، ونظرت من النافذة. كانت تطل على المجازة حيث أوقفنا قاربنا،

وبينما كانت عيناى تكيفان مع ضوء القمر الملبّد بالغيوم، رأيت رجلين ينظران إلى القارب. مرّا من تحت النافذة، ولم ينظرا إلى أي شيء آخر، ولم ينزلا إلى المرسى الذي رأيتة خاليًا، بل عبرا المستنقع في اتجاه نور^(١).

كان هاجسي الأول أن أنادي هربت وأريه الرجلين وهما يغادران. لكن قبل أن أدخل إلى غرفته، التي كانت في الجزء الخلفي من النزل والمجاورة لغرفتي، فكرت أنه وستارتوب مرّا بيوم عصيب أكثر منى، وكانا مرهقين، فأحجمت عن ذلك. وبالعودة إلى نافذتي، تمكنت من رؤية الرجلين يتحركان في المستنقع. ومع ذلك، في ذلك الضوء، سرعان ما فقدتهما، وشعرت بالبرد الشديد، واستلقيت للتفكير في الأمر، ثم غفوت مرة أخرى.

استيقظنا مبكرًا. بينما كنا نسير ذهابًا وإيابًا معًا، قبل الإفطار، رأيت أنه من الصواب أن أروي ما رأيتة. مرة أخرى كانت حملنا هو الأقل قلقًا في المجموعة. وقال بهدوء إنه من المحتمل جدًا أن يكون الرجلين ينتميان إلى مصلحة الجمارك، وأنهما لم يفكرا بنا. حاولت إقناع نفسي بأن الأمر كذلك، كما قد يكون الأمر بسهولة بالفعل. ومع ذلك، اقترحت أن نسير معًا أنا وهو إلى نقطة بعيدة يمكننا رؤيتها، وأن يقلنا القارب من هناك، أو من أقرب نقطة ممكنة هناك، وقت الظهيرة تقريبًا. نظرًا إلى اعتبار هذا إجراءً احترازيًا جيدًا، انطلقنا أنا وهو بعد الإفطار بقليل، دون أن نقول أي شيء في النزل.

(١) شاطئ رملي عند مصب نهر التايمز، يمثل النقطة التي يلتقي فيها نهر التايمز ببحر الشمال. المترجم.

كان يدخن غليونيه في أثناء سيرنا، وكان يتوقف أحياناً ليربت على كتفي. كأنني أنا من كان في خطر، وليس هو، وكان هو يطمئني. تحدثنا قليلاً جداً. عندما اقتربنا من هدفنا، توسلت إليه أن يبقى في مكان آمن، بينما ذهبت أنا للاستكشاف؛ لأن الرجلين عبر اليلاً في هذا الاتجاه. امثل لكلامي، وذهبت وحدي. لم يكن هناك قارب في الأفق، ولا أي قارب يرسو في أي مكان بالقرب منا، ولم تكن هناك أي علامات تشير إلى أن الرجلين صعدا إلى القارب من هناك. ولكن من المؤكد أن المد كان مرتفعاً، وربما كانت هناك بعض آثار الأقدام تحت المياه.

عندما نظر من ملجئه بعيداً، ورأى أنني لوحت له بقبعتي ليأتي، انضم إليّ مجدداً، وانتظرنا هناك؛ أحياناً نستلقي على الضفة، ملتفين بمعاطفنا، وأحياناً نتحرك لتدفئة أنفسنا، حتى رأينا قاربنا يقترب. صعدنا على متنه بسهولة، واتجهنا إلى مسار الباخرة. بحلول ذلك الوقت، لم تكن هناك سوى عشر دقائق حتى الساعة الواحدة، وبدأنا نبحث عن دخانها.

ولكن، كانت الساعة الواحدة والنصف قبل أن نرى دخان الباخرة، وسرعان ما رأينا خلفها دخان باخرة أخرى. وبينما كانتا تتقدمان بأقصى سرعة، جهزنا الحقيقتين، واغتنمنا الفرصة لتوديع هربرت وستارتوب. تصافحنا جميعاً بحرارة، وكانت عينا هربرت وعينا تدمعان، عندما رأيت قارباً ذا أربعة مجدفين ينطلق من أسفل الضفة ولكن أمامنا بمسافة قصيرة، ويجدف في المسار نفسه.

كان لا يزال هناك شريط من الشاطئ بيننا وبين دخان الباخرة، بسبب انحناء النهر والتواءه؛ لكن الباخرة الآن أصبحت مرئية، تتقدم أمامنا. قلت لهربرت وستارتوب أن يظلا في مواجهة المد، حتى تتمكن من رؤيتنا

بجانبيها، وتوسلت إلى بروفيس أن يجلس ساكنًا تمامًا، ملفوفًا بعباءته. فأجاب بكل سرور: «ثق بي يا ولدي العزيز»، وجلس كالتمثال. في هذه الأثناء، تجاوزنا القارب ذا الأربعة مجدفين بمهارة شديدة، فلاحقنا به، وأبحر بمحاذاتنا. ولم يترك سوى مساحة كافية للمجاديف، وظل بجانبنا، ينحرف عندما ننحرف، ويجدف مرة أو مرتين عندما نجدف. من بين الجالسين، أمسك أحدهما بحبال الدفة، ونظر إلينا بانتباه، كما فعل جميع المجدفين؛ كان الجالس الآخر ملتفًا، مثل بروفيس كثيرًا، وبدأ أنه ينكمش، ويهمس ببعض التعليمات للقائد وهو ينظر إلينا. لم تُنطق بكلمة واحدة في أي من القاربين.

تمكّن ستارتوب، بعد بضع دقائق، من معرفة أي سفينة بخارية كانت الأولى، وأعطاني كلمة «هامبورج» بصوت خفيض، بينما كنا نجلس وجهًا لوجه. كانت تقترب منا بسرعة كبيرة، وصوت بدالاتها يعلو أكثر وأكثر. شعرت كما لو أن ظلها كان فوقنا تمامًا عندما نادانا القارب ذو الأربعة مجدفين. وأجبت.

قال الرجل الذي كان يمسك بالدفة: «لديكم منفيٌّ عائد على متن قاربكم. ها هو الرجل، ملفوفًا بالعباءة. اسمه هايل ماجويتش، أو بروفيس. أنا ألقى القبض على ذلك الرجل، أدعوه إلى الاستسلام، وأنتم للمساعدة».

وفي نفس اللحظة، ودون إعطاء أي توجيه مسموع لطاقمه، قام بإدارة القارب حولنا. تقدموا أمامنا فجأة، ورفعوا مجديفهم، وتقدموا في اتجاهنا، وأمسكوا بحافة القارب، قبل أن نعرف ما يفعلون. أحدث هذا ارتباكًا كبيرًا على متن الباخرة، وسمعتهم ينادوننا، وسمعت الأمر بإيقاف

البدالات، وسمعتهم يتوقفون، لكنني شعرت أنها ما زالت تتجه نحونا على الرغم منها. وفي نفس اللحظة رأيت القائد وهو يضع يده على كتف السجين، ورأيت أن كلا القاربين كانا يتأرجحان بقوة المد، ورأيت أن كل عمال الباخرة كانوا يجرون نحو المقدمة باهتياج شديد. ومع ذلك، في اللحظة نفسها، رأيت السجين ينهض، يميل فوق أسرته، ويسحب العباءة من عنق الجالس المنكمش في القارب الآخر. وفي نفس اللحظة، رأيت أن الوجه المكشوف، هو وجه المدان الآخر الذي رأيته منذ زمن بعيد. ومع ذلك، في اللحظة نفسها، رأيت الوجه يميل إلى الخلف برعب وشحوب لن أنساه أبداً، وسمعت صرخة هائلة على متن الباخرة، ودفقة عالية في الماء، وشعرت بالقارب يغوص من تحتي.

بدا لي للحظة أنني أصارع ألف شلال وألف ومضة من الضوء؛ في تلك اللحظة، تم اصطحابي على متن القارب الآخر. كان هربرت هناك، وكان ستارتوب هناك؛ لكن قاربنا والمدانين اختفوا.

مع الصرخات على متن الباخرة، والنفخ الغاضب لبخارها، وتقدمها، وتقدمنا، لم أتمكن في البداية من تمييز السماء من الماء أو الشاطئ من الآخر؛ لكن طاقم المركب عدّلوا مساره بسرعة كبيرة، وضربوا بعض الضربات القوية والسريعة للأمام، ثم رفعوا مجاديفهم، وكان كل رجل ينظر بصمت ولهفة إلى المياه من خلفه. وفي تلك اللحظة، شوهد جسم مظلم، يتجه صوبنا مع المد. لم يتكلم أحد، لكن قائد القارب رفع يده، وتوقف الجميع عن التجديف، وأبقوا القارب مستقيماً وثابتاً على سطح المياه. ومع اقترابه، رأيت أنه ماجويتش، يسبح، لكن ليس بحرية. نُقل على متن القارب، وقبّد على الفور من معصميه وكاحليه.

ظلت السفينة ثابتة، واستؤنفت المراقبة الصامتة المتلهفة للمياه. لكن سفينة روتردام البخارية وصلت الآن، ويبدو أنها لم تفهم ما حدث، فتحرّكت بسرعة، بحلول الوقت الذي تم مناداتها وتوقفها فيه.

كانت كلتا الباخرتين تبتعدان عنا، وكنا نعلو وننخفض في أعقاب الماء المضطرب. استمررنا في مراقبة المياه، بعد اختفاء الباخرتان بفترة طويلة وتوقف كل شيء؛ لكن الجميع عرفوا أن الأمر ميؤوس منه الآن.

أخيراً استسلمنا، وتوجهنا إلى الشاطئ في اتجاه النزل الذي غادرناه مؤخراً، حيث استقبلنا دون مفاجأة تُذكر. هنا تمكنت من توفير بعض وسائل الراحة لماجويتش، الذي لم يعد بروفيس بعد الآن، والذي تعرض لإصابة بالغة الخطورة في الصدر، وجرح عميق في الرأس.

أخبرني أنه يعتقد أنه وقع تحت قاعدة الباخرة، وأنه تعرض لضربة على رأسه في أثناء صعوده، أما إصابة صدره (التي جعلت تنفّسه مؤلماً للغاية) فظن أنه تلقاها على جانب القارب، وأضاف أنه لم يتظاهر بأنه يقول ما كان يمكن أن يفعله أو لا يفعله مع كوميسون، ولكن في اللحظة التي وضع فيها يده على عباةته للتعرف عليه، أخذ ذلك الوغد في الترنّح إلى الأمام وإلى الخلف، ووقعا معاً في المياه، وأدى ميل ماجويتش المفاجئ من فوق قاربنا، ومحاولة أسرهِ لإبقائه فيه، إلى انقلابنا. أخبرني بصوت هامس أنهما سقطا بقوة وهما متشابكا الأذرع، وأنه كان هناك صراع تحت الماء، وأنه فك قبضته، وضرب بذراعيه، وسبح بعيداً.

لم يكن لديّ أي سبب للشك في حقيقة ما قاله لي. روى الضابط الذي قاد المركب نفس الرواية عن سقوطهما في المياه.

عندما طلبت الإذن من هذا الضابط لتغيير ملابس السجين المبللة،

وشراء أي ملابس احتياطية يمكنني الحصول عليها من النُّزل، استجاب لي بسهولة: فقط احرص على التحفظ على جميع ممتلكات السجين. لذا انتقلت محفظة النقود التي كانت في يدي ذات يومٍ إلى يد الضابط، كما أعطاني إذناً لمرافقة السجين إلى لندن؛ لكنه رفض منح الإذن لصديقي. أُبلغ جاك في نُزل «السفينة» بالمكان الذي غرق فيه الرجل، وتعهَّد بالبحث عن الجثة في الأماكن التي من المرجح أن يصل فيها إلى الشاطئ. بدا لي أن اهتمامه بإيجاد جثة الرجل قد زاد كثيرًا عندما سمع أنه كان يرتدي جوارب طويلة. ربما استلزم الأمر نحو دسنة من الغرقى لتلبسه بالكامل؛ وربما كان هذا هو السبب وراء تعرض قطع ملابسه المختلفة لمراحل متعددة من التحلل.

بقينا في النُّزل العام حتى انعكس المد، ثم نُقل ماجويتش على متن القارب. كان على هيربرت وستارتوب أن يصلا إلى لندن عن طريق البر بأسرع ما يمكن. افترقنا فراقًا حزينًا، وعندما أخذت مكاني بجانب ماجويتش، شعرت أن هذا هو مكاني من الآن فصاعدًا خلال ما بقي له من حياته.

وفي ذلك الوقت، تلاشى اشمئزازي منه تمامًا؛ وفي ذلك المخلوق المطارد المكبل والجريح الذي كان يمسك بيدي في يده، لم أر سوى رجلٍ أراد أن يكون ولي نعمتي، رجلٍ كان يشعر دومًا بالمودعة والامتنان والسخاء تجاهي على مدار السنوات. لم أر فيه سوى رجلٍ أفضل بكثير مما كنت عليه بالنسبة إلى جو.

أصبح تنفُّسه أكثر صعوبة وألمًا مع حلول الليل، وفي كثير من الأحيان لم يكن قادرًا على كبّح أنينه. حاولت أن أضعه على ذراعي التي أستطيع

استخدامها، في أي وضعية مريحة؛ ولكن من المروع أن أدرك أنني لم أستطع أن أشعر بالأسف من قلبي لتعرضه لإصابة بالغة، لأنه كان من الأفضل بلا شك أن يموت. لم يكن لديّ ما يكفي من الشك في أنه كان هناك عدد كافٍ من الأشخاص، الذين ما زالوا على قيد الحياة، قادرين على التعرف عليه وراغبين في التعرف عليه. لم أكن آمل أن يُعامل برفق. الذي قُدِّم في أسوأ صورة في أثناء محاكمته، والذي هرب من السجن منذ ذلك الحين وحوكم مرة أخرى، والذي عاد من النفي مدى الحياة، والذي تسبب في وفاة الرجل الذي كان سببًا في اعتقاله.

عندما عدنا في اتجاه الغروب الذي كنا تركناه خلفنا بالأمس، وبينما كان تيار آمالنا يبدو كأنه يسير عكس الاتجاه، أخبرته عن مدى حزني لأنه عاد إلى الديار من أجلي.

أجاب: يا ولدي العزيز، أنا سعيد لأنني أخذت فرصتي. لقد رأيت ابني، ويمكنه أن يكون رجلًا نبيلًا من دوني.

لا، لقد فكرت في ذلك بينما كنا هناك جنبًا إلى جنب، لا، بصرف النظر عن أي ميول خاصة بي، فقد فهمت تلميح ويميك الآن. لقد توقعت أنه في حالة إدانته، ستُصادَر ممتلكاته لصالح الدولة.

قال: انظر هنا يا ولدي العزيز، من الأفضل ألا يُعرف أن رجلي النبيل ذو صلة بي الآن، فقط تعال لرؤيتي كما لو أنك أتيت بالصدفة مع ويميك، اجلس حيث أستطيع رؤيتك عندما أحلف القسم للمرة الأخيرة من المرات العديدة، ولا أطلب أكثر من ذلك.

قلت: لن أتحرك من جانبك أبدًا حتى لو تأذيت بسبب ذلك. يا إلهي، سأكون مخلصًا لك كما كنت مخلصًا لي!

شعرت بيده ترتجف وهي تمسك بيدي، وأشاح وجهه بعيداً بينما
كان مستلقياً في قاع القارب، وسمعت ذلك الصوت القديم في حلقه،
وقد رَقَّ الآن، مثل بقية جسده. كان من الجيد أنه تطرق إلى هذه النقطة،
لأنها وضعت في ذهني ما لم أكن لأفكر فيه إلا بعد فوات الأوان، وهو أنه
لا ينبغي له أن يعرف أبداً كيف تلاشت آماله في إثرائي.

الفصل الخامس والخمسون

نُقل إلى محكمة الشرطة في اليوم التالي، وكان من الممكن تقديمه للمحاكمة على الفور، ولكن كان من الضروري الإرسال في طلب ضابط قديم في سفينة السجن التي هرب منها ذات مرة، لتأكيد هويته. لم يشك أحد في الأمر؛ لكن كومبيسون، الذي كان سيقوم بتأكيد هويته، كان يتقلب ميتاً بين المد والجزر، ونصادف أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت أي ضابط سجن في لندن يمكنه تقديم الإفادة المطلوبة. ذهبت مباشرة إلى السيد جاغر في منزله الخاص، عند وصولي ليلاً، للحصول على مساعدته، ولم يقبل السيد جاغر الدفاع عن السجين على الإطلاق. كان ملاذي الوحيد، وأخبرني أن القضية ستنتهي خلال خمس دقائق عندما يكون الشاهد هناك، وأنه لا توجد قوة على وجه الأرض يمكنها أن تمنعها من أن تكون في غير صالحنا.

لقد نقلت إلى السيد جاغر تصميمي المتمثل في إبقائه جاهلاً بمصير ثروته. كان السيد جاغر متدمراً وغاضباً مني لأنني «تركته تفلت من بين يدي»، وقال إنه يجب علينا أن نقدم مذكرة بشأنها، وأن نحاول في جميع الأحوال أن نستعيد بعضاً منها. لكنه لم يخف عني أنه على الرغم من وجود حالات كثيرة لا تُصادَر فيها الأموال، إلا أن ظروف هذه القضية لا تجعلها واحدة منها. لقد فهمت ذلك جيداً. لم أكن على صلة قرابة بالسجين، أو تربطني به صلة معترف بها؛ لم يقم بأي كتابة

أو تسوية لصالحه قبل إلقاء القبض عليه، وسيكون القيام بذلك أمرًا عقيمًا الآن. لم يكن لديّ أي استحقاق، وقررت أخيرًا، والتزمت بقراري بعدها، أنني يجب ألا أياس أبدًا من المهمة المستحيلة والمتمثلة في محاولة إيجاده.

يبدو أن هناك سببًا لافتراض أن الواشي الغريق كان يأمل في الحصول على مكافأة من وراء مصادرة الأموال، وحصل على بعض المعلومات الدقيقة بشؤون ماجويتش. عندما عُثِر على جثته على بُعد أميال عديدة من مكان وفاته، وكانت مشوّهة بفضاعة بحيث لم يكن من الممكن التعرف عليها إلا من خلال محتويات جيوبها، كانت هناك ملاحظات مطوية ولا تزال مقروءة في حافظته. ومن بين هذه الأوراق اسم أحد البنوك في نيو ساوث ويلز، حيث كان هناك مبلغ من المال، وتخصيص لبعض الأراضي ذات قيمة كبرى. كانت تلك المعلومات مدرجة في قائمة أعطائها ماجويتش، في أثناء وجوده في السجن، للسيد جاغرز، من الممتلكات التي كان يفترض أن أرثها. غفلة هذا المسكين خدمته في النهاية؛ فهو لم يشك قط في أن ميراثي كان آمنًا تمامًا بمساعدة السيد جاغرز.

وبعد ثلاثة أيام من التأخير، قامت خلالها النيابة العامة بتعليق الجلسة لحين إحضار الشاهد من سفينة السجن، جاء الشاهد وأكمل القضية السهلة. وحُجِسَ لمحاكمته في الجلسات المقبلة التي ستعقد خلال شهر.

في هذا الوقت المظلم من حياتي، عاد هربرت إلى منزله في إحدى الأمسيات، مكتئبًا للغاية، وقال:

- عزيزي هاندل، أخشى أنني سأضطر إلى تركك قريبًا.

بعد أن عدّني شريكه لذلك، لم أكن متفاجئًا للغاية مثلما كان يعتقد.

- سوف نخسر فرصة جيدة إذا أرجأت الذهاب إلى القاهرة، وأنا

أخشى بشدة أن أذهب يا هاندل عندما تكون في أمس الحاجة إليّ.

- هربرت، سأحتاج إليك دائمًا، لأنني سأحبك دائمًا؛ ولكن حاجتي

ليست أكبر الآن مما كانت عليه في وقت آخر.

- ستكون وحيدًا جدًا.

قلت: ليس لديّ وقت للتفكير في ذلك. أنت تعلم أنني معه دائمًا

طوال الوقت المسموح به، وأنا في يجب أن أكون معه طوال اليوم، إن

استطعت. وعندما أخرج من عنده تعلم أن أفكاري تظل معه.

كانت الحالة المروعة التي صار فيها صادمة جدًا لكلينا، إلى درجة

أننا لم نتمكن من الإشارة إليها بكلمات أكثر وضوحًا.

قال هربرت: يا صديقي العزيز، دَع احتمال انفصالنا القريب -لأنه

قريب جدًا- يكون مبررًا لي لأسألك عن نفسك، هل فكرت بمستقبلك؟

- لا، لأنني خائف من التفكير في أي مستقبل.

- ولكن لا يمكن تجاهله؛ في الواقع، يا عزيزي هاندل، لا ينبغي

تجاهله. أتمنى أن تشرع في التفكير فيه معي الآن، بقدر تسمح به

الكلمات الودية.

قلت: سأفعل.

- في فرعنا الجديد، يا هاندل، يجب أن يكون لدينا...

رأيت أن رفته كانت تجنبه الكلمة الصحيحة، فقلت: موظف.

- موظف، وآمل ألا يكون من المستبعد على الإطلاق أن يعلو شأنه

(مثلما علا شأن موظف من معارفك) ليصبح شريكًا. والآن يا

هاندل، باختصار، يا ولدي العزيز، هل ستأتي إليّ؟

كان هناك شيء حميمي وساحر في الطريقة التي مد بها يده الصداقة

إليّ بعد أن قال «الآن يا هاندل»، كما لو كانت مقدمة مهيبة لأمر هائل،

تخلى فجأة عن تلك النبوة، وتحدث مثل التلميذ.

تابع هربرت: لقد تحدثت أنا وكلاهما عن ذلك مرارًا وتكرارًا، وقد

توسلت إليّ الفتاة العزيزة هذا المساء بالذات، والدموع في عينيها،

لأقول لك إنك إذا عشت معنا عندما نجتمع معًا، ستبذل قصارى جهدها

لإسعادك، وإقناع صديق زوجها بأنه صديقها أيضًا. سوف ننسجم معًا

على أفضل حال يا هاندل!

شكرتها من كل قلبي، وشكرته من كل قلبي، لكنني قلت إنني لا

أستطيع التأكد بعد من الانضمام إليه كما عرض بكرم. أولاً، كان ذهني

مشغولاً للغاية إلى درجة أنني لم أتمكن من استيعاب الموضوع بوضوح.

ثانيًا، نعم! ثانيًا، كان هناك شيء غامض عالق في أفكاري وسيظهر قريبًا

جدًا في نهاية هذه الحكاية المتواضعة.

- ولكن إذا كنت تعتقد، يا هربرت، أنه يمكنك ترك المسألة مفتوحة

لبعض الوقت دون الإضرار بشؤونك الخاصة...

صاح هربرت: لأي فترة من الوقت. ستة أشهر، سنة!

قلت: ليس لكل هذا الوقت. شهرين أو ثلاثة على الأكثر.

شعر هربرت بسعادة غامرة عندما تصافحنا بشأن هذا الترتيب، وقال

إنه يستطيع الآن أن يتحلى بالشجاعة ليخبرني أنه يعتقد أنه سيرحل في نهاية الأسبوع.

سألت: وكلاهما؟

رد هربرت: الصغيرة العزيزة، متمسكة بوالدها بإخلاص ما دام على قيد الحياة؛ لكنه لن يستمر طويلاً، لقد أسرت لي السيدة ويمبل بأنه راحل بلا شك.

قلت: أتمنى ألا أكون قاسياً حين أقول إنه ليس هناك شيء أفضل يستطيع فعله.

قال هربرت: أخشى أن هذا أمر يجب الاعتراف به؛ وبعد ذلك سأعود من أجل الصغيرة العزيزة، وسوف نسير أنا وهي بهدوء إلى أقرب كنيسة. تذكر! الحبيبة المباركة لا تنتمي إلى أي عائلة، يا عزيزي هاندل، ولم تنظر قط في كتاب المقامات الرفيعة الأحمر، وليس لديها فكرة عن جدها. يا لحظي السعيد!

في يوم السبت من نفس الأسبوع، ودّعت هربرت — كان مليئاً بالأمل المشرق، ولكنه حزين وآسف لمغادرتي — بينما كان يجلس في إحدى عربات الأجرة الذاهبة إلى الميناء البحري. ذهبت إلى المقهى لأكتب رسالة صغيرة إلى كلارا، أخبرها فيها أنه انطلق، وأنه يرسل إليها حبه مراراً وتكراراً، ثم ذهبت إلى منزلي الموحش؛ إذ كان يستحق هذا الاسم؛ لأنه لم يعد لي بيت، ولم يكن لي بيت في أي مكان.

قابلت ويميك نازلاً على الدرج، بعد أن لم يجدني في منزلي. لم أراه منفرداً منذ محاولة الهروب الكارثية؛ وقد جاء بصفته الخاصة والشخصية ليقول بضع كلمات توضيحية بخصوص هذا الإخفاق.

قال ويميك: كان الراحل كومبيسون قد أتم نصف مهمته؛ ومن حديث بعض معاونيه في السجن (كان دومًا لديه معاونون في السجن) سمعت ما سمعت. أبقيت أذني مفتوحتين، متظاهراً بأنهما مغلقتان، حتى سمعت بغيابه، واعتقدت أن هذا هو الوقت المناسب لمحاولة الهروب. لا أستطيع إلا أن أفترض الآن أن ذلك كان جزءاً من سياسته، كداهية، اعتاد خداع معاونيه. أتمنى ألا تلومني يا سيد بيب؟ أنا واثق أنني حاولت خدمتك من كل قلبي.

- أنا واثق مثلك من ذلك يا ويميك، وأشكرك بشدة على كل اهتمامك وصداقتك.

«شكراً لك، شكراً جزيلاً.» قال ويميك وهو يحك رأسه: إنها وظيفة سيئة، وأؤكد لك أنني لم أكن مستاء هكذا منذ فترة طويلة. كل ما أراه هو التضحية بالكثير من الممتلكات المحمولة. يا إلهي!

- ما أفكر فيه يا ويميك هو صاحب الممتلكات المسكين.

قال ويميك: نعم، بالتأكيد. بالطبع، لا مانع من أن تأسف عليه، وكنت سأضع بنفسى ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات لإخراجه من الأمر، لكن ما أنظر إليه هو الآتي. نظرًا إلى أن الراحل كومبيسون كان قد قدم سابقًا معلومات عن عودته، ولأنه كان مصممًا جدًا على محاكمته، فلا أعتقد أنه كان من الممكن إنقاذه. بينما كان من الممكن بالتأكيد إنقاذ الممتلكات المحمولة. هذا هو الفرق بين صاحب الممتلكات والممتلكات نفسها، ألا ترى؟

دعوت ويميك ليصعد إلى الطابق العلوي وينعش نفسه بكأس من الشراب قبل أن يتجه إلى الورث. قبل الدعوة. وبينما كان يشرب حصته المعتدلة، قال، دون أي مقدمات، وبعد أن بدا متململاً إلى حد ما:

- ما رأيك في أخذي إجازة يوم الاثنين القادم يا سيد بيب؟
- أعتقد أنك لم تفعل شيئاً كهذا خلال الاثنين عشر شهراً الماضية.
قال ويميك: السنوات الاثنتي عشرة الماضية على الأرجح. نعم.
سوف آخذ عطلة. أكثر من ذلك؛ أنا ذاهب في نزهة على الأقدام. أكثر من ذلك؛ سأطلب منك أن تمشي معي.
كنت على وشك أن أعذر عن كوني رفيقاً سيئاً في ذلك الوقت، عندما توقع ويميك ذلك.
قال: أعرف ارتباطاتك، وأعلم أنك لست في حالة جيدة يا سيد بيب، لكن إذا كان في وسعك أن تشرفني، فسأعتبر ذلك لطفاً منك. إنها ليست مسافة طويلة، وهي مبكرة. قل إنها قد تشغلك (بما في ذلك الإفطار في الطريق) من الثامنة إلى الثانية عشرة ظهراً. هل يمكنك أن تتدبر الأمر؟
لقد فعل الكثير من أجلي في أوقات مختلفة، وكان هذا قليلاً جداً لأفعله من أجله. قلت إنني أستطيع أن أتدبر الأمر، وسوف أتدبره، وكان مسروراً للغاية بموافقتي، وكنت مسروراً أنا أيضاً. بناءً على طلبه الخاص، قررت أن أذهب إليه في القلعة في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الاثنين، وافترقنا على هذا.
وفي الموعد المحدد، وصلت عند بوابة القلعة صباح يوم الاثنين، واستقبلني ويميك بنفسه، الذي بدا لي أكثر أناقة من المعتاد، ويرتدي قبعة أكثر نعومة من المعتاد. في الداخل، كانت هناك كأسان من مشروب الروم والحليب، وقطعتان من البسكويت. لا بد أن العجوز كان يصحو على صوت الديك، لأنني عندما نظرت إلى غرفة نومه، لاحظت أن فراشه كان فارغاً.

عندما حصَّناً أنفُسنا بالروم والحليب والبسكويت، وكنا نخرج في نزهة مع هذه الاستعدادات، تفاجأت كثيراً عندما رأيت ويميك يأخذ صنارة الصيد ويضعها على كتفه. «نحن لن نذهب لصيد الأسماك، أليس كذلك؟» رد ويميك: «لا، لكنني أحب المشي بالصنارة».

اعتقدت أن هذا غريب. لكنني لم أقل شيئاً وانطلقنا. ذهبنا نحو حديقة كامبرويل، وعندما وصلنا إلى هناك، قال ويميك فجأة:

- انظر! ها هي كنيسة!

ولم يكن هناك ما يشير الدهشة في ذلك؛ ولكن مرة أخرى، تفاجأت إلى حدٍّ ما عندما قال، كما لو كان متحمساً بشأن فكرة ما رائعة:

- هيا ندخل!

دخلنا، وترك ويميك صنارة الصيد الخاصة به في الرواق، ونظر حولنا في كل مكان. في هذه الأثناء، كان ويميك يغوص في جيبي معطفه ويخرج شيئاً ملفوفاً بالأوراق.

قال: ياه! ها هو زوج من القفازات! دعنا نرتديها!

وبما أن القفازات كانت عبارة عن قفازات جلدية بيضاء ناعمة، ومع انفراج فمه الشبيه بمكتب البريد إلى أقصى حدٍّ، بدأت الآن تساورني شكوك قوية. لقد تعززت إلى اليقين عندما رأيت العجوز يدخل من باب جانبي، يرافق سيدة.

«ياه!» قال ويميك. «ها هي الآنسة سكينيز! دعونا نقيم حفل زفاف».

كانت تلك الفتاة الشابة المتواضعة ترتدي ملابسها كالمعتاد، باستثناء أنها كانت الآن منهمكة في استبدال قفازيها الأخضرين بزوج

من القفازات البيضاء. وكان العجوز أيضًا منشغلًا بفعل المثل في طريقه إلى المذبح. ومع ذلك، واجه الرجل العجوز صعوبة كبيرة في ارتداء قفازيه، إلى درجة أن ويميك وجد أنه من الضروري أن يضعه وظهره على عمود، ثم يقف خلف العمود بنفسه ويحاول إدخال القفازين، بينما أنا من جهتي أمسكت بالسيد العجوز حول خصره حتى يتمكن من المقاومة بتكافؤ وأمان. بفضل هذا المخطط العبقري، لبس قفازيه على أكمل وجه.

ثم ظهر الكاتب والقسيس، وُصفنا عند حاجز المذبح. مبدلاً لفكرته المتمثلة في أنه يبدو كأنه يفعل كل شيء دون تحضير، سمعت ويميك يقول لنفسه، وهو يخرج شيئاً من جيب صدرته قبل بدء المراسم، «ياه! هاهو الخاتم!».

لعبت دور المؤيد أو الإشبين؛ بينما كانت هناك امرأة ضعيفة وقصيرة ترتدي قلنسوة ناعمة كغطاء رأس طفل، تعمل حاجبة في الكنيسة، تظاهرت بأنها الصديقة الحميمة للأنسة سكينيز. أما مسؤولية تسليم السيدة كانت على عاتق العجوز؛ كل هذا أدى إلى إثارة حفيظة القسيس دون قصد، وهكذا صار الأمر. فلما قال: «من يزوّج هذه المرأة لهذا الرجل؟» وقف السيد العجوز، الذي لم يكن يعرف على الإطلاق في أي مرحلة من المراسم كنا، وبدا مبتهجاً للغاية وهو ينظر إلى الوصايا العشر. وعلى ذلك قال القسيس مرة أخرى: «من يزوّج هذه المرأة لهذا الرجل؟» وبينما كان الرجل العجوز لا يزال في جهالة شديدة، صرخ العريس بصوته المعتاد: «الآن والدي العجوز؛ من يسلمها؟» رد عليه العجوز بحيوية شديدة: «حسنًا يا جون، حسنًا يا ولدي!» ثم قال إنه يسلمها. أخذ القسيس

حينها وقفة عابسة، إلى درجة أنه كان لديّ شكوكٌ في ذلك الوقت حول ما إذا كان الزواج سيتم في ذلك اليوم.

ومع ذلك، تم الزواج، وعندما كنا نخرج من الكنيسة، أزال ويميك غطاء حوض المعمودية، ووضع قفازيه الأبيضين فيه، ثم وضع الغطاء مرة أخرى. السيدة ويميك، الأكثر اهتمامًا بالمستقبل، وضعت قفازيها الأبيضين في جيبيها واستبدلت بهما الأخضرين. «الآن يا سيد بيب» قال ويميك وهو يحمل صنارة الصيد على كتفيه منتصراً عندما خرجنا، «دعني أسألك عما إذا كان أي شخص سيفترض أن هذا كان حفل زفاف!».

طلبنا الإفطار في حانة صغيرة لطيفة، على بُعد ميل أو نحو ذلك على الأرض المرتفعة وراء الحديقة؛ وكان هناك لوح ألعاب في الغرفة، في حال أردنا أن نريح عقولنا بعد المراسم. كان من الممتع ملاحظة أن السيدة ويميك لم تعد تفك ذراع ويميك عندما تلتف حولها، بل جلست على كرسي مرتفع الظهر مقابل الحائط، مثل آلة التشيلو في حقيبتها، واستسلمت لعناقه كما قد تفعل تلك الآلة الشجية.

تناولنا إفطاراً ممتازاً، وعندما كان يمتنع أي شخص عن أكل أي شيء على الطاولة، كان ويميك يقول: «تم الدفع مقدماً؛ تأكدوا من ذلك!» شربت نخب الزوجين حديثي العهد، وشربت نخب العجوز، وشربت نخب القلعة، وحيّيت العروس عند الوداع، وجعلت نفسي لطيفاً قدر استطاعتي.

نزل ويميك معي إلى الباب، وصافحته مرة أخرى، وتمنيت له السعادة.

«شكراً!» قال ويميك وهو يفرّك يديه، «إنها رائعة في تربية الدجاج،

ليس لديك فكرة. سأرسل إليك بعض البيض، واحكم بنفسك يا سيد بيب!« ناداني مرة أخرى، وتحدث بصوت منخفض: هذه أمور خاصة بوالورث كلياً، من فضلك.

قلت: أفهم، لا ينبغي ذكرها في ليتل بريتن.

أوماً ويميك: بعد ما صرّحت به في ذلك اليوم، ربما من الأفضل ألا يعلم السيد جاغرز بالأمر؛ قد يعتقد أنني صرت أقل فطنة، أو شيئاً من هذا القبيل.

الفصل السادس والخمسون

رقد في السجن مريضًا للغاية، طوال الفترة ما بين حبسه وجولة المحاكمات التالية. لقد كسر ضلعين، وجرح إحدى رتيته، وكان يتنفس بألمٍ شديدٍ وبصعوبة، يتزايدان يوميًا. كان من نتائج إصابته أنه تحدّث بصوتٍ خفيضٍ بالكاد كان مسموعًا؛ لذلك تحدث قليلًا جدًا. لكنه كان على استعدادٍ للاستماع إليّ؛ وأصبح واجبي الأول في حياتي أن أقول له وأقرأ له ما كنت أعرف أنه يجب أن يسمعه.

ولأنه كان مريضًا جدًا إلى درجة أنه لم يتمكن من البقاء في السجن العام، فقد نُقل بعد اليوم الأول أو نحو ذلك إلى المستوصف. منحني هذا فُرصًا للوجود معه لم يكن من الممكن أن أحصل عليها بطريقة أخرى. ولولا مرضه لكان قد قُيّد، لأنه كان يُنظر إليه على أنه هارب متمرس من السجن، وما إلى ذلك.

ورغم أنني كنت أراه كل يوم، إلا أن ذلك كان لفترة قصيرة فقط؛ ومن هنا كانت فترة فراقنا المتكررة بانتظام كافية لتسجل على وجهه أي تغييرات طفيفة طرأت على حالته الجسدية. ولا أذكر أنني رأيت ذات مرة أي تغيير فيه نحو الأفضل؛ كان يضعف، ويضعف شيئًا فشيئًا، ويومًا بعد يوم، منذ اليوم الذي أُغلق عليه باب السجن.

كان الخضوع أو الاستكانة الذي أظهره يوحى بأنه قد أضناه التعب.

في بعض الأحيان كنت أستنبط من أسلوبه أو من كلمة أو اثنتين هامستين هربتاً منه، أنه كان يفكر فيما إذا كان يمكنه أن يكون رجلاً أفضل في ظل ظروفٍ أفضل. لكنه لم يبرر نفسه قطُّ بأي شكلٍ من الأشكال، أو يحاول أن يحرف الماضي عن قلبه الذي سيبقى كما هو للأبد.

لقد حدث في مناسبتين أو ثلاث في حضوري أن أشار واحد أو آخر من الأشخاص المكلفين به إلى سمعته الشنيعة. كانت الابتسامة ترسم على وجهه حينها، ويدير عينيه نحوي بنظرة ثقة، كأنه واثق من أنني رأيت فيه لمسة من الوفاء، حتى منذ فترة طويلة عندما كنت طفلاً صغيراً. أما بالنسبة إلى الآخرين، فقد كان ذليلاً ونادماً، ولم أره يشكو قطُّ.

وعندما انعقدت الجلسات، قدّم السيد جاغرز التماساً لتأجيل محاكمته حتى الجلسات التالية. ومن الواضح أنه قدّم مصحوباً بقناعة أنه لن يعيش طويلاً، وقد رُفِض. بدأت المحاكمة على الفور، وعندما وُضِع في قفص الاتهام، كان جالساً على كرسي. لم يكن هناك مانع من أن أقترّب من قفص الاتهام، من الخارج، وأمسك باليد التي مدّها إليّ.

وكانت المحاكمة قصيرة جداً وواضحة جداً. قيلت في صالحه كل الأشياء الممكنة: كيف اعتاد العمل الجاد، وازدهر بشكلٍ قانوني وسمعة حسنة. لكن لا شيء يمكن أن ينفي حقيقة عودته وتواجده هناك في حضرة القاضي وهيئة المحلفين، وكان من المستحيل محاكمته على ذلك دون إدانته.

في ذلك الوقت، جرت العادة (كما تعلمت من تجربتي الرهيبة في تلك الجلسات) تخصيص يوم ختامي للنطق بالأحكام، وإضفاء اللمسة الأخيرة بالحكم بالإعدام. لكن ما زالت هناك صورة لا تُمحى من خيالي

وما زلت أراها الآن، بالكاد أصدق، حتى وأنا أكتب هذه الكلمات، وهي رؤية اثنين وثلاثين رجلاً وامرأة يمثلون أمام القاضي لتلقي هذا الحكم معاً. كان هو الأول بين الاثنين والثلاثين؛ جالساً، بالكاد يستطيع أن يتنفس. يبدأ المشهد بأكمله مجدداً بالألوان الحية لتلك اللحظة، وصولاً إلى قطرات مطر أبريل على نوافذ القاعة المتلاثلة في أشعة شمس أبريل. كان هناك اثنان وثلاثون رجلاً وامرأة محبوسون في قفص الاتهام، بينما كنت أقف خارجه مرة أخرى عند الزاوية ويده في يدي؛ بعضهم يُظهر التحدي، وبعضهم مصاب بالرعب، وبعضهم يتتحب ويكي، وبعضهم يغطي وجهه، وبعضهم يحرق حوله في كآبة. وكانت هناك صرخات من بين السجينات؛ لكن أُسكِتت، وساد الصمت. كان عمداء الشرطة بالسلاسل الكبيرة وباقات الزهور^(١)، وغيرهم من المتطفلين المدنيين والوحوش، والمحضرين، وحاجبي المحكمة، وقاعة كبيرة مليئة بالناس، وجمهور مسرحي كبير، ينظرون إلى المكان، بينما كان الاثنان والثلاثون والقاضي يتواجهون بهيبة. ثم خاطبهم القاضي. من بين تلك المخلوقات البائسة التي كانت أمامه والتي يجب أن يخصص لكل منها محادثة خاصة، كان هناك الشخص الذي كان منذ طفولته تقريباً مخالفاً للقوانين؛ الذي، بعد تكرار السجن والعقوبات، حُكم عليه بالنفي لعدة سنوات؛ وقد هرب بعنف وجرأة شديدين، وأُعيد الحكم عليه بالنفي مدى الحياة. يبدو أن هذا الرجل البائس قد اقتنع لبعض الوقت بأخطائه، عندما كان في المنفى بعيداً عن مشاهد جرائمه القديمة، وعاش حياة صالحة ونزيهة. ولكن في

(١) باقات الزهور كانت تُستخدم للتخفيف من روائح السجن الكريهة والحماية من الأمراض.

المترجم.

لحظة حاسمة، استسلم لتلك الميول والأهواء التي جعله انغماسه فيها لفترة طويلة آفة للمجتمع، وترك ملاذ الراحة والتوبة، وعاد إلى البلد الذي كان محظوراً فيه. كانت تتم إدانته في ذلك الوقت لأنه قد نجح لفترة في الإفلات من ضباط العدالة، ولكن قُبِض عليه في النهاية في أثناء فراره، وقد قاومهم، مما تسبب في موت الشخص الذي أوشى به -الذي كانت أعماله كلها معروفة له- سواء عن عمدٍ أو عن غير عمد. والعقوبة المقررة لعودته إلى البلاد التي نُفي منها هي الموت، وحالته هذه هي الحالة المشددة، وعليه أن يُعد نفسه للموت.

كانت الشمس تضرب نوافذ المحكمة الكبيرة، من خلال قطرات المطر المتلألئة على الزجاج، وصنعت شعاعاً واسعاً من الضوء بين الثانية والثلاثين سجيناً والقاضي، ربط بينهم، وربما مذكراً البعض بين الحضور كيف أنهم جميعاً سوف ينتقلون، بمساواة مطلقة، يوم الحساب حيث يعلم الله كل شيء، وهو العدل الحكم. نهض السجين للحظة، وعلى وجهه علامة مميزة في هذا الضوء، وقال: «يا سيدي، لقد تلقيت حكم الموت من الله تعالى، ولكنني أذعن لحكمك»، وجلس مرة أخرى. كان هناك بعض الصمت، وتابع القاضي ما كان يريد قوله للبقية. ثم حُكم عليهم جميعاً رسمياً بالموت، وسُند بعضهم للخارج، وخرج بعضهم متسكعاً بنظرة شجاعة مضنية، وأوماً عدد قليل منهم إلى من في القاعة، وتصافح اثنان أو ثلاثة، وخرج آخرون وهم يمضغون بقايا نباتات أخذوها من النباتات العطرية المتناثرة حولهم. كان هو آخر من يذهب، لأنه كان في حاجة إلى المساعدة للقيام من كرسيه، والتحرك ببطء شديد؛ وأمسك بيدي بينما أُخرج الآخرون، وبينما كان الجمهور ينهض (يعدلون

هندامهم، كما يحدث في الكنيسة أو في أي مكان آخر)، ويشيرون إلى هذا المجرم أو ذاك، والأغلبية يشيرون إلينا أنا وهو.

كنت أمل بشدة وأدعو الله أن يموت قبل صدور محضر القاضي الابتدائي؛ ولكن، في ظل الخوف من بقاءه، بدأت في تلك الليلة في كتابة التماس إلى وزير الداخلية، موضحاً معرفتي به، وكيف أنه عاد من أجلي أنا. كتبت بأقصى قدرٍ ممكن من الحماس والشفقة؛ وعندما انتهيت منه وأرسلته، كتبت التماسات أخرى إلى رجال في السلطة والذين كنت أتمنى أن يكونوا الأكثر رحمة، وأرسلت واحدة إلى الملك نفسه. لعدة أيام وليالٍ بعد الحكم عليه، لم أخطُ بأي راحة إلا عندما كنت أنام على كرسي، ولكني كنت منشغلاً تمامًا بهذه الالتماسات. وبعد أن أرسلتها، لم أتمكن من الابتعاد عن الأماكن حيث أرسلتها، وشعرت كأنها أكثر أملاً وأقل يأساً عندما كنت بالقرب منها. في ظل هذا الألم النفسي والقلق غير المعقول، كنت أتجول في الشوارع في المساء، وأتجول في تلك المكاتب والمنازل التي تركت فيها الالتماسات. حتى الآن، تظل شوارع لندن الغربية المضجرة في ليلة ربيعية باردة ومغبرة، بسلاسل منازلها العابسة والمغلقة، وصفوفها الطويلة من المصابيح، تبث فيّ الشجن بسبب ارتباطها بذلك الوقت.

صارت الزيارات اليومية التي كنت أقوم بها وجيزة، وتم التحفظ عليه بشكل أكثر صرامة. إذا رأيت، أو تخيلت، أي اشتباه في نقلي للسلم إليه، طلبت أن أفتش قبل أن أجلس بجانب فراشه، وأخبرت الضابط الذي كان هناك دائماً، أنني على استعداد لفعل أي شيء من شأنه أن يضمن له حسن نواياي. لم يكن أحد قاسياً معه أو معي. كان هناك واجب يجب القيام به،

وقد تم القيام به، ولكن ليس بقسوة. كان الضابط يؤكد لي دائمًا أنه أسوأ حالًا، كما أن بعض السجناء المرضى الآخرين في الغرفة أعطوني دائمًا نفس التقرير، وكذلك بعض السجناء الآخرين الذين كانوا يعتنون بهم كممرضين، (جناة ولكنهم رحيمون، والحمد لله!).

ومع مرور الأيام، لاحظت أكثر فأكثر أنه كان يرقد بهدوء، وينظر إلى السقف الأبيض، مع غياب الإشراق من وجهه حتى يبتهج بسبب كلمة مني للحظة، ثم يهدأ مرة أخرى. في بعض الأحيان كاد يكون غير قادر على الكلام، أو يعجز عنه تمامًا، ثم كان يجيبني بضغوطات خفيفة على يدي، وصرت أفهم قصده حق الفهم.

وقد ارتفع عدد الأيام إلى عشرة، حين رأيت فيه تغيرًا أعظم مما رأيته من قبل. كانت عيناه متجهتين نحو الباب، ولمعتا عندما دخلت. قال بينما جلست بجوار فراشه: يا ولدي العزيز، ظننت أنك تأخرت. لكنني علمت أنك لا يمكن أن تتأخر.

قلت: انتظرت فقط حتى يحين الوقت عند البوابة.

- أنت تنتظر دائمًا عند البوابة؛ أليس كذلك يا ولدي العزيز؟

- نعم. لكي لا نضيع لحظة من الزمن.

- شكرًا يا ولدي العزيز، شكرًا. رحمك الله! أنت لم تتركني قط يا ولدي العزيز.

ضغطت على يده في صمت، لأنني لم أستطع أن أنسى أنني قصدت ذات مرة أن أهجره.

قال: وأفضل ما في الأمر أنك كنت أكثر ارتياحًا معي، منذ أن صرت

تحت هذه السحابة الداكنة، مما كنت عليه عندما كانت الشمس مشرقة.
هذا أفضل من كل شيء.

كان مستلقياً على ظهره، ويتنفس بصعوبة كبيرة. ورغم كل ما فعله،
ورغم حبه لي، غادر الضوء وجهه مرارًا وتكرارًا، وظهرت غشاوة فوق
النظرة الهادئة للسقف الأبيض.

- هل تشعر بألم شديد اليوم؟

- أنا لا أشكو من أي شيء يا ولدي العزيز.

- أنت لا تشكو أبدًا.

حين نطق تلك الكلمات، ابتسم، وفهمت أن لمستته تعني أنه يرغب
في رفع يدي ووضعها على صدره. وضعتها هناك، فابتسم مرة أخرى،
ووضع يديه عليها.

انتهى الوقت المخصص لنا، ونحن على هذا النحو؛ ولكنني نظرت
حولتي، فوجدت مدير السجن واقفًا بالقرب مني، وهمس لي: «ليس
عليك الذهاب بعد» شكرته بامتنانٍ، وسألته: هل أستطيع أن أتحدث معه
إذا كان يسمعني؟

تنحى المدير جانبًا، وألمح للضابط أن يبتعد. على الرغم من أن هذا
التغيير حدث دون ضجيج، إلا أنه أبعد الغشاوة عن النظرة الهادئة إلى
السقف الأبيض، ونظر إليّ بمودة شديدة.

- عزيزي ماجويتش، يجب أن أخبرك الآن، أخيرًا. هل تفهم ما أقول؟
ضغطة رقيقة على يدي.

- كان لديك طفلة أحببتها وفقدتها.

ضغطة أقوى على يدي.

- لقد عاشت ووجدت أصدقاء ذوي نفوذ. إنها حية الآن، وهي سيدة راقية وجميلة جدًا، وأنا أحبها!

وبمحاولة أخيرة خافتة، لم تكن لتنجح لولا استسلامي لها ومساعدتي لها، رفع يدي إلى شفثيه. ثم تركها برفقٍ على صدره مرة أخرى، واضعًا يديه عليها. عادت النظرة الهادئة إلى السقف الأبيض، ثم فنت، وسقط رأسه بهدوء على صدره.

متذكرًا ما قرأناه معًا، فكرت في الرجلين اللذين صعدا إلى الكنيسة للصلاة^(١)، وعلمت أنه لا توجد كلمات أفضل يمكنني أن أقولها بجانب فراشه من «اللهم ارحمه فهو خاطيء!».

(١) لوقا ١٨ : ٩-١٤. المترجم.

الفصل السابع والخمسون

والآن بعد أن صرت وحيداً تماماً، أبلغت بِنَيْتِي مغادرة الغرف في تمبل بمجرد انتهاء فترة إيجاري بشكلٍ قانوني، وأنني في هذه الأثناء سأؤجرها من الباطن. وعلى الفور قمت بوضع الإعلانات على النوافذ؛ لأنني كنت غارقاً في الدين، وبالكاد كان لديّ أي أموال، وبدأت أشعر بالقلق الشديد بشأن أحوالي. كان من الأفضل أن أكتب أنني كنت سأشعر بالقلق لو كان لديّ ما يكفي من الطاقة والتركيز لمساعدتي في الإدراك الواضح لأي حقيقة بخلاف حقيقة أنني كنت أمرض بشدة. لقد مكّنتني الضغط النفسي الذي أصابني مؤخراً من تأجيل المرض، ولكن ليس التخلص منه؛ كنت أعرف أنني كنت على وشك المرض الآن، ولم أكن أعرف سوى القليل إلى جانب عن ذلك، وكنت حتى مهملاً في هذا الشأن.

لمدة يوم أو يومين، استلقيت على الأريكة، أو على الأرض، أو في أي مكان، كلما بدأت في الانهيار، برأسٍ ثقيل وأطرافٍ تؤلمني، بلا هدفٍ، ولا قوة. ثم جاءت ليلة طويلة للغاية، مليئة بالقلق والرعب؛ وعندما حاولت في الصباح الجلوس في فراشي والتفكير في الأمر، وجدنتني عاجزاً عن القيام بذلك.

سواء كنت بالفعل قد نزلت إلى جاردن كورت في منتصف الليل، أتلمس طريقي بحثاً عن القارب الذي افترضت أنه هناك؛ سواء كنت قد

عدت لرشدي عند السلم مرتين أو ثلاثًا وأنا أشعر برعبٍ شديدٍ، دون أن أعرف كيف نهضت من الفراش؛ هل وجدت نفسي أشعل المصباح، مهووسًا بفكرة أنه كان يصعد الدرج، وأن الأضواء انطفأت؛ ما إذا كنت قد تعرضت لمضايقات لا توصف بسبب الحديث المشتت والضحك والأتين من شخصٍ ما، وكنت أشك في أن هذه الأصوات صدرت مني أنا؛ سواء كان هناك فرن حديدي مغلق في زاوية مظلمة من الغرفة، وكان هناك صوت ينادي مرارًا وتكرارًا بأن الأنسة هافيشام كانت تحترق داخله، كانت هذه هي الأشياء التي حاولت تسويتها وتنظيمها مع نفسي، بينما كنت مستلقيًا في فراشي ذلك الصباح. لكن دخان الجيارة كان يحول بيني وبينها، مما أدى إلى التشويش عليها جميعًا، ومن خلال الدخان أخيرًا رأيت رجلين ينظران إليّ.

سألت مجفلاً: ماذا تريدان؟ أنا لا أعرفكما.

أجاب أحدهما وهو ينحني ويلمسني على كتفي: حسنًا يا سيدي، هذا أمر سوف تتدبره قريبًا، على ما أعتقد، لكنك موقوف.

- ما هو الدين؟

- مائة وثلاثة وعشرون جنيهاً، وخمسة عشر شلنًا، وستة بنسات. حساب الصائع، على ما أعتقد.

- ما الذي يجب عمله؟

قال الرجل: من الأفضل أن تأتي إلى منزلي. لديّ منزل جميل جدًا.

قمت ببعض المحاولات للنهوض وارتداء ملابسني بنفسي. عندما التفّت إليهم من جديد، كانا يقفان بعيدًا عن الفراش وينظران إليّ، كنت لا أزال مستلقيًا هناك.

فقلت: أنتما تريان حالي. سأذهب معكما إن استطعت؛ ولكن في الواقع أنا غير قادر تمامًا. إذا أخذتُماني من هنا، أعتقد أنني سأموت في أثناء الرحلة.

ربما أجباني، أو جادلاني، أو حاولا تشجيعي على الاعتقاد بأنني أفضل مما كنت أعتقد. وبما أنهما معلقان في ذاكرتي بهذا الخيط الرفيع فقط، فلا أعرف ماذا فعلتا، باستثناء أنهما امتنعا عن محاولة إخراجي.

من خلال ذاكرتي لما حدث وإدراكي به إلى حدٍّ ما وقتها، أعلم أنني أصبت بالحمى وصمدت، وأنني عانيت كثيرًا، وكثيرًا ما فقدت عقلي، وأن الوقت بدا لا نهاية له، وأنني خلطت بين وجودي وأشياء أخرى مستحيلة؛ فشعرت كأنني طوبة في حائط المنزل، أتوسل للتحرر من المكان المسبَّب للدوار الذي وضعني فيه البناؤون؛ وأنني كنت عارضة فولاذية لمحرك ضخم، يتصادم ويدور فوق الخليج، متوسلاً نفسي كي توقف المحرك وتزيحني من المكان الذي طُرقت داخله؛ أعلم أنني مررت بكل مراحل المرض هذه. أعلم أيضًا أنني في ذلك الوقت كنت أتصارع أحيانًا مع أناس حقيقيين، معتقداً أنهم قتلة، ثم أدرك في الحال أنهم يقصدون لي الخير، ثم أقع بعد ذلك من الإعياء في أذرعهم، وأحملهم مشقة وضعي في الفراش. ولكن، قبل كل شيء، كنت أعلم أن هناك ميلاً ثابتاً لدى كل هؤلاء الأشخاص -الذين عندما كنت في شدة مرضي، أجدهم يمرون بتحويلات خارقة في الشكل، ويصير حجمهم أكبر- أعني أنهم بالأخص، كان لديهم نزعة غير عادية، سواء عاجلاً أو آجلاً، للاستقرار في هيئة جو. بعد أن اجتزت أسوأ مرحلة في مرضي، بدأت ألاحظ أنه على الرغم من أن جميع ميزاته الأخرى تغيرت، فإن هذه الميزة الثابتة لم تتغير.

أيًا كان من جاء من حولي، فقد أخذ هيئة جو. فتحت عيني في الليل، ورأيت جو، على الكرسي الكبير بجانب الفراش. فتحت عيني في النهار، وجدت جو يجلس على مقعد النافذة، ويدخن غليونه في النافذة المظلمة المفتوحة. طلبت مشروبًا باردًا، وكانت اليد العزيزة التي أعطتني إياه هي يد جو. رجعت إلى وسادتي بعد الشرب، وكان الوجه الذي ظهر لي بأملٍ وحنانٍ هو وجه جو.

أخيرًا، في أحد الأيام، استجمعت شجاعتي وقلت: هل هذا جو؟ وأجاب الصوت المنزلي العزيز القديم: إنه هو أيها الصديق القديم. - يا جو، أنت تكسر قلبي! يجب أن تكون غاضبًا مني، يا جو. اضربني يا جو. أخبرني عن جحودي. لا تكن طيبًا معي! لأن جو قد وضع رأسه على الوسادة بجانبني، ووضع ذراعه حول رقبتني، من شدة سعادته بإدراكي له.

قال جو: يا عزيزي بيب، أيها الصديق القديم، أنت وأنا طالما كنا أصدقاء. وعندما تصبح في صحة جيدة بما يكفي للخروج في جولة، سنقضي أسعد الأوقات!

وبعد ذلك، انسحب جو إلى النافذة، ووقف وظهره نحوي، وهو يمسح عينيه. وإذ منعني ضعفي الشديد من النهوض والذهاب إليه، استلقيت هناك هامسًا نادمًا: اللهم باركه! بارك الله في هذا الرجل العطوف النبيل!

كانت عينا جو حمراوين عندما وجدته بعدها بجواري؛ لكنني كنت أمسك بيده، وشعر كلانا بالسعادة.

- كم مضى من الوقت يا عزيزي جو؟

- ما الذي كنت تقصده يا بيب، كم استمر مرضك أيها الصديق القديم العزيز؟

- نعم يا جو.

- إنها نهاية شهر مايو يا بيب^(١). غدًا هو الأول من يونيو.

- وهل كنت هنا طوال هذا الوقت يا عزيزي جو؟

- تقريبًا أيها الصديق القديم. لأنه، كما قلت لبيدي، عندما وصلت أخبار مرضك عن طريق ساعي البريد، وكونه أعزب سابقًا، فهو الآن متزوج على الرغم من أنه يتقاضى أجرًا زهيدًا مقابل كل هذا المشي وكل جلد الحذاء هذا، لكن الثروة لا تعني له شيئًا، وكان الزواج هو الرغبة الكبرى لقلبه...

- إنه لمن دواعي سروري أن أسمعك تتحدث يا جو! لكنني أقطعك لأسألك عما قلته لبيدي.

قال جو: «قلت لها، كيف يمكن أن تكون بين الغرباء، وأنت وأنا طالما كنا أصدقاء، لذا الزيارة في مثل هذه اللحظة قد تكون مقبولة. وكانت كلمات بيدي: اذهب إليه دون إضاعة أي وقت.» قال جو، وهو يلخص ما حدث بأسلوبه الصحفي: «هذه كانت كلمات بيدي: اذهب إليه دون إضاعة أي وقت.» وأضاف جو، بعد قليل من التفكير العميق: «باختصار، لا ينبغي لي أن أخدعك كثيرًا، إذا أوضحت لك أن كلمات تلك المرأة الشابة كانت: دون تضييع دقيقة واحدة.»

هكذا أوجز جو، وأخبرني أنه يجب عليه التحدث معي باعتدالٍ شديدٍ،

(١) قرابة الشهرين. المترجم.

وأنتني سأتناول القليل من الطعام في أوقات محددة، سواء شعرت بالرغبة في ذلك أم لا، وأنتني يجب أن أخضع لجميع أوامره. لذلك قبّلت يده، والتزمت الصمت، بينما شرع هو في كتابة رسالة إلى بيدي، مرسلاً إليها حبي.

من الواضح أن بيدي قد علّمت جو الكتابة. وبينما كنت مستلقياً على الفراش أنظر إليه، جعلني ذلك، في حالتي الضعيفة، أبكي مرة أخرى بسرور لرؤية الفخر الذي شرع به في كتابة رسالته. نُقِل فراشي، الذي نُزعت ستائره، وأنا عليه، إلى غرفة الجلوس، باعتبارها الغرفة الأكبر والأفضل تهوية، ورُفعت السجادة، وظلت الغرفة منعشة وصحية ليلاً ونهاراً. على طاولة الكتابة الخاصة بي، المنحشرة في الزاوية والمثقلة بالزجاجات الصغيرة، جلس جو الآن يعكف على عمله الرائع، واختار أولاً قلمًا من صينية الأقلام كما لو كان صندوق أدوات كبير، ثم رفع أكمامه كما لو كان سيستخدم قضيباً أو مطرقة ثقيلة. كان من الضروري أن يتمسك جو بقوة بالطاولة بمرفقه الأيسر، وأن يمد ساقه اليمنى خلفه، قبل أن يتمكن من البدء؛ وعندما بدأ، كان يقوم بكل ضربة للأسفل ببطء شديد كأن طولها كان ست أقدام، بينما كنت أسمع صوت قلمه يصدر صوتاً شديداً عند كل حركة للأعلى. كانت لديه فكرة غريبة مفادها أن المحبرة كانت على جانبه رغم أنها لم تكن هناك، وظل يغمس قلمه في الفراغ، ويبدو راضياً تماماً عن النتيجة. في بعض الأحيان، كان يواجه بعض العثرات الإملائية؛ ولكن على العموم كان تعامله جيداً بالفعل؛ وبعد أن وقّع باسمه، أزال بقعة من أسفل الورقة إلى قمة رأسه بسبابتيه، ثم نهض وهو يحوم حول الطاولة، حيث وضعت الرسالة، محاولاً تجربة تأثير أدائه من وجهات نظر مختلفة، برضاء لا حدود له.

ولكي لا أزعج جو بالحديث كثيرًا، حتى لو كنت قادرًا على التحدث كثيرًا، فقد أجَلت سؤاله عن الأنسة هافيشام حتى اليوم التالي. هز رأسه عندما سأَلته بعد ذلك إذا كانت قد تعافت.

- هل ماتت يا جو؟

قال جو بنبرة اعتراض، محاولًا نقل الخبر تدريجيًا: حسنًا، أيها الصديق القديم، لن أذهب إلى حد قول ذلك، فهو ليس قولًا هينًا؛ لكنها ليست...

- على قيد الحياة يا جو؟

قال جو: هذا قول أفضل. إنها ليست على قيد الحياة.

- هل عانت طويلًا يا جو؟

قال جو: «بعدما مرضت أنت، يمكنك أن تقول (إذا تم حساب الأمر)، بنحو أسبوع». وما زال مصممًا، من أجل خاطري، على جلب الأمر تدريجيًا.

- عزيزي جو، هل سمعت ما حدث لممتلكاتها؟

قال جو: «حسنًا أيها الصديق القديم، يبدو أنها قد كرّست معظمها، ما أقصده أنها وثّقتها باسم الأنسة إستيلا. لكنها كتبت بيدها ملحقةً صغيرًا قبل يوم أو يومين من وقوع الحادث، تاركةً مبلغًا رائعًا قدره أربعة آلاف للسيد ماثيو بوكيت. ولماذا، في رأيك، قبل كل شيء، تركت له تلك الأربعة آلاف الرائعة؟ بسبب ما نقله بيب عن المذكور ماثيو». قال جو، مكرّرًا بطريقته الحكيمة كما لو كان ذلك يعود عليه بمنفعة لا حصر لها: لقد أخبرني بيدي بأن هذا ما تمت كتابته، ما تم نقله عن المذكور ماثيو وأربعة آلاف رائعة يا بيب!

لم أكتشف قطُ ممن استمد جو روعة الأربعة آلاف جنيه؛ ولكن بدا أنه يجعل المبلغ أضخم بالنسبة إليه، وكان لديه متعة واضحة في الإصرار على كونه مبلغًا رائعًا.

لقد منحني هذا الخبر فرحة عظيمة، لأنه أكمل الشيء الصالح الوحيد الذي قمت به. سألت جو إن كان قد سمع ما إذا كان أي من الأقارب الآخرين حصل على إرث؟

قال جو: الآنسة سارة، حصلت على خمسة وعشرين جنيهًا سنويًا لشراء الدواء، بسبب إصابتها بالصفراء، الآنسة جورجيانا، حصلت على عشرين جنيهًا، السيدة - ما اسم الحيوان ذي السنم، أيها الصديق القديم؟ «كاملز؟» قلت، وأنا أتساءل لماذا ربما يريد أن يعرف.

أوماً جو قائلاً: «السيدة كاملز»، وفهمت على الفور أنه يقصد كاميلا، «حصلت على خمسة جنيهات لشراء الشموع لرفع معنوياتها عندما تستيقظ في الليل».

كانت دقة هذه السرديات واضحة بما يكفي بالنسبة إليّ، مما منحني ثقة كبيرة في معلومات جو. قال جو: والآن، أنت لست قويًا بعد، أيها الصديق القديم، لذلك خبر واحد إضافي سيكون كافياً لليوم. تم القبض على أورليك العجوز وهو يسرق منزلاً.

سألت: منزل من؟

قال جو بطريقة اعتذارية: لشخص، أؤكد لك أنه متبجح. ومع ذلك، فمَنْزل الرجل الإنجليزي هو قلعته، ولا يجوز اقتحام القلاع إلا في زمن الحرب. مهما كانت عيوبه، فقد كان تاجرًا للذرة والغلال في صميم قلبه.

- هل تم اقتحام منزل باميلتشوك إذن؟

قال جو: هو بالفعل يا بيب؛ نهبوا درج خزنته، وأخذوا صندوق أمواله، وشربوا خمره، وأكلوا طعامه، ولطموا وجهه، وشدوا أنفه، وربطوه إلى عمود سريره، وانهالوا عليه ضربًا، وحشوا فمه بالنباتات المزهرة لمنع صراخه. لكنه تعرّف على أورليك، وأورليك الآن في سجن المقاطعة. من خلال هذه الموضوعات، لم نتوقف قط في حديثنا. استعدت قوتي ببطء، لكن بثباتٍ، وبقي جو إلى جانبي، وتخيلت أنني بيب الصغير مرة أخرى.

كان حنان جو متناسبًا بشكلٍ جميلٍ مع حاجتي، إلى درجة أنني صرت مثل الطفل بين يديه. كان يجلس ويتحدث معي بالثقة القديمة، وبالبساطة القديمة، وبحمائته القديمة الخجولة، حتى أنني كدت أومن بأن حياتي كلها منذ أيام المطبخ القديم كانت واحدة من الاضطرابات العقلية الناجمة عن الحمى التي ولّت. كان يفعل كل شيء من أجلي باستثناء الأعمال المنزلية، التي كلف بها امرأة لطيفة للغاية، بعد أن دفع ثمن الغسالة عند وصوله لأول مرة. «وهذا ما أوكدك لك يا بيب»، كان كثيرًا ما يقول، شرخًا لفعله هذا؛ «لقد وجدتها تثقب السرير الإضافي، مثل برمبل جعة، وتنزع الريش وتضعه في دلوٍ للبيع. كانت ستثقب سريرك بعد ذلك، وتسحب منه الريش وأنت فيه، ثم كانت ستحمل الفحم تدريجيًا في وعاء الحساء وأطباق الخضراوات، والنبيد والمشروبات الروحية في حذاء المطر الخاص بك».

كنا نتطلع إلى اليوم الذي سنخرج فيه في جولة، كما كنا نتطلع ذات مرة إلى يوم تدريبي المهني. وعندما جاء اليوم، ودخلت عربة مفتوحة إلى الزقاق، لفّني جو، وأخذني بين ذراعيه، وحملني إليها، وأجلسني فيها،

كأنني ما زلت ذلك المخلوق الصغير العاجز الذي طالما أغدق عليه من
ثروة طبيعته العظيمة.

وركب جو بجاني، وانطلقنا معاً إلى الريف، حيث كانت أيادي
الصيف الغني موجودة بالفعل على الأشجار وفي العشب، وكانت روائح
الصيف الحلوة تملأ الهواء كله. وصادف أن اليوم كان الأحد، وعندما
نظرت إلى الجمال من حولي، وفكرت كيف نما وتغير، وكيف تشكلت
الزهور البرية الصغيرة، وعلت أصوات الطيور، ليلاً ونهاراً، تحت الشمس
وتحت النجوم، بينما كنت مسكيناً، مستلقياً محمومًا أثقلب على فراشي،
مجرد ذكرى الحمى والتقلب هناك كانت كافية لتعكير صفوي. ولكنني
عندما سمعت أجراس الأحد، ونظرت حولي قليلاً إلى الجمال المنتشر،
شعرت أنني لم أكن ممتناً بما فيه الكفاية، وأني كنت أضعف من أن أكون
كذلك، ووضعت رأسي على كتف جو. كما فعلت منذ فترة طويلة عندما
كان يصطحبني إلى الكرنفال أو إلى مكان آخر، وكان أكثر من أن تحتمله
حواسي الصغيرة.

بعد فترة، صرت أكثر هدوءاً، وتحديثنا كسابق عهدنا، عندما كنا
نستلقي على العشب عند بطارية المدفعية القديمة. لم يتغير جو على
الإطلاق. ما زال في عيني مثلما كان في عيني حينها، تماماً كما هو
مخلص، وبساطة على أكمل وجه.

وعندما عدنا مرة أخرى، ورفعني إلى الخارج، وحملني -بكل
سهولة!- عبر الفناء وصعوداً على الدرج، فكرت في يوم عيد الميلاد
الحافل بالأحداث عندما حملني فوق المستنقعات. لم نقم بعد بأي تلميح
إلى تغير حظي، ولم أكن أعرف مقدار ما كان يعرفه مما حدث لي مؤخراً.

لقد كنت متشككًا جدًّا في نفسي الآن، وأضع ثقتي فيه كثيرًا، إلى درجة أنني لم أستطع إقناع نفسي بما إذا كان ينبغي لي الإشارة إلى الأمر عندما لم يفعل هو ذلك.

سألته ذلك المساء بعد مزيد من التفكير وهو يدخن غليونه عند النافذة: هل سمعت يا جو، من كان ولي نعمتي؟

أجاب جو: لقد سمعت، حيث إنها لم تكن الآنسة هافيشام، أيها الصديق القديم.

- هل سمعت من هو يا جو؟

- حسنًا! لقد سمعت أنه الشخص الذي أرسل من أعطاك الأوراق النقدية في حانة جولي بارجمن، يا بيب.

- هو بالفعل.

«مذهل!» قال جو بطريقة هادئة.

«هل سمعت أنه مات يا جو؟» سأله سريعًا، مع زيادة الثقة.

- أي منهم؟ من أرسل الأوراق النقدية يا بيب؟
- نعم.

قال جو بعد التأمل لفترة طويلة والنظر بتهرب إلى المقعد المجاور للنافذة: أعتقد أنني سمعت شيئًا أو آخر بشكل عام في هذا الاتجاه.

- هل سمعت شيئًا عن حقيقته يا جو؟

- ليس بالتفصيل، يا بيب.

«إذا أردت أن تسمع يا جو...» كنت في بداية حديثي، عندما نهض جو وجاء إلى أريكتي.

قال جو وهو ينحني فوقى: انظر هنا أيها الصديق القديم، طالما كنا أفضل الأصدقاء؛ أليس كذلك يا بيب؟
لقد خجلت من الرد عليه.

قال جو كأنني أجبت: حسنًا جدًا إذن. لا بأس؛ هذا متفق عليه. إذن، لم الخوض في موضوعات، أيها الصديق القديم، غير ضرورية بالمرة ما بين اثنين مثلنا؟ هناك أشياء كافية بيننا، ولا نحتاج إلى الخوض في موضوعات غير ضرورية. يا إلهي! مجرد التفكير في أختك المسكينة وهيجانها! ألا تتذكر النغازة؟
- أتذكر بالتأكيد يا جو.

قال جو: «انظر هنا أيها الصديق القديم. لقد فعلت ما في وسعي لإبعادك عن النغازة، لكن سلطتي لم تكن دائمًا مساوية تمامًا لرغبتى». قال جو، بطريقته الجدلية المفضلة لديه: «عندما كانت أختك المسكينة تفكر في إنزال العقاب بك، فهي لم تكن تنزل عليّ بالعقاب أيضًا إذا وقفت في صفك، بل أنها كانت تزيد من عقابها لك. وقد لاحظت ذلك. بالإمساك بشارب الرجل، أو حصوله على هزة أو اثنتين (وهو الأمر الذي كانت أختك ترحب به كثيرًا)، ليس من شأنه أن يمنع الرجل من حماية طفل صغير من العقاب. ولكن عندما يتم إنزال عقاب أشد على هذا الطفل الصغير بسبب تلك الحركة أو الهزة، عندها يقوم ذلك الرجل بشكل طبيعي ويقول لنفسه أين المنفعة فيما تفعله؟ يقول الرجل: أضمن لك أنني أرى الضرر، لكنني لا أرى المنفعة. أدعوك يا سيدي أن تدلني على المنفعة في ذلك».

«الرجل يقول؟» علقت، بينما كان جو ينتظرني أن أتكلم. «يقول الرجل» وافق جو. «هل هو محق، هذا الرجل؟».

- عزيزي جو، إنه دائماً محق.

قال جو: «حسناً أيها الصديق القديم، التزم بكلماتك. إذا كان دائماً محقاً (وهو على الأرجح مخطئ بشكل عام)، فهو محق عندما يقول هذا: لنفترض أنك احتفظت بأي أمر صغير لنفسك، عندما كنت طفلاً صغيراً، فإنك تحتفظ به في الغالب لأنك تعرف أن جو جار جيري لم تكن له القدرة على أن يحول بينك وبين النغازة لأن سلطته لم تكن دائماً مساوية تماماً لرغبته. لذلك، لا تفكر في الأمر على أنه أكثر مما حدث بين اثنين مثلاً، ولا تدعنا نتحدث في أمور غير ضرورية. لقد جلبت بيدي لنفسها قدرًا كبيراً من المتاعب بسببي قبل أن أغادر (لأنني ثقيل الفهم للغاية)، لأنني أرى الأمور في هذا الضوء، وبما أنني أرى الأمور في هذا الضوء، فينبغي لي أن أعبر عنها كذلك.» قال جو وقد انبهر تماماً بترتيبه المنطقي: «بخصوص ما حدث، أقول لك هذا بصفتي صديقاً حقيقياً. أقول لك ألا تبذل جهداً كبيراً في التفكير فيما حدث، بل يجب أن تتناول عشاءك وخمرك وماءك، ويجب أن توضع بين الملاءات».

إن الرقة التي رفض بها جو الخوض في الموضوع، واللباقة البارة والالطف اللذان أعدته بهما بيدي -التي استشفنتني بذكائها الأنثوي في وقت مبكر جداً- قد تركت انطباعاً عميقاً في ذهني. لكنني لم أستطع أن أتبين ما إذا كان جو يعرف مدى فقري، وكيف تبددت آمالي العظيمة، كما تبدد الشمس ضباب المستنقعات.

شيء آخر في جو لم أتمكن من فهمه عندما بدأ في الظهور لأول مرة، ولكنني سرعان ما وصلت إلى فهم مؤسف له، وهو: عندما أصبحت أقوى وأفضل، أصبح جو أقل سلاسة معي. وفي ظل ضعفي واعتمادي

الكامل عليه، عاد هذا الرجل العزيز إلى النعمة القديمة، ودعاني بالأسماء القديمة المحببة إلى قلبي «بيب القديم، الصديق القديم»، التي أصبحت الآن كالموسيقى في أذني. عدت أنا أيضًا إلى طريقي القديمة، وكنت سعيدًا وشاكراً لأنه سمح لي بذلك. ولكن، على نحوٍ غير ملحوظ، على الرغم من أنني تمسكت بهم بسرعة، بدأت قبضة جو عليهم ترتخي؛ وبينما كنت أتعجب من ذلك، في البداية، سرعان ما بدأت أفهم أن السبب كان داخلي، وأن الخطأ كله كان خطئي أنا.

آه! لو لم أعطِ جو أي سبب للشك في إخلاصي، والتفكير في أنه في حالة الرخاء يجب أن أنبذه وأشعر بالبرود تجاهه؟ لو لم أعطِ قلب جو البريء سببًا ليشعر غريزيًا أنني كلما أصبحت أقوى، ستصبح قبضته عليّ أضعف، وأنه من الأفضل أن يرخيها في الوقت المناسب ويطلق سراحني، قبل أن أسحب نفسي بعيدًا؟

وفي المرة الثالثة أو الرابعة التي خرجت فيها للمشى في حدائق تمبل متكئًا على ذراع جو، رأيت هذا التغيير فيه بوضوح شديد. كنا نجلس في ضوء الشمس الدافئ الساطع، وننظر إلى النهر، وصادف أن قلت عندما نهضنا:

– انظر يا جو! أستطيع المشي بقوة. الآن، سوف تراني أعود وحدي.

قال جو: لا تبالغ في الأمر يا بيب؛ ولكنني سأكون سعيدًا برؤية ذلك يا سيدي.

اقشعرّ بدني للكلمة الأخيرة؛ ولكن كيف يمكنني الاعتراض! لم أتقدم أبعد من بوابة الحدائق، ثم تظاهرت بأنني أضعف مما أنا عليه، وطلبت من جو ذراعه. أعطاهما جولي، لكنه كان مستغرقًا في التفكير.

أنا، من جهتي، كنت مستغرقًا في التفكير أيضًا؛ لأن أفضل طريقة

لوقف هذا التغير المتزايد في جو كانت بمنزلة لغز كبيرة لأفكاري النادمة. شعرت بالخجل من أن أخبره بالضبط عن وضعي، وما وصلت إليه، لا أسعى إلى إخفائه؛ ولكنني آمل ألا يكون ترددي في غير مكانه بالمرة. كنت أعلم أنه يريد مساعدتي من مدخراته الصغيرة، وأعلم أنه لا ينبغي له أن يساعدني، وأنني لا يجب أن أسمح له بذلك.

لقد كانت أمسية مليئة بالتفكير من كلا الطرفين. ولكن، قبل أن نذهب للنوم، قررت أن أنتظر غداً - غداً هو الأحد - وسأتابع أسلوباً جديداً مع الأسبوع الجديد. في صباح يوم الاثنين، سأحدث مع جو حول هذا التغير، وأضع هذا التحفظ الأخير جانباً، وأقول له ما كان يدور في ذهني (السبب الثاني الذي لم أسرده بعد) بخصوص أنني لم أقرر السفر إلى هربرت، ومن ثم سيتم التغلب على التغير إلى الأبد. ولما عدت إلى صفوي، عاد جو إلى صفوه، كأنه قد توصل إلى حل أيضاً تأييداً لي.

قضينا يوماً هادئاً يوم الأحد، وركبنا إلى الريف، ثم مشينا في الحقول. قلت: أشعر بالامتنان لأنني كنت مريضاً يا جو.

- عزيزي بيب القديم، أيها الصديق القديم، لقد تعافيت تقريباً يا سيدي.

- لقد كان وقتاً لا يُنسى بالنسبة إليّ يا جو.

أجاب جو: الأمر نفسه بالنسبة إليّ يا سيدي.

- لقد أمضينا وقتاً معاً يا جو، لا أستطيع أن أنساه أبداً. أعلم أنه كانت هناك أيام نسيته لبعض الوقت؛ ولكنني لن أنسى هذه الأيام أبداً.

قال جو، وقد بدا متعجلاً ومضطرباً بعض الشيء: بيب، لقد قضينا أسعد الأوقات معاً، وما حدث بيننا، يا سيدي العزيز، قد حدث.

في الليل، عندما ذهبت للنوم، جاء جو إلى غرفتي، كما فعل طوال فترة تعافِي. سألني إذا كنت متأكدًا من أنني كنت في خير حال كما كنت في الصباح.

- نعم، عزيزي جو، تمامًا.

- وهل ستكون دائمًا في تحسن دائم أيها الصديق القديم؟

- نعم، عزيزي جو، بثبات.

ربت جو على الغطاء فوق كتفي بيده العظيمة الطيبة، وقال بصوت مبحوح كما تبينت: «عمت مساءً!»

عندما استيقظت في الصباح، قويًا منتعشًا، كنت قد عقدت العزم على إخبار جو بكل شيء، دون تأخير. سأخبره قبل الإفطار. كنت أرتدي ملابسني فورًا كي أذهب إلى غرفته وأفاجئه؛ لأنه كان أول يوم أستيقظ فيه مبكرًا. ذهبت إلى غرفته ولم يكن هناك. وصندوقه أيضًا اختفى.

أسرعت بعد ذلك إلى طاولة الإفطار، ووجدت عليها رسالة. وهذه كانت محتوياته المختصرة:

«لا أرغب في التطفل، غادرت لأنك صرت بخير مرة أخرى يا عزيزي بيب وستكون أفضل من دون جو».

«ملحوظة: دومًا أفضل الأصدقاء».

مرفق بالرسالة إيصال بالديون والتكاليف التي تم إيقافي بسببها. حتى تلك اللحظة، كنت افترضت عبثًا أن الدائن قد انسحب أو أوقف الإجراءات حتى أتعافى تمامًا. لم أحلم قط بأن يكون جو قد دفع المال؛ لكن جو دفع المبلغ بالفعل، وكان الإيصال باسمه.

ما بقي لي الآن سوى أن أتبعه إلى دكان الحدادة القديم العزيز، لأبوح له بكل شيء، واعتراضي النادم على ما فعله، وأريح ذهني وقلبي من ثاني أسباب عدم سفري مع هربرت، الذي بدأ كشيء غامض عالق في أفكاري، وصار هدفًا راسخًا.

كان الهدف هو أن أذهب إلى بيدي، وأن أريها أنني عدت نائبًا خاشعًا، وأن أخبرها كيف فقدت كل ما تمنيته ذات يوم، وأن أذكرها بالعهود القديمة بيننا في حياتي التعيسة. ثم أقول لها: «بيدي، أعتقد أنك أحبتني للغاية ذات يوم، عندما كان قلبي الضال، حتى وهو يتعد عنك، أكثر هدوءًا وأفضل معك من أي وقت مضى. إذا كان في إمكانك أن تحبيني نصف هذا الحب مجددًا، إذا كان في إمكانك أن تقبليني بكل أخطائي وخيبات أمني، إذا كان في إمكانك أن تستقبليني كطفل مغفور له (وأنا بالفعل آسف يا بيدي، ولديّ نفس القدر من الحاجة إلى صوت هادئ ويد حنونة)، أتمنى أن أكون أكثر جدارة بك مما كنت عليه، ليس كثيرًا، ولكن قليلًا. وبا بيدي، الأمر متروك لك لتقرري ما إذا كنت سأعمل في دكان الحدادة مع جو، أو ما إذا كنت سأحاول القيام بأي مهنة مختلفة في هذا البلد، أو ما إذا كنا سنرحل معًا إلى مكان بعيد حيث تنتظرني فرصة كنت قد تركتها جانبًا عندما عرضت عليّ حتى أعرف جوابك. والآن يا عزيزتي بيدي، إذا كان في إمكانك أن تخبريني أنك ستمضي معي في هذا العالم، فمن المؤكد أنك ستجعلينه عالمًا أفضل بالنسبة إليّ، وسأكون رجلًا أفضل بسبب ذلك، وسأحاول جاهدًا أن أجعله عالمًا أفضل لك».

كان هذا هو هدفي، وبعد ثلاثة أيام أخرى من التعافي، نزلت إلى
موطني القديم لوضعه موضع التنفيذ. وما تبقى لي قوله هو كيف أسرعت
في تنفيذه.

الفصل الثامن والاربعسون

وصلت أنباء ثروتي الكبيرة التي تعرضت لانحدار شديد إلى مسقط رأسي والمناطق المجاورة قبل وصولي إلى هناك. لقد وجدت البلو بور على علم بالأمر، مما أحدث تغييرًا كبيرًا في سلوك العاملين بالفندق. في حين أن الفندق كان يشجع استحساني باجتهاد شديد عندما كانت لديّ ممتلكات، صار الفندق باردًا للغاية بشأن هذا الموضوع الآن بعد أن خسرت ممتلكاتي.

كان المساء عندما وصلت، وكنت متعبًا جدًا من الرحلة التي كنت أقوم بها بسهولة في كثير من الأحيان. لم يستطع الفندق أن يضعني في غرفة نومي المعتادة، التي كانت مشغولة (ربما عن طريق شخص لديه آمال)، ولم يكن في إمكانه إلا أن يخصص لي غرفة باردة للغاية وسط الحمام وعربات الخيل في الفناء. لكنني حظيت بنوم هادئ في هذه الغرفة كأني في أفضل غرفة كان من الممكن أن يقدمها لي الفندق، وكانت جودة أحلامي هناك مماثلة تقريبًا للأحلام في أفضل غرفة نوم.

في الصباح الباكر، بينما كان فطوري يجهز، كنت أتجول بالقرب من منزل ساتيس. كانت هناك لافتات مطبوعة على البوابة وعلى قطع من السجاد مدلاة من النوافذ، تعلن عن بيع الأثاث والمتاع المنزلي بالمزاد الأسبوعي المقبل. كان من المقرر بيع المنزل نفسه كخردة وهدمه. وُضعت

علامة «قسم ١» بأحرف بيضاء على مصنع الجعة؛ «قسم ٢» على ذلك الجزء من المبنى الرئيسي الذي ظل مغلقاً فترة طويلة. حُدِّدت أقسام أخرى على أجزاء أخرى من المبنى، وقُصَّ اللبلاّب لإفساح المجال للكتابة، وظل الكثير منه متدنياً في التراب وذبل بالفعل. دخلت للحظة عند البوابة المفتوحة، ونظرت حولي بمظهر مرتبك لشخص غريب ليس له أي عمل هناك، ورأيت كاتب المزاد يمشي فوق البراميل ويعددهم لجمع المعلومات اللازمة لتصنيفهم في الكتالوج والقلم في يده، وقد صنع مكتباً مؤقتاً له من الكرسي ذي العجلات الذي كنت أدفعه كثيراً على أنغام كليم العجوز.

عندما عدت لتناول وجبة الإفطار في مقهى الفندق، وجدت السيد بامبلتشوك يتحدث مع المالك. كان السيد بامبلتشوك (الذي لم يتحسن مظهره بسبب الحادث الليلي السابق ذكره) ينتظرنني، وخاطبني بالعبارات التالية:

«أيها الشاب، أنا آسف لرؤيتك وقد تدهورت أحوالك. ولكن ما الذي كنا نتوقعه! ما الذي كنا نتوقعه سوى هذا!».

وبينما كان يمد يده بأسلوب تسامح رائع، وبما أنني كنت مريضاً وغير مؤهل للشجار، صافحته.

قال السيد بامبلتشوك للنادل: «وليام، ضع كعكة المافن على الطاولة. وهل وصل الأمر إلى هذا الحد! هل وصل الأمر إلى هذا الحد!».

جلست عابساً لتناول الإفطار. وقف السيد بامبلتشوك فوق رأسي وسكب الشاي - قبل أن أتمكن من لمس إبريق الشاي - بمظهر ولي النعم الذي عقد العزم على أن يظل مخلصاً للنهاية.

قال السيد بامبلتشوك بحزن: «وليام، ضع الملح.» ثم قال يخاطبني:
«في الأوقات السعيدة الماضية، أعتقد أنك كنت تتناول السكر؟
والحليب؟ أنت فعلت. السكر والحليب. ويليام، أحضر الجرجير».

قلت بعد قليل: شكرًا لك، لكنني لا أكل الجرجير.
رد السيد بامبلتشوك: «لا تأكله»، وهو يتنهد ويهز رأسه عدة مرات،
كما لو كان يتوقع ذلك، وكما لو كان الامتناع عن تناول الجرجير يتوافق
مع تدهوري. «حقيقي. ثمار الأرض البسيطة. لا داعي لإحضار أي
جرجير يا ويليام».

واصلت تناول فطوري، وواصل السيد بامبلتشوك الوقوف فوق
رأسي، وهو يحرق بنظرة مريبة ويتنفس بصخب، كعادته.

«كأنه جلد على عظم!» فكر السيد بامبلتشوك بصوت عالٍ. «ومع
ذلك، عندما رحل من هنا (يمكنني أن أقول بمباركتي)، وفرشت له
متجري المتواضع، مثل النحلة، كان سمينًا مثل الخوخة!».

ذكرني هذا بالفرق المدهش بين الطريقة الذليلة التي مد بها يده
في ازدهاري قائلاً: «هل لي؟» والشفقة المتفاخرة التي مد بها للتو نفس
الأصابع الخمس البدينة.

ومضى يسلمني الخبز والزبدة قائلاً: هاه! وهل ستذهب إلى جوزيف؟
قلت بغضب رغماً عني: بحق السماء، ما شأنك إلى أين سأذهب؟
اترك إيريقي الشاي هذا وشأنه.

كان هذا أسوأ مسار يمكن أن أتخذه، لأنه أعطى بامبلتشوك الفرصة
التي أرادها.

قال: «نعم أيها الشاب»، وهو يحرر مقبض الإبريق، ويتعد خطوة أو خطوتين عن طاولتي، ويتحدث باسم المالك والنادل عند الباب، «سأترك إبريق الشاي هذا وشأنه. أنت محق أيها الشاب. لمرة واحدة أنت محق. لقد نسيت نفسي عندما اهتممت بإفطارك، متمنيًا أن ينتعش جسدك، المنهك من آثار الإسراف المضيئة، من خلال «الغذاء الصحي الخاص بأجدادك».» قال بامبلتشوك، وهو يستدير إلى المالك والنادل، ويشير إليّ من مسافة ذراع: «ومع ذلك، هذا هو كما كنت ألعب معه في أيام طفولته السعيدة! قولوا لي لا يمكن أن يكون هو؛ أقول لكم إنه هو بالفعل!».

غمغم الاثنان، كان النادل يبدو متأثرًا بشكل خاص.

قال بامبلتشوك: هذا هو، الذي أركبته في عربتي. وهذا هو الذي شهدت تربيته باليد. هذا هو الذي كنت عمًا لأخته بالزواج، حيث كان اسمها جورجيانا ماريا على اسم والدتها، فلينكر ذلك إن استطاع! بدا النادل مقتنعًا بأنني لا أستطيع إنكار ذلك، مما أعطى القضية مظهرًا مظلماً.

قال بامبلتشوك وهو يهز رأسه في وجهي بالطريقة القديمة: سألك أيها الشاب، إذا كنت ذاهبًا إلى جوزيف، تسألني، لم أهتم إلى أين تذهب؟ سأقول لك يا سيدي إذا كنت ذاهبًا إلى جوزيف.

سعل النادل، كأنه يدعوني بكل تواضع لتجاوز الأمر.

قال بامبلتشوك: «الآن»، وكل هذا بسخط شديد على أساس أن ما يقوله مقنعًا وحاسمًا تمامًا، «سأقول لك ما يجب أن تقوله لجوزيف. ها هو سكوايرز مالك البور موجود، ومعروف ومحترم في هذه المدينة، وهنا ويليام، الذي كان اسم والده بوتكينز إذا لم أخطئ.»

قال ويليام: بالفعل يا سيدي.

تابع بامبلتشوك قائلاً: في حضورهم، سأخبرك أيها الشاب بما ستقوله لجوزيف. تقول له يا جوزيف، لقد رأيت اليوم أول ولي نعمة لي ومؤسس ثروتي. لن أذكر أي أسماء يا جوزيف، ولكن هكذا يحبون أن ينادوه في المدينة، وقد رأيت ذلك الرجل.

قلت: أقسم إنني لا أراه هنا.

رد بامبلتشوك قائلاً: قل ذلك أيضًا. لنفترض أنك قلت ذلك، وحتى جوزيف سيتفاجأ.

قلت: لقد أخطأت في شأنه تمامًا. أنا أعرف أفضل من ذلك.

تابع بامبلتشوك: «تقول له، جوزيف، لقد رأيت ذلك الرجل، وهذا الرجل لا يضمرك أي حقد ولا يضمرك أي حقد. إنه يعرف طبيعتك يا جوزيف، ويعرف جيدًا عنادك وجهلك؛ وهو يعرف طبيعتي يا جوزيف، ويعرف افتقاري إلى الامتنان. نعم يا جوزيف». هز بامبلتشوك رأسه ويده في وجهي، «إنه يعرف افتقاري التام إلى الامتنان الإنساني المعتاد. إنه يعرف ذلك يا جوزيف، كما لا يعرفه أحد. أنت لا تعرف ذلك يا جوزيف، وليس لديك سبب لتعرفه، لكن هذا الرجل يعرفه».

على الرغم من أنه كان حمارًا عاصفًا، فقد أذهلني حقًا أن لديه الجرأة ليقول هذا في وجهي.

«تقول يا جوزيف، لقد أعطاني رسالة صغيرة، سأقولها لك الآن. أنه، في أثناء انحداري، رأى أن ذلك من فعل العناية الإلهية. لقد عرف ذلك عندما رآه يا جوزيف، ورآه واضحًا. وقد أشار إلى هذه العبارة يا جوزيف: إنها مكافأة الجحود إلى أول ولي نعمة له، ومؤسس ثروته. لكن ذلك

الرجل قال إنه لا يندم عما فعله يا جوزيف. مُطْلَقًا. لقد كان من الصواب أن يفعل ذلك، وكان من اللطيف أن يفعل ذلك، وكان من الخير أن يفعل ذلك، وهو خليق بأن يفعل ذلك مرة أخرى».

قلت بازدرأ بعد أن أنهيت إفطاري المنقطع: من المؤسف أن الرجل لم يقل ما فعله وسيفعله مرة أخرى.

«سكوايرز يا مالك البور!» كان بامبلتشوك يخاطب المالك الآن قائلاً: «وويليام! ليس لدي أي اعتراض على ذكركم، سواء في وسط المدينة أو في أعلى المدينة، إذا كانت هذه هي رغبتكم، أنه كان من الصواب أن أفعل ذلك، ومن اللطيف أن أفعل ذلك، ومن الخير أن أفعل ذلك، وأنني خليق بأن أفعل ذلك مرة أخرى».

بهذه الكلمات صافحهم المحتال بكبرياء وغادر المكان؛ مما تركني مندهشاً أكثر من مسرور بسبب ذلك الـ «الفعل» الذي لم يسمّه. لم تأخر كثيراً عن مغادرة المكان بعده أيضاً، وعندما ذهبت إلى هاي ستريت رأيته متوجهاً (بنفس التأثير بلا شك) نحو باب متجره إلى مجموعة من النخبة، الذين كرموني بنظرات سلبية للغاية في أثناء مروري على الجانب الآخر من الطريق. ولكن، كان الأمر الممتع هو اللجوء إلى بيدي وجو، اللذين تألق صفحهما العظيم بشكل أكثر سطوعاً من ذي قبل، إذا كان ذلك ممكناً، على عكس هذا المدعي الوقح. توجهت نحوهما ببطء، لأن أطرافي كانت واهنة، ولكن مع شعور متزايد بالارتياح كلما اقتربت منهما، وإحساس بترك الغطرسة والكذب ورائي أكثر فأكثر.

كان الجو صافٍ في شهر يونيو. كانت السماء زرقاء، وكانت طيور القنابر تحلق عالياً فوق الذرة الخضراء، واعتقدت أن هذا الريف بأكمله

أكثر جمالاً وسلاماً مما عهدته من قبل. غررت بي العديد من الصور المبهجة للحياة التي كنت سأعيشها هناك، وللتغيير نحو الأفضل الذي كان سيحدث في شخصيتي وأنا لديّ روح مرشدة إلى جانبي، والتي أثبتت إيمانها البسيط وحكمتها الداخلية الواضحة. لقد أيقظوا فيّ مشاعر رقيقة؛ لأن قلبي قد رق بعودتي، وقد حدث مثل هذا التغيير بالصدفة، حتى إنني شعرت كأني شخص يسعى إلى منزله حافي القدمين من سفر بعيد، وقد دام تجواله سنوات عديدة.

لم يسبق لي أن رأيت مبنى المدرسة التي كانت بيدي معلمة فيها؛ لكن الممر الصغير الذي دخلت منه إلى القرية، بحثاً عن الهدوء، مر بجوارها. شعرت بخيبة أمل عندما وجدت أن اليوم كان يوم عطلة؛ لم يكن هناك أطفال، وكان منزل بيدي مغلقاً. كان لديّ أمل في رؤيتها، منشغلة بواجباتها اليومية، قبل أن تراني، لكن أُملي خاب.

كان دكان الحداد على مسافة قصيرة جداً، فتوجهت نحوه تحت أشجار الليمون الأخضر الحلو، مسترقاً السمع إلى قعقة مطرقة جو. بعد وقت طويل من سماعها، وبعد فترة طويلة من تخيلي أنني سمعتها، أدركت أنه مجرد خيال، وصار كل شيء ساكناً. كانت أشجار الليمون هناك، والأشواك البيضاء هناك، وأشجار الكستناء هناك، وكانت أوراقها تصدر حفيفاً بانسجام عندما توقفت عن الاستماع؛ لكن قرع مطرقة جو لم يكن في رياح منتصف الصيف.

كنت خائفاً تقريباً، دون أن أعرف السبب، من الوقوف على مقربة من دكان الحدادة، رأيت أخيراً، ورأيت أنه مغلق. لا وهج نار، ولا وابل من الشرر المتلائي، ولا هدير منفاخ؛ كل شيء صامت، وساكن.

لكن المنزل لم يكن مهجورًا، وبدأ أن حجرة الجلوس مفتوحة، حيث كانت هناك ستائر بيضاء ترفرف في نافذتها، وكانت النافذة مفتوحة ومزينة بالزهور المبهجة. توجهت نحوها بهدوء، وكنت أقصد أن ألقى نظرة على الزهور، عندما وجدت جو وبيدي أمامي، يداً بيد.

في البداية أطلقت ببدي صرخة، كما لو أنها ظنت أن هذا هو شبحي، لكنها وفي لحظة واحدة كانت في أحضاني. بكيت لرؤيتها فبكت لرؤيتي؛ بكيت أنا، لأنها بدت أنيقة وجذابة للغاية؛ وبكت هي، لأنني بدوت مرهقًا وشاحبًا للغاية.

- عزيزتي ببدي، كم أنت أنيقة!

- نعم، عزيزي بب.

- وجو، كم أنت أنيق!

- نعم، عزيزي القديم بب، أيها الصديق القديم.

نظرت إليهما، وانتقلت بنظري من أحدهما إلى الآخر، ثم...

صاحت ببدي بسعادة غامرة: إنه يوم زفافي! لقد تزوجت بجو!

اصطحباني إلى المطبخ، وأرحت رأسي على الطاولة الخشبية القديمة. وضعت ببدي إحدى يدي على شفتيها، بينما كانت لمسة جو الشافية على كتفي. قال جو: «ليس لديه القوة الكافية، يا عزيزتي، لمفاجأته هكذا» فقالت ببدي: «كان يجب أن أفكر في هذا الأمر يا عزيزي جو، لكنني كنت سعيدة جدًا» لقد كانا سعيدين للغاية برؤيتي، فخورين جدًا برؤيتي، متأثرين جدًا بقدمي إليهما، سعيدين جدًا لأنني أتيت بالصدفة لجعل يومهما مكملاً!

كان تفكيري الأول هو الشعور بالامتنان الشديد لأنني لم أتفوه بهذا
الأمل المحير الأخير لجو قَطُّ. وكم من مرة، وهو معي في مرضي، كاد
يخرج إلى شفتي! كم كان علمه بذلك أمرًا لا رجعة فيه، لو بقي معي ساعة
أخرى فقط!

قلت: عزيزتي بيدي، لديك أفضل زوج في العالم كله، ولو كان في
وسعك رؤيته بجانب فراشي لكنت... لكن لا، لا يمكنك أن تحبيه أكثر
من هذا.

قالت بيدي: لا، لا أستطيع ذلك بالفعل.

- وعزيزي جو، لديك أفضل زوجة في العالم كله، وسوف تجعلك
سعيدًا كما تستحق، أيها العزيز، الطيب، النبيل!
نظر جو إليّ بشفة مرتعشة، ووضع كُمه أمام عينيه.

- أقول لكليكما يا جو ويا بيدي، بما أنكما ذهبتما إلى الكنيسة اليوم،
وأنتما تودّان وتحبان الناس كلها، فلتقبّلا شكري المتواضع على
كل ما فعلتماه من أجلي، الذي بادلته بالإساءة! وعندما أقول
إنني سأغادر خلال ساعة، لأنني سأسافر قريبًا إلى الخارج، ولن
أرتاح أبدًا حتى أرد المال الذي أبقيتماني به خارج السجن وأرسله
إليكما، لا أعتقد، عزيزي جو وبيدي، أنني إذا استطعت أن أرد
ألف مرة، أن يساوي ربع الدين الذي أدين لكما به، وسأفعل ذلك
إذا استطعت!

لقد رق كلاهما لهذه الكلمات، وطلبا مني ألا أقول المزيد.

- لكن يجب أن أقول المزيد. عزيزي جو، أتمنى أن يكون لديك
أطفال تحبهم، وأن يجلس طفل صغير في زاوية المدفأة هذه في

ليلة شتوية، والذي قد يذكرك بطفلٍ صغيرٍ آخر خرج منها إلى الأبد. لا تقل له يا جو إنني كنت ناكراً للجميل؛ لا تقولي له يا بيدي إنني كنت نذلاً وظالماً؛ فقط أخبراه أنني أبجلكما، لأنكما كنتما طيبين وصادقين، وأنه، كطفلكما، سيكون من الطبيعي أن يكبر ليصير رجلاً أفضل مني بكثير.

قال جو من خلف كُمة: لن أقول له شيء من هذا القبيل يا بيب. ولا بيدي. ولا أي أحد.

- والآن، على الرغم من أنني أعلم أنكما قد فعلتما ذلك بالفعل بقلبيكما الطيبين، أرجوكم أخبراني أنكما تسامحاني! أرجوكم دعاني أسمعكما تقولان هذه الكلمات، حتى أتمكن من حمل دويها معي بعيداً، وبعد ذلك سأكون قادراً على الاعتقاد أنه يمكنكما الوثوق بي والتفكير بي بشكل أفضل في المستقبل!

قال جو: يا عزيزي بيب، أيها الصديق القديم. يعلم الله أنني أسامحك، إذا كان لديّ ما أسامحك من أجله!

رددت بيدي: آمين! والله يعلم أنني أسامحك!

- والآن، اسمح لي أن أصعد وألقي نظرة على غرفتي الصغيرة القديمة، وأستريح هناك بضع دقائق وحدي. وبعد ذلك، عندما أكل وأشرب معكما، اذهبا معي حتى لافتة القرية، يا عزيزي جو وبيدي، قبل أن نقول وداعاً!

لقد بعث كل ما أملك، وادخرت قدر ما أستطيع من أجل التوصل إلى تسوية مع الدائنين، الذين أعطوني متسعاً من الوقت لسداد مستحقاتهم بالكامل، وخرجت وانضمت إلى هيرت. وفي غضون شهر، كنت قد

غادرت إنجلترا، وفي غضون شهرين كنت موظفًا لدى شركة كلاريك آند كو، وفي غضون أربعة أشهر توليت أولى مسؤولياتي الكاملة. لأن العارضة الخشبية الموجودة عبر سقف الردهة في ميل بوند بانك توقفت عن الاهتزاز تحت زمجرة بيل بارلي العجوز، وصارت في سلام، وسافر هربرت ليتزوج كلارا، وبقيت أنا المسؤول الوحيد عن الفرع الشرقي حتى أحضرها معه.

مرت سنوات عديدة قبل أن أصبح شريكًا في الشركة؛ لكنني عشت بسعادة مع هربرت وزوجته، وعشت ببساطة، وسددت ديوني، وحافظت على مراسلات مستمرة مع بيدي وجو. لم يفش كلاريك سري لهربرت إلا بعد أن أصبحت شريكًا في الشركة؛ حيث أعلن بعد ذلك أن سر شراكة هربرت ظل يثقل على ضميره لفترة طويلة، ويجب عليه أن يفشيه. هكذا روى الأمر، وقد تأثر هربرت بقدر ما اندهش، ولم تتأثر صداقتنا أنا ورفيقي العزيز بسبب طول الكتمان. يجب ألا أترك الأمر للافتراض بأننا صرنا يومًا ما شركة عظيمة، أو أننا كنا نسك العملة. لم تكن تجارتنا ضخمة، ولكن كان لدينا سمعة طيبة، وعملنا من أجل الربح، وأبلىنا بلاءً حسنًا. نحن مدينون بالكثير لمثابرة هربرت واستعداده المبهج، إلى درجة أنني كثيرًا ما تساءلت كيف جاءت لي تلك الفكرة القديمة عن افتقاره إلى الكفاءة، إلى أن أثار بصيرتي فكر ما ذات يوم، وهو أن هربرت ربما لم يكن يومًا يفتقر إلى الكفاءة، ولكنني أنا من افتقرها.

الفصل التاسع والخمسون

على مدار أحد عشر عامًا، لم أرَ جو أو بيدي بعيني، على الرغم من أنهما كانا يشغلان خيالي في كثير من الأحيان وأنا في الشرق، عندما، في إحدى أمسيات شهر ديسمبر، بعد ساعة أو ساعتين من حلول الظلام، وضعت يدي برفقٍ على مزلاج باب المطبخ القديم. لمستته برفقٍ شديدٍ إلى درجة أنه لم يسمعني أحد، ودخلت دون أن يراني أحد. هناك، كان جو يدخن غليونه في مكانه القديم بجوار ضوء نار المطبخ، معافى وقويًا كعادته، على الرغم من أن شعره قد خطه بعض الشيب، جلس جو؛ وهناك، محاصرًا في الزاوية بساق جو، وعلى كرسيي الصغير وناظرًا إلى النار، كنت أجلس أنا مرة أخرى!

قال جو مبتهجًا عندما أخذت كرسياً آخر وجلست بجوار الصبي (دون أن أجعد شعره): «أسميناه بيب على اسمك أيها الصديق القديم، وكنا نأمل أن يصير مثلك قليلاً، ونحن نعتقد أنه صار كذلك بالفعل».

اعتقدت ذلك أيضًا، واصطحبته للتنزه في صباح اليوم التالي، وتحدثنا كثيرًا، وفهم بعضنا بعضًا على أكمل وجه. وأخذته إلى باحة الكنيسة، ووضعت على شاهد قبر معين هناك، وأراني من ذلك الارتفاع الحجر الذي كان مقدسًا لذكرى فيليب بريب، الراحل من أهل الرعية، وكذلك جورجيانا، زوجته.

قلت لبيدي عندما تحدثت إليها بعد العشاء بينما كانت ابنتها الصغيرة تنام في حجرها: «بيدي، يجب أن تعطيني بيب في يوم من الأيام؛ أو تعيريني إياه بأي حال من الأحوال».

قالت بيدي بلطف: لا، لا. يجب أن تتزوج.

- هكذا يقول هربرت وكلارا، ولكنني لا أعتقد أنني سأفعل ذلك يا بيدي. لقد استقررت في منزلهما إلى درجة أن هذا صار غير محتمل على الإطلاق. أنا بالفعل أعزب كبير في السن.

نظرت بيدي إلى طفلتها، ووضعت يدها الصغيرة على شفتيها، ثم وضعت اليد المليئة بالأمومة والتي لمستها بها في يدي.

كان هناك شيء ما في فعلها هذا، وفي الضغط الخفيف لخاتم زفافها، فيه بلاغة جميلة جدًا.

قالت بيدي: عزيزي بيب، هل أنت متأكد من أنك لست حائناً بسببها؟

- أوه لا، لا أعتقد ذلك يا بيدي.

- أخبرني كصديقتك القديمة. هل نسيتها تمامًا؟

- عزيزتي بيدي، لم أنس شيئاً ترك أثراً هائلاً في حياتي قط، ولم أنس

سوى القليل مما كان له مكان هناك. لكن هذا الحلم البائس، كما

اعتدت أن أسميه ذات مرة، قد انتهى يا بيدي، لقد انتهى كل شيء!

ومع ذلك، علمت، وأنا أقول هذه الكلمات، أنني كنت أنوي سرّاً

زيارة موقع المنزل القديم في ذلك المساء، وحدي، من أجلها. نعم، حتى

مع ذلك. من أجل إستيلا.

لقد سمعت أنها تعيش حياة تعيّسة للغاية، وأنها منفصلة عن زوجها الذي استغلها بقسوة شديدة، والذي أصبح مشهورًا جدًا باعتباره مزيّجًا من الكبرياء والجشع والوحشية والخسة. وقد سمعت بوفاة زوجها إثر حادث ناتج عن سوء معاملته لحصان. برئت منه قبل عامين تقريبًا. كل ما أعرفه أنها تزوجت مرة أخرى.

أتاحت لي ساعة الغداء المبكرة في منزل جو متسعًا من الوقت، دون الإسراع في حديثي مع بيدي، للمشي إلى البقعة القديم قبل حلول الظلام. ولكن، مع التسكع في الطريق للنظر إلى الأشياء القديمة والتفكير في الأوقات القديمة، كان النهار قد شارف على الانتهاء تمامًا عندما وصلت إلى المكان.

لم يعد هناك منزل الآن، ولا مصنع جعة، ولا أي مبنى متبقٍّ، سوى سور الحديقة القديمة. كانت المساحة التي أُخليت محاطة بسيّاح خشن، ونظرت إليها، ورأيت أن بعض نباتات اللبلاب القديمة قد ضربت بجذورها من جديد، وكانت تنمو باللون الأخضر فوق أكوام منخفضة هادئة من الأطلال. كانت هناك بوابة مواربة في السيّاح، فدفعتها ودخلت. كان ضباب فضي بارد قد حجب الليل، ولم يكن القمر قد وصل بعد ليبدّده. لكن النجوم كانت تتلألأ خلف الضباب، وكان القمر ييزغ، ولم يكن المساء مظلمًا. كان في إمكاني أن أعرف أين كان كل جزء من المنزل القديم، وأين كان مصنع الجعة، وأين البوابات، وأين البراميل. لقد فعلت ذلك، وكنت أنظر على طول ممشى الحديقة المقفر، عندما رأيت شخصًا يقف وحيدًا هناك.

بدا على الشخص أنه على دراية بي، مع تقديمي. كان يتقدم نحوي، ثم

توقف. وعندما اقتربت أكثر، رأيت أنها امرأة. وبينما كنت أقترّب أكثر، كانت على وشك الابتعاد، عندما توقفت، وسمحت لي بالوصول إليها. ثم تعثرت، كأنما من فرط المفاجأة، ونطقت باسمي، وصحت أنا:

- إستيلا!

- لقد تغيرت كثيرًا. أندهش أنك عرفتني.

لقد ذهبت بالفعل نضارة جمالها، لكن بقي بهاؤها وسحرها اللذان لا يوصفان. تلك عوامل الجذب فيها، التي رأيتهما من قبل؛ ما لم أره من قبل هو الضوء الحزين والخفيف للعينين اللتين كانتا متغطرستين ذات يوم؛ ما لم أشعر به من قبل هو اللمسة الودودة لليد التي كانت عديمة الإحساس. جلسنا على مقعد قريب، وقلت: بعد سنوات عديدة، من الغريب أن نلتقي مرة أخرى يا إستيلا، هنا حيث كان لقاءنا الأول! هل تعودين إلي هنا كثيرًا؟

- لم آتِ إلي هنا منذ ذلك الحين.

- ولا أنا.

بدأ القمر في السطوع، وفكرت في النظرة الهادئة إلى السقف الأبيض، التي كانت على وجه ماجويتش وقت مماته. بدأ القمر في السطوع، وفكرت في الضغط على يدي عندما نطقت له بآخر كلمات سمعها على وجه الأرض.

كانت إستيلا هي من كسرت حاجز الصمت الذي أعقب ذلك بيننا.

- لقد كنت آمل أن أعود، واعتزمت العودة في كثير من الأحيان، لكن ظروفًا كثيرة منعتني. مكان قديم بئس، بئس!

لامست أشعة القمر الأولى الضباب الفضي، ونفس الأشعة لامست
الدموع التي انحدرت من عينيها. قالت بهدوء، وهي لا تعلم أنني رأيته،
وهيأت نفسها للتغلب عليها:

- هل تساءلت، في أثناء سيرك، كيف تُرك في هذه الحالة؟

- نعم يا إستيلا.

- الأرض ملك لي. إنها الملكية الوحيدة التي لم أتخل عنها. كل
شيء آخر ذهب مني شيئاً فشيئاً، لكنني احتفظت بهذا المكان. لقد
كان جوهر المقاومة الشديدة الوحيدة التي قمت بها خلال كل
السنوات البائسة.

- هل سيتم البناء عليه؟

«أخيراً، سيتم ذلك. لقد جئت إلى هنا لوداعه قبل التغيير»، ثم قالت
معبرة عن اهتمام مثير برحالة مثلي: وأنت، هل ما زلت تعيش في الخارج؟
- ما زلت.

- وأنت في خير حال، أنا متأكدة؟

- أنا أعمل بجدّ للحفاظ على مستوى معيشة جيد، وبالتالي، نعم، أنا
في خير حال.

قالت إستيلا: لقد فكرت فيك كثيراً.

- حقاً؟

- كثيراً في الآونة الأخيرة. لقد مر وقت عصيب طويل عندما أبعدت
عن نفسي ذكرى ما ألقيته عندما كنت جاهلة تماماً بقيمته. ولكن

بما أن واجبي لا يتعارض مع الاعتراف بهذه الذكرى، فقد أعطيها مكاناً في قلبي.

أجبتها: لقد احتلتِ دائماً مكانك في قلبي.

وصمتنا مرة أخرى حتى تحدثت هي.

قالت إستيلا: لم أفكر قط في أنني سأودعك مع هذا المكان. أنا سعيدة جداً للقيام بذلك.

- هل أنت سعيدة لفراقي مرة أخرى يا إستيلا؟ بالنسبة إليّ الفراق شيء مؤلم. بالنسبة إليّ، كانت ذكرى فراقنا الأخير الأتعبس والأكثر إيلاًماً على الإطلاق.

ردّت إستيلا بجديّة شديدة: «لكنك قلت لي: بارك الله فيك، وغفر الله لك!» وإذا كان في إمكانك أن تقول لي ذلك حينها، فلن تتردد في قول ذلك لي الآن، الآن، بعد أن أصبحت المعاناة أقوى من كل التعاليم الأخرى، وعلمتني أن أفهم ما كان عليه قلبك. لقد التويت وانكسرت، ولكن - كما آمل - كي أصير في قالب أفضل. كن متفهماً ولطيفاً معي كما كنت، وأخبرني أننا أصدقاء.

قلت، وأنا أقف وأنحني فوقها، وهي تنهض من المقعد: نحن أصدقاء.

قالت إستيلا: وسنظل أصدقاء رغم الفراق.

أخذت يدها في يدي وخرجنا من الأطلال. وكما كان ضباب الصباح قد انقشع منذ فترة طويلة عندما غادرت دكان الحدادة لأول مرة، كذلك كان ضباب المساء ينقشع الآن، وفي رحاب الضوء الهادئ الذي انكشف لي، لم أر ظلاً لفراق آخر عنها.

